إنتماء فلسطين

بين دعاوى التوراتيين

وحقائق الماضي والحاضر

تأليف

جواد بحر

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الناشر

مركز دراسات المستقبل

فلسطين- الخليل

الإهداء

إلى زوجتي الكريمة البارّة الوصولَة الأستاذة تغريد عوني سلطان حفظها الله تعالى التي أسهمت في توفير البيئة المناسبة لكتابة هذا البحث وأعانتني في بعض الترجمات من اللغة الإنجليزية حتى اكتمل البحث بصورته التي يراها القارئ.

وإلى أبنائي الأحبة..

الطالبة المجتهدة المتفوقة أسماء

والشاب العابد الجادّ محمود

والفتاة المهذبة فاطمة

والصبي الوديع يحيى

والطفلة الواعدة هدى

حفظهم الله تعالى

فلعلكم جميعاً: زوجتي وأبنائي وبناتي الأحبة، تعذروني على تقصيري معكم، حين تعرفون أن هذا الكتاب ثمرة ذلك التقصير.

المقدمة

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد:

فلقد أخذ الصراع على فلسطين في العصر الحديث بين الفلسطينيين والعرب والمسلمين من جهة، وبين إسرائيل من جهة أخرى، ومن ورائها الحضارة الغربية؛ أخذ بُعداً فكرياً وتنظيرياً، قائما على رؤىً يطرحها كل فريق، فحوى هذه الرؤى لدى كل من الفريقين: أن فلسطين أرض خاصة به، وهي له دون الناس أجمعين، وألا حق لأحد فيها إلا له.

والحقُّ المُدَّعى فيها من كل فريق من الفريقين، هو حقٌّ شامل، لا يرضى صاحبُه بأقل من السيادة السياسية التامة، وما يتبعها من حق الدفاع عن النفس، وما يوازيها من حقوق المقام والسكنى والاستيطان..إلخ

جميع هذا الذي مضى، دعا كُلاً من الفريقين إلى حشد ما يملك من قوىً تنظيرية، لأجل إثبات استحقاق نفسه هو دون سواه من الناس لهذه الأرض، وقام كل من الفريقين باستدعاء علوم شتى ليوظفها في خدمة رؤيته التي يراها، وكان ما كان، من حشود في المجالات الإعلامية والتربوية والتعليمية والتعبوية كافة، وصارت قضية انتماء فلسطين أهمَّ قضية تنشأ مع الطفل في بيته، وتسير معه إلى مدرسته، ويكبر عليها في جامعته ومصنعه ومتجره ومزرعته ومعسكره، وينافح عنها في ميادين الفكر والممارسة، حتى إنه لَيَعُدُّ نفسه في دركة من دركات التقصير إن لم يتبنَّ الحدَّ الأدنى من رؤية قومه، وفلسفتِهم الخاصة في متعلقات هذه المسألة، وحتى إن التمييز بين الناس في مجتمعه يقوم على أسس، من أهمها: مدى تبنِّيه للرؤى التي يراها بنو قومه فيما يتعلق بهذه المسألة، حتى بلغ الأمر أن دعايات الاستقطاب في مجتمعَي كل من أصحاب الرؤيتين، تدور على محور واحد، هو ما يملكه

كل منهما من رصيد في خدمة رؤية قومه في المسألة ذاتها، بغض النظر أحيانا عن شكل هذه الخدمة.

وطُرحت النصوص الدينية التي استدعاها كل فريق حسب دينه، لتؤيد هذه النصوص صاحب الدعوى، ولتحدد فلسفته في التعامل مع المطروح في هذا الباب...

كل ذلك لأجل تحديد انتماء فلسطين، ولأجل أن تقول هي شيئا حول انتمائها..

فماذا قالت فلسطين، وماذا قالت فلسفة الحق، وعمَّ تحدث التاريخ، وماذا قذفت الأرض من شواهد في معمعان لا يصلح له إلا صدق الدعوى وجدِّيَّتُها وعِلميَّتُها؟

وقفنا على كل ذلك في هذا البحث، فأعلنت النصوص الدينية رؤاها، من بين حق وباطل، محَّصناها فوقفنا على الحد الفاصل بين الحق والباطل فيها؛ وتحدثت الأرض حديثها، فأقبل السامعون، فإذا بها تعلن عن انتمائها، فسجلناه هنا في بحثنا هذا، ولو قيل: إن ثمة أشياء لا يجوز أن تكتب إلا بماء الذهب وحروف النور، لكان من هذه الأشياء حديث الأرض، ذلك أنها قالت وأجادت، وكانت لها فصاحة الحق، رغم تلف اللسان(١)، وألقت من خلف القرون كثيرا من أسرارها التي كانت تضن بها فيما مضى، والمظنون بها أنها ستطلق سراح كل مخبآتها، حتى تواصل مسيرة النطق بالحق المبين.

ماذا قالت فلسطين؟ وإلى أي الأمتين تنتمي فلسطين؟وهل ثمة محاولات تزويرية، حاولت أن تلوي عنق الحقيقة، أو أن تُقوِّل الأرض غير ما تحب أن تقول هي؟

ستعرف كل ذلك إذا ما غُصْتَ في هذا البحث، من أوله إلى آخره.

ولسوف يتضح لك من خلال ما سترى بمشيئة الله أن فلسطين ذات انتماء واحد، هو الانتماء إلى العروبة والإسلام، وسترى مدى مابُذل من جهود فكرية وتاريخية وآثارية غربية، لأجل أن تقول الأرض ما يخالف مخزونها التاريخي الكبير، ولأجل تحويل انتمائها في

---

(١) أعني هنا بتلف اللسان، ما يمكن أن توصف به الآثار الباقية التي كاد يقتلها دوران الزمان، وعوامل التعرية، التي جعلت كثيرا من الماثل من الماضي، يكاد يزول لولا سرعة اكتشافه.

النهاية إلى منظومة أسطورية لا تعرفها.

إن فِرَق المُدَّعين بغير حق ينتمون إلى الحضارة الغربية، بمقولاتها وأسس تفكيرها، وهم يتفقون على شيء واحد لم يجد له سندا، ألا وهو دعوى أن فلسطين ذات تاريخ واحد هو تاريخٌ إسرائيليٌّ الانتماء، توراتيٌّ الجوهر، ((فمنذ أن بدأت الغزوة الصهيونية الأوروبية على فلسطين، والجهود الصهيونية مستمرة لتشويه تاريخ فلسطين، **بهدف أن تجعله تاريخا إسرائيليا لتثبيت مزاعمها**، وهكذا رأينا عمليات القفز إلى حقب تاريخية قديمة، عبر مئات السنين، ورأينا محاولات تضخيم مكانة اليهود في فلسطين وإغفال غيرهم، ورأينا التعسف في تفسير الأحداث انطلاقا من الهوى الصهيوني))(١).

إن جزءا كبيرا من مشكلة الحق في هذا الوطن العزيز، هو ضعف الإمكانيات وتراجع القدرات، وقلة المتخصصين الآثاريين العرب، الذين هم المسؤولون قبل غيرهم عن تجلية حقيقة التاريخ الفلسطيني، وهو تقصير يدمغ بطابعه قطاعات كثيرة من قطاعات العمل الثقافي والسياسي معاً؛ يقول المؤرخ والسياسي والمجاهد العربي الفلسطيني الكبير أكرم زعيتر : تعالى: ((**إن إسرائيل قد استعانت على اغتصاب بلادنا بتزييف الحقائق، أكثر مما عُنينا نحن بإيضاحها**))(٢).

وإن جزءا آخر من المشكلة يتعلق بالأنظمة العربية، التي تبذل الكثير في المؤتمرات غير ذات النتيجة، وتترك قضية هي محور الصراع في هذه المنطقة دون أن تَبذل لأجلها، في مجالات الفكر والآثار والتاريخ المتعلقة بها، البذلَ الكافي.

---

(١) المؤرخ العربي الفلسطيني الكبير الأستاذ الدكتور أحمد صدقي الدجاني، في بحثه: (ملاحظات على تطور حياة اليهود في فلسطين، حتى الفتح العربي الإسلامي)، ضمن أبحاث المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام (فلسطين)، (١٣١/٣)، وقد نُشرت بالتعاون بين الجامعة الأردنية واليرموك، وسيشار إلى هذا المرجع فيما بعد كما يلي: ملاحظات على تطور حياة اليهود في فلسطين، للدكتور الدجاني، مع ذكر رقم مجلد أبحاث المؤتمر المشار إليه ورقم الصفحة.

(٢) نقلا عن مقدمة الدكتور أحمد سوسة لكتابه العرب واليهود في التاريخ، (٥٨).

وإن الشعوب العربية والإسلامية مسؤولة مسؤولية كبرى عن هذا الخلل المُخجل، فهي تبذل الأموال الطائلة من أجل حفلات غنائية ومن أجل ملاعب الرياضة، دون أن تتبنى خطة في خدمة قضيتنا هذه.

ولولا جهود قليل من العلماء العرب والمسلمين، عبر منتديات ومؤتمرات تعقدها جامعات ومراكز بحوث عربية وإسلامية، وعلى صفحات كتب وبحوث ومقالات نشروها هنا وهناك، ظهر عليها أثر الضعف المادي، فلم تستطع أن تصل إلى كل من يجب أن تصل إليه، من طلاب العلم وصُنّاع القرار السياسي وذوي الانتماء العروبي أو الإسلامي، أو العروبي الإسلامي؛ ولولا ما قد حصل أخيرا من نطق بعض علماء الغرب المتخصصين، بعد أن كانوا في طائفة الساكتين عن الحق؛ ولولا اعتراف جماعة من الباحثين اليهود بحقيقة ما بثَّته الأرض من أسرارها القديمة؛ لولا كل ذلك، لباتت الشائعة الصهيونية في مكان صدق تُحسد عليه.

أما وقد نطق الساكت بعد طول سكوت، أما وقد بثَّت الأرض بعض مخزونها، أما وقد تحدث بعض الآثاريين الإسرائيليين بما أفحم الإسرائيليين، فإن للبحث حينها مذاقا آخر..

إن جوانب القضية بدت ماثلة بعد طول توارٍ، وإن الدعاية الإسرائيلية بدأت تتراجع تراجعا أخاف الحاخامات، فأنطقهم بما يدلّ على إصرارهم على الأساطير، إلا القليل منهم.

أما الأقصى، ودعوى الهيكل المهدوم أو المزعوم، فلم تزل حاضرة تستقطب الشواهد، وغاصت الأحافير، حتى لتكاد تهوي بجدران الأقصى المبارك على الأرض، لكن الأحافير لم تقل إلا شيئا واحدا: إن ما تدَّعيه الصهيونية زور وبهتان، فلا هيكل، بل لا شيء سوى مسجد عرفه الماضي والحاضر، أما الهيكل، فلم يفز بشاهد.

ولا يزال العقلان اليهودي والبروتستانتي يؤسسان في نفوس أتباعهما أن ثمة وعدا من الله لليهود بهذه الأرض، ولكن هذه الدعوى لم تفز بغير نصوص التوراة المتضاربة، والتي

ترسم صورة ربٍّ منحاز لقوم دون قوم، وتتحدث عن رب متناقض يُخلف الميعاد.

إنه ليس رب العزة سبحانه، وإنما هو خيال نال في العقل الصهيوني مكانة ربٍّ.

وعليه، فلم تغب التوراة عن ميدان هذا الصراع الفكري، بل تقدمت بكل ما تملك، ولكنها، وهي في زحمة النقاش الديني والتاريخي واللغوي والآثاري والعلمي، بدت عاجزة عن إثبات نفسها، وحامت شكوك قوية حول ما تدّعيه من أحداث في التاريخ القديم لفلسطين، حتى إنها ضُربت تاريخيا في عقر دارها، وأصابها حارسها اليهودي والبروتستانتي بضربات في القلب، فلم تعُد قادرة على القيام!

إنه اكتُشف أن التوراة الحالية المزوَّرة هي المتهم الأول في عمليات سلب الأرض وقتل السكان وطرد الشعب، وهي المتهم الأول في عمليات تزوير كثير مما قيل إنه حدَثَ في التاريخ، مما أثبت التاريخ والآثار معاً عدم حدوثه؛ ولذا، فإن الملاحقةَ العلمية حصرتها في قصور الخرافات ومهالك الأساطير، ولقد ألْقت بها الملاحقات التاريخية والآثارية والقانونية المتواصلة في قفص اتهام متين القضبان!

وعليه، فسيرى القارئ الكريم أننا لم نعتمد إطلاقا على شيء من التوراة لإثبات حدث تاريخي، أو حقيقة تاريخية، فلقد ثبت لنا، كما سيأتي معنا في باب خصصناه لهذا الموضوع، أن التوراة الحالية أقل شأنا بأشواط وأشواط، من القدرة على إثبات نفسها، فكيف يَثْبت بها غيرها؟!

لكن هذا لا يعني أننا لا نذكر بعض نصوص التوراة أحيانا فيما نرى أنه من باب إلزام اليهود بما تذكره هي في بعض الموضوعات.

إننا انطلقنا في بحثنا هذا عن الحقيقة من منطلقها الذي بإمكانه أن يكون شاهد عدل في موضوعها، وسلكنا مسلكا لا يلومنا عليه أحد، إلا من أصر على كبريائه، وأبى الاستماع إلى صوت الحقيقة.

إنني هنا أنافح عن الحقيقة، وأدافع عن المصداقية، وأطالب الباحثَين اليهودي

والبروتستانتي أن يفعلا مثلما فعلت.

إنني لا أثير العُدوان على العهد القديم، ولكنني دائما أتساءل: هل مضمون العهد القديم يملك دليلا لإثباته، أو هل فاز بشاهد يشهد له من خارجه أو من داخله؟

فإن لم يملك هذا الدليل، فعلامَ إذن يرتكز عليه مُدَّعو الحق في هذه الأرض المقدسة من اليهود؟

إن شهادات كثير من اليهود، من مؤرخين وآثاريين ومفكرين، من أمثال زئيف هيرتسوغ وإسرائيل فنكلشتاين وناداف نيعيمان وسواهم، إن كل هذه الشهادات وسواها، دحرت التوراة الحالية إلى المقعد الخلفي، ثم طردتها إلى خارج حافلة التاريخ، فليست هي أول من يجب أن ينطق، أو آخر من يجب أن يحكم، هكذا قالت البحوث العلمية، فماذا أفعل لها إذن وقد قالت ما قالت؟!

ولسوف يرى القارئ قضايا مطروحة هنا، تستند على أرضية فكرية لا تصلح إلا لمخاطبة العقل المسلم، وذلك لطبيعتها المرتبطة بالوحي الذي لا يؤمن به إلا المسلم، غير أننا ملّكْنا القارئ المسلم في الوقت ذاته قدرة تصلح في تقديرنا لمخاطبة العقل العلماني، وحتى العقل اليهودي، أو المتهوّد، حتى في القضايا المتعلقة ابتداءً بالعقل المسلم وأسس تفكيره، ذلك أننا في هذه القضايا أكّدنا أن غير المسلم لا يملك إجابة قادرة على الثبات، يستطيع أن يقوم عليها فكره، ولا يملك أصولا سالمة من التزوير تصلح أن يؤسس لتفكير سليم.

ليس الأمر أننا نرفض التوراة لكونها كتابا دينيا أو لكونها كتابا يهوديا، في الوقت الذي نقبل القرآن، إذ سوف يقول لنا القائل: إن كنت رفضت تدخل التوراة، فهلا رفضتَ تدخل القرآن؟ ولسوف يُخطِّئنا التوراتي لانحيازنا إلى مقررات القرآن، مع رفضنا انحيازه إلى التوراة..

أقول: من حق البحث العلمي أن يطرح هذا السؤال، ولا بد أن له الحق في سماع

الجواب عنه..

إن رفضنا لشهادات التوراة لم ينطلق من أنها يهودية، أو أنها شهادات تعتمد الـــدين مصدرا للمعرفة، بل إن رفضنا لهذه الشهادات قائم على البحث العلمي نفسه، فهو الذي طالب التوراة أن تُبعِد نفسها عما لا تصلح له، أعني: عن إثبات الحقائق، إذ الخرافة، وقد ثبتت هيمنتُها على التوراة، لا تمتلك القدرة على إثبات الحقيقة، ففاقد الشيء لا يعطيه.

لكننا لم نرَ ما قيل عن التوراة وارِدا في شيء من آيات الله تعالى في القـــرآن الكـــريم والسنة الصحيحة.

إن الأمر جدٌّ مختلف فيما بين التوراة والقرآن، فلقد تضمَّن القرآن مئات من الآيـــات الكونية، التي جاء العلم الحديث يؤكِّد مصداقيتها، فكانت سببا في إسلام جماعات مـــن العلماء الغربيين أنفسهم؛ أما التوراة، فقد كانت سببا في إعلان جماعات أخرى رفضـــها لها، رغم أن بعضهم يهود، ومنهم من أشهر إسلامه، كما قد حصل مع أحمـــد فـــارس الشدياق اللبناني، الذي كُلِّف من قِبل الهيئات الرسمية اللاهوتية بترجمة التوراة إلى العربيـــة في القرن التاسع عشر، غير أنه بعد أن قام بترجمتها أعلن إسلامه، وسمى نفســـه: أحمـــد، ولهذا السبب لم تُعتمد ترجمته للتوراة إلى العربية.

إن القرآن كسب كثيرا من أهل العلم بذاته، وإن التوراة خسرت الكثير من أهل العلم لذاتها، وشتان بين خاسر للعلم وأهله وبين كاسب!

لكل هذا: نعتمد القرآن ولا نعتمد التوراة!

ثم إنني هنا أؤكد أمرا ذا أهمية كبرى: إن اليهود في حقيقة الأمر ليسوا سوى أدوات المشروع الغربي الاستعماري، القائم على القوة المنفصلة عن الحق، وإننا مهمـــا أثبتنـــا أن الأرض أرضنا، وألا حق لليهود فيها، فإن القضية في نهاية المطاف قضية قـــوة مهيمنـــة، انتزعت نفسها من ميدان الحق، وألقت بذاتها في ميدان الباطل؛ **وإننا مهما أثبتنا باطـــل دعاويهم في أرضنا، فإنهم لن يأتونا معتذرين قائلين: قد اكتشفنا أنها لكم لا لنا، ولـــذا**

فاسمحوا لنا بالخروج منها، لأن الحق أحق بالاتباع، وخذوا أرضكم، وسنبحث قضية التعويض عن الإيذاء الذي لحق بكم!

ثم إن بحثنا هذا ينطلق من منطلق ضرورة أن يتعرف الفلسطيني والعربي والمسلم على حقيقة هذا الانتماء الذي تتمتع به الأرض المقدسة؛ لكننا نود أن نذكر القارئ أن الحق لا ينتصر بمجرد التعرف عليه، وإنما الأمر أكبر من ذلك بكثير، وهو يحتاج إلى طاقات الأمة مجتمعة، لكن عدم تحرك الأمة التحركَ المطلوبَ، لا يمنع ضرورة التعرف على الحق والحقيقة.

و لم نر في هذا البحث طريقة السرد التاريخي المتواصل للأحداث القديمة في فلسطين، و لم نلتزم فيه بذكر تفصيلات هي أقرب إلى كتب التاريخ منها إلى موضوع البحث، ذلك أن مقصدنا هنا ليس أن نستعرض تاريخ فلسطين من ناحية: ماذا حصل فيها من أحداث، بل من الناحية التي نكتشف فيها الهوية الحقيقية لها..

ومع ذلك، فلا تخلو صفحاتنا هنا من ذكر أحداث من التاريخ الفلسطيني القديم، لكنها تأتي في إطار ما يمكن أن نسميه: الأدوار العملاقة التي مرت بها فلسطين في تاريخها القديم، ونقصد بالعملاقة هنا: تلك التي تعبر عن حقيقة الهوية الفلسطينية.

لقد رأينا، كما سيتضح في صفحات البحث، أن ثمة ناسا انطلقوا في البحث عن فلسطين القديمة من قرارات قرَّروها، ثم طالبوا التاريخ الفلسطيني بالحديث عنها كما يحبون هم، لا كما تحب هي أن تقول، تماما كما يفعل رجال الإرهاب العالمي الذي تقوده أمريكا، فهم يقررون وصفا ما لبلد ما، ثم يسعون باحثين عن دلائل ما قرّروا، فإذا لم يجدوا ما يصلح دليلا، قاموا بالتزوير والكذب، ثم أعلنوا الحروب المدمِّرة.

هكذا عزيزي القارئ، فليس الأمر بعيدا بين فريق المؤرخين والآثاريين المقرِّرين مسبقا ما يريدون، وبين فريق القتلة، الذي يقررون قتل حضارة، وإزهاق أمة، ثم يبحثون عما يؤيد رؤيتهم القاضية بضرورة القتل.

الآثاري والمؤرخ المنطلِقان من الأساطير يقرران ما يشـاءان، ثم يرسـلان منقـبين (**عِلْميين**) لينسبوا إلى الأرض غير ما تعرف، ثم ليُبُثّا كل ما يريدان من ذلك في المنـاهج التعليمية والإعلام؛ والقاتل للأمم والحضارات، يقرر قتل من يشاء، ثم يرسل المفتّشين، ثم يعلن الحرب، ثم يقتل من يشاء.

هذا يرسل منقِّبين، وذاك يرسل مفتشين، وتستطيع أن تسمي كل فريق باسم الفريق الآخر، فتقول: الآثاري والمؤرخ المُنطلق من الأسطورة يرسل مفتشين، ومعلن الحـروب على الأمم لسرقة خيراتها يرسل منقبين، فالأمر لا يختلف بين قاتل وقاتل! فكِلا الفـريقَين قاتل، فهذا يقتل الأمم، وذاك يقتل تواريخ الأمم وحضاراتها، ولو كانت محكمـة البشـر بأيدي المنصفين، لحاكمت كِلا الفريقين بالتهمة ذاتها.

إن الشعب الفلسطيني طُرد من أرضه لصالح من لا يمُتّون إلى هـذه الأرض بصـلة، فتحالف الطارد ومُحرّف التاريخ، ((فالمسؤولون عن إبعاد الشعب الفلسطيني عن أرضـه، وقهره اليوم وإنكار حقه في تقرير مصيره على أرضه ووطنه، هم أنفسهم الذين يحـاولون تحريف تاريخه وتراثه بشكل عام، ويسلبون إنجازاته الحضارية في الحاضر والماضي))[(١)].

دعني عزيزي القارئ من هذه السياحة الأليمة، وانطلق معي إلى الأرض، واستنطقها، وانظر: ماذا ستقول لك، وأنا أعِدك أن ألتزم تماما بما سـتدلي بـه أغوارهـا ونجودهـا وسفوحها وسهولها الفسيحة والفصيحة؛ فإن رأيت مني أو من سواي من سيلقن الأرض بما يريد، فاضرب بقولي وبقوله عرض الحائط، واعلم أن من يفعل ذلك لا يجري إلا وراء سراب، سيخبو قريبا.

ولا بد أن تعرف عزيزي القارئ أن مستند أولئك الذين يريدون تغيير حقيقة انتمـاء فلسطين هو التوراة، يهودا كانوا أو بروتستانت، فهم الذي عنيتُهم حين سميتُ الكتاب:

---

(١) فلسطين من أقدم العصور إلى القرن الرابع قبل الميلاد، للدكتور معاوية إبـراهيم، (ج٢/٤) المطبوع ضمن الموسوعة الفلسطينية، قسم الدراسات الخاصة؛ وسيشار إلى هذا المرجع فيمـا يـأتي: فلسطين من أقدم العصور، ويكون رقم الجزء والصفحة حسب ترتيب الموسوعة الفلسطينية.

انتماء فلسطين بين **دعاوى التوراتيين** وحقائق الماضي والحاضر، والغالب على معظمهم: العمل في ميدانَي التاريخ والآثار، ولبعضهم ميادين أخرى.

هذا، وأسأل الله تعالى أن يجعل من هذا البحث منارة تهدي إلى ما يرضاه رب العـــزة سبحانه، ليسهم في الدنيا بإرجاع قضايا الحق في فلسطين إلى نصابها، والأرض إلى نَسَبِها، وليكون لي في الآخرة ذخرا يجعل لي عند الرحمن مقاما، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

الباب الأول:

الصراع حول الماضي الفلسطيني

لم يكن الماضي محايدا في قضية الصراع على الحاضر الفلسطيني، بل إن الماضي، بالصورة التي يتبناها كل طرف من أطراف الصراع، موجود وبكثافة في هذا الصراع؛ لذا ترى كلا من أطرافه يطرح الماضي بالصورة التي تناسب الحاضر الذي يتبناه، وفي الأمر حق وباطل، وفيه تزوير من جهة، وفيه كشف للتزوير من جهة أخرى، وتنظير لقضايا الحق؛ ولا يمكن أن يكون هذا الماضي البعيد زمانيا بعيدا بشكل فعلي عن الحاضر، بل هو يطل برأسه كلما دهم أمر، ليقول قوله.

واجب هذا الباب أن يكشف عن المؤامرة على التاريخ الفلسطيني القديم، وعلى الحضارة الفلسطينية القديمة، وذلك في مواجهة ما يحاوله أرباب المنهج التوراتي من صرف الماضي الحضاري الفلسطيني القديم عن انتمائه الحقيقي، وهو بذلك يسهم في كشف الماضي الحقيقي لفلسطين.

الفصل الأول: مؤامرة تجريد فلسطين من ماضيها العربي(١)

إن العقل الغربي الأسطوري الذي حسب تقدير نفسه لنفسه، نجح في التغلب على أم الحقائق، وهي حقيقة وجود الله تعالى، فأنبت للبشر مذاهب الإلحاد، ثم لما اضطر هذا العقل أن يعترف بالله سبحانه، فإنه اعترف به على نحو يهودي توراتي، جعل الحق سبحانه مغلوبا أمام سطوة وجبروت يعقوبَ عليه السلام؛ إن هذا العقل الأسطوري الغربي هو نفسه الذي تجرَّأ، ولا يُستغرب منه ذلك، على إنكار كثير من الحقائق الأخرى، سواء كانت ذات تعلق حضاري أو سياسي أو اجتماعي..إلخ.

إن هذا التعامل مع أم الحقائق في العقل الغربي جعل سائر قضايا الحق تحت سطوة القوة الغربية غير الموضوعية، بل العارفة بالحق والكاتمة له في آنٍ واحد، ابتداء من الموقف من الحق سبحانه وتعالى، ومرورا بالقضايا المتعلقة بحقوق الشعوب، أياً كان انتماؤها، والتي منها موقفه من التاريخ الفلسطيني القديم، وذلك بدعوى الحق اليهودي بفلسطين المعاصرة، وانتهاءً بأبسط قضايا الحق، في أي مجال من مجالات الحياة.

فما دام الحق سبحانه وتعالى مصروعا أمام جبروت يعقوب عليه السلام، وحاشا

---

(١) لا بد أن ننبه القارئ الكريم إلى قضية مهمة، وهي أن اليهود يحاولون دائما أن يبينوا أن تاريخهم كان قبل التاريخ، وأنهم السابقون لغيرهم، مستندين على دعاوى التوراة، التي سندحض قدرتها على الادعاء، ولكننا هنا، سنشير فقط إلى استخدامهم دائما لقب: العبري، أو إطلاقهم لقب العبري على أنفسهم، وهم يقصدون من وراء ذلك، إرجاع أصلهم التاريخي إلى سيدنا إبراهيم، فهم يطلقون عليه لقب العبري، وعلى أنفسهم نفس اللقب، ليهم القارئ أنهم قدماء قدم إبراهيم عليه السلام، إذ إن «أحسن طريقة يمكن اتباعها لربط تاريخهم بأقدم العصور، ولجعل عصر اليهود متصلا بأقدم الأزمنة، هو استخدام مصطلح عبري أو عبيرو للدلالة على اليهود بوجه عام، وبذلك يكون تاريخ فلسطين تاريخا واحدا متصلا ومرتبطا منذ أقدم العصور بالشعب اليهودي»، تُنظر: الموسوعة الفلسطينية، القسم المعجمي، (١٨٧/٣).

يعقوب أن يظن بنفسه هذا الظن الشيطاني؛ فإن كل قضايا الحق حسب العقـــل الغـــربي تبقى مصروعة أمام الجبروت الغربي.

ولقد أعطى العقل الغربي لنفسه الحق في سرقة فلسطين القديمة، كما سيرى القـــارئ الكريم، وهذا ما سنطرحه في هذا الفصل عبر مبحثين اثنين، الأول حول تجريد فلســـطين من ماضيها العربي، وذلك بالسرقة المنهجية لتاريخ فلسطين القديم، وتحويل هذا التاريخ إلى ناطق يهودي توراتي، والثاني حول تقسيم التاريخ القديم لفلسطين، بل لغيرها أيضا تقسيما توراتيا.

المبحث الأول: تجريد فلسطين من ماضيها العربي

لم يسرق اليهودُ فلسطينَ الحاضرةَ فحسب، وإنما حاولوا سرقة الماضي الفلسطيني، ليبرروا قيام دولتهم الحالية؛ فهم ينظرون إلى الماضي الفلسطيني كما لو لم يوجد أصلا، وإن وُجد، فهو في اعتبارهم ماضٍ فقيرٌ حضارةً وعطاءً وازدهاراً، وإنما الموجودون في الماضي هم اليهود فحسب، وهم دون غيرهم، بزعم الإسرائيليين، الذين أعطَوا الأرض حقها من السخاء والثراء والازدهار الحضاري، فثمة وجود واحد، أو ثمة وجودٌ حضاريٌ واحد في الماضي الفلسطيني، هو الوجود اليهودي، هذا طبعا على زعم اليهود أنفسهم، مما اقتضى أن يتضمن بحثنا هذا الحديث في هذا الموضوع تحت هذا العنوان: تجريد فلسطين من ماضيها.

ونعني بتجريد فلسطين من ماضيها، ما يفعله اليهود والبروتستانت معاً، ومعهم كثير من أذيال الصهيونية، من تزويرات تتعلق بالماضي الفلسطيني، أو بالماضي الحضاري الفلسطيني، **بهدف أن يرسخوا في الأذهان أن فلسطين القديمة لم تكن إلا فلسطيناً إسرائيلية، أو أن الحضارة الفلسطينية القديمة لم تكن إلا حضارةً إسرائيليةً؛ ليصلوا من وراء ذلك إلى أن مَن مَلَك الماضي، أو الماضي الحضاري لفلسطين، فهو وحده صاحب الحق بملك الحاضر الفلسطيني؛ وبما أن الماضي الفلسطيني، أو الماضي الحضاري الفلسطيني هو ماضٍ إسرائيلي بزعمهم، فمن حق الحاضر الفلسطيني أن يكون حاضرا إسرائيلياً أيضا..**

ومن هنا جاءت الأبحاث المتعلقة بالماضي الفلسطيني، ومن هنا جاءت الجهود الكبيرة التي بذلها مشوِّهو التاريخ القديم لفلسطين، **إنهم لم يقصدوا إثراء البحث في قضايا التاريخ الفلسطيني، بل قصدوا شيئا واحدا هو: سرقة الماضي لتبرير سرقة الحاضر.**

إذن، فلقد هَيْمَن على الغرب هذا المنهج في البحث الأثري، المتعلق بالماضي

الفلسطيني، وذلك من أجل أن يُنَظِّر للوجود اليهودي الحالي، تأسيسا على أنه مسبوق بوجود يهودي قديم، يبرر لليهود المعاصرين حقا حاضرا.

ولقد تأثر هذا المنهج الأثري، بل منهج البحث عامة في التاريخ الفلسطيني عند الغرب عامة وعند اليهود خاصة؛ تأثر بما يسميه كيث وايتلام باسم (خطاب الدراسات التوراتية)، وهو الخطاب الذي يصفُه وايتلام بأنه: ((**عبارة عن شبكة متداخلة وقوية من الأفكار والتوكيدات التي يعتقد ممارسوها أنها نتاج الدراسات العلمية الموضوعية، بينما ما هي في الحقيقة إلا ممارسة للقوة**))[1]، ويحدِّدُ وايتلام هدف هذا الخطاب بأنه ((**البحث عن إسرائيل القديمة، باعتبارها منبع الحضارة الغربية**، والذي اختلق إسرائيل بالفعل على صورة الغرب، مما ساهم في إسكات التاريخ الفلسطيني))[2]؛ إن الهدف إذن يبدو في غاية الوضوح، فالثقافة التوراتية الغربية تبحث لنفسها عن منبع ذي صلة باليهود القدماء، أصحاب الحق وحدهم، زعماً، بالماضي الفلسطيني، ((**إن الحاجة إلى البحث عن إسرائيل القديمة، باعتبارها منبعَ الحضارة الغربية، كانت قوة الدفع للدراسات التوراتية**))[3]، إذن، فالحضارة الغربية في وجه من وجوهِها، ذات جذور كامنة في الوجود الإسرائيلي القديم، وهي في وجهها الفكري: حضارة ذات جذور توراتية.

و لم يكن هذا الخطاب نائيا عن البحث التاريخي فيما يتعلق بفلسطين القديمة طيلة القرن العشرين، بل، وعلى قول وايتلام: إنه ((الخطاب الذي هيمن على البحث التاريخي معظم هذا القرن))[4]، وهو خطاب يَغُضُّ الطرفَ عن أية معلومة تدعمها الآثار، إن كانت

---

(١) اختلاق إسرائيل القديمة، كيث وايتلام، (٢٩)، هذا وسيرى القارئ أننا في هذا الفصل، وفي بعض الفصول الأخرى، اعتمدنا اعتمادا شبه كلِّيٍّ على هذا الكتاب: (اختلاق إسرائيل القديمة)، ذلك أننا رأيناه بحث هذه المواضيع بحثا مستوفيا، لم نره لغيره.

(٢) المرجع نفسه، (١٧١).

(٣) المرجع نفسه، (١٩٤).

(٤) المرجع نفسه، (٢٧٧).

هذه المعلومة توافق أن ثمة وجودا فلسطينيا غير يهودي كان في فلسطين القديمة، فلقد «..تجاهَلَ خطابُ الدراسات التوراتية، في بحثه المتواصل والبائس عن إسرائيل القديمة، المعلوماتِ المتراكمةَ من الحفريات وأعمال المسح الأثرية، التي تعطي صوتا للتاريخ الفلسطيني»(١).

هذا، وإن اضطر الباحث التوراتي إلى الاعتراف بوجود غير إسرائيلي في فلسطين القديمة، فهو يعترف به على نحو إسرائيلي، إذ إن هذا الوجود غير الإسرائيلي في زعمه إنما هو وجود إسرائيلي في الحقيقة على نحو من الأنحاء، وعلى قول وايتلام: «إن الزمان الفلسطيني، يطالَب به كجزء من تاريخ إسرائيل، مع إصرارٍ على أن الشعوب المحلية التي رفضت الأنظمة التسلطية الاجتماعية والسياسية، وانضمت إلى إسرائيل، تُعتبر هي الشعوبَ الإسرائيلية الأولى، **إن إسرائيل القديمة والمعاصرة قد تضافرتا في خطاب الدراسات التوراتية لإسكات التاريخ الفلسطيني، وذلك بادِّعاءاتها بحق المطالبة بأرضها وتاريخها**»(٢).

ورغم أن من الباحثين التوراتيين من يعترف كغوتفالد «بعدم موضوعية خطاب الدراسات التوراتية»، إلا أنه مع ذلك «يظل متمسكا بقوة بذلك الخطاب الذي أسكت التاريخ الفلسطيني» وهو «لا ينظر إلى عدم موضوعية الخطاب التوراتي إلا على أنه عائق يحول دون فهمٍ أوضحَ للتاريخ الإسرائيلي القديم»(٣)، وعلى هذا، فلو استطاع هذا الخطاب أن يُحدِّدَ فهما أوضح للتاريخ الإسرائيلي القديم، لكان موضوعيا، على حسب رأي غوتفالد، **فليست الموضوعية عنده أمانة في البحث، وإنما هي القدرة على الوضوح ولو على حساب أمانة الباحث.**

---

(١) المرجع نفسه، (١٨٠).

(٢) المرجع نفسه، (١٨٨).

(٣) المرجع نفسه، (١٨٣).

وهكذا هيمنت رؤىً أسطوريةٌ[1]، قُوامُها ألا تاريخ لفلسطين إلا ما جاء في التوراة، هيمنت على كثير من مناهج البحث في تاريخ فلسطين القديمة، وهـي رؤى لا يعرفها التاريخ الحقيقي لفلسطين، حين البحث الموضوعي الحقيقي، الذي يستند فعلا على الدلائل القوية.

لقد اختُصرت فلسطين واختُزل تاريخُها، و لم يعُد شيء منه ذا وجود معتبر، إذا لم يكن هذا الشيء توراتيا، و((لقد زيَّف هذا التوقُّعُ تاريخَ فلسطين حتى أيامنا هذه، **فقد صُغِّر في مشهدين من الحضور اليهودي**،...، وهذا فقط تغطية لتاريخ أربعة آلاف عام))[2]، ويقول جارودي: ((**إن القضية التي تختفي وراء هذه التواريخ العديدة لفلسطين، تريد أن تقرر دون برهان، أن شيئا لم يجرِ في هذا البلد غير ما قُصَّ في العهد القديم**))[3]، رغم أننا سنُثبت أن ما قصّه العهد القديم هو أسطورة أو خرافة، ولا يمكن أن تؤسس الخرافة أو الأسطورة لتأريخ حقيقي.

وقد أثر هذا المنهج على الكتابة المتعلقة بالتاريخ الفلسطيني القديم، وأفرز كتابات صهيونية تحوم حول هذه المعاني، وهي كثيرة للغاية، ونذكر مثالين منها هنا، في هذه القضية بالذات، وهي: ادّعاء ألا تاريخ لفلسطين إلا التاريخ اليهودي..

ففي عام ١٩٧٥م، نشر صهيوني كتابا بعنوان: (الفلسطينيون الشعب، التاريخ، السياسات)، وهو يبدأ ببحث عنوانه: (فلسطين في الفترة الإسلامية والعثمانية)، ويستهل الكاتب بحثه بقوله: ((**إنه لصعب للغاية إن لم يكن مستحيلا، التحدث عن تاريخ سياسي**

---

(١) أما، لِماذا نقول: إنها رؤى أسطورية، فهذا ما سيظهر لنا جليا حينما نستعرض موقف علم الآثار فيما يأتي، بل فوق ذلك: في مناقشتنا لمدى إمكانية الاعتماد على التوراة كمرجع تاريخي، إذ هي المرجع الوحيد للرؤى اليهودية، المتعلقة بفلسطين.

(٢) روجيه جارودي في (فلسطين أرض الرسالات الإلهية ٢٢٥)، وهذان المشهدان اللذان يقصدُهما جارودي هما: فترة حكم داود وسليمان عليهما السلام، وفترة حكم المكابيين.

(٣) المرجع نفسه، (٢٢٥).

لفلسطين، بعد تدمير الدولة اليهودية سنة ٧٠م، وبعد إحباط ثورة باركوبا سنة ١٣٥م))، يقول الأستاذ الدكتور أحمد صدقي الدجاني معلّقا: ((وهكذا يضخم الكاتب حادثتين حدثتا في تاريخ فلسطين، ويغفل ما عداهما وما تلاهما من أحداث على مدى ثمانية عشر قرنا، في محاولة لربط إسرائيل التي أقيمت عام ١٩٤٨م بالتاريخ البعيد لفلسطين، وضمن مقولة إسرائيلية، بتعاقب إسرائيل منذ القدم))(١).

والمثال الآخر هو كتاب ليونان أهاروني، فلقد برَّر الخطاب التوراتي ليونان أهاروني أن يقول في كتابه آثار أرض إسرائيل في وصف شعب إسرائيل إنه: ((**الشعب الأول والوحيد الذي جعل من هذه الأرض وطنا له**))(٢)، ولكن: أين الكنعانيون؟ الجواب لدى أقطاب الدراسات التوراتية يتراوح بين أن يكون هؤلاء الكنعانيون غير موجودين أصلا، أو أنهم موجودون، لكنهم لا يملكون وجوداً ذا حضارة، أو هم ما قبل التاريخ الإسرائيلي، الذي لا يستحق مجرد نيل تسمية تخصه، وهم على هذا وجودٌ بلا هوية.

بل إن البحث الأكاديمي في تاريخ فلسطين ضُيِّع في تشابكات شتّى من التخصصات التي تُخرجه عن (فلسطينيَّته)، وكان وايتلام قد ذكر أنه ((**يبدو أن تاريخ فلسطين القديم لا يقع ضمن تخصصات اللاهوت أو التاريخ في مؤسساتنا الجامعية، بل فعليا كموضوع أكاديمي، يبدو تاريخ فلسطين غير موجود من الأساس**: لقد أسكته الخطاب التوراتي المهيمن واستبعده))، وقال وايتلام أيضا: ((إن تهميش تاريخ فلسطين القديم يمكن التدليل عليه من خلال الببليوغرافيا الممتازة للتواريخ المهمة لإسرائيل ويهودا، كما ظهرت في بداية كتاب ميلر وهَيز، حيث توجد قائمة تتضمن خمسة وستين مرجعا تعود إلى الفترة الواقعة

---

(١) ملاحظات على تطور حياة اليهود في فلسطين للدكتور الدجاني، (٣/٩٥).

(٢) نقله عنه وايتلام في كتابه: اختلاق إسرائيل القديمة، (١٠٣-١٠٤)، ويصف وايتلام كتاب أهاروني هذا بأنه الكتاب الذي ((صُمِّمَ خصيصا ليحل محل كتاب أولبرايت الشهير الصادر قبل ثلاثين سنة من كتاب أهاروني، وعنوانُه: البحث الأثري في فلسطين)) ويُنظر وايتلام في كتابه المذكور، (١٠٣).

من القرن الثامن عشر حتى أواخر القرن العشرين، بينما يوجد عنوانان فقط يعالجان تاريخ سوريا وفلسطين»[1].

إن البحث عن القدس القديمة، وعن فلسطين الغابرة، اقتضيا لدى مدارس التزوير اليهودية والبروتستانتية خاصة، أن تصوغ لفلسطين وللقدس تاريخا لا تعترف به القدس نفسُها، ولا فلسطين ذاتُها؛ فقام لحمل هذه المهمة، مهمة التزوير، علماء غربيون ويهود ألقَوْا عن كاهلهم زينة الأمانة العلمية، ليُجيّروا ما استطاعوا من الماضي لصالح اليهود المعاصرين، فإن لم يستطيعوا تجييره لصالحِهم، قاموا بإنكاره[2]، فإن لم يستطيعوا إنكاره، التجأوا إلى اعتباره متخلفا وثانوياً، لا يُشكّل من الجذور الفلسطينية شيئا يجعل منه برهانا صالحاً لدعوى معاصِرة، يقول وايتلام: «**وحيث إنه يصعب إنكار وجود سكان قبل ظهور إسرائيل، فإن المعالجة التقليدية لهذه المُعضلة كانت تشويه سمعة هؤلاء السكان، أو إنكار حقهم في الوجود**»، ثم ينقل عن أسقف سالزبوري مخاطبا أعضاء من صندوق استكشاف فلسطين عام ١٩٠٣م: «**لا أعتقد أن أياً من المكتشفات الجديدة تجعلنا نندم**

---

(١) اختلاق إسرائيل القديمة، (٢٧-٢٨).

(٢) ومن هنا جاء قول الكاتب اليهودي الإنجليزي من أصل روسي، إسرائيل زانغويل: «أرض بلا شعب، لشعبٍ بلا أرض» يُنظر: وايتلام في كتابه (اختلاق إسرائيل القديمة ١٩٥)، وصحيح أنه يقصد حالة فلسطين في عهده، ولكنها أكذوبة في الماضي والحاضر، وكانت هذه الأكذوبة الحاضرة، تحتاج في العقل اليهودي المزوِّر إلى تنظير يستفيد من الكذب على الماضي، ومن هنا تعاون الكذب على الماضي، مع الكذب على الحاضر، لصالح إقامة دولة لإسرائيل، ومن الجدير ذكره أن هذه المقولة انتشرت في الأوساط الصهيونية السياسية والتاريخية والآثارية.

ومن التعليقات التي جاءت على هذه الأكذوبة اليهودية البروتستانتية، قول مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني ؒ تعالى: «إن فلسطين ليست وطنا بغير شعب، حتى تستقبل شعبا بغير وطن»، يُنظر مقال الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي: حقيقة الصراع بين المسلمين واليهود على أرض فلسطين، المطبوع ضمن كتاب فلسطين والوعد الحق، الذي أصدرته الندوة العالمية للشباب الإسلامي، (١٢).

على كتم الحضارة الكنعانية لمصلحة الحضارة الإسرائيلية..»[١]، وعلى هذا فإن إخفاء، أو على تعبير وايتلام: إسكات التاريخ الفلسطيني القديم، هو غاية يعترف بها وبجاحة، أسقف سالزبوري نفسه، وذلك في مخاطبته لأعضاء صندوق استكشاف فلسطين، تلك المؤسسة الاستعمارية التوراتية التي ستنال حظا وافرا من التفصيل في بحثنا هذا.

ولكن سؤالنا لهذا الأسقف، ولرموز حضارته الغربية يبقى واحدا: أين الموضوعية من وراء عمليات البحث التي لا تندم على كتم حضارة اعترف بها البحث التاريخي الموضوعي اعترافا أثقلَ كاهلَ العقلِ الأسطوري الغربي الكاتمِ للحقائق؟ أين الموضوعية التي يتبجح الغرب دائما لا بامتلاكه إياها، ولكن باحتكاره لها وحده دون الأمم؟!

وإن التعبير بكتم الحضارة الكنعانية، ينم عن معرفة واعتراف ذاتي بها، ذلك أن الذي يُكتم عادة هو الموجود فعلا، لا الخرافي المعدوم.

إن عدوان البحث المنطلق من التوراة قد أتى حتى على السكان الفلسطينيين أنفسهم ذلك أن ما «تُصوِّرُهُ الدراسات التوراتية منذ بدايتها حتى اليوم، **هو تصوير فلسطين من دون سكان**، أو على أكثر تقدير: **كسكان مؤقتين، سريعي الزوال، ينتظرون قدوم ذلك الشعب الذي لا يملك الأرض**»[٢]، وهذا تماما ما ذكره بنيامين نتنياهو، حيث قال: «..وانبرى كُتابٌ وأدباء وصحفيون وفنانون وسياسيون، في بريطانيا وأمريكا وفرنسا، لترويج فكرة **عودة اليهود إلى وطنهم المهجور، وإعادة تعميره**»[٣]، «لم يجد اليهود الذين عادوا إلى أرض إسرائيل فيها **سوى أرض الخراب، وعدد قليل من السكان**»[٤]، «..في سبيل العودة، **وإعادة تعمير البلاد الخربة**..»[٥]، وقال يصف اليهود الباقين في فلسطين

---

(١) وايتلام في كتابه (اختلاق إسرائيل القديمة ١٠٨).

(٢) المرجع نفسه، (١٠٨).

(٣) مكان تحت الشمس، لبنيامين نتنياهو، ترجمة محمد عودة الدويري، (٥٢).

(٤) المرجع نفسه، (٦٣).

(٥) المرجع نفسه، (٦٦).

أيام الشتات: "..وفور أن وطئت أقدامهم أرض إسرائيل، انضموا إلى الجاليات القديمة في الخليل، طبريا، صفد، أو القدس، التي ظلوا يحافظون على وجود يهودي طيلة أجيال، **على هذه الأرض المهجورة**"(١)، بل يذكر نتنياهو عن كثير من الباحثين الذين زاروا المنطقة، في فترة ما بعد تأسيس صندوق استكشاف فلسطين البريطاني عام ١٨٦٥م، ذكر نتنياهو عنهم أنهم "استنتجوا أنه من الممكن إعادة الازدهار إلى هذه المدن، **شريطة السماح لليهود باستيطانها من جديد**"(٢)، كما يذكر نتنياهو أيضا أن الحافر والباحث الآثاري البريطاني كوندر، "كانت لديه القناعة، بأن أي شعب آخر، **لن يستطيع العودة لبناء هذه الأرض، بحماس ونشاط، كما سيفعل اليهود**"(٣).

وهذا كله يعبِّر عن إلغاء شديد البشاعة للشعب الفلسطيني، قديما وحديثاً.

إن ثقافةً ما حول فلسطين سوف ترسخ في ذهن القارئ لكلام هؤلاء، ما لم يكن محصنا ضدَّ التزويرات والخرافات والتضليلات، قُوام هذه الثقافة ومحورُها أن أرضا هي فلسطين لا شعب فيها، بل هي خربة، فلا بد لها من شعب يعمرها.

لقد صار هذا اللوَث الفكري جزءا من السِمات الأساسية لجغرافيا وتاريخ فلسطين في العقلية الصهيونية.

وأنا لا أستغرب هذا التصور المُلغي لقدرات الغير ووجودهم، ذلك أن التوراة تحسن تأسيس حامليها على مثل هذه الجريمة.

وهذا الذي نقلناه عن نتنياهو، السياسي الصهيوني المعروف، والذي فيما بعد صعد إلى رأس الهرم في إسرائيل، ربما مستفيدا من دعاية بثها كتابُه؛ هذا الذي نقلناه عن نتنياهو ليس خاصا بالسياسيين الصهاينة، بل إنه ذات اللقاء بين الصهيوني والآثاري، حينما خلع

---

(١) المرجع نفسه، (٦٨).

(٢) المرجع نفسه، (٥٦).

(٣) المرجع نفسه، (٥٧).

ثانيهما أدب الأمانة العلمية، فطفق يُقوِّل الأرض الفلسطينية ما لم تقل، وفقا لهواه الصهيوني؛ إنه ذاته اللقاء الذي حصل بين السياسي والمؤرخ..

إن نوث أحد المختصين بالدراسات التوراتية والآثارية، والمنطلقين من المفاهيم التوراتية، يصف الأرض المقدسة، فلسطين القديمة، بأنها ((جرداء، وخالية من الوجود الآدمي، أما السكان الموجودون، فهم مجهولون لا اسم لهم،...، أما وصفُه الموضوعي للطوبوعرافيا، **فيصور فيه الأرض وكأنها خالية، تنتظر أن يملأها شعب إسرائيل، ومن هنا يبدأ نوت بدراسة التاريخ**))(١)، وهذا يعني ألا سكان في أرض كنعان قبل الوجود الإسرائيلي، وذلك ليسمح للوجود اليهودي الماضي بالحياة فيها، ولينطلق من هذا الماضي المزيف من أجل أن يسمح للوجود اليهودي الحاضر باغتصاب الأرض، فالأرض في الحالتين حسب رأيه لا سكان فيها، وهي تحتاج إلى من يعمرها، والمخولون بعمرانها في الماضي هم اليهود، وفي الحاضر لن يكون لها إلا اليهود.

إنه التأسيس التاريخي لأسطورة: أرض بلا شعب لشعب بلا أرض.

ومن شاء في رأي نوت أن يبحث عن تاريخ هذه البلاد، فهو مضطر ألا يدرس تاريخها إلا ابتداءً من الوجود الإسرائيلي، وأما قبل ذلك، فليس لها تاريخ يرتبط بأقوام يستحقون الالتفات إليهم، وهو ماضٍ قد تفرَّع منه للحاضر المقياس نفسه.

يقول وايتلام: ((ومما يكشف عن نوايا نوت غير المعلنة، في وصفه هؤلاء السكان المجهولين، **أنه لا يصفهم قط بالفلسطينيين**، إن عمل نوت هذا لهو مثال على الافتراضات والبرنامج الخفي للدراسات التوراتية، والتي تُسكت عمليا التاريخ الفلسطيني على حساب البحث عن تاريخ إسرائيل القديم))(٢).

حتى وإن اختلف رواد الدراسات التوراتية حول نقطة البداية للتاريخ الإسرائيلي في

---

(١) اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (٨٩).

(٢) المرجع نفسه، (٨٩).

فلسطين، بين أن تكون هذه البداية قد حصلت مع بداية صعود المَلَكية، كما يرى سوغن، وبين أن تكون قد وقعت مع فترة داود ذاتها كما يرى ميلر وهَيز؛ حتى وإن حصل هذا الاختلاف حول نقطة البداية تلك، فإن ((الزمان الذي يسبق هذه الفترات الأولى في سردهما لتاريخ إسرائيل لا يصبح زمانا فلسطينيا؛ على العكس من ذلك، **يبقى الزمان في مضمار التاريخ الإسرائيلي، ومن ثم الحضارة الغربية، ويُنظر إليه على أنه مجرد ما قبل التاريخ، والتاريخ الأول لإسرائيل القديمة**،...، أما موقف نوت فيما يتعلق بالوثائق والمُكتشفات الأثرية، فيعكس بدوره موقف الدراسات التوراتية،...، **ومن ثم لا يكون للتاريخ الفلسطيني معنى وأهمية إلا لكونه مسرح أحداث التاريخ الإسرائيلي والخلفية التي تطور فيها**))(١)، ((فالماضي إما في دائرة نفوذ إسرائيل، أو أن إسرائيل تدّعي ملكيته على أساس أنه ما قبل تاريخها، أو تاريخها الأول))(٢)، إن ماضي فلسطين الكنعاني العربي والتوحيدي الإسلامي المتجذِر عبر دعوات الأنبياء الذين أقاموا في فلسطين؛ **إن هذا**

---

(١) المرجع نفسه، (١١٣).

(٢) المرجع نفسه، (١١٧)، ويقول وايتلام: ((فالتمييز الشائع بين التاريخ وما قبل التاريخ، يجسد الافتراض الرائج والمنتشر في الدراسات التوراتية، والقائل: إن كتابة التاريخ تعتمد على وجود المواد المكتوبة، أو بدقة أكبر، على حفظها العرضي، ولكن المد والجزر بالنسبة لعملية التاريخ لا يعتمدان على الآثار المكتوبة، فالآثار بطبيعة الحال مصدر مهم للمؤرخ، ولكن غيابها يجب ألا يعني نكران الماضي))، وينقل عن كلارك في مقدمة كتابه (Archaeology: the Loss of innocence) قوله: ((من الناحية الزمنية، وليس من الناحية الوجودية، يمكننا القول إن معظم التاريخ البشري هو ما قبل تاريخي بالمعنى الفني للكلمة، ومن ثم يجب إعادة بنائه في ظل غياب أي أثر مكتوب، إن خمسة آلاف سنة فقط من المليوني سنة التي تشكل التاريخ البشري مدونة بشكل مكتوب، ولكن أيضا بالنسبة لمنطقة محدودة جدا))، يُنظر، وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة، (١١٨) ولذا يقول وايتلام أيضا (١١٩): ((فإذا قُدّر للتاريخ الفلسطيني أن يبزغ كموضوع بذاته، ينبغي أولا تحريره من طغيان الزمان التوراتي، وكذلك من طغيان ما قبل التاريخ، الذي ينكر عليه جوهره ويُسكت صوتَه،...، يحتاج تاريخ فلسطين إلى أن يُكتب من خلال الوثائق المكتوبة والآثار المادية، وأيضا يحتاج إلى أن نتتبعه في تلك الفترات التي لا يتوافر عنها أي تاريخ مكتوب)).

الماضي الكبير والفسيح، ليس في العقلية التوراتية سوى شيء اسمه: ما قبل إسرائيل، فهو لدى هؤلاء يفقد حتى حقّ التسمية، ليفقد بالتالي الهوية والانتماء، فتاريخ إسرائيل عند هؤلاء، هو البداية، وهو الحقيقة وهو كل ما في المخزون الفلسطيني.

إن هؤلاء لم يروا في فلسطين، على طول تاريخها، سوى أنها مملكة شاؤول غير المسبوقة وجودا بغيرها، ثم هي من بعده مملكة داود وسليمان عليهما السلام، وهيمنت تلك الرؤية التوراتية لفلسطين على تنقيباتهم الأثرية، ولم يَعُد علم الآثار بريئا في حال تنقيبه عن آثار فلسطين القديمة، بل لم يَعُدْ سوى موظَّفٍ لدى الأساطير التوراتية، يقول كيث وايتلام: ((إن الباحثين التوراتيين، وكذلك علماء الآثار، قد بحثوا عن دولة كبرى في العصر الحديدي، قوية وذات سيادة مستقلة، ومؤسسها الملك داود، وتصوّروا أن هذه الدولة قد وُجدت بالفعل، وقد هيمنت تلك الحقيقة المزعومة على خطاب الدراسات التوراتية خلال معظم القرن الحالي، وأتاحت مجالاً لتطوير كثير من فرضيات التراث التوراتي، وهذه الحقيقة المزعومة، أسهمت أكثر من أي شيء آخر في إسكات التاريخ الفلسطيني، وكانت عقبة في وجه أي روايات أخرى بديلة للماضي))(١).

ونحن لا ننساق وراء إنكار مملكة داود وسليمان عليهما السلام، بل إن نصوص الوحي الإسلامي أقوى وأصدق في إثبات مملكتيهما عليهما السلام، بصفائهما ونقائهما اللائقَيْن بنبوَّتهما؛ **<u>ولكننا مع ذلك نرفض وبشدة أن يُستند إلى وجود مملكتيهما عليهما السلام لإجل إنكار تاريخ فلسطين الماضي، ومن ثم لإنكار حق الفلسطينيين والعرب والمسلمين في فلسطين الحاضرة</u>**؛ ولقد عقدت مبحثا جعلته مقدمة لبحثي الخاص عن الأقصى والهيكل، تحت عنوان: كيف نتعامل مع علم الآثار، سيتضح من خلاله الموقف الواضح مما يجعله بعض الباحثين فاقدا للمصداقية، مما أكده القرآن الكريم، وذلك كقضية ملك داود وسليمان عليهما السلام، هذا المُلك الذي يبدو من كلام بعض الباحثين إنكار واضح لوجوده.

---

(١) اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (٢٠٤).

وعودة إلى موضعنا..

فحتى لو جاءت المكتشفات الأثرية تحمل في سياقها وهج الحقيقة، فإن هذا الوهج يُجيَّر لصالح البداية الإسرائيلية، التي لا يعترف التوراتيون بسواها، يقول وايتلام: ((فكما يقال لنا: لا تملك فلسطين إرثا من الآثار المكتوبة المحفوظة، أو التي عثر عليها علماء الآثار، ولذلك لا يمكن أن يكون لها تاريخ، **أما الآثار المعروفة، مثل مكتشفات تل العمارنة والآثار الأوغارتية، فإن ما قبل التاريخ الإسرائيلي يدعي ملكيتها**))(١)، إن طمس التاريخ جزءٌ من طمس الهوية، **وإن من لا يملكون تاريخا، يحتاجون إلى قرون طويلة ليُنشئوا لهم تاريخا.**

إن الباحث التوراتي يتعمد إنكار التاريخ الآخر، ليتعمد إنكار هويته، وليتركه في نهاية المطاف يبحث له عن تاريخ آخر، أو انتماء آخر، ويقول وايتلام عن غوتفالد إنه ((سمح لإسرائيل بأن تهيمن على التاريخ الفلسطيني وتستبعده من خلال إشاراته المستمرة إلى الإسرائيليين الأوائل، أو ما قبل التاريخ الإسرائيلي، وهي الإشارات التي تطالب بالزمان الفلسطيني لمصلحة إسرائيل))(٢).

إن هذه الدراسات التوراتية تعكس ما قد رسخ في عقول الغرب من أن تاريخ المنطقة قديما إنما هو تاريخ إسرائيلي محض، وأن التاريخ الكنعاني السابق للوجود الإسرائيلي، ليس له وجود، أو ليس له وجود ذو أهمية، ((**فالتاريخ الإسرائيلي يحل محلَّ، بل إنه يُسكتُ التاريخ الكنعاني، أي التاريخ الفلسطيني الأصيل**))(٣).

إن خطاب الدراسات التوراتية حين هيمن على الغرب، كان من أثره أن تَوَجَّه القرار

---

(١) المرجع نفسه، (١١٨).

(٢) المرجع نفسه، (١٨٤).

(٣) المرجع نفسه، (٨٨)، ويتابع وايتلام قوله: ((وهكذا، فإن أي اهتمام بالبلاد راجع لكونها مهمة للثقافة الغربية وأصول ديانتها التوحيدية: فالقوى الأوروبية تعود لتحمي الأرض التي أمدتها بمنبع حضارتها)).

السياسي والعقل الديني لديه، وخاصة البروتستانتي[1] منه، بل المسيحي عموما في أحيان كثيرة[2]؛ إلى إيجادِ دولةٍ لليهود في فلسطين، واقتضى هذا التوجه من الغرب البروتستانتي أن يُنظِّر لِحَقٍّ لليهود فيها[3]، وكان من أهم ما فعل، أن أنكر أن يكون الوجود اليهودي

---

(١) أمر الملك هنري الثامن ملك إنكلترا عام ١٥٣٨م بترجمة التوراة إلى اللغة الإنكليزية، ونشرِها وإتاحتها للقراءة من قبل العامة ، فكان من أثر ذلك أن صارت اليهودية جزءا من ثقافة الإنكليز، وصار يطلق على التوراة المترجمة (التوراة الوطنية لإنكلترا)، وهكذا تعرف الإنكليز على تاريخ اليهود من خلال هذه التوراة وأسفارها، وصارت فلسطين في العقل المسيحي في أوروبا البروتستانتية الأرض اليهودية وصار اليهود (شعب فلسطين الغرباء في أوروبا والغائبين عن أوطانهم والعائدين إليه في الوقت المناسب).

وتؤكد المؤرخة تشمان في كتابها bible and sword أنه بدون هذا التراث التوراتي فإنه كان من المشكوك فيه صدور وعد بلفور.

وأدى ذلك إلى قبول التفسير اليهودي للعهد القديم، وإلى اقتناع الجامعيين والباحثين بأن كلمة إسرائيل الواردة في العهد القديم تعني كل يهود العالم ..؛ بتصرف عن كتاب (البعد الديني في السياسة الأمريكية ٢٢-٢٣)، تأليف يوسف الحسن.

(٢) يقول الدكتور مايكل برايور، رئيس قسم اللاهوت والدراسات الدينية في جامعة سانت ماري البريطانية: "إن الرأي القائل بأن التوراة هي مستند تأسيس الدولة الحديثة في إسرائيل، ومستند سياساتها منذ عام ١٩٤٨م، هو رأي متغلغل ليس فقط في الأوساط الصهيونية، اليهودية منها والمسيحية، بل هو متغلغل حتى في الاتجاه العام السائد في اللاهوت المسيحي، وفي الدراسات التوراتية في الجامعات، لذا، فإن أية محاولة لمناقشة المسألة تواجه المعارضة بالتأكيد"، يُنظر بحثه: المشكلة الأخلاقية لتقاليد الأرض في التوراة، المنشور ضمن أعمال ندوة الحقوق العربية الثابتة في القدس، التي عُقدت في عمان بتاريخ ٥-٨ تشرين الأول ١٩٩٦م.

(٣) وضع السير هنري فنش المستشار القانوني لملك إنكلترا عام ١٦٢١م بحثا بعنوان (الاستعادة العظمى العالمية)، واعتبر أول المشروعات الإنكليزية لاستعادة فلسطين لليهود.

وقُدمت إلى الحكومة الإنكليزية عريضة في عام ١٦٤٩م تحثّ إنكلترا وهولندا لتكونا الأسرع في نقل أبناء إسرائيل وبناتها على مراكبهم إلى الأرض التي وعد بها آباؤهم الأولون..؛ بتصرف عن كتاب (البعد الديني في السياسة الأمريكية ٢٤)، تأليف يوسف الحسن.

في فلسطين مسبوقا بغيره من الناحية التاريخية، وفي الوقت ذاته أخذ يبحث عن القـــدس القديمة، التي لم تكن في أوهامه إلا يهودية.

والغرب في كل هذه المواقف الجائرة مستند إلى التوراة، المسيطرة ليس فقـــط علـــى السياسيين الغربيين، وإنما أيضا على الغرب الديني بمجمله.

ولكن البحث بهذه الطريقة لم يسلم لفحول الخطاب التوراتي المهيمن علـــى العقـــل الغربي والإسرائيلي معاً، ذلك أن علم الآثار استطاع أن يلاحق التوراة كمتَّهم رئيسي في عمليات التشويه والتزوير، وفي النهاية كان لعلم الآثار النصيب الأكبر في إسقاط الاعتماد على التوراة ذاتِها في مجالات التاريخ القديم لفلسطين والمنطقة بأسرها، بـــل في إســـقاط الاعتماد على التوراة في كل مجال تتحدث فيه؛ وسيأتي في حديثنا عن علم الآثار في هـــذا البحث بيان مصداق كل هذا الذي ندَّعيه.

ليس على الباحث إلا أن يواصل بحثه، ليكشف عن تلك الأدلة التي يســـتند عليهـــا أرباب هذه الأفكار، إن كان ثمة شيء يمكن أن يسمى دليلا.

لكن، يجب أن نؤكد: إن العدوان على تواريخ الأمم، هو في ذاته عدوان على الأمم.

المبحث الثاني: التقسيم التوراتي لتاريخ فلسطين القديم

ولأجل إكمال الحلقات الإسرائيلية القديمة في فلسطين دونما ثغرات زمنية، سعى الباحثون التوراتيون، يدعمهم علماء آثاريون، إلى تقسيم التاريخ القديم لفلسطين تقسيما يتفق وإثباتَ وجودِهم وحدَهم، مع ما يقتضيه هذا التقسيم من إنكارٍ لوجود غيرهم، وعليه فقد تم «تقسيم تاريخ المنطقة بشكل متقن في خانات، فكانت هناك مرحلة الآباء، ثم الخروج والغزو والاستيطان، ثم تبعتها مرحلة مملكتي داود وسليمان الموحدتين، وممالك إسرائيل ويهودا المنقسمة، ثم المنفى، وبعد ذلك الإصلاح، وعلى هذا الأساس يصبح تاريخ المنطقة هو تاريخ الشخصيات والأحداث الأساسية في التراث التوراتي: إنه البحث التقليدي عن الشخصيات الكبرى والتاريخ الفريد، **إن طغيان الزمان التوراتي هذا يُسكت بفاعلية التاريخ الفلسطيني، وهذا ما دعمته وأكدته الدراسات الغربية**»(١).

إن المقصد من كل هذا هو ألا يبدو في فلسطين من تاريخها القديم فترة زمنية ولو قصيرة، تعترف بوجود غير إسرائيلي، فإلباس فلسطين القديمة ثوبا توراتيا يعني في النهاية ألا وجود لغير اليهود في فلسطين قديما، وذلك لأجل استخدام هذا التزوير لمنع أي وجود لغير اليهود في فلسطين حديثا.

وثمة باحثون توراتيون آثاريون سلكوا المسار نفسه، وإن بصيغة أخرى، فأنكروا التاريخ الفلسطيني القديم، من هؤلاء: ستيوارت مكلستر وف. بليس، اللذَان نقبا في فلسطين أوائل القرن العشرين، وقد اتَّبعا جدولا زمنيا لتاريخ فلسطين القديم، يعتمد محورية التاريخ اليهودي، بل ينكر بوضوح أي أمة أخرى في فلسطين القديمة، فقسما تاريخ فلسطين كما يلي: عصر ما قبل الإسرائيليين المبكر، حتى عام ١٥٠٠ق.م.، وعصر ما قبل الإسرائيليين المتأخر: ١٥٠٠-٨٠٠ق.م.، المرحلة اليهودية: ٨٠٠-٣٠٠ق.م.،

---

(١) اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (١١٢).

المرحلة السلوقية: ابتداء من ٣٠٠ق.م[١].

إن هذا الشكل من تقسيم تاريخ فلسطين المعتمد على المعطيات التوراتية ينكر تلقائيا هوية واسم السابق للوجود الإسرائيلي القديم، وهذا الشكل من الأبحاث هو في الحقيقة شكل من أشكال هيمنة الرؤى التوراتية على مجالات البحوث التاريخية الآثارية.

إن المصدر التوراتي هو المشكلة هنا، ولا نريد أن نستبق الأمور، لنعقد هنا بحثا أجلناه إلى آخر بحثنا هذا، ولا نريد أن نأتي بكل ما ذكرناه في موطنٍ آتٍ من بحثنا هذا عن الكشوف الآثارية والتاريخية، وكيف أثبتت خرافة التوراة، وضلال الاعتماد عليها، لا نريد أن نفعل شيئا من ذلك، لضرورة الترتيب المنطقي لمباحثنا هنا..

وعودا إلى محاولة التوراتيين الحثيثة لإثبات بداية التاريخ الفلسطيني بالتاريخ الإسرائيلي القديم، من خلال ابتدائهم التأريخي بفترة الآباء، ثم السُّخرة، ثم الخروج والغزو والاستيطان...؛ إن هذا التقسيم تقسيمٌ مصطنع ووهمي، وهو لم يصمد أمام المكتشف من الآثار، ولا أمام ما هو ثابت من التاريخ، وثمة كُتّاب عديدون يتحدثون في نفي مصداقيته، يقول ألبيردي بوري، أستاذ العهد القديم في كلية اللاهوت البروتستانتي في جنيف: ((**وقد برهنت أعمال ألبرخت آلت، ومارتن نوت على وجه الخصوص، أن تقسيم التاريخ إلى عصور متعاقبة (الآباء- السخرة في مصر- غزو كنعان) هو تقسيم مصطنع**))[٢].

ولقد أثبت الباحث فان سيتر أن **قصص الآباء هي بمجملها قصص موضوعة لأول مرة أيام السبي البابلي**[٣]، أي في منتصف الألف الأول قبل الميلاد، وهذا يعني تأخرها عن الزمن الذي يُفترض أنها تتحدث عنه بأكثر من ألف عام.

---

(١) يُنظر: فلسطين من أقدم العصور، للدكتور معاوية إبراهيم، (٢/٩).

(٢) ألبير دي بوري، في كتابه: الوعد الإلهي والأسطورة القصصية الشعائرية في زمن يعقوب، نقلا عن: الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، تأليف روجيه جارودي، (٤٣).

(٣) آرام دمشق وإسرائيل، تأليف: فراس السواح (٥١).

وعلى هذا، فمن حقنا أن نقول مع الباحث ك. ماك كارتر: ((**علينا أن ننتبه دوما في دراستنا لروايات الآباء، إلى أن هذه الروايات أيديولوجيا وليست تاريخا**، لقد صيغت إبان الألف الأول قبل الميلاد، من أجل التأسيس اللاهوتي والسياسي للشعب الإسرائيلي، ولذا، لا يمكن التعامل معها كتاريخ بأي معنى من المعاني الحديثة لهذه الكلمة))(١).

وها قد تبين معنا من خلال شهادات لباحثين بعضهم آثاري توراتي، أن هذا التقسيم تقسيم مصطنع، ولكن أين يُذهب بالعقل اليهودي والبروتستنتي اللاهوتي المتعصب، الذي يُصر على هذا التقسيم المصطنع؟!

إن العقل اليهودي لا يؤمن بالعلم ولا بالمكتشفات ولا بالتحقيقات والتحليلات، لأنه إن آمن بكل ذلك فَقَدَ إيمانَه بالتوراة، وهو حينها يُفضل أن يناقض الحقائق كلها على أن يبقى توراتيا، إلا من أدركه عقلُه منهم.

ونكتفي هنا بهذه الردود لآلت ونوث وفان سيتر وك. ماك كارتر، على هذا التقسيم التوراتي المصطنع للتاريخ الفلسطيني القديم، لأننا سنتحدث تفصيلا، وفي فصول لاحقة حول هذا الموضوع..

سيأتي معنا الحديث في بحثنا هذا عن التاريخ الفلسطيني القديم، الذي سبق الوجود الإسرائيلي في فلسطين، وسيتبين معنا بما لا يدع للشك مجالا أن فلسطين والكنعانيين واليبوسيين لم يكونوا موجودين قبل الوجود الإسرائيلي فحسب، بل إنهم كانوا الحضاريِّين الأوائل في هذه الأرض، بل سيتبين معنا فيما سيأتي أن الوجود اليهودي نفسه كان مجرد عالة على الحضارات الأخرى، ومنها الحضارة الكنعانية.

---

(١) نقلت كلام الباحث ك. ماك كارتر عن: المرجع نفسه، (٥١).

الفصل الثاني: ادعاء السبق الحضاري اليهودي في فلسطين

لم يقتصر الأمر عند هؤلاء على ادّعاء نفي وجود سابق عليهم، أو ادِّعاء أن هذا الوجود ليس أكثر من وجود ثانوي؛ بل تطوّر الأمر لدى كثير منهم حينما رأوا أنه لا مناص من الاعتراف بوجود سابق على الوجود الإسرائيلي في فلسطين؛ تطوَّر إلى اعتبار أن الوجود السابق لها، فيما إذا كان حاصلا فعلا، لا يخرج عن كونه وجودا مجرَّدا من المعاني الحضارية، وإنما الوجود الحضاري حسب هؤلاء هو الوجود اليهودي فحسب، بل إن الوجود العام في المنطقة كلها مجرّد من المعاني الحضارية، حتى إذا جاء اليهود لبست المنطقة بأسرها ثوب الحضارة القشيب!.

سيهتم هذا الفصل باستعراض الرؤية اليهودية القائمة على انتزاع المعنى الحضاري لفلسطين القديمة ونسبة الحضارة الفلسطينية القديمة إلى اليهود وحدهم، وذلك في المبحث الأول من هذا الفصل، وسيتضمن هذا المبحث في ثناياه بعض الردّ على هذه الرؤية؛ وسيقوم المبحث الثاني بالردّ على هذه الرؤية، استنادا على علمي الآثار والتاريخ معاً.

المبحث الأول: دعوى السبق الحضاري اليهودي في فلسطين القديمة

إن الوجه الحضاري الفلسطيني القديم ذو وجودٍ ثانوي، أو هو غير موجودٍ أصلا حسب الرؤية اليهودية، والوجود الحضاري السابق في هذه الديار، حسب هذه الرؤية، هو وجودٌ حضاري إسرائيلي فحسب، ولقد ادَّعَى الباحثون التوراتيون أن الكتابة التاريخية ذاتها في المنطقة ما هي إلا كتابة إسرائيلية، ففي رأي الباحث التوراتي نوث ((**كانت نشأة الكتابة التاريخية في إسرائيل، ولم يكن لها نظير في عالم الشرق القديم، وكان ذلك نتيجة الوعي التاريخي الفريد لإسرائيل، الذي كان مبنيا على الطبيعة الخاصة لعلاقتها مع الإله..**)).

وهل هذا حال إسرائيل القديمة فحسب؟ لا بل هو حال إسرائيل المعاصرة أيضا، بل إن الحديث عن كليهما في هذا المجال يعكس نية إلقاء ألوان التشابه بينَهُما، ذلك التشابه المقصود إظهارُه على أنه الحالة الفريدة قديما وحديثا في المنطقة، يقول كيث وايتلام معقّباً على رأي نوث: ((هذه الأفكار نجد لها صدى مشابها تماماً في دولة إسرائيل المعاصرة، **التي ترى نفسها أمة منفصلة عن محيطها الثقافي والسياسي، وعاملاً يجلب الحضارة إلى المنطقة**، نتيجةً ((للوعي التاريخي لإسرائيل)) الذي هو وحي إلهي))[(١)]، وبمثل قول نوت هذا، قال ألبرخت آلت، عالم الآثار الألماني، في كتابه الذي نشره عام ١٩٢٥م بعنوان (حيازة الإسرائيلي للأرض في فلسطين)، فقد اعتبر ما وصفه بأنه تطوير أشكال سياسية جديدة في فلسطين، **اعتبر أنه لا يمكن أن يكون هذا التطوير قد جاء من داخل فلسطين**، وإنما من خارجها[(٢)].

---

(١) اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (٢٢٤-٢٢٥).

(٢) وتحديدا من الإسرائيليين والفلستيين واليهود والأدوميين والمؤابيين والعمونيين والآراميين، يُنظر المرجع نفسه، (١٣٥-١٣٦)، وهو شبيه بالوصف الذي كان يؤْثِره كثير من المؤرخين

ويقول فون راد: ((**أنتج العصر الذهبي للمملكة العبرية أعمالا تاريخية أصيلة، لم يكن بمقدور أي حضارة في الشرق الأدنى الإتيان بمثلها**))، ويصف الأمة الإسرائيلية بأنها ((أصبحت للتوّ أمةً متحضِّرةً))، ويذكر في سياق كلامه أن إسرائيل قد تمكنت بفضل قدراتها الفطرية من إنتاج أعمال تاريخية ناضجة، ثم يقول: ((بفضل قدراتهم في الكتابة التاريخية، **التي تحققت بشكل مستقل وناضج** تماما منذ البداية، فإن حضارة إسرائيل يجب أن تقف في صف الحضارة الإغريقية الأغنى والأكثر عمقا في القرون اللاحقة))(١)، وهذا من فون راد تجاوز غير أمين لكل الحضارات الموجودة قبل إسرائيل القديمة، والتي أنتجت آثارا لا زالت تتحدث عنها إلى عصرنا، بخلاف ما أنتجته (القريحة!!) الإسرائيلية، التي لم تجد لها شاهدا إلى الآن، رغم أن الأرض بيدها!

ولكن السياق واضح الدلالة، إن المقصود كله هو إنكار الحضارة الفلسطينية القديمة، فهي لب الصراع الذي يخوضه الإسرائيليون الآن، لإثبات أن الماضي في هذه المنطقة هو ماضٍ حضاري إسرائيلي فحسب، ثم ليؤكِّدوا من وراء هذا حقا حاضرا لهم وحدهم.

ولتأكيد مثل هذه المعاني، مع إضافة معانٍ أخرى تنال من تاريخ العرب المسلمين في فلسطين، وتنكر مكانتهم التاريخية؛ لأجل ذلك ينقل بنيامين نتنياهو استنتاجات لجنة بيل عام ١٩٣٧م، التي تقول: ((**في القرون الإثني عشر، منذ الاحتلال العربي، اختفت هذه البلاد تقريبا عن المنصة التاريخية**))(٢)، وهذا من نتنياهو يتضمن زيادة على كل ما مضى، فليس الأمر أن فلسطين القديمة هي وحدها الأرض الخالية من الوجود الحضاري غير اليهودي، بل إن فلسطين القرون العربية الإسلامية هي أيضا خالية، أو مختفية من هذا الوجود الحضاري، وماذا عن الشواهد الحضارية العربية الإسلامية الماثلة إلى الآن، ممثلة

الإسرائيليين لمجتمع الفلسطينيين في الثلاثينيات من القرن العشرين بأنه مجتمع مفكك داخليا وغير قادر على تنظيم نفسه، يُنظر المرجع نفسه.

(١) تُنظر أقوال فون راد في المرجع نفسه، (٢٢٥).

(٢) مكان تحت الشمس لنتنياهو، (٧٧).

بالأقصى والصخرة، إحدى أهم أعاجيب التاريخ؟ يبدو أن نتنياهو كتب كلامه هذا وهو موجود على سطح المرِّيخ، لأنه لا وجود للأقصى والصخرة المشرَّفة هناك!

وينقل نتنياهو عن جورج آدم سميث صاحب كتاب: الجغرافيا التاريخية للأرض المقدسة، قوله عام ١٨٩١م: ((لا توجد أية حضارة محلية في فلسطين يمكن أن تكون بديلا للحضارة التركية، سوى **الحضارة اليهودية التي منحت فلسطين كل شيء ذي قيمة إلى الأبد**))[1]، وهو كلام ممجوج، سيأتي في سياق كلامنا ردود عديدة عليه.

وغُيِّبت في سياق هذه (التحقيقات!) كلها الآثار الفلسطينية العربية تغييباً شبه تام عن الأعمال الآثارية التي قام بها منقبون انطلقوا من منطلقات توراتية استعمارية سياسية[2]؛ ذلك أنه أمام زحف المنظمات الآثارية الغربية التوراتية، لم تكن فلسطين إلا مكانا للتوراة، وكانت تلك المنظمات ((تهدف إلى خداع الرأي العام العالمي بضعف أسس الحضارة العربية في فلسطين، أو حتى عدم وجودها، فكثيرا ما أخفيت مخلفاتها في تقارير المنقبين، أو أنها ذُكرت على هامش هذه التقارير، ولسوء حظ هذه الحضارة أنه لم توجد طوال هذه الحقبة الطويلة مؤسسة عربية واحدة، ترعى شؤون الآثار في فلسطين، حتى إن السجلات والتقارير تكاد تخلو من أسماء عربية تهتم بهذا الأمر))[3].

---

(١) المرجع نفسه، (٧٨).

(٢) سيرى القارئ الكريم مصداقية دعوانا هذه في هذا الفصل الذي يقرؤه هنا، ولكننا نرجوه أن ينظر إلى الفصل الذي عقدناه خصيصا تحت عنوان: تحيُّز علماء الآثار، وكذا ما جعلنا عنوانه: صندوق استكشاف فلسطين، وذلك ليتضح له دقة دعوانا أن ثمة مستكشفين آثاريين انطلقوا مما وصفناه بأنه منطلق استعماري سياسي توراتي.

(٣) فلسطين من أقدم العصور، للدكتور معاوية إبراهيم، (١٣/٢)، هذا، ولقد بقي الأمر كذلك في الضفة الغربية في الفترة ما قبل العام ١٩٦٧، فلقد بقيت دائرة الأثار فيها بيد الإنكليز، يقول الدكتور معاوية إبراهيم في بحثه المذكور (١٤/٢): ((ولم يكن حتى نهاية الخمسينيات من الفلسطينيين والأردنيين إلا بضعة أشخاص يستطيعون ممارسة البحث والتنقيب الأثري، وفي ظل إدارة الآثار الإنكليزية، ظل الأثريون الغربيون التقليديون، وخاصة التوراتيين منهم، هم الذين يقومون بأعمال

إن علماء الآثار الإسرائيليين ((لا يقبلون أن يكون لغيرهم ذاكرة تاريخية على هذه الأرض، وهم يعتقدون وَهْماً بأنهم الأقدم حضاريا، وأن لهم الحق في الإرث الحضاري دون غيرهم))[1].

ويظهر لي أن هذا الاعتبار لديهم منبثق عن عنصريّتهم التي تقوم في جانبٍ هامٍّ من جوانبها على التميّز عن الأمم الأخرى حتى في النواحي العقلية، وليس هذا موضوعَنا..

يقول الدكتور قدري حنفي: ((أما الفكرة الرئيسية التي تصدّرت فيما نرى كافة الأفكار الأخرى، في الحلول محل فكرة نقاء العنصر اليهودي والقيام بنفس دورها، فهي فكرة تفوّق اليهود عقليا، ولعل خير من عبّر عن تلك الفكرة هو المؤرخ اليهودي الإسرائيلي الشهير هوارد مورلي ساخار في كتابه مسار التاريخ اليهودي الحديث، الذي خصص الفصل التاسع منه والمعنون: تأثير اليهود على الحضارة الغربية، خصصه لعرض تلك الفكرة، وتقديم الأدلة والبراهين عليها، ويشير ساخار في مستهل الفصل إلى قصة قصيرة نشرها **هوجوتور البروتستانتي المذهب، النمسوي الجنسية عام ١٩٢٦م بعنوان: مدينة بلا يهود،** تروي حكاية حاكم قرر استبعاد اليهود من الحياة في العاصمة، نظرا لسيطرتهم على كافة مجالات الحياة فيها، ونفّذ ذلك بالفعل، فإذا بالمدينة تكاد تتحول إلى موات، البنوك تُقفِل أبوابها، والمسارح ودور الباليه تنهي نشاطها، وكذلك الحال بالنسبة للمستشفيات والمكتبات ودور النشر والمحاكم أيضا، ويبلغ الشلل ذروته إلى حدٍّ يُجبر

التنقيب والبحث، حتى في الجزء غير المحتل من فلسطين، وكثيرا ما كانت تقاريرهم ونتائج حفرياتهم مغرضة ومعادية للعرب))، ولقد كانت دائرة الآثار الأردنية تحت رآسة الإنكليزي لانكستر هاردنغ منذ تأسيسها حتى عام ١٩٥٦، حين تولى سعيد الدرة إدارتها (المرجع نفسه (١٤/٢).

(١) الحلقة الرابعة من: تفنيد مزاعم علماء الآثار الإسرائيليين حول القدس والمسجد الأقصى المبارك، د.إبراهيم الفني، وطاهر النمري، نشرتها جريدة القدس، ٢٠٠٢/٢/١٩، وسيشار إلى هذا المرجع فيما بعد كما يلي: تفنيد مزاعم علماء الآثار الإسرائيليين، للفني والنمري، مع ذكر رقم الحلقة وتاريخها.

الحاكم على التراجع عن قراره وإعادة اليهود إلى الحياة العامة))[1].

وأرجو القارئ الكريم أن ينتظر ردَّنا على هذه الدعاوى، فيما يـــأتي مـــن المبحـــثين التاليين، وسيرى إن شاء الله تعالى، أن هذه الدعوى إن ملكت إعلاما ومزوِّرين، فهي لم تفز بامتلاك الحقيقة!

---

(١) الإسرائيليون من هم، (١٧٢)

المبحث الثاني: منشأ الكتابة كنعاني وليس يهوديا

هل صحيح ما ادَّعاه نوث حول نشأة الكتابة التاريخية، وأنها إبداع إسرائيلي قـــديم؟ للإجابة على هذا السؤال يقول وايتلام[1]: ((من المشكوك فيه للغاية أن تُثبــت النقــوش القليلة المتناثرة، والكتابات على الجدران، انتشار معرفة القراءة والكتابة في إسرائيل القديمة كما زعم البعض))، فليس الأمر إذن أن الإسرائيليين القدماء لم يكونوا ســابقين بمعرفــة الكتابة فحسب، بل إنه لم يقم الدليل على أنهم كانوا يعرفون الكتابة أصلا.

وهذا يعني أن هذه دعوى بلا دليل، فإن ما قذفته الأرض الفلسطينية من آثار عن تلك الفترات التي يدَّعي فيها نوث نشأة الكتابة التاريخية إسرائيليا، إنه يخدم فكرة واحدة هي: عدم انتشار معرفة القراءة والكتابة في إسرائيل القديمة أصلا، فضلا عن أن تكون إسرائيل القديمة وحدها تعرف هذه الكتابة، إن الآثار الشاخصة لا تملك القدرة على إثبات هـــذه الدعوى، وسيأتي حديثنا عن الآثار الفلسطينية القديمة، لنبين هذا الذي نقول.

ثم إن الادعاء بنشأة الكتابة التاريخية في إسرائيل القديمة يناقض تماما ما اعتــرف بـــه غوتفالد أحد الكتاب التوراتيين من أن ((**جذور إسرائيل تحتل موقعها وســـط حضـــارة قديمة، ومتطوِّرة جدا، في خضم حضارة واعية بذاتها**))[2]، أي أن الحضارة التي قدِم إليها الإسرائيليون كانت حضارة غنية، مما يعني، كما سننقل قريباً عـــن الأســـتاذ العقـــاد أن الإسرائيليين كانوا آخِذِينَ غيرَ مبدِعين، أي لم يكونوا مُعطِين من باب أولى!

ولا بد في هذا المطاف أن نبين أن أمر التخلف اليهودي عن الكتابة والرقي الفكري لم يكن محصورا في أرض كنعان فحسب، بل هم محافظون على هذا التخلف حتى في بـــلاد

---

(١) في التعليق على الصفحة (٦٤) والمطبوعة في صفحات الهوامش (٣٦٨) في أواخـــر كتـــاب (اختلاق إسرائيل القديمة).

(٢) اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (١٨٤).

العرب؛ يقول البروفيسور اليهودي الشهير إسرائيل ولفنسون: ((**إن يهود بلاد العرب، لم يُظهروا شيئا من النبوغ والعبقرية مطلقا، ولم يشتهر من بينهم شخصية واحدة في كل عصورها بالرقي الفكري**))، يقول الدكتور أحمد سوسة معلقا: ((ولكنه يعلل ذلك بقوله: إن البيئة الجديدة شلت قوى اليهود الروحانية، فتغلبت عليهم العقلية البدوية؛ وهذا التعليل غير وارد، **لأن البيئة لا يمكن أن تشل القوى الروحانية، بل على العكس من ذلك، فهي تغذي القوى الروحانية**))[١].

ها قد اتضح الأمر، وبشهادة اليهود وأولياء اليهود من الأمريكيين وغيرهم، ولكن، لا زلنا في الموضوع ذاته، أي في الحديث عن الكنعانيين..

يقول دين ستانلي: ((وما جنس الكنعانيين، الملعون حسب ما جاء في أسفار أشعيا، إلا ذلك الجنس عينه الذي كنا نتطلع إليه عبر القرون من بلاد اليونان، باعتباره أبا الكتابة والتجارة والحضارة))[٢]، فليس الأمر أن هؤلاء الكنعانيين هم السابقون حضارة وكتابة وتجارة، بل إن هؤلاء الذين سبقوا اليهود وجودا في فلسطين هم أصل هذه المعالم الحضارية.

ينقل الأستاذ عباس محمود العقاد عن فولتير في المعجم الفلسفي قوله: ((إن المُحَقَّق أن اليهود كتبوا قليلا جدا، وقرأوا قليلا جدا، وكانوا على جهل شديد بعلوم الفلسفة والهندسة والجغرافيا والطبيعيات، فلم يعرفوا شيئا من تواريخ الأمم، ولم يأخذوا في التعلم إلا بعد اتصالهم بالإسكندرية، حيث شرعوا في اقتباس المعرفة..))[٣]، بل إن اليهود فوق ذلك لم تكن لهم صلة بالإبداع في المجال اللغوي، وذلك حينما تلقفوا لغة غيرهم...

يقول الأستاذ العقاد: ((ومن المسَلَّمات المفهومة بين العارفين بالعبرية والعارفين

---

(١) العرب واليهود في التاريخ، للدكتور أحمد سوسة، (٤٤٠).

(٢) نقلت كلام دين ستانلي عن: تاريخ فلسطين القديم، تأليف: ظفر الإسلام خان، (٢٨).

(٣) فولتير في المعجم الفلسفي، نقلا عن: (الثقافة العربية ٧٢) للأستاذ عباس محمود العقاد.

بتاريخها، أنها أخذت من اللهجات السامية و لم تعطها شيئا جديدا من فنـــون التطـــور في قواعدها أو آدابها، فوقفت حيث بدأت، وتركتها اللهجات السامية واقفة في مكانها وهي تتطور وتترقى إلى الشأو الذي بلغته في الأزمنة الحديثة، و لم يكد عصر المملكة اليهودية أن ينقضي حتى كانت اللغة العبرية منقضية بين أهلها في الخطاب وفي الكتابـــة، مـــا خـــلا الصلوات والعبادات، ثم انهزمت بين جدران المعابد وعلى ألسنة الأنبياء والكهان، وخلفتها اللغة الآرامية في معاملات الدين ومعاملات المعيشة اليومية، ثم مضى العصر بعد العصـــر، إلى زماننا هذا، فأصبح قراء التوراة بالعبرية أقل عددا من قرائها بأصغر اللغات»(١).

هذا ولا نحسب القضية عائدة إلى ضعف العبرية ذاتها عن مواصلة النمو والتطور، فهي على الأحوال كلها لغة أو لهجة كنعانية، ولكن اللغات لا تتطور بفعل ذاتهـــا إن كانـــت تملك في روحها أسباب التطور، وإنما هي تتطور بفعل أهلها، وها هنا تكمن المشكلة التي أوْدت بقدرات العبرية، إنها مشكلة المتكلمين بها، فهم أصلا غير قـــادرين علـــى النمـــو والتقدم بلغتهم، التي تلقفوها جاهزة من أمة أخرى، دون أن يضيفوا عليها شيئا يجعل منها لغة متطورة، بل دون أن تؤثر في غيرها من اللغات والثقافات، فشربت اللغة العبرية مـــن لغات شتى ماءً لحياتها، و لم يكن لديها ما تسقي به غيرها.

قال الأستاذ العقاد : تعالى: «ولا يعزى هذا إلى مجرد سقوط الدولة اليهودية، ولا إلى نقص في عدد العبريين الذين يدينون بكتبهم المقدسة، فإن الدولة الآرامية في وادي النهرين سقطت، وسقطت بعدها دول الآراميين المتفرقين بين أنحاء البادية، و لم تزل لغتهم الآرامية تنتشر وتتغلب على نظائرها من اللهجات السامية واللهجات الأجنبية التي تســـربت إلى مواطنها من سائر الأقطار؛ وإنما يُعزى سقوط العبرية إلى عجزها عن الإنتاج الذي ينفـــع الناس، **فلم يكن عندها ما تعطيه، ولم تكن وعاءً صالحا، يستودعه خُدّام الفكر والمعرفة ما يُعطون**»(٢)، وهذا في تقديري ليس عائدا كما قلت إلى اللغة ذاتها، وإنمـــا إلى فاعليـــة

---

(١) عباس محمود العقاد في كتابه: (الثقافة العربية ٧٢-٧٣).

(٢) العقاد في المرجع نفسه، (٧٣).

أهلها؛ فقد قال الأستاذ العقاد: ((ولقد كان ينبغي أن يسبق العبريون غيرهم من القبائل السامية إلى اقتباس الكتابة على أنواعها، سواء أكانت بالصور أم بالمقاطع والحروف، بل كان ينبغي أن تكون ألواح الشريعة التي تلقَّوْها في سيناء باعثا لهم على استكشاف الألواح المكتوبة في مناجمها، بما عليها من الخطوط والحروف..

ولكن الواقع الذي يسجله تاريخ الكتابة أنهم لم يبتدئوا قط عملا من أعمال الكتابة ولا من أعمال ترقيتها ونشرها، ولا من أعمال التوفيق بينها وبين مخارج النطق في كلماتهم الملفوظة، وإنما كانوا في كل مرحلة من هذه المراحل مستفيدين، يأخذون مما سبقهم ويتحجرون عليه، حتى تقسرهم على تغييره ضرورات المعاملة، فيسري التغيير قهرا مع الزمن، إلى كتابة الشعائر والعبادات))[1]..

وبعد..

فأين تذهب الدعوى التي تقول: إن نشأة الكتابة والكتابة التاريخية كان إسرائيليا بعد كل هذه الحقائق؟!

أرجو قارئي العزيز أن يواصل قراءة المبحث التالي..

---

(١) العقاد في المرجع نفسه، (٧٤)، وإن المقصود هنا بيان أن اليهود وبني إسرائيل لم يكونوا من أهل الإبداع في عوالم الفكر واللغة والثقافة، وإنما هم تبع لغيرهم، ولعل القارئ أن يرجع إلى كتاب الأستاذ العقاد (الثقافة العربية ٧٥-٧٨) ليتعرف على بعض ما تلقفوه من العرب في مجالات اللغة والنحو والفلسفة وسواها.

المبحث الثالث: الآثاريون والمؤرخون ينفون دعوى السبق الحضاري اليهودي

ولْننظر هنا إلى ما يقوله الآثاريون وما يقوله المؤرخون في دعوى السبق الحضاري اليهودي..

لقد كشف عالِما الآثار الإسرائيليان جدعون أفني (مسؤول دائرة الآثار عن مدينة القدس) وروني رايْش، من خلال أعمال التنقيب التي قاما بها في القدس، ونشراها في شهر تموز ١٩٩٨م، كشفا أن **الكنعانيين خلَّفوا آثارا تتمثل في شبكات المياه ونظام الري المتطور والأسوار العالية والأنفاق، وقد ذكرا أن مدينة القدس كانت مدينة كنعانية محصنة ومتطورة قبل نحو ألف سنة من قدوم الإسرائيليين إلى أرض كنعان، وأن تلك الاكتشافات تستدعي تغيير كل ما تعلموه عن القدس، وأن عليهم أن يعيدوا كتابة التاريخ**[١].

إن كل مكتشفات التاريخ والآثار، لا بد أنها ستصيب العقل اليهودي الخرافي بصدمة هائلة.

ويقول وايتلام: ((**وبالمثل، فإن إمبراطورية داود المزعومة**[٢]**، كما صوّرها نوث وغيره، لم تترك أي آثار مادية**))، فكيف أثبتوا إذن الحضارة الإسرائيلية القديمة، والحال أن

---

(١) القدس ٥٠٠٠، (٨٧-٨٨) وهي الورقة التي قدمها الدكتور ناصر الدين الأسد للأكاديمية المغربية في الفترة من ٦-٨ شعبان ١٤١٩هـ.

(٢) لقد سبق مني التعليق على مثل هذا التعبير، وأؤكد أن مملكة داود تملك أقوى إثبات على وجودها، ألا وهو القرآن الكريم، وأؤكد أيضا أن هذا الوجود مسبوق بوجود عربي قديم في القدس وفلسطين، وأؤكد كذلك، أن هذا الوجود الداودي في القدس، لا يعطي حقا لأي يهودي في الدنيا باستلاب الأرض، وسأتحدَّث تفصيلا في هذا الموضوع إن شاء الله تعالى في البابين الخاصين ببحث دعوى الحق التاريخي والوعد الديني اليهوديتين.

فترة داود عليه السلام لم تترك لعلم الآثار شيئا يراه، وينقل وايتلام عن مازار في دراسته التي وصفها وايتلام بأنها تتسم بالتحفظ، أنه على الرغم من أن التوراة تقول: إن داود حكم لمدة أربعين سنة، "فإن مما يدعو إلى السخرية، **ألا نجد إلا آثارا ضئيلة من فترة داود، كما لا توجد أي مبانٍ أثرية ترجع إلى هذه الفترة**"، وهو يعترف أنه بالمقارنة مع الحضارات المجاورة، **فإن الآثار الباقية** "**في أرض إسرائيل فقيرة للغاية**" وينقل وايتلام عن عالمة الآثار كينيون قولَها عن فترة حكم سليمان وداود عليهما السلام: "**إن المكتشفات الأثرية المتعلقة بهذه الفترة شحيحة جداً**"(١)، وينقل عن توماس طومسون أن "الدلائل أو عدم وجود دلائل، توحي بأن **القدس لم تُصبح عاصمة لدولة إقليمية قبل القرن السابع ق.م. ولم تَرْقَ إلى مستوى العاصمة إلا في الفترة الفارسية**"(٢)، "وقد بين فيليب ديفيس أن إسرائيل القديمة المذكورة في الدراسات التوراتية هي من اختراع عقول العلماء"(٣)، ويعني هذا أن التصور المتعاظم في النفس اليهودية عن حضارة يهودية إسرائيلية قديمة، إنما نشأ عن صياغة وهمية صاغتها واخترعتها عقول توراتية.

ويقول المؤرخ والفيلسوف الفرنسي غوستاف لوبون في كتابه: (اليهود في تاريخ الحضارات الأولى): "كان بنو إسرائيل عاطلين، حتى في إبان أُبَّهَتهم، عطلا تاما من العمال المهرة في الحرف الغليظة كالنجارة مثلا"(٤).

ويقول لوبون أيضا: "ولن تجد شعبا عَطِلَ من الذوق الفني كما عَطِلِ اليهود"(٥).

---

(١) اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (٢٥٧-٢٥٨).

(٢) المرجع نفسه، (٢٥٩).

(٣) المرجع نفسه، (٢٨).

(٤) اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، لغوستاف لوبون، نقلا عن: تاريخ فلسطين القديم، تأليف: ظفر الإسلام خان، (١٠٨).

(٥) اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، لغوستاف لوبون، نقلا عن: تاريخ فلسطين القديم، تأليف: ظفر الإسلام خان، (١٢٣).

إن من هذا شأنه في الفقر الحضاري والمدني، حري به أن يتعلم من الأمم التي سبقته أشواطا وأشواطا، بدل أن يغمر وجودها في ظلال كثيفة من الاتهامات الباطلة بالجهل والتخلف.

وفي رد وايتلام على مندهول الذي ادَّعى أن كنعان كانت فقيرة حضاريا يقول، أي وايتلام: ((فكنعان تقدّم صفوة المفكرين والمتعلمين الذين يُسيّرون مملكة داود [عليه الصلاة والسلام] والمراكز السكنية الفلسطينية أنتجت أوانٍ فخاريةً راقية، وأعمالا فنية تدلّ على حرفية عالية، **بينما الإسرائيليون، وفقاً لرأي معظم المختصين التوراتيين وعلماء الآثار، كانوا يعيشون في مواقع ريفية صغيرة، وكانت ثقافتُهم فقيرة وفجّةً ومادية**))(1) فكيف يصح أن يقال إن كنعان كانت فقيرة؟

وحسب فرضيات آلت ونوث، كانت كنعان ((وحدة ثقافية، إلا أنها من الناحية السياسية كانت بلا هوية))(2).

وإذا كان الأثر العمراني دالا مهما على الحقيقة، فبإمكاننا هنا أن نتوسع قليلا في الحديث عن عالم الأنفاق التي اكتُشفت والتي تعود إلى فترة ما قبل الإسرائيليين بقرون طويلة، مما يدل أنهم كانوا ذوي حضارة مرموقة..

فقد ((طرحت إسرائيل موضوع النفق عبر قاعدتين وهميتين: الأولى تحدثت عن أن النفق نمط يهودي أقيم في فترة الحشمانوئيين، أي ما بين الأعوام ١٣٧ق.م. و٧٠ق.م.، والثانية: كانت تعتبر كلا من النفق والآبار الموجودة في ساحات المسجد الأقصى، جزءا من مباني الهيكل الثاني، وأن هذه الأنماط بُنيت في عهد هيرودس.

((وحسب الدراسات وأعمال المساحة التي تمت في القدس، نجد أن بداية النفق كانت تعود لفترة العصر البرونزي المتوسط ٢٠٠٠ق.م.، وكذلك استخدمه البابليون عندما

---

(1) اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (٢٤٢).

(2) المرجع نفسه، (١٧٦)..

فتحوا القدس، وكذلك اليونانيون، ومن ثم تم تطوير هذا النفق حتى غطى منطقة المسجد الأقصى والجهة الشمالية من القدس، وفي فترة هيرودس تم حفر بعض المقاطع التي ربطت بين الآبار، وعددُها ٦٣ بئرا، وبين موقع برج الأنطونيا الذي بناه هيرودس في موقع المدرسة العمرية حاليا»(١).

«ولكن هاملتن مدير دائرة الآثار الفلسطينية في عهد الانتداب البريطاني، أشرف على الحفريات التي جرت في نهاية تلك القناطر، وكان ذلك في عام ١٩٣١م، وكان الحفر في نهاية الجهة الغربية، **ومن القراءة التي أجراها هاملتن للمواد الفخارية والأثرية قال: إن تلك الأعمال تعود إلى فترة القرنين السابع والثامن الميلاديين، أي إلى فترة العصر الأموي**»(٢).

إن الإسرائيليين لم يكونوا في يوم من الأيام سابقين حضاريين في فلسطين، بل هم صادفوا حضارة أنكرتها أجيالهم الآتية من بعدهم، ذلك أن منشئي الحضارة الأوائل في فلسطين هم الكنعانيون؛ يقول الأستاذان إبراهيم الفني وطاهر النمري: «**ولكن من نتائج الحفريات عرفنا أن الكنعانيين هم أول من حفر أنفاقا لجلب المياه من عين سلوان حتى الجزء الجنوبي من منطقة المسجد الأقصى**»(٣).

وتذكر دائرة المعارف البريطانية، في طبعتها المحررة عام ١٩٦٠م أن الحفريات التي عُثر عليها من آثار العصر اليهودي تدل على «**أنهم بدائيون جدا وبسطاء**»(٤)، وتقول دائرة المعارف أيضا: «**إن اتكال داود [عليه الصلاة والسلام] على حيرام (ملك صور) وعلى النجارين والبنائين والحدادين السوريين، يوضح أن فلسطين كانت لا تزال جارة**

---

(١) تفنيد مزاعم علماء الآثار الإسرائيليين، للفني والنمري، جريدة القدس، ٢٠٠٢/٢/١٩.

(٢) المرجع نفسه، ٢٠٠٢/٢/١٩م.

(٣) المرجع نفسه، والتاريخ نفسه.

(٤) دائرة المعارف البريطانية، طبعة ١٩٦٠م، نقلا عن: تاريخ فلسطين القديم، تأليف: ظفر الإسلام خان، (١٠٦).

فقيرة لسورية))[1]، أي في عهد داود عليه السلام، الذي يدَّعي اليهود انتماءهم إليه.

ويؤكد العلامة روبير دي لانج هذا السبق الحضاري للكنعانيين على العبرانيين من خلال الوثائق التي اكتشفها الآثاريون في رأس شمرة في أقصى الشمال السوري، ويقول: ((**إن العبريين اغترفوا من حضارة الكنعانيين، إذ كانوا قبل الغزو في نصف بداوة، ثم احتكوا بسكان بلاد متقدمة في الثقافة**))[2].

ويقول المؤرخ الأمريكي جيمس هنري بريستيد: ((وحين دخل العبرانيون فلسطين، وجدوا فيها الكنعانيين يقيمون في مدن زاهرة، تطوِّقها الأسوار الضخمة، فلم يستطيعوا أن يفتتحوا منها إلا المدن الضعيفة،...، وقد هزئت أورشليم القائمة بين جبال اليهودية بحملات العبرانيين عليها بضعة قرون.

((ولا يخفى أن هذه المدن التي عجز مهاجموها عن افتتاحها، كانت ذات حضارة قديمة، نشأت منذ ألف وخمس مائة سنة، ومنازل متقنة، حوت كثيرا من أسباب الراحة والرفاهية، وحكومةٍ وصناعةٍ وتجارةٍ وعلمٍ ومعرفة بالكتابة وديانة؛ حضارة اقتبسها أولئك العبرانيون السذَّج من مواطنيهم، لأنهم لم يستطيعون أن يعيشوا بمعزل عن أهل المدن الكنعانية التي عجزوا عن افتتاحها، لأن الصناعة والتجارة كانتا رابطا قويا بينهم.

((وقد أحدث هذا الامتزاج تغييرات جوهرية في حياة العبرانيين، فغادر بعضهم سكنى الخيام، وشرعوا يبتنون بيوتا كبيوت الكنعانيين، وخلعوا عنهم الجلود التي كانوا يلبسونها وهم في البادية، ولبسوا عِوضا عنها الثياب الكنعانية المصنوعة من منسوجات صوفية

---

(١) دائرة المعارف البريطانية، طبعة ١٩٦٠م، نقلا عن: تاريخ فلسطين القديم، تأليف: ظفر الإسلام خان، (١٠٦).

(٢) ويزيد دي لانج على هذا بقوله: ((إن كثيرا من العلماء يرون الآن أن آداب اليونان وآداب إسرائيل، تعود إلى مصدر واحد هو الأدب الكنعاني))، روبير دي لانجر، في كتابه: نصوص رأس شمرة وعلاقتها بالوسط التوراتي، نقلا عن مقال: القدس بين حقائق التاريخ وادِّعاءات الميثولوجيا، للأستاذ فيصل الخيري، نشرته مجلة صامد في عددها (١١٠) عام ١٩٩٧م.

زاهية.

((وبعد زمان معين، لم يعد التفريق بينهم وبين الكنعانيين الذين ساكنوهم ممكنا، لا في المنظر الخارجي ولا في المهنة ولا في أسلوب المعيشة، لأنهم اقتبسوا الحضارة الكنعانية كما يقتبس المهاجرون إلى أمريكا في هذه الأيام عادات الأمريكان وأخلاقهم وملابسهم وعاداتهم))[(١)].

ويقول الدكتور فيليب حتي: ((وكنعان علّمت إسرائيل الزراعة، فالعبرانيون دخلوا البلاد كبدو رُحَّل، وتم انتقالهم من مرحلة الرعي إلى مرحلة الزراعة بعد استقرارهم))[(٢)].

إذن، لم يكن اليهود أكثر من مقلدين لغيرهم في المجال الحضاري، بل لقد كانوا كانوا مستعدين للذوبان في لغة وحضارة غيرهم..

فاليهود في العهد السلوقي الذي ابتدأ عام ١٩٨ق.م. قد ذابوا نوعا ما في الحضارة اليونانية، ((وكان خاصةُ اليهود في القدس قد تجاوبت مع رغبات الحكام السلوقيين، **فتبنت اللغة والعادات اليونانية**))[(٣)]، ولكن العادات اليهودية ما رجعت إلا بعد تشدد أنطوخيوس اليوناني على اليهود، مما شكل فيهم ما يمكن أن يوصف بأنه ردة فعل على ما رأوا منه؛ أو ما يأتي ((ضمن الصراع الحضاري الذي اشتد مع عمليات القسر الحضاري))[(٤)]، هذا رغم أن الفلسطينيين بقوا على عاداتهم ولغاتهم.

إن هذا يعني أن اليهود لا يملكون حضارة تؤثر، بل يملكون نفسيات تضيع أمام حضارات الآخرين.

إن بني إسرائيل صادفوا حضارة، رغم وثنيتها في فترة قدومهم، إن صحَّ ما ينقله كثير

---

(١) العصور القديمة، تأليف: جيمس هنري بريستيد، ترجمة: داود قربان، (١٧٧-١٧٨).

(٢) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، تأليف الدكتور فيليب حتي، (٢٢١/١).

(٣) ملاحظات على تطور حياة اليهود في فلسطين للدكتور الدجاني، (١١١/٣).

(٤) المرجع نفسه، (١١٥/٣).

من المؤرخين، إلا أن التاريخ شهد لها بالتطور، وهي حضارة الكنعانيين، وبدل أن يعترف اليهود بوجود سابقيهم في فلسطين، إلا أهم جعلوا الكنعانيين أعدى أعدائهم، ولو أعلنوا العداء في وجه الكنعانيين بسبب وثنية الكنعانيين المُدَّعاة، على ما ذكره كثير من المؤرخين، لقلنا: إن الصراع كان بين وثنية الكنعانيين، إن ثبتت هذه الوثنية، وبين توحيد بني إسرائيل، لكن بني إسرائيل تشربوا الوثنية الكنعانية، بل الوثنيات المعاصرة، حتى شبعوا منها، وقاموا يبدعون في فنون الشرك والوثنية، بدل أن يبدعوا شيئا في عالم الفكر واللغة والحضارة والمدنية.

إن بني إسرائيل حينما أعلنوا عداءهم للكنعانيين لم يكونوا سوى تلامذة الكنعانيين، ومع ذلك، ورغم أن الكنعانيين، على ما ينقله المؤرخون: وثنيون، إلا أهم خدموا الحضارة خدمات جُلّى، لا زال البشر يعيشون في ظلالها.

إن بني إسرائيل اتبعوا حضارة الأقوام التي صادفوها في كل بلد عاشوه، وفي فلسطين، ولم يستطيعوا أن يسهموا بشيء يُسمى حضارة، وكل ما يمكن أن يُحفظ لهم هو ما خلفوه باسم التوراة، أو أسفار العهد القديم، وهو لا يصلح أن يسمى إسهاما إلا في ((مجال واحد، هو المجال الروحي،...، وقد اكتسب هذا الكتاب أهمية خاصة في العصور التي سبقت ظهور المسيحية، باعتباره الأثر الأدبي الوحيد الذي توارثته الأجيال عن طريق المرويات والتقاليد المتواصلة، بينما تأخر وصول الآثار الأدبية في الحضارات القديمة حتى حدثت الاكتشافات الأثرية الحديثة، فأخرجتها من باطن الأرض، حيث ظلت مدفونة أجيالا طويلة))(١)، ولكن، ياللأسف: جاء علم الآثار نفسه، وجاءت الدراسات الأدبية ذاتها لتقول قولتها في هذا الأثر الأدبي الحضاري الروحي الإسرائيلي القديم، إن علم الآثار لم يرحم حتى هذا الأثر!

ولكن هذا الأثر الذي تركوه، قام نفسُه بالشهادة ضدَّهم، فكشف عن تأخرهم الحضاري، وعن تخوُّفهم من حضارة الكنعانيين..

---

(١) ملاحظات على تطور حياة اليهود في فلسطين للدكتور الدجاني (١٠٦/٣).

وشهادة هذا الأثر تقطع قول كل خطيب، فهي تتضمن شهادة القوم على أنفسهم بأنفسهم، في كتابهم الديني..

ذكر سفر التثنية أن موسى عليه السلام أرسل جواسيس يتجسسون أرض كنعان، لأجل أن الله وعد الإسرائيليين إياها، فلما عاد الجواسيس، ذكروا ما رأوا من عظمة الأرض التي قدموا عليها، وصوَّر سفر التثنية حالة الجبن التي كان عليها بنو إسرائيل يومها، يقول سفر التثنية: ((.. وقلتم: الربُّ بسبب بغضته لنا، قد أخرجنا من أرض مصر ليدفعنا إلى أيدي الأموريين[1] لكي يهلكنا، إلى أين نحن صاعدون وقد أذاب إخوتنا قلوبنا قائلين: شعبٌ أعظم وأطول منا، **مدنٌ عظيمة محصنة إلى السماء**، وأيضا قد رأينا بني عناق هناك..))[2]، إن سفر التثنية ينقل شهادة بني إسرائيل في تلك الأيام أن مدن الأموريين، كانت عظيمة ومحصنة إلى السماء، فهل بعد هذه الشهادة من شهادة؟

إننا غير ملزمين بنصوص التوراة، لكننا هنا نطرحها لمن يرون أنفسهم ملزمين بها، وهم اليهود، وأولئك الباحثون الذين أرادوا أن يصوِّروا الكنعانيين، أصحاب الأرض الفلسطينية القديمة، بصورة المتخلفين حضاريا، فهل يا ترى يستطيع المتخلف حضاريا أن يبني مدنا محصنة إلى السماء، أم هل كذب سفر التثنية؟!

---

(١)كلمة أمورو تعني: الغرب، وهي التسمية التي كان يطلقها الأكاديون سكان العراق حينها على الشعوب التي كانت تسكن المناطق الواقعة إلى الشرق منهم، وعليه، فالكنعانيون مشمولون بهذه التسمية، وذلك أن الذين أطلق عليهم اسم (الأموريين) كانوا يسكنون إلى جهة الغرب بالنسبة للعراقيين، يُنظر: فلسطين أرض الرسالات الإلهية، (هامش ص ٧٦) للأستاذ جارودي، وهذا كما هو معروف في النصوص الأكادية العراقية القديمة، يُنظر: فلسطين من أقدم العصور، للدكتور معاوية إبراهيم، (٤/٢)؛ هذا، ولا يبعد أن التسمية بالأموريين استمرت إلى وقت قدوم الإسرائيليين إليها، كما يظهر من نص سفر التثنية الذي نقلناه أعلاه.

(٢) سفر التثنية، (١/٢٧-٢٨)، وتذكر كارين أرمسترونج في كتابها (القدس مدينة واحدة، عقائد ثلاث، ١٤٩) أن المسبيين إلى بابل من بني إسرائيل وجدوا بابل أكثر تقدما من المدن التي شاهدوها في وطنهم، وذات طابع دولي يفوقها جميعها.

ويا ضيعة أرباب الخطاب التوراتي الذي جاء ليهدم حضارة كانت وارفة الظلال، فإذا بالقرون الماضية تقذف من آثارها ما يهدم فكرهم، وما يثبت شيئا آخر: إن الفقراء حضاريا كانوا هم اليهود، وإن الكنعانيين ذوو عمران وبناء وفن وحضارة، قبل دخول بني إسرائيل إلى هذه الديار، في العهود الأولى.

إن الخطاب التوراتي بمجمله خطاب خرافي، ينتفخ بالخرافة، وينتعش بالأسطورة، ولذا فلا مكان له وسط الأبحاث العلمية إلا وفق قانون دراسات الخرافة والأسطورة، ومنابعها وآثارها.

إن من لا يملك إلا الأساطير، يجب عليه أن يفر من مواجهة الحقائق، وإلا داسته وهي تجري، ولكن يبقى له حق في حديث الأساطير والخرافات، ليس في المجتمعات البحثية والعلمية الموضوعية، إنما في تجمُّعات الخرافات والأساطير!

الفصل الثالث: لِمَ كل هذا الصراع على فلسطين القديمة؟

ولكن، لِماذا كلُّ هذا الإنكار للتاريخ الفلسطيني القديم، ولماذا يقرر التوراتيون المنازعة فيه، وتجاوزه، أو تحويل وجهته؟ لماذا لا يخطر ببال الباحثين التوراتيين إلا الابتداء بالتاريخ الإسرائيلي في فلسطين، الذي هو ذاته بالِغُ القصَر، وشديد التأخر عما سبقه من التورايخ؟

ورغم أننا أشرنا إشارات متناثرة حول الإجابة على هـذه التسـاؤلات في الفصـل السابق، إلا أننا نرى ضرورة التفصيل فيها.

إن الصراع على فلسطين القديمة، لا يقل أهمية عن الصراع على فلسطين المعاصـرة، فإثبات هوية أولاهما يؤثر تلقائيا على هوية الثانية، وعلى هذا، «**فمسألة فلسطين والتاريخ الفلسطيني، في مقابل إسرائيل والتاريخ الإسرائيلي، لا يمكن فصلُهما عن الادعـاءات المعاصرة، وكذلك الادعاءات المضادة المتعلقة بالماضي**»[1]؛ إن الدعاوى العريضة الـتي يطرحها اليهود على العالم في أيامنا هذه، والتي تقوم على ادِّعاء أن فلسطين لهم لا لغيرهم؛ تحتاج في منظارهم إلى إثبات أو ادِّعاء أنهم كانوا في التاريخ الماضي هم عُمّار فلسـطين، وأن فلسطين ما عرفت ناسا قبلهم، أو ما عرفت حضارة قبل حضارتهم، ولذا فهم حـين يصارعون من أجل فلسطين القديمة، فإنهم لا يضعون في أدمغتهم إلا اغتصاب فلسـطين المعاصرة.

إن تجريد فلسطين الماضية من تاريخها، وتجريد الفلسطينيين الماضين من وطنهم، مـا كان في العقل اليهودي إلا لُمقابِل سياسي معاصر، ويتمثل هذا المقابِـل، كمـا يشـرح وايتلام، في «**السيطرة الصهيونية على الأرض، وسلب الشعب الفلسطيني من أرضـه، وتصويره على أنه شعب بلا تاريخ، أو تجريده من هذا التـاريخ، وهكـذا نـرى أن الخطاب التوراتي يجعل الفلسطينيين شعبا غير ذي أهمية، وفي نهاية الأمر غير موجود،** إنه

---

(١) اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (٨٤).

تفسير قُدِّم على أنه بحث علمي موضوعي، وهو يحمل وراءه ثقل المؤسسات الفكرية الغربية، وهي أسيرة الفهم الشائع للحاضر الذي جعلت فيه دولة إسرائيل المعاصرة الأرضَ الفارغة والقاحلة تثمر))[١].

ألا تلتقي هذه الأفكار الصهيونية التي يعرض لها وايتلام تماما مع ما تقوله الصهيونية الملتزمة جولدا مئير، من اعتبار الشعب الفلسطيني المعاصر غير موجود؟ قالت جولدا مئير: ((**ليس هناك شعب فلسطيني،....، ولم يكن الأمر أننا جئنا وأخرجناهم من الديار واغتصبنا أرضهم، فلا وجود لهم أصلا**))[٢]، وهذا الموقف الذي عبّرت عنه هذه المرأة الصهيونية، يحتاج أكثر ما يحتاج إلى سند تاريخي، ليتناغم مقابله الماضي مع الحاضر، وهو ما تسعى إليه الصهيونية اليهودية وحليفتها الصهيونية المسيحية.

إن هنالك أقواما يعملون في التنظير، وآخرين يعملون في التنفيذ، وإن رجال هذا المنهج التوراتي، يلتقون تماما مع رجال السياسة وقادة الفرق العسكرية، التي عملت على طرد الشعب من أرضه، والتي برّرت ذلك إعلاميا بأن الماضي في فلسطين هو ماضي اليهود وحدهم، لأجل أن يكون الحاضر أيضا هو حاضر اليهود وحدهم دون غيرهم[٣].

((**إن الصراع حول الماضي إنما هو دائما صراعٌ من أجل الهيمنة والسيطرة في الحاضر**))[٤] وهذا كله لأجل الاستحقاق السياسي الذي يقصد إلى جلب المزيد من

---

(١) المرجع نفسه، (٩٢-٩٣).

(٢) صحيفة الصنداي تايمز، ١٩٦٩/٦/١٥م، نقلا عن الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، تأليف: روجيه جارودي، (٢٢٣).

(٣) إن فكرة الحق التاريخي تقوم على تلك الرؤية التي نحن في صددها، ونحن في تفكيرنا العربي الإسلامي نرفض أن يكون الوجود التاريخي القديم إن صحَّ مستندا لإثبات حق حديث، ولقد عقدنا بابا خاصا بموضوع الحق التاريخي، ولقرينه الوعد بالأرض، فلْيُنظر إليهما.

(٤) اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (١٣٠).

المهاجرين اليهود[1]، فهم لا يريدون لمهاجريهم أن يأتوا إلى أرض ملأى بالبشر، فليُنَظَّر إذن لطرد البشر، واستجلاب بشرٍ آخرين.

كذلك فإن «...البحث عن إسرائيل القديمة، **ليس مجرد إعادة بناء نزيهة للماضي، ولكنه يتعلق بموضوع بالغ الأهمية يتصل بالهوية وميزان القوى المعاصرة**»[2]، إن الحاضر السياسي هو الذي يتحكم بالماضي التاريخي والحضاري والديني معاً، وإنه بدون ضرورات هذا الحاضر السياسي، فإن تلك المعارك الفكرية والآثارية والدينية التي يخوضها كل هؤلاء، لن تجد لها مبررا.

ويقول وايتلام في النطاق ذاته: «وهكذا، فإن بحث الدراسات التوراتية الغربية المدفوع بدافع ديني، الذي يرمي إلى تأكيد الأعمال الإلهية في التاريخ، تلاقى بطريقة وثيقة مع البحث عن إسرائيل الحديثة المدفوع بدوافع سياسية، **فتحوُّلُ علم الآثار بحيث يخدم الحاضر، قد أحرز في إسرائيل تقدما يفوق ما أحرزه في أي مكان آخر، ويُعدُّ هذا تعبيرا عن حاجة دولة –المدينة إلى إثبات شرعيتها وامتلاكها الحاضر عن طريق اكتشافها لذاتها في الماضي**»[3]، وعلى حدِّ قول وايتلام أيضا معقِّبا على بعض ما نقل عن العلماء التوراتيين، إن هذه الدراسات هي من نوع: «..**التأثير الخفي للحاضر على الماضي المتخيَّل**»[4]؛ إن ادعاء إسرائيل بحقها في الوجود على هذه الأرض «قائم على أساس السابقة التاريخية، وعلى هذا الأساس، فإن دولة إسرائيل المعاصرة، ما هي إلا إعادة

(١) فلسطين من أقدم العصور، للدكتور معاوية إبراهيم، (١٤/٢).

(٢) اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (١٣١).

(٣) المرجع نفسه، (٢٩٠).

(٤) المرجع نفسه، (٢٢٠) وكان وايتلام قد ذكر في مقدمة كتابه (٢٧-٢٨) أنه «يبدو أن تاريخ فلسطين القديم لا يقع ضمن تخصصات اللاهوت أو التاريخ في مؤسساتنا الجامعية، بل فعليا كموضوع أكاديمي، يبدو تاريخ فلسطين غير موجود من الأساس: لقد أسكته الخطاب التوراتي المهيمن واستبعده».

بناء لِما كان موجوداً في الماضي))[(١)] على ما يدّعون.

وهكذا يبدو لنا أن ((الباحثين التوراتيين وعلماء الآثار هم طرفٌ، ربما بشكل غير مقصود، في الادعاءات والادعاءات المضادَّة بين إسرائيل والفلسطينيين، إنهم، على أقل تقدير، جزءٌ مما يسميه إدوارد سعيد بالتواطؤ السلبي؛ **إن ثِقل الدراسات التوراتية يؤدي إلى تصور ماضٍ ملتزمٍ بادعاءات الدولة الحديثة**..))[(٢)].

يبدو واضحا إذن، من خلال تحليل وايتلام للدراسات التوراتية وللخطاب التوراتي، أن إثبات حق إسرائيل المعاصرة في فلسطين، كان من وراء هذا التشغيب على التاريخ الفلسطيني القديم، وفق المنطق الذي يقول: إن من يستطيع أن يُثْبت سبْقَه التاريخي في هذه البلاد، هو صاحب الأولوية في أن تكون له في عصرنا دون غيره من الناس، ولِذا، فإن مجمل الدراسات التوراتية المتعلقة بهذا المجال، تنفي الوجود الفلسطيني القديم، أو تتهمه بالتخلف، في مقابل ما تقوم به هذه الدراسات من إشادة بالوجود الإسرائيلي القديم، واعتبارِه ليس مجرد وجود أول، بل هو أيضا الوجود الحضاريُّ الأول.

وكثير من العلماء الآثاريين مؤسسون لواقع سياسي معاصر، أو داعمون له، منظِّرون لإنجاحه، بعد أن تخلوا نهائيا عن شيء تسميه أدبيات البحث العلمي (الأمانة العلمية) ولقد كشف وايتلام عن وجه هذه الحقيقة، وذلك حينما قال تعقيبا على أبحاث آثارية ثلاثة لثلاثة من الباحثين: ((على أن هذه المراجعات والتحليلات النقدية قد أخفقت في إدراك كيف أن عمليات بناء إسرائيل القديمة تلك،...، **قد عكست الأحداث الجارية في فلسطين في الوقت الذي صيغت فيه تلك الأبحاث**))[(٣)] فسِمَةُ هذه البحوث إذن، إنما هي تبرير وجود إسرائيل المعاصرة، عبر إثبات إسرائيل القديمة، و**إنها مشبوهة بسبب تـزامُنِ كتابتها مع أحداث الصراع الجاري في فلسطين في ذلك الحين**؛ وفي تعليقه على فرضية

---

(١) المرجع نفسه، (٢٠٣).

(٢) المرجع نفسه، (٢٣٥).

(٣) المرجع نفسه، (١٣٠).

ابتدعها الألماني ألبرخت آلت في كتابه (حيازة الإسرائيلي للأرض الفلسطينية) -نُشر عام ١٩٢٥م- وهي تعتبر أن وجود الإسرائيليين في فلسطين قديما كان عبر تسلل وهجرة سلمية، يقول وايتلام عن هذه الفرضية إنها كُتبت في "**الفترة التي شهدت فيها فلسطين ازدياد الهجرة الصهيونية إليها**"(١)؛ إن حاجة الصهيونية إلى مزوِّرين هي التي دعت آلت وأمثاله إلى مثل هذه التحليلات، وإن حاجة إسرائيل إلى الهجرة المعاصرة إلى فلسطين، حتَّمت على مُدَّعي الموضوعية في البحث أن يرسموا شكل الهجرة اليهودية القديمة إلى فلسطين، ليكون المهاجر اليهودي المعاصر إليها منطلقا من نموذج تاريخي يتأسى به.

ويقول وايتلام: "إن السمة الرئيسية لنظرية آلت، وهي وجود مجموعات ذات شأن من البشر تبحث عن وطن قومي لها، يجب أن تُفهم في سياق تلك التطورات المذهلة في فلسطين في وقت قيام آلت ببحثه، تلك التطورات التي يستبعد جدا أن يكون غيرَ مدرِك لها"(٢)، وهذا يعني أن مثل تلك الكتابات التي تتحدث عن كيفية تأسيس الوجود الإسرائيلي السابق، وتحديده بشكل الهجرة السلمية التي يتحدث عنها آلت؛ إن مثل هذه الكتابات مشبوهة بالتنظير للهجرة اليهودية المعاصرة، ولإقامة دولة إسرائيل الحالية.

وهكذا، فإنه يكون قد انجلى الأمر لنا، و لم يعُد فيه أدنى لبس..

إن هذا التوجه لم يجد طريقا إلى العقول الغربية إلا لأجل شيء واحد، هو تبرير الاستيطان اليهودي في فلسطين، انطلاقا من أن تاريخ فلسطين الماضي إنما هو تاريخهم هم، وأنه لا دخل لمن سواهم فيه.

---

(١) المرجع نفسه، (١٣٣).

(٢) المرجع نفسه، (١٣٦).

الباب الثاني:

انتماء فلسطين إلى العرب والمسلمين

إن ما سنطرحه هنا يؤكد أن القدس وفلسطين، أعني الأرض المقدسة، هي تاريخيا ذات انتماء واحد، لا صلة لليهود به من قريب ولا من بعيد، إنه انتماء إلى العروبة والإسلام، ولسوف يرى القارئ الشواهد المؤكدة لهذا الأصل الهام من أصول بحثنا هذا، وحينها سيكون اليهود، قدَّسوا الأرض أو لم يقدسوها، فهذا شأنُهم؛ سيكونون في فلسطين غرباء عن تاريخها القديم، بل سيتحدث العهد القديم معترفا أن بني إسرائيل كانوا في قرونهم الأولى غرباء عن القدس.

إن هذا الباب، وهو الباب الثاني من بحثنا هذا، عُقِد خصيصيا كاستجابة طبيعية في ميدان الصراع الفكري على فلسطين القديمة، ولقد أوضحنا في الباب السابق رؤية أقطاب المنهج التوراتي لفلسطين القديمة، وبيَّنّا رؤيتهم المساهِمة في الصراع على فلسطين الحديثة، ذلك أن ((**الصراع حول الماضي إنما هو دائما صراعٌ من أجل الهيمنة والسيطرة في الحاضر**))[1]، وهذه الرؤية تقوم كما قد أوضحنا سابقا، على اعتبار ألا تاريخ لفلسطين القديمة إلا التاريخ الإسرائيلي، أو التوراتي.

إن الرؤية الصهيونية التي تعتمد الخرافة مستندا، تحاول أن تسرق الماضي الفلسطيني، لأجل سرقة الحاضر الفلسطيني، كما قد بينا؛ وهذا الباب، وإن كان متخصصا في الماضي الفلسطيني، فهو يجيء في الحقيقة من أجل الحاضر الفلسطيني، ليتبين لنا من خلال البينات التاريخية والآثارية، أن لا مستمسك لمن يدّعي أن فلسطين القديمة إسرائيلية.

إن هذا الباب جاء يستعرض حقيقة الماضي الفلسطيني، ليتبين للقارئ الكريم، من خلال ما طرحنا من استدلالات، فساد الرؤية التي ينطلق منها أقطاب المدرسة التوراتية المعاصرة، التي بذلت جهودا عظيمة، تشهد على قدرة الإنسان الغربي على التزوير واعتماد الخرافة والأسطورة.

---

(١) اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، ترجمة سحر الهنيدي (١٣٠).

وسنكتشف أن تاريخ القدس خاصة وفلسطين عامة، حافل بالأحداث قبل ولادة أي يهودي أو إسرائيلي في الدنيا كلها.

إن الهوية العربية الإسلامية ستكون ماثلة أمام القارئ، وستُعلن فلسطين عن نفسـها إعلانها الكبير قائلة: إنني أرض الأنبياء، وأرض العرب والمسلمين، ولا أعرف في تـاريخي الطويل سوى هذا.

التمهيد لهذا الباب: ساميون أم عرب؟

أرى أنه لا بد من الإشارة إلى أن إطلاق لقب (الساميين) على من أُطلق عليهم، إنما جاء أصله من صحيفة الأنساب، الواردة في الإصحاح العاشر من سفر التكوين من توراة اليهود، ففيه أن آشور وآرام وعابر، كانوا جميعا من أبناء سام، وهذا التحديد لا يُعرف له من مصدر إلا التوراة، وهي في البحث العلمي لا تحتمل الثبوت، فإن تعرّض لها البحث فلا تكاد ترى منها شيئا يثبت إلا النزر اليسير، فلا أرى اعتماد التوراة في مثل هذه الأمور، لكنني اضطررت إلى الجري ما مع اشتهر لدى المؤرخين والدارسين لتاريخ الشعوب القديمة في المنطقة، فأطلقت لقب الساميين على من عُرفوا بهذه التسمية.

ومن المعروف أن أول من اقترح لقب الساميين على من أُطلق عليهم هذا اللقب هو اللغوي الألماني شلوتزر عام ١٧٨١م، كما ذكر الأستاذ الدكتور حسن ظاظا(١)، وغيرُه في مصادر شتى، ولقد حدد شلوتزر المنطقة التي يَعتبر أن من أَطلق عليهم الساميين خرجوا منها، أو إليها يرجعون بقوله: ((من البحر المتوسط إلى الفرات، ومن أرض الرافدين حتى بلاد العرب جنوبا، سادت، كما هو معروف، لغة واحدة، ولهذا كان السوريون والبابليون والعبريون والعرب شعبا واحدا، وكان الفينيقيون (الحاميون) أيضا يتكلمون هذه اللغة، التي أودّ أو أسميها اللغة السامية))(٢).

ونُصِرُّ أن هذا التوجه التوراتي غير مُلزمٍ لأحد في البحث العلمي، بل كل ما هنالك أنه أمر اشتهر بين البشر، وما كل ما اشتهر بين الناس كان حقا.

وأرى أن هذا التوجه التوراتي، وأن التزام البحث التاريخي واللغوي المعاصريْن به، قد أسهما في ترسيخ قيم العنصرية بين الناس، ورغم أن القضية عند كثير من الباحثين لا

---

(١) الساميون ولغاتهم، تأليف: حسن ظاظا، (٩).

(٢) يُنظر: تاريخ الشرق القديم، أحمد ارحيِّم هبّو، (٨٢).

تتجاوز التبويب اللغوي أو الأنثروبولوجي، لكنه صار يُؤسس لشكل من أشكال التمييز العنصري بين البشر..

فقد نقلت التوراة على لسان نوح عليه السلام أنه قال: ((**ملعون كنعان، عبد العبيد يكون لإخوته، وقال مبارك الرب إله سام، وليكن كنعان عبدا لهم**))(1)، ويأتي في سفر التكوين أيضا ذكر كنعان باعتباره من أبناء حام: ((وبنو حامٍ: كوشُ ومصرايمُ وفوطُ وكنعانُ))(2)، مع أن هذه الأحكام هي أحكام مزاجية، تكشف عن قدرة هائلة يملكها الأحبار على التزوير والادِّعاء، ثم على نسبة ذلك كله إلى الدين، ووضعه في الكتاب المقدس لديهم(3).

---

(1) سفر التكوين، (٩/٢٦-٢٧).

(2) المرجع نفسه، (١٠/٦).

(3) ونحن، رغم ما قرأه القارئ، من عدم استراحتنا لهذا اللقب (السامية) بسبب أصوله التوراتية، التي تبين لنا أنها غير صالحة لكشف قديم جدا في عالم الأنساب، غير أننا جرينا على هذه التسمية، لشيوعها.

ومن هنا فإننا نرجع إلى ذكر ما رغبنا في ذكره حول الكنعانيين والسامية، لنقول:

إن التوراة لم تذكر كنعان في أبناء سام بن نوح، ومن هنا، فإن اليهود يُخرجون الكنعانيين من الساميين، ونحن، رغم رؤيتنا القاضية بأن اللقب: سامية، إنما هو لقب لعائلة لغوية، وليس لقبا بيولوجيا، إلا أننا نرفض هذا التوجه التوراتي، بسبب انطلاقه من عنصرية غير مرغوبة عند بني الإنسان.

وننقل هنا نصا حرفيا قرأناه في كتاب (الحضارة العربية الإسلامية) للدكتور شوقي أبي خليل، فقد قال في كتابه، هامش ص (١٦١):

وجد العالِمان الفرنسيان: فيرولو ودوسّو في الملاحم الفينيقية التي اكتُشفت في أوغاريت، أن الفينقيين أنفسهم يذكرون بأن أجدادهم قد هاجروا من منطقة النقب إلى الساحل السوري، ومن المعلوم أن النقب كانت محطة انتقال من حياة البداوة إلى حياة التحضر، وهذا دليل كافٍ لنقض افتراءات من أسقط الكنعانيين من جدول الشعوب العربية القديمة، ليجعلوا قوم موسى أول من سكن فلسطين، وكأنها كانت بلا سكان، حتى قال صاحب كتاب: (السُّريان: حضارة وإيمان) (٣/٨٦): ((ويتضح هذا من مراجعة الجدول الخاص بأنساب نوح الواردة في التوراة، إذ نرى عدم ذكر الكنعانيين

وقد أسهم هذا الكلام أكثر من كثير غيره في ترسيخ أسس العنصرية والتفكير العنصري بين البشر، فأَنْ تبدأ اللعنات منذ أوائل تاريخ البشر على قوم لمجرَّد أنهم من بني فلان، فهذا قمة العنصرية، أو الحضيض الأسفل في العنصرية.

وكون صحيفة الأنساب تذكر أن كنعان ليس من ولد سام، إنما هو من ولد حامٍ، ورغم أن كلا الولدين من أبناء نوح عليه السلام، حسب الموجود في التوراة، فإن هذا سيسمح للناس باتباع أشكال من العنصرية مع أبنائهم المباشرين، لمجرد دعوى خطأ ارتكبه واحد منهم، فتمسي ذريته من المنبوذين!

وتنتشر بين الناس، في الإعلام، وفي الحديث في التمييز العنصري بين الناس، تنتشر عناوين من مثل: فلان سامي، وفلانٌ مُعادٍ للسامية؛ ويتهم اليهود دائما من يكشف أستارهم بأنه مُعادٍ للسامية، وكأن الحقيقة يجب أن تتوارى وتختبئ، خشية من أن يقال: إن كاشفها مُعادٍ للسامية.

أما قضية صرف الكنعانيين من أن ينتسبوا إلى سامٍ، فإننا نقول أولا: إن هذا لن يَضير الكنعانيين، لو صح، بل الذي يَضير الكنعانيين وسواهم: مدى ما قدّموا ومدى ما أخروا في عالم العطاء الحضاري، والإبداع القِيَمي، والخدمة للبشر، ولقد بيَّنا أن الكنعانيين أولو حضارة باهرة شهد لها الشرق والغرب، ولا داعي إلى بحث هذا الأمر هنا، بعد إذ أشبعناه.

بين أبناء سام، لكونهم غيرَ ساميي الجنس والدم، في حين أن لغتهم تُعدُّ ساميَّة، ولقد توهم كثيرا من جعل الكنعانيين ساميِّين، وشك في صحة الجدول التوراتي، لعدم ذكره الكنعانيين بين أبناء سام، ولا صحة لقول بروكلمان أن بني إسرائيل هم الذين أقصَوا الكنعانيين من الجنس الساميّ، لأسباب سياسية ودينية، إن الكنعانيين غير ساميّين» ويعلق الدكتور شوقي أبو خليل: «ولخطورة هذه الأسطر وأمثالها في الكتاب، زرت المؤلف مع بعض الزملاء، ومع الاحترام، ناقشنا الأمر، وتراجع –عن قناعة أو عن غير قناعة– في الجزء الرابع، وجعل الأمر الخطير هذا: خطأً مطبعيا، ليس غير».

انتهى ما نقلناه من كتاب الحضارة العربية الإسلامية.

ثم نقول ثانيا: إن اليهود ليسوا أولياء البشر، وليسوا هم مالكي شهادات الميلاد للبشر، وليسوا هم موزِّعي القيم بين البشر، فهم ليسوا سوى بشر من البشر، يقع عليهم ما يقع على من سواهم من الناس، ثم إنهم، وهم ينسبون إلى غيرهم أشكال العنصرية، إنهم هم الممارسون لها، بل المنظرون لها.

ثم إن شرقيي اليهود لم يسلموا من عنصرية غربييهم في إسرائيل نفسها، فكيف يمكن أن يحملوا ميزان الإنسانية الصادق في حق من سواهم؟

إننا نتهم اليهود وكتابهم التوراة بأنهم المنظِّرون الأولون للعنصرية في التاريخ البشري.

ثم نقول ثالثا: إن مصدرية التوراة لمثل هذه الأمور ولسواها، لا يُعطيها قدرة على الثبات، بل إن التوراة لم تنجح في باب البحث العلمي.

ونقول رابعا: إن اليهود هم الذين ابتدأوا بالكذب على البشر، فنفوا بعض الأمم من الانتساب لآبائهم، لمجرد كونهم أعداء لهم.

يقول بروكلمان: ((**إن العبرانيين كانوا قد تعمدوا إقصاء الكنعانيين من جدول أنساب سام، بسبب العداء الذي كان بينهم وبين الكنعانيين**، والتي تتمثل في قصص الحروب التي نشبت بين الطرفين، ودُوِّنت أخبارها في أسفار التوراة، فحملهم عداؤهم لهم وحقدهم عليهم على التنصل منهم، وعلى التبرؤ من إلحاق نسبهم بشجرة أنساب سام بن نوح))[١].

وهنا لا بد أن نؤكد:

إن قولنا: إن العرب ساميون، لا يعطي للعرب أية ميزة على غيرهم من البشر، وإنما السامية غالبا في تقديرنا، حين نزولنا إلى قبول استخدامها اصطلاحا فيما نحن بصدده، إن السامية حينها تكون شكلا من أشكال التبويب للغات البشرية، حيث اعتُبر بعضها ساميا،

---

(١) نقلت هذا الكلام عن: العرب واليهود في التاريخ، تأليف الدكتور أحمد سوسة، (٣٨٨).

و لم يعتبر بعضها كذلك، وليس في الأمر سوى القرابة اللغوية.

فليست السامية لدى الذين رضُوا باستخدامها لقبا لأولئك الشعوب، في باب البحث اللغوي؛ ليست ذات معنى عنصري، ينقل الدكتور ظاظا عن العالم الفرنسي الأب هنري فليش قوله: ((إنه ينبغي ألا نفهم من استعمال كلمة السامية أي شيء أكثر من اصطلاح المقصود به تيسير الأمر على الباحثين، دون أن نعتقد أن له دلالة عنصرية))(١).

ويؤكد الأستاذ جارودي أن اللقب (سامي) لا يعني جنسا أو عنصرا، ولكنه كان يعني أولا مجموعة لغوية هي مجموعة اللغات السامية(٢)، وهو يعني ثانيا: وَحدة الموطن الأصلي، لا وحدة الأب، وربما يعني أيضا وَحدة الدين الأول الذي كانوا عليه.

هذا، ولا يؤيد كثير من العلماء المعاصرين تسمية هذه الشعوب القادمة من الجزيرة العربية بالساميين، ذلك أنهم في الحقيقة عرب من العرب، بسبب انتسابهم إلى جزيرة العرب، وانطلاقهم منها، يقول الدكتور جواد علي في موسوعته الكبرى: المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ((**نعم، لقد قلت إن مصطلح الشعوب العربية هو أصدق اصطلاح يمكن إطلاقه على تلك الشعوب، وإن الزمان قد حان لاستبدال مصطلح (عربي وعربية) ب (سامي وسامية)**))(٣)، قال الدكتور جواد علي هذا الكلام، لكنه لم يُجرِ دراسته في موسوعته الكبرى وَفْقَه.

ومع ذلك فليست العروبة أيضا دعوى عنصرية، يتم على أساسها التمايز بين الناس، بل لقد حسم الأمر رسول الله ج قديما بقوله: (**لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى**).

ونفهم من كل ما مضى هنا أن القضية اصطلاحية بحتة، وأرى أن أمر البحث في مثل هذه المسائل لو كان بيد المسلمين لكانت الاصطلاحات نفسها تختلف أيضا.. والله

---

(١) نقلت كلام هنري فليش عن: الساميون ولغاتهم، تأليف: حسن ظاظا، (٩).

(٢) يُنظر: فلسطين أرض الرسالات الإلهية، روجيه جارودي، (٥٦).

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام، للدكتور جواد علي، (٨/١).

المستعان.

ونود أن نختم هنا بكلام العلامة محمد عزت دروزة : تعالى، حول قضية الانتساب إلى الجنس العربي..

يقول العلامة محمد عزت دروزة: "ونحن إذ نقول (الجنس العربي) لا نقصد المعنى الفني الدقيق الذي يتميز به جنس بشري عن جنس آخر بخصائص جسمانية في الدرجة الأولى، وإنما نقصد المجموعة البشرية التي عاشت في جزيرة العرب منذ أقدم الأزمنة التاريخية المعروفة، وتشاركت في اللغة والأفكار والتقاليد، حتى صارت بذلك جنسا واحدا، فلما أخذ ينساح من هذه المجموعة موجات إلى المناطق المجاورة للجزيرة كان ذلك التشارك قد تم بينها ثم ظل قائما، وهذا لا يتعارض كما هو واضح مع احتمال كون المهد الأول لنواة هذه المجموعة ليس جزيرة العرب على ما يقرره بعض الباحثين، ولا مع احتمال تكوّن هذه المجموعة في عصور ما قبل التاريخ من عناصر أفريقية وآسيوية، على ما يقرره بعض الباحثين كذلك، ولقد درج باحثو الغرب وتبعهم كُتّاب العرب على تسمية الشعوب التي تنتسب إلى جزيرة العرب أو التي تشارك في اللغة والأفكار والعقائد من سكان العراق والشام ووادي النيل ودولها بالساميين.. "(١).

فنحن نبقي الأمر في إطار مجرد من تلبس أي شكل من أشكال القيم به، فليس انتماء فلان إلى سامٍ، إن كان ثمة من اسمه سام، وليس مجرد انتماء آخر إلى حامٍ أو يافث، ليس انتماء هذا إلى ذاك، أو ذاك إلى فلان، ليس شيء من هذا بمُعطٍ المنتمي شيئا من الحق القيمي الإنساني، ثم يمنع عنه الآخر.

---

(١) تاريخ الجنس العربي، تأليف العلامة الأستاذ محمد عزت دروزة، (ج٢/٦-٧ الحاشية).

الفصل الأول: مدينة القدس إسلامية الجذور

إنه على اعتبار أن الإسلام هو دين الأنبياء جميعا من لدن آدم ونوح، مرورا بإبراهيم وموسى وعيسى، وانتهاء بمحمد[1]، عليهم الصلاة والسلام، إنه على هذا الاعتبار سنقتحم ها هنا، بإذن الله تعالى، لجة مبحثٍ قد يبدو للقارئ الكريم مقطوعَ الصلة بموضوع بحثنا هذا، ذلكم هو: البحثُ في زمنِ بناء الكعبة المشرَّفة، وسيتطرق البحث إلى هذا الموضوع تطرقا يسمح فقط في تحديد الزمن نسبيا، أي: زمن بناء الكعبة المشرفة نسبة

---

(١) فالإسلام الذي نعنيه هنا في قولنا: إن القدس إسلامية الجذور، هو ما كان عليه الأنبياء والمرسلون جميعا قبل سيدنا رسول الله محمد صلى الله عليه وعليهم جميعا، وهو القائم على توحيد الله تبارك وتعالى، وهو المقصود بقوله سبحانه عن سيدنا إبراهيم عليه السلام: (**ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا، ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين**)، (آل عمران ٦٧)، وهو كذلك المقصود بقوله تعالى حاكيا دعاء يوسف عليه السلام: (**ربِّ قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث، فاطرَ السماوات والأرض، أنت وليِّي في الدنيا والآخرة، توفني مسلما وألحقني بالصالحين**)، (يوسف ١٠١)، إذ من المعلوم أن الإسلام هو دين الله تعالى، ودين الأنبياء عليهم السلام، وأن الأنبياء على اعتقاد واحد محورُه التوحيد، وأنهم واجهوا في كل جيل من أجيالهم مجتمعات ذات متطلبات مختلفة، أو ذات تطورات تختلف عن بعضها البعض، مما حكمت فيه حكمة الله تعالى، أن يُنزل لكل نبي تشريعا يختلف سعة وشمولا عما عليه التشريع لدى الأنبياء قبله على الأغلب، حتى جاء عصر الرسول **ج**، فأنزل الله إليه تشريعا يتسم بالسعة والشمول والرحمة والدوام، لأجل كل ذلك قال عليه السلام: فيما رواه البخاري: (ح: ٣٤٤٣) (**الأنبياء إخوة لعَلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد**)، فالدين الذي هو الاعتقاد القائم على التوحيد واحد، أما الشرائع فهي التي تختلف عن سابقاتها سعة وشمولا ودواما.

إذن، فعلى هذا المعنى نقول: إن القدس إسلامية الجذور، أي على معنى الإسلام المتعارف عليه عند الأنبياء عليهم السلام، والقائم على توحيد الله تعالى، وعبادته وحده لا شريك له.

ولأجل هذه المعاني التوحيدية، كانت العبادة لله وحده، وكانت المساجد له وحده، وكانت الكعبة لله وحده، وكان الأقصى لله وحده..

إلى زمن بناء غيرها؛ لا إلى تحديد الأمر بالسنوات، فإن ذلك متعذر للغاية..

وذكرنا هنا أن هذا البحث قد يبدو غريبا في إطار البحث في فلسطين وانتمائها؛ لكن سيظهر للقارئ سريعا أننا ما سقنا هذا الفصل إلا لأجل الحديث عن غيره، ألا وهو معرفة زمن بناء الأقصى وبيت المقدس نسبة إلى زمن بناء الكعبة المشرفة، فالأقصى والقدس هما لبٌّ موضوعنا هنا.

ذلك أنه ثبت لدينا دينيا، كما سيأتي، أن المسجد الأقصى بُني بعد أربعين عاما من بناء الكعبة المشرفة، بيت الله الحرام، أعزَّه الله وحرسه؛ فإذا تبين لنا زمان بناء الكعبة المشرفة، ولو إجمالا، فلا بد أن يتبين بالمقايسة زمن بناء المسجد الأقصى، ولو إجمالا أيضا..

فإذا تبين لنا أن الكعبة المشرفة بنيت في أول الوجود الإنساني على الأرض، في حالة كون بُناتها هم البشر، فإن المسجد الأقصى يكون قد بني هو الآخر في أول الوجود الإنساني على الأرض، ذلك أنه، وكما سيرى القارئ، ثبت لدينا في ديننا أن بين بناء الكعبة وبناء الأقصى أربعون عاما.

وأما إذا كان بُناة الكعبة هم الملائكة عليهم الصلاة والسلام، فإن هذا يعني أن آدم عليه الصلاة والسلام هو باني المسجد الأقصى، إذ ستأتي بعض الروايات تتحدث عن أن الملائكة هم بُناة الكعبة المشرفة الأوائل، **وكأن الملائكة لما بنوا الكعبة المشرفة، في حال صحة بنائهم لها، كأنهم تركوا شرف بناء المسجد الأقصى لسيدنا آدم عليه الصلاة والسلام، وهذا من باب التقسيم الرباني لمواطن الشرف، فليس كل شيء من فعل الملائكة، وليس كل خير من فعل آدم، بل لله قسمة جعل كل صاحب نصيب منها ينتسب إلى نصيبه، أو ينسب نصيبه إليه.**

ومع ذلك، فسيعتمد بحثنا آدمَ عليه الصلاة والسلام، كأول بانٍ للكعبة المشرفة[1]؛

---

(١) أرجو أن أنتهز هذه الفرصة لأشيد بكتابين كريمين كتبهما المؤرخ العربي الفلسطيني الأستاذ

فإذا كان ذلك كذلك، فإنه سيثبت لنا أن المسجد الأقصى قد بُني حسب اصطلاح المؤرخين: قبل التاريخ، مما يفتح لنا مجالا للقول: إن القدس نفسها، التي، في تقديرنا، ما نشأت أول نشأتها إلا على بَرَكة المسجد الأقصى(1)، فهي قد أقيمت -حسب هذا التقدير- في المكان الذي باركه الله، إن هذه القدس مباركة ببركة الأقصى نفسه، لوجودها أصلا على خلفية وجود الأقصى؛ وذلك يؤكد لنا أن القدس نشأت أول ما نشأت: إسلامية.

ونحن نؤكد جدا أن الأماكن المقدسة لدى البشر الأوائل، هي أقوى ما يدعو الإنسان إلى السكنى فيها أو حولها، لِمعانٍ يحرص الإنسان في نفسه عليها، وهذا ما يشير إليه ميرسيا إلياد، رائد دراسة قداسة الأمكنة، **فقد أكد أنه ما دفع الناس إلى الاستقرار في مكان معين، إلا ما في ذلك المكان من المعاني التي أفصحت القداسة عنها في يوم ما**(2)،

محمد محمد حسن شُرّاب، وقد استفدتُ منهما فوائد ذات أهمية في تحقيق نسبة بناء الكعبة المشرفة إلى آدم عليه السلام، هذان الكتابان هما: بيت المقدس والمسجد الأقصى، (٢٩٨-٣٠٥)، وكتاب: في أصول تاريخ العرب الإسلامي، (٢٢٩-٢٣٤).

(١) ونحن اعتمدنا هذا التقدير، والحال أننا نعلم أن علم الاجتماع يقرر أن بناء المدن ونشأتها إنما يكون حول مياه أو زراعة أو أماكن استراتيجية للالتجاء إليها أو التحصن بها..إلخ، ولا نحسب علم الاجتماع قد نظر إلا في حدود نظر علم التاريخ الزمانية، وهو باعتبار ناصيته بيد الغرب الذي لا يقر الناحية الروحية في الإنسان كمحرك له، فإنه من الطبيعي ألا يشير إلى أن المدن أو التجمعات السكنية قد تقوم في أماكن ذات جذب خاص للسكن حولها، كمقدَّس، ونحن نرى أن زمن وجود الأقصى المغرق في القدم، من شأنه أن يجذب الناس دينيا إليه، فتقوم التجمعات السكنية حوله، وهذا التفسير في وجود أول التجمعات السكانية حول المسجد الأقصى، هو أولى من غيره من تلك التفسيرات التي أشرنا إليها، والتي لا ترى الأمور إلا على أساس مادي، ذلك أن توجه الناس قديما كان إلى الروحانيات أكثر مما كان إلى الماديات.

ومع ذلك، فقد تمتعت القدس إلى جانب وجود الأقصى فيها بموقع تجاري هام، وبماء وشجر وخضرة.

(٢) نقلا عن: القدس مدينة واحدة، ثلاث عقائد، تأليف كارين أرمسترونج، (٣١).

وتقول المؤرخة والراهبة البريطانية كارين أرمسترونج: ((إننا مخلوقات تبحث عن معنى، فإذا ضللنا السبيل، أصبحنا نجهل كيف نحيا وكيف نحدد لأنفسنا مكانا في هذا العالم، **وهذا هو السبب الذي دفع الأقدمين إلى بناء المدن حول الأماكن المقدسة، كانت القداسة تمثل أصلب حقيقة أمام الإنسان، وكانت تتمتع بالقدرة على جمع شتات وجودنا في بقعة ذات معنى**))(١)، وهذه معانٍ لا يعرفها الملحد، لخروجه عن نسقه الإنساني الأصلي، بمقاومته أصول فطرته، وعليه، فإن بناء القدس في أول نواة سكنية جاء في غالب تقديرنا على خلفية وجود الأقصى أصلا.

فإذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك فعلا، فإنه سيثبت لنا ألا صِلةَ لليهود بنشأة القدس، فهم أصلا لم يوجدوا على الكرة الأرضية إلا في ساعات متأخرة من مسيرة الأقصى، السابق لهم منذ أزمان وأزمان.

وعودة إلى ما نحن فيه..

وإذا كان ذلك كذلك، أي إذا كان البيت الحرام، وكذا المسجد الأقصى، قد بُنيا في أيام الوجود الأول للإنسان، فليس لعلم الآثار قدرة حسب وضعه الحالي، تمكّنه من الخوض في إثبات أو نفي مثل هذه القضية؛ فإنها من أعماق التاريخ، أو من أعماق ما قبل التاريخ، وإذا كان المسجد الأقصى الذي بُني بعد بيت الله الحرام بأربعين عاما، كما ورد فيما سيأتي، فإنه يكون قد عُرِفَ من قِبل الإنسان إما في عهد أبي البشر آدم عليه الصلاة والسلام، أو في عهد أوائل الجيل الأول من أبنائه، وذلك ضمن سياق سيتضح معنا قريبا، فإذا كان ذلك كذلك أيضا، فإننا نقول هنا لعلم الآثار حسب قدراته الحالية: إن فترتنا التي نبحث فيها تغوص في أعماق من التاريخ أبعد من الأعماق التي تستطيع أنت الغوص فيها، ففترتنا هنا هي فترة آدم عليه السلام، أو عهد الجيل الأول من أبنائه.

فماذا يكون دليلنا إذن؟

---

(١) القدس مدينة واحدة، عقائد ثلاث، للمؤرخة والراهبة البريطانية كارين أرمسترونج، (٣٣).

إن هذا الزمن البالغ في القِدَم هو جزء من علم الغيب الذي لا يكشف عنه سوى الوحي الرباني بأحد شكليه، القرآن والسنة، وإننا إذن سنتحوّل إلى القرآن والسنة لنرى ما فيهما حول هذه القضية، فهما الشاهدان العدلان، وهما اللذان لا يضل من سار معهما..

فإذا تبين لنا أسبقية المسجد الحرام، إلى العهود الأولى من تاريخ البشر، فإن ذلك حسب مناهِجنا(١) كافٍ لإثبات جذور النشأة الإسلامية للقدس، ولفلسطين بالتالي، ذلك أن المسجد الأقصى بُني بعد أربعين عاما من بناء الكعبة المشرفة، كما سنرى قريباً إن شاء الله تعالى.

إذن، فلنقتحم لجة البحث في بناء الكعبة المشرفة، من زاوية واحدة هي: في أي جيل كان بناؤها الأول، لنتحول بعد ذلك إلى الاستدلال لزمان بناء الأقصى على وجه الإجمال بطبيعة الحال.

---

(١) نحن ها هنا نخاطب العقل المسلم، المؤمن بهذه الأصول التي نتحدث فيها، ولا أحد يملك دليلا يرفض به ما نطرح، فإن كان ثمة علماني أو ملحد، لا يؤمن بأصولنا، فقصارى ما لديه: عدم القدرة على إثبات ما أثبتنا، لكنه لا يستطيع إنكار ما أثبتنا، لأنه لا يملك وسائل هذا الإنكار، ذلك أن عدم القدرة على إثبات شيء، لا تعني القدرة على نفيه، ولذا فنحن ندعوه إلى التعرّف على أصولنا، لا من خلال كتابات المستشرقين، أو أهواء العلمانيين، أو أوهام الملحدين، بل من خلال أسس البحث العلمي، الذي به تنكشف الحقائق...

ومع ذلك فإننا نود أن نعتذر من هذا النوع من الناس، فلا يهمنا آمنوا أو لم يؤمنوا بمنطلقاتنا القرآنية، ذلك أنهم ليسوا الطرف المقابل لنا مباشرة في عملية الصراع على الأرض، إذ هم لا يحملون راية التوراة.

أما إن كان منكِر كلامنا هنا يهوديا، أو غربيا يعتمد الرؤى التوراتية، فلقد تكفل بحثنا في بعض مباحثه ببيان مدى القدرة التي تملكها التوراة في إثبات نفسها في صيغتها الحالية، ككتاب سماوي أصلا، فلقد تراجعت التوراة أيما تراجع بمعاول الباحثين الآثاريين من اليهود والنصارى أنفسهم، ويجب أن تتراجع التوراة عن شيء اسمه: إثبات الحقائق، ذلك أنها عجزت، وعجز أهلُها عن إثبات ذاتها في مجالات البحث العلمي والتاريخي.

ونطرح المسألة كما يلي:

إن القرآن الكريم قرر أن الكعبة أول بيت بُني على الأرض، فقال: (**إن أول بيت وُضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين**)[1]، والحديث النبوي الصحيح ذكر القرب الشديد تاريخيا بين بناء المسجد الحرام وبناء المسجد الأقصى، فقد روى البخاري[2] عن أبي ذر الغفاري ط أنه سأل رسول الله ج : أي مسجد وُضِعَ في الأرض أولَ[3]؟ قال: (**المسجد الحرام**) قلت: ثم أي؟ قال: (**مسجد الأقصى**)، قلت: كم كان بينهما؟ قال: (**أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعدُ فصلِّهْ فإن الفضل فيه**).

فإذا كان المسجد الأقصى قد بُني بعد المسجد الحرام بأربعين عاما، وإذا عرفنا زمان بناء المسجد الحرام، فإننا حينها نستطيع أن نجد متمَسَّكا واضحا قويا يكشف عن زمان تقريبي لبناء المسجد الأقصى، وإنما يكون ذلك على وجد التقريب، لأن أحداً لن يستطيع أن يحدد تاريخ النشأة والبناء الأولي لكلٍّ منهما، بل لكل ما كان قديما مثل قِدَمِهما، وذلك لافتقار البحث في مثل هذه الأمور إلى النصوص المُبيّنة، ولعدم وصول علم الآثار[4]

---

(١) سورة آل عمران، (٩٦).

(٢) هو في البخاري، (٦/٤٦٩، ح:٣٣٦٦)، و(٦/٥٢٨، ح: ٣٤٢٥)، من (فتح الباري)، وهو في مسلم، (٣/٣٢٦، ح: ٥٢٠)، من شرح النووي على مسلم.

(٣) هكذا في هذه الرواية، وفي روايات أخرى: أوّلاً بدل أولَ.

(٤) غير أننا لا نستبعد على علم الآثار أو على علوم أخرى غيره، أن تُثب أسبقية تاريخ البيت على عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام من خلال دراسة الحجر الأسود والمقام، أو ما تبقّى منهما، حيث قد ورد في الصحيح من رواية الإمام أحمد (٦/٤٤٢، ح:٧٠٠٠)، من طبعة دار الحديث بالقاهرة) عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ج قال: (**إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة، طمس الله عز وجل نورهما، ولولا أن الله طمس نورهما لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب**)، قال الأستاذ المحقق أحمد محمد شاكر: "إسنادُه صحيح"، وفي رواية للإمام أحمد نفسه، (٦/٤٤٥، ح: ٧٠٠٨): (**إن الحجر والمقام،...، لأضاءتا ما بين السماء والأرض، أو ما بين المشرق والمغرب**)، ورواه أيضا الترمذي، (٣/٢١٧، ح:٨٧٨)، بل قد روى الترمذي، (٣/٢١٧، ح: ٨٧٧)، عن ابن

حسب عمقه الحالي إلى أعماق التاريخ البعيدة، فلم يبق لنا إلا النصوص، فهـي هادينـا، وهي مُتمسَّكُنا، فماذا قالت النصوص؟

لقد ترجح لدينا من النصوص أن البيت الحرام، الكعبة المشرفة، قد بُنيت في عهد آدم عليه السلام، بل هو الذي بناها، وذلك لِما وردَ من آثار نبوية وأخبار عـن الصحابة والتابعين، يُعضّد بعضُها بعضا، سنذكر بعضها قريبا إن شاء الله تعالى، ثم لا بد أن نقـرر أنه إذا كان الزمن «الذي تأسست فيه مكة، هو الزمن الذي تأسس فيه بيت المقـدس»[١] فهذا يعني أن المسجد الأقصى قد بُني في عهد آدم، أو في عهد جيل أبنائه الأوائـل عليـه الصلاة والسلام، بل ذكر البعض خلافا في أن آدم عليه السلام هو نفسه بـاني المسـجد الأقصى المبارك[٢]، وهذا يجعل من المسجد الأقصى صاحب الأولية ليس فقـط إذا مـا قورنت به مقدسات لدى أممٍ أخرى فحسب، بل إذا ما قورِن ببناء القدس كمدينـة، إذ سيكون الأمر كما لو كانت القدس نفسها ما بُنِيت إلا على بركات الأقصى المبني قبلها، وسيكون بإمكاننا أن نكون أكثر توسعا، فلعلنا لا نكون جانحين عن الحـق والصـواب ومقررات علم الاجتماع إن قلنا: إن فلسطين ما سُكنت سكنا استقراريا إلا على شرف القدس.

لكننا سنتزل إلى مستوى آخر من البحث، ولسوف نبذل جهدا في التدليل علـى أن

عباس قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: (**نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضا مـن اللبن، فسوّدته خطايا بني آدم**)، فإن كانا -أي الحجر والمقام- قد وُضِعا في أول بناءٍ كان للبيت، وإن كان قد بقي منهما شيء مهما كان قليلاً، فإن علم الآثار في المستقبل قد يُهدى إلى الوسائل التي تمكّنه من تحديد زمن البناء ولو بشكل تقريبي، وذلك من خلال فحص بقايا الحجر الأسود، ولن يأتي علـم الآثار إلا بما يؤكد ما قد ورد في نصوص الوحي.

(١) الدكتور سيد حسين العفاني في كتابه (واقدساه ٤٧/١) ويقول أيضـا في الكتـاب نفسـه (٤٨/١): «..لأن المسجد الأقصى أسس في الزمن الذي أسس فيه البيت العتيق في مكـة، وثبـت أن البيت العتيق كان مؤسسا قبل إبراهيم عليه السلام بزمن طويل لا يعلمه إلا الله».

(٢) يُنظر: المسجد الأقصى المبارك وهيكل بني إسرائيل، تأليف محمود مصالحة، (١٣).

إبراهيم عليه السلام مسبوق وجودا بالكعبة البيت الحرام، أي أن الكعبة موجودة قبله، فهو الذي يصل عندنا إلى مستوى من القطعية لا يمكن دحضُه أبدا، ولو لم يَرِدْ من دليل يدعم ما نقول سوى قولِه تعالى على لسان إبراهيم: (**ربنا إني أسكنتُ من ذريّتي بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ عند بيتِك المُحرّم..**)[1] لكان ذلك كافيا؛ فرغم تفسير بعض العلماء القاضي بأن هذا الدعاء إنما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام يوم أن كان هو وولدُه يرفعان القواعد من البيت[2]، إلا أنني أجد الأمر مختلفا عما يقول هؤلاء الأئمة، فإبراهيم دعا بهذا الدعاء يوم أن ترك بعضاً من ذرّيّته فعلا بهذا الوادي غير ذي الزرع، لأنه كما سيأتي في رواية ابن عباس ب إنما دعا بهذا الدعاء **مستقبلا البيتَ** بعد أن نادته زوجُه هاجر عليها السلام، حين تركها وولدَها الرضيع بهذا الوادي..

ولذا فأنا أَمِيلُ إلى قول من قال إن البيت كان موجودا قبل إبراهيم، لِما سنقرأ قريبا

---

(١) سورة إبراهيم، (٣٧).

(٢) وهو الظاهر من قول الإمام محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير (١٣/٢٤٠)، وهو قول الحافظ ابن كثير في تفسيره (٥٤١/٢) وفي تاريخه (١٦١/١) وفي قصص الأنبياء (١٧١) والعجب من الإمام الحافظ ابن كثير في تفسيره (٥٤١/٢) حينما قال عند قوله تعالى: (**ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم**): "وهذا يدل على أن هذا دعاء ثانٍ، بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه.. "، ولا ندري كيف استدل الإمام ابن كثير أن هذا الدعاء جاء ثانيا بعد بناء البيت، وفصل عنه الدعاء الذي قال إنه كان أولا قبل بناء البيت، مع أن الدعاءين هما ضمن سياق واحد بلا فاصل، ولا داعي إلى الفاصل، وهما إما أن يكونا معاً قبل بناء البيت، أو معاً بعده، وفي البخاري الذي ذكرنا روايته ما يؤكد أنه دعاء دعا به إبراهيم والبيت موجود فعلاً، وقد ردَّ الإمام المُحدِّث محمد بن يوسف الصالحي الشامي على ابن كثير في نفيه أن يكون البيت مبنيا قبل سيدنا إبراهيم عليه السلام بقوله: "وفيه نظر، لِما ذُكر من الآثار السابقة واللاحقة"، يُنظر كتاب الصالحي الموسوعي (سبل الهدى والرشاد ١٧٢/١)؛ ونفي القول بأن آدم عليه السلام هو باني الكعبة هو الظاهر من قول قاضي مكة الحافظ أبي الطيب الفاسي في كتابه (شفاء الغرام ١٤٨/١) حيث تعقّب قول من قال بأن الملائكة أو آدم عليهم السلام، قد بنى الكعبة بأن القولين غير ثابتين، ثم قال: "وكلا البنايتين على تقدير صحتهما تأسيس".

من حديث ابن عباس عند البخاري؛ والقول بأن البيتَ كان قديما قبل إبراهيم هو قول القرطبي في تفسيره، فلقد قال مفسِّرا قوله تعالى من الآية التي نحن بصددِها: (**عند بيتِك المحرّم**): ((يدلّ على أن البيتَ كان قديما، على ما روي قبل الطوفان..))[1]، وهو كلام الآلوسي في روح المعاني[2]، وقول أبي السعود[3]، وقول أبي حيان الأندلسي[4] في تفسيره، فقد قال: ((والظاهر أن قوله: (**عند بيتِك المحرّم**) يقتضي وجود البيت حالة الدعاء، وسبقه قبله))، وهو كذلك قول الإمام المُحدِّث محمد بن يوسف الصالحي الشامي الذي ردّ[5] على الحافظ ابن كثير في نفيه أن يكون البيت مبنيا قبل سيدنا إبراهيم عليه السلام بقوله: ((وفيه نظر، لِما ذُكر من الآثار السابقة واللاحقة)).

ولقد نحا بعض الأئمة نحوا آخر في توضيح الأمر، فهذا السمين الحلبي[6] في كتابه اللغوي القرآني الفذ (الدر المصون) يسير في الموضوع مع قوله تعالى: (**وإذ يرفع إبراهيم**

---

(١) تفسير القرطبي (٣٧١/٩).

(٢) في تفسيره روح المعاني (٢٣٦/١٣-٢٣٧)، فلقد ساق كثيرا من رواية ابن عباس المشار إليها أعلاه، وساق قوله: (..**استقبل بوجهه البيت، وكان إذ ذاك مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول،...، ثم دعا بهذه الدعوات: ربنا** ...)، دون أن يحاول تفسيرها مجازيا، كما قد فعل من بعد الأستاذ أحمد عبد الرحمن البنا، حين قال في قول ابن عباس عن إبراهيم: (**استقبل بوجهه البيت**) قال: أي موضعه؛ فعدمُ فعلِ الآلوسي فعلَ البنّا هنا فيما بعد، يدل على أنه يرتضي الأمر حسب السياق دون دخول في عالم المجازات التي لا يُلجأ إليها إلا حين الضرورة المقتضية، بل أكثر من ذلك، فقد قال الإمام الآلوسي عند تفسيره لقوله تعالى: (**عند بيتك المحرّم**) قال: ((..وسماه بيتاً باعتبار ما كان، فإنه كان مبنيا من قبل..))، ونقل قولا آخر بصيغة: وقيل.. التي تقتضي التضعيف.

(٣) في تفسيره (٥٢/٥) فإنه ذكر أن تسميته إذ ذاك بيتا ((بل إنما هي باعتبار ما كان من قبل، فإن تعددَ بناء الكعبة المعظمة مما لا ريب فيه، وإنما الاختلاف في كمية عدده..)).

(٤) (البحر المحيط ٤٢١/٥).

(٥) في كتابه الموسوعي: سبل الهدى والرشاد، (١٧٢/١).

(٦) يُنظر كتابُه الفريد: الدر المصون، (١١٣/٢-١١٤).

القواعد من البيت وإسماعيل..) سيراً لُغويا، فيقول: ((والقواعد جمع قاعدة، وهي الأساس والأصل لما فوق، وهي صفة غالبة، ومعناها الثابتة،...، ومعنى رفعِها: البناءُ عليها، لأنه إذا بُني عليها نُقلت من هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع))، وهذا يعني أن إبراهيم جاء إلى القواعد الموجودة فعلاً ورفع عليها البناء، وهو تفسير يعتمد على اللغة، وهو كلام الفخر الرازي في تفسيره الكبير، والزمخشري في تفسيره الكشاف، بل كأنه منقول بنصّه عنهما، إذ هو نصُّ كلامهما، وإنما اختلف عنهما في ترتيب بعض عباراته[1].

وفي ترجيح الفخر الرازي كونَ إبراهيمَ رفع البناء على أسس موجودةٍ أصلا، وبعد أن يذكر كلام السمين الحلبي نفسه يضيف: ((الأكثرون من أهل الأخبار على أن هذا البيت كان موجودا قبل إبراهيم عليه السلام على ما روينا من الأحاديث فيه، واحتجوا بقوله تعالى: (**وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت**) **فإن هذا صريح في أن تلك القواعد كانت موجودة متهدمة، إلا أن إبراهيم عليه السلام رفعها وعمرها**))[2] أي بنى عليها كما قد أوضحنا معنى: (**وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت**).

هذا، ويلحظ القارئ الكريم هنا أننا أكثرنا النقل عن أئمة التفسير في هذه المسألة بسبب محوريتها في بحثنا، وفي هذا الأصل الذي نحن فيه، وحتى لا يسبق إلى ذهنه ترجيح قول الحافظ ابن كثير، لشهرته، مما يؤدي به إلى نسيان أقوال الأئمة الآخرين، التي سيدعمها الحديث التالي عن ابن عباس في البخاري، فإننا سنورد هذا الحديث، ليرسخ معناه في نفسه..

روى البخاري[3] في سياق قصة إبراهيم عليه السلام حين أسكن ولده الرضيع

---

(١) يُنظر الكشاف للزمخشري (٣١١/١) والفخر الرازي في تفسيره الكبير (٦٢/٢) والذي يبدو أن السمين الحلبي أخذه عنهما أو عن أحدهما، لسبق الزمخشري والرازي زمانا، أو ربما يكون ثلاثتهم قد أخذوا الكلام نفسه عن مصدر رابع..

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي (٦٢/٢).

(٣) البخاري مع الفتح (ح:٣٣٦٤،ج٦/٤٥٦-٤٥٧)، ورواه الإمام أحمد مختصرا جدا ذاكراً

إسماعيل وأمه هاجر عليهما السلام في مكة، أن ابن عباس ب قال: «ثم جاء بها إبـــراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، **حتى وضعها عند البيت**، عند دوحة فوق زمزم في أعلـــى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماءٌ، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابـــا فيه تمر وسقاءً فيه ماء، ثم قفّى إبراهيم منطلقا، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيمُ أيـــن تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيءٌ، فقالت له ذلك مرارا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آللّه أمرك بهذا؟ قال: (نعم) قالت: إذن لا يضيّعنا، ثم رجعـــت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، **استقبل بوجهه البيـــت ثم دعـــا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال**: (**ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرّم**..)، **حتى بلغ**: (..**يشكرون**)»، قال ابن عباس: «...فشـــربت وأرضـــعت ولدها، فقال لها الملَكُ: (**لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيتَ الله يبني هذا الغلامُ وأبـــوه، وإن الله لا يُضيّعُ أهله**)، **وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله**..»، وقال ابن عباس في آخره: «..ثم قال -أي إبراهيم-: (**يا إسماعيـــل، إن الله أمرني بأمر**)، قال: (**فاصنع ما أمرك ربُّك**) قال: (**وتعينُني؟**) قال: (**وأُعينُك**)، قال: (**فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتا** –**وأشار إلى أكَمَةٍ مرتفعة على ما حولها**– **قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت**..).

أجزاء منه في أكثر من موضع، منها في (٣/٣٨٧-٣٨٨،ح:٣٢٥٠) وفي (٣/٤٣٠-٤٣١،ح:٣٣٩٠) وذلك من الطبعة التي حققها الأستاذ أحمد محمد شاكر، وأتمها الأستاذ حمزة أحمد الزين، وهي طبعـــة دار الحديث بالقاهرة، وقال الأستاذ المحدّث أحمد شاكر معلقا (٣/٣٨٨) بعد أن ردّ على ابـــن كـــثير دعواه أن هذا الحديث «..كأنه مما تلقّاه ابن عباس عن الإسرائيليات»، قال -أي أحمد شاكر-: «وهذا عجبٌ منه، فما كان ابن عباس ممن يتلقى الإسرائيليات، ثم سياق الحديث يُفهم منه أنه مرفوع كلُّه، ثم لو سلمنا أن أكثره موقوف، ما كان هناك دليلٌ أو شبه دليل على أنه من الإسرائيليات، بـــل يكـــون الأقرب -أي من هذه الدعوى- أنه مما عرفته قريشٌ وتداولته على مر السنين، من تـــأريخ جـــدَّيْهم إبراهيم وإسماعيل، فقد يكون بعضُه خطأً وبعضُه صوابا، ولكن الظاهر عندي أنـــه مرفـــوع كلُّـــه في المعنى».

وواضح من خلال النظر في مواضع أربعة من هذا الخبر الشريف -قد ميزناها بخطٍّ متصل يجري من تحتها- عن ابن عباس أن البيت كان موجودا حينما قدم إبراهيم إلى مكة، كقوله: (**حتى وضعها عند البيت..**)، وقوله: (**استقبل بوجهه البيت**)، **وقول إبراهيم في دعائه**: (**ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم**)، وقول ابن عباس: "**وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله..**"(1)، لكن قد يُعكّر على هذا الاستدلال ما ورد في سياق الخبر نفسه من قول المَلَك لأم إسماعيل (**لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيتَ الله يبني هذا الغلامُ وأبوه، وإن الله لا يُضيّعُ أهله**)، وقول إبراهيم عليه السلام لولده إسماعيل: (**فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتا -وأشار إلى أكَمَةٍ مرتفعة على ما حولها- قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت..**)، فهذان الموضعان اللذان اقتطفناهما من السياق لا يدلان بوضوح على ما نحن بسبيله، بل أحدُهما وهو الثاني قد يشير إلى خلاف المقصود، أي أنه ربما يُشعر أن البيت لم يكن موجودا، وأن الذي أوجده هو إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام.

لكن هذا الفهم غير مستقيم مع سائر الخبر، فقول إبراهيم هذا، وكذا قول المَلَك من قبله، محتمل من حيث المعنى أحد أمرين: أولُهُما: أن يكونا هما فِعْلاً قد بنياه، وثانيهما: أن

---

(1) وأستغرب لما وقع من الأستاذ الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتي : تعالى في كتابه بلوغ الأماني شرح الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد ابن حنبل الشيباني، فلقد ذكر : رواية البخاري هذه عن ابن عباس، وبعد قول ابن عباس عن إبراهيم عليه السلام: "**واستقبل بوجهه البيت**" قال: "**أي موضعه**"، ووجه الاستغراب أنه أول كلاما صريحا لا شيء يدفعه بهذا التأويل، وكأنه عندما اعتمد أن البيت لم يَبْنِه إلا إبراهيم، وأنه لم يكن مبنيا قبله؛ كأنه رأى أن يؤوّل ما يخالف رؤيته، فقال ما قال، وأرى أن الأمر بخلاف ذلك تماما، وإلا فكيف يأوِّل دعاء إبراهيم الذي جاء مباشرا تماما لذكر استقباله البيت وهو قوله: (**ربِّ إني أسكنتُ من ذريتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتِك المُحرّم**)، وأرى أن محاولة التأويل هنا بالغة الضعف، بل لا داعي إليها.

والشيخ : تعالى مال هنا إلى قول ابن كثير في تاريخه أن إبراهيم هو أول من بنى البيت، وأقول: لِمَ المصيرُ إلى هذا القول، والحال أن النص النبوي هنا يفيد خلافه؟

البيت كان مبنيا سابقا، ولكنه هُدِمَ، وأن إبراهيم أعاد البناء، فسمى إعادة البناءِ بنـــاءً؛ **إذ إنه يصح لمن أعاد بناء شيء كان مبنيا سابقا وانهدم، أن يقال إنه قد بناه**، ولهذا يقـــال: بنت قريش البيت، وبناه ابن الزبير، رغم أنه وقريشا إنما أعادا بناءه، فما دام قول إبراهيم هذا يحتمل[1] معنيين، فإننا نُفسّره بما ورد في سياق الخبر نفسه، من كلام إبراهيم، ومـــن كلام المَلَك، ومن دعاء إبراهيم نفسه، وهو القطعي غير المحتمِل من حيث الدلالة، [تُنظـــر العبارات التي أجرينا تحتها خطا متواصلا]، فهو لا يحتمل إلا معنى وجـــود البيـــت قبـــل إبراهيم، وأن إبراهيم وَرَدَ مكة والبيتُ مبنيٌّ أصلا، ولعله كان قد هُدِمَ غير أنه معروف أن ثمة بيتا كان هناك؛ فلأنه ورد في الخبر نفسه ما هو قطعي من حيث الدلالـــة، ومفيـــد أن إبراهيم ورد مكة والبيت مبنيٌّ أصلا، لكن ربما انهدم، فإن كلامه مع ولده إسماعيل [تُنظر العبارات التي سارت تحتها خطوط متقطعة] يكون بمعنى إعادة البناء، وهذا واضح، فـــإن القطعي دلالةً هو الذي يفسر المحتمل، لا العكس..

ثم إن سياق الخبر يدلّ بوضوح أنه لا أحد كان بمكة يومئذ، فهي غير عامرة بالبشر، يتضح ذلك مما يلي: قال ابن عباس: "..**وليس بمكة يومئذ أحـــد، ولـــيس بهـــا مـــاءٌ**، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاءً فيه ماء، ثم قفّى إبراهيم منطلقـــا، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيمُ أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي **الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيءٌ**.." ولهذا دلالة، فإن كون مكة تخلو من البشر حينها، بل ومن المـــاء، فـــإن في ذلك دلالة أنها قد فرغت من البشر قديما، قبل عهد إبراهيم عليه السلام بكثير، فإن الماء لا ينقطع مرة واحدة غالبا، وبالتالي، لا تخلو البلاد من أهلها دفعة واحدة، بل في حالتنا هذه تكون قد فرغت منذ زمان قديم جدا يعلمه الله، ولربما كان بعد الطوفان، إن صحّ مثلا أن الطوفان وصل إلى مكة، فإن لم يكن في مكة أحد، وكانت قواعد البيت التي أقام إبراهيم

---

(١) وكما ذكر قاضي مكة الحافظ أبو الطيب محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكّي في كتابـــه: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، (١٤٧/١) أنه "لا شك أن الكعبة المعظمة بُنيت مرات،...، ومنـــها بناء الحجاج بن يوسف الثقفي، وإطلاق العبارة بأنه بنى الكعبة تجوُّزٌ، لأنه لم يبنِ إلا بعضها.. ".

عليها البناء موجودة، بما صح من رواية ابن عباس، وكانت مكة قد فرغت قديما من الناس، بما ذكرنا من تحقيق، فإن البيت يكون قد أقيم في بنائه الأول قديما، في زمان يعلمه الله، قد يكون زمان آدم نفسه، كما سننقل بعد قليل.

والقول إن الكعبة قديمة البناء جدا، وربما يصل تاريخ أول بناء لها إلى عهد آدم أو إلى آدم نفسه عليه السلام، هذا القول هو قول الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني ؒ تعالى.

فبعد أن نقل قول ابن عباس في رواية البخاري التي لا زلنا بصددها: "وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية" قال -أي ابن حجر-: "وروى ابن أبي حاتم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: "**لما كان زمن الطوفان رُفِع البيتُ، وكان الأنبياء يحجّونه، ولا يعلمون مكانه، حتى بوّأه الله لإبراهيم وأعلمه مكانه**"، قال: "وروى البيهقي في الدلائل من طريق أخرى عن عبد الله بن عمرو مرفوعا: (**بعث الله جبريل إلى آدم، فأمره ببناء البيت فبناه آدم، ثم أمره بالطواف به، وقيل له: أنت أول الناس، وهذا أول بيت وُضع للناس**)، قال: "وروى عبد الرزاق عن ابن جُرَيجٍ عن عطاء: "إن آدم أول من بنى البيت، وقيل: بنته الملائكة قبله" وعن وهب بن منبِّه: "أول من بناه شيث بن آدم"، قال الحافظ ابن حجر: "**والأول أثبت**""[١].

وعند ما ذكرناه عن البخاري من خبر ابن عباس الذي نقلنا بعضه "..**فعند ذلك رفعا القواعد من البيت**.."، عند هذه الجملة من هذا الخبر قال الحافظ: "في رواية أحمد[٢] عن

---

(١) فتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني، (٦/٤٦٣)، هذا ومن المعروف أن الحافظ ابن حجر لا ينقل في كتابه الفتح شيئا على سبيل الاستدلال إلا أن يكون ما نقله قد صح الاحتجاج به عنده، وواضح من سياق كلام الحافظ أنه نقل ما نقل هنا مما يدل على زمن بناء البيت الحرام، وأنه كان في زمن آدم عليه السلام، واضح أنه إنما نقله على سبيل الاحتجاج به، فيكون صالحا للاحتجاج به عنده، وهو الإمام الذي ألقت إليه الأمة من بعده أمانة علم الحديث فكان لها نعم ما كان.

(٢) قال الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي: بسند صحيح، يُنظر كتابُه الموسوعي سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (١/١٨١).

عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن سعيد عن ابن عباس: ((**القواعد التي رفعها إبراهيم كانت قواعد البيت قبل ذلك**))،...، ومن طريق سعيد بن جبير عند ابن عباس: ((**رفع القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك**))، ومن طريق عطاءٍ قال: ((**قال آدم: يا ربِّ إني لا أسمع أصوات الملائكة، قال: ابنِ لي بيتاً ثم احفُف به كما رأيتَ الملائكة تحُفُّ ببيتي الذي في السماء**))، وفي حديث عثمان وأبي جهم ((**فبلغ إبراهيمُ من الأساس أساس آدم، وجعل طوله في السماء تسعة أذرع وعرضه في الأرض -يعني دوره- ثلاثين ذراعا**))،...، وفي حديثه أيضا: ((**إن الله أوحى إلى إبراهيم أن اتّبع السكينة**[1]، **فحلّقت على موضع البيت كأنها سحابة، فحفرا يريدان أساس آدم الأول**))، وفي حديث علي عند الطبري والحاكم: ((**رأى على رأسه في موضع البيت مثل الغمامة فيه مثل الرأس، فكلمه فقال: يا إبراهيم: ابنِ على ظلّي -أو على قدري- ولا تزِد ولا تنقص، وذلك حين يقول الله: (وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت) الآية**))[2].

وعند شرحه حديثَ أبي ذرٍّ الذي ذكرناه قريبا، ذكر الحافظ ابن حجر حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عند النسائي بإسنادٍ صحيح، وهو قوله ج: (**أن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل الله تعالى خلالا ثلاثة، سأل الله عز وجل حُكما يصادفُ حكمَه، فأوتيه؛ وسأل الله عز وجل ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، فأوتِيَه؛ وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد ألا يأتيه أحد، لا ينهزُه**[3] **إلا الصلاة فيه، أن يُخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه**)[4]، عند ذلك ذكر ابن حجر قول ابن الجوزي: ((..أن الإشارة

---

(١) قال مصحح تفسير القرطبي (١٢٢/٢) إن السكينة هنا هي الريح الخجوج، أي سريعة الممرّ.

(٢) فتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني، (٤٦٧/٦-٤٦٨).

(٣) لا ينهزُه: أي لا يدفعُه.

(٤) هذه رواية النسائي لهذا الحديث، وهي فيه، (٣٦٤/٢، ح:٦٩٢) ورواه أيضا الإمام أحمد، (٢٠١/٦-٢٠٢، ح:٦٦٤٤) بنحوه، غير أنه قال: (..**سأل الله ثلاثا، فأعطاه اثنتين، ونحن نرجو أن تكون له الثالثة**..)، والثالثة في رواية الإمام أحمد هي نفسُها في رواية النسائي، وقال في آخرها: (**فنحن**

إلى أول البناء ووضع أساس المسجد، وليس إبراهيم أول من بنى الكعبة، ولا سليمان أول من بنى بيت المقدس، فلقد روينا أن أول من بنى الكعبة آدم ثم انتشر ولدُه في الأرض، فجائز أن يكون بعضهم قد وضع بيت المقدس، ثم بنى إبراهيم الكعبة بنص القرآن))، وكذا قال القرطبي: ((إن الحديث لا يدل على أن إبراهيم وسليمان لما بنيا المسجدين ابتدءا وضعهما لهما، بل ذلك تجديد لما كان أسسه غيرُهما))، ثم ذكر بعد ذلك قريبا أن الاحتمال الذي ذكره ابن الجوزي موجّه..[1].

وواضح أن الحافظ ابن حجر لم يتعقب النقول التي نقلها، والتي تفيد أن آدم عليه الصلاة والسلام أول من بنى البيت الحرام، وواضح أنه بعدم تعقُّبِه إياها، أنه يعتمدُها، إما لتعاضدها وكثرتها، وإما لأنه ثبت لديه صحة بعضها، وذلك على ما عُرِف من خطِّ ابن حجر في كتابه الفتح.

ومن خلال هذه النقول، يتضح لنا أن للبيت نفس الأولية التي لآدم عليه السلام، بل له نفس زمان الوجود الأولي لأول العهد الآدمي على الأرض، **ولم تنتظر الأرض قرونا، أو ألوفاً من السنين دون بيتٍ يُعبد الله فيه، حتى يأتي عهد إبراهيم عليه السلام لبناء هذا البيت، فالأرض ابتدأت بمؤمنين مستقرين على الإيمان عشرة قرون**[2]، **فهل خلت**

نرجو أن يكون الله عز وجل أعطاه إياها)؛ ورواه أيضا ابن ماجه بنحوه، (٢/١٧٣، ح:١٤٠٨)، غير أنه قال فيها: (**أما الثِّنتان فقد أُعطِيَهُما، وأرجو أن يكون قد أُعطيَ الثالثة**)؛ والحديث قال فيه الأستاذ أحمد شاكر: ((إسنادُه صحيح))؛ هذا، ونلاحظ أن الحافظ : لم يذكر من الحديث إلا أوله، إلى قوله: (**سأل الله تعالى ثلاثا**)، رغم أنها في سُنن النسائي التي نسب الحديث إليها (**سأل الله تعالى خلالا ثلاثة**)، كما أثبتناها عن النسائي، ولقد أتممنا الحديث للفائدة.

(١) فتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني، (٦/٤٧٠-٤٧١).

(٢) ذكر ابن كثير في تفسيره (١/٢٥٠) ما رواه ابن جرير الطبري عن ابن عباس ب أنه قال: ((**كان بين نوحٍ وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين**))، قال ابن جرير: ((وكذلك هي في قراءة ابن مسعود: (**كان الناس أمة واحدة فاختلفوا**)) ثم

الأرض أيامها من بيت خُصِّصَ لعبادة الله تعالى؟

وعوْدا إلى موضوع بحثنا، الذي ألجأنا إلى بحث زمان بناء الكعبة، فلقد انتبه القارئ الكريم أننا ما دخلنا هذا البحث إلا من أجل غيرِه، ألا وهو الحديث عن المسجد الأقصى، استنادا على ما نقلناه من حديث أبي ذر عند البخاري، والذي يصرّح فيه الرسول عليه السلام أن بين بناء الكعبة وبين بناء المسجد الأقصى أربعين عاما، حتى نصل إلى ما عقدنا لأجله فصلنا هذا، وهو إسلامية القدس منشأً، على معنى أنها قامت على التوحيد، الذي هو محور الإسلام الأساسي، بل ربما جذورا قبل تأسيسها، فلعل الأصح أن الأقصى نفسه بُني قبل تأسيس القدس ذاتها، **وأن القدس ما أُسِّسَت إلى على شرف وجود الأقصى فيها، وأن فلسطين ما عمرت إلا بشرف الاثنين معاً، الأقصى والقدس**..

فإذا كان البيت كما قد تبين معنا بُني في عهد آدم، وإذا كان الأقصى قد بُني بعد البيت بأربعين عاما، فإن هذا يعني أن الأقصى وُجِد في عهد آدم أو بعده بقليل جدا من الزمان الطويل وجوداً، **وهذا يعني حسب سياق بحثنا، أن القدس إسلامية الجذور، وأن بؤرة القدس وجودا، ومصدر الخير فيه، إنما هو الأقصى، الذي بُني قبل أن يخطر ببال أحد من البشر أن ثمة قوما اسمهم بنو إسرائيل؛ لأن وجود بني إسرائيل كان يحتاج من الزمان إلى آلاف السنين، فلم يكونوا موجودين أصلا إلا بعد يعقوب حفيد إبراهيم عليهما السلام، وإبراهيم نفسه عليه السلام حضر إلى الوجود الأرضي بعد بناء**

ردَّ ابن كثير على ما نُقل عن ابن عباس من خلاف لما ذكره هنا فقال (أي ابن كثير): "والقول الأول عن ابن عباس أصح سندا ومعنى".

هذا، ويظهر من كلام جمهور المفسرين أن الناس كانوا أمة واحدة في اتباع الحق، وفي انتهاج نهج التوحيد، ويُنظر في تفسير الآية تفسيرالحافظ ابن كثير، ويُنظر أيضا: عقيدة التوحيد في الرسالات السماوية، تأليف: الدكتور رشدي عزيز محمد، (٥٤-٦٧) فقد فصّل القول فيها، وردَّ على من خالف جمهور المفسرين في تفسيرها.

الأقصى بعهود طالت، لا يعرف تاريخُ البشر مقدارَها[1].

---

(١) ورغم ما قدّمنا من نقول، فإن ثمة جماعة من العلماء رأت أن البيت من بناء إبراهيم وولـــده إسماعيل عليهما السلام وهو قول ابن كثير كما بيّنّا، ونرى قولهم هذا خطأً، ومع كل ذلك، فإن الأمر لا يخرج عما قلنا من أسبقية الوجود الإسلامي على الوجود الإسرائيلي في فلسطين والقدس، وذلك لما يلي:

مهما يكن من الأمر، فإنه على أكثر تقدير زماني يكون البيت الحرام قد بُني في عهد إبراهيم عليه السلام، إن لم يكن قد بُني قبله، لكن على هذا القول المؤخّر لوجود المسجد الحرام كأقدم مسجد بـــني على الأرض، فإن الحديث ينص على أن المسجد الأقصى قد بُني بعده بأربعين عاما، وعلى هذا، فإمـــا أن يكون المسجد الأقصى قد بُني في عهد إبراهيم وإما أن يكون قد بُني بعد عهده بزمـــان قصـــير لا يتجاوز في الأحوال جميعها الأربعين عاما، وذلك استنادا منا إلى حديث أبي ذر الذي نقلناه..

ولا يستطيع أحد الآن أن يعين عصر إبراهيم عليه السلام تعيينا قطعيا، وقد ذكر الأب ديفو، وهو أحد الباحثين المهمين في الروايات التوراتية، أنه لا يُمكن إرجاع عصر الآباء، الـــذين هـــم إبـــراهيم وإسحاق ويعقوب، إلى فترة تاريخية معينة، بثقة علمية (فراس السواح، آرام دمشـــق وإســـرائيل ٥١) وقال هـــ. ي. فرانكن، في بحثه: القدس في العصر البرونزي، (المنشور ضمن مجموعة الأبحـــاث الـــتي نشرها الدكتور كامل جميل العسلي تحت عنوان: القدس في التاريخ ٢٩): "وأما ملكي صادق الـــذي تربطه التقاليد ربطا قويا بالقدس وإبراهيم، فلا يمكن تحديد زمن له في التاريخ، ومن وجهة مثالية، يمكن تحديد تاريخه بالقول: إنه كان يتزامن مع إبراهيم، ولكننا هنا نصادف المشكلة نفسها، فـــإن إبـــراهيم يجب أن نحدد تاريخه بمزامنته لأقدم النصوص المؤرخة عنه، أو قبل ذلك، ومع أنه جرت محاولات كثيرة لتحديد تاريخ هذه الفترة من الزمن بالوسائل الأثرية، أو بالمقارنة بالمصادر المكتوبة من سوريا الشمالية، أو بلاد ما بين النهرين (ماري) فإن النتائج ظلت قائمة على الافتراض".

وليست التوراة معتمدة تاريخيا، لا عندنا ولا عند غيرنا، ولا يستطيع أهل اللاهوت والحاخامات أن يثبتوا قدرتها حتى يُعتمد عليها؛ كما سوف يأتي معنا إن شاء الله، غير أننا لا نرى بأسا بذكر ما قد نص عليه بعض الباحثين في حديثهم عن زمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وإن كنا لا نـــرى هـــذا التحديد ملزما، فمصدرُه في الغالب توراتي، وعلى هذا، فقد كان إبراهيم عليه السلام موجودا في عام ١٨٥٠ق.م. كما في (دراسة في الكتب المقدسة) لموريس بوكاي (٢٤٥)، بل يُحدد الدكتور محمـــد بيومي مهران فترة حياة إبراهيم عليه السلام بما بين (١٩٤٠-١٧٦٥ق.م.) وعند ابـــن عاشـــور في

تفسيره (٧٠١/١-٧٠٢) هي ما بين (١٩٩٦-١٧٧٣ق.م.) وذلك استنادا منهما فيما أحسب على التوراة، كما قلت، وربما على مصادر تاريخية أخرى ليست واضحة في كتابيهما.

هذا، وقد نقل الأستاذ شفيق مقار في كتابه (قراءة سياسية للتوراة، ٤١) عن جورجز روكس في كتابه: (العراق القديمة، ٢١٥) أثناء حديثه عن هجرة إبراهيم عليه السلام إلى حبرون قوله: ((فمقارنة الرواية التوراتية بالمعلومات الآثارية والنصوص المتوافرة لدينا الآن، تشير إلى أن تلك الهجرة وقعت حوالي عام ١٨٥٠ق.م.، أو بعد ذلك بقليل)).

ثم بعد مقايسة بين مولدَيْ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام تستند أساسا على التوراة، يقول الدكتور بيومي مهران في تاريخ العرب القديم (٣٩٨): ((وإذا كان صحيحا ما ذهب إليه بعض المؤرخين من أنه -أي إسماعيل- قد شارك أباه في بناء الكعبة وهو في الثلاثين من عمره،...، فإن بناء الكعبة حينئذ يكون في حوالي ١٨٢٤ق.م.))، قال الحافظ في فتح الباري (٤٦٧/٦): ((ووقع في حديث أبي جهم عند الفاكهي أن عمر إبراهيم كان يومئذ مائة سنة، وعمر إسماعيل ثلاثين سنة)).

ويحدد العالم الآثاري التوراتي أولبرايت وهو المتخصص بدراسة آثار فلسطين وتجييرها لصالح التوراة، يحدد أولبرايت هذا عصر إبراهيم وإسحاق في الفترة بين (٢١٠٠-١٩٠٠ق.م.) وإن كان تلامذته قد رفضوا هذا التحديد، واكتفوا بالقول: إن عصر إبراهيم وإسحاق ويعقوب لا يمكن فهمه إلا إن وُضع في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد (يُنظر: إسرائيل وآرام دمشق، فراس السواح، ٤٩).

وعلى هذا فإن المسجد الأقصى لن يكون قد تأخر عن ١٧٨٤ق.م.، على ما ذكر الأستاذ الدكتور محمد بيومي مهران، أو عن ١٨٨٠ق.م. على ما ذكر ابن عاشور من مولد إسماعيل عليه السلام (الذي ذكر في التحرير والتنوير (٧١٩/١) أنه وُلد عام ١٩١٠ق.م.) أو عن (١٩٤٤ق.م.) حسب تحديد أولبرايت؛ وذلك اعتمادا منا هنا على استدلال يمزج ما بين هذه التأريخات التي نقلناها، وبين حديث البخاري الذي ذكرناه قريبا، والذي يؤرّخ للمسجد الأقصى بما بعد بناء الكعبة بأربعين عاما؛ فإذا كان أقدم مُلك يدّعيه اليهود لهم في فلسطين كان في حدود عام ١٠٠٠ق.م.، فإن هذه الأقدمية المزعومة مسبوقة بأقدمية المسجد الأقصى ذاته، بما لا يقل عن ثمانية قرون.

هذا، وأرجو أن أذكِّر القارئ الكريم أنني قصدت في هذا الهامش الإجابة عن الافتراض الذي قد يفترضه البعض ترجيحا لقول ابن كثير المارِّ معنا سابقا، وهو أن إبراهيم هو باني الكعبة، أي فعلى هذا الافتراض، سيكون الأقصى مبنيا قبل بني إسرائيل أصلا، غير أننا رجحنا أصلا، ووضَّحنا بالتفصيل، أن الكعبة بُنيت قبل إبراهيم عليه السلام بدهور كثيرة.

إن مصادرنا الإسلامية قد غاصت بنا في أعماق الوجود الأول للإنسان، أي فيما لا تمتلك مصادر أخرى غير مصادرنا فيها حديثا، إلا إن كان حديث خرافة توراتية أو سومرية أو بابلية أو كنعانية..إلخ، وإن مصادرنا الإسلامية معروفة لدى الباحثين بالقدرة التي ملكها روّادها في تمحيص الروايات، فليس كل ما هو مكتوب في كتب البشر معتمَدا عندنا، وإنما يجب أن تتحكم في كل ما هو مكتوب أسس البحث القادرة على الاستيثاق من كل نص.

وإن القرآن الكريم قد مر في طريقة كتابته بقدرة توثيقية هائلة، لم تتوفر لغيره من كتب الدنيا، والنص الذي يقرؤه المسلم اليوم هو نفسه الذي قرأه محمد ج، وصحابته الأولون، لا كما حصل في التوراة، كما سيقرؤه القارئ الكريم في الباب السابع من بحثنا هذا.

وإن السنة المشرفة قد مرت بمراحل من التمحيص، ميّزت بين الصحيح والسقيم، حتى عرف المسلم ما يصلح منها للاحتجاج وما لا يصلح، وذلك في إطار علم يفتخر به تراث المسلمين على الدنيا كلها.

إن المسلمين ليسوا يهودا حتى يقدسوا كل ما في توراتهم دونما تمحيص، بل إن المسلم لا يقبل نصا إلا إن استوثق من ثبوته.

الفصل الثاني: عروبة النشوء الفلسطيني

أرجو ألا يسبق إلى ذهن القارئ الكريم، أننا ننطلق هنا في تأكيدنا على الهوية التي تنتمي إليها فلسطين قديما، من رضانا بما نسب إلى الكنعانيين من شرك بالله تعالى، إن صح أن ذلك كان، أو صح أنه كان شاملا لجميع الكنعانيين؛ بل إننا نتحدث في هذا الفصل فقط عن السابقة العربية في فلسطين، ولا ضير في ذلك أبدا، ذلك أن بحثنا هنا مسوقٌ للرد على ما يطرحه اليهود، من دعوى أسبقيتهم في الوجود في هذه الديار المقدسة، فالكنعانيون العرب، واليبوسيون، أحد بطون الكنعانيين، هم السابقون وجودا فيها من الناحية التاريخية، وفيهم مشركون، وفيهم موحدون، ولا غرابة أن نطرح هذه الفكرة، فكونُنا عربا، وكونُ الكنعانيين عربا، لا يعني أننا نعتزُّ بشرك من كان مشركا منهم، ولا مانع أيضا من أن ننتسب إليهم عرقيا أو لغويا، كما لا مانع أن ينتسب محمد ج إلى قريش عرقيا، فهم قومُه فعلا، وكونهم كافرين، لا ينفي حقه في الانتساب إليهم، أو الحقوقَ المترتبة على هذا الانتساب.

بل لا أرى مانعا حسب ما أفهم من شرع الله تعالى، من الاعتداد بمن يملك صفة طيبة حتى لو كان مشركا بالله، فالرسول ج قال بعد زمن من وفاة عبد الله بن جدعان في قصة أسرى بدر من المشركين: (**لو كان ابن جدعان حيا لوهبت إليه هؤلاء النتنى**) وأثنى على عقل سهيل بن عمرو وهو مشرك قبل إسلامه، ولم يقطع رسول الله ج صلته ونسبه الذي يربطه بعمه أبي طالب، ولا بجده عبد المطلب، وهما مشركان، إن المرفوض في عالم النسب هو تقديم النسب على الحق، فقد قال تعالى: (**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانُكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين**) سورة التوبة، (٢٤)، فلم تمنع الآية الحب الفطري الطبيعي لهذه الأشياء المذكورة، بل كل ما في الآية أنها منعت أن يكون حب هذه الأشياء حائلا دون

أمر الله والجهاد في سبيله.

ثم لا بد أن ندعو القارئ الكريم إلى قراءة رؤيتنا لمنشأ الكنعانيين، حيث أثبتنا أنهم نشأوا موحِّدين، وسيأتي بيان هذه المسألة بعد حديثنا عن أسماء مدينة القدس.

هذا وسينقسم هذا الفصل الذي يتحدث عن عروبة فلسطين في منشئها إلى مباحث ثلاثة:

المبحث الأول: فلسطين عربية المنشأ.

المبحث الثاني: الجزيرة العربية هي منشأ الشعوب العربية.

المبحث الثالث: إيغال مدينة القدس العربية في القِدَم.

المبحث الأول: فلسطين عربية المنشأ

ابتداءً، فإن فلسطين لا تعرف في تاريخها القديم شيئا اسمه اليهود أو بنو إسرائيل؛ ذلك أن الداخلين تحت هاتين التسميتين، لم يكونوا قد وُجدوا أصلا على صفحات الواقع الدنيوي والبشري، إلا في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد على أقدم تقدير، ففلسطين وسكانُها أقدم وجوداً بكثير ممن حملوا هذين اللقبين، وعليه، فلا معنى أصلا لدعوات يهود بحقٍ لهم في فلسطين، اعتمادا منهم على دعوى وجود إسرائيلي قد كان سابقا في هذه الأرض المباركة في يوم من الأيام؛ ذلك أن هذا الوجود الإسرائيلي الذي يدَّعون أسبقِيَّتَه، هو ذاته مسبوق بوجود غيره قبله(١).

غير أنهم يحاولون، منذ أن فاجأتهم حقائق التاريخ القاضية بوجود سابق على وجودهم بآلاف السنين، يحاولون الادِّعاءَ أنهم يقصدون من إثبات وجودهم السابق في فلسطين، لا على أنه الوجود المجرد الأول، بل على أنه الوجود الحضاري الأول الموحِّد لهذه الديار، أي أنهم قد يضطرون إلى الاعتراف بوجود سبق وجودهم في فلسطين، فإذا اضطُرّوا إلى هذا الاعتراف قالوا: لكنَّ هذا الوجود الذي سبقَنا هو وجود غير حضاري، وقالوا: إن وجودنا وحده هو أول وجود حضاري في فلسطين.

---

(١) لا ريب أن القارئ الكريم سينتبه إلى أننا لا ننطلق في سبيل إثبات الحق في فلسطين من منطلق تحديد السابق فيها، ولا ريب أنه منتبه أيضا إلى مقصدنا من إثبات السابقة العربية الإسلامية في فلسطين هنا، وأن إثباتنا لهذه الأسبقية يأتي في سياق مواجهة دعاوى اليهود الكاذبة، التي تدّعي سبقا تاريخيا في فلسطين، وإلا فإن أصولنا تحدد إثبات الحق أو نفيه بطريقة أخرى، ليست الأسبقية التاريخي إلا حالة واحدة من حالاته، ولقد عقدنا بابا خاصا في سياق بحثنا هذا، يدور حول كيفية التعاطي مع دعوى الوعد بالأرض والحق التاريخي، وحول مدى ثبوت الحق في الأرض انطلاقا منهما، وطرحنا رؤية إسلامية مستلّةً من نصوص الشرع الكريم، فجاء ما طرحناه -حسب تقديرنا- معبرا عن مفاهيمنا الإسلامية، فأرجو من القارئ النظر إليه.

ولقد سبق أن تناولنا مبحث السَبْق الحضاري بتفصيل في بحثنا هذا، فلا نعود إلى شيئ منه خشية التكرار.

وعوداً إلى عروبة منشأ فلسطين..

إن فلسطين أرض عربية بفعل الوجود العربي السابق والطويل على أرضها، الــذي لا يُعرف لطوله مثيل لدى كل من سكن فلسطين، أو فلنقُلْ: لدى كل من احتلها وســرقها من أيدي أصحابها؛ فلم يعرف التاريخ من هو أطول عمرا في فلسطين، ولا أعمق وجودا فيها من العرب، ابتداءً من الكنعانيين أولِ منشئي الحضارات عليهــا، فهــم الــذين وإن انقطعوا عن حكمها بسبب الاحتلالات الفارسية واليونانية والرومانية لها، فإنهم لم ينقطعوا عن سكناها وإعمارِها، وعن تشكيل حضارتها؛ ومروراً بالحضارة العربية الإســلامية، إلى يوم الناس هذا، رغم الوجود الطارئ لليهود فيها الآن.

ولُغةُ فلسطين هي العربية أم اللغات، وهي التي كُتِب بها تُراثُها، وزُيِّنت بهــا قبابُهــا ومساجدُها.

ومنشأ إطلاق لقب العروبة على الكنعانيين، ترجع إلى أنهم عربيــو المنشــأ، حيــث خرجوا مهاجرين من الجزيرة العربية؛ فلأنهم يرجعون في أصولهم إلى هذه الجزيرة العربيــة قبل هجرتهم منها، صحّ أن يُطلق عليهم لقب العروبة، يقول الــدكتور محمــد عمــارة: ((وأصل الكنعانيين هؤلاء أصل عربي خالص؛ **لأنهم جزء من الهجــرات العربيــة الــتي خرجت من شبه الجزيرة العربية إلى أرض فلسطين**))(١).

ولأنهم أيضا عرب في لغتهم، على نحوٍ سيأتي تفصيله لاحقا، صح أن يطلق علــيهم وصف العروبة..

إن اللقب المتعارف عليه، والذي أطلق على سكان فلسطين القدماء هو: الســاميون،

---

(١) الدكتور محمد عمارة في مقاله: الاستعمار الاستيطاني بين فقه الواقع وفقه النص، عن موقــع الإسلام على الإنترنت.

وهو لقب جمع في أحشائه أسماء كثير من الشعوب، والتي ترجع في لغتها ومنشئها إلى جزيرة العرب.

وهم، أي هؤلاء الكنعانيون موجودون من أقدم العصور في فلسطين، ولم يقطع البحث الآثاري والتاريخي بعدُ في مبدأ وجودهم التاريخي في فلسطين، وكل ما هنالك من الأقوال أنهم الأول وجودا حسبما وصلت إليه معرفة التاريخ والآثار، يقول وليم أولبرايت: ((**إن لدينا من البراهين والأدلة على أن الكنعانيين أصحاب اللغة السامية الغربية، استقروا في فلسطين في أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد**..))[1].

وهؤلاء الكنعانيون، الذين هم أول منشئي الحضارات في فلسطين، شعب سامي[2] عربي، وعنهم وعن الساميين خصوصا يقول المؤرخ بريستيد: ((شرع الساميون منذ ٣٠٠٠ق.م. يهجرون البادية تباعا، ويقيمون في فلسطين عند الطرف الغربي من الهلال المخصب، وحوالي ٢٥٠٠ق.م. **نجدهم ساكنين مدنا مسوَّرةً، فهؤلاء هم الكنعانيون أسلاف العبرانيين**))[3]، وكلام المؤرخ بريستيد هنا ليس صادرا عن هوىً أو عن مزاجيات نفس تسعى إلى شيء ما غير البحث التاريخي، بل هي المكتشفات الأثرية، والتاريخ المشهود لدى الأمم..

إن المؤرخ بريستيد يؤرخ لبداية الوجود الكنعاني في فلسطين بمنتصف الألف الثالث قبل الميلاد، لأنه ألّف كتابه في تاريخ الحضارات القديمة عام ١٩١٠م، وجاء من المؤرخين من بعده ليُرجعوا الوجود الكنعاني إلى أعمق من هذا التاريخ، بسبب ما اكتُشف من الآثار

---

(١) نقلتُ كلام أولبرايت عن العرب واليهود في التاريخ للدكتور أحمد سوسة (٨٦)، وسيأتي معنا ذكر أولبرايت هذا كثيرا، كرجل من رجالات الآثار الأمريكيين، من أتباع المدرسة التوراتية، وسنذكر كثيرا من آرائه التي ناقضت علم الآثار نفسه، بسبب ميله الشديد إلى اليهود، لكنه هنا لم ينكفئ إلى المصلحة الإسرائيلية، بسبب وضوح الأمر إلى مستوى عدم القدرة على التزوير.

(٢) أرجو أن يرجع القارئ إلى رؤيتي للقب: سامي، في التمهيد الذي كتبته لهذا الباب.

(٣) العصور القديمة، تأليف: جيمس هنري بريستيد، ترجمة: داود قربان، (٩١).

من بعد بريستيد[1].

تقول الدكتورة بيان نويهض الحوت: ((يتضح وفقا للمكتشفات الأثرية في مصر والعراق، أن الساميين هم أقدم الشعوب المعروفة على أرض فلسطين؛ فمنذ الألف الرابع قبل الميلاد كان الساميون على شاطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقي، لكننا لا نستطيع الاستنتاج أنهم كانوا أول السكان البدائيين في المنطقة، ذلك بأن أقدم المحفوظات المصرية والبابلية تعود إلى ٣٥٠٠ق.م.))[2]، أي أنه بما أن علم الآثار لا يملك في هذه المسألة إجابة حول ما قبل القرن الخامس والثلاثين قبل الميلاد، فإنه لا يُمكن وفقا لمعطياته أن نتبين فيما إذا كان الساميون أقدمَ الساكنين البدائيين في فلسطين، أو أن ثمة من سبقهم.

لكن البعض يؤكد أن الساميين وُجِدوا في مناطق الهلال الخصيب منذ الألف الخامسة قبل الميلاد، وذلك حسب القرائن الأثرية والدراسات المتعمقة على ما يصفها به بعض الباحثين[3]، وبما أن فلسطين جزء من الهلال الخصيب، فإنه لا يبعد أن تكون مشمولة حسب هذا الرأي بذلك العمق البعيد من الزمان، الذي يُرجع الوجود السامي في الهلال الخصيب إلى خمسة آلاف عام قبل الميلاد، ذلك أن الكنعانيين ساميون؛ بل تنقل الدكتورة بيان نويهض الحوت أن بعض الباحثين ذهبوا إلى وجود الكنعانيين في فلسطين إلى ما قبل سبعة آلاف سنة، بدليل وجود مدينة كنعانية قديمة، تعود إلى سبعة آلاف عام، وهي

---

(١) أفادني هذه الفائدة المؤرخ الفلسطيني الكبير الأستاذ الدكتور أحمد صدقي الدجاني، وذلك في مكالمة هاتفية أجريتها فيما بيني وبينه يوم الجمعة ٢٠٠٢/٦/١٤م، وقد أوضح لي سيادته في حديثي معه أن اختلاف المؤرخين في مثل هذه الأعماق التاريخية الغائرة في القدم، يرجع إلى استناد كل مؤرخ إلى ما قد وصل إليه علم الآثار في عهده، فإذا جاء من بعده، وكشف علم الآثار تاريخا أعمق، أثبتوه، وهذا في تقدير الدكتور الدجاني هو بالضبط ما حصل في اختلاف التقديرات للوجود الكنعاني الأول في فلسطين.

(٢) فلسطين القضية الشعب الحضارة (١٨).

(٣) تاريخ الشرق القديم، للدكتور أحمد ارحيِّم هبّو، (١٠٧).

أريحا[1].

إن الساميين في كلام الدكتورة نويهض الذي ذكرناه قريبا هم الكنعانيون، وذلك ما سيأتي تأكيدُه في السطور التالية من كلام الأب ديفو:

ويحدد الأب ديفو[2] الزمنَ الذي استقر فيه الساميون لأول مرة في فلسطين ببداية العصر البرونزي القديم (٣١٠٠ق.م.) ويذكر أنه أُطلِق عليهم لقب الكنعانيين تبعا لإطلاق الكتاب المقدس[3].

ولا أحسب الأب ديفو دقيقا في دعواه أن إطلاق تسمية الكنعانيين على هؤلاء الساميين جاءت تبعا للكتاب المقدس، فالكتاب المقدس في دعوى الأب ديفو أنه مصدر هذا الإطلاق هو التوراة، أو هو بالأحرى والأدق: العهد القديم بأسفاره كافة، وإن كتب العهد القديم وأسفاره متأخرة في وجودها التاريخي عن إطلاق تسمية الكنعانيين على هؤلاء الذين قطنوا فلسطين منذ أقدم العهود، كما سيتبين لنا لاحقا في فصول الباب السابع من هذا البحث.

ولقد تبيّن أن التسمية بكنعان وكنعانيين كانت مستعملة لدى المصريين القدماء، فقد استعملوها ((للدلالة على المناطق الجنوبية الغربية من سورية، وهي المناطق التي كانوا على احتكاك بها منذ بدايات التاريخ المصري، وترد التسمية في النصوص المصرية بصيغة بي-كنعان))[4].

وأيضا عُرفت فلسطين منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد بأرض كنعان، وذلك كما

---

(١) يُنظر: فلسطين، القضية الشعب الحضارة، تأليف: بيان نويهض الحوت (٢٢).

(٢) الأب ديفو هذا من رجال الدين المشتغلين بالآثار، وهو في إطار جماعة من هذه الطائفة ((ينادون بالفصل الكامل بين الآثار الأردنية الفلسطينية والعهد القديم)) يُنظر: آثار فلسطين، حسين عمر حمادة، (١١١).

(٣) نقل قوله هذا الأستاذ جارودي في فلسطين أرض الرسالات الإلهية (٧٤).

(٤) آرام دمشق وإسرائيل، فراس السواح، (١٩).

هو وارد في نصوص تقارير قائد عسكري عند ملك ماري، ووردت بوضوح في مسلة أدريمي ملك مملكة ألالاخ، وهي التي تقوم مكانها اليوم (تل عطشانة)، قرب أنطاكية، وقد وردت بوضوح في هذه المسلة منذ منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وأقدم ذكر لهذه التسمية في المصادر المسمارية من نوزي، يعود إلى الفترة نفسها تقريبا، وهذه التسمية (Kinahna) أو (Kinahhi) تقارب الصيغة التي وردت كثيرا في رسائل تل العمارنة[1].

وأما النص الذي ورد في تمثال ألالاخ منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد، والذي يذكر فيه أرض كنعان، فهو: ((لقد عبرتُ البادية الخالية، ودخلتُ معسكر بدو السوتو، حيث أمضيت الليل عندهم في عربتي المغطاة، **وفي اليوم التالي اتّخذتُ الطريق إلى بلاد كنعان**))[2].

ثم إنه تم الكشف عن الحضارة الكنعانية وعظمتها في محفوظات رأس شمرا عام

---

(١) يُنظر: فلسطين من أقدم العصور، للدكتور معاوية إبراهيم، (٢/٤)، وماري هي المدينة التي تم الكشف عنها في موقع تل الحريري، التي تبعد نحو ميل واحد غربي الفرات وعلى بُعد ١١ كم من البلدة التي تُدعى: أبو كمال، الواقعة قرب الحدود العراقية اليوم، (تاريخ الشرق القديم، أحمد ارحيِّم هبّو، ٢١) وهي (ماري) التي فتحها حمورابي نحو عام ١٧٠٠ق.م.، يقول الدكتور فيليب حِتّي في كتابه تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين (١/٧٢): ((وكانت الاكتشافات التي عُثر عليها من أعظم ما كشفته أعمال التنقيب في العصور الحديثة، فقد تضمنت أكثر من ٢٠.٠٠٠ لوح مسماري،...، واللغة في معظم الحوال أكادية)).

أما مملكة ألالاخ المذكورة، فهي مملكة ازدهرت خلال النصف الأول من الألف الثاني ق.م. في الشمال الغربي من سوريا، قرب أنطاكية، يُنظر : فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، (١٩).

وحول التسمية بكنعان وأصلها يُنظر: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، فيليب حتي (١/٨٥- ٨٦).

(٢) تاريخ الشرق القديم، أحمد ارحيّم هبّو، (١٧٦).

١٩٢٩م، وفي كشوف عبلة [إبلة][١] منذ عام ١٩٧٥م[٢]؛ إن هذا الكشف وذلك النص المنقول عن ملك ألالاخ، كافيان في إثبات أن إطلاق التسمية بكنعان على فلسطين وساكنيها في أغوار التاريخ ظهر قبل وجود وظهور ورواية وكتابة العهد القديم من الكتاب المقدس ذاته، وفي هذا ردٌّ كافٍ على الأب ديفو، الذي ادَّعى أن تسمية أرض كنعان جاءت من التوراة.

ذلك أن التوراة الحالية منسوبة حسب اليهود والنصارى جميعا إلى موسى عليه

---

(١) في اتصال هاتفي أجريته مع الأستاذ المؤرخ الفلسطيني العربي الكبير الدكتور أحمد صدقي الدجاني (يوم الجمعة ١٤/٦/٢٠٠٢م)، قال لي سيادته مجيبا عن بعض أسئلتي: إنه يفضل أن ننطقها: عبلة، لأنها هكذا في الحقيقة، والسبب في تسميتها إبلة لدى المؤرخين هو أنهم كما قال سعادته، ترجموها عن الغربيين الذي تَخْلُو لغاتهم من حروف العين والحاء، فهم ينطقونها: إبلة، لأنهم لا يملكون العين، وأنا آخِذٌ بقول الأستاذ الكبير، وأقول: ما دمنا نملك العين التي لا يملكها الغربيون! فلنردَّ العين إلى الكلمة لنقرأها: عبلة، بدل إبلة.

(٢) يُنظر كتاب: فلسطين أرض الرسالات الإلهية (٥٤) تأليف روجيه جارودي، وفي (٧٣) من الكتاب نفسه يقول جارودي ملقيا بعض الأضواء على رأس شمرا: "وهي مكتبة حقيقية أتاحت إعادة البناء الجزئي للكتاب المقدس الكنعاني، وبذلك اتضحت المعلومات القديمة التي قدمتها ألواح تل العمارنة، وهي عبارة عن رسائل الملوك الكنعانيين إلى الفراعنة، أمينوفيس الثالث، وأمينوفيس الرابع (إخناتون) في القرن الرابع عشر ق.م."، ويُنظر: فيليب حِتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين (١٢٣/١-١٢٤) لإلقاء أضواء أخرى على أوغاريت -رأس شمرا، ويقول جارودي عن رسائل تل العمارنة أيضا (ص٧٩ من كتابه المذكور) أنه عُثر على ٣٢٠ لوحا من الفخار المُحرق، وقد غُطيت بحروف مسمارية ولغة بابلية، وتم الكشف عنها عام ١٨٨٧م بالقرب من البلدة الحالية المسماة: تل العمارنة، على مسافة ١٣٠ كيلو مترا جنوبي القاهرة. وأما كشوف عبلة [إبلة] فيذكر عنها (نفس المرجع ص٧٣) أنها تلك التي اكتشفتها بعثة إيطالية بإشراف باولو ماتيا عام ١٩٧٥م، وكشفت فيها ١٧.٠٠٠ لوحة في القصر الملكي بإبلة في سوريا، وعبلة [إبلة] هذه واقعة في تل مرديخ، إلى الجنوب الغربي من مدينة حلب السورية، ويُنظر: (آثار فلسطين، حسين عمر حمادة، ١١٢)، ويُنظر: فلسطين القضية الشعب الحضارة، تأليف بيان نويهض الحوت (١٦-١٧).

السلام، وسيدنا موسى لم يوجد أصلا إلا في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وعليه، فـــلا يمكن أن تكون التسمية بكنعان توراتية، إذ إن المكتشفات، كما ذكرنا، أثبتت أن هـــذه التسمية كانت معروفة قبل عهد موسى عليه السلام، فكيف إذا كانت التوراة، كما سيأتي معنا، كُتبت بعد سيدنا موسى بقرون طويلة؟!

المبحث الثاني: الجزيرة العربية هي منشأ الشعوب العربية

إنه سبق منا القول بأن منشأ إطلاق العروبة على الساميين هو مكان نشأهم الذي يرجع إلى الجزيرة العربية، وهو الذي تذكره الدكتورة بيان نويهض الحوت[1] عن المؤرخ الدكتور فيليب حِتّي[2]، بل هو الذي يكاد يُجمع الباحثون عليه، كما يذكر الدكتور المسيري[3]، وهكذا، وكما تقول الدكتورة بيان نويهض الحوت: "**فقد أصبحت نظريةً متفقا عليها بين معظم المؤرخين أن الجزيرة العربية هي المهد الأول لجميع الشعوب السامية**"[4]، ويقول المؤرخ العربي الكبير الدكتور محمد بيومي مهران: "**فالذي لا شك فيه أن الجزيرة العربية هي موطن الساميين الأول**"[5]، ويقول الأستاذ والمؤرخ الفلسطيني الكبير مصطفى مراد الدباغ: "..إن هؤلاء الساميين هم جميعا طبقات متتابعة من العرب، وإن اختلفت أسماؤهم، وإن بلادهم جزيرة العرب ظلت منذ العصور المتناهية في القدم خاصة بهم، وما دراستنا لتاريخهم إلا دراسة لتاريخ بعض الأقوام العربية البائدة، ويرى عدد من ثقات المؤرخين الأوروبيين أن العرب والساميين شيء واحد، وقال سبرنجر: **إن جميع الساميين عرب**"[6]، ويقول الدكتور والآثاري العربي أحمد سوسة: "ومن الثابت أن سكان فلسطين الأصليين القدماء، وقد كانوا كلهم عربا؛ **هاجروا من جزيرة العرب إثر**

---

(١) فلسطين القضية الشعب الحضارة (١٨).

(٢) يُنظر كتاب الدكتور حتي تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين (٦٧/١) فقد عقد مبحثا تحت عنوان: شبه جزيرة العرب مهد الساميين، وأوضح فيه أسباب الهجرة من جزيرة العرب إلى ما أطلق عليه حديثاً لقب الهلال الخصيب.

(٣) في موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، (٨٩/٤).

(٤) فلسطين القضية الشعب الحضارة (١٩).

(٥) تاريخ العرب القديم، محمد بيومي مهران، (٢١١).

(٦) بلادنا فلسطين للمؤرخ العربي الفلسطيني مصطفي مراد الدباغ، نقلا عن: فلسطين، القضية الشعب الحضارة، تأليف: بيان نويهض الحوت، (٢١).

الجفاف الذي حل فيها، فعاشوا في وطنهم الجديد كنعان أكثر من ألفي عام قبل ظهور النبي موسى وأتباعه على مسرح الأحداث))[1].

ولعله مما يؤكد هذا الرأي الذي توجه إليه جمهور الباحثين، وهو أن الأصل الذي خرج منه الساميون، أو من أطلِق عليهم الساميون، هو الجزيرة العربية، لعل ما يؤكد هذا الرأي أن الملك سرجون الأول الأكادي (٢٦٠٠ق.م. تقريبا)، وهو من الأكاديين الساميين، كتب عن أصله في نقش مشهور ما يُفهم منه صراحة أنه وعشيرته نزحوا إلى العراق من شبه الجزيرة العربية[2].

وعلى اعتبار أن الكنعانيين ساميّون، فإن هذا يعني أن الموطن الأصلي لهم، أي للكنعانيين، هو الجزيرة العربية، إذ هي موطن الساميين الأصلي؛ فمنها هاجروا، ومنها انطلقوا إلى الأرض التي سميت باسمهم قديما، أرض كنعان..

إن جزيرة العرب هي ذلك الخزان البشري النابض بالعطاء، الثري غير المنقطع، الذي أفاض على ما حوله من الأرض عُمّاراً يعمرونها، وبُناةً يبنون حضاراتها.

والحقيقة أن ثمة معنى آخر لإطلاق اسم العروبة على هذه الشعوب السامية، سيتضح معنا قريبا إن شاء الله، لكنَّ سطورنا هنا تهدف إلى إثبات المصدر الثري الذي منه خرجت هذه الشعوب، وهي الجزيرة العربية.

ولقد توزعت هذه الهجرات الكبيرة، التي كان لها شأن عظيم في مستقبل المهاجرين الآتي من بعدهم، توزّعت أرضَ الهلال الخصيب[3]، وكان لسوريا وفلسطين خاصة قدرة

---

(١) العرب واليهود في التاريخ، تأليف: الدكتور والمؤرخ الآثاري العربي أحمد سوسة، (٥٧).

(٢) يُنظر: الساميون ولغاتهم، للدكتور حسن ظاظا، (١٢).

(٣) أول من أطلق تسمية الهلال الخصيب على بلاد الشام والعراق هو المؤرخ الأمريكي برستيد، وذلك في مطلع القرن العشرين، يُنظر: كتاب: فلسطين أرض الرسالات الإلهية (٣٧) تأليف روجيه جارودي.

هائلة على الاستقطاب، فحظيت هذه البلاد بما أطلق عليه فيما بعد اسم: الهجرات الأمورية- الكنعانية، أو فلنقلْ: حظي هؤلاء الأقوام بالهجرة والإقامة في هذه الديار التي باركها الله تبارك وتعالى..

تقول الدكتورة بيان الحوت: ((وفي منتصف الألف الثالث، أي نحو ٢٥٠٠ ق.م. كانت الموجة السامية المعروفة بالموجة الآمورية- الكنعانية، وقد استقرت هذه في بلاد الشام، فعاش الآموريون في الداخل والكنعانيون في فلسطين والساحل))[١].

والذي يظهر أن الأموريين هم الأصل الذي انبثق عنه الكنعانيون، ويرى جفريز في كتابه (فلسطين: إليكم الحقيقة) أن الأموريين كانوا يمثلون الطراز السامي الحقيقي، وأنهم قد أورثوا ملامحهم إلى أخلافهم العرب[٢].

وثمة نظريات لدى بعض المؤرخين، تحاول أن تصرف جزيرة العرب عن أن تكون الموطن الأصلي للساميين[٣]، يقول الأستاذ العلامة محمد عزة دروزة في كتابه تاريخ الجنس

---

(١) فلسطين القضية الشعب الحضارة (٢٠)، ويُنظر: الدكتور فاروق عمر فوزي، في الفصل الأول الذي كتبه من كتاب الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط، (١٣) وقد شاركه في كتابة بعض فصول الكتاب الدكتور محسن محمد حسين.

(٢) تاريخ فلسطين القديم، تأليف: ظفر الإسلام خان، (٢٨-٢٩).

(٣) لكن الأستاذ فراس السواح يطرح في كتابه (آرام دمشق وإسرائيل ١٥-٢٢) نظرية أخرى، مفادُها: أن الهجرة السامية وردت إلى الجزيرة العربية من الهلال الخصيب، لا إلى الهلال الخصيب من الجزيرة العربية.

هذا ولا بد أن نذكر أننا إنما اقتصرنا هنا على الحديث عما اتفق عليه جماهير الباحثين من أن موطنهم الأصلي هو جزيرة العرب، ويُنظر للتعرف على النظريات الأخرى في هذه القضية، بل ومناقشة الموضوع برُمَّته: الساميون ولغاتهم، للدكتور حسن ظاظا، (١١-١٥)، وموسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، للدكتور عبد الوهاب المسيري، (٤/٨٩)، وفقه اللغة، للدكتور علي عبد الواحد وافي، (١٠-١٤)، وتاريخ الشرق القديم، للدكتور أحمد ارحيِّم هبّو، (١٠٧-١١٦)، ومقال: السامية والعروبة، المصطلح والرؤية، للدكتور محمد صالح توفيق، نشرته مجلة كلية دار العلوم في عددها

العربي: ((هناك بعض الباحثين لا يُسلمون بأن جزيرة العرب هي مهد الساميين، ومنهم من يقول بأن هذا المهد هو جزيرة الفرات أو بادية الشام أو أرمينية أو أثيوبية، ومنهم من يتردد في الجزم، غير أن كثيرا من الباحثين يقررون أن هذا المهد هو جزيرة العرب،...، **على أنه يبدو من خلال أقوال الفريقين أن الخلاف هو على مهد الجرثومة[1] لهذه الشعوب قبل التاريخ، ومن أصحاب القول الأول من يقول إن هذه الجرثومة هاجرت من مهدها الأول إلى جزيرة العرب قبل التاريخ، ثم أخذت تنساح منها إلى الأقطار المجاورة، وبعبارة أخرى يلتقون مع الأولين في دور من أدوار تاريخ الجنس العربي**، ونحن إذ نقول (الجنس العربي) لا نقصد المعنى الفني الدقيق الذي يتميز يه جنس بشري عن جنس آخر بخصائص جسمانية في الدرجة الأولى، وإنما نقصد المجموعة البشرية التي عاشت في جزيرة العرب منذ أقدم الأزمنة التاريخية المعروفة، وتشاركت في اللغة والأفكار والتقاليد، حتى صارت بذلك جنسا واحدا، فلما أخذ ينساح من هذه المجموعة موجات إلى المناطق المجاورة للجزيرة كان ذلك التشارك قد تم بينها ثم ظل قائما، وهذا لا يتعارض كما هو واضح مع احتمال كون المهد الأول لنواة هذه المجموعة ليس جزيرة العرب على ما يقرره بعض الباحثين، ولا مع احتمال تكوّن هذه المجموعة في عصور ما قبل التاريخ من عناصر أفريقية وآسيوية، على ما يقرره بعض الباحثين كذلك، **ولقد درج باحثو الغرب وتبعهم كتاب العرب على تسمية الشعوب التي تنتسب إلى جزيرة العرب أو التي تشارك في اللغة والأفكار والعقائد من سكان العراق والشام ووادي النيل ودولها بالساميين..**))[2].

العشرين، الصادر في شهر ديسمبر ١٩٩٦م، والعرب في العصور القديمة، للدكتور لطفي عبد الوهاب يحيى، (٤٩-٧٠) وفيه ملاحظات مهمة حول التسمية والأصل والموطن.

(١) تعني كلمة الجرثومة في تعبيراتهم: أصل الشيء، ويعني بها الأستاذ دروزة هنا: أصل الساميين، وموطن نشأتهم الأولى.

(٢) تاريخ الجنس العربي، تأليف العلامة الأستاذ محمد عزت دروزة، (ج٢/٦-٧ الحاشية).

وعلى هذا الذي مضى، فبإمكاننا أن نقول: إن جميع الشعوب التي هاجرت من جزيرة العرب، والتي أطلق عليها: الشعوب السامية، إنما هي في الحقيقة شعوب عربية، بفعل موطن نشأتها الأولى، ثم بفعل التقارب اللغوي الواضح بين لغات هذه الشعوب، والتي يغلب عليها أنها لهجات للغة واحدة، هي اللغة السامية الأم، كما سُمِّيت، والتي أثبت الباحثون أن اللغة الأقرب إليها هي اللغة العربية المعروفة فيما قبل الإسلام، وفيما بعده، تقول الدكتورة بيان: ((وهنا تجدر الإشارة إلى فريقين من المؤرخين العرب: فريق منهم يؤكد التشابه في اللغات، ووحدة الأصل والمنشأ من الجزيرة العربية؛ وفريق يذهب إلى أبعد من ذلك، فيؤكد أن الساميين عرب، وبالتالي يؤكد هذا الفريق أن الكنعانيين عرب، ويُستشهد بما قاله العلامة المؤرخ ابن خلدون: ((**أول مُلك في فلسطين في فجر تاريخها كان للعرب**))[1].

وما من شك في أن بلاد الشام، التي تُشكل فلسطينُ ناحيتَها الغربية الجنوبية، هي امتداد طبيعي لجزيرة العرب، ولذلك فهي مع العراق ((تشكلان وحدة لا يمكن فصلها عن الجزيرة العربية من الناحية الطبيعية والبشرية))[2]، والعرب هم الساكنون المستقرون في الشام عموما وفلسطين خصوصا، يذكر المؤرخ العربي الدكتور محمد كرد علي، أنه ((**لم تطل حياة عنصر في الشام كما طالت حياة العرب، وهم الذين اندمجت فيهم عامة الشعوب القديمة، واستعربت، فلم تعد تعرف غير العربية لسانا ومنزعا**))[3]، وكلامه هنا هو عن الشام عموما، وفلسطين جزء من هذه الشام، بل هي دُرَّة الشام، وهي شامته.

---

(١) فلسطين القضية الشعب الحضارة (٢٠).

(٢) الدكتور فاروق عمر فوزي، في الفصل الأول الذي كتبه من كتاب الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط، (١٣) وقد شاركه في كتابة بعض فصول الكتاب الدكتور محسن محمد حسين.

(٣) نقلت كلام الدكتور محمد كرد علي عن: الدكتور فاروق عمر فوزي، في الفصل الأول الذي كتبه من كتاب الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط، (٢١).

وعلى هذا الذي مر بنا، نستطيع أن نقول ونحن مطمئنون: إن هؤلاء المهاجرين من الجزيرة العربية، والذين أطلق عليهم لقب الساميين، إنهم عربٌ لغةً، وهم عرب نشأةً، وهم عرب مهداً، ولو كانت الكتابات التاريخية التي تبحث هذا الموضوع عربية إسلامية، أو لو كانت بعيدة عن سيطرة الخرافة التوراتية، لَما رأينا في كلام الباحثين أكثر من كون هؤلاء المهاجرين عرباً فعلا، قدِموا إلى هذه البلاد ليمتزجوا بها، ولتمتزج بهم، وليشكلا معاً: الجدَّ الأول مع المهد الأول لأولئك الذين عرفتهم الأرض المقدسة في عشرات الأجيال التالية بعدهم..

المبحث الثالث: إيغال مدينة القدس في القِدَم

مدينة القدس عربية المنشأ، ولن يجد من يخالف عروبة منشئها دليلا يُسعفه، من علم الآثار أو من علم التاريخ، بل إن علمي التاريخ والآثار ليؤكدان عروبة هذا المنشأ؛ غير أن إغراق القدس في القِدَم، لا زال يحول بين قدُرات علم الآثار، وبين أن يصل إلى الكثير من الأمور المتعلقة بالنشأة.

لكننا نؤكد أنه لا يُعرف شعب أقدم من العرب سكن القدس وفلسطين.

وكنا قد أثبتنا استنادا على أصولنا الإسلامية أن القدس إسلامية الجذور، ولا يبعد أن ذلك يعني إسلامية منشئها كمدينة أيضا، وهذا يعني أن جذور النشأة في المنطقة التي نشأت فيها القدس جذور إسلامية، حتى قبل أن تنشأ القدس ذاتها، ونرى أنه على بركة المسجد الأقصى بُنيت القدس، وانجذب البشر الأوائل إلى السكن فيها، تدينا وتعبدا لله العظيم سبحانه، ثم كان أن بُنيت القدس ونشأت كتجمع سكاني ثم كمدينة بالمعنى السياسي والاجتماعي للمدينة.

لكننا عَدَلْنا عن قولنا: إسلامية النشأة فيما يتعلق بالقدس كمدينة، بعد حديثنا عن إسلامية الجذور، وبعد ترجيحنا أن القدس كمدينة نشأت حول المسجد الأقصى الإسلامي؛ لأننا لا نعلم، إذ لم تُعْلِمنا المصادر الإسلامية، فيما إذا كانت القدس بشكلها المديني نشأت مع تلك الجذور الإسلامية الأولى التي غُرست في القدس من أول أيام البشرية، ببناء الأقصى فيها، أو لم تكن نشأتها كذلك.

ولكننا مع كل ذلك، نرى أن موضوع القداسة الذي يحتل المكان الأسمى فيما تتصف به القدس من أوصاف، هو الذي شدَّ الناس إليها من قديم الزمان، وهذا ما ذكرناه عن ميرسيا إلياد، رائد دراسة قداسة الأمكنة، الذي أكد أن الناس لم يندفعوا إلى الاستقرار في

مكان معين، إلا لِما في ذلك المكان من المعاني القدسية[1].

ومع ذلك، فالحديث في منشأ القدس كمدينة، سيبقى خاضعا -بسبب عدم وجود مثل هذا الحديث عنها بهذه الصفة في المصادر الإسلامية- سيبقى خاضعا لعلمَي الآثار والتاريخ، و لم يُثبت هذان العلمان جذورا إسلامية لنشأة مدينة القدس، وإنما أثبتا لها منشأً عربيا في أقدم ما استطاع علم الآثار كشفه، ولا يعني هذا أن علم الآثار قد قال كل ما هنالك، فهو إنما طرح ما رأى، ولا بد أنه غاب عنه الكثير، بدليل ما يكشفه هو نفسه كل يوم.

إن علم الآثار أكد عروبة نشأة القدس، و لم ينف إسلامية هذه النشأة.

وإننا مع ذلك نستبعد أن تكون القدس نشأت كمدينة من أول يوم بُني فيه المسجد الأقصى، فالمدن تأخذ أشواطا وأشواطا في الغالب بعد نشوء أول نواة سكنية فيها حتى تصير مدنا.

ولْنعُد إلى الحديث في القدس كمدينة عربية موغلة في القِدم..

فيظهر لي من أقوال المؤرخين أن القدس قد سُكنت كمكان تجمّع الناس فيه قبل الميلاد بما يزيد عن أربعة آلاف عام، وكان ذلك فيها على شكل نواةٍ سكانية، دون أن تأخذ شكل مدينة بالمعنى المتعارف عليه للمدينة، وكانت تلك النواة قد تجمعت في عهد اليبوسيين العرب، الذين نشأوا في الجزيرة العربية، ثم نزحوا عنها مع من نزح من الكنعانيين، وهم الذين سموها مدينة يبوس[2]، و لم يعرف التاريخ المدون شعبا قبلهم سكن

---

(١) يُنظر: القدس مدينة واحدة، ثلاث عقائد، تأليف كارين أرمسترونج، (٣١).

(٢) يُنظر: (تاريخ القدس،١١)، تأليف: عارف العارف، وهو نفسه الذي سماه المؤلف: الموجز في تاريخ القدس، وذلك في مقدمته لكتابه، وكذلك يُنظر: (العرب واليهود في التاريخ، ٦٨١)، للدكتور أحمد سوسة، ويُنظر أيضا: (القدس عربية إسلامية، ٤٥) للدكتور سيد فرج راشد، و(فلسطين عربية بقدسها ومدنها وقراها)، (٢٨٧)، وهي الورقة التي قدمها عبد الحميد الصيد الزنتاني للأكاديمية المغربية التي عقدتها بعنوان: (القدس، أنقطة قطيعة، أم مكان التقاء؟) وذلك في الفترة من ٦-٨ شعبان

القدس[1].

ومما يبين إغراق القدس في القدم، ما اكتُشِفت في نزلات وادي قدرون من بقايا تعود إلى أربعة آلاف عامٍ قبل الميلاد[2]، بل يؤكد الدكتور إبراهيم الفني من أهل بيت المقدس أن ((أول استيطان -أي في القدس- يعود إلى العصر الحجري المتأخر، والذي يعود تاريخه إلى أربعة آلاف وخمسمائة قبل الميلاد))[3]، وهذا في تقديري دليل على وجود بشري عمراني يعود إلى الفترة المذكورة، ولا يعني بالضرورة وجودَ مدينة بالمعنى الكامل للمدينة في ذلك الحين، إذ ليس هنالك ما يدل أصلا على شكل هذا التجمع البشري العمراني يومها، هل هو تجمُّع مديني، أم تجمع غير مديني، رغم دلالته على وجود استقرار ما[4].

١٤١٩هـ.

(١) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، للعلامة محمد عزت دروزة، (١٥٣)، نقلا عن: واقدساه للدكتور سيد حسين العفاني، (٤٨/١).

(٢) القدس مدينة الستة آلاف عام، (٢٧) للدكتور إبراهيم الفني، من مركز القدس للأبحاث، نشرته جامعة النجاح الوطنية، كلية الآداب، ضمن ما نشرته في ندوات يوم القدس، التي عُقدت ما بين ٢٧-٢٨ أيار عام ١٩٩٨م؛ ويُنظر: القدس مدينة واحدة، عقائد ثلاث، تأليف كارين أرمسترونج، (٢٢)، فقد ذكرت أن بعض الأواني الفخارية قد اكتُشفت جنوب الجدران الحالية للقدس القديمة، ونقلت عن المؤرخين أنها ترجع إلى ٣٢٠٠ق.م.

ووادي قِدرون المذكور، يقع إلى الشرق من القدس، يُنظر: بلادنا فلسطين، مصطفى مراد الدباغ، (٧٨/٢)، وهو عبارة عن جدول من الماء يجري في قاعه في الشتاء، وطوله نحو كيلو مترين، يُنظر: القدس مدينة الله أم مدينة داود، للدكتور حسن ظاظا، (٦٠)، وهو، أي وادي قدرون، يفصل بين القدس وبين جبل الزيتون، ويُسمى أيضا وادي يهوشافاط، وأما في العربية فيسمونه وادي الست مريم، يُنظر: الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، (١٤٤) للأستاذ فراس السواح، ويُنظر كذلك: العرب واليهود في التاريخ، للدكتور أحمد سوسة، (٦٩٠).

(٣) التسوية الشرقية للمسجد الأقصى، للدكتور إبراهيم الفني، (٦٦) وتُنظر أيضا الصفحة (٥٣١) من الكتاب نفسه.

(٤) اليبوسيون في القدس القديمة، للدكتور عادل سيد مصطفى، المطبوع ضمن أبحاث الندوة

والمعروف أن الباحثة والمنقبة الآثارية كاثلين كينيون اكتشفت قبراً في جبل أوفل (يُسمى بالعربية: تل الضهور) يحتوي على فخار، يرجع تاريخه إلى القرون الأخيرة من الألف الرابع قبل الميلاد[1]، ويقول الأستاذ محمود العابدي: ((على سفوح تل الضهور، أوفل، كانت تكثر الكهوف التي سكنها قدماء الكنعانيين في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، ثم بدأ الكنعانيون ببناء بيوقم فوق المغر وحولها، إلى أن قامت المدينة..))[2]، بل أكثر من ذلك، فقد أكد العالِم المختص بدراسة القدس في جامعة ويلز الشمالية آب طوماس أنه قد وُجدت آثار للقبائل العمورية والكنعانية واليبوسية، التي هاجرت إلى نواحي القدس، تدل على أن القدس كانت عامرة بالسكان قبل قدوم العبرانيين بثلاثة آلاف عام[3].

ويبدو أن هذا التجمع السكاني، الذي لا يظهر لنا أنه تجمع مديني؛ يبدو أنه قد تطور فيما بعد حتى وصل إلى تجمع مديني، وهو ما قذفت الأرض دليله عبر ما أفلتته يد الدهر

الدولية (القدس التاريخ والمستقبل) المنعقدة في مركز دراسات المستقبل، جامعة أسيوط، ٢٩/١٠/١٩٩٦م، (الصفحة ٢١٣).

(١) يُنظر: القدس في العصر البرونزي، هـ. ي. فرانكن، ضمن مجموعة الأبحاث التي نشرها الدكتور كامل جميل العسلي تحت عنوان: القدس في التاريخ، (٣٥)، ويُنظر: بيت المقدس، وأكناف بيت المقدس، صراع الهوية والأرض، للدكتورة خيرية قاسمية، أستاذة التاريخ بجامعة دمشق، (٤٤) ولقد نشرته لجنة يوم القدس، وذلك ضمن ما نشرته من وقائع ندوتها العاشرة، والمنعقدة في عمّان، من ٢-٤/١٠/١٩٩٩م، فقد ذكرت أن بقايا أثرية اكتشفت في القدس تدل على وجودها في الألف الثالث قبل الميلاد.

(٢) قدسنا، للأستاذ الآثاري محمود العابدي، نشره معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية، ١٩٧٢م؛ نقلا عن: القدس، نظرة تاريخية، خليل السواحري، نشرته مجلة صامد في عددها (١١٠) عام ١٩٩٧م.

(٣) القدس بين حقائق التاريخ وادِّعاءات الميثولوجيا، للأستاذ فيصل الخيري، نشرته مجلة صامد في عددها (١١٠) عام ١٩٩٧م.

من داهية الزوال.

فلقد كشفت السيدة كاثلين كينيون، في مطلع الستينيات من القرن العشرين، عن أساسات سور المدينة اليبوسية القديمة[1]، والتي تعود إلى عام ١٨٠٠ق.م..

وقد لاحظت السيدة كينيون أثار إصلاحات متتالية على هذا السور، جعلته قادرا على البقاء حتى التدمير البابلي عام ٥٨٧ق.م.، ووجدت آثار تدمير في السور وفي أبنية أورشليم[2].

وتنقل الراهبة البريطانية كارين أرمسترونج في كتابها: القدس مدينة واحدة، عقائد ثلاث، وصفا لهذا السور الذي اكتشفته كينيون، وذكرت أن سمكه يبلغ نحو ستة أقدام ونصف القدم، ولو بوابة كبيرة بالقرب من عين جيحون، وذكرت كارين أرمسترونج أن كينيون استنتجت أنه لا بد أن تكون للسور بقية تلتف حول الطرف الجنوبي لتل الأكمة، وتستمر بحذاء السفح الغربي..إلخ[3].

وفي عام ١٩٢٥م اشترى أحد العلماء في الأُقْصُر بمصر قطعا فخارية، فلما جُمِّعت هذه القطع اتضح أنها بقايا ثمانين صحفة وآنية للزهور، وأن النقوش الموجودة عليها مكتوبة باللغة المصرية الهيراطيقية القديمة، وهي النقوش التي يطلق عليها نصوص اللعنة التي تُكتب على قطع الفخار، ثم تُحطم في طقوس سحرية معينة عند الفراعنة، يقصدون من عملهم هذا أن يتسببوا في إسقاط الأتباع العُصاة، وكان قد كُتِب على هذه القطع أسماء تسعة عشر مدينة كنعانية، منها مدينة **روشاليموم، ويرجع تاريخ هذه القطع الفخارية إلى عهد الفرعون سيزوستريس (١٨٧٨-١٨٤٢ق.م.)**[4]، وأما الصورة التي ورد اسم

---

(١) آرام دمشق وإسرائيل، للأستاذ فراس السواح، (١٥٠)، ويُنظر: الموسوعة الفلسطينية، (٥١١/٣)، ويُنظر: القدس مدينة واحدة، عقائد ثلاث، تأليف: كارين أرمسترونج، (٢٤-٢٦).

(٢) يُنظر: آرام دمشق وإسرائيل، للأستاذ فراس السواح، (١٥٠).

(٣) يُنظر: القدس مدينة واحدة، ثلاث عقائد، تأليف كارين أرمسترونج، (٢٥-٢٦).

(٤) يُنظر: المرجع نفسه، (٢٧).

أورشليم عليها في هذه النصوص فهي كما يلي: (يقرب- آمو، حاكم أورشليم وجميع بطانته) وفي هذا يقول الأستاذ فراس السواح: ((**وهذا النص القديم وأمثاله، يُثبت أن اسم مدينة أورشليم قديم قدم وجودها، ولا علاقة للإسرائيليين النازحين بتسميتها وتسمية غيرها من مدن كنعان**..))[1]، وفي هذا دلالة أن المدينة كانت قائمة آنذاك، أي في القرن التاسع عشر قبل الميلاد.

وقد عُرف أن القدس في القرن العشرين قبل الميلاد كانت مدينة قوية وهامة ، ومما يدل على ذلك: سجلات المدينة وأختامها التي وُجِدت في مصر، ضمن علاقة المدينة مع الفراعنة، وكان ذلك في القرن العشرين قبل الميلاد[2].

ويؤيد هذه الاكتشافات، بل يزيد عنها في العمق التاريخي، ما قد وصل إليه عالِمَا الآثار الإسرائيليان: جدعون أفني (مسؤول دائرة الآثار عن مدينة القدس) وروني رايْش، فقد كشفا من خلال أعمال التنقيب التي قاما بها في القدس، ونشراها في شهر تموز ١٩٩٨م، كشفا أن **مدينة القدس كانت مدينة كنعانية محصنة ومتطورة قبل نحو ألف سنة من قدوم الإسرائيليين إلى أرض كنعان**[3]، فإذا كان قدوم الإسرائيليين إلى أرض كنعان قد حصل في حدود عام ١٢٠٠ق.م.، فإن مدينة القدس حسب كشفهما الآثاري كانت مدينة محصنة ومتطورة قبل هذا التاريخ بألف عام، أي عام ٢٢٠٠ق.م.، فإذا كانت القدس محصنة ومتطورة عام ٢٢٠٠ق.م.، فإنها بلا شك كانت موجودة كمدينة

---

(١) الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، (١٤١-١٤٢) للأستاذ فراس السواح، وسيأتي لاحقا الحديث في أسماء المدينة المقدسة.

(٢) القدس مدينة الستة آلاف عام، (٢٨) للدكتور إبراهيم الفني، من مركز القدس للأبحاث، وتُنظر: الحلقة الثالثة من: تفنيد مزاعم علماء الآثار الإسرائيليين للفني والنمري، جريدة القدس، ٢٠٠٢/٢/١٧.

(٣) القدس ٥٠٠٠، (٨٧-٨٨) وهي الورقة التي قدمها الدكتور ناصر الدين الأسد للأكاديمية المغربية في الفترة من ٦-٨ شعبان ١٤١٩هـ.

قبل هذا التاريخ بزمان يعلمه الله، أي قبل الوجود الإسرائيلي القديم ذاته..

وهذه الشهادة من عالِمَي الآثار الإسرائيليَّيْن ذات اعتبار خاص، فهما يهوديان، وهما أيضا متخصصان في علم الآثار.

ويذكر الأستاذ محمد محمد شراب[1] أن أول سور بُني حول القدس تمّ بناؤه حوالي عام ٢٥٠٠ق.م.، ولم يذكر الأستاذ شراب مصدر هذا التأريخ، ونحن نفضل أن نستند على مصادر متخصصة، لكننا ذكرنا كلامه استئناسا.

هذا، وقد حددت الحفريات الأثرية، الطبقاتِ الأرضيةَ للقدس بإحدى وعشرين طبقة[2]، وذلك من القرن الأربعين قبل الميلاد، وحتى القرن التاسع عشر الميلادي[3].

وكان ملكي صادق[4] الكنعاني هو أول من بناها واختطَّها وحصّنها، وذلك بعد أن كان هو وقومه يسكنون الكهوف، وهذا ما رجحه كثير من المؤرخين، وهو ما ذكره مؤرخ اليهود يوسيفيوس، وهذا يعني أن مدينة القدس قد بُنيت قبل الميلاد بأكثر من ثمانية عشر قرنا[5]، إذ إن ملكي صادق كان معاصرا لإبراهيم عليه السلام، الذي كان موجودا

---

(١) في كتابه بيت المقدس والمسجد الأقصى، (٤٨).

(٢) يقصد دارسو علم الآثار بالطبقات: التعبير عن عدد الأجيال التي سكنت مكانا ما، إذ يأتي الجيل فيبني عمرانا، ويأتي بعده جيل آخر، فيبني فوق العمران السابق، وتأتي أجيال أخرى لتبني فوق ما سبقها، لتشكل الأجيال بعمرانها المتواصل طبقات، كل طبقة تعبر عن جيل من الأجيال.

أفادني هذه الفائدة الدكتور مروان أبو خلف، المتخصص بعلم الآثار من أهل بيت المقدس، وذلك خلال مكالمة تلفونية أجريتها معه يوم الأحد ٢٢/٦/٢٠٠٣م.

(٣) القدس مدينة الستة آلاف عام، (٣٠) للدكتور إبراهيم الفني، من مركز القدس للأبحاث.

(٤) مما ينبغي بيانه هنا: أن ملكي صادق هو في الحقيقة شخصية توراتية، أي أن ذكرها قد ورد في التوراة، ولسوء الحظ فهي لم تصادف من علم الآثار ذكرا، قال هـ. ي. فرانكن في بحثه (القدس في العصر البرونزي ٣٠٠٠-١٠٠٠ق.م.) الذي طبعه الدكتور كامل جميل العسلي ضمن مجموعة بعنوان: القدس في التاريخ، (صفحة ٢٢): "وليس لاسم ملكي صادق وجود في أي سجل أثري".

(٥) يُنظر كتاب: القدس الشريف، تأليف: هنري كتن، ترجمة: نور الدين كتانة، (٣٨)

قبل الميلاد بأكثر من ثمانية عشر قرنا.

وملكي صادق هذا كان محبا للسلام، حتى أطلق عليه لقب: (ملك السلام) وهو الذي ذكره سفر التكوين [١٨/١٤] واصفا إياه (بالكاهن لله العلي)[1] وهو وصف إعظام وإجلال، وليس من شأن توراة بني إسرائيل أن تُثني على من ليس من بني إسرائيل، بل لقد لوثت هذه التوراة سيرة من هو معدود منهم في زعمهم، كسليمان وداود عليهما السلام؛ لكن التوراة في هذه القضية أثنت على هذا الرجل، مما يسمح لنا بالتفكير في أن نصَّ الثناء عليه مما أفلت من أيدي التحريف اليهودية، خاصة أنه كنعاني حسب التوراة، والكنعانيون مغضوب عليهم في النظر التوراتي، هذا على تقدير وجوده فعلا في عالم التاريخ، وإلا فإن عدم وجوده، إن كان هو الصحيح، لا يضر القضية التي نحن بصددها شيئا.

ولا يعني هذا أن القدس بُنيت في تلك التواريخ المذكورة فحسب [١٨٠٠ق.م. حسب اكتشافات السيدة كينيون، وحسب نصوص اللعنة الفرعونية أيضا؛ أو في القرن العشرين قبل الميلاد، حسب سجلات المدينة؛ أو عام ٢٢٠٠ق.م. حسب ما يفهم من كلام عالِمَي الآثار الإسرائيليين: جدعون أفني وروني رايْش؛ أو ٢٥٠٠ق.م. حسب ما نقلته عن الأستاذ شراب]، فالأسوار والحصون تُبنى أصلا بعد بناء المدن على الأغلب، أي أن تاريخ بناء السور أو الحصن حول المدينة، لا يحمل أبدا معنى أنها ما أصبحت مدينة إلا حين بنائه، ذلك أنه لا يُشترط في تفسير وجود سور لمدينة ما، أنها نشأت في نفس العهد الذي نشأ فيه السور، فقد تؤسس المدينة في جيل أو عهد، ثم يؤسس لها سور بعد عهود من نشأتها الأولى، حسب ما تصادفه المدينة، أي مدينة، من تحديات وحروب، أو أحيانا حاجات حضارية أو تجميلية.

والحديث نفسه نقوله في الأختام والسجلات التي عُرفت عن المدينة المقدسة، فوجودها في تاريخ معين، لا يعني أن المدينة لم تكن موجودة قبل هذا التاريخ.

---

(١) يُنظر كتاب الدكتور أحمد سوسة: (العرب واليهود في التاريخ، ٦٨٢).

وعلى هذا، فاكتشاف السور واكتشاف زمان بنائه، إنما يدلان على التاريخ الذي بُني فيه السور، لا على تاريخ تأسيس المدينة، وعليه، فالمدينةُ مُسَوَّرةً كانت موجودة في ذلك العهد، وكذا أيضا الشأن فيما اكتُشف من سجلات وأختام.

إنه فيما بين نشوء أول تجمع سكاني مكتشف حسب علم الآثار، كما قد تقدم، وبين أول مظهر دالٍّ على أن القدس مدينة قديمة، حسب المكتشف في علم الآثار، إنه بين هذا وذاك تحولت القدس إلى مدينة، وليس لدى علم الآثار إلى الآن ما يمكن أن يدعونا إلى القطع بتاريخ تحوّل هذا التجمع السكاني في القدس إلى مدينة، ولعل كشف ذلك لن يطول، إذا استمر علم الآثار في مسيرته.

أريد أن أقول: إننا في جميع الأحوال لا نملك دليلا على أن القدس لم تكن موجودة قبل تلك التواريخ، وفي هذا الإطار يقول عالِم الآثار اللاهوتي فرانكن: ((**إن عدم استطاعتنا العثور على آثار مدينة كهذه**[1] **لا يكفي لإثبات أنها لم تكن موجودة،** ويكفي أن نقول: إنه ليس في أيدينا بينات أدبية أو أثرية تشير إلى وجود القدس في الألف الثالث قبل الميلاد))[2].

وما دامت المدينة قد أطلّت على عالم الوجود، فصارت من أهله، في تلك العصور المُغرقة في القِدم، فإن هذا يعني لزوما أنها كانت موجودة قبل عصر داود عليه السلام إلى أيام وجوده، إذ لم ينقل التاريخ أنها زالت قبل عصره، بل كلام كينيون الذي نقلناه قريبا حول إصلاحات في سور القدس في عهود متعددة، إلى أيام السبي البابلي عام ٥٨٦ق.م.؛ إن هذا الكلام يدل على أن القدس كانت موجودة فعلا في عهد داود، بل جاء داود ليجدها بانتظاره، مِلكا نبيا صالحا، عليه الصلاة والسلام.

---

(١) يقصد مدينة القدس في الألف الثالثة قبل الميلاد.

(٢) القدس في العصر البرونزي، هـ. ي. فرانكن، ضمن مجموعة الأبحاث التي نشرها الدكتور كامل جميل العسلي تحت عنوان: القدس في التاريخ، (٢٢).

إنها في عهد داود عليه السلام، كانت موجودة، وكانت مُمنَّعة بحصون عاتية، وهي في هذا لم تكن منفردة عن سائر المدن الفلسطينية[1]، ويعترف التوراة أنها كانت موجودة قبل عهد داود؛ ويذكر التاريخ ما يؤيد التوراة من أن أورشليم كانت موجودة قبل داود عليه السلام، يقول المؤرخ الأمريكي بريستيد عن سيدنا داود عليه السلام: ((فاختار الحصن الذي كان قائما على رابية أورشليم، وكان لا يزال في حوزة الكنعانيين، فانتزعه من أيديهم، واستولى عليه))[2].

إن القدس قديمة، ومغرقة في القدم، إلى الألف الرابعة قبل الميلاد، حسب مكتشفات علم الآثار.

وإن تاريخ القدس المُغرق مثل هذا الإغراق العظيم في القِدم، لم يسمح لليهود أن ينالوا منه إلا لحظات عابرة، لو أردنا التحقيق في أمرها لوجدناها لنا لا لهم، فإن هذه اللحظات التي يدّعونها، إنما ترجع إلى الملكين النبيين داود وسليمان عليهما السلام، وهما لنا لا لليهود، وليس اليهود بأولى بهما منا!.

---

(١) يُنظر: العصور القديمة، تأليف: جيمس هنري بريستيد، ترجمة: داود قربان، (١٧٧-١٧٨).

(٢) المرجع نفسه، (١٧٩).

الفصل الثالث: أسبقية الوجود العربي على الوجود اليهودي

إن الوجود اليهودي في فلسطين لا يمثل، إذا ما قورِن بالوجود العربي الأصيل فيها، إلا لحظة عابرة حسب تعبير كيت وايتلام كما سيأتي قريبا إن شاء الله تعالى.

وسيرى القارئ الكريم، وبالأرقام الحسابية، مصداق ما نقوله، ليتأكد لـــه في نهايـــة المطاف أن الوجود اليهودي وجود طارئ، ليس له قدرة على تشكيل الوجه الفلســـطيني، وذلك في مقابل الوجود العربي، والعربي الإسلامي، الذي استطاع فعلا أن يشكل وجـــه فلسطين.

وسينقسم هذا الفصل إلى مبحثين:

المبحث الأول: الوجود العربي في فلسطين مقارنة بالوجود الإسرائيلي.

المبحث الثاني: أقدمية نشوء القدس على الوجود اليهودي نفسه.

المبحث الأول: الوجود العربي في فلسطين مقارنة بالوجود الإسرائيلي

إنه وعلى الطريقة الحسابية، سيظهر لنا مصداق ما نقوله من أن الوجود اليهودي يمثل لحظة أمام الوجود العربي في فلسطين، فحسب هذه الطريقة، "مثلت القدس - يقول الدكتور جواد حمد- منذ تأسيسها عام ٣٠٠٠ ق.م[١] محوراً أساسياً من محاور الصراع الحضاري في المنطقة، وقد تداولت السيطرة عليها ثماني أمم خاضت صراعات وحروبا ضد بعضها البعض؛ **ورغم أن حكم وسيطرة اليهود على المدينة في عهدي داود وسليمان[٢] عليهما السلام لم يمثل أكثر من ١,٦%[٣] من تاريخها المديد (٥٠٠٠ عام)**، فإن الفتح

---

(١) أرى الدكتور الحمد يجعل تاريخ تأسيس القدس كمدينة عائدا إلى عام ٣٠٠٠ق.م.، وفي الحقيقة، فإن مستقبل علم الآثار، سيكشف الأعماق التاريخية الحقيقية للقدس، وسيكشف أنها أبعد جذورا من هذا التاريخ، وأترك التحديد الدقيق لمستقبل علم الآثار.

(٢) في الحقيقة لا أرى دقة هذا الاستخدام، فداود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ليسا يهوديين، ولا نستطيع أن نقول: إن اليهود قد سيطروا على القدس في عهديهما، ذلك أننا لا نملك ما يُثبت أن من كان يحكمهم المِلكان النبيان يهودٌ، بل هم بنو إسرائيل، الذين لا نملك ما يدل على أنهم في ذلك الوقت كانوا يعتقدون بما في التوراة الحالية من قبائح الاعتقاد، بل الراجح أنهم لم يكونوا يعرفون هذه التوراة الحالية، ذلك أن هذه التوراة لم تكن مكتوبة أصلا، بل هي في غالب أسفارها إنتاج وإفراز ما بعد داود وسليمان عليهما السلام.

هذا، ولا تصح هذه المداخلة إلا على ذلك الاعتبار الذي يجعل اليهودي هو من يؤمن بالتوراة الحالية، فإن كان ثمة اعتبار آخر للتسمية باليهودي، فسيكون اعتبارا محدودا بفترة تاريخية ماضية، لا يلزمها ذلك التحريف التوراتي.

(٣) أي في حدود ٧٨ سنة، هذا وفي كتاب اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (٣٧٨) الهامش رقم (٤) أن الفترة ما بين عامي ٢٠٠٠ق.م. وحتى ١٦٤ق.م. وهي على وجه التقريب ١٨٠٠سنة، يُغطي وجود إسرائيل من ظهورِها إلى وفاة سليمان عليه السلام قرابة قرنين ونصف، أي كما يقول وايتلام (١٣-١٥%) من هذه ال ١٨٠٠سنة.

الإسلامي -الأول دينياً بالإسراء والمعراج والثاني سياسياً على يد عمر بن الخطاب ط والثالث بتحريرها من الاحتلال الصليبي في القرن الثاني عشر الميلادي على يد صلاح الدين الأيوبي- يحسم الصفة الحضارية للقدس بعروبتها وإسلامها، حيث سادت حضارة الإسلام فيها كل حضارات الأمم الأخرى)).

ويتابع الدكتور حمد: ((وعند دراسة تاريخ القدس الزمني يتبين أن الحكم العربي الإسلامي في القدس مثل حوالي ٧٠,٩%[1]من الفترة ما بين ٣٠٠٠ ق.م و١٩١٧ أي إلى فترة الاحتلال البريطاني، في حين كان الوجود العربي متواصلاً لم ينقطع ولم يرتبط بطبيعة نظام الحكم، وكان للروم حكم فترتين في القدس مثلتا حوالي ١٥,٤%[2] من عمر القدس، كما مثَل حكم الفرس لفترتين كذلك ٦%[3] من عمرها، واليونان لفترة واحدة ٦% أيضاً))[4].

هذا، وألحظ أن الدكتور جواد حمد قد أهمل الفترة التي تلت وجود النبيين المِلكين داود وسليمان عليهما السلام، والتي تنتهي بعام ٥٨٦ق.م.، أي إلى أيام السبي البابلي.

وعليه، فإن النسبة الحقيقية تبدو في تقديري كما يلي:

إن الفترة التي يدَّعي اليهود أنها مُلكهم تاريخيا، هي الفترة ما بين حكم داود في حدود عام ١٠٠٠ق.م.، إلى بداية فترة السبي البابلي عام ٥٨٦ق.م.، أي ٤١٤سنة.

فإذا كانت القدس كمدينةٍ موجودةً قبل الميلاد بثلاثة آلاف عام، فإن عمرها على هذا

---

(١) أي في حدود ٣٤٨٦ سنة، وهذا على احتساب سليمان وداود وعهدهما يهودا، وقدّمنا أن هذا لا يصح حسب اعتقادنا فيهما عليهما السلام.

(٢) أي في حدود ٧٥٧ سنة.

(٣) أي في حدود ٢٩٥ سنة.

(٤) ورد كلام الدكتور جواد الحمد مدير مركز دراسات الشرق الأوسط في عمان/ الأردن، في مقال له بعنوان: القدس: نجاح إسرائيلي واضح نحو التهويد جغرافيا وسكانيا، نشره موقع قناة الجزيرة، بتاريخ ١/١٠/٢٠٠١م.

هو ٥٠٠٠ عام، وإن ال ٤١٤ سنة التي تمثل ما يدَّعيه اليهود من ملكهم لفلسطين تساوي ٨% من مجمل تاريخ مدينة القدس فقط.

هذا إن سلمنا لهم بانتماء مملكة سليمان وداود عليهما السلام إليهم، إذ في الحقيقة أنهما لا ينتميان إليهم، فلليهود دين ولسليمان وداود دين آخر، كما سيأتي.

إنها بيانات عجيبة، تحسم الانتماء الذي تعرفه القدس، إنه انتماء لا يعرف غير العروبة والإسلام، ولا يعرف اليهود كأمة تنتمي إليها القدس، ولذلك فإن كيث وايتلام في مقدمة كتابه (اختلاق إسرائيل القديمة) يؤكد أن ((**تاريخ إسرائيل القديم يبدو كلحظة قصيرة في التاريخ الفلسطيني الطويل**))[1]، وهو تعبير، رغم قدرته البيانية الرائعة، إلا أنه يحتاج منا إلى ملاحظة الهوية الدينية لداود وسليمان، انطلاقا مما أشرنا إليه من انتسابهما إلى ما ننتسب نحن إليه من اعتقاد.

ويقول وايتلام في موضع آخر من كتابه المشار إليه: ((تعتمد متابعة الاهتمام بالتاريخ الفلسطيني على تحريره من القيود الزمنية التي فرضتها عليها الدراسات التوراتية، ويوفر مفهوم بروديل عن الامتداد الزمني الطويل بعدا يتغلب على التقسيم الزمني الدقيق الذي فرضته الدراسات التوراتية، **إنه بُعد زمني يساعد على توضيح أن إسرائيل ليست إلا مجرد كينونة في الزمان الفلسطيني الكاسح**))[2]، أو، وعلى تعبير المؤرخ الإنجليزي العالمي هـ. ج. ويلز في كتابه (موجز التاريخ) فقد قال عن إسرائيل وعن حياة العبرانيين في تاريخ المنطقة بأسرها: ((**كانت حياة العبرانيين في فلسطين تشبه حياة رجل يصر على الإقامة وسط طريق مزدحم، فتدوسه الحافلات والشاحنات باستمرار، ومن الأول إلى الآخر، لم تكن مملكتهم سوى حادث طارئ في تاريخ مصر وسوريا وآشور وفينيقية،**

---

(١) اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (٣٠).

(٢) المرجع نفسه، (١٢٠).

ذلك التاريخ الذي هو أكبر وأعظم من تاريخهم))[1].

إن من لم يمكث في بلد سوى لحظة من حياته المديدة، لا يحق له أن يطالِب بسبب هذه اللحظة، بملكية هذا البلد؛ هذا إن سلمت له هذه اللحظة، وتطبيقا على ما نحن فيه، فإن بني إسرائيل ما ملكوا من فلسطين إلا لحظة من عمرها المديد، وذلك في فترتي سليمان وداود عليهما السلام، وما بعدهما إلى عام ٥٨٦ق.م.، هذا إن سلَّمنا لهم بها، وإلا فنحن نرى أنهم تبرؤوا من سليمان وداود اللذَيْن يدَّعي اليهود انتسابهما إليهم، ونرى أن سليمان وداود عليهما السلام إلينا ينتميان لا إلى يهود، **فمُلْكُهُما دليل على حقنا نحن لا على حق اليهود**.

(١) كتاب موجز التاريخ للمؤرخ هـ. ج. ويلز، نقلا عن: تاريخ فلسطين القديم، تأليف: ظفر الإسلام خان، (٩٧).

المبحث الثاني: أقدمية نشوء القدس على الوجود اليهودي نفسه

وفي كون المدينة قد عمرها البشر بشكل من الأشكال في الألف الرابعة قبل الميلاد، وإذا كان قد ثبت بناء سور لها في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وإذا كانت ثمة سجلات تتحدث عنها في القرن التاسع عشر، وإذا كانت لها حصون في القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد، كما مر معنا في الفصل السابق؛ إذا كان ذلك كله كذلك، ففيه كلِّه ردٌّ على اليهود الذين يرون أن داود عليه السلام هو بانيها، فداود عليه السلام كان موجودا في القرن العاشر قبل الميلاد، أي بعد بناء القدس بثمانية قرون على الأقل، بل هو نفسه الذي تقول التوراة عنه: ((**وذهب الملك ورجاله إلى إورشليم، إلى اليبوسيين سكان الأرض**))(١)، أفلا يعني هذا أن المدينة كانت موجودة قبل النبي والملك الصالح داود عليه السلام؟.

ولا نعني بهذا أن داود عليه السلام كان يهوديا، إنما الأمر أن اليهود يستندون على وجوده كملك على القدس، فيدّعون أنه بانيها، ويدَّعونه يهوديا، فيُرَكِّبون من كل ذلك أنهم أحق بهذه المدينة، استنادا على ما سَمَّوْه: الحق التاريخي.

إن هذه الدعوى انطلقت من أفواه السياسيين والمفكرين اليهود، بل عليها تقوم نظريتهم بمجملها، فيما يتعلق بالحق التاريخي المُدَّعى، وعليها نسجوا التزويرات والأكاذيب، فهذا إيغال آلون، نائب رئيس الوزراء الإسرائيلي أثناء حرب ١٩٦٧م يقول: ((يجب على العالم أن يسلم بحقيقة أن القدس قد عادت أخيرا إلى الأمة التي أنشأتها، وجعلت منها مدينة مقدسة))(٢)، وهو يقصد أن القدس ما أنشأها إلا داود عليه السلام،

---

(١) سفر صموئيل الثاني، (٥/٥)

(٢) نقلت كلام آلون عن: القدس الشريف، لهنري كتن، ترجمة: نور الدين كتانة، (٣٩)

وقد ظهر لنا غير هذا تماما.

ودعوى إيغال آلون هذه تواصلت في مجتمع العبث بثقافات الأمم..

ففي عام ١٩٩٥م، قامت بلدية أورشليم (وهي بلدية إسرائيلية كما هو معـــروف) بعملية تزويرية كبرى، تتناغم تماما مع أصول الدعوى اليهودية في فلسطين، فلقد دعـــت البلدية إلى الاحتفال بمناسبة مرور ٣٠٠٠ عام على تأسيس القدس، وشارك في الحفل نخبة من رجال الفكر والسياسة والتاريخ[١]، وقد تمت الاحتفالات في شطري مدينة القـــدس، ومن هذا المنطلق التزييفي انطلقت فكرة رابين التزويرية: القدس ثلاثة آلاف عام.

ولكن، لم تسعد اليهودية المعاصرة بجعل كلِّ الناس شُهّادَ زور لهم في دعاواهم، رغم ما استقطبوا من مزوِّرين وشُهّاد زور، بل قام كثير ممن يُفترض أنهم لا يتحدثون إلا لصالح اليهود، قاموا ببيان حقيقة الأمر في هذا الموضوع، تقول الإنســيكلوبيديا البريطانيـــة إن القدس: ((**كانت مدينة مقدسة، ذات أهمية كبيرة عند الكنعانيين، قبل مجيء الإسرائيليين إليها**))[٢]، وتقول عالمة الآثار البريطانية كاثلين كينيون: ((**إن القدس كانت موجودة قبل الذكرى الألفية الثالثة قبل الميلاد**))[٣].

وفي الرد على مثل هذه الدعاوى التي ذكرناها عن إيغاد ألون وبلدية أورشليم، يقول داني رابينوفتش في مقال له نشرته الهآرتس الإسرائيلية: ((إذا كانـــت القـــدس في العهـــد الكنعاني مدينة كبيرة ومنظمة ومحصنة، من هو إذن داود مِلِك إسرائيل؟،...، **ما هي قيمة احتفالات الــ ٣٠٠٠ سنة على تاريخ القدس، إذا اتضح فعلا أن تاريخ القدس أبعد زمنا من ذلك**))[٤]، ولقد كنا ذكرنا ما كشفه عالِما الآثار الإسرائيليان جـــدعون أفـــني

---

(١) عن: القدس القديمة، نظرة تاريخية، مقال كتبه خليل السواحري، ونشرته مجلـــة صـــامد في عددها (١١٠) تشرين أول وتشرين ثاني وكانون أول، ١٩٩٧م.

(٢) نقلا عن كتاب: القدس الشريف، تأليف: هنري كتن، ترجمة: نور الدين كتانة، (٣٩)

(٣) نقلا عن المرجع نفسه، (٣٩-٤٠)

(٤) جريدة الهآرتس الإسرائيلية، نقلا عن: القدس ٥٠٠٠، (٨٨) وهي الورقـــة الـــتي قـــدمها

(مسؤول دائرة الآثار عن مدينة القدس) وروني رايْش، من خلال أعمال التنقيب التي قاما بها في القدس، ونشراها في شهر تموز ١٩٩٨م..

ولا شك أن الحقيقة أكبر مزعج لليهود!

فلقد كشف هذان العالِمان أن مدينة القدس كانت مدينة كنعانية محصنة ومتطورة قبل نحو ألف سنة من قدوم الإسرائيليين إلى أرض كنعان، وأضافا أن تلك الاكتشافات تستدعي تغيير كل ما تعلموه عن القدس، وأن عليهم أن يعيدوا كتابة التاريخ[1].

بل، إن كان هؤلاء اليهود يعتنقون التوراة حقيقة، فإنهم ملزَمون بما جاء فيها في هذه الناحية، فقد جاء في التوراة [سفر التكوين ١٤/١٨-١٩]: ((**وملكي صادق ملك شاليم،** أخرج خبزا وخمرا، وكان كاهنا لله العلي، وباركه وقال: مبارك أبرام من الله العلي مالك السماوات والأرض))، وملكي صادق هذا كان معاصرا لإبراهيم حسب نصوص سفر التكوين، وإبراهيم كان موجودا قبل داود عليهما السلام بأكثر من ثمانية قرون، وقد باركه ملك شاليم [القدس] أي أن القدس موجودة قبل داود بأكثر من ثمانية قرون، على أقل تقدير، حسب نص سفر التكوين نفسه..

إنه وبنص التوراة، كانت القدس مدينة، وكان لها ملك هو ملكي صادق في عهد إبراهيم عليه السلام، وملكي صادق هذا ليس إسرائيليا، بل هو بنص التوراة أيضا كنعاني.

ثم، أليس لسفر القضاة عند اليهود حظٌّ من التصديق، لقد جاء فيه [إصحاح ١٩/١١-١٢] في قصة الرجل اللاوي المتغرب، وغلامه والمرأة التي كان يتسرّى بها: ((وفيما هم عند يبوس، والنهار قد انحدر جدا، قال الغلام لسيده: **تعال نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها، فقال له سيدُه: لا نميل إلى مدينة غريبة حيث ليس أحد من**

الدكتور ناصر الدين الأسد للأكاديمية المغربية في الفترة من ٦-٨ شعبان ١٤١٩هـ.

(١) القدس ٥٠٠٠، (٨٧-٨٨) وهي الورقة التي قدمها الدكتور ناصر الدين الأسد للأكاديمية المغربية في الفترة من ٦-٨ شعبان ١٤١٩هـ.

بني إسرائيل هنا، نعبر إلى جبعة»[١]، فالمدينة إذن موجودة قبل عصر داود عليه السلام، ذلك أن هذا النص الذي نقلناه من سفر القضاة، إنما يحكي قصص عصر القضاة، الذي كان سابقا لداود عليه السلام وعصره، فالمدينة موجودة قبل داود إذن، بل الأكثر من ذلك أنها مدينة غريبة على بني إسرائيل، فليس فيها أحد منهم.

وعلى هذا الذي تقدم، فإن دعوى يهود ودعوى إيغال آلون، القاضية بأن بني إسرائيل هم بُناة القدس، هي دعوى ساقطة، حسب علم الآثار، وحسب نصوص العهد القديم نفسها؛ بل حسب دائرة المعارف البريطانية أيضا.

فإذا كان ذلك كذلك، فإن هذا يعني أن الوجود اليهودي الذي يدَّعي سبقا في هذه الأرض، هو ذاته مسبوق بالوجود العربي الكنعاني، بل الإسلامي القديم، على ما بينا من سبق وجود الأقصى في جذور النشأة الأولى لمدينة القدس، وإذن، فعلى هذا، فإن دعوى الحق التاريخي اليهودي دعوى فاسدة، لا تصلح للنظر فيها، بعد أن تبين أن اليهود مسبوقون.

رغم أنه لا يضير موقفنا أصلا أن يكون داود عليه السلام هو باني القدس، فإن في بنائه القدسَ، إن كان قد حصل فعلا، دلالةً على أنها لنا لا لليهود، وفيه دليل على إسلاميتها، إذ إن اليهود تخلَّوا عن داود كنبي صالح، ونزعوه من السماء، ليُلحقوه بكبار رؤساء عصرنا من الزناة والمتآمرين على البشر.

ولسوف نناقش ما يسمى (الحق التاريخي)، وكذا رؤيتنا لما تُسميه الصهيونية: الوعد الديني؛ وذلك في بابين خاصّين آتيَيْن إن شاء الله تعالى، وسنطرح رؤية لنا في كيفية تناول هاتين المسألتين؛ وذلك حتى يتبين لنا الأمر وفق فلسفة متكاملة تجمع أطرافه، وتربطها بأصولها، وإنما نردُّ هنا على دعوى اليهود أن لهم وجودا سابقا في القدس وفلسطين، نردُّ عليها بإثبات سبق العرب والمسلمين فيهما، لا من أجل إقرار أن من سبق قديما فهو

---

(١) سفر القضاة، من العهد القديم، (٤١٣).

صاحب الحق حديثا، بل من باب تطويق الدعوى اليهودية تاريخيا، لإسكاتِهم عن مجـــرد طرحها[1].

(١) وفي الحقيقة لن يسكتوا، فالقضية في نهاية المطاف حسب العقل اليهودي والغربي قضية قـــوة تبحث عن مبرر ولو مزوَّر، وليست قضية حق.

الفصل الرابع: عروبة سكان فلسطين قبل تحرير الإسلام لها

سنُثبت في هذا الفصل أشكالا من التعاون العربي مع الفاتح والمحرر العـــربي المســـلم لفلسطين، ليتأكد ما نطرحه، وهو أن العنصر العربي هو الذي كان منتشرا قبل الإســـلام، وأن الإسلام هو الذي قدِم إلى فلسطين بتعبير روجيه جارودي، لا العـــرب، ذلـــك أن العرب كانوا موجودين أصلا.

وربما يكون الذي ساقني إلى كتابة هذا الفصل والذي يليه، ما قد يخطر ببال القـــارئ الكريم، من تأثير للاحتلالات التي سلبت فلسطين من أهلها، وكلها احتلالات من قِبـــل دول عظمى، فجاء هذا الفصل ليقول: إن العنصر العربي استمر موجودا وبلغته العربيـــة، آرامية كانت أو كنعانية، في فلسطين خاصة والشام عامة.

وسأطرح مضامين هذا الفصل في مبحثين اثنين:

المبحث الأول: العرب هم سكان فلسطين قبل التحرير والفتح الإسلامي.

المبحث الثاني: استقبال عرب فلسطين للمحرر العربي المسلم.

المبحث الأول: العرب هم سكان فلسطين قبل التحرير والفتح الإسلامي

وقد ساعدت الآثار المكتشفة على تأكيد هذا المعنى الذي نحن بصدده، فهذه ((**النصوص اليونانية المكتشفة في الأردن، تؤكد أن معظم السكان في فلسطين أيام حكم روما كانوا من العرب**))[1]، وتدل هذه المخطوطات أيضا، ((أن مهاجرين آخرين قدموا كسائر الموجات السابقة، منذ ثلاثة آلاف عام من الجزيرة العربية، وقد أنشأوا في القرن الرابع بعد ميلاد المسيح مملكة الأنباط في جنوب فلسطين))[2]، رغم أن الأنباط قدموا إلى فلسطين قبل الميلاد بخمسمائة عام، وهم من العرب العدنانية[3].

ويذكر المؤرخون أنه كان هنالك امتداد لدولة الأنباط في النقب الفلسطيني، وكان لهم فيه عمران في القرن الثالث قبل الميلاد، فبَنَوْا عبدةَ، بناها الملك النبطي عبيدة الثاني[4]، وبلغت ذروة ازدهارها أيام حارثة الرابع (٩ق.م-٤٠ب.م.)، ويذكر المؤرخ العربي الشهير الدكتور إحسان عباس أنه يلفت نظر الدارس لعمران الأنباط في النقب، إلى جانب النقوش والمنشآت المائية، ما خلفوه من رسوم على الصخور في أماكن مختلفة من النقب، فصوّروا الحيوانات التي دجّنوها، والتي كانوا يصطادونها، على الأحجار، وكذلك رسموا زحوف المحاربين وهم يستلون السيوف، وكثرت فيها صور السيف والرمح والقوس والسهم، يقول الدكتور عباس: ((إن هذه الرسوم على الحجر، لتحكي قصةً حكاها العرب

---

(١) حمدان حمدان في كتابه: (اغتيال التاريخ، ٣٣)، ويُنظر أيضا: فلسطين أرض الرسالات الإلهية، لروجيه جارودي، (١٨٧) .

(٢) فلسطين أرض الرسالات الإلهية، لروجيه جارودي، (١٨٧).

(٣) فلسطين القضية الشعب الحضارة، لبيان نويهض الحوت، (٦٨-٦٩).

(٤) الموسوعة الفلسطينية، القسم المعجمي، (٣/١٨٣)، وأيضا: تاريخ دولة الأنباط، للأستاذ إحسان عباس، (٧٧).

الجاهليون من بعد في صورهم الشعرية))[١].

هذا، ويبدو أنه لهذا السبب، أعني انتشار العرب في فلسطين قبل الإسلام، لم يجد الفاتح العربي صعوبة مماثلة لسائر الصعوبات التي وجدها في كثير من الفتوح الأخرى[٢].

ويقول المؤرخ الأستاذ أحمد عادل كمال: ((**أما في سوريا والأردن وفلسطين، فإن ظهور دولة الأنباط ثم تدمر ثم الغساسنة، يفيد أن العنصر العربي هو الذي ساد تلك البقاع، وعمَّرها بالعنصر البشري،...، ويؤيد انتشار العنصر العربي على أغلب أرجاء الشام، الأخبار المتنوعة عن تلك الحقبة،...، ولقد كانت قبائل قريش في رحلة الصيف إلى الشام، تتاجر مع غزة على ما روى أبو سفيان، ولا نحسبه كان يتجه إلى غزة إلا للاتجار مع العناصر العربية بها**))[٣]، وكان من القبائل العربية التي سكنت فلسطين قبل الإسلام: تنوخ وسليح وبنو أذينة بن سميدع ولخم، ((ولما فتح المسلمون قيسارية وجدوا بها خلقا من العرب))[٤].

ولقد كانت قبيلة طيِّء العربية الشهيرة تسكن فلسطين تحديدا دون غيرها قبل الفتوح العربية المسلمة، وكانت جماعة منهم في عبسان بالقرب من غزة، ومنهم بنو جرم، الذين

---

(١) تاريخ دولة الأنباط، تأليف الدكتور إحسان عباس، (٧٧-٧٨).

(٢) مع سبب آخر، يتمثل في أن الروم لم يكونوا يحسنون التسامح مع المخالف في المذهب، فكانوا يعاملون النصارى اليعاقبة تعاملا بعيدا عن التسامح رغم اتحاد الدين، مما دفع النموذج الإسلامي المتسامح إلى التأثير على النصارى، إذ وجدوا في الإسلام فرصة للهروب من العقلية الرومية القاتلة، التي تُعتبر سلفا للعقلين الأوروبي والأمريكي فيما بعد.

ويمكننا أن نقول إذن: جاء الإسلام إلى العرب الفلسطينيين، نصارى ويهود، جاءهم محررا، وجاءهم معليا شأن الحرية الدينية، بخلاف ((ما أبداه أباطرة بيزنطة من عدم تسامح))، كما قال روجيه جارودي في فلسطين أرض الرسالات الإلهية، (١٨٨) .

(٣) الطريق إلى دمشق، تأليف أحمد عادل كمال، (٣٢).

(٤) دراسات وبحوث في جوانب من التاريخ الإسلامي، تأليف: محمد ضيف الله البطاينة، (٩٣-٩٤).

سكنوا غزة والداروم إلى جبل الخليل، وقد أسلم من قبائل طيء خلق كثير يوم أن سعدت فلسطين والشام بالتحرير العربي، بل قبل ذلك أيضا، وكان منهم: زيد الخير **ط**، الذي جاء في وفد طيِّء إلى رسول الله **ج**، وعدي بن حاتم الطائي، **ط**، **وثبتوا على الإسلام أيام الردة، فلم يرتدوا كما ارتد كثير غيرهم، وكان من أسلم منهم قبل فتح الشام عونا للمسلمين الفاتحين**[١].

ورغم استمرار الاستعمار الفارسي لمدة تزيد عن قرنين قليلا، إلا أن العناصر المكونة للحضارة الفلسطينية، كانت عناصر عربية، ((وبقيت اللغة الآرامية لغة رسمية تستعمل في التجارة والكلام والمعاملات، جنبا إلى جنب مع اللغة الفارسية التي استعملها الولاة))[٢]، ورغم ضياع اليهود في عهد أنطوخيوس الذي ابتدأ في عام ١٩٨ق.م.، فضاع خاصتهم وعامتهم في لغة اليونان وتقاليدهم، إلا أن العرب الفلسطينيين استمروا على طبيعتهم الكنعانية، وبقيت لغتهم الكنعانية والآرامية هي السائدة[٣].

إن العربي الذي حافظ على لغته وتقاليده أيام الاحتلالات المتوالية لفلسطين، يختلف تماما عن اليهودي الذي لم يملك ما يُثبت به نفسه أيام تلك الاحتلالات، وحتى في عهد المكابيين اليهود الذين انتصروا على السلوقيين، بسبب ضعف السلوقيين، قد اتخذوا الأسماء اليونانية، وسكوا النقود باللغتين العبرية واليونانية[٤]، ولم يستطيعوا المحافظة على شخصيتهم.

ولقد تبين فيما سنذكره أن الولاء للروم لم يكسب كل العرب، بل إن النسبة الأكبر

---

(١) حول قبائل طيء ومساكنها من فلسطين، ومواقفها قبل الفتح التحريري لبلاد الشام وبعده، يُنظر: القبائل العربية في بلاد الشام، تأليف: محمد عزب دسوقي، (١١٦-١٢١)، وعنه أخذنا ما ذكرناه عن طيء هنا.

(٢) ملاحظات على تطور حياة اليهود في فلسطين للدكتور الدجاني، (٣/١١٠).

(٣) المرجع نفسه، (٣/١١١).

(٤) المرجع نفسه، (٣/١١٢).

غالبا كانت لصالح انتصار العرب على الروم، أعني في فترة الفتوحات الإسلامية.

ولقد كانت دولة الغساسنة آخر دولة عربية تدخل في خدمة الروم، وليست هذه هي القضية، بل إن القضية أن الغساسنة قد أوصلوا سلطانهم تحت التاج الرومي إلى فلسطين الثانية وفلسطين الثالثة[1]، وهما منطقتان من المناطق الثلاثة التي تُكَوِّن فلسطين، والتي قُسمت كولايات تابعة للبيزنطيين، بتمييز إحداها عن الأخرى بالرقم.

وشاهدُنا هنا: أن الروم ما كانوا ليجعلوا عربيا ملكا على رومٍ مثلهم، فلولا أن السكان في تلك المناطق كانوا عربا، ما ملَّك الروم عليهم عربا مثلهم، ثم إن النظرية تقول: إن الأقدر على صناعة الاستقرار في مكان، هم أهل هذا المكان أنفسهم.

ويقول المؤرخ اللبناني نقولا زيادة، عن فترة القرن السادس ومطالع القرن السابع للميلاد: ((**ويمكن القول إجمالا، بأن القبائل العربية كانت تؤلف الجزء الأساسي من سكان سورية وفلسطين والأردن**))[2]، وقد كانت قبائل عربية معروفة تسكن فلسطين قبل الإسلام، وقبل المسيحية أيضا، كقبيلة سليح، إحدى فروع القحطانيين، وجذام التي سكنت جنوب فلسطين، في عبسان قرب غزة، ومن هذه القبيلة تفرعت عائلات فلسطينية معروفة اليوم، من مثل عائلة الحاج محمد في نابلس، وقبيلة الجُبارات في بئر السبع، وعائلات بيدس وبطة والسعيد في مدن الجنوب الفلسطيني ويافا؛ وإلى قبيلة لَخْم يعود بنو نبهان في بئر السبع والمساعيد في الغور والتميميون في الخليل وسواها؛ وإلى بني عامر من بني كلب، الذين نزلوا فلسطين قبل ألفي سنة يعود اسم مرج بني عامر، وتعود

---

(١) دراسات وبحوث في جوانب من التاريخ الإسلامي، تأليف: محمد ضيف الله البطاينة، (٩٨-٩٩).

(٢) المؤرخ اللبناني نقولا زيادة، في بحثه (تموين الجيوش العربية الإسلامية أثناء فتوح بلاد الشام)، وقد نُشر ضمن أبحاث المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، (١٦٧/٢)، وقد نُشرت بالتعاون فيما بين الجامعة الأردنية واليرموك.

عشيرة السراحين في بئر السبع والهديبات في الخليل[١].

ومن قبيلة لخم التي كانت تسكن فلسطين، كان الصحابي الجليل تميم بن أوس الداري، الذي وفد على رسول الله ج، وحدثه بقصة الجساسة المشهورة يوم تاه به وبمن معه السير في البحر، وكان قبل إسلامه في الخليل قريبا من بيت جبرين وبيت عينون[٢].

إن العرب الفلسطينيين كانوا في استقبال الفاتح العربي والمحرر المسلم، وهذا ما سيراه القارئ في المبحث التالي.

---

(١) فلسطين القضية الشعب الحضارة، لبيان نويهض الحوت، (٧٠-٧٢).

(٢) القبائل العربية في بلاد الشام، تأليف: الدكتور محمد عزب الدسوقي، (١١٣).

المبحث الثاني: استقبال عرب فلسطين للمحرر العربي المسلم

وهذا المبحث لاستتمام ولتأكيد المطروح في المبحث قبله..

إننا نطرح هذا العنوان لنتبين أمرين معاً: أحدهما: بقاء العرب في فلسطين حتى حركة الفتوحات الإسلامية، إذ إن وجود العرب في فلسطين، مقاوِمين للفتوحات أو متعاونين معها؛ إن ذلك يدل دلالة واضحة أن الوجود العربي استمر في فلسطين إلى أن جاء الإسلام، هذا، وقد تحدثنا في المبحث السابق بخصوص هذه المسألة مباشرة، ونتحدث بها هنا في إطار موضوع استقبال عرب الشام وفلسطين للفاتح العربي المسلم.

ولا يحتاج الأمر إلى تكرار ذكر هذه المسألة، فبمجرد أن نذكر أن العرب موجودون، مقاومين أو مستقبلين للفتح الإسلامي بترحاب، إن مجرد ذكر هذا يعني أن فلسطين عامرة بالعرب، وأن الاحتلالات الفارسية واليونانية والرومية لم تُخرج العرب من فلسطين.

والثاني: إن العرب في بلاد الشام عامة، وفي فلسطين خاصة، كان لهم موقف خاص من قضية الفتح، أو التحرير العربي الإسلامي لفلسطين والشام، عموما..

إن ثمة من يرى: ((أن الفتح كان حركة قومية، وأن الفوز فيه كان للقومية العربية لا للدين الإسلامي))[(١)]، أو على تعبير كارين أرمسترونج، أن الغساسنة كانوا ((على استعداد للفرار إلى جيش الأمة، لا من منطلق ديني، ولكن من إحساس مبهم بالتضامن العربي))[(٢)]، وهذا يعكس ما يمكن أن يوصف بالمشاعر الوحدوية التي تربط العربي غير المسلم، بالفتح العربي المسلم.

وعليه، فالفتوحات التي تمّت في الشام، والمعاركُ التي وقعت فيها، رغم ما كان فيها

---

(١) وهو رأي المؤرخ اللبناني الدكتور فيليب حِتّي في كتابه: تاريخ العرب (مطوّل)، نقلنا رأيه هذا عن كتاب: حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، للدكتور شكري فيصل، (٢٦).

(٢) كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة، عقائد ثلاث، (٣٨٤).

من دماء وأشلاء، إلا أنها كانت تمتاز عن غيرها من المعارك التي وقعت في فارس وغيرها من البلدان.

فلقد كان السكان عربا، ولقد كان للإسلام بعض انتشار فيهم، إذ دخلت فيه بطون من لخم وجذام، وهما من القبائل التي امتدَّ سكناها إلى فلسطين، بل إن سكن لخم قد وصل فيما بين الرملة إلى الحدود مع مصر(1)؛ ولكن، وفيما يبدو، أن إسلامهم الجديد، في زحمة الأحداث الجارية، لم يكن قد صهر أفئدتهم إلى مستوى يصلح للتضحية في سبيله، بل ربما دخلوا في الإسلام تعصبا للعرب، إذ هو دين العرب حينها، إلا ما كان من قليل منهم أول الأمر، إذ أسلموا وحسُن إسلامهم، ولكن الأعم الأغلب دخل أخيرا في دين الله تعالى،وحسن إسلامهم..

وقد قسم نصراني شامي، اسمه: جرجة، موقف عرب الشام من جيوش الفتح التي جاءت محررة للعرب من الروم، بعد أن هداه الله للإسلام قائلا: ((**أما صنفٌ فكانوا على دين العرب وكانوا معهم، وأما صنف فكانوا نصارى، وكانت لهم نية في النصرانية، وكانوا معنا، وأما صنف فكانوا نصارى، وليس لهم في النصرانية نية، فقالوا: نكره أن نقاتل أهل ديننا، ونكره أن ننصر العجم على قومنا**))(2)، أي أن ((المسلمين من عرب

---

(1) تُنظر: الموسوعة الفلسطينية، القسم المعجمي، (٢٢٠/٣) وكذلك يُنظر: الدكتور محمد عبد القادر خريسات، في بحثه: (دور العرب المتنصرة في الفتوحات)، ضمن أبحاث المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام (١٣٨/٢-١٣٩)، وقد نُشرت بالتعاون بالتعاون فيما بين الجامعة الأردنية واليرموك؛ وسيُشار إلى هذا المرجع كما يلي فيما بعد: دور العرب المتنصرة، الدكتور محمد عبد القادر خريسات، مع ذكر رقم الجزء والصفحة من أبحاث المؤتمر المذكور.

(2) تاريخ فلسطين في صدر الإسلام، تأليف: الدكتور هاني أبو الرُّب، (١٤٤)، نقله عن فتوح الشام للأزدي، هذا، وينبغي أن يشار هنا إلى أن هذا الكلام الذي نقلناه عن جرجة، هو نفسه تقريبا موجود في كتاب فتوح الشام للأزدي، غير أنه ليس منسوبا إلى جرجة، بل أتى كجزء من كلام الأزدي نفسه، يُنظر: الدكتور محمد عبد القادر خريسات، في بحثه: (دور العرب المتنصرة في الفتوحات)، (٢-١٤٩).

الشام، وقفوا إلى جانب الفاتحين؛ والنصارى المخلصين للنصرانية، وقفوا مع الروم؛ والنصارى غير المتشددين في النصرانية، وقفوا على الحياد))[1].

ألا يؤكد كلام جرجة هذا أن نصارى العرب في الشام، ومنها فلسطين، كانوا على الأغلب الأعم نصارى من الناحية الخارجية، أعني: أن النصرانية لم تجعل منهم وحدة سياسية دينية تتمسك بالنصرانية عن اقتناع، وإنما هي أوضاع سياسية أودت بهم إلى هذا التحول نحو النصرانية، بل نستطيع أن نقول إن: ((المسيحية لم تخترق هذه الأقاليم إلا بشكل بالغ السطحية))[2]، وعليه، ((فالنصرانية لم تكن راسخة بين هذه القبائل جميعها، فموقف هذه القبائل من النصرانية يختلف عن موقف تغلب أو موقف يهود الحجاز، كوحدات دينية مستقلة، وهذا مما سهل سرعة اعتناق غالبيتهم للإسلام، والناتج عن ضعف الارتباط بالمسيحية))[3]، ((ومما يؤكد ذلك، أن أكثر القبائل التي أظهرت حماسة للنصرانية ومقاومة للفاتحين الجدد، وهم الغساسنة، لا يزال في نفوسهم شيء من الوثنية، فالمصادر تذكر بأن ملكهم الحارث بن أبي شِمْر الغساني، والذي مات عام الفتح، قد أهدى لصنم مناة سيفين، هما مخذم ورسوب))[4].

وكذلك نُقل عن بعض القبائل العربية المتنصرة ما يظهر معه بوضوح عدم تغلغل النصرانية فيهم، ((فلخم وجذام التي امتدت مساكنُها عبر البلقاء وفلسطين وتحت السيطرة

---

(١) تاريخ فلسطين في صدر الإسلام، تأليف: الدكتور هاني أبو الرُّب، (١٤٤).

(٢) المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي، فيليب فارج ويوسف كرباج، ترجمة: بشير السباعي، (٢١).

(٣) الدكتور محمد عبد القادر خريسات، في بحثه: (دور العرب المتنصرة في الفتوحات)، (١٣٦/٢).

(٤) المرجع نفسه، (١٣٦/٢)، وقد نقل الدكتور خريسات مسألة إهداء شمر سيفين للصنم مناة عن كتاب الأصنام لابن الكلبي.

البيزنطية، كانت تعبد المشتري))[1].

هذا، وقد كان للمسلمين الفاتحين في نفوس سكان بلاد الشام عموما، وفي فلسطين خصوصا، منزلة سمحت بتعاون، بل بمشاركة عربية نصرانية وغير نصرانية في الحرب التحريرية التي قادها العرب المسلمون الحجازيون للشام وفلسطين.

ويؤكد التاريخ أنه بعد انتصار العرب المسلمين في اليرموك، لم تحدث في فلسطين كلها أية مقاومة[2]، بل كانت اليرموك ذاتها معركة سهلة نسبيا، كما وصفها البعض، ولكنها حربٌ على كل حال، تسيّلت فيها الدماء، ووقع فيها قتل وجراح..

وأما سبب سهولتها، فيقول الأستاذ حمدان حمدان في بيانه على شكل تساؤلاتٍ إقرارية يطرحها: ((أليس لأن الجيش البيزنطي كان يقاتل فوق أرض ليست أرضه، وأن المحيط السكاني قبل الإسلام كان من العرب في المنطقة، وأن أدلاء خالد بن الوليد إلى بلاد الشام في معظمهم كانوا من النصاري العرب[3]، وأن اليهود استبشروا أخيرا بمقدم أبناء عمومتهم من نسل إسماعيل، وأن المسيحيين العرب من السوريين انسحبوا قبيل المعركة من

---

(١) المرجع نفسه، (١٣٦/٢)، وقد نقل الدكتور خريسات هذا الأمر عن لخم وجذام، عن تاريخ ابن العبري المعروف ب (تاريخ مختصر الدول).

(٢) الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط، تأليف الدكتورين فاروق عمر فوزي، ومحسن محمد حسين، (٤٢).

(٣) يُنظر لمسألة تحرير العرب المسلمين لفلسطين خاصة والشام عامة، واستقبال أهلهما للفاتحين: المصدر السابق، (٣٧-٥٠)، وكتاب: تاريخ فلسطين في صدر الإسلام، تأليف الدكتور هاني أبو الرب، (١٤٤-١٥٢) بل اقرأ في الكتاب نفسه (١٥٢-١٥٤) موقف اليهود الفلسطينيين، الذين رحبوا بالفتح، وبعضهم شارك الفاتح العربي المسلم، بل إن بعضهم أسلم فعلا، ويُنظر أيضا: دراسات وبحوث في جوانب من التاريخ الإسلامي، تأليف: محمد ضيف الله البطاينة، (٩١-١١٠)، وكذلك يُنظر (دور العرب التنصِّرة في الفتوحات) للدكتور محمد عبد القادر خريسات، ضمن أبحاث المؤتمر الدولي الرابع لبلاد الشام، (١٣٥/٢-١٦٤).

جيش بيزنطة إذ لا يحاربون أبناء عمومتهم من العرب»[1]، حتى إن عمرو بن العاص ط واصل طريقه أيام الفتوح إلى منطقة غزة، وأوقع بحاكمها سرجيوس هزيمة فادحة، دون أية مقاومة في طريقه إليها[2]، حتى وصل الأمر إلى أن يتصل بعض العرب بخالد بن الوليد، أيام التحرير العربي الإسلامي للشام، بقصد أن يوضحوا لخالد أنهم عرب وأنهم أُقحموا في الحرب ضد العرب إقحاما دون قصد منهم[3]؛ كل هذا يؤكد سهولة الفتح نسبيا، وانسجام السكان العرب حينها مع قدوم الفاتح العربي المسلم.

فما كان السكان الفلسطينيون في ذلك العهد إلا عربا، وربما لم يروا في الفاتح العربي المسلم إلا محرِّرا، ذلك أن أرض الشام عربية أصيلة في عروبتها، وفلسطين خاصة لم تخرج من العروبة يوما ما، بل، وكما ذكرنا في المبحث السابق كلام المؤرخ اللبناني نقولا زيادة، والذي يؤكد فيه أن العنصر الأساسي لسكان فلسطين وسوريا والأردن في فترة ما قبل الفتوح العربية الإسلامية كان من العرب، وحتى اليهود من السكان، فلربما كانوا عربا أيضا، ولعل الأمر بالنسبة إليهم عائد إلى صورة الفاتح الجميلة، كما سيأتي.

إن العربي أيامها لم يكن قد تلوث بملوِّثات زوال الشخصية، وهو المعروف أكثر من غيره بتعصبه لبني جنسه أو قوميته..

وقد جاء تعبير روجيه جارودي رائعا ومعبرا للغاية، وذلك حين أراد أن يصوِّر حقيقة الفتوحات الإسلامية لفلسطين، فقال: «**فالذي وصل عام ٦٣٨م مع الموجة الجديدة من المهاجرين القادمين من الجزيرة العربية، إنما هو الإسلام**»، ويقول أيضا: «**والواقع أن ذلك لم يكن فتحا ولا انتصارا حربيا، بل كان تحريرا، ذلك أنه في عام ٦٣٨م لم يكن**

---

(١) حمدان حمدان في كتابه: (اغتيال التاريخ، ٣٣-٣٤).

(٢) يُنظر: الدكتور محمد عبد القادر خريسات، في بحثه: (دور العرب المتنصرة في الفتوحات ١٥٠/٢).

(٣) الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط، تأليف الدكتورين فاروق عمر فوزي، ومحسن محمد حسين، (٤٢).

الذين وصلوا إلى فلسطين هم العرب، ولكنه الإسلام»[1]، وهو في الحقيقة تصوير غني؛ إن العرب أصلا موجودون في فلسطين، والطارئ الجديد إنما هو الهداية التي قدَّمها العربي الحجازي إلى العربي الفلسطيني، ممثلة بالإسلام، بل أكثر من ذلك: إن العرب الفلسطينيين كانوا تحت سطوة استعمار روماني، فجاء الإسلام حاملا راية التحرير لهؤلاء العرب.

ثم إننا نرى أن سبب سهولة الفتح العربي الإسلامي النسبية، بل التحرير الإسلامي لفلسطين والشام، قد كانت نتيجة طبيعية لأمرين هامين:

عروبة السكان: إذ كان المحيط السكاني عربيا، كما مضى وكما سيأتي تأكيده.

غطرسة الرومان: وحول غطرسة الروم الحاكمين لفلسطين أيامها، وحول صورة الخليفة المسلم الفاتح عمر بن الخطاب ط، ينقل جارودي[2] عن المؤرخ اليهودي رابو بورت، مصورا دخول عمر بن الخطاب ط القدس: «أما سكان أورشليم الذين اعتادوا أن يروا الأباطرة البيزنطيين في أبهتهم، وأرديتهم المطرزة بالذهب، فقد كان مرآهم للخليفة مشهدا رائعا، ذلك أن خليفة النبي كان يرتدي بردة رثة من وبر الإبل، وقد اخترق أورشليم على بعير يحمل كل أمتعته، وما يكفيه من تمر ليوم واحد، **فكان هذا التناقض بين بساطة المنتصر وتقشفه، وبين الهوس الباذخ الذي تعود على الظهور به، ليس الأباطرة البيزنطيون فحسب، بل ممثلوهم من ولاة الأقاليم، كان هذا التناقض مذهلا، لم يلبث أن أحدث أثره العميق في شعب حانق على حكومة كانت في نظره استبدادية جشعة**».

ولا شك أن هذه الصورة التي رسمها المؤرخ اليهودي للفاتح العربي، قد أسهمت، ربما أكثر من غيرها، في صناعة الاستقرار لصالح الفاتحين والمحررين العرب المسلمين القادمين

---

(١) فلسطين أرض الرسالات الإلهية، لروجيه جارودي، (١٨٧) .

(٢) في كتابه: فلسطين أرض الرسالات الإلهية، لروجيه جارودي، (١٩٠)، ويُنظر أيضا: حمدان حمدان في كتابه: (اغتيال التاريخ، ٣٤)، وكارين أرمسترونج في كتابها: (القدس، مدينة واحدة، عقائد ثلاث، (٣٨٤-٣٨٥).

من الحجاز، إذ بإمكان المرء أن يتصور: كيف يكون الحال لو كانت الصورة التي رسمها هذا المؤرخ اليهودي عكسية؟ إن هذه الحال التي رسم صورها هذا المؤرخ اليهودي صالحة لاجتثاث أسباب العدوان، ولصناعة الاستقرار، فأن يشعر المُشاهد أنه أمام شخصية كشخصية عمر بن الخطاب ط، وفق الصورة التي رسمها من يُفترض أنه عدو للإسلام والعرب، إن ذلك كفيل بألا تبقى في نفسه مبررات للعدوان، وها هنا يسود الاستقرار، وتتزوي أسباب التمردات، ومن هنا: دخل العرب المسلمون فلسطين، ثم لم يخرجوا منها.

إن عروبة السكان في فلسطين خاصة، وفي بلاد الشام عامة، حتى أيام الاحتلالات الرومية والفارسية واليونانية، والتي تحدثنا عنها في المبحث السابق، ووَعَدْنا أن نواصل الحديث عنها بشكل آخر؛ إن عروبة هؤلاء السكان هي التي سنراها ماثلة أمامنا، من خلال كيفية استقبال العربي الشامي والفلسطيني للفاتح والمحرر العربي المسلم، عبر تلك الأحداث التالية المذكورة في الصفحات القادمة، وهي تشهد لهذا الوجود، وذلك من خلال أشكال من التعامل العربي الفلسطيني مع الفاتح العربي المسلم الحجازي، حامل رسالة العدل والتوحيد:

إن الكثير من العرب الفلسطينيين قد شارك في معركة أجنادين، استجابة للنفير الجهادي الإسلامي الذي أعلنه عمرو بن العاص، ط، وبرز منهم: ذو الشكوة القيني، الذي قتل ثمانية من الروم، ثم استشهد أخيرا(١).

قال أحد العرب المشاركين في أجنادين، واسمه: أبو طيبة عمرو بن مالك القيني: ((حضر قومي بنو القين يوم فِحل، وحضرها لخم وجذام وغسان وعاملة مع المسلمين، فكان هناك من القبائل جمع عظيم، قوي بهم المسلمون على الأعداء))(٢).

كان من أشهر المشاركين من العرب الفلسطينيين من قبيلة لخم في الحرب مع

---

(١) تاريخ فلسطين في صدر الإسلام، تأليف: الدكتور هاني أبو الرُّب، (١٤٥)، وقد نقل المؤلف هذا الخبر عن ابن حزم في جمهرة النسب، وابن الكلبي في كتابه نسب معدّ واليمن الكبير.

(٢) المرجع نفسه، (١٤٥)، وقد نقل المؤلف هذا الخبر عن الأزدي في فتوح الشام.

المسلمين، نُصَير، وعبد الرحمن، والدُ وجدُّ موسى بن نصير(١).

اتخذ كثير من القبائل العربية موقفا عُرف عنها في التاريخ، فهذه لخم وجذام وعاملة وغسان والقين وقبائل من قضاعة، دخلوا مع المسلمين في معركة فحل، القريبة جدا من نهر الأردن إلى جهته الشرقية، مقابل بيسان الواقعة في جانبه الغربي؛ فكثر هؤلاء عددهم، وصاروا معهم في عسكرهم، رغم أن بعض هذه القبائل وقف على الحياد، لينتظر نهاية المعركة، وعمَّ تنجلي(٢).

والأكثر من هذا أن الأنباط الفلسطينيين أنفسهم، وهم بعدُ نصارى، كانوا من أكثر الناس إخلاصا للمسلمين، ((فعملوا عيونا وأدلاء وبُردا لقوات التحرير، فعندما قدم خالد بن الوليد إلى الشام أميرا على جيوش التحرير، رتب الجواسيس من الأنباط لتحسس أخبار الروم))(٣)، بل لقد علم خالد بتجمع الروم في أجنادين من أحد عيونه الأنباط، وقام على أثرها بإرسال نبطي فلسطيني إلى أمراء جيوشه، لإخبارهم الخبر، وليأمرهم بالمسير إليه والتجمع لملاقاة العدو(٤)، وعلم أبو عبيدة عن طريق عيونه من الأنباط الفلسطينيين بوصول الإمدادات إلى هرقل من كافة أنحاء مملكة الروم، ليمدّ بهم الروم في الشام، وكان مما كتبه أبو عبيدة لأبي بكر الصديق ب: ((إن عيوني من أنباط الشام، أخبروني أن أوائل أَمداد ملك الروم قد وقعوا عليه، وأن أهل مدائن الشام قد بعثوا برسلهم إليه يستمدونه))(٥).

---

(١) المرجع نفسه، (١٤٦)، وقد نقل المؤلف ذلك عن الإصابة لابن حجر.

(٢) يُنظر: الدكتور محمد عبد القادر خريسات، في بحثه: (دور العرب المتنصرة في الفتوحات)، (١٥١/٢).

(٣) تاريخ فلسطين في صدر الإسلام، تأليف: الدكتور هاني أبو الرُّب، (١٤٥)، وقد نقل هذا الخبر عن كتاب الفتوح، لابن أعثم.

(٤) المرجع نفسه، (١٤٦-١٤٧)، وقد نقل هذا الخبر عن كتاب الفتوح لابن أعثم.

(٥) المرجع نفسه، (١٤٨)، وقد نقل هذا الخبر عن كتاب الفتوح، لابن أعثم.

لكن، قد يُعكِّر على هذه الفكرة التي نطرحها، أن ثمة مواقف أخرى من بعض العرب في الشام وفلسطين، تعبر عن غير ما نقرر، فقد روى ابن إسحاق، فيما ينقله عنه الطبري في تاريخ الأمم والملوك قوله: ((انضمَّ إلى المسلمين حين ساروا إلى الروم ناس من لخم وجذام، فلما رأوا جدّ القتال فروا ونجوا إلى ما كان قربهم من القرى))(١)، ولقد تكرر هذا الحدث أكثر من مرة، بل تروي كتب التاريخ مشاركات من العرب للروم في حربهم ضد المسلمين، ومثال غزوة مؤتة، وتعاون العرب مع الروم فيها ماثل أمام قارئ السيرة النبوية.

إن مثل هذا الحدث رغم تكرره أكثر من مرة، فإنه لا يعطي الانطباع بأن هذا هو الذي كان يجري كل مرة، بل إن الأخبار التي نقلناها، وسواها كثيرٌ وافٍ، يكفي لاعتبار خبر ابن إسحاق هذا محصورا في أحوال ليست هي الغالبة، ولكن، وعلى جميع الأحوال، فإن ما يتحدث عنه ابن إسحاق لم يدم كثيرا، إذ بعد اندحار الروم، لم تعد فلسطين إلا عربية مسلمة، و لم يعُد هنالك من يقف من العرب إلى جانب المستعمر الرومي، الذي زالت دولته، واتضح الفارق بينه وبين الفاتح والمحرر العربي المسلم، لصالح العرب والمسلمين.

وهذا الكلام الذي نقرره هنا، يتناغم جدا مع ما نقلناه سابقا في كلمة جرجة الذي كان نصرانيا فأسلم، حيث قسم العرب الشاميين ثلاثة أقسام، جعل منهم قسما نصرانيا متمسكا بنصرانيته، قاتل مع الروم، والذي يظهر أن قبائل كبيرة كان أكثر أبنائها مع الروم ضد العرب، وفيما يبدو بسبب التزام هؤلاء بمذهب الروم الديني، بخلاف اليعاقبة العرب، الذين كانوا يخالفون مذهب الروم الديني، مما عرضهم إلى غضب الروم، وإلى ظلمهم، مما حدا بهم إلى القتال بجانب العرب(٢)؛ هذا شأن النصارى العرب، أما العرب غير النصارى، فشأنهم ما قد شرحناه قريباً.

إن هذا الذي حصل من بعض القبائل العربية الشامية والفلسطينية، من قتال إلى جانب

---

(١) تاريخ الطبري، نقلا عن: المرجع نفسه، (١٤٤).

(٢) تاريخ فلسطين في صدر الإسلام، هاني أبو الرب، (١٥١).

الروم ضد العرب المسلمين المُحررين، وما نقلناه قريبا من أن بعض العرب الفلسطينيين والشاميين، قد وقف إلى جانب العرب أولا، ثم انسحب هاربا من أرض المعركة، وربما ليقف إلى جانب الروم؛ إن هذا الذي حصل من مثل هؤلاء الناس، هو في تقديري، ما دعا الأستاذ المؤرخ الأديب العربي الدكتور شكري فيصل إلى عدم التعاطي مع فكرة وقوف العرب النصارى إلى جانب الفاتح المحرر العربي المسلم في الشام وفلسطين..

فرغم أنه نقل عن المؤرخ الدكتور فيليب حِتّي رأيه الذي ذكرناه، والذي يعتبر فيه الفتح العربي الإسلامي للشام فوزا للقومية العربية، رغم ذلك، فإنه، أي الدكتور شكري فيصل، قام بمحاصرة فكرة وقوف العرب النصارى في الشام وفلسطين إلى جانب الفاتح والمحرر العربي؛ ولقد استند الدكتور فيصل إلى ما وقع من جريمة قتل رسول رسول الله إلى ملك بُصرى العربي النصراني الموالي للروم، رغم أن الرسل لا تُقتل حتى في أشد حالات الصراع، وما وقع أيضا من قتال مرير كان فيه النصارى العرب الشاميون مشاركين للروم فيه ضد العرب المسلمين، كما حصل مثلا في مؤتة، وكذا ما حصل من قتال جبلة بن الأيهم للمسلمين أيام الفتوح التحريرية للشام، وكذلك استند أيضا إلى عدم ظهور الحماسة من قبل عرب الشام للإسلام أيام إقبال الوفود العربية لمبايعة الرسول ج على الإسلام في العام التاسع للهجرة[1].

إن هذه الأحداث وما شابهها، دعت الأستاذ الدكتور شكري فيصل إلى التأكيد على نفي الفكرة التي نحن بصددها.

ولكن، ألَم ير القارئ الكريم، من خلال قراءته لِما مضى، أننا لا نقصد أن العرب كلهم كانوا مع الروم في الحرب بين المسلمين وبين الروم، بل ألا ينبغي أن يستحضر القارئ الكريم الأمثلة العديدة عن وقوف عدد من العرب النصارى وغير النصارى، بشكل جماعي أو فردي مع المحرر المسلم، بل ألا يذكر القارئ أن النصارى فيما بعد قد دخلوا

---

(١) يُنظر رأي الدكتور شكري فيصل في كتابه: حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، (٢٦-٢٩).

في دين الله أفواجا، بعد أن كان بعضهم عينا للمسلم العربي على الرومي النصراني، ابن دينه.

إن المسلم الشامي وقف مع المسلم الحجازي الفاتح المحرر، وإن بعض النصارى العرب الشاميين وقفوا مع الروم ثم أعلن إسلامه لما رأى الفرق بين المسلم وغير المسلم، وإن النصراني العربي بالمجمل وقف أخيرا مع الفاتح المسلم.

ولكن طبائع الأشياء تقول: إن الدولة وما تملكه من دعاية، لا بد أن تكسب الكثير من الأنصار الذين هم تحت سيطرتها، وهذا هو الذي حصل، لكنه لم يستطع أن يستقطب كل عرب الشام، و لم يستطع أن يلغي شخصية الشام وفلسطين العربية، ثم إن الذين ساروا تحت هيمنته، لم يمضوا تحتها إلى الأبد، بل لقد انضموا أخيرا إلى المسلمين أو أسلموا.

ويعلم قارئ التاريخ أنه في فترة ما قبل الإسلام، وفي صدر الإسلام أيضا، ((كانت بلاد الشام تابعة لبيزنطة، وكان من المعقول جدا ألا تظل القبائل العربية في الشام خارجة عن تدابير بيزنطة وإجراءاتها في الشام، تلك الإجراءات التي كانت ترمي إلى حماية سلطان بيزنطة في المنطقة، وضمان الأمن والاستقرار فيها لخدمة مصالحها، سيما وكانت المنطقة تشهد الصراع الذي كان يحتدم بين بيزنطة وفارس))[1].

وشاهدُنا هنا: أن مثل هذه الإجراءات لا بد أنها ستكسب كثيرا من أهل هذه المناطق لموالاة الروم، فلا ضير إذن إن نفهم القضية على هذا الأساس: إن كل أولئك الذين وقفوا مع الروم ضد المسلمين العرب الفاتحين والمحررين، كانوا في حقيقة الأمر خاضعين قانونا وعُرفا للروم، ولذا قاتلوا المسلمين الفاتحين.

ودعني أخي القارئ من كل هذا، ولْنذكر الأهم من كل ذلك: أوليس جميع ما مضى يؤكد الوجود العربي الكثيف في الشام وفلسطين، رغم وقوعها تحت الحكم الروماني؟ هذا

---

(١) دراسات وبحوث في جوانب من التاريخ الإسلامي، تأليف: محمد ضيف الله البطاينة، (٩٦-٩٧).

ما نحب تأكيده فحسب، وهو لا يمكن أن يكون فيه خلاف، وهو ما نقلناه عن المؤرخين، من أمثال الدكتور نقولا زيادة، وقد قرأتَه عزيزي القارئ الكريم.

ثم، وفي نهاية المطاف، فإن النصارى العرب الذي قاتلوا مع الروم، سرعان ما أعلنوا إسلامهم، حينما رأوا فرق ما بين العرب المسلمين والروم من تعامل وسياسة، فقد أعلن الملك جبلة ابن الأيهم الغساني إسلامه بعد انتصار المسلمين، وكان مما قاله أبو بشير التنوخي، أحد الذين قاتلوا المسلمين من نصارى الشام إلى جانب الروم، وكان قد أسلم فيما بعد: ((**كنت نصرانيا فنصرت النصرانية على العرب، وأقبلت مع الروم، فجعلنا لا نمر على أحد من أهل البلد، إلا وجدناهم أحسن شيء ثناءً على العرب في كل شيء من أمرهم وسيرتهم**))(١)، وهذا هو الحال العامّ بعد انتصار العرب المسلمين في فتوح الشام والعراق ومصر بشكل عام.

إن كل هذا الذي مضى في هذا المبحث والذي سبقه، يؤكد لنا أن الاحتلالات التي وقعت فلسطين فريسة لها، لم تستطع أن تأخذ فلسطين من العرب قديما ولا من العرب والمسلمين فيما بعد.

---

(١) تاريخ فلسطين في صدر الإسلام، تأليف: الدكتور هاني أبو الرُّب، (١٥١-١٥٢)، وقد نقل هذا الخبر عن كتاب فتوح الشام، للأذدي.

الفصل الخامس: سكان فلسطين المعاصرون

لا ينبغي أن يُنظر إلى هذا الفصل كما لو كان مقحما، بحجة أن فصول هذا الباب ذات طابع تاريخي متخصِّصٍ في بحث التاريخ القديم لفلسطين، لا في الديموغرافيا الفلسطينية المعاصرة، كما هو شأن هذا الفصل في غالب مضمونه؛ فرغم أن البحث في سكان فلسطين القديمة لم ينحُ في هذا الباب منحىً ديموغرافيا، إلا أنه يقصد في نهاية المطاف إلى الكشف عن الهوية الفلسطينية السكانية القديمة..

إن القضية السكانية هي من أهم المُحدِّدات لطابع أي دولة من الدول، يقول أبا إيبان، وزير الخارجية الإسرائيلية في الفترة بين ١٩٦٦-١٩٧٤م: ((**يتحدّد طابع دولة من الدول في المقام الأول بتركيبها الديمغرافي بمستوى، وبوحدة سكانها**))(١).

إن الكشف عن الطابع السكاني هو ذاتُه كشف عن الانتماء في أي بلد من البلاد! ومن ها هنا جاء هذا الفصل كامتدادٍ للبحث في انتماء سكان فلسطين القديمة، ليقول قوله وليحكم حكمه في سكان فلسطين المعاصرة؛ كل ذلك في إطار البحث عن انتماء فلسطين كليَّةً.

وسيستند هذا الفصل على إحصائيات رسمية وبحوث متخصصة، ولن يكون لنا من دورٍ فيه سوى محاولة استخراج بعض المعاني من وراء الأرقام الصمّاء.

وأرجو أن يكون القارئ الكريم على انتباه أن مقصدنا هنا لا يدخل أبدا في باب ما قد يحسبه البعض إعلاناً للانتصار على دولة اليهود في بلادنا، بناءً على ما سيراه القارئ من انتصار في الباب الديمغرافي، ذلك أننا نعتبر هذا جانبا فحسب من جوانب الصراع، وليس كل جوانبه.

---

(١) صحيفة دافار الإسرائيلية، ١٩٦٧/٨/٢٥م، نقلا عن: المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي، فيليب فارج ويوسف كرباج، (٢٣١).

كما وأرجو أن يلاحظ القارئ الكريم أن كثيرا من المعلومات التي سننقلها، والأرقام التي سنذكرها، وهي بشكل ما ذات مصادر إسرائيلية، من مقالات أو إحصائيات رسمية، وما شابه ذلك؛ إن كثيرا مما سنذكره إنما يَرِدُ على ألسنة بعض اليهود في إطار تحريضي هادِفٍ إلى طرد الشعب الفلسطيني، من أجل حل المشكلة الديمغرافية عندهم؛ غير أننا نطرح ما نطرح لرؤى أخرى نراها، سَيَلْمَسُها القارئ الكريم إن شاء الله تعالى حين عرضها.

هذا، ولقد رأيتُ أن أجعل هذا الفصل في مباحث أربعة:

المبحث الأول: تصوُّر نتنياهو للمسألة.

المبحث الثاني: عجز الهجرة اليهودية عن تغيير انتماء السكان المعاصرين.

المبحث الثالث: عجز القدرة الإنجابية اليهودية عن تغيير هذا الانتماء.

المبحث الرابع: عروبة وإسلام سكان فلسطين المعاصرين.

وسيدور كثير من الكلام في هذه المباحث كما لو كان ردّا على نتنياهو، ولكننا في الحقيقة نردُّ على أصحاب فكرته من خلال الرد عليه.

والآن حين عرض هذا الفصل بمباحثه..

المبحث الأول: تصوُّر نتنياهو للمسألة

رغم أن بنيامين نتنياهو رفض كل التحذيرات الديمغرافية السكانية واستهان بها، تلك التي كانت تقول في أواخر الستينيات وما بعدها: إن معدل الزيادة السكانية في دولة إسرائيل ستتحول لصالح العرب من الناحية النسبية، ورغم محاولاته المتكررة في كتابه (مكان تحت الشمس) لتصوير الحرب بأنها حرب اقتصاد ومال وهجرة يهودية إلى إسرائيل، فإن توفَّر المال وانتَعَش الاقتصاد، واستمرت الهجرة، فإنه لا مشكلة؛ رغم كل ذلك، ورغم كل دعاويه تلك، إلا أنه كان واهما إلى أبعد حدٍّ في تصوُّر حقيقة الأمر، وكان مخادعا قديرا في تصويره لِما يحسبُه حقيقة[١].

وهو يرفض تماما ذلك العنصر الدرامي، كما وصفه، والذي يرتكز على أن (**المعركة الآن تدور حول الرحم**،...، **وأن هذه المعركة لا بد أن يخسرها اليهود**)[٢]، وينسب هذا التصوير وهذا العنصر إلى معلقين إسرائيليين.

ويذكر نتنياهو أن هؤلاء متخوِّفون من تحوُّلٍ ديمغرافي لصالح العرب، مما يجعل اليهود أقلية في دولة إسرائيل، إذا لم تنسحب إسرائيل من الضفة الغربية، ووصف هؤلاء بأنهم يستخدمون التوقعات السكانية المستقبلية لتبرير آرائهم الداعية إلى ضرورة الانسحاب من الضفة، إذ لو لم تنسحب إسرائيل منها، فإن الزيادة الطبيعية السكانية العربية ستكون كافية في جعل اليهود أقلية خلال فترات قريبة من صدور هذه التوقعات، وكانت هذه التوقعات محدَّدةً -أيام صدورها من ديمغرافيين إسرائيليين كبار- بأواخر القرن العشرين، ويرد نتنياهو على هؤلاء بأن نهاية القرن العشرين قد اقتربت، أي أيام تأليفِه كتابَه، ويقول إننا لم نر ما يؤكد دعوى هؤلاء المتخوفين، بل نرى أن اليهود هم الذين تضاعف عددهم

---

(١) تُنظر آراء نتنياهو حول المشكلة السكانية في كتابه: مكان تحت الشمس، (٣٢٩-٣٦١).

(٢) مكان تحت الشمس، (٣٣٤).

فيما بين عام ١٩٦٧م إلى منتصف التسعينيات من القرن العشرين؛ يقول نتنياهو: ((ها هي إسرائيل، لا يوجد فيها مؤشرات للاختفاء))، ويقول: ((إن مؤيدي فكرة وجود مشكلة سكانية من التيارين السياسيين[1] في إسرائيل، يعلنون بكل ثقة، أن العرب سيصبحون أغلبية في البلاد، إذا لم نعمل وفقا لنصائحهم، **غير أن القليلين فقط هم الذين فحصوا إمكانية تحقيق تنبؤات هؤلاء الخبراء السكانية السوداء، التي بنوا على أساسها سياستهم**))[2]، وطبيعة الحال: نتنياهو من هذا القليل، فلْنَرَ إذن!

إن نتنياهو هنا يعترف بوضوح أن في اليمين واليسار الإسرائيليين، من يُقرُّ بأن مشكلة سكانية تميل لصالح العرب يجب حلها، وإن كان كل من الفريقين يطرح طريقة للحل تختلف عن طريقة الآخر.

لقد اعتبر نتنياهو أن ثمة عناصر أربعة هي صاحبة السطوة والتأثير على الحجم السكاني، وهذه العناصر الأربعة هي: الولادة والوفاة والهجرة والهجرة المعاكسة، وهذا في تقديري كلام صحيح..

ولكن المشكلة عائدة إلى توظيف نتنياهو لهذه العناصر الأربعة لصالح اليهود، حتى خرج في النهاية ألا خوف عليهم ولا هم يحزنزن!

ويمضي نتنياهو في شروحاته المطَمْئنة والواهمة معاً..

إنه قد هاجر من العرب [**٢٠.٠٠٠**] عربي سنويا ابتداء من الخمسينيات، إذ

---

(١) يقصد تيار اليمين واليسار معا، ففي كليهما من يرفع لواء التخويف من الزيادة السكانية الفلسطينية، مع تراجع اليهودية في فلسطين، لكن الحل الذي يطرحه كل من متخوِّفي التيارين، يختلف عن الحل الذي يطرحه الآخر؛ فبينما يميل اليمين إلى أن حل المشكلة يكمن في تهجير العرب إلى خارج فلسطين، يكمن الحل لدى متخوِّفي اليسار في الانسحاب من الضفة، لقطع الخط على تأثير الزيادة السكانية على الميزان الديمغرافي، الذي يجب أن يكون في منطقهم لصالح إسرائيل، يُنظر: مكان تحت الشمس.

(٢) مكان تحت الشمس، (٣٣٠-٣٣١).

استقطبتهم على الأغلب دول الخليج، وإن أمريكا، كما علق أحدهم، لو فتحت باب الهجرة للعرب الفلسطينيين، الواقفين دائما على الطوابير أمام السفارة الأمريكية، لحُلّت مشكلة إسرائيل في يوم واحد..

إنها أمانٍ معسولة، فما أمريكا بالتي تقبل بهذا الوضع، خوفا على نفسها من الإرهاب الفلسطيني المُدَّعى، ولا الشعب الفلسطيني ممن يشدّه البريق الأمريكي كما يشد اليهوديَّ.

وهنا ينكفئ نتنياهو على نفسه، ويُعلن، كما لو كان يريد الظهور كشخصية موضوعية: إنه عندما انتقلت مناطق الضفة إلى إسرائيل وجد العرب في إسرائيل أعمالا لهم، فتقلصت، حسب نتنياهو نفسه، الهجرة العربية إلى الخارج!

ورغم أنه يعترف بأن ثمة خطرا قد يأتي من الزيادة السكانية العربية داخل الخط الأخضر، **إذ تحولت نسبة هؤلاء العرب حسب نتنياهو، من ١٠.٥% عام ١٩٦٧م إلى ١٣.٤% عام ١٩٩٢م**، لكنه يردُّ على أولئك الداعين إلى الانسحاب من الضفة وغزة قائلا: "**ولعل أي خبير سكاني لا يقول صراحة: كم يحتاج عرب إسرائيل من الوقت كي يشكلوا أغلبية في إسرائيل، إذا تخلت عن الضفة الغربية وغزة**"(١)، وهو، فيما يبدو لي، يقصد هنا إلزام القائلين بالانسحاب خشية تفوق الفلسطينيين، بأن إسرائيل إذا انسحبت فعلا، فإنها ستواجه مشكلة عظمى فعلا، بسبب تعاظم النمو السكاني داخل الحزام الأخضر، أي يريد أن يقول لهم: لن تحل المشكلة بالانسحاب، بل ستتفاقم.

ثم هو يتحدث صراحة عن المُطمئنات باستمرار الهجرة اليهودية إلى فلسطين، فبعد أن يذكر أعداد اليهود في فرنسا والأرجنتين وجنوب أفريقيا، يقول مطَمئنا باستمرار الهجرة اليهودية إلى فلسطين: "**وتشهد فرنسا في السنوات الأخيرة موجة لا سامية آخذة في الازدياد، مع ظهور القومية المتشددة لليمين المتطرف، كما أن مستقبل الجالية اليهودية**

---

(١) مكان تحت الشمس، (٣٣٦).

في جنوب أفريقيا يلفُّه الغموض..))[١]، إن انتشار اللاسامية، حسب الفهم الصــهيوني، مهم جدا لاستمرار الهجرة اليهودية!

ثم يصرح نتنياهو تماما بالحل في نظره ويقول: ((**إن تاريخ الصهيونية هو تاريخ هجرة اليهود إلى أرض إسرائيل، وهذا هو العنصر الذي سيحسم مستقبل الدولة السكاني**))، ويبدأ نتنياهو في التركيز على هذا المعنى، مخصصا يهود روسيا في حديثه، طارحا العوائــق التي اعترضت هجرة اليهود إلى فلسطين، سواء كانت عوائق عربية أو سوفياتية، ومتحدثا عن مشكلة المستوطنات وتوسيعها أو بناء الجديد منها، وموقف أمريكــا مــن ذلــك، ومشكلة الوضع الاقتصادي الإسرائيل ومدى قدرته على استيعاب المهاجرين اليهود إليها، مع التركيز على الحلول الاقتصادية لمشكلة الاستيعاب..

ويعترف نتنياهو أثناء هذه الاستعراضات للمشاكل والحلول بأن ثمة مشكلة ديمغرافية ستبقى، وإن بحجم صغير، فيقول: ((يجب ألا نستخلص من كل ما قلناه، أن إســرائيل لا تعاني من مشكلة ديمغرافية، **إن هذه المشكلة موجودة فعلا، مع أنها أصغر بكــثير ممــا يعرضه علينا المؤيدون للانسحاب..**))[٢].

ويبدو نتنياهو متماسكا وقويا للغاية إذ يقول: ((إن الحلم الصــهيوني الــذي أعلــن الإحصائيون والضعفاء عن موته مرات عديدة، لا يزال على قيد الحياة..إلخ))، وإذ يقــول أيضا: ((**إن العفريت الديمغرافي ليس من نتاج الواقع، إنما هو تعبير عن الانهزامية لــدى أولئك الذين فقدوا إيمانهم، بما أنهم هم أنفسهم، لا يرون الطريق المؤدية إلى انتصــار الصهيونية، أعربوا عن استعدادهم للإعلان عن هزيمتهم والانسحاب،...، لكن الحلم الصهيوني لا يمكن تحقيقه عن طريق التراجع إلى الخلف والهروب من أجزاء مــن أرض إسرائيل، التي يخشى كثير من اليهود عدم قدرتهم على الاحتفاظ بأغلبية فيهــا..**))[٣]،

---

(١) المرجع نفسه، (٣٣٩).

(٢) المرجع نفسه، (٣٤٨).

(٣) المرجع نفسه، (٣٥٨).

وكان قبل ذلك بصفحات يحاول ألا يجعل من مفهوم الهجرة أنها يجب أن تشمَل اليهود جميعهم، فيقول: ((**لم يقل هيرتزل ونورداو وفينسكر، أنه يجب على كل الشعب اليهودي الهجرة إلى الدولة اليهودية، لكنهم آمنوا بأن غالبية هذا الشعب ستعيش فيها**))[1]؛ هل كلامه هذا ردة فعل طبيعية على الفشل المتوقع لهجرة جميع اليهود إلى فلسطين، فهو، ومن قبله هيرتزل ونورداو وفينسكر، لم يروا ضرورة هجرة اليهود كلهم، هل هذا يعني استشرافهم للمستقبل الكاشف عن عجزهم عن تعميم الهجرة، لتشمل كل اليهود؟ ربما!

ويرى نتنياهو أنه إن توفر المال عند الإسرائيليين، فإن ذلك كفيل بتحقيق تكثير لنسبة المواليد، ومضاعفة للهجرة، وهذان العنصران هما المطلوبان حسب رأيه، ونرى أن توفر المال وإنعاش الاقتصاد سيقللان فعلا من الهجرة المعاكسة، وسيمنعان كثرة الوفيات، بسبب اتباع وسائل الوقاية، وتحسين الوضع الصحي، التي تحتاج كلها إلى المال والاقتصاد، **لكنها لن تُكثِّر المواليد، إذ مشكلة قلة المواليد لا ترجع غالبا إلى قلة ما في اليد، بل إلى النمط الثقافي الاجتماعي الذي يعيشه اليهود، فهم غربيون تماما في هذه التقاليد، حتى الشرقيون منهم يعودون غربيين فيها من أول قدومهم إلى فلسطين، بسبب النمط الثقافي في العادات الاجتماعية الإسرائيلية**، كما سيأتي بعض شواهده.

على كلٍّ: فالقضية محسومة عند نتنياهو، ولا داعي أن يقلق اليهود حسب تطميناته، ويظهر للقارئ أن نتنياهو حكم على المستقبل حكمه على الشعب الفلسطيني، وهو في كلا الحكمَين يتناقض مع الحقيقة..

تابع عزيزي القارئ مباحث هذا الفصل..

---

(١) المرجع نفسه، (٣٤٧).

المبحث الثاني: عجز الهجرة اليهودية عن تغيير ديمغرافي طويل الأمد

العنصر اليهودي في فلسطين طارئ زائل!

هذه هي الحقيقة التي نرى أن القارئ الكريم سيخرج بها بإذن الله تعالى.

ولا بدّ أن نُلقي بعض الأضواء على مدى القدرة اليهودية المهاجرة، أو المتوقّع هجرتها إلى فلسطين، في جعل الميزان السكاني مائلا لصالح اليهود..

ونبدأ أولا بذكر كلمة لدافيد بن غوريون أول رئيس وزراء إسرائيلي، وذلك في تصريح نشرته له صحيفة الهآرتس الإسرائيلية بتاريخ ١٩٦٧/١١/١٧م، يقول الرجل: ((**دون هجرة يهودية تواصل الاتساع**، دون نموّ ملحوظ لمعدّل المواليد اليهود في البلد، **فسوف يكون محكوما علينا بأن نكون أقلية**، حتى ولو أَحبط جيشُنا القومي تهديدات الدكتاتوريّين العرب بالقضاء على إسرائيل، **إن إهمال هذا الخطر يساوي قول: بعدي الطوفان**))[1].

وحسب نتنياهو: لا طوفان أبدا، وسنرى مقدار مصداقية قوله.

هذا، وسنرى في المبحث التالي القدرة الإنجابية عالية المستوى عند المرأة العربية الفلسطينية، مقارنة مع اليهودية، لنؤكد أن الرهان المستقبلي سيؤدي في جانب منه إلى إحراج دولة إسرائيل، حين تواصل دعواها بأنها واحة الديمقراطية الوحيدة في المنطقة، وسط غابة من الدكتاتوريات العربية التي لا مثيل لها، رغم أن الحكم فيها سيبقى لليهود، الذين سيعودون أقلية تحكم أكثرية عربية، ولن يُسمع لصوت صناديق الاقتراع، وإنما للهيمنة اليهودية فحسب!

---

(١) صحيفة الهآرتس الإسرائيلية، ١٩٦٧/١١/١٧، نقلا عن: المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي، فيليب فارج ويوسف كرباج، (٢٣١).

هذا بالطبع إن عاشت دولة اليهود إلى عقود قادمة، ذلك أنه لا ضمان للاحتلال بالبقاء إلى الأبد!

ثم إن النسبة الإنجابية العالية لدى المرأة العربية ستُساعد على تشكيل الوجه الحقيقي للانتماء السكاني في فلسطين، ليساهم بدوره في الكشف عن انتماء فلسطين سكانيا بوجه عامٍّ، وهذا هو مبرر الدخول في هذا الباب في بحثنا هذا!

وعودة إلى ما نحن فيه..

كان نتنياهو قد ركز كثيرا، كما رأى القارئ الكريم، على أن الحل السحري لمشكلة ميل الميزان السكاني لصالح الفلسطينيين يكمن في الهجرة اليهودية إلى فلسطين، حتى قرّر أن «**تاريخ الصهيونية هو تاريخ هجرة اليهود إلى أرض إسرائيل، وهذا هو العنصر الذي سيحسم مستقبل الدولة السكاني**»، وعلى ما نقلنا عنه قريبا، فإن هيرتزل ونورداو وفينسكر، لم يروا ضرورة هجرة جميع اليهود إلى إسرائيل، بل هم يرون أن معظم شعب إسرائيل هو الذي سيهاجر إلى فلسطين فحسب، مما يعني أن معظم الشعب الإسرائيلي الذي سيهاجر كافٍ في نظرهم في جعل الميزان السكاني يميل لصالح اليهود..

سنتجاوز رؤية هؤلاء الثلاثة، وسنطرح السؤال التالي: ماذا لو هاجر كل يهود العالم فعلا، هل سيميل الميزان الديمغرافي السكاني لصالح أغلبية يهودية في فلسطين؟

ولننظر الآن إلى عمليات تهجير اليهود إلى فلسطين، المبرمجة غربيا، والتي استقدمت مئات الآلاف من اليهود إلى فلسطين؛ لنثبت أنها بشكلها الحالي، وبقدراتها المستقبلية، لا تستطيع إلا أن تثبت شيئا واحدا، يتمثّل في أن **العنصر اليهودي في فلسطين طارئ زائل..**

وسنتعرّف على نِسَب اليهود في فلسطين ابتداء من القرن التاسع عشر..

إن الحقيقة التي تحدثت عنها الأرقام، تُثبت أن أصل الوجود اليهودي في فلسطين ابتداءً من القرن التاسع عشر إنما كان على شكل أقلية ضعيفة القدرة البشرية، فقد وصلت

نسبتهم حسب دراسة الدكتورة بنان نويهض الحوت إلى **٥%** من مجمل السكان، لكن الأمر اختلف عندها، فهل وصلوا إلى هذه النسبة في منتصف القرن التاسع عشر أو في عام ١٨٨١م؛ وذلك بسبب اختلاف التقديرات، وعلى أعلى التقديرَين، أي على تقدير أنهم وصلوا إلى نسبة **٥%** عام ١٨٥٠م، أي في منتصف القرن التاسع عشر، فإنهم يكونون في هذه السنة قد وصلوا إلى [**٢٥.٠٠٠**] نسمة من أصل [**٥٠٠.٠٠٠**] نسمة هم جميع سكان فلسطين في ذلك العام، أما على التقدير الآخر، فإن عدد اليهود في فلسطين لم يكن قد وصل إلى [**٢٥.٠٠٠**] إلا في سنة ١٨٨١م لا في سنة ١٨٥٠م[1].

هذا على ما اعتمدته الدكتورة نويهض من أرقام أو تقديرات ترجع إلى مصادر ذكرناها في الهامش، غير أن الأستاذَين فيليب فارج ويوسف كرباج، وهما المتخصصان في الدراسات الديمغرافية، حدَّدا عدد اليهود في فلسطين في العام ١٨٥٢ ب [**١٣.٠٠٠**] يهوديا، أي بما نسبته **٤%**[2]، غير أنني لم ألمح مصادرهما.

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى كان عدد اليهود في فلسطين كلها هو [**٦٠,٠٠٠**] يهودي، بمن فيهم من هاجر إليها قبل الحرب، وذلك في مقابل [**٦٠٢,٠٠٠**] مسلم، و[**٨١,٠٠٠**] نصراني[3]، أي أن مجموع اليهود والنصارى والمسلمين كان حينذاك [**٧٤٣,٠٠٠**] وبعبارة النسب المئوية: كانت نسبة اليهود

---

(١) يُنظر كتاب فلسطين القضية، الشعب، الحضارة، للدكتورة بنان نويهض الحوت (٤٠٤-٤٠٥)، ففيه تفصيل للأمر، هذا وقد اعتمدت الدكتورة في التقدير الثاني، أي الذي يقدر نسبة اليهود في فلسطين عام ١٨٨١م ب **٥%** على كتاب تاريخ إسرائيل لساشار، بينما اعتمدت على الإحصائيات العثمانية في اعتبار أن هذه النسبة (**٥%**) في منتصف القرن التاسع عشر، ويبدو من سياق كلامها الميل إلى أن التقدير الأصح هو (**٥%**) في عام ١٨٨١ لا في عام ١٨٥٠م.

(٢) كتاب المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي، للمؤلفَين فيليب فارج ويوسف كرباج، (٢٣٢).

(٣) المرجع نفسه، (٢٣٣).

حينذاك في فلسطين إلى مجمل السكان من نصارى ومسلمين هي **٨%**، وهي بلا شك نسبة مرتفعة جدا عما كانوا عليه عام ١٨٨١م كما قد بيّنا، وذلك بسبب النشاط الصهيوني الداعي إلى هجرتهم إلى فلسطين.

ووصلت التقديرات بعدد اليهود في فلسطين عام ١٩٤٨م إلى [**٧٠٠.٠٠٠**] يهودي، أي [**٣٣**%] من أصل السكان المقيمين فيها، البالغ عددُهم حينها [**٢.١١٥.٠٠٠**]، وأما في عام ١٩٥٠م فقد وصل عددُهم إلى [**٢.٢٠٣.٠٠٠**] يهودي، أي **٥١.٩**% من باقي السكان(١).

ثم اتسعت المفارقات بشكل عجيب، فقد وصل عددُهم إلى [**٤.٢**] مليون نسمة عام ١٩٩٣م؟(٢)، ووصل سنة ١٩٩٨م في كل فلسطين، أي بعد خمسين عاماً من إنشاء دولتهم إلى [**٤.٧٦٠.٠٠٠**](٣) فيما وصل العرب في الوقت ذاته وفي فلسطين كلّها أيضا إلى [**٣.٨٦٥.٠٠٠**]، أي أن نسبة اليهود بلغت **٥٥%** بينما بلغت نسبة العرب **٤٥%**(٤) وذلك في جميع الديار الفلسطينية، المحتلة عامي ١٩٤٨م و١٩٦٧م.

وسيأتي قريبا في المبحث الرابع من هذا الفصل أن دائرة الإحصاء الفلسطينية وصلت بعدد الفلسطينيين نهاية عام ٢٠٠٣م إلى [**٥.٢**] مليونا، بينما وصلت دائرة الإحصاء

---

(١) قراءة في الخارطة السكانية لإسرائيل، محسن يوسف، مدير المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار)، نشرته مجلة قضايا إسرائيلية في عددها رقم (٢) الصادر في ربيع عام ٢٠٠١م.

(٢) المسيحيون واليهود، (٢٣٦).

(٣) في مقال الدكتور محسن يوسف: قراءة في الخارطة السكانية لإسرائيل، أن عدد اليهود بلغ عام ١٩٩٨م [٤.٧٠١.٦٠٠] وهو بخلاف الرقم الذي نقلناه هنا، يُنظر المقال المشار إليه، مجلة قضايا إسرائيلية، عدد (٢) ربيع ٢٠٠١م.

(٤) المستقبل الديمغرافي لمنطقة فلسطين/إسرائيل، وهو عنوان دراسة قدمها يوسف كرباج في ندوة "الحركة الصهيونية وإسرائيل" التي عقدها مؤسسة الدراسات الفلسطينية في لارنكا، قبرص، في الفترة بين ١١-١٣/١٢/١٩٩٨م، ونشرتها مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد (٣٨) ربيع ١٩٩٩م.

الإسرائيلية بعدد اليهود في الوقت نفسه إلى [**٥.٤**] مليونا؛ هذا رغم أن من المتخصِّصين اليهود من يعتبرون أن العرب أكثر منهم، فهؤلاء المتخصِّصون اليهود لا يثقون بأن كـل الـ [**٥.٤**] يهودي هم يهودٌ فعلا، بل هم يرون أن فيهم نسبة لا بأس بها من النصـارى وأهل الأديان الأخرى، التي هاجرت مع اليهود من الاتحاد السوفياتي وغيره، وعُدّوا يهوداً!

وليس من داعٍ إلى أن نسأل: كيف وصلوا إلى هذه القفزات الهائلـة في تعـدادهم ونسبتهم في فلسطين، فالجواب معروف، وهو أن الهجرة اليهودية هي التي تطرد السكان ثم تسرق الأرض، وتُلوّث صفاءها الرائق، وتسعى دوما إلى تلوين الأرض بغير لونها، وإلى تزوير الحقائق، كل ذلك لأجل أن تجعل من فلسطين أرضا يهودية السكان؛ **ولكنه تبـيَّن لنا أن سلاح الهجرة هذا لم يقلب الموازين لصالح إسرائيل إلى الأبـد، كمـا يتصـور نتنياهو.**

ويجب أن يكون القارئ على بينة أن ثمة سببا آخر أدى إلى ارتفاع نسبة اليهـود في مقابل الفلسطينيين أصحاب الأرض، ألا وهو التهجير والتقتيـل البشـع الـذي لحـق بالفلسطينيين على أثر تعاون الإنجليز واليهود معا ضدَّهم، ولربما ساهم التقتيل الحـديث للفلسطينيين في إطار مواجهة انتفاضة الأقصى المبارك مساهمة ما في ذلك، وهذا التقتيـل والتدمير والتشريد هو ما تعاونت عليه أمريكا وإسرائيل معا، وتنفَّس الغرب الصُّعَداءَ على وقوعه..

إن ما كسبه اليهود من تطوُّر عددي في فلسطين، ليس خاضعا إلا لسببين تلازما معاً: الأول: هجرة يهودية قسرية في كثير من الأحيان إلى فلسطين، والثاني: تهجـير قسـري للفلسطينيين من بلدهم إلى خارجه، وإلا فليس لليهود من قدرة على منافسة الفلسطينيين في باب التكاثر الطبيعي أبدا!

فقد بلغ مجموع المهَجَّرين العرب الفلسطينيين من فلسطين إلى خارجها **قريبـا مـن مليونين خلال نصف قرن**؛ وبلغ عدد شهداء الشعب الفلسطيني **٢٦١** ألفا، حتى عـام

١٩٩٣م، وأما الجرحى فقد بلغوا **١٨٦** ألفا، وبلغ عدد المعوَّقين **١٦١** ألفا[(١)].

وحول تفصيل عدد المهاجرين الفلسطينيين في العامَين ١٩٤٨ و١٩٦٧م، ففي الهامش رقم (٤٤) من دراسته (المستقبل الديمغرافي لمنطقة فلسطين/إسرائيل) يقول الأستاذ يوسف كرباج: ((طال التهجير [**٧٢٥.٠٠٠**] من الفلسطينيين سنة ١٩٤٨م، انتقل منهم [**٢٨٠.٠٠٠**] نسمة إلى الضفة الغربية، و[**١٩٠.٠٠٠**] نسمة إلى قطاع غزة، **علما بأن [٢٥٥.٠٠٠] آخرين كانوا غادروا البلاد، وفي سنة ١٩٦٧م حدثت هجرة بالحجم الضخم نفسه، إذ هاجر [٢٥٠.٠٠٠] فلسطيني إلى خارج بلدهم**))[(٢)].

ومن كلام الأستاذَين كرباج وهيكل، تكون حصة عامي ٤٨، و٦٧ من المهجَّرين الفلسطينيين إلى خارج فلسطين نصف مليون تقريبا، وتكون حصة السنوات سوى هاتين السنتين من هذه الهجرة قريبا من مليون ونصف مهاجر، مما يعني أن الحروب ليست هي وحدها سببَ الهجرة، بل ثمة أسبابٌ من ترغيب وترهيب وتضييق تجعل هجرة البعض أمرا واقعا.

وإنما نقول إن الهجرة اليهودية القسرية أحيانا كثيرة والمبرمجة دائما، هي التي قفزت بعدد اليهود ونِسْبَتِهم إلى ما رأينا، وليست القدرة اليهودية على الإنجاب، ذلك أن القدرة اليهودية على الإنجاب خاضعة لِما عرفه اليهود في ديار الغرب، وما تلقنوه من ثقافته من تقليل للنسل وتفضيل لحياة المتعة على حياة الثراء البشري، وسنتحدّث في المبحث التالي تفصيلا عن هذه القدرة اليهودية المستهلكة في المتعة الجسدية؛ إن مساهمة القدرة اليهودية على الإنجاب في تكثير عدد اليهود بالغة الضآلة؛ يعلق الأستاذان كرباج وفارج على الزيادة العددية الهائلة لليهود في فلسطين في الفترة بين عام ١٩١٨م و١٤ أيار عام ١٩٤٨م قائلَين: ((إن زيادة السكان اليهود عشرة أضعاف، **تدينُ بالقليل جدا إلى نموّهم**

---

(١) المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، الكتاب الأول، للأستاذ محمد حسنين هيكل، (٢٥).

(٢) نشرته مجلة الدراسات الفلسطينية في عددها (٣٨) ربيع ١٩٩٩م.

الطبيعي، وتدين بالكامل، أو بالكامل تقريبا إلى الهجرة»[1]، وهذا الواقع الذي يلتقي مع تخطيط الصهيونية لهجرة اليهود، هو نفسه البلسم الشافي لها، حسب نتنياهو؛ ورغم ذلك، وكما قلنا، فلن يميل الميزان الديمغرافي لصالح اليهود إلا فترة وجيزة، لا تستطيع أن تحسم المستقبل في هذه الناحية لصالحهم.

وإلا فأين يذهب كلام نتنياهو، وها هو العام ١٩٩٨م يشهد هذا التقارب الكبير بين العرب **٤٥%** وبين اليهود **٥٥%**؛ بل إن نهاية العام ٢٠٠٣م تشهد إمكانية أن يكون العرب أكثر من اليهود، وذلك في كل فلسطين!

ومع ذلك كله، فالهجرة اليهودية من جهة، وتهجير العرب الفلسطينيين من جهة أخرى؛ إن ذلك كله قاصر عن إدراك أهداف الصهيونية في جعل الميزان السكاني يميل لصالح اليهود في فلسطين.

لقد كان من المتوقع أن يتساوى عدد اليهود وعدد العرب (المسلمين والمسيحيين) عام ٢٠١٥م[2]، ولكن ربما تأخر هذا التساوي أعواما قليلة، فالهجرة اليهودية تملك قدرة على تأجيل هذا التساوي، ولا تسطيع إلغاءه.

ولقد رفع دارسون يهود صوتهم عاليا بزيف دعوى قدرة الهجرة اليهودية إلى فلسطين على إيجاد أغلبية يهودية كبرى، ومن هؤلاء الدارسين: الديمغرافي الإسرائيلي سيرجيو ديللا بير جولا، إذ «يبين أن كل مجموعة من [١٠٠.٠٠٠] مهاجر يهودي قد تؤدي إلى تأجيل نقطة التعادل بين العرب واليهود لمدة عام واحد، أي أن مجموعة من [٥٠٠.٠٠٠] مهاجر ستؤدي إلى تأجيل تاريخ التعادل من عام ٢٠١٥م إلى عام ٢٠٢٠م، ومجموعة من مليون مهاجر ستؤجلها إلى عام ٢٠٢٥م، ومجموعة من مليون ونصف ستؤجلها إلى عام

---

(١) المسيحيون واليهود، (٢٣٤).

(٢) الدكتور المسيري في كتابه: هجرة اليهود السوفييت، (٢١٨).

٢٠٣٠م››[١]، وفي هذا رد على نتنياهو، إذ إن الهجرة التي هي سلاحه المفضل، لن تحل المشكلة اليهودية، إلا ريثما تفشل، إذ تكمن أحسن الأحوال في هجرة جميع اليهود إلى فلسطين، ومع ذلك فسيكون اليهود أقلية تماما..

وفي كلام بالغ الأهمية، نقله الدكتور المسيري في كتابه هجرة اليهود السوفيات، فقد ذكر أن يوسف ألفر نائب رئيس مركز جافي للدراسات الاستراتيجية في جامعة تل أبيب قال: ‹‹لو هاجر [٨٠٠.٠٠٠] يهودي إلى إسرائيل، ومكثوا فيها، فإن العرب في أرض إسرائيل[٢] سيكونون **٤٠%** من السكان عام ٢٠٠٠م، وخلال ١٥ عاما سيصبحون الأغلبية، **لأن السكان العرب يتزايدون حاليا بمعدل ٥٠% كل عشرة أعوام، ولخلق أغلبية سكانية يهودية مريحة تبلغ ٨٠% خلال عشرة أعوام، لا بد من أن تهاجر الدياسبورا اليهودية بأسرها**››[٣].

وهذا إن حصل فهو أيضا مُجابَه بضعف اليهود إنجابيا، وقدرة الفلسطينيين الذاتية على الإنجاب، ولو حصل، فلن يحسم فلسطين سكانيا لصالح اليهود إلا لبضعة عقود..

ومع ذلك، فلن يحصل أبدا أن يهاجر جميع اليهود إلى فلسطين، فقدرات إسرائيل على جذب جميع اليهود قدرات فاشلة، فلا تستطيع إسرائيل أن توجِد للملايين الستة والنصف من يهود أمريكا[٤] الظروف المادية والأمنية التي يحيونها في الولايات المتحدة الأمريكية.

---

(١) الدكتور المسيري، (٢١٩) وقد نقل كلام هذا الديمغرافي الإسرائيلي عن الجيروسالم بوست، ١٩٩٠/١٠/٥.

(٢) أي كل فلسطين، إذ هذه هي التسمية الثقافية والدينية لفلسطين عند اليهود.

(٣) نقله الدكتور المسيري في كتابه هجرة اليهود السوفييت (٢١٩).

(٤) وهذا حسب إحصائيات عام ١٩٨٥م، يُنظر كتاب خلفيات وآثار هجرة اليهود السوفييت، تأليف: وليد العمري، وتيسير بلاسي، (١١٥)، هذا ويلاحظ أن عدد اليهود قد انخفض في الفترة ما بين ١٩٤٨م و١٩٨٥م في جميع العالم، سوى عددهم في إسرائيل وأمريكا، فقد تطوّر عددهم في إسرائيل من [٧٠٠.٠٠٠] عام ١٩٤٨م إلى [**٣.٦٠٠.٠٠٠**] عام ١٩٨٥م، وأما في أمريكا فقد

ويؤيد هذا الذي نقوله انخفاضُ منسوب الهجرة اليهودية بشكل كبير في الفترات الأخيرة، فحسب دائرة الإحصاء الإسرائيلية، هاجر إلى إسرائيل عام ٢٠٠٣م [**٢٣.٠٠٠**] ولم يشكِّل هذا العدد أكثر مما نسبته **٩%** من نسبة الزيادة السكانية في العام نفسه، غير أن عدد المهاجرين اليهود إلى إسرائيل عام ٢٠٠٢م كان [**٣٤.٠٠٠**]، أي **١٨%** من نسبة مجمل الزيادة السكانية فيها، وشكّلت نسبة المهاجرين عام ٢٠٠٠م **٣٨%** من مجمل الزيادة السكانية الإسرائيلية[1]؛ وهذا يعني انخفاض عدد المهاجرين اليهود كل عام عن الذي سبقه، وفي هذا تأكيد على ما نقوله من عجز القدرة اليهودية على جذب معظم اليهود، أي من عجز الهجرة اليهودية عن تحقيق ما تصبو إليه من تأكيد أغلبية سكانية يهودية في فلسطين على المدى البعيد.

هذا، ولم يصل إلى إسرائيل عام ٢٠٠٣م أكثر من [**١٧٠٠**] مهاجر يهودي أمريكي[2]، رغم أن اليهود الأمريكيين يُشكّلون حاليا أكبر تجمع يهودي في العالم خارج إسرائيل، وهو ما يؤكد عجز الدولة الإسرائيلية عن توفير حالة اقتصادية وأمنية قادرة على جذب العدد الكبير منهم للهجرة إليها.

هذا رغم ما هنالك من إشكالات كبرى حول هجرة كثير من النصارى، وربما

ارتفع العدد من [**٥.٨٠٠.٠٠٠**] عام ١٩٤٨م إلى [**٦.٥٠٠.٠٠٠**] عام ١٩٨٥م، وهذا يُدلّل على قدرة أمريكية واضحة لاستقطاب اليهود العالميين، أو للمحافظة على النسبة اليهودية فيها، أو الأمرين معاً، وتؤكد هذه الدلالة الملاحظة التالية: مجموع من هاجر من يهود أمريكا ابتداء من ١٩٤٨م وحتى ١٩٨٧م لا يتجاوز [**١٧٠.٠٠٠**] أي بنسبة قدرها ٩.٦% من مجموع المهاجرين من جميع دول العالم، يُنظر كتاب خلفيات وآثار هجرة اليهود السوفييت، (١١٣).

(١) يُنظر موقع http://www.almash-had.org/ على الإنترنت، مقال: خبراء الديموغرافيا يتباكون على تراجع عدد اليهود مقابل ارتفاع عدد العرب الفلسطينيين في المنطقة بين النهر والبحر؛ وقد نقل الكاتب أرقامه عن دائرة الإحصاء المركزية الإسرائيلية، الصادرة في أوائل يناير عام ٢٠٠٤م.

(٢) يُنظر المرجع السابق.

المسلمين أيضا، من البلاد المصدِّرة للهجرة اليهودية إلى فلسطين ضمن المهاجرين اليهود، واعتبارهم عند هجرتهم يهودا..

ثم لا بد أن نشير إلى مسألة ذات أهمية خاصة في هذه المسألة التي لا نزال بصدد بحثها..

إن الهجرة اليهودية إلى فلسطين محفوفة بمخاطر ما يسمى بالهجرة العكسية اليهودية، مما يودي بفكرة نتنياهو والقائلين بقوله، المستندين على رؤيته التي تقرر أن الهجرة اليهودية إلى فلسطين ستجعل فلسطين ذات أغلبية يهودية واضحة؛ لأن المشكلة التي لا تستطيع دولة إسرائيل حلّها مهما أوتيت من قوة وحنكة، هي نفور اليهود أنفسهم من الحياة في فلسطين..

ففي جريدة ويست سايد سبيريت (١٨/٢/١٩٨٩) ومصادرُها كما يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري: موثوق بها تماما؛ أن إتسيك دراي، وهو ملحق بالقنصلية الإسرائيلية، والذي يحمل على عاتقه مهمة إقناع المرتدين اليهود بالعودة إلى إسرائيل؛ قد صرح أن **عدد اليهود الذين هاجروا من إسرائيل [٣٠٠.٠٠٠] في نيويورك، ومثلهم في لوس أنجلوس**، كما توجد جماعات صغيرة في ميامي وشيكاغو، ولقد قال **روني زافير رئيس تحرير جريدة** (إسرائيل شيلانو) **أن الرقم يصل إلى المليون إن تم حساب أولاد المهاجرين**[١].

وفي الأهرام ٣/١١/١٩٩٠م أن [١٨.٠٠٠] قادم جديد سجلوا أنفسهم في القنصلية السوفييتية طالبين الرجوع إلى مواطنهم الأصلية[٢].

والأمر في غاية الخطورة إذن، والأرقام في غاية الكشف عما نقرِّره من فشل الهجرة اليهودية في صناعة أغلبية يهودية في فلسطين، فإن الإحصائيات الرسمية تدل على أن عدد

---

(١) يُنظر: الدكتور المسيري في كتابه هجرة اليهود السوفييت، (٢٢٧).

(٢) يُنظر: المرجع السابق، (٢٢٦).

اليهود الذين غادروا إسرائيل فيما بين عامي ١٩٤٨م و١٩٦٨م بلــغ [١.٢٧٣.٠٤٢]، وهو أكثر من عدد المهاجرين اليهود إلى إسرائيل في الفترة نفسها، والذي لم يــزد علــى [١.٠٥٦.٠٥٤][١]، وهذا كله حسب الإحصائيات الرسمية الإسرائيلية، وهذا يعــني أن الهاربين من فلسطين أكثر من الذين هاجروا إليها بــ [٢١٦.٩٨٨] شخصا خلال الفترة المشار إليها، أي أن الهجرة في تلك الفترة لم تزد سكان إسرائيل شيئا، لأنها ووجِهــت بهجرة معاكسة، بحجم أكبر من حجم الهجرة المقبلة على إسرائيل.

والسؤال هنا: هل يستقيم مع هذا الذي نقلناه، والذي يرجع إلى المصــادر الرسميــة الإسرائيلية من بيانات حول الهجرة اليهودية العكسية، في الفترة بين ١٩٤٨م و١٩٦٨م، هل يستقيم معه كلام نتنياهو القائل: ((يُقدَّر عدد الإسرائيليين الذين هاجروا من إسرائيل منذ قيامها، بحوالي [**٤٠٠.٠٠٠**] نسمة))[٢]، رغم أن المساحة الزمنيــة لهجــرة الـــ [**١.٢٧٣.٠٤٢**] من إسرائيل إلى خارجها، أقل بكثير من المساحة الزمنية التي يــدَّعي نتنياهو أن المهاجرين فيها من إسرائيل إلى خارجها لم يبلغوا أكثر من [**٤٠٠.٠٠٠**].

إن الإحصائيات الرسمية تقول: **إنه خلال عشرين عاما، ابتداء من ١٩٤٨م، هاجر من إسرائيل ما يزيد عن مليون وربع مليون يهودي**، أما نتنياهو فيدَّعي أن المهــاجرين خلال قريب من نصف قرن، ابتداءً من ١٩٤٨م، لم يزيدوا عن [**٤٠٠.٠٠٠**]، فهــل نصدق الإحصائيات الرسمية الإسرائيلية، والتي أيدها الشواهد، أم نصدِّق نتنياهو؟

وهل يخاطب نتنياهو هنا شعبه أم غيرهم؟ هو يفترض على جميع الأحوال جهلَ شعبه وجهل سواه إطلاقا، إذ كيف يطمر الحقيقة بكلمتين؟! وهو يحسب أنها ستبقى مطمــورة مخفية عن الثقلين قرنا أو قرنين؟.

---

(١) خلفيات وآثار هجرة اليهود السوفييت، تأليف: وليد العمري، وتيسير بلاسي، (١٤٥) وقد نقلا هذه الأرقام عن الإحصاءات الرسمية الإسرائيلية.

(٢) مكان تحت الشمس، تأليف: بنيامين نتنياهو، (٣٣٧).

غاية القول: لن تستطيع الهجرة اليهودية أن تغير الميزان الديمغرافي في فلسطين إلا ريثما ينقلب الميزان على اليهود أنفسهم!

وفي المبحثين التاليين مزيد بيان لعجز اليهود عموما عن جعل الميزان السكاني يميل لصالحهم، ولقدرة العرب الفلسطينيين، خاصة المسلمين منهم، على تمييل الميزان السكاني لصالح العرب.

المبحث الثالث: عجز القدرة الإنجابية اليهودية عن هذا التغيير

وبين هذا المبحث والذي سبقه تداخل عضوي، ففشل اليهود في قلب الميزان الديمغرافي لصالحهم إلى عقود طويلة، يعود إلى أسباب منها: انخفاض الخصوبة اليهودية، وارتفاع الخصوبة العربية الإنجابية، وبما أننا تحدثنا في المبحث السابق عن فشل الهجرة في جعل الميزان الديمغرافي يميل لصالح اليهود على المدى الطويل، فإن دور البحث في تنافس القدرتين العربية واليهودية في الإنجاب سيكون في هذا المبحث(١).

---

(١) أرجو أن أنبّه القارئ الكريم إلى أن هذا المبحث والذي قبله والذي يليه، لا يعني أبدا تحريض إسرائيل على ترحيل الشعب الفلسطيني، فإن حصل ترحيل لا سمح الله، فلن تكون هذه المباحث سببه، ذلك أن الترحيل موجود في الأجندة الإسرائيلية من قديم الزمان، وهو موجود عند شارون تحديدا، بل إن الترحيل جزء من خطة شارونية تجاوز عمرها العقدين من الزمان، وما يمنع شارونَ منه إلا سلبياتُه على دولة إسرائيل نفسها، تلك التي تطغى على إيجابياته؛ **ومع ذلك فقد يفعلها شارون، فشأن المجانين في نسيان أو تجاوز السلبيات غير شأن العقلاء!.**

وعلى كل حال، فلن تكون هذه المباحث سببا للترحيل إن حصل لا قدّر الله، فموضوعها وأصولها مبثوثة في كثير من الدوريات العربية والفلسطينية والإسرائيلية، وفي كثير من الكتب، مما سيرى القارئ الكريم بعض ما نرجع إليه منها في هذه المباحث.

ثم لن يكون مثل طرح هذا المبحث محرِّضا لإسرائيل أيضا على قتل الشعب الفلسطيني، إذ إن قتله لا يحتاج إلى مبرِّرات عند الحكومات الإسرائيلية، فكونُ الفلسطينيين من الأغيار هو في ذاته مبرِّرٌ كافٍ في قتله للتخلص من قدراته الديمغرافية..

ولي أن أنقل هنا كلاما لمجنون من مجانين الدولة اليهودية، وهو أحد الخبراء الكبار في عالَم الديمغرافيا، وهو أرنون سوفير الذي سننقل عنه في الصفحات القادمة كلاما في الصراع السكاني بين العرب واليهود في فلسطين..

يقول سوفير في مقابلة نشرتها له جريدة القدس المقدسية بتاريخ ٢٤/٥/٢٠٠٤م: "**هكذا فإننا إذا**

وسنرى أن الهجرة اليهودية ليست عاجزةً وحدها عن مثل هذا التغـــيير، **فالأرحـــام اليهودية أشدُّ عجزا!**.

ورغم سياسة التهجير والطرد والتقتيل للشعب الفلسطيني، التي ذكرنا بعض آثارهـــا، مما نقلناه في المبحث السابق عن الأستاذ محمد حسنين هيكل، **إذ ذكر أن عدد من هُجِّروا من فلسطين زاد عن مليونين خلال نصف قرن، وأن عدد شهداء الشعب الفلســـطيني بلغ ٢٦١ ألفا خلال نصف قرن أيضا**؛ إنه رغم هذه الحقائق، ورغم سياسة الاســـتقدام والاستقطاب لليهود من بلاد الدنيا، فإن كل ذلك لم يؤدِّ إلى إنجاح مخطـــط إســـرائيل في زيادة اليهود في فلسطين، زيادة تكفي بأن تجعل الفلسطينيين أقلية عربية في وسط أكثرية يهودية على المدى الطويل، والتي تكفي من ثم إلى نفي الوجه العربي الإسلامي لفلسطين، إلا ريثما تأخذ الأرحام العربية قسطها الزمني في مجابهة الاستقدام اليهودي، لتكثر عليـــه؛ وعليه، فإن فكرة نتنياهو ومعه الصهيونية بِرُمَّتها، ستكون فاشلة وغـــير واقعيـــة، وقـــد أوضحنا هذا المعنى في المبحث السابق من خلال بحث الهجرة اليهودية إلى فلسطين..

وللدخول إلى مقصدنا الذي عقدنا عليه عملية البحث في هذه القضية، نذكر كلمـــةً ذكرناها في المبحث السابق بيّن فيها الأستاذان كرباج وفارج سبب الزيادة العددية الهائلة

أردنا البقاء أحياء، فسيكون علينا أن نَقتُل ونَقتُل ونَقتُل، طوالَ اليوم وكل يوم»، «**إذا لم نقم بالقتل فإننا سوف نتوقف عن البقاء**»؛ وليس لنا تعليق طويل على كلام هذا المجنون إلا أننا سنشير إلى أنـــه صاحب فكرة خطة الفصل اليهودية، فلقد استدعاه شارون كما ذكر سوفير نفسه وطلب منه إحضار خطة الفصل التي كان قد نشرها عام ٢٠٠١م؛ ولنا أن نقول: لو صدر هذا الكلام من عربي أو أوروبي ضدّ اليهود، لكان أقل ما يُتّهم به صاحبه أنه عنصري وإرهابي ولاسامي، لكن والمتحدِّث يهودي، فله كل ضمانات السمعة البريئة من العنصرية والقتل، رغم ما ذكر من ضـــرورة ممارســـة القتـــل ضـــد الفلسطينيين.

وفي النهاية، أودّ أن أقول: ليس ذكرُنا لحقائق الديمغرافيا وعجز اليهود عن المسابقة في مضمارها، ليس ذكرنا له هو الذي يدفع إسرائيل إلى ممارسة القتل ضد الفلسطينيين لمواجهة القدرات الفلســـطينية في الديمغرافيا، بل إن أجندة القتل جاهزة في رؤوس مجانين المفكرين هؤلاء.

لليهود في فلسطين في الفترة بين عام ١٩١٨م و١٤ أيار عام ١٩٤٨م فقالا: ((إن زيادة السكان اليهود عشرة أضعاف، **تدينُ بالقليل جدا إلى نموّهم الطبيعي، وتدين بالكامل، أو بالكامل تقريبا إلى الهجرة**))[١].

إن النموّ اليهودي الطبيعي ما كان ليقدر على إيصال اليهود إلى ما وصلوا إليه من تعداد ونسبة كبيرتين في فلسطين، بل يرجع هذا النموّ إلى الإمداد القسري وغير القسري، الذي جاء باليهود إلى بلاد لا يعرفونها ولا تعرفهم، ورغم ذلك، فالهجرة عاجزة عن إيصال اليهود إلى مبتغاهم..

فلقد تبين أن هؤلاء المهاجرين اليهود جاؤوا يحملون معهم تقاليد الغرب الداعية إلى قلة الإنجاب، مما واجه الهجرة اليهودية إلى فلسطين بالقدرات الإنجابية الكبيرة لدى الإناث الفلسطينيات، مما أدى إلى تراجع الهجرة اليهودية إلى فلسطين عن أداء دورها المرغوب صهيونيا.

وهذا ما حذر منه شمعون بيرس الذي يزعم أن **عدد الفلسطينيين واليهود جميعا فيما بين البحر والنهر سيصل بعد عشرين عاما إلى عشرين مليون نسمة، نصفُهم أو أكثر عرب، والباقي يهود**[٢]، ويُعلق يوسف كرباج على توقعات بيرس هذه قائلا بعد ثلاث صفحات من ذكره كلامَه: ((لا يمكن بلوغ العشرين مليون نسمة سنة ٢٠١٨م كما يدعي))، ومع ذلك فهو أي يوسف كرباج يقول مؤكدا زيادة عدد الفلسطينيين ونسبتهم على عدد ونسبة اليهود: ((**فالفلسطينيون سيكونون أكثر عددا بنسبة ملحوظة، تصل إلى ما بين ٥٦% و٥٨% بحسب اتجاهات وفوارق الخصوبة المتوقعة**))[٣].

---

(١) المسيحيون واليهود، (٢٣٤).

(٢) المستقبل الديمغرافي لمنطقة فلسطين/إسرائيل، يوسف كرباج، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد (٣٨) ربيع ١٩٩٩م.

(٣) المرجع السابق.

وهذا يعود كما قد أشرنا إلى زيادة الخصوبة الإنجابية بالنسبة للإناث الفلسطينيات عليه بالنسبة لليهوديات، فبينما بلغت الخصوبة بين عامَي ١٩٨٥ و١٩٩٠م في قطاع غزة **٨.٧١** والضفة الغربية **٧.٢٣** أطفال لكل امرأة[١]؛ وبلغت حسب تقرير الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني لعام ١٩٩٨م في الأراضي الفلسطينية **٥.٩** ومن المتوقع أن تصل إلى **٣.١** في عام ٢٠٢٥م، كما ذكرت الأستاذة دهب مصلح[٢]، ولا أحسب هذا النزول المتوقع في عام ٢٠٢٥م لنسبة الخصوبة عند العربية الفلسطينية طبيعيا، بل هو تابع لتخطيط وبرمجة، تطالب من وراء ستار بتخفيض نسبة العرب أمام اليهود في فلسطين، لينتصر اليهود ديمغرافيا..!

أقول: بينما كان الأمر على ما ذكرتُ من حال نسبة الخصوبة عند الأنثى الفلسطينية؛ فقد كان مستوى الخصوبة اليهودية للمرأة الواحدة **٢,٥٨** طفل في العام ١٩٩٦م، وكانت **٢,٨** في مطلع الثمانينيات، وهي نسبة مرتفعة إذا ما قيست بمثيلتها عند الغربيين، الذين يُعتبر اليهود امتدادا ثقافيا لهم في النواحي الأسرية، وما هذه النسبة المرتفعة عن الغرب إلا من قِبل اليهود الشرقيين، الذي لا زالوا بعدُ متأثرين بعض التأثر بعادات الشرق في هذه الناحية، إذ بلغت الخصوبة عند الشرقيين **٣,١٤** للمرأة اليهودية الشرقية الواحدة[٣] بينما تبلغ عند اليهودية الروسية **١,٦٩** للمرأة الواحدة، أي أن الفارق في

---

(١) المسيحيون واليهود (جداول الفصل الثامن، الجدول رقم ٩)، هذا ويلاحظ القارئ أني ذكرت نسبة الإنجاب للعرب في فلسطين بين عامَي ١٩٨٥ و١٩٩٠، وأما ما ذكرته من نسب الإنجاب لدى اليهود في فلسطين، فهو لعام ١٩٩٦م، ولم أهتدِ لنسب إنجابٍ للفريقين في عام واحد محدّد، ومع ذلك، فلن يكون التغيُّر في المفارقة بين نسب إنجاب العرب واليهود في كل من العامين بعيدة، بل لن يكون مثل هذا التغيّر أكثر من أعشار قليلة، هبوطا أو ارتفاعا.

(٢) في مقالها: أطفال فلسطين في أرقام، ونشرته مجلة آفاق على موقعها على الإنترنت، www.aafaq.org/fact؛ .

(٣) المستقبل الديمغرافي لمنطقة فلسطين/إسرائيل، يوسف كرباج، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد (٣٨) ربيع ١٩٩٩م.

الخصوبة بين اليهودية الغربية واليهودية الشرقية هو **١.٤٥** لصالح اليهودية الشرقية، هـذا في عام ١٩٩٦م، رغم أن الفارق في الإنجاب بين المرأة اليهودية الغربية والشرقية كان سنة ١٩٥٠م أربعة أطفال[(١)]، لصالح اليهودية الشرقية.

إن هذا التراجع في نسبة الإنجاب لدى اليهودية الشرقية يؤكد تأثر اليهود الشـرقيين ذوي العادات الشرقية باليهود الغربيين، فلقد أصبحوا في هذه الناحية مجتمعـا واحـدا، تغلبت عليه الثقافة الغربية في كل شيء.

وأذكِّر هنا بما نقلتُه في المبحث السابق عن يوسف ألفر نائب رئيس مركـز جـافي للدراسات الاستراتيجية في جامعة تل أبيب من قوله إن: "**السكان العرب يتزايدون حاليا بمعدل ٥٠% كل عشرة أعوام**"[(٢)]، ولا شك أن هذا التزايد العربي ليس ناتجـا عـن الهجرة العربية إلى فلسطين، فهي معدومة، بل إن هذا التزايد جاء رغم التهجير المباشر أو غير المباشر للعرب من فلسطين، إذ هذا التهجير القسري للعرب الفلسطينيين لم يقضِ على قدرة العربي على التحدي بالإنجاب.

ويجب أن أشير هنا أن الشعب الفلسطيني شعب فتي، وأنه يملك طاقة هائلة تستطيع أن تتحكم بالمستقبل، إن أحسن القائمون على الأمر توجيهها، فقد بلغت نسبة الذين تقـل أعمارُهم عن **١٨** عاما **٥٣.٣ %** من مجمل الشعب الفلسطيني، وذلك عـام ١٩٩٨م، كما ذكرت ذلك الأستاذة دهب مصلح، مديرة برنامج إحصاءات الطفـل في الجهـاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، والتي استقت بياناتها من منشـورات الجهـاز المركـزي للإحصاء الفلسطيني[(٣)].

---

(١) هجرة اليهود السوفييت، للدكتور عبد الوهاب المسيري، (٢١٧).

(٢) نقله الدكتور المسيري في كتابه هجرة اليهود السوفييت (٢١٩).

(٣) ذكرت ذلك في مقال لها بعنوان: أطفال فلسطين في أرقام، ونشرته مجلة آفاق على موقعهـا على الإنترنت، www.aafaq.org/fact؛ وتقول الأستاذة مصلح: "وتشير التقديرات أيضـاً إلى أن هذه النسبة سوف تتناقص عبر الزمن لتصل في عام ٢٠٢٥ إلى ٤٣.١%".

هذا، وسيأتي مزيد بيان لهذه الحقيقة في المبحث التالي، بل فيه تفصيلات كان من حقها أن تكون في هذا المبحث، لولا ما رأيته من ضرورة أن تنفصل عنه لتتجه إلى المبحث التالي.

إننا نخلص من كل ما مضى أن الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وأن تهجير العرب إلى خارج فلسطين، وأن تقتيل العرب المستمر منذ عقود من الزمن؛ نخلص أن ذلك كله لم يستطع أن يصل أبدا إلى مستوى ما يطرحه نتنياهو، من قدرة الهجرة اليهودية والتهجير العربي في تثبيت أغلبية حقيقية داخل فلسطين لصالح اليهود على المدى البعيد.

وأرجو القارئ الكريم أن ينسى قليلا ذلك الاستعراض الطويل الذي طرحناه حول فكرة نتنياهو، إذ إن كلام هذا الرجل ليس في الحقيقة جزءا مهما في موضوع بحثنا لهذه المسألة، بل المهم لدينا هو إثبات عجز دولة إسرائيل برمتها في معركة التحدي، التي عنصرها الأساسي هو: **ما تقذفه الأرحام، ولقد تبين أن اليهود لم يملكوا هذه القدرة!**

ولا بد أن نبين أخيرا أن هذه النسبة العالية للخصوبة عند العربيات الفلسطينيات، لا تشكِّل موردا اقتصاديا، بقدر ما تمثِّل فعلا سياسيا(١)؛ فالحقيقة تكمن في المعنى السياسي الذي تحمله هذه الخصوبة، وفي المعنى الديمغرافي المحرج جدا لمستقبل إسرائيل.

من خلال استعراضنا للواقع، ومن خلال ردنا على نتنياهو، يتبين لنا أن اليهود أعجز عن التحدي الديمغرافي، حتى لو أحضروا جميع شعبهم من الآفاق، ليبدؤوا بإطلاق الأرحام من إسارها، فالأرحام العربية لا ترحم! بل هي أقدر بكثير من أرحام اللياقة الجسدية، التي تتشبه بصاحباتها الغصونُ الميّادة؛ والأرحام العربية أجدر بكثير بالنصر في هذه المعركة، التي تملك فيها اليهوديات أَفْتَنَ الأجساد الرشيقة، وأرشق الأجساد الفاتنة، ذات النعومة

---

(١) كتاب المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي، للمؤلفَين فيليب فارج ويوسف كرباج، (٢٦٩).

الباهرة، والإثارة القاهرة! التي ترجع أصولها إلى أوروبا وأمريكا؛ تلك التي غمرت شباب اليهود بعبيرها الجذاب، حتى نسوا أنهم في معركة السكان، تلك المعركة التي لا يصلح فيها من سلاح إلا سلاح الثراء البشري؛ إنها معركة الأرحام، فأنّى يستطيع اليهود مواجهتنا فيها؟!

المبحث الرابع: عروبة سكان فلسطين المعاصرين

إن الحاضر هو ابن الماضي، ولن يكون حاضر بلا ماضٍ، وإن كان ماضي فلسطين عربيا وإسلاميا، فيجب أن يكون حاضرها كذلك: عربيا وإسلاميا؛ ولقد تبين لنا أن الصراع على الماضي هو لأجل الحاضر، لكن اليهود لم يستطيعوا حسم الماضي لصالحهم، ولن يستطيعوا بالتالي حسم الحاضر والمستقبل لصالحهم أيضا، لأن كل ذلك يجافي الحقيقة، فإذا تُرك الحديث للحقيقة، وللحقيقة فحسب، فإن الأمر سيبدو أكثر إحراجا لليهود، وهذا ما سيتضح لنا قريبا: إن الحاضر الفلسطيني رغم التهجير والقتل المستمر للشعب الفلسطيني، إلا أنه حاضر واعد بمستقبل يُحسم للصالح العربي الفلسطيني إن شاء الله تعالى.

ثم إنني أقصد بالسكان في هذا المبحث: غيرَ الدخيلين الطارئين على حاضر فلسطين طُروءَ اللصوص، فهي لا تشهد لهم، إذ ليس لوجودهم فيها من معنى إلا تلويثها بكل رجس، وإنهم داسوا ترابها الطاهر ضمن الفلسفة القائمة على طرد أهلها الحقيقيين، ذوي الجذور التاريخية فيها، وهي ترفض ادعاءات المُدّعين الذين ينسبون إليها سكانا ليست لهم فيها جذور عريقة وأنساب عتيقة، ولذا، فسكانها العرب والمسلمون هم الذين يستحقون الانتساب إليها، ويستحقون أن تنتسب هي إليهم.

أما العنصر الطارئ على السكان الوطنيين أصحاب الأرض، فهو العنصر اليهودي، الذي جاء مهاجرا من بلاد أخرى، عربية أو أجنبية، فطردوا أصحاب الأرض، ومكثوا مكانهم مُسْتَوْلِين على أرضهم ومائهم وهوائهم.

إن هذا العنصر اليهودي الطارئ أعجز من أن يلوِّن الأرض بلونه إلى الأبد، بل هي فترة شذَّت عن مسيرة الأرض، وستتجاوزها الأرض المقدسة قريبا بإذن الله تعالى، واليهود أنفسهم يَشْكُون الآن من هذه الحقيقة..

فقد صوّر عوفر بطرسبرغ في تقرير نشرته له اليديعوت أحرونوت، صوّر الرؤية الإسرائيلية، على الأقل عند بعض الإسرائيليين، بصورة يائسة بسبب تكاثر السكان العرب في مدينة القدس، ويطرح كاتب هذا التصوُّر رؤية استشرافية للمستقبل عند حدود عام ٢٠٣٠م القادم..

يقول عوفر هذا: ((السنة هي ٢٠٣٠م، فجر جديد يبزغ على القدس المدينة الإسلامية المقدسة، في الشوارع يتردد صدى اللغة العربية، ومعظم واجهات المحلات واللافتات الكبيرة تحمل كلمات بالعربية، ورئيس البلدية العربي بدعم من الأحزاب الأصولية، يطالب بتقصير التوقيت الصيفي في دوري مقدسي ساخن، تخسر بيتار لصالح الأهلي الفريق المقدسي الكبير، وأذان المؤذن يرافق أنصار بيتار خائبي الأمل وهم عائدون إلى منازلهم في الأحياء اليهودية))(١).

بهذه الكلمات المبكية (يهوديا) قدَّم عوفر لمقاله المؤثِّر..

وهو يصف عبر هذه الكلمات القليلة، والمعبرة في الوقت ذاته، الحال التي تستشرفها القدس بعد عام ٢٠٣٠م(٢) في رأيه، أو في رأي باحثين إسرائيليين متخصصين، ولو كنا يهودا والعياذ بالله لبكينا كما بكى، **بل ولربما زدنا عن البكاء بأن خرجنا من أرض**

---

(١) من مقال عوفر بطرسبرغ، بعنوان: الميزان الديموغرافي في القدس ينقلب تدريجيا لصالح العرب، نشرته صحيفة يديعوت أحرونوت اليهودية، ونشرت ترجمته جريدة القدس المقدسية، على صفحات عددها الصادر بتاريخ ١٥/٦/٢٠٠٢م.

(٢) لم يطرح عوفر هذا سؤالا أهم من كلامه المُبكي إسرائيليا، وهو: هل ستبقى إسرائيل إلى عام ٢٠٣٠م؟ الجواب ما تقوله تلك السنة ذاتها حين يؤذن الله بهلالها الأول، أو ربما ما تقوله سنة قبلها ببضع سنين، ثم الجواب كامن فيما تقوله مقدمات المستقبل القادم، من مظاهر النهوض الإسلامي العربي الكبير، الداعي إلى التحرير، أو إلى التطهير، وفي رأيي أن نترك المستقبل يكتب عن نفسه حينما يأتي، أو حينما تأتي الأعوام من بعد، لتجعل ذلك المستقبل بالنسبة إلينا اليوم، واقعا حاضرا في غدنا إن شاء الله!.

ليست لنا!!

وهو يذكر في مقاله أن بلدية القدس، والتي كان يرأسها عند كتابة مقاله إيهود أولمرت الليكودي المتشدد جدا، تتوقع ألا تكون القدس بأغلبية يهودية حاسمة بعد عشرين عاما من الآن، ويذكر كذلك أن وثيقة سرية وُضعت هذه الأيام على طاولة شارون تحذر من مغبة خطر التوسع السكاني العربي في القدس وضواحيها.

ويقول في مقاله: ((القدس هي المدينة الأكبر في إسرائيل من حيث مساحتها وسكانها، في نهاية عام ٢٠٠٠م، امتدّت المدينة على **١٢٦.٤٠٠** دونم، وضمّت **٦٥٧.٥٠٠** نسمة، **٦٨% منهم يهودا، و٣٢% منهم غير يهود، والزيادة الديمغرافية المتوسطة هي ٢% سنويا، لكن قد ينشأ خداع بصري، لا يوجد وسط اليهود ارتفاع حقيقي**))[١].

ويذكر في مقاله أن غولدا مئير وضعت هدفا يتمثل في أن يكون في القدس **٧٠%** يهود، وأنه قد وصل الأمر عام ١٩٧٢ أن بلغت نسبة اليهود فيها **٧٣.٤%**، لكن في عام ٢٠٢٠ ((**ستتقلص نسبة السكان اليهود إلى ٥٠% فقط، هذا حسب تقارير وتحليل الخبراء**)).

إن هذا التخوُّف الإسرائيلي مرفوض عند نتنياهو، رغم أن نسبة اليهود في القدس تتراجع فعلا، رغم عمليات تهجير العرب وسحب هوياتهم وهدم بيوتهم، ورغم هجرة يهودية إلى القدس!

ولْننظر إلى هذه الأرقام الكاشفة..

ففي مقال نشره موقع قناة الجزيرة[٢] على الإنترنت تحت عنوان: سكان القدس..

---

(١) عوفر بطرسبرغ، في مقاله المذكور.

(٢) بتاريخ ٢٠٠١/١/١٥م، هذا ويلاحظ أن ثمة فارقا في تعداد سكان القدس بين ما نقلناه هنا عن قناة الجزيرة، وما نقلناه عن الكاتب اليهودي عوفر بطرسبرغ، مقدراه حوالي أحد عشر ألفا، لكن

سباق على الأرقام: ((تشير الإحصاءات الإسرائيلية الرسمية الصادرة نهاية عام ٢٠٠٠ إلى أن تعداد السكان في المدينة ارتفع بنسبة **٢%** من إجمالي السكان البالغ **[٦٤٦,٣٠٠]** ألف نسمة، بينهم **[٤٣٦,٧٠٠]** ألف يهودي بنسبة **٦٧,٦%**، في حين يبلغ عدد السكان العرب **٢٠٩,٥** آلاف عربي بنسبة **٣٢,٤%**.

((وتبلغ الزيادة الصافية للسكان **بعد حساب الولادات والوفيات والمهاجرين من وإلى المدينة** [١٢.٦٠٠] نسمة، نصيب اليهود منها **[٢٩٠٠]** نسمة، في حين بلغت الزيادة العربية **[٩٧٠٠]** وبهذا فإن نسبة نمو السكان اليهود في القدس هي **٠,٧%** بينما هي عند السكان العرب **٤,٧%**))، إن الهجرة هنا لم تَكْفِ لحل المشكلة السكانية لصالح اليهود، فأين يذهب نتنياهو بكلامه بعد كل هذا؟!

ما قدمناه يدور حول القدس وسكانها ونسبة العرب واليهود فيها، فما حال سكان فلسطين عموما، أعني المحكومة المغتصبة من قِبل إسرائيل؟

في خاتمة دراسته عن المستقبل الديمغرافي لمنطقة فلسطين، يقول يوسف كرباج: ((بعد مضي خمسين عاما على الحرب العربية الإسرائيلية الأولى، **يبلغ عدد الفلسطينيين القاطنين ببلدهم ٤ ملايين نسمة تقريبا، [٣.٨٦٥.٠٠٠] نسمة بتاريخ ١٥ أيار مايو عام ١٩٩٨م، ولم يكن يبلغ عددهم في سنة ١٩٤٨م سوى [١.٣٦٣.٠٠٠] نسمة**، وأجبر معظمهم في حينه على مغادرة منزله بقوة السلاح، وعلى سلوك دروب التهجير، بيد أنه على الرغم من التريفَين اللذَيْن حدثا سنتي ١٩٤٨م و١٩٦٧م فإن الضربة قد استوعبت نسبيا على الصعيد السكاني، **فقد تضاعف عددهم أربع مرات خلال خمسين عاما، أي بمعدل نمو مضطرد مقداره ٢.١% سنويا**، وبذلك يصبح الفلسطينيون على مسافة قريبة جدا من خط النمو السكاني المعروف في الدول العربية الأخرى، المرتفع

هذا الفارق بين الرقمين لا يغير من المقصود في كلامنا هنا، فكلا المقالين (مقال الجزيرة ومقال عوفر) يتفقان على أن نسبة الزيادة السكانية متفوقة جدا لصالح العرب المقدسيين.

نسبيا))[1].

وحسب دائرة الإحصاء المركزية الإسرائيلية[2]، فقد بلغ عدد اليهود نهاية عام ٢٠٠٣م فيما بين البحر والنهر [**٥.٤**] مليونا، وبلغ عدد العرب في العام نفسه حسب دائرة الإحصاء الفلسطينية [**٥.٢**] مليونا، ولعل هذا ما دعا دائرة الإحصاء المركزية الإسرائيلية إلى أن تعتبر أن اليهود سيُصبحون أقلية إذا ما قورِنوا بالسكان العرب بعد عشرة أعوام، بل يقول الجغرافي والخبير الديمغرافي اليهودي العنصري البروفيسور أرنون سوفير: إن اليهود أقلية منذ اليوم خصوصا إذا تم خصم نحو [**٣٠٠.٠٠٠**] غير يهودي من الـ**٥.٤** مليون، فإن عدد اليهود يصبح أقل من عدد العرب.

والأمر أمر الله أولا وأخيرا!

---

(١) المستقبل الديمغرافي لمنطقة فلسطين/إسرائيل، يوسف كرباج، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد (٣٨) ربيع ١٩٩٩م.

(٢) يُنظر موقع http://www.almash-had.org/ على الإنترنت، مقال: خبراء الديموغرافيا يتباكون على تراجع عدد اليهود مقابل ارتفاع عدد العرب الفلسطينيين في المنطقة بين النهر والبحر؛ وقد نقل الكاتب أرقامه عن دائرة الإحصاء المركزية الإسرائيلية في نشرتها الصادرة في أوائل يناير عام ٢٠٠٤م.

المبحث الخامس: معظم العرب الفلسطينيين مسلمون

أما عن تركيبة سكان فلسطين العرب دينيا، فلنا أن ننقل هنا عن كتاب (العالم العربي، أطلس معلومات)، للمؤلفين النصرانيين رفيق البستاني وفيليب فارج[1]، والذي أصدره مؤلفاه بالتنسيق مع البعثة الفرنسية للأبحاث والتعاون، والذي كتب مقدمته المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون[2]؛ ففيه عرض قائم على دراسات إحصائية سكانية، ومعلومات متخصصة في المجالات الاجتماعية والجغرافية والسياسية في العالم العربي، ونحن نُلخص منه بعض ما له علاقة ببحثنا هذا..

ونرى أن نبدأ بذكر عدد النصارى في الوطن العربي كله، يقول الكاتبان النصرانيان: ((**الشرق العربي مهد الإسلام وأرضُه**، ومع ذلك ففيه مالا يقل عن ثلاث عشرة طائفة

---

(١) والمؤلفان نصرانيان، وهما من أهل المعرفة بالدراسات السكانية، فعلى الغلاف الأخير لكتابهما المذكور تعريف بهما، نوجز منه أن **البستاني مدير مشروع أديب للمعلومات عن العالم العربي بباريس، وهو يحمل الدكتوراة في الجغرافيا، وقد عمل استشاريا دوليا في شؤون التخطيط والتصميم العمراني، وأما فيليب فارج فهو باحث بالمركز القومي للدراسات السكانية بباريس، وهو مدير مركز الدراسات والوثائق الاقتصادية والقانونية بالقاهرة**، وله العديد من المؤلفات عن سكان العالم العربي، منها كتاب: (المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي، العربي والتركي) شاركه في تأليفه: يوسف كرباج؛ ونقصد من وراء تعريفنا بالمؤلفَين بيان أنهما ليسا طارئين على الدراسات السكانية، بل هي صُلْبُ عملهما، بل لقد قال المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون، الذي كتب مقدمة للكتاب: ((فمؤلفاه من الباحثين المتمرسين في هذا المجال، وهما يسيران في معلوماتهما بحذر، مما يحمي قراءهم من الانزلاق إلى نتائج خاطئة..)).

(٢) وقد قال في تقديمه هذا الكتاب الذي نحن بصدده واصفا إياه: ((وهذا الأطلس سيساعد الجمهور على تكوين معرفة دقيقة وصحيحة إلى أكبر حد ممكن اليوم بأمور يعسر فهمها))، ((وهذا الأطلس وما اشتمل عليه من تعليقات صائبة، هو أساس صلب متين، يمكن للمرء أن يبني فوقه أفكاره..)).

مسيحية، **تضم حوالي سبعة ملايين مسيحي**))[1]، وهذا سيصدم من يخالفون هذه الحقيقة، والذين يصوِّرون النصارى كما لو كانوا يشكلون نسبة كبيرة هائلة في الوطن العربي، تخوِّلهم تولِّي الأمور السياسية في بعضه، وخاصة أن المؤلفَين من النصارى، ومن المتخصصين؛ ويقول المؤلفان أيضا عن سكان العالم العربي جملةً: ((**وإذا ما تحقق أمل البلدان العربية، فتوحدت جميعُها في دولة واحدة، فإن عدد سكانها سيكون [٢٣٥] مليون نسمة.**.))[2]، **وهذا يعني أن نسبة النصارى العرب إلى مجموع العرب هي ٣.٣٥%**.

ولنا أن نتحوَّل هنا إلى الحديث عن السكان في فلسطين، مع شيء من الحديث عن السكان العرب عموما.

فتحتَ عنوان: أقلية في تناقص مستمر قال المؤلفان[3]: ((لقد لوحِظَ منذ عام ١٩٣٩م أن القبطيات أقل إنجابا من المسلمات، وهذه ظاهرة موجودة لدى كل مسيحيي الشرق، وبخاصة في إسرائيل، **فقد حافظ مسلمو إسرائيل خلال ربع القرن المنصرم على نسبة إنجاب أعلى مرتين من نسبة إنجاب المسيحيين**، وهذه الأخيرة تقل في إسرائيل عن نسبة إنجاب اليهود، **وهكذا فإن القنبلة السكانية الفلسطينية هي في المقام الأول قنبلة**

---

(١) العالم العربي، (٣١)، وبالمناسبة، ففي الكتاب أن عدد الأقباط في مصر لا يتجاوز ثلاثة ملايين ونصف المليون، أي **٦%** من المصريين، تُنظر خارطة الأقليات الدينية في الكتاب، (٢٩)، وفي الصفحة، (٣٢)، يردّ المؤلفان على دعوى بعض الأقباط الذين يدّعون أن نسبتهم في مصر أكثر مما ذكرا؛ وعلى هذا فالنصارى المصريون هم أكبر تجمع للنصارى في العالم العربي.

إننا نُذكّر أن المؤلفَين نصرانيان متخصصان!

(٢) المرجع نفسه، (٣٨)، ونودّ أن نلاحظ أن الكتاب صدر عام ١٩٩٣م، وعلى هذا، فما لم يذكر المؤلفان سنة الأرقام التي ننقلها، فهي في فهمنا ترجع إلى سنة إصدار الكتاب، فإن كان ثمة تاريخ محدد ذكراه، فإننا نذكره تبعا.

(٣) العالم العربي، (٣٣)، مع ملاحظة أن تسويد الكلمات التي يراها القارئ مسوَّدة في النصوص جميعها التي نقلناها عن هذا الكتاب هو من عندنا.

إسلامية))، وفي رسم بياني مجاور لهذا النص الذي نقلناه، يتضح أن **متوسط عدد الأطفال لكل امرأة مسلمة في إسرائيل عام ١٩٨٧م هو أقل من خمسة أطفال بقليل، بينما المتوسط عند النصرانية هو أكثر من طفلين ونصف بقليل.**

وهذه الأرقام تتحدث عن نفسها بنفسها، دون الحاجة إلى مزيد بيان.

لكن في كتاب (المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي)(١) نقرأ عن الخصوبة الإنجابية عند النصارى والمسلمين في فلسطين ما يلي: ((وفي ظل الانتداب،...، **فقد كان المسيحيون يُنجبون خمسة أطفال، وكان المسلمون يُنجبون ثمانية أطفال، وفي ظل الإدارة الإسرائيلية تتسع الهوة قبل أن تضيق، وفي بداية السبعينيات ترتفع الخصوبة بين المسلمين إلى أكثر من تسعة أطفال للمرأة**))، إن الاختلاف فيما نقلناه عن كتاب المسيحيون واليهود وعن كتاب العالم العربي أطلس معلومات، هو اختلاف في الفترات الزمنية، فلكل فترة نسبة خصوبة تتعلق بها.

وفي التعليق من المؤلفَين على هذه النقطة، في صفحة الهوامش (التعليقات)(٢) يقولان: ((لا يبدو أن أية جماعة سكانية قومية قد عرفت قط مثل هذه الخصوبة، إن كينيا التي جرى تقديمُها على أنها تتميز بمؤشر قياسي نحو عام ١٩٨٠م، كان مؤشرُها آنذاك يساوي ٨.٥))، أي أن أعلى نسبة خصوبة في العالم هي لدى المرأة الفلسطينية، أو هي المرأة المسلمة الفلسطينية، وفقا لما نقلناه قريبا عن مؤلفَي (العالم العربي، أطلس معلومات): ((وهكذا فإن القنبلة السكانية الفلسطينية هي في المقام الأول قنبلة إسلامية)).

ويقول مؤلفا كتاب (المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي)(٣)،

---

(١) للمؤلفَين فيليب فارج ويوسف كرباج (٢٦٨) ويلاحظ أن أحد المؤلفين وهو فيليب فارج هو أحد مؤلفَي كتاب (العالم العربي، أطلس معلومات).

(٢) في الصفحة ٣١١.

(٣) في الصفحة (٢٦٩)، ويفسر المؤلفان كرباج وفارج هذا التفاوت الكبير في نسبة مسلمي فلسطين ونصرانييها بقولهما: ((ويتجه المسيحيون بشكل مطرد إلى خيار النجاح الفردي، أما السكان

وهما نصرانيان: ((وفي عام ١٩٨٩م، حينما أخذت تتصاعد منذ أكثر من عام صيحات الانتفاضة، وحينما بدا أن علمانية منظمة التحرير الفلسطينية تتلاشى أمام إسلامية حماس، فإن الخصوبة تصل في غزة إلى قمة مطلقة: فالمرأة الفلسطينية إذ تُنجب في تلك السنة ٩.٥ أطفال في المتوسط، تقدم مساهمة كبرى في معركة البشر)).

وفي استخدام المؤلِّفَين لتعبير: ..مساهمة كبرى في معركة البشر، معنى نستشفّه من الكاتبَين المتخصصَين، إذ إن جزءا كبيرا من عناصر المعركة، هي في جانب الثِّقَل البشري الذي يملكه، أو يستطيع أن يملكه الفرقاء المتصارعون..

ونتابع مع المؤلفَين: ففي التعليق منهما على هذه النقطة أيضا، يقولان في صفحة الهوامش[1]: ((**في عام ١٩٩٠م زادت الخصوبة زيادة أكبر في غزة، لتصل إلى ٩.٦ طفل للمرأة الواحدة**)).

وهذا الكلام في نسبة خصوبة المرأة الفلسطينية سيكون قطعا لصالح المرأة الفلسطينية المسلمة، كما قد أشرنا قريبا، وكما سيتضح أيضا فيما يلي..

إن العدد الإجمالي للنصارى في فلسطين كلها عام ١٩٨٣ هو: [**٩٩٥٢٥**] أي بنسبة **٢.١٠%، رغم أن عددهم كان عام ١٩٤٩م [٩٣.٠٠٠]، أي بنسبة ٥.٢٦% من مجمل السكان**[2]، هذا حسب فيليب فارج ويوسف كرباج.

المسلمون في غزة والضفة الغربية من جهة، وعرب إسرائيل من الجهة الأخرى، فهم يعلقون كل آمالهم على الأسرة، إلا أنه في حين أن الأوائل يراهنون على البعد الضخم لرابطة الرحم، فإن الأخيرين، والمسيحيين من بينهم خاصة، يراهنون على الصعود الاجتماعي لأبنائهم، والمتناقض كما نعرف مع أعدادهم))؛ تُنظر الصفحة ٢٧٠ من كتاب: (المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي).

(١) في الصفحة ٣١١.

(٢) كما في الجدول رقم ٣ الملحق بالفصل الثامن من كتاب المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي.

وحسب الدكتور محسن يوسف، تطوّرت النسب السكانية لدولة إسرائيل حسب دينِ كلٍّ ابتداءً من عام ١٩٤٩م وحتى عام ١٩٩٨م وباستثناء سكان القدس الفلسطينيين: "..**يُستنتج أن نسبة المسلمين لمجموع سكان الدولة قد ارتفعت من ٩.٥% عام ١٩٤٩م لتصبح ١٢.٥% عام ١٩٩٨م، ونسبة الدروز ارتفعت من ١.٣% عام ١٩٤٩م إلى ١.٧% عام ١٩٩٨م، أما نسبة المسيحيين العرب فقد انخفضت من ٢.٩% عام ١٩٤٩م إلى ١.٦% عام ١٩٩٨م**،..، وفيما يتعلق بالمسيحيين غير العرب وهؤلاء الذين لم يُصنفوا أنفسهم دينيا فقد بلغت نسبتهم **٢.٤%** عام ١٩٩٨م"، والمقصود بالمسيحيين غير العرب، كما بيَّن الدكتور محسن يوسف، أولئك المسيحيون المهاجرون من الاتحاد السوفياتي ضمن اليهود المهاجرين من هناك، إذ هاجر هؤلاء على اعتبار أنهم يهود، فتبين أنهم مسيحيون، وعليه، فهم يختلفون عن المسيحيين الفلسطينيين، **فالمسيحيون الفلسطينيون وطنيون، وأما هؤلاء القادمون على اعتبار أنهم يهود، فهم ليسوا من أهل فلسطين أصلا، وبالتالي فهم غير وطنيين.**

وكان الدكتور محسن يوسف قد بين أن عدد المسلمين في دولة إسرائيل عام ١٩٩٨م بلغ [**٧١٥.٠٠٠**] والدروز [**٩٧.٨٠٠**] والنصارى العرب[**٩٤.٠٠٠**][(١)]، والمقصود بدولة إسرائيل هنا: المنطقة الفلسطينية المحتلة عام ١٩٤٨م.

في ضوْء هذه الأرقام التي نقلناها، التي ربما يكون بينها بعض الاختلاف، حسب اختلاف المصادر وربما الفترات الزمنية أيضا؛ يظهر بوضوح حاليا أنه يغلب على السكان الفلسطينيين العرب غلبةً قويةً الدينُ الإسلامي؛ وكان الأساتذة الكُتّاب الذين نقلنا عنهم

---

(١) وكان الدكتور محسن يوسف قد بين أن عدد هؤلاء المسيحيين غير العرب هو [**٢١.١٠٠**]، وأما الذين رفضوا أن يُفصحوا عن ديانتهم، ويُعتقد أن أغلبهم مسيحيون من دول الاتحاد السوفياتي السابق، فقد بلغ عددهم عام ١٩٩٨م [**١١٨.٢٠٠**] يُنظر مقالُه بعنوان قراءة في الخارطة السكانية لإسرائيل، نشرته مجلة قضايا إسرائيلية في عددها (٢) الصادر في ربيع عام ٢٠٠١م.

ومرجع الدكتور يوسف هو: Statistical Abstract of Israel. No (51) Jerusalem

يركِّزون في بيان أسباب تراجع عدد السكان النصارى العرب من أهل فلسطين إلى تراجع نسبة المواليد النصارى، وهذا السبب صحيح إلى حدٍّ ما، غير أنه يُغفل سببا آخر، لا يقل عنه أهمية إن لم يزد عنه أهمية، وهو أن نسبة الهجرة النصرانية من فلسطين عالية، إذا ما قورنت بقرينتها الإسلامية، ولقد قرأت في جريدة الفجر المقدسية في عدد من أعدادها الصادرة في أحد أيام عام ١٩٩٢م[١] مقالا للدكتور برنارد سابيلا الأستاذ في جامعة بيت لحم، **يذكر في مقاله خطورة وضع النصارى في منطقة القدس بسبب الهجرة النصرانية الكثيفة منها، حتى أدى الأمر بعدد النصارى إلى تراجع مخيف، وهو في مقاله يناشد النصارى التمسك بالبقاء في القدس**[٢].

إن الأكثرية الساحقة من سكان فلسطين العرب هم من المسلمين، ولا يعني هذا رفض حقوق النصارى الفلسطينيين في المواطنة وحقوقها، فلكلامنا معنى آخر، لا مجال للخوض فيه هنا!

(١) لم أحتفظ بهذا العدد للأسف، ولذا فأنا ناسٍ تاريخه، ولي رجاء ممن يعرف عن هذا العدد أو المقال شيئا أن يدلني عليه وله وافر الأجر من عند الله تعالى.

(٢) ولا بد نتطرق هنا إلى محاولة فاشلة قام بها بنيامين نتنياهو، حاول من خلالها أن يثير بين المسلمين والمسيحيين في فلسطين فتنة تشغلهم عن صراعهم الأكبر مع مغتصبي الأرض..

إن نتنياهو أكد في كتابه: مكان تحت الشمس، أن الانتفاضة السابقة، أعني انتفاضة ١٩٨٧م، كانت ذات طابع مُعادٍ للمسيحيين، وذلك بهدف مكذوب يطرحه نتنياهو، وهو: ((إرغام المسيحيين على بيع ممتلكاتهم إلى المسلمين، وترك الأرض المقدسة،...، فقد كتب القس جورج أبو حزان في الصحيفة الكاثوليكية (تراسنطة) أن الدول العربية دفعت بأموال كثيرة إلى الضفة الغربية بهدف أسلمة البلاد، وأعرب عن خشيته من انقراض الوجود المسيحي في الأرض المقدسة))، يُنظر: مكان تحت الشمس، تأليف: بنيامين نتنياهو، ترجمة: محمد عودة الدويري، (١٩٧).

ونحن نعلم يقينا أن الأنظمة العربية ليست معنية أبدا بأسلمة فلسطين أو سواها، فهي، أعني هذه الأنظمة، تخشى أصلا من أن يسحب الإسلاميون البساط من تحت أزلامها، ولا نحسب هذا الذي نقله نتنياهو عن أبي حزان إلا من نوع الاصطياد في الماء العكر، فليس الأمر ماذا يقول أبو حزان، ولكن الأمر: ماذا يقول النصارى أنفسهم؟ ولا أحسبهم يؤيدون جورج أبو حزان، إن صح النقل عنه.

الباب الثالث:

علم الآثار وفلسطين القديمة، بين الانحياز والموضوعية

فرح اليهود بدخول علم جديد في ميدان الصراع، هو علم الآثار، ورأى اليهود أن هذا العلم سيحسم أمر فلسطين القديمة لصالحهم، ورأوا أن هذا الحسم لانتماء فلسطين القديمة، سيسهم في حسم انتمائها حديثا لليهود وحدهم، وساهم البروتستانت (اليهودُ عقلا) في الأمر إسهاماً فعالاً، واستطاع اليهود والبروتستانت تجيير كثير من علماء هذا الفن الجديد نسبيا لصالح فكرهم، ولإثبات صحة الاستناد على التوراة في قضايا التاريخ.

لكن كارثة حلّت بهم لم يحسبوا حسابها، ولم تخطر لهم على بال..

فلا الذين جُيِّروا لصالح التوراة نجحوا في جعلها مستندا تاريخيا، ولا بقي الأمر في يد المزوِّرين وحدهم، بل قامت طائفة من علماء الآثار لتكشف الزيف، وهكذا كان قضاء الله تعالى ألا يجد الباطل نصيرا على الحق أبدا.

إن علم الآثار من أهم العلوم الكاشفة عن الماضي، والمسهِمة في كشف الخلل الذي قد يقع في تصور هذا الماضي، وإننا هنا نحاول أن نتعرف على كشوفات هذا العلم التي أقلقت اليهود، بعد أن ظنوا أنه لن يقول إلا ما يُملى عليه من قِبلهم.

وكنا في الباب الثاني قد تعرضنا لعلم الآثار، ورؤاه فيما يتعلق بالحضارة العربية والوجود العربي القديم في فلسطين عامة وبيت المقدس خاصة، وسنتحدث في الباب الأخير إن شاء الله تعالى عن علم الآثار أيضا لكن من جهة كشفه لعجز التوراة عن أن تكون كتاب تاريخ يُعتمد في البحث العلمي التاريخي.

لكننا هنا، وفي البداية لا بد لنا من التعرف على بعض تزويرات الذين حاولوا تجيير علم الآثار لصالح اغتصاب فلسطين من أهلها، ثم نُتبع ذلك كله بالحديث عن تحوُّلٍ واضحٍ في علم الآثار نحو إظهار الحقيقة.

في بضعة فصول متتالية سنتباحث مع علم الآثار، وسنتحاور مع الأرض، ومع مخزونها التاريخي الكبير.

وسنبين هنا موقع علم الآثار في المعركة على فلسطين، ونحن مضطرون أن نتعـــرف على العمل غير الأمين الذي شاء أصحابه أن يجيِّروا به علم الآثار لصالح أفكار توراتية، ثم سنتبع كل ذلك بالرد الواضح، إن شاء الله تعالى.

الفصل الأول: تحيُّزُ جماعة علماء الآثار[1]

إنه يُفترض في عالِم الآثار أن يَستنطق الشواهد التي تتحدث عن الغابرين، لتنطق بما تُريد هي لا بما يريد هو، ولتنطق بما لديها من حقائق التاريخ، لا بما تُلقَّن.

لكن الأمر إذا تعلق بإسرائيل وأبواق إسرائيل من الباحثين البروتستانت على وجه الخصوص، ومن تبعهم على نهج التزوير، فإنه يراد من علم الآثار أن يُلقَّن شهادة تنطق بما يهدف إليه المشروع الغربي من إقامة دولة إسرائيل قبل أن تقوم، وبما تريد إسرائيل أن

---

(١) لقد كان من الضروري البحث في قضية سرقات الآثار من البلاد العربية عامة، ومن فلسطين وبلاد الشام والعراق خاصة، ولعل هذا الفصل يجد له طريقا إلى الضياء، بل لعل الأضواء قد تسلطت عليه من قبل باحثين ينتمون فعلا إلى ثقافتنا وحضارتنا.

ولمجرد الإشارة فحسب، فقد اتُّهم موشي دايان بأنه قام بتصدير بعض القطع الأثرية من مجموعته الخاصة، إلى الولايات المتحدة الأمريكية، بطريقة غير مشروعة، وذلك لبيعها لأغنياء اليهود هناك. يُنظر: (آثار فلسطين لحمادة ١٤٤).

وسرقت إسرائيل أثناء حرب حزيران من عام ١٩٦٧م كميات كبيرة من المخطوطات المعروفة باسم مخطوطات البحر الميت من متحف فلسطين، يُنظر: (المرجع نفسه، ٧٨) وكان المستشرق الألماني يوهان لودفيغ بوركهارت، المتوفى سنة ١٨١٧م، والذي تخفى بزي مسلم هندي، وتسمى باسم عربي (الشيخ إبراهيم بن عبد الله) كان هذا قد نقل إلى جامعة كمبريدج البريطانية ثمانمائة مخطوط عربي، لا نعلم كيف حصل عليها، ينظر: (المرجع نفسه، ٧٠) وقد استطاع المستشرق البريطاني إدوارد بوكوك خلال إقامته في الشرق أن يحصل على عدد كبير من المخطوطات، والتي اشتراها فيما بعد مكتبة البودليان المعروفة في جامعة أكسفورد، ينظر (المرجع نفسه، ٧٢).

وقد ذكر الأستاذ حسين عمر حمادة أيضا في كتابه (المرجع نفسه، ٧٥) مقتطفات من حوار مع العالمة الآثارية الألمانية هليغا زيدن أجرتها معها جريدة تشرين السورية في عددها الصادر بتاريخ ١٩٨٣/١/١٧م، وكان الحوار بعنوان: أغلب الآثار المعروضة في المتاحف الألمانية مأخوذة من المنطقة العربية.

تنطق به بعد أن تقوم؛ ومن هنا، ولإنجاح مشروع الخرافات والأساطير في عالَم التنظير، قام كثير من علماء الآثار بإلقاء ثوب عن كاهلهم هو أكبر منهم بكثير، ألا وهو ثوب الأمانة العلمية(١).

ولقد شاؤوا أن يستروا الحقيقة، وأن يجيِّروا علما كبيرا لإخفائها؛ لكنَّ السؤال الذي يُطرح، ويبقى مطروحا بقوَّةٍ، وله جلجلة يسمعها القاصي والداني: هل استترت الحقيقة إلى الأبد وراء الأهداف الصهيونية؟

سيرى القارئ الجواب ماثلا أمامه، سيراه وهو يتحدث فعلا عن الحقيقة التي أُريدَ سترُها، والتي ستُطِلُّ من وراء الأستار الكثيفة معلِنةً عن ذاتها، بل إنها ستمزِّق هذه الأستار الكثيفة.

وإلى أن تتمزق هذه الأستار، فلا بد أن نكشفها للعيان أولا، عبر التعرف على محاولات حثيثة ومستميتة من أجل إبقائها.

هذا، وبما أن هذا الفصل سيتخصص في كشف التحيُّز لدى كثير من الآثاريين، فقد جعلته في مباحث ثلاثة، هي:

المبحث الأول: الاعتراف بهذا التحيُّز.

المبحث الثاني: أمثلة من الآثاريين المتحيّزين وتأثيراتهم.

المبحث الثالث: جهة التحيُّز التي يميل إليها هؤلاء العلماء.

---

(١) يلاحظ الدكتور معاوية إبراهيم في بحثه: فلسطين من أقدم العصور، (١٤/٢)، أن المواقع الأثرية السابقة على الوجود التوراتي، تُذكر حين اكتشافها والتنقيب عنها بإيجاز، وتحت ملاحظات قصيرة، بخلاف المواقع المصنفة تحت اسم توراتي، فإنها تنشر بمبالغات كبيرة، وبلغات متعددة، وبصورة واضحة.

المبحث الأول: الاعتراف بالتحيّز

نحن لا نرى مانعا من البحث في العلوم المعاصرة لإثبات حقائق دينية، بشرط واحد: **ألا نلوي أعناق هذه العلوم من أجل إثبات هذه الحقائق**؛ أي: لا بأس في تقديرنا من ترك العلوم المعاصرة، ومنها علم الآثار، تتحدث بما لديها دون إلزامها برؤية معينة، ثم بعد ذلك يُنظر فيما بينها وبين المسائل والعقائد الدينية من اختلاف أو اتفاق؛ فإن حظيت المسائل الدينية بموافقة هذه العلوم، كان ذلك دليلا على استقامة النص الديني، وعلى صحة انتسابه إلى السماء، وإلا فلا!.

إن أهداف الآثاريين التوراتيين تقصد إلى إخضاع العلم للرؤى المسبقة، ولا تقصد الخضوع للعلم، وإن أهدافا تقصد هذا المقصد غير بريئة أبدا في مقرراتها إلا إن تخلصت من الأهداف المسبقة، **إلا إن كان الهدف المسبق هو السير مع الحقيقة حيثما تكون، فثمة فقط يكون العلم موضوعيا**.

ومسألة التحيُّز التي نحن بصددها تبدو للعيان غير متخفِّية، وهي بذاتها تعلن عن نفسها رغم محاولتها التخفّي، وسنرى في هذا المبحث مصداق هذا الذي نقوله..

فلنقرأ -ابتداءً- هذه الشهادة، أو بالأحرى الاعتراف، الصادر من أعلم أهل زمانه بالدراسات التوراتية الآثارية، وهو من أكثر الآثاريين المنحازين لصالح تجيير المكتشفات الأثرية لإثبات الحق التاريخي الإسرائيلي المُدَّعى، وهو وليام فكسويل أولبرايت، والذي كرَّمته إسرائيل لأعماله العلمية[1]، وستأتي قريبا تفصيلات مهمة عنه.

يقول أولبرايت هذا: "..ومن الصحيح أن الاهتمام الديني بالتوراة هو الذي جذب بعض علماء الآثار إلى فلسطين، وأن بعضهم الآخر كانوا في الأصل باحثين في الدراسات

(١) اختلاق إسرائيل القديمة، (١٥٢).

التوراتية أساساً، ويشهد الكاتب نفسه[1] بأنه عرف العديد من هؤلاء الباحثين، **ولكنه يستطيع أن يجزم بأنه لا يكاد يذكر حالة واحدة لمؤرخ لم تؤثر آراؤه الدينية تأثيرا بالغا فيما توصل إليه من نتائج**؛ بعض هؤلاء العلماء كان نقدُه جذريا، وبعضُهم الآخر كان نقدُه أكثرَ تحفُّظاً، مثل أرنست سلين، أما البعض الآخر فكان متحفِّظاً بشدة؛ **إلا أن النتائج التي استخلصوها جميعاً من هذه المكتشفات الأثرية كانت مستقلة عن آرائهم النقدية**))[2].

فما دامت الآراء الدينية، التي هي آراء توراتية، ما دامت مهيمنة كل هذه الهيمنة على الباحثين الآثاريين، وما دام نُقّادُهم لم يستفيدوا من دراساتهم النقدية فيما استخلصوه من نتائج، بل بقُوا أسرى الرؤى التوراتية، إذن، فلسوف تكون النتائج توراتية حتماً، لتؤكد حق اليهود في أرض الميعاد، ولتؤكد السبق الإسرائيلي في هذه الأرض، وجوداً، أو وجودا وحضارةً..

إن كلام أولبرايت هذا يكفينا في إثبات التحيُّز لدى علماء الآثار في بحوثهم وتنقيباتهم في الأرض الفلسطينية، ولكننا نواصل الحديث في الموضوع ذاته، فثمة ما يجب أن يقال..

ففي اعتراف زئيف هيرتسوغ أحد كبار علماء الآثار الإسرائيليين تأكيد جديد جدا لطابع التحيّز؛ يقول هيرتسوغ: ((**الدفعة الأساسية للأبحاث الأثرية في أرض إسرائيل كانت دينية**))[3]، أي لإقرار الرؤى الدينية التوراتية التي يغلب عليها البحث عما يؤيد جعل الأرض المقدسة لليهود، بسبب الحق التاريخي أو الوعد الديني، أو كليهما.

ويصور داني رابينوفتش علم الآثار الإسرائيلي تصويرا مهولا، فقد نشر في جريدة

---

(١) يقصد أولبرايت هنا نفسه.

(٢) نقلا عن وايتلام في كتابه (اختلاق إسرائيل القديمة ٩٦).

(٣) من مقال له نشرته الهآرتس يوم الجمعة (١٩٩٩/١٠/٢٩) ونشرت ترجمة المقال الحياة الجديدة (١٩٩٩/١٠/٣٠).

هآرتس الإسرائيلية مقالا قال فيه: ((**إن علم الآثار، خلافا لِما يعتقده الكثيرون، ليس علما نقيا حياديا**، ويظهر الطابع السياسي للباحث في التاريخ، في القدس أكثر من أي مكان آخر، حيث إن رسم معالم القدس القديمة منذ العام ١٩٦٧م متأثر بالمصالح السياسية، والتفسيرات التاريخية والاتجاهات العلمية، وسلم الأولويات في الميزانية والمصالح الاقتصادية؛ إن الجدل حول صورة الماضي هو جدل أيديولوجي وسياسي،...، **إن علم الآثار الإسرائيلي هو كغيره من العلوم، علم انتقائي، يكشف ويُظهر ما يريد ويُخفي ما يريد**))(١).

وثمة شهادات واعترافات أخرى ذات قيمة كبرى في هذا المجال، منها قول الدكتورة شلوميت جيفا، أستاذة الدراسات اليهودية في جامعة تل أبيب: ((**لقد أُريدَ لعلم الآثار اليهودي أن يكون أداة للحركة الصهيونية بكل التعسف**))(٢)، وقول السير هنري مكماهون، بطل مراسلات (الحسين مكماهون): ((**لقد تحول علماء الآثار كلهم إلى ضباط مخابرات**))(٣).

ولا أرى من داعٍ للإطالة هنا، فسيأتي في فصلين قادمين كلام كثير على التحيّز، عبر الحديث عن صندوق استكشاف فلسطين البريطاني، وكذلك عبر الحديث عن تسرُّع بعض الآثاريين في تفسير ما يرونه من آثار بحيث يطابق النصوص التوراتية، وإنما أردت هنا أن أذكر نصوصا اعترافية على مسألة التحيّز هذه.

إن المشكلة ليست في علم الآثار ذاته، بل فيمن يُخفون ما تقذفه الأرض إن كان يخالف وجهتهم، ويُبدون ما خفي من باطنها إن كان يؤيد وجهتهم، ويؤوِّلون ما يرون مما تُرسله الأرض من رسائل وفق أهدافهم هم.

---

(١) جريدة الهآرتس الإسرائيلية، نقلا عن: القدس ٥٠٠٠، (٨٨)، وهي الورقة التي قدمها الدكتور ناصر الدين الأسد للأكاديمية المغربية في الفترة من ٦-٨ شعبان ١٤١٩هـ.

(٢) ذكر كلام شلوميت جيفا الأستاذ حمدان حمدان في كتابه: اغتيال التاريخ، (١٠).

(٣) ذكر كلام مكماهون الأستاذ حمدان حمدان في: المرجع نفسه، (٤٥).

وسنرى أن هذا التحيُّز لم يستمر إلى الأبد، بل لقد قام علماء آثاريون يهود وغربيون يكشفون الحقيقة، وإنما سمَّيناها حقيقة، لأنهم قالوها رغم مخالفتها لعقائدهم، مما يؤكد مصداقيتها!

المبحث الثاني: أمثلة من الآثاريين المتحيِّزين وتأثيراتهم

ولقد انطلق عدد من رجال التخصص في علم الآثار من التوراة، وهم الـذي أُطلـق عليهم لقب: علماءِ الآثار التوراتيين، الذين قادهم التوراة في بحوثهم الآثارية، وجعلوا من تحقيق مضامينها هدفا آثاريا(١)، فكانت الآثار عندهم خادما ملويَّ العنق لصالح الخرافات التوراتية.

وسيأتي في الفصل القادم الذي جعلناه يتخصص ببحث صندوق استكشاف فلسطين البريطاني، سيأتي فيه مزيد من الأمثلة على أولئك الحافرين الآثاريين التوراتيين المتحيِّزين إلى جهة التوراة والاستعمار البريطاني معاً..

ولكننا نذكر هنا بعضا ممن لن نذكرهم في الفصل القادم..

فمن علماء الآثار التوراتيين هؤلاء: العالِم الآثاري رايت، صاحب الكتاب الشـهير: علم الآثار التوراتية(٢)؛ وكذلك نذكر العالِم الآثاري برايت الذي ألف كتابـا بعنـوان: تاريخ إسرائيل، ويصف وايتلام هذا الكتاب بأنه: ((**المرجع الرئيسي المعتمد في التـاريخ الإسرائيلي وفي الجامعات البريطانية والأمريكية**))(٣)؛ ونوث أحد المتخصصين بالتوراة(١)،

---

(١) وقد جاء هؤلاء إلى فلسطين ((والكتاب المقدس في يد والمِجراف في يد))، ويُسـمى هـؤلاء بالعلماء التوراتيين، تُنظر مقدمة د. سحر الهنيدي لترجمتها لكتاب اختلاق إسرائيل القديمة.

ويُنظر في بعض تفاصيل هذا النهج التوراتي، من خلال أعمال الآثاريين من أقطاب المدرسـة التوراتية: الدكتور معاوية إبراهيم، فلسطين من أقدم عصورها، ضمن أبحاث الموسـوعة الفلسـطينية، قسم الدراسات، (٢/٧-١٤).

(٢) ويرى وايتلام أن رايت اختلق ((تاريخ إسرائيل القديم)) في كتابه المذكور، (اختلاق إسـرائيل القديمة ١٦٢)، وهو القائل إن: ((هناك غاية إلهية من وراء التوبة العامة وسط عالم فاسق، ولمصـلحته، وهو (أي الإله) يكرس الحروب بين البشر لخدمة أهدافه)) (المرجع نفسه ١٦٠).

(٣) اختلاق إسرائيل القديمة، (١٦٥).

وآلت الذي نشر عام ١٩٢٥م كتابا بعنوان: حيازة الإسرائيلي للأرض في فلسطين[٢]؛ ونورمان غوتفالد، الذي ألف كتابا بعنوان: قبائل يهوة، دراسة سيسيولوجية لديانات إسرائيل المحرَّرة، (١٢٥٠-١٠٥٠ق.م.) **وأهداه إلى الإسرائيليين الأوائل**[٣]؛ وجورج مندهال أحد تلامذة أولبرايت في جامعة جونز هوبكنز[٤]، والعضو في حلقة البحث التوراتية ذات النفوذ الواسع[٥]، **وهو لاهوتي بروتستانتي أكثر منه مؤرخا**[٦].

ولقد سبق جميعَ هؤلاء عالمُ الآثار الأمريكي البروتستانتي: وليم فاكسويل أولبرايت[٧]، المولود سنة ١٨٩١م لِأبٍ صقلّي كان يعمل أسقفا[١]، والمتوفّى سنة

(١) المرجع نفسه، (٨٨).

(٢) المرجع نفسه، (١٣٣).

(٣) المرجع نفسه، (١٨٢)، ورغم أن غوتفالد يعترف «بعدم موضوعية خطاب الدراسات التوراتية» ومع ذلك فهو «يظل متمسكا بقوة بذلك الخطاب الذي أسكت التاريخ الفلسطيني» (المرجع نفسه ١٨٣).

(٤) المرجع نفسه، (١٧١).

(٥) المرجع نفسه، (١٧٦).

(٦) التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، تومبسون، (٣٨).

(٧) وأولبرايت أستاذ اللغات السامية في جامعة هوبكنز بالولايات المتحدة الأمريكية، وقد أدار المدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية في القدس، ويتقن لغاتٍ سامية ومصرية عديدة، وهو عضو فخري في الجمعية الآسيوية والبريطانية لدراسة التوراة (آثار فلسطين، حسين عمر حماده، (٢٤).

هذا، وقد تحول اسم المدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية إلى اسم: معهد أولبرايت، فلسطين من أقدم عصورها، معاوية إبراهيم، (٢/١٥).

وقد نقب أولبرايت في تل بيت مرسيم، إلى الجنوب الغربي من مدينة الخليل، تلك التي استمرت تحت إشرافه لأربعة مواسم بين ١٩٢٦-١٩٣٢م، وكذلك عمل في خربة الطبيقة، على الطريق بين القدس والخليل. (نفس المرجع ٢/١٢).

ويذكر روجيه جارودي في كتابه (فلسطين أرض الرسالات الإلهية ٧٢) أولبرايت هذا، ويقول عنه إنه: «متخصص مشهور في فلسطين، كان مديرا (للمدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية) في

١٩٧١م، وهو ذو المكانة الكبرى إسرائيليا وأمريكيا، **والموصوف بأنه أعظم الآثاريين التوراتيين في القرن العشرين**[٢]، **وهو ذو المعرفة التي لا نظير لها في المكتشفات الأثرية في فلسطين**[٣]، ولقد كرمته إسرائيل لأعماله العلمية، ولدوره في مساعدة العديد من اللاجئين اليهود على الفرار من الاضطهاد النازي[٤]، بل لقد أصدر اليهود مجلدا خاصا في تخليده، ومما ورد فيه: ((**لن يجد اليهود والإسرائيليون صديقا مثلما وجدوه في وليم أولبرايت**))[٥]، **وخصصت إسرائيل المجلد (١٩) من مجلة أرض إسرائيل تخليدا لذكراه بعد وفاته**[٦]، **ولقد أثّرت أفكاره في جيل كامل من الباحثين**[٧].

إن أولبرايت هذا ذو قدرة علمية باهرة[٨]، لكنه استغلها لتجيير الآثار لصالح التوراة،

القدس،...، وألبرايت هو مؤلف كتاب عن تركيب (علم الآثار في فلسطين)،...، وذلك فضلا عن دراساته الوافية لحفرياته، ولا سيما في تل أبيب)).

(١) من مقال لعالم الآثار الإسرائيلي زئيف هيرتسوغ، نشرته الهآرتس يوم الجمعة (٢٩/١٠/١٩٩٩) ونشرت ترجمة المقال الحياة الجديدة (٣٠/١٠/١٩٩٩).

(٢) كما ذكر كيث وايتلام في ورقته المقدمة إلى أبحاث الندوة السابعة ليوم القدس، عمان، ٥-٨ تشرين الثاني ١٩٩٦م، بعنوان: البحوث الغربية والتعمية على التاريخ الفلسطيني، (١٦٠).

(٣) كما ذكر كيث وايتلام في اختلاق إسرائيل القديمة، (١٤٣).

(٤) المرجع نفسه، (١٥٢).

(٥) يُنظر: دكتور معاوية إبراهيم، فلسطين من أقدم العصور، (٢/١٠).

(٦) الموسوعة الفلسطينية، القسم المعجمي، (١/٨) .

(٧) كما ذكر الأستاذ فراس السواح في كتابه آرام دمشق وإسرائيل، (٤٩).

(٨) إن قدرات أولبرايت هذا لم تمنعه من أن يكون أحد أهم المنظرين لقتل البشر، ونحن لا نستغرب أبدا خروج هذا النفَس الإرهابي والعنصري المحض من أدمغة وألسنة علماء طمسوا نور العلم بعنصرياتٍ منبعُها التوراة المحرّفة، ينقل الأستاذ جارودي في كتابه (فلسطين أرض الرسالات الإلهية ٧١-٧٢) عن كتاب: من العصر الحجري إلى العصر المسيحي لأولبرايت قوله: ((ونحن الأمريكيين، ربما كنا أقل حقا من أغلب الأمم الحديثة، برغم نزعتنا الإنسانية الصادقة!!!؛ في أن نحكم على الإسرائيليين في القرن الثالث عشر ق.م.، **فلقد أَبَدْنا عن عمد أو غير عمد آلاف الهنود في جميع أرجاء بلدنا**

وخالف بذلك علم الآثار نفسه!

ونستبق الردود على هذا التحيّز الذي عُرف أولبرايت وأقرانه به، بما قاله وايتلام معقبا على ادعاءاته: ((وما يثير السخرية أن المكتشفات الأثرية الحديثة ذاتها، من الحفريات والدراسات الاستطلاعية في المنطقة، **هي نفسُها التي قوّضت بشكل كامل رواياته المختلقة عن الماضي**))(١).

الكبير، وجمعنا كل من بقي منهم في معسكرات كبرى للتجميع))، فأين الإنسانية الصادقة المُدَّعاة؟! وجاءت ترجمة كلام أولبرايت في كتاب وايتلام اختلاق إسرائيل القديمة، (١٤٥): ((**ووضعنا البقية الباقية منهم في معسكرات الاعتقال**)).

ويواصل جارودي نقله عن أولبرايت ذي النزعة الإنسانية الصادقة! فيذكر أنه قال : ((إن فلسفة التاريخ التي هي قاضٍ متجردٌ نزيه، **غالبا ما ترى من الضروري اختفاء شعبٍ ذي مستوى دنيء، كيما يُخليَ مكانه لشعبٍ يتمتع بميزات وملكات راقية**، إذ إن اختلاط الأجناس يُصبح كارثة عند مستوى معين))، وجاء تعبير أولبرايت فيما نقله عنه وايتلام في كتاب: اختلاق إسرائيل القديمة، (١٤٥): ((**يبدو أن من الضروري في أحيان كثيرة اختفاء شعب ذي مستوى متدنٍّ إلى حد بعيد ليحل محله شعب ذو صفات متفوقة**، حيث يتحتم الوصول إلى مرحلة لا يمكن فيها للاندماج العرقي أن يستمر دون حصول كارثة..)).

وقد سمح له هذا الكلام أن يخرج بنتيجة فيما يخص الكنعانيين، فقال: ((لقد كان الإسرائيليون الذين قاموا بالغزو شعبا همجيا، مزوَّداً بطاقة بدائية، وإرادةٍ للحياة شرسةٍ، وكان هذا من أجل المستقبل السعيد للوحدانية، **ذلك أن إبادة الكنعانيين قد حالت دون انصهار شعبين في بوتقة قرابتهما، فربما أدى هذا الانصهار لو حدث إلى إضعاف اليهوية إلى أقصى حد**))، وتعبيره كما نقله عنه وايتلام في كتابه (اختلاق إسرائيل القديمة ١٤٥): ((..**ذلك الاندماج الذي كان سينتج عنه حتما انحطاط القيم اليهودية إلى درجة لا يمكن إصلاحها**..))؛ فلا بد إذن على قوله أن يُبيد اليهودُ شعب كنعان، ليُفلسف الأمر في النهاية، من أجل تبرير ما قد صنعه سلفُه الأمريكيون الأوائل من جرائم في سبيل إبادة الهنود الحمر، ومن أجل تبرير قتل الأمريكيين للبشر في هذا العصر، وتبرير قتل الإسرائيليين للشعب الفلسطيني..

(١) وايتلام في كتابه (اختلاق إسرائيل القديمة ١٥٣).

ثم إن آراء أولبرايت لم تعد تكشف عن تصوُّراته هو، بل إن أثره كبير جدا على أجيال من الباحثين التوراتيين، على حد تعبير وايتلام الذي يقول معقبا على استنتاجات أولبرايت: ((ما يجب أن نتذكره هو أن استنتاجاته وإعادةَ بنائه للماضي، **قد شكلت فيما سبق، ولا تزال تشكل، إدراكَ أجيالٍ من دارسي التوراة والباحثين في هذا المجال، وخاصة الأمريكيين منهم والبريطانيين**))(١)، وعلى هذا، فلا يُستغرب أن نرى العالَم الأمريكي والبريطاني خاصة، والبروتستانتي عامة، يحمل هذه الرؤى التوراتية، ويؤمن بحق إسرائيل في الوجود بناء على هذا السبق التاريخي المزعوم، فلقد استطاع أولبرايت أن يشكِّل وعيه ورؤيته وإدراكه كما يشاء، أو كما تشاء الرؤى التوراتية.

إن تحيُّز هؤلاء يبدو من خلال تأكيدهم على مملكة إسرائيلية قديمة، ليس لهم عمدة في إثباتها سوى التوراة، مع محاولات آثارية ملوية العنق، لأجل أن يصلوا في النهاية إلى حق اليهود المعاصرين في أخذ الأرض الفلسطينية، وسيأتي لاحقا الحديث حول اختلاف هؤلاء في تفسير كيفية وجود اليهود في فلسطين، مما سمي بالنماذج الثلاثة، التي تقاسمت هؤلاء العلماء، فمنهم من رأى أنهم وُجدوا عن طريق الغزو الخارجي، وهو رأي كل من أولبرايت ورايت، ومنهم من يرى أن المملكة الإسرائيلية القديمة قامت عبر الهجرة والتغلغل السلمي، وهو رأي كل من آلت ونوث، ومنهم من يرى أن ثورة داخلية اندلعت نارها أدت إلى قيام مملكة إسرائيل، وهو رأي مندهول، وغوتفالد(٢).

ومن الباحثين الآثاريين المنحازين: الباحث الآثاري هيرمان الذي وصف فلسطين بأنها لإسرائيل، ثم بعد أن أطلق عليها وصف أرض الميعاد تراه يقول: ((وهي ملكُها الخاص،

---

(١) اختلاق إسرائيل القديمة لوايتلام، (١٥٣).

(٢) تُنظر مقدمة د. سحر الهنيدي، مترجمة كتاب (اختلاق إسرائيل القديمة)، وايتلام، ولمناقشة هذه النماذج يُنظر كتاب: (القدس: مدينة واحدة، ثلاث عقائد)، تأليف: كارين أرمستونج، (٥٤-٥٦).

الذي هو ليس محل نزاعٍ إطلاقا))[1]، طبعا يقصد أن هذا ليس محل نزاع عند حملة الفكرة التي يحملها، وإلا فالنزاع فيها عظيم وكبير، وهو بفحواه وموضوعه ومضمونه وجوهره: نزاع بين الحق والباطل.

وكان لهؤلاء الآثاريين المنحازين أثر كبير على فريق من الباحثين والسياسيين، وسننقل هنا هنا بعض ما ألقى هذا التحيُّز من أثر على غير الآثاريين، واخترنا نموذجا: نتنياهو، ولقد عرضتُ رؤاه مع شيء من الردّ عليها..

لقد استند بنيامين نتنياهو في كتابه الذي نشره أيام ترؤّسه لحزب الليكود الإسرائيلي، وقبل توليه رئاسة الوزراء؛ استند نتنياهو هذا على علم الآثار في صورته المتحيِّزة، وبالتأكيد مُخفيا الحقيقة التي نحسبه يعلمها، وهذه الحقيقة التي أخفاها هي: أن علم الآثار نفسه أعلن بعد مُضِيّ جيل المنحازين: عدمَ مصداقية التوراة.

وكان نتنياهو يهدف من كلامه أن مملكة إسرائيل القديمة، لم تكن من صنع الخيال، بل لها حقيقة شهدت بها الأرض بعد هذه القرون الطويلة[2]، وعلى الشكل الذي ترسمه الرؤى التوراتية.

في الحقيقة لم يذكر نتنياهو سوى بعض من أسماء حافري الآثار في فلسطين في الفترة بين ١٨٣٧-١٨٧٧م، ولم يذكر كلاما صريحا يستطيع أن يستند عليه هو نفسه في مقام

---

(١) نقلا عن اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (٩٠).

(٢) يُنظر كلامه في كتابه (مكان تحت الشمس)، (٥٤-٥٦)، ونحن لا نناقش في أن مملكة كان على رأسها داود أولا، ثم سليمان ثانيا، عليهما السلام، كانت موجودة في يوم من أيام التاريخ الماضي، **لكن مناقشتنا هنا عن قدرة علم الآثار في أن يقول شيئا حولها، ونحن نرى أن مجرد ورود اسم سليمان وداود كملكين نبيين صالحين في القرآن الكريم، كافٍ في إثبات مملكتهما، ولكن من أراد هذا النهج، فعليه أن يعطيهما مكانتهما الحقيقية، كنبيين صالحين، لا يسمحان بسرقة الأرض من أصحابها، وعليه أن يعترف أن هذين الملكين كانا يمثلان رسالة السماء، لا الدين اليهودي، أو العرق الإسرائيلي، ومما يجب الاهتمام به هنا: أن القرآن لا يذكر زمانا لهذه المملكة.**

الحوار والنقاش؛ فلم يذكر صراحة أن أرض كذا، أو مدينة كذا، أو الأثر الفلاني في مكان كذا؛ قد كشف عن صحة ما ورد في التوراة، أو في العهد القديم كله، مما من الممكن أن يكون مستندا لدولة إسرائيل بحق تاريخي في هذه الأرض.

فمجرد ذِكرِه أن إدوارد روبنسون الحافر الأثري الأمريكي قد عمل في منطقة القدس، أو أن الحافرَيْن تشارلي ويلسون وتشارلي وورن قد كشفا آثارا هامة في القدس؛ ومجرد أن شارل كلرمون جنو قد حدد موقع جيزر التي تعود لعهد المكراه كما يقول نتنياهو، وأن فلندرس بتري قد اتبع أسلوب دراسة الفخار كوسيلة لتحديد تاريخ الآثار؛ وإن الاكتفاء بطرح أسئلة حول وجود وتحديد أماكن ذُكرت في العهد القديم، وشمول محاولات الإجابة عن هذه الأسئلة العالَمَ كلَّه، على ذمة نتنياهو، دون تحديد ما هو الجواب الذي وصلوا إليه؛ والاستناد على ثناء عالِم الآثار والحافر الأمريكي، الذي لم يذكر اسمه على مجموعة من الحافرين الآثاريين، وعلى تقدُّمهم المنطقي المُدَّعى؛ ثم إن كون صندوق استكشاف فلسطين البريطاني، الذي كان لأعماله تأثير كبير على النظرة إلى أرض إسرائيل، تلك التي بدأت تتبلور في بريطانيا وفي أماكن أخرى، حسب قول نتنياهو؛ وكون الحافر الأثري البريطاني كوندر قد رسم أول خريطة حديثة للمنطقة، هو يقصد طبعا حسب جغرافية المنطقة توراتيا؛ إن مجرّد ذكر كل هذا النشاط الكبير الذي أشار إليه بسرعة **دون ذكر المستمسَكات وتحديدها**، كل ذلك لن ينفعه؛ لقد قال نتنياهو كثيراً جدا من الكلام، لكنه سيكتشف أنه لم يقل شيئا في هذا الفصل لأنه لا يملك شيئا يقوله غير المُجمَلات، والمُعَمَّيات.

ولربما منعه من الكلام المفيد، أنه لو قال شيئا فلربما نطق لسانه أو خطّ قلمُه الحقيقة التي يريد هو أن يخفيها، ولِذا، لم يقل شيئا، وذلك كما قلنا: خشية انكشاف الحقيقة عبر سطور كتابه الذي خطَّته يده، وإلا، **فلِمَ لم يقل شيئا إلا المجمَلات التي لا تصلح في تحديد الحقائق؟!**

إنه معذور للغاية! فالشهادات الآثارية خاصة تلك التي نطق بها أهلُها في العقود

الأخيرة، تَدينُ نتنياهو وتَدينُ التوراةَ معه، بل العهدَ القديمَ كلَّه؛ أي تَدين دعوى إسرائيل بحق تاريخي لها في الأرض المقدسة فلسطين، وهذا ما يناقض بشدّة معظم فكـــرة كتابـــه، فكيف يستطيع أن يترلق هذا المترلق الخطير، الذي يحتاج إلى أمانة الأمناء وصدق الصادقين وشجاعة الشجعان؟!

كل ما قاله في النهاية هو ما يلي: ((كان للدراسة العلمية التي أُجريـــت علـــى أرض إسرائيل دورٌ هامٌّ في تبديد الضباب، الذي كان يُغطي هذه الأرض في الرأي العام الدوْلي، إذ إنه قبل هذه الدراسة كانت الفكرة عن هذه الأرض، أنها مجرد مملكة المكراه الخياليـــة، لكن خلال إجراء الدراسة، أصبحت هذه المنطقة حقيقة متجسدة، إذ لم تعُـــد القـــدس منطقة مهجورة، بل مدينة، وكذلك الأمر بشأن بيت لحم، الناصرة، الخليل، ويافا))(١).

ولن ينفع بنيامين نتنياهو، كلامُه الذي يقوله في وسط كتابه: ((هـــذه الأرض الـــتي تُخرج مع كل ضربة فأس في أرضها بقايا من الماضي اليهودي))(٢)، دون أن يحدِّد ضربات الفأس هذه، ومستمسَكاتِها الآثارية، وبيِّناتِها من الزمن القديم، وماذا عليها من المكتوبات الدالة على صلتها بالتاريخ اليهودي القديم؛ إن كلامه هذا يصلح أن يكون جـــزءا مـــن خطابٍ لإلهاب مشاعر الجماهير التي تحمل الفكرة نفسها، والتي ليس من عادتها أن تسأل عن الدليل! غير أنه لا يصلح في معمعان الكشف عن الحقيقة!

ولذا، فنحن نسأل نتنياهو: أين بقايا الماضي اليهودي التي أخرجتها ضربات المعاول في الأرض؟

إن كل هذا الكلام الذي نقلناه عن نتيناهو، لا يصلح لإثبات الحقائق المُتَصارَع عليها، إنها أشبه برجل يحاور رجالا، ويقول: العلم أثبت كذا، ولديَّ ألفٌ من الأدلة تُثبِتُه، لكنه لا يذكر دليلا واحدا، **فكيف يستطيع أن يُثبت في عالم الصراع الفِكـــري أن الأدلـــة**

(١) مكان تحت الشمس، لبنيامين نتنياهو، ترجمة: محمد عودة الدويري، (٥٦).

(٢) المرجع نفسه، (٢١٠).

تدعمه، وهو أبقاها خارج الميدان؟

يبدو أن المشكلة ليست في كون الأدلة خارج الميدان، بل في وجود الأدلة ذاتها، فهي غير موجودة، لا خارج الميدان ولا داخله، وإلا فأين هي؟!

ولأجل أن هذه الدعوى لم تجد لها ما يُسعدها من الإدلة الإثباتية، ولأجل أن الأرض لم تُخْرِج من بعد ضربات المعاول في أنحائها شيئا يفيد نتنياهو، ولأجل أن الأستار لا بد أن تنكشف؛ لأجل كل ذلك انطلق كثير من الباحثين اليهود أنفسهم، ومن البروتستانت، مَلَلاً من الدعوى بلا دليل؛ انطلقوا يكشفون عن جوانب مهمة من الحقيقة، التي لا يُسعد نتنياهو ولا أولبرايت أن تنكشف، وستأتي جوانب من هذه البيانات قريبا في الفصول الرابع والخامس والسادس من هذا الباب.

المبحث الثالث: جهة التحيُّز عند هؤلاء الآثاريين

إن جهة التحيُّز هذه مشروحة في سياق الفصل القادم الذي يتخصص في بحث صندوق استكشاف فلسطين البريطاني الذي تأسس في بريطانيا عام ١٨٦٥م، وقراءة الفصل القادم تكفي القارئ الكريم في إثبات التحيّز وجهته برمَّتها في البحوث التوراتية الآثارية، غير أنني هنا أرغب في الحديث عما ليس موجودا في الفصل القادم من مسألة جهة التحيّز ذاتها.

ويمكن أن نختصر جهة التحيُّز عند الآثاريين التوراتيين في تجيير الآثار لتأكيد الروايات والأخبار التوراتية، التي تجعل لليهود في فلسطين وجودا قديما يبرّر لهم اغتصابها حديثا.

وقبل أن تُحتلّ الأرض، فإن دوره يأتي لتأكيد مشروعية العمل لاحتلالها، حتى إذا احتلَّت فعلا، أصبح الهدف يتمحور في تأكيد أن فلسطين هي لأولئك المحتلين؛ فهم يحاولون أن يكسِبوا علم الآثار لصالح أحقية المحتلّ بالأرض التي يحتلّها.

وقد يتوقف الهدف عند بعض الآثاريين التوراتيين في حدود محاولة إثبات صدق التأريخ التوراتي، بغضّ النظر عن مدى الاستفادة من مصداقية هذا التأريخ لعملية تبرير الاحتلال.

إن جهة التحيُّز هذه هي التي يكشف عنها عالِم الآثار الإسرائيلي البروفيسور زئيف هيرتسوغ في قوله: إن ((**الكتب الأساسية في علم الآثار رُبطت دائما بالتوراة، أو بالأرض المقدسة**))(١)، وكأمثلة قصيرة على هذا المحور أو على جهة التحيّز هذه يذكر هيرتسوغ: إيغال يادين الذي كَتَب: (نظرية الحرب في بلاد التوراة)، ويوحنان أهاروني

---

(١) من مقال لعالم الآثار الإسرائيلي زئيف هيرتسوغ، نشرته الهآرتس يوم الجمعة (١٩٩٩/١٠/٢٩) ونشرت ترجمة المقال الحياة الجديدة (١٩٩٩/١٠/٣٠).

الذي كَتَبَ: (أطلس كارتا لعهد التوراة) وغيرهما[1].

وبحوث هؤلاء جميعها جاءت لتجعل من الآثار شاهدا للتوراة، وبهذا ((حوّل الصهيونيون علم الآثار من علم إنساني يَنشد الحقيقة، ويبحث في الإنسان وعلاقاته الاجتماعية، هادفا إلى تقريب المسافات بين الشعوب؛ **إلى علم سياسي عرقي، فأعدّوا من أجل الوصول إلى هدفهم ذلك جيشا من الباحثين..**))[2].

إن الآثار القديمة في فلسطين تُقرأ عند معظم الباحثين التوراتيين قراءة تُنبئ عن إلقاء أهدافِ وغاياتِ الحاضر على الماضي، لينطق الماضي بما يشاءون، وليستلّ الباحث الآثاريُّ من هذا الماضي الآثاريِّ ما يراه مؤكِّدا لدعوى حقٍّ حاضر؛ **بمعنى أنها رغم كونِها آثاراً قديمة، إلا أن تفسيرها يعكس المقاصد المتبناة لدى مفسرِها المعاصر، فهو يريد أن يُثبت من خلالِها حق إسرائيل المعاصرة بالوجود، فيقرؤها بالطريقة التي تؤكد هذا الحق**، فهو محكوم برؤاه التوراتية المسبقة، ويجعل الآثار محكومة كذلك بهذه الرؤى، ولقد كتب أحدُهم: ((**إن الوثائق الأثرية موجودة معنا في الحاضر، وتعليقاتنا عليها تنتمي إلى زماننا الراهن**))[3].

ولمكان التوراة الحالية في عملية التزوير التاريخي المتعلق بماضي فلسطين، فلقد تأسست جمعيات عديدة في أوروبا وأمريكا، منذ منتصف القرن التاسع عشر، بل وقبل ذلك التاريخ أيضا، لم يكن لها من همٍّ أوّلي سوى إثبات صحة ما جاء في التوراة ((فتحولت جلُّ أعمالها الميدانية والنظرية للتركيز على البحث والتنقيب في المواقع التي تعود للعصر الحديدي بشكل خاصٍّ، لأنها المرحلة المتعلقة بأحداث التوراة، **وجاءت هذه الأعمال في معظم الحالات لتخدم الأفكار الصهيونية، ومنها فكرة الحق التاريخي المزعوم لليهود في**

---

(١) المرجع نفسه، والتاريخ نفسه.

(٢) الموسوعة الفلسطينية، القسم المعجمي، (١/٨).

(٣) نقلا عن: اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (٢٨٣).

فلسطين))[1].

وكان من أثر ذلك على المستوى الأكاديمي أن جامعاتٍ عالمية لا تُـدَرِّس إلا علـم الآثار التوراتي، كما ورد على لسان العالمة الآثارية الألمانية هليغا زيـدن، إذ ذكـرت أن المشكلة الرئيسية التي اعترضتها كانت تكمن في أن **الجامعات الألمانية لا تُدرِّس إلا علـم الآثار التوراتي، والذي يتطلب دراسة اللغة العبرية لمدة عشر سنوات**[2].

ويوضح أولبرايت السبب وراء هذا الاهتمام لدى الآثـاريين التـوراتيين بفلسـطين تحديدا، فيقول في كتابِه آثار فلسطين: ((في غمرة الحماس للبحث الأثري، يقع المرء أحيانا في إغراء تجاهل السبب الدائم لأي اهتمام خاص بفلسطين، **إن معظم التوراة العبرية هي نتاج الأرض الفلسطينية والكُتاب الإسرائيليين، بينما معظم الأحداث المُكوِّنة للعهـد الجديد اليوناني قد حدثت في تلك الأرض المقدسة**))[3]، واضح هنا أن التـوراة سـببٌ متجذِّرٌ في اهتمامه وسواه بفلسطين، ويقول أيضا في كتابه المذكور آنفاً: آثار فلسـطين: ((...أما الذي يؤمن برسالة فلسطين التاريخية، فإن آثارها تمتلك قيمة ترفعهـا إلى درجـة أعلى بكثير فوق مستوى الآثار المادية التي يتعامل معها هذا العلم باسـتمرار، أعـني، إلى **مستوى يلتقي فيه التاريخ واللاهوت في إيمان مشتركٍ بالحقائق الأزلية للوجـود**))[4]، فالقضية عند أولبرايت قضية إيمان بالتوراة وأرض التوراة، فكيـف إذا جـاءت الآثـار

---

(١) فلسطين من أقدم العصور، للدكتور معاوية إبراهيم، (٢/٤).

(٢) ذكر هذا الأستاذ حسين عمر حمادة في كتابه (آثار فلسطين، ٧٥) وقد نقل الأستاذ حمـادة كلام العالمة الألمانية عن مقابلة أجرتها معها جريدة تشرين السـورية في عـددها الصـادر بتـاريخ ١٧/١/١٩٨٣م، وكان الحوار بعنوان: أغلب الآثار المعروضة في المتاحف الألمانية مأخوذة من المنطقـة العربية.

(٣) آثار فلسطين لأولبرايت، نقلا عن وايتلام في كتابه (اختلاق إسرائيل القديمة ٩٦).

(٤) آثار فلسطين لأولبرايت، نقلا عن وايتلام في كتابه (اختلاق إسرائيل القديمة ٩٧)، ويقصـد أولبرايت بالمعجزة في كلامه ((معجزة عقيدة إسرائيل الأساسية)).

الفلسطينية القديمة نفسُها تقوِّض رؤيته، أيبقى على توراته شيء من معنى الصحة المُـدَّعاة إذن؟!

وفلسطين عند أولبرايت هي إسرائيل القديمة وإسرائيل المعاصرة معاً، فهو يسعى كما يسعى العسكري لأجل دعوى إسرائيل التاريخية التي يُمدُّها إلى انبثاق خارِج منها وهو إسرائيل المعاصرة؛ يعلق وايتلام على بعض آراء أولبرايت: ((**فقد كان اهتمام أولبرايت منصبا على حق إسرائيل التاريخي فقط، وتخيلُه لهذا التاريخ المختلق** كان من أكثر الروايات تأثيرا في الدراسات التوراتية))(1).

ويقول تومبسون: ((والهدف الرئيسي الذي ابتغاه أولبرايت من الحفريات التوراتية، والذي شرحه بوضوح في كتابه (من العصر الحجري إلى المسيحية) وتابعه طوال حياته، **هو إيجاد مجال في تاريخ الشرق الأدنى القديم يمكن لتاريخ إسرائيل أن يحُلَّ فيه**))(2).

ويبدو أن البيئة الاستعمارية قد أسهمت بشكل كبير في تأسيس عقلية أولبرايت هذا، تلك العقلية التي عليها تأسست مسلكياته البحثية في المجال الآثاري، يقول وايتلام إن: ((إعادة بناء أولبرايت للماضي كانت شيئا مختلفا، **ولكنه كان مرتبطا إلى حد بعيد بالحاضر السياسي الذي عاش فيه..**))(3)، إننا هنا أمام حقيقة عن هذا العالم الآثاري التوراتي البروتستانتي أولبرايت، وهي القدرة على إخضاع الماضي البعيد لأجل رؤى ومواقف وأيديولوجيا سياسية حاضرة.

وفي تعليق لوايتلام يتضح أن هذا التشكيل التوراتي لإسرائيل القديمة هو شكل من أشكال ربط العقيدة الدينية لديه ولدى قومه بجذور تمتدّ في وعيهم إلى تاريخ قديم تحفر له التوراة حُفَرا عميقة في فلسطين القديمة..

---

(1) نقلا عن اختلاق إسرائيل القديمة، (156).

(2) التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، تومبسون (23).

(3) وايتلام في كتابه (اختلاق إسرائيل القديمة 153).

يعلق وايتلام على بعض ما نقله عن أولبرايت قائلا: "إن الأساس الديني لاختلاق أولبرايت لإسرائيل القديمة، وتصويره لها على أنها **تمثل الجذور الثقافية والعقلانية والروحية للمجتمع الغربي**؛ يبدو ظاهرا في كل أعماله"(١)، فالمجتمع الغربي مجتمع توراتي إنجيلي معاً، بل التوراة أسرع تأثيرا وأقوى أثرا في تشكيل رؤيته للأمم والبقاع الأخرى خاصة أممَ وبقاع الشرق، ذلك أن أمم الشرق هذه وبقاعه هي في وعيه ساكنة على الأرض التي أنتجت التوراة والإنجيل، **ولكن: هل أنتجتهما كما يعرفهما العالَم المعاصر؟ مرة أخرى: ماذا لو نَسَفَ علمُ الآثار نفسُه دعاوَى التوراة؟!**

وهكذا يظهر أن للقضية بعدا غربيا دينيا سياسيا استعماريا عاما، فأولبرايت نفسه ليس يهوديا، وإنما هو بروتستانتي أمريكي، لكنه كشأن غيره من البروتستانت، يحمل عقلا يهوديا، أعني على الأقل فيما يتعلق بالكيان اليهودي قبل إنشائه، وبعد إنشائه.

إن علماء الآثار التوراتيين متحيِّزون تحيُّزا بالغا، لا تكاد تشهده في تخصص آخر من تخصصات العلوم، غير أن نبرة التحيُّز هذه صادفت إحراجات كثيرة، أو انبعاثات كثيرة إلى الموضوعية، وهي في ازدياد بفضل الله تعالى، وكان لا بد من إلقاء بعض الضوء على مثل هذا الحس الجديد نسبيا في علم الآثار، مما دعانا إلى كتابة الفصل الرابع من هذا الباب والفصل التالي له.

إن علم الآثار حينما يكون مسوقا لخدمة هذه الرؤى فإنه يكون عِلْما غير نزيه، بل إنه بانطلاقه من المفاهيم التوراتية، فإنه سيكون قد رفع لواء الإقرار باغتصاب الأرض، وسيتحوَّل لا محالة "**بحيث يخدم الحاضر**"(٢)، أي حاضر الاحتلال اليهودي لفلسطين،

---

(١) المرجع نفسه، (١٥١)، وينقل وايتلام عن كتاب جغرافية التوراة للمؤلف بالي: "لا يمكن أن ننكر أن أحداث الفترة التوراتية هي نفسُها التي تهم أيَّ قارئ أمريكي أو إنجليزي عادي.." نقلا عن: (اختلاق إسرائيل القديمة) (٩٨).

(٢) استعارة من تعبير وايتلام في كتابه اختلاق إسرائيل القديمة، (٢٩٠).

لأن التوراة قُرئت حسب نهج المدرسة التوراتية ((**لتسوِّغ احتلال فلسطين**))[1]، **وقد صار هذا العلم (أعني علم الآثار) بكل هذه المعطيات التوراتية متمسَّكا للباطل، بــدل أن يكون داحرا له، ثم بدل أن يكون خادما للحقيقة، فإذا به يلُفُّها بأستار كثيفة.**

وحتى لا ندع القارئ الكريم تحت تأثير أوهام أولبرات، أعلم علماء الآثار الفلسطينية في القرن العشرين، وحتى لا يحسب أن بعض رؤاه تمثيل للحقيقة، أُراني مقبلا على كــلام ل: هــ. ي. فرانكن الخبير اللاهوتي الآثاري الهولندي القائل: ((إن المدارس التي انتمى أو ينتمي إليها الكتاب المختلفون، أو الخلفية الدينية التي كثيرا ما تصوغ النتائج التي يتوصــل المؤلف حول ما حدث في الماضي، على الرغم من مساعدتها في إيجــاد حلــول لــبعض المشكلات الصعبة؛ **هي خارج التفكير العلمي الصحيح**))[2]، فلا يمكن علــى هــذا أن تسمى علما، أو بحثا موضوعيا، **لأن البحث العلمي الموضوعي يقود الأفكار، ويَصــوغ الرؤى، وليست الأفكار ولا الرؤى المُسبقة هي التي تقوده وتصوغ قراراته.**

---

(١) سرقة أمة، تأليف: وليم و. بيكر، ترجمة: سهيل زكّار، وعدنان برنيّة (٨١).

(٢) فرانكن في بحثه (القدس في العصر البرونزي ٣٠٠٠-١٠٠٠ق.م.) الذي طبعــه الــدكتور كامل جميل العسلي ضمن مجموع بعنوان: القدس في التاريخ، (صفحة ٢٢).

الفصل الثاني: صندوق استكشاف فلسطين، مثال التحيُّز

وللتدليل على أن الرؤى التوراتية لم تقتصر على اليهود فحسب، وأن لها أبعادا دينية بروتستانتية واستعمارية عامة؛ وللتأكيد على طابع التحيُّز الذي تتسم به البحوث الأثرية لدى أصحاب المنهج التوراتي؛ فإننا نطرح قضية إنشاء صندوق استكشاف فلسطين، ليأخذ الأمر بُعدَه الحقيقي في الوضوح، فالأمر ليس علما وإنصافا عند أولي المنهج التوراتي، وهو ليس يهوديا فحسب؛ ثم إنه لا يهتم بشأنه الأفراد فقط، وإنما هو تقدير أمة من الناس، جمع بين أعضائها الفكر التوراتي المزوَرُّ عن الحقيقة إلى الخيال.

إننا هنا أمام مثال صارخ للتحيُّز المشروح في الفصل الماضي، والذي به اتسمت الأعمال الآثارية التوراتية قبل أن يقبض على زمامها باحثون موضوعيون.

ولا بد أن نشير قبل الحديث عن جمعية استكشاف فلسطين البريطانية، إلى أن الموضوع لم يكن خاصا ببريطانيا وحدها، بل هو تعلق الغرب التوراتي في ناحية أو أكثر من نواحيه.

إذ قد تأسست عدة جمعيات ألمانية وأمريكية وفرنسية وبريطانية، من أجل استكشاف فلسطين، وذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد كان الحافز وراء الدراسة في كل هذه الجمعيات توراتيا صهيونيا[١]، وكانت جامعة هارفارد الأمريكية قد قامت بإرسال بعثة خاصة بها للتنقيب في السامرة لمدة ثلاث سنوات[٢].

أما جمعية استكشاف فلسطين البريطانية، فإن للحديث عنها ضرورة خاصة، لِما أسدته للصهيونية اليهودية والمسيحية، وللتوراة المؤسِّسة للقتل وسلب الأوطان، من خدمات غاية في الانحياز.

---

(١) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الدكتور عبد الوهاب المسيري، (١٥٧/٦).

(٢) آثار فلسطين لوليام أولبرايت، نقلا عن آثار فلسطين لحسين عمر حمادة، (٤٩).

ففي عام ١٨٦٥م، تأسست في بريطانيا جمعية سُمِّيت:صندوق استكشاف فلسطين، ((من قِبل مجموعة من السياسيين والمثقفين ورجال الدين البريطانيين))[١]، تحت رعاية التاج البريطاني[٢]، **وهي مؤسسة تقودها الرؤى التوراتية، ليس فقط لأجل إسرائيل قبل أن تقوم دولة إسرائيل، وإنما لأجل تيسير شؤون الاستعمار البريطاني،** كما سيتضح في الصفحات التالية...

إنه في ١٨٦٥/٥/١٢م عُقد اجتماع في قاعة القدس في وستمنستر ببريطانيا برئاسة رئيس أساقفة يورك: وليام تومسون، واتُخِذ قرار بتشكيل رابطة باسم ((صندوق استكشاف فلسطين))[٣] بغرض الكشف عن آثار فلسطين وجغرافيتها وجيولجيتها

---

(١) مكان تحت الشمس، تأليف: بنيامين نتنياهو، ترجمة: محمد عودة الدويري، (٥٦).

(٢) آثار فلسطين، تأليف حسين عمر حمادة، (٢٩).

(٣) قامت في بريطانيا جمعيات ونشأت مؤسسات خاصة بالبحث في جغرافية فلسطين، فلقد تأسست في لندن عام ١٨٠٤م جمعية رابطة فلسطين، التي كان هدفُها جمعَ ونشر المعلومات عن جغرافية الأراضي المقدسة ومناخها وتاريخها، وفي عام ١٨٣٠م تشكلت الجمعية الجغرافية الملكية، وهي ذات أهداف مشابهة لسابقتها، وفي عام ١٨٣٨م قام قس أمريكي هو إدوارد روبنسون بدفع عملية التعرف على فلسطين إلى مرحلة عملية، وكان قد عُيِّن أستاذا لأدب التوراة في كلية الاتحاد اللاهوتية في نيويورك، واعتقد أنه لكي يكون قادرا على أداء هذه المهمة، يجب أن يتعرف بنفسه على ((أرض التوراة))، وبعد الاطلاع على كل ما كُتب حول الموضوع، وما توصل له غيره في ميدان الاستكشاف، بدأ زيارته لفلسطين متتبِّعاً إشارات التوراة،...، وقد نشر بعد عودته عام ١٨٤١م كتابا بعنوان ((أبحاث توراتية في فلسطين)) ضمَّنه كل المعلومات التي جمعها، واستنتاجاته،...، ومنحته الجمعية الملكية الجغرافية الميدالية الملكية الذهبية،...، وقد قام عام ١٨٥٢م برحلة أخرى إلى فلسطين، مضيفا مادة ضخمة لِما جمعه في الرحلة الأولى، وخاصة فيما يتعلق بالطبوغرافيا التوراتية، ولم تُثر اهتمامَه مسائل الآثار أو التاريخ الطبيعي أو عادات أهل البلاد، بل كان غرضُه الأساسي تحديد مواقع التوراة، ودوّن نتائج اكتشافاته في كتابٍ آخر عنوانه: ((أبحاث توراتية جديدة)).

هذا، وكانت قد تشكلت في بريطانيا بعد عام ١٨٤٠م جمعية باسم جمعية الآثار الإنجيلية، وهي توحيد لجمعيتي رابطة فلسطين والجمعية السورية الفلسطينية، هدفُها توسيع البحث في الموضوعات

وتاريخها الطبيعي، وفي ٢٢/٦/١٨٦٥م عُقد اجتماع عام في وستمنستر برئاسة رئيس أساقفة يورك.

ولقد رُصد للمشروع دعم ممتاز في تلك الفترة، إذ بلغ مجموع واردات الصندوق حتى عام ١٩١٥ [١٣٨.٦٥٠] جنيها، وقد اتسع نطاقه حتى أسس له [٤٦] فرعا في مختلف المدن البريطانية، **وقد قاد عملية المسح الأولي الكابتن ويلسون.**

أما مصادر تمويل هذه الجمعية وغيرها من الجمعيات الاستكشافية، فقد ذكر أولبرايت أشهرُ الباحثين الآثاريين عن فلسطين القديمة أن هذه البعثات اعتمدت على ((المساعدات الحكومية التي غطت جزءا من مصاريفها على الأقل، كما أن كثيرا من الأثرياء أظهر

التوراتية وما شابهها.

ولقد استمرت الرحلات الاستكشافية للأرض المقدسة فلسطين، يقودُها في كثير من الأحيان مهندسون وضباط، وكذلك رجال دين رسميون، وقد جُمِعت كتب متعلقة بالأرض المقدسة وفق الرؤى النصرانية، كان منها على سبيل المثال: قاموس للكتاب المقدس، جمعه وليام سميث، ضمّنه كل المعلومات التي أمكن الحصول عليها ليضعها في خدمة دارسي التوراة، كل ذلك وغيره دفع إلى إنشاء (صندوق استكشاف فلسطين) عام ١٨٦٥م.

يُنظر في تفصيل الحديث عن الصندوق: (صندوق استكشاف فلسطين) للدكتورة خيرية قاسمية، وذلك ضمن المجلد الثاني (ص٣٩٣-٤٣٥) من المجلدات الثلاثة التي خصصها المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام لفلسطين؛ ويُنظر كذلك لإلقاء بعض الأضواء على الصندوق: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، للدكتور عبد الوهاب المسيري، (٦/١٥٦-١٥٧) وكذلك يُنظر (آثار فلسطين، حسين عمر حمادة، ٢٩ و ٥٧-٦٤)، و(فلسطين: من أقدم العصور للدكتور معاوية إبراهيم، ٧-٩)، وقد ذكر الدكتور معاوية في بحثه هذا المشار إليه، ضمن ما ذكر من جمعيات بهذا الخصوص، أن جمعية أخرى تأسست في بريطانيا باسم جمعية الآثار التوراتية، جعلت هدفها كما صرح صاموئيل بيرش، أول رئيس لها ((الآثارَ، وليس اللاهوت، **ولكنها ستحقق للاهوت هدفا هاما**))، وكذا (٩-١٣) من بحث الدكتور معاوية إبراهيم نفسه، للاطلاع على نشاطات المنقبين الآثاريين في فلسطين، وجنسيات بعضهم، وصِلاتهم العسكرية والأكاديمية.

كرما كبيرا، ومن أهمهم جون روكفلر الأب، وجون روكفلر الابن، وجاكوب شيف، وسير شارلز مارستون، والسير هنري ويلكوم، والبارون أدموند دي روتشيلد، وقد تأتي منح من المعاهد والمؤسسات التي تعتمد على الهبات، مثل مؤسسة روكفلر، وجمعية كارنيجي))[١].

وقد قامت جامعة هارفارد الأمريكية بإرسال بعثة خاصة بها للتنقيب في السامرة لمدة ثلاث سنوات، بفضل المعونة السخية التي قدمها اليهودي جاكوب شيف، الذي قدّم [٦٠.٠٠٠] دولار[٢].

وقد أوضحت لجنة الصندوق في تقريرها الأسباب التي تحث على القيام بمسح كامل ودقيق لفلسطين، والدعوة للبحث العلمي في تلك الآثار الوثيقة الصلة بالتاريخ التوراتي، وفي عملية المسح الثانية (١٨٦٧-١٨٧٠) تركز عمل الصندوق على مسح منطقة القدس، وكان من أهم التوجيهات: **تحديد موقع هيكل سليمان**[٣]، **وتحديد أبواب المدينة القديمة المشار عليها في التوراة، وقاد هذه الجولة اللفتينانت تشارلز وارين**[٤]، **وهو ضابط في سلاح الهندسة البريطانية**، وقد بدأ عمله في القدس[٥] عام ١٨٦٧م، وكأنه

---

(١) آثار فلسطين لوليام أولبرايت، نقلا عن آثار فلسطين لحسين عمر حمادة، (٤٩).

(٢) المرجع نفسه، نقلا عن آثار فلسطين لحسين عمر حمادة، (٤٩).

(٣) وقد اكتشف وارين هذا بالقرب من جدار البراق، ممرا ضيقا سماه الممر السري، وعثر على مدخل له، ذلك الذي يُعتبر اليوم مدخل النفق الغربي، يُنظر: د. الفني، والنمري في الحلقة الرابعة من دراستهما: تفنيد مزاعم علماء الآثار الإسرائيليين، جريدة القدس، ٢٠٠٢/٢/١٩.

(٤) وبالمناسبة، فلا بد أن نشير إلى رأي الآنسة كينيون، الباحثة الآثارية البريطانية في وارن هذا وتنقيباته، فقد أثبتت كينيون أن "**جميع استنتاجات وارين في القدس كانت خاطئة**"، يُنظر: محمود أبو طالب في كتابه (آثار الأردن وفلسطين في العصور القديمة، ١٦)، نقلا عن (آثار فلسطين، ١٣٨)، للأستاذ حسين عمر حمادة.

(٥) ولا بد من طرح سؤال ذي أهمية هنا: أو لم تكن فلسطين في هذا التاريخ تابعة للدولة العثمانية الإسلامية؟ فلماذا إذن سُمح لمثل هذه البعثات التوراتية الاستعمارية أن تقوم بهذه الحفريات؟

((**يقوم بحفر خنادق عسكرية**))(١)، وأقرت اللجنة أن نتائج بعثته كانت **ذات أهمية قصوى**، وأن جميع المهتمين بتاريخ التوراة يدينون بالامتنان للطريقة الدقيقة التي قام بها وارين في استكشافه.

وقررت لجنة الصندوق بعد انتهاء عملية وارين في استكشاف القدس، قررت القيام بمسح دقيق لفلسطين الغربية، أي ما بين البحر المتوسط ونهر الأردن، **ووجهت نداءً إلى الجمهور، يستحث إسهام كل من يرى في التوراة الكتابَ المقدسَ الجديرَ بالدراسة**، ووقع الاختيار مرة أخرى على **ضابط من سلاح الهندسة الملكية ليتولى مسؤولية البعثة، وهو الكابتن ستوارت**، وابتدأ عمله في الفترة بين (١٨٧١-١٨٧٧م)، لكنه عاد إلى إنجلترا بسبب إصابته بالحُمّى، وتولى مكانه دريك بصفته خبيرا بالعربية ومترجما وعالما في الآثار والطبيعة، وبقي إلى أن تولى مكانه (١٨٧٢) **اللفتنانت كلود كوندر**(٢) **من سلاح**

يقول الدكتور معاوية إبراهيم: ((ويظهر أن السلطات العثمانية كانت حذرة في منح تصاريح للكشف عن المعالم المدفونة في المدينة حتى عام ١٩٠٩م، في هذه السنة تمكن الكابتن الإنجليزي باركر من الحصول على تصريح للعمل جنوبي منطقة الحرم الشريف، إلا أنه خدع المسؤولين الأتراك، وأخذ ينقب ليلا في منطقة الحرم نفسه، إلى أن اكتشفت السلطات أمره، وتمكن من الهرب قبل صدور الحكم عليه))؛ يُنظر: فلسطين من أقدم العصور، للدكتور معاوية إبراهيم، (٩/٢)، ويبدو أن ثمة مواقف أخرى من الدولة العثمانية تؤكد هذه الرؤية، فلقد ذكر عالِم المسكوكات القديمة الفرنسي لويس فيليسيان دومولي (١٨٠٧-١٨٨٠م) في مقدمة كتابه (رحلة حول البحر الميت وفي الأراضي المقدسة) الصادر عام ١٨٥٠م أنه قرر التوجه إلى القسطنطينية للحصول على إذن من السلطات العثمانية، ليُسمح له باقتلاع بعض النقوش الآشورية من صخور نهر الكلب، غير أن طلبه رُفض، يُنظر: (آثار فلسطين، حسين عمر حمادة،٣٠)، ومع ذلك، فلا بد أن يبقى السؤال مطروحا، فما مضى غير شافٍ في بيان موقف جازم من الدولة العثمانية تجاه الباحثين الآثاريين في الأرض المقدسة وما حولها.

(١) يُنظر: فلسطين من أقدم العصور، للدكتور معاوية إبراهيم، (٨/٢).

(٢) يُذكر هنا أن كوندر هذا اختير من قِبل دائرة الإنتلجانس **لمرافقة الحملة البريطانية التي أُرسلت لقمع ثورة عرابي في مصر لإتقانه اللغة العربية، ومما يُذكر أيضا أنه من علماء الجغرافيا**

الهندسة، "**وقام كوندر برسم أول خريطة حديثة للمنطقة، من نهر الأردن حتى البحر الأبيض المتوسط، ومن جبال لبنان حتى صحراء سيناء**"[(١)] ، ثم توفي كوندر هذا وحل مكانه **اللفتنانت كيتشنر من سلاح الهندسة.**

وقد أصدر كيتشنر هذا أربع خرائط لفلسطين الغربية، مكتوب على إحداها الأسماء العربية الحديثة، وعلى الثانية أسماء العهد القديم التي أمكن التحقق منها[(٢)]، وعلى الثالثة أسماء العهد الجديد، وعلى الرابعة مصادر المياه وتوزيعها، وكان من أهم نتائجها: تحديد عدد كبير من الأماكن المذكورة في التوراة، ووصف مظاهر الطبيعة للبلاد بشكل يُمَكِّن دارسي التوراة من متابعة أحداث ما يقرؤون، والتعرف على طبيعة البلد وينابيعها ونباتاتها وحيواناتها وعلى تاريخها القديم.

هذا، وقد وضع صندوق استكشاف فلسطين طبعة جديدة لخارطة فلسطين عام ١٨٩٠م، وضعها تحت تصرف الصهاينة، وقد تضمنت هذه الخريطة جميع المعلومات الحاصلة من أعمال التنقيب والمسح، التي امتدت من بعلبك شمالا، حتى قادش برنيع جنوبا[(٣)].

الأثرية، وقد وصف ناحوم سوكولوف صاحب كتاب تاريخ الصهيونية أعمال كوندر هذا بأنها أعظم وثيقة عن فلسطين، ومع كل هذا، فقد ثبت خطأ كثير من التعريفات التي ظن كوندر أنه حسم بها نهائيا طبوغرافية فلسطين كما جاءت في التوراة؛ يُنظر: (آثار فلسطين، حسين عمر حمادة، ٥٩-٦٠).

(١) مكان تحت الشمس، تأليف: بنيامين نتنياهو، ترجمة: محمد عودة الدويري، (٥٦).

(٢) قال الدكتور عبد الوهاب المسيري: **وقد بلغت الخريطتان من الدقة حدا كبيرا حتى سَهُلَ استعمالُها في عملية تحريك الجيوش البريطانية، وانتقالها عبر تلك الأراضي في الحرب العالمية الأولى**، تُنظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الدكتور عبد الوهاب المسيري، (١٥٧/٦)، **واستفاد الجنرال أَلِنْبي من هذه الخرائط أيام حملته على فلسطين عام ١٩١٨م**، يُنظر: (آثار فلسطين، حسين عمر حمادة، ٥٩).

(٣) يُنظر: (آثار فلسطين، حسين عمر حمادة، ٦١).

وتؤكد الدكتورة خيرية قاسمية أن أهداف الصندوق لم تكن قاصرة على المقاصد الدينية، **وإنما كان رُوّاده ينقادون بالأهداف السياسية البريطانية الخارجية**، ذلك أن معظم الذين قاموا بالبعثات والاستكشاف والحفريات هم ضباط في البحرية البريطانية ومن سلاح الهندسة[1]، وتقول أيضا: ((**وكان العطف البريطاني نحو اليهود، ومشاريع الاستيطان اليهودي في فلسطين تحت الحماية البريطانية، جزءا من سياسة بريطانيا الشرقية،...، فاجتماعات لجنة الصندوق غالبا ما كانت تشير إلى فكرة عودة اليهود**))، وتنقل عن المؤرخ ديتشز ((**أن كتشنر قد رأى في فلسطين الأرض التي تخص الشعب اليهودي**)) .

وفي عام ١٨٩٢م نشرت لجنة الصندوق في كتاب (المدينة والبلاد) سلسلة محاضرات، كان أبرزها محاضرتان، إحداهما ألقاها وولتر بيسانت، السكرتير الفخري للصندوق، وألقى الثانية كلود كوندر بعنوان مستقبل فلسطين، وتحدث بيسانت عن عمل اللجنة، فقال: ((..**كنا نحيي العظام وهي رميم،...،كنا نستعيد بلاد داود، ونرد إلى الخارطة أسماء المدن التي دمرها القائد العظيم يوشع، لقد أعدنا البلاد للعالم بالخارطة والأسماء والأماكن المذكورة في التوراة..**))؛ ومما جاء في كلمة كوندر حول الهجرة اليهودية إلى فلسطين: ((حدثت تغيرات كبيرة في التكوين السكاني لفلسطين، بزيادة العنصر اليهودي والمسيحي زيادة كبيرة، واضمحلال السكان المسلمين الأقوياء،...، **وفي عام ١٨٧٢م لم يكن في فلسطين من ملاك الأراضي الزراعية الأوروبيين غير اثنين فقط، ولكن بالتدريج أُرغِم الفلاحون –كما حدث في عهد نحميا– على بيع أنفسهم عبيدا للمرابين الذين استرهنوا الأرض، أو على بيع أراضيهم للمستعمر الألماني واليهودي**))، وعن

---

(١) قال السير هنري مكماهون، بطل مراسلات (الحسين مكماهون): ((**لقد تحول علماء الآثار كلهم إلى ضباط مخابرات**))، نقلا عن كتاب (اغتيال التاريخ، ٤٥) تأليف: حمدان حمدان، وأنا في الحقيقة لا أستطيع أن أؤكد فيما إذا كان مكماهون يقصد هؤلاء الحافرين الآثاريين، أو سواهم، وكذلك لم يشر إلى شيء من ذلك الأستاذ حمدان حمدان، حينما ذكر كلام مكماهون هذا.

هجرة اليهود قال: ((.. لا تعتمد عودة اليهود على أي عرق سواهم وقد بدأوا يعـودون وينوون العودة بأعداد أكبر،...، لقد بدأ صندوق استكشاف فلسطين عملَـه، وهدفُـه الوحيد: **إلقاء ضوْء أجدّ وأدق على التوراة، ومع ذلك فقد أصبح أداة رئيسية لمساعدة أولئك الذين سيكونون سكان البلاد في المستقبل على الحصول على الحقائق الثابتة عـن طاقات وإمكانيات البلاد**)).

ويقول نورمان بنتويتش في معرض حديثه عن المؤسسات الصهيونية قبل تبلور الحركة الصهيونية: ((كانت المشاريع الصهيونية تتأسس على شكل شركات بريطانية، فتشـكلت سكة حديد وادي الفرات لتصل بين حيفا وبغداد، ولكنها فشـلت، وفي عـام ١٨٦٥م تأسس صندوق استكشاف فلسطين، وقام ضباط سلاح الهندسة في الجـيش البريطـاني بحفريات استكشافية في القدس، ورسم خارطة للبلاد، **وهذا النشاط المزدوج كان مثالا لتكامل المصالح التوراتية والسياسية**))[1].

وقد أعلنت أهداف صندوق استكشاف فلسطين[2]، الذي أسس عام ١٨٦٥م، على أنها ((**البحث الدقيق المنهجي عن الآثار والطوبوغرافيا والجيولوجيا والجغرافيا الطبيعية وعادات وتقاليد شعب الأرض المقدسة، بهدف فهم التوراة**))[3]، أو من أجل ((توضـيح

---

(١) عن الدكتورة خيرية قاسمية في بحثها بعنوان: صندوق استكشـاف فلسـطين، (٢/٣٩٤-٣٩٥)، وأود الإشارة إلى أن كل ما أذكره حول صندوق استكشاف فلسطين أخذته عن الـدكتورة قاسمية في بحثها المشار إليه، إلا ما ذكرت له مصدراً آخر.

(٢) نقل الأستاذ حسين عمر حمادة عن أولبرايت في كتابه (آثار فلسطين) أنه حينما أعلنت هذه الجمعية عن نفسها للجمهور أكدت أنه يجب ألا يكون هناك بلد أكثر إثارة لاهتمامنا من ذلك الذي كُتِبت فيه وثائق عقيدتنا، يُنظر: آثار فلسطين، حسين عمر حمادة (٢٩).

(٣) يُنظر: فلسطين من أقدم العصور، للدكتور معاوية إبراهيم، (٢/٧)، فقد ورد فيـه أن هـذا التعريف بالجمعية وأهدافها كُتِب على غلاف أول عدد صدر من المجلـة الدوريـة للصـندوق عـام ١٨٦٩م.

الكتاب المقدس))[1]؛ وهكذا فإن فلسطين ((**لا تكتسب قيمتها إلا بقدر ما هي مهمة لفهم التوراة**))[2]، على تعبير وايتلام.

ويعلق الدكتور عبد الوهاب المسيري على هدف التوضيح التوراتي هذا بقوله: ((والعبارة الأخيرة مبهمة إلى أقصى حد، **ولكنها تعني في نهاية الأمر أن البحث العلمي قد وُظِّف في خدمة الأهداف التوراتية، أي الأهداف العسكرية الاسترجاعية**، وهذا ما وضحه كتاب المدينة والأرض الذي أصدره الصندوق، وهو يتألف من مجموعة دراسات كان من أهمها دراسة لوولتر بيسانت، **بين فيها أن هدف الصندوق هو الاستعادة: استعادة مجد فلسطين في عهد هيرود، واستعادة بلاد داود**))[3]، ويقول المسيري أيضا: ((**ويظهر تلاقي البعد التوراتي والبعد العسكري في الإشارة إلى يوشع بن نون**، وهو قول المؤلف: عندما وُضِعت الأسماء في أماكنها، أصبح في وسعنا تتبع سير الجيوش في زحفها؛ قال المسيري: ((ويمكن أن نضيف: وأصبح بإمكان جيوش الغزو الإمبريالي -البريطاني الصهيوني- أن تعرف طريقها))[4].

لعل القارئ الكريم قد انتبه إلى أننا نكون بهذا العرض قد تعرفنا جيدا، وبإيجاز مكثَّف، على جمعية هي من أهم الجمعيات التي لبست ثوب التدين والموضوعية من أجل أن تقر سرقة فلسطين من أهلها.

ولعله بعد قراءته هذا العرض يتساءل: وهل اختبأت الحقيقة، أم صادفت من كشف

---

(١) فلسطين أرض الرسالات الإلهية، روجيه جارودي، (٦٥).

(٢) اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (٩٣).

(٣) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الدكتور عبد الوهاب المسيري، (٦/١٥٦).

(٤) المرجع نفسه، (٦/١٥٦)، وفي الموسوعة الفلسطينية (١/١٢): ((..لكن الغاية الاستعمارية كانت من بين غاياتها، إن لم تكن على رأسها، فقد كان من العاملين في المسح الجغرافي والتنقيب الأثري لصالح هذا الصندوق عدد من رجال المخابرات البريطانية الذين سيكون لهم فيما بعد شأن في الاستعمار البريطاني لفلسطين والتمهيد للاحتلال الصهيوني)).

عنها؟

قبل أن نجيب عن هذا السؤال، نرى أنفسنا مضطرين إلى التعرف على كيفيـــة مـــن كيفيات التزوير التي اتبعها رجال مدرسة الآثار التوراتية، وذلك في الفصل التالي، الـــذي يتخصص في محاولات أرباب المنهج التوراتي جَعْل السراب حقيقة!.

ولكن الحقيقة لا يمكن أن تختبئ، ولا بد أن يكون في الباحثين من يثوب إلى رشـــده ليكشف عن الحقيقة، وليُعرِّي السراب ورجاله.

الفصل الثالث: يتخذون السراب حجة وبرهانا

لا شيء أبدا يدعم قضية الباطل، كما تدعمها غفلة أهل الحق في حال يقظة أهل الباطل، وإن الباطل لا يملك حجة تقوّي قضيته، وإنما هي جوانب من القوة المادية ومن الدهاء وحُسن الاستفادة من ضعف الحق، ومن المال ورجاله، ومن الإعلام وفنونه، تزيّن له طروحاته، حتى تبدو كما لو كانت حقا لا لُبس فيه.

وفي القضية التي نحن بصددها، يظهر جليا أن الباحثين التوراتيين عموما، وعلماء الآثار التوراتية خصوصاً، لم يجدوا شيئا يُدلِّلُ على مصداقية طروحاتهم، فدفعهم هذا إلى أن أخذوا من جانبٍ يزوِّرون، ومن جانب آخر يتسرَّعون، لتجيير ما ليس لهم، ليبدو كما لو كان لهم.

إن الخرافات التوراتية ألقت بثقلِها على كثير من علماء الآثار، بل إن جُلَّهم إلى ما قبل عقدين من الزمان، كان خاضعا لهذه الأساطير، فمنها ينطلق، وعلى ضَوْئها يجوب البلاد، ويحفر الأرض، ثم إذا اكتشف شيئا من آثار الأمم القديمة، أسرع بضمِّه إلى طائفة الأحداث التوراتية، دونما أدنى تمحيص..

إننا لسنا ظالمين في حكمنا هذا، ولم يدفعنا إليه ما بيننا وبين أهل التوراة من صراع فكري، تنبثق عنه أشكال أخرى من الصراعات، بسبب ما يرجع بجذوره إلى هذه التوراة نفسها، التي أَسست من قديم لسرقة أرضِنا؛ بل نحن هنا كما في كل أحوالنا، منصفون، نأبى الوقوع في طائلة مزاجياتنا، وهذا ما سيراه القارئ جليا، إن شاء الله تعالى..

إن علماء الآثار التوراتيين يفرحون بكل ما تراه عيونُهم، من حجارة قديمة، خطَّ الدهرُ عليها في يوم من أيام التاريخ الغابر خطوطا، مجهولة الانتماء، فإذا بهم ينسبونها إلى ذلك العصر الكريم، عصر داود عليه السلام.

وللتمثيل على ما نقول من فرحهم بكل ما يجدون، نذكر قضية اكتشاف قطعة

حجرية مكتوبٌ عليها كتابة معينة، أتُرى، هل تخدمُهم هذه الكتابة، أم هم في تسـرُّعِهم أشبه بظامئ يجري وراء سراب يحسبُه ماءً.

يحاول أولبرايت جاهِدا أن يجعل من الشخصيات التوراتية شخصيات تاريخية، وهو في ذلك يقرّب أسماءً توراتية إلى أسماءٍ تاريخية، وينسى في حمِّ وطيسِ المعركة التي يشعلُها علاقات تاريخية تنسب التوراة لها أحداثا أثبت التاريخ أنها لم تكن..

وحتى نبتعد عن الكلام النظري إلى ذكر الحقائق، فإننا نوضح القضية من خلال هذا المثال:

ورد في سفر التكوين، الإصحاح الرابع عشر (١ فما بعد) قصة حرب كان من أبطالها رجل اسمه أمرافَل، وهو حسب التوراة ملكُ شِنعار، وشِنعار هذه منطقة سومر جنوب وادي الرافدين[١]، ويشير الأستاذ فراس السواح **إلى أن هذا الاسم، ككثير من الأسماء التوراتية، ليس معروفا في التاريخ خارج نصوص التوراة، بل ينسب إليه سفرُ التكوين ما ثبت أنه لم يحصل تاريخيا**، غير أن أولبرايت خرَّج الأمر تخريجا متعسَّفا، والأمر عنده سهل، «فالاسم أميرافل (أ-مي-را-فل) يتشابه في أحرفه الصوتية والساكنة مع الاسم إمودابل (إ-مو-دا-بل)، وهو اسم دويلة مهمة، قامت في وادي الرافدين الأدنى (شِنعار) قبل صعود حمورابي،...، ويستنتج أولبرايت أن خطيئة في النسخ قد حرّفت تعبير ملك إمودابل إلى الملك أميرافل، ويرجِّح أن هذا الملك كان يقود حملة موجهة ضد مصر، عبر خلالها فلسطين وشرقي الأردن، لتسوية بعض المسائل المتعلقة بطرق التجارة، **وهذا الخلل -يقول فراس السواح- على هشاشة مقارناته اللغوية، يتجاهل حقيقة تاريخية هامة، وهي أن ممالك بلاد الرافدين منذ أيام صرغون الأكادي، لم تدخل في نزاع مع مصر طيلة الألف الثالث والألف الثاني قبل الميلاد**»[٢].

---

(١) آرام دمشق وإسرائيل، تأليف: فراس السواح (٣٠).

(٢) المرجع نفسه، (٤٦-٤٧).

ومثالٌ آخر: اكتشف الباحثون الآثاريون قطعةً مكتوبٌ عليها الكتابة التالية: ((...ك بت دود...)) ((k byt dwd...))[1] فطاروا فرحا، ظانّين أنها تُسعفهم لِما يشـاؤون، وتعاملوا معها على أنها تمثل مملكة داود عليه السلام، وذلك من غير أن يتحققـوا مـن انتسابها إلى عصر المملكة الإسرائيلية، يقول وايتلام معلقا على تسرُّعهم هذا في نسبة هذه القطعة إلى عصر مملكة إسرائيل: ((رأى الكثيرون في الاكتشافات الحديثة لجزءٍ من نقـش آرامي في تل دان (تل القاضي)[2] تأكيدا وتبريراً لهذا التصور لماضي إسرائيل المجيـد،...، لكن هذا يتناقض مع النهج المتحفظ لعلماء الآثار الذين نقبوا عن هذه القطعة، ويتعارض مع ما نشروه مبدئيا عن هذا الجزء)).

ثم ينقل وايتلام عن بيران ونافيه قولهما: ((إن طبيعة المصادر التوراتية مـن جانـب، والطبيعة الجزئية لنقش دان من جهة أخرى، لا يسمحان لنا باستنتاجات قاطعة؛ قد تكون هناك تفسيرات أخرى محتملة، ولن يُمدنا بالدليل إلا اكتشاف قطعٍ إضافية من هذا النقش للإجابة عن الأسئلة التي أثارتها اكتشافاتنا لهذه العينة))[3]، ويُعلق وايتلام بعد سطور: ((إن **إشارة وحيدة على لوح حجري منقوش من هذا النوع، قد تؤكد وجود سلالة حاكمة تعود إلى مؤسس اسمه داود، ولكنها لا تستطيع أن تؤكد تراث القصص التوراتية حول داود كما جاء في سفر صموئيل**))[4]، ونقول: إنها فضلا عن كونها لا يمكن أن تعتبر دليلا على الأحداث المذكورة في الأسفار التوراتية، حتى لو صح انتسابها إلى داود نفسه عليـه السلام، إنها فضلا عن كل هذا، وفوقه قد تنفع فقط في تأكيد وجود بيت اسم مؤسسـه داود، لكن، **هل هو النبي الملك داود عليه السلام، هذا يحتاج إلى أدلة وقرائن آثاريـة**

---

(١) عن تعليق د. سحر الهنيدي مترجمة اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (هامش ٢٥٩).

(٢) تل دان: موقع أثري مهم بجانب جبل الشيخ، على بعد ثلاثة أميال غـربي بانيـاس، وهـو المعروف الآن بتل القاضي، وهو النبع الأوسط وأكبر منابع نهر الأردن جميعاً (عن تعليق سحر الهنيدي مترجمة كتاب اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (هامش ٢٥٩).

(٣) اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (٢٥٩-٢٦٠).

(٤) المرجع نفسه، (٢٦١).

أخرى، لا يملك أحدٌ منها شيئا.

وقد ((تباهى أولبرايت بعد تنقيباته الأثرية في تل الفول[1] في الفترة ١٩٢٢-١٩٢٣م بأنه حدد موقع قلعة شاؤول، كما كشفت تنقيباته عما اعتبره برجاً يعود إلى العصر الحديدي الأول في الجزء الجنوبي- الغربي من حصنٍ أرجعه أولبرايت إلى فترة شاؤول، لكن لابْ قلّلَ لاحقا عام ١٩٦٥م من صحة هذا الاستنتاج، عندما نقب عن هذا الموقع **واكتشف أن الوجود المزعوم لذلك الحصن ليس أكثر من تخمين**، على الرغم من ذلك، انتهى لاب إلى أن تل الفول كان مرتبطا بشكل واضحٍ مع حصن شاؤول))[2]، والسؤال: **كيف استطاع لاب هذا أن يؤكد أو يستنتج أن تل الفول كان مرتبطاً بِحِصن شاؤول، والحال أنه هو نفسه، أي لاب نفسه، أكد أن وجود الحصن نفسه ليس أكثر من تخمين؟** ولكنها العقلية التوراتية، التي لا تترك صاحبها يقول حقا، إلا لوّثت صِدقه بلوَث الباطل.

ويُعقِّبُ وايتلام قائلاً، بعد أن ذكر استنتاجَي أولبرايت ولاب: ((إن الاستعجال في تفسير معلومات يُفترض أن تكون موضوعية وخارجة عن التوراة، على أساس افتراضات مستمدة من التوراة، هو شيء يتسم به تاريخ البحث عن إسرائيل القديمة))[3]، إذن فهو نهج البحث التوراتي، وهو لا يملك شيئا في نهاية المطاف يصلح لتأييد الطرح التوراتي، كما سيأتي.

هذا، وللرد على استنتاج أولبرايت هذا، فقد ذكر وايتلام أن أرنولد **استنتج بناءً على تقارير التنقيبات الأثرية أن تل الفول كان لها في العصر الحديدي الأول برجٌ للمراقبة ذو سماتٍ فلسطينية مميزة**، وعدد قليل من المباني البعيدة، وعلى هذا، فإن كان ثمة برجٌ

---

(١) تل الفول: قرية تبعد أربعة أميال إلى الشمال من مدينة القدس، عن الدكتورة سحر الهنيدي، مترجمة: اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (٢٥٧) من الكتاب المتَرجَم.

(٢) اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (٢٥٧).

(٣) المرجع نفسه، (٢٥٧).

فهو ذو سِماتٍ فلسطينية أقدم من الوجود الإسرائيلي، وليست شاؤولية.

قال وايتلام معقبا على استنتاج أرنولد: ((وهو استنتاج يختلف اختلافا لافتا للنظر عن ادعاءات معظم التواريخ التوراتية، والتصريحات الواثقة حول وجود دولة مبكرة حكمها شاؤول))(١)، ويُتابع وايتلام قوله: ((**وبالمثل، فإن إمبراطورية داود المزعومة، كما صوّرها نوث وغيره، لم تترك أي آثار مادية**))، ويكفي للرد على هذه الفكرة ما قاله العالم الآثاري اليهودي البروفيسور زئيف هيرتسوغ وهو يذكر الأثر السيء على النفس اليهودية الناتج عن الكشوف الأثرية، فقد قال(٢): ((والأصعب من ذلك أيضا، هو هضم الحقيقة التي تتضح رويدا رويدا، بأن مملكة داود وسليمان الموحدة التي وصفتها التوراة على أنها دولة عظمى إقليمية، كانت في أقصى الأحوال مملكة قبلية صغيرة)).

ولكن، ماذا عما قيل إنه قلعة شاؤول، في الحفريات التي جرت قبل عام ١٩٥٢م وذلك فيما قاله المنقبون يومها إنهم عثروا عليه في تل الفول؟

إنه لم يُعثر على أية دلائل تدل على أي أثر لوجود إسرائيلي في الفترة الأولى من العصر الحديدي، وهي التي تبدأ بالعام ١٢٠٠ق.م.، وفي هذا يقول الأستاذ محمد أبو طالب في كتابه (آثار الأردن وفلسطين في العصور القديمة): ((**أبرز نتائج ما جرى من حفريات بعد سنة ١٩٥٢م غربي النهر، وما نُشر حولها من دراسات، هو أنه لم يُعثر على آثار عبرانية تعود إلى الدور الأول من العصر الحديدي**))(٣).

وكمثال رابع على التسرع في اتخاذ ما ليس بحجةٍ حجةً، يذكر وايتلام عن الباحثة الآثارية التوراتية كنيون قولها: ((هذه الفترة هي بلا شك تلك التي نما فيها الوعي

---

(١) المرجع نفسه، (٢٥٧).

(٢) نشرته الهآرتس يوم الجمعة (٢٩/١٠/١٩٩٩) ونشرت ترجمة المقال الحياة الجديدة (٣٠/١٠/١٩٩٩).

(٣) آثار فلسطين والأردن في العصور القديمة، تأليف محمود أبو طالب، نقلا عن كتاب آثار فلسطين، (١٢٤) للأستاذ حسين عمر حمادة.

الإسرائيلي القومي نموّاً ملحوظا، فالرواية التوراتية توضح كيف تجمعت هذه الجماعات بالتدريج في بوتقة واحدة، وتُظهر محاولاتها في التوحد على أساس دنيوي تحت حكم القضاة،...، في هذه الظروف، تمكنت هذه الجماعات من جمع تقاليد أسلافها تحت مظلة واحدة، وهي دين يَهوَه، وآمنت بأن جميع أسلافها شاركوا في الخروج من مصر، هكذا بدأت الأمة بالظهور..))[1]، ويُعلق وايتلام على قول كينيون هذا بقوله: ((من الصعب معرفة كنه المكتشفات الأثرية التي مكنت كنيون من الوصول إلى هذه النتيجة، وإلى أن الوعي القومي لشعب إسرائيل، كان يتنامى خلال تلك الفترة،...، **إن تفسير كنيون للمكتشفات الأثرية يرجع أساساً لتأثرها بفهم مسبق للقصص التوراتية، وآراؤها تشيع فيها تعبيرات مثل: (قوم) و(قوميّ): إنها الدولة القومية التي تمثل الحضارة الغربية (الأوروبية)**؛ وإسرائيل القديمة، كدولة قومية أو دولة ناشئة، تشكل همزة وصلٍ مباشرٍ مع أوروبا على أساس كونها جوهرَ الحضارة ذاتِها، **فأهمية المنطقة إذن تكمن في أهميتها لفهم أصول الحضارة الغربية (الأوروبية) والتقاليد التوراتية، التي هي أساس تطور التراث اليهودي- المسيحي في الغرب**، ولكنها لا تشمل أي اهتمام حقيقي في تاريخ المنطقة أو سكانِها الأصليين))[2]، وهذا رغم أن الباحثة الآثارية كينيون من أكثر الباحثين الذين اكتشفوا وأعلنوا اكتشافاتهم أن القدس أقدم وجودا من إسرائيل القديمة ذاتها، وقد قرأ لها القارئ في بحثنا هذا عدّةً من التحقيقات والإعلانات الآثارية الصائبة، وسيقرأ لها مثل ذلك فيما يأتي إن شاء الله تعالى.

وثمة مثال خامس على هذا التسرّع الدافع إلى التعلق بالسراب، تمثّلها رؤية الباحث التوراتي برايت، التي تفيد ((أن الرواية المتعلقة بفترة عصر الآباء، تُمدُّنا بالمعلومات التاريخية الموثوق بها، لأنها حسب قول برايت (تتلاءم تماما ودون أي شك مع محيط الألف الثاني قبل الميلاد، ولا تتلاءم مع أي فترة لاحقة أخرى)))، ويقول وايتلام معلّقا: ((ومثلما تم

---

(١) يُنظر كلام كينيون في: اختلاق إسرائيل القديمة، (٩٤).

(٢) المرجع نفسه، (٩٤).

التخلي بالتدريج عن هذه النظرية لفهم سفر التكوين، وذلك تحت وطأة نقد طومسون وفان سيترز وغيرهما، فإننا نستطيع القول إن هذا الفهم لمادة سفر القضاة يعاني من نقاط الضعف نفسها»[1]، ف«لا تكاد تكفي نوعية المعلومات المتعلقة بالبناءات الاجتماعية، والتي يُمكن استخلاصُها من النص، للدلالة على صدق الرواية لفترة ما قبل الدولة،...، وذلك بالنسبة للقرنين الثاني عشر أو الحادي عشر قبل الميلاد، وليس في أي فترة أخرى، فقد كانت فلسطين طوال تاريخها الطويل مجتمعا زراعيا في الأساس مع عنصر رعوي مهم، وذلك ابتداءً على الأقل من العصر البرونزي حتى القرن الحالي، **فالعناصر المكونة لهذا المجتمع، كما حددها سفر القضاة، يمكنها بسهولة أن تتلاءم مع أي مرحلة تاريخية في هذه الفترة الزمنية الهائلة**»[2].

إنه لا يكفي أن يكتشف آثاري بعض ما يتلاقى مع ملامح المجتمع الإسرائيلي كما صورها سفر من الأسفار لإثبات مصداقية الوجود الإسرائيلي السابق، فإن هذه الملامح لا تخص المجتمع الإسرائيلي فحسب، بل هي صالحة لإثبات غيره من المجتمعات السابقة عليه، لتشابه كثير من الأنماط الزراعية والحياتية بين المجتمعات القديمة، خاصة إذا لم تكن بينها فترات طويلة، كحال الفرق بين العصر البرونزي المتأخر، والعصر الحديدي الأول، فنهاية العصر البرونزي المتأخر هي ذاتها بداية العصر الحديدي الأول.

وسنذكر شيئا من نقد تومبسون الذي أشار إليه وايتلام في الباب السابع، عند مناقشتنا للتوراة كمصدر تاريخي، إن شاء الله تعالى.

ونختم هنا بما ذكرته الكاتبة الباحثة هـ. فريس، في منافسة أكاديمية في كوبنهاجن عام ١٩٦٨م، ويصف تومبسون هذه الدراسة بأنها «متقدمة كثيرا على زمانها» وقال: «**وقد توصلت الكاتبة إلى استنتاج أن معظم دراسات العهد القديم، لم تكن قادرة على**

(١) المرجع نفسه، (٧٠-٧١).

(٢) المرجع نفسه، (٧١).

الاستمرار لمدة جيل آخر))[1]، وهذا خطير للغاية، وهو دالٌّ قطعا على اضطراب شديد في محاولات كثير من الآثاريين ربطَ ما يرونه من آثار باقية بالعهد القديم، فما دامت استنتاجاتهم لم تفز بالثبات لمدة جيل واحد، فكيف تستطيع أن تُثبت التوراة والتاريخ التوراتي؟!

وهذا يُذكِّر بما نقلناه في هامش سابق عن كينيون البريطانية في وصفها لأعمال شارلز وارن بأنها غير صحيحة، فقد أثبتت كينيون أن ((**جميع استنتاجات وارين في القدس كانت خاطئة**))[2].

وكذا وُصفت أعمال أولبرايت أعلم علماء الآثار في القرن العشرين بالسطحية، وذلك على لسان تومبسون[3]، وهو أكثر خُدّام إسرائيل والتوراة في هذا الجانب؛ ولقد وصف تومبسون نفسه قبل ذلك مفهوم أولبرايت التاريخي بالضحالة، ثم وصف أعماله في أواخر حياته بأنها تتناقض تماما مع كثير من أعماله الأولى[4].

فأين البهرج واللمعان والبريق الذي كان لها أول أمرها؟

إن بهرجة الباطل ولمعانه شكل من أشكال السراب، الذي ينطفئ غشّه حينما يصله مُريده الذي يحسبه ماءً.

---

(١) التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، توماس تومبسون، (٦٤).

(٢) يُنظر: محمود أبو طالب في كتابه (آثار الأردن وفلسطين في العصور القديمة، ١٦) نقلا عن (آثار فلسطين، ١٣٨) للأستاذ حسين عمر حمادة.

ووارن هذا كان قد ألف كتابا في عام ١٨٧٥م، بعنوان: (أرض الميعاد) ((اقترح فيه على البريطانيين استيطان هذه الأرض، من خلال رغبة معلنة، بإدخال اليهود إليها تدريجيا))، يُنظر كتاب: مكان تحت الشمس، تأليف: بنيامين نتنياهو، ترجمة: محمد عودة الدويري، (٥٦).

(٣) التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، تومبسون، (٢١).

(٤) المرجع نفسه، (١٦).

الفصل الرابع: آثاريون يهود وغربيون ينفون الدعاوى اليهودية

لم يقدر الباحثون المزوّرون أن يسرقوا فلسطين القديمة، ليجعلوا محلها إسرائيل القديمة، ثم ليجعلوا محل فلسطين المعاصرة إسرائيلَ المعاصرةَ في العصر الحديث؛ لم يقدروا على ذلك بدليلٍ يستطيع القيام على أرض من الحقيقة، وإنما انطلق دليلُهم من نصوص التوراة، وإن النص التوراتي الذي لم يستطع إثبات نفسه أمام عيون النقد المبصرة، إنه يحكي قصصا تزيِّن للسارقين سرقتهم، وهي قصصٌ لم يشهد لها إلا السارق نفسه، وما علمنا أبدا أن شهادة اللص معتبرة في ادِّعائه ملكيّة المسروق.

ثم قام هؤلاء المزوِّرون بالبحث في علم الآثار لعله يشهد لهم، وفي أيام ماضية استطاع اللص أن يُجيّر كثيرا من روّاد هذا العلم لصالح لصوصيته، كما رأينا في فصول سابقة من هذا الباب؛ غير أن الأمر تحوّل أخيرا، فلم يصبر كثير من الآثاريين عن إبداء الحقيقة، بعد أن قصدوا إنصافها، بل منهم من لم يلوِّث نفسه أصلا بهذا التجيير أو التزوير، بل كان منذ بدايته مُتَّجها نحو الحقيقة، ولو خالفت إنجيله وتوراته.

ومن هؤلاء يهود ذوو مناصب أكاديمية عليا في الجامعات الغربية واليهودية، ومنهم باحثون غربيون؛ إن هؤلاء قاموا بكشف أغاليط وألاعيب علماء الآثار المنحازين بدوافع أيديولوجية وسياسية، والمأمول منهم أن يواصلوا خدمة الحقيقة، وأن يبذلوا جهودا أكبر في سبيلها، فالأمر لم ينتهِ بعدُ، إذ لا زالت أعماق التاريخ مجالا رحبا للبحث، ولا زال باطن الأرض الفلسطينية المقدسة ينتظر المزيد من جهود الباحثين، لتقذف بالمزيد من الحقائق التي تكشف كذب المزوّرين[1].

---

(١) من هؤلاء الذين اتّجهوا نحو الحقيقة، سواء من بداية بحوثهم أو بعد مرحلة من حياتهم البحثية: وايتلام مؤلف كتاب (اختلاق إسرائيل القديمة، وإسكات التاريخ الفلسطيني)، وتوماس

إن هذا العلم استطاع أخيرا أن يستقطب من المتخصصين الآثاريين، إسرائيليين وغربيين، من يقول الحقيقة ببيان علمي تخصصي، وشجاعة أدبية عالية.

وسنرى أن للحقيقة رونقا خاصا، ونورا ساطعا، وبريقا خلابا أصيلا يزيِّنها؛ وصوتا بريئا، لكنه مجلجل، تخترق به الحقيقة سدود الظلام؛ ولا بد أنها (أي الحقيقة) ستجد لها في كل سبيل أنصارا، ولو حاولت دعايات الظلام وزخرفاته أن تطغى عليها، فلا بد أن تظهر ولو بعد حين.

إن أعظم شُهّاد القضية، وهو علم الآثار، رفع عقيرته أخيرا بما لا يَسُرُّ بني يهود، فلما قام بحثنا هنا باستنطاقه، تدفقت الحقيقة عبر كل حفرية من الحفريات، ومع كل ضربة معول؛ لتنطق بالصدق والحق المبين، وإن الحقيقة لن تستحِيَ ممن استقطبهم اليهود والبروتستانت، من مؤرخين وعلماء آثار وسياسيين ومفكرين، ممن اشتُروا أو غُرِّرَ بهم، أو خضعوا لأساطير التوراة، لينطقوا بالكذب والزور.

لأجل إثراء الموضوع بالشواهد، فإنني أرى ضرورة الحديث عن مجريات الحفريات الإسرائيلية الباحثة عن إثبات الدعاوى اليهودية، ونخصص البحث عن الهيكل وعن آثار

تومسون، مؤلف كتاب (التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي) وغيرهما، تُنظر مقدمة الدكتورة سحر الهنيدي لكتاب (اختلاق إسرائيل القديمة) لوايتلام؛ ومنهم ديفير الذي ذكره وايتلام (اختلاق إسرائيل القديمة ١٢٢) ضمن سياق قال فيه: ((فقد تمكن علم الآثار السوري- الفلسطيني من الخروج من هيمنة علم الآثار التوراتي في أعمال ديفير الرائعة)).

وكذلك منهم يهود كإسرائيل فينكلشتاين ودافيد أوسيشكين من جامعة تل أبيب، وذلك في دراسات أجرياها حديثاً وصفت بأنها تشكل ((انقلاباً)) على ما كان يعتبر مسلمات وردت في ((التاناخ، كتاب التوراة اليهودية))؛ يُنظر المقال الذي نشرته المجتمع الكويتية في عددها (١٣٠٤) بعنوان: عالما آثار إسرائيليان يشككان في حقيقة الهيكل المزعوم؛ ومنهم واحد من أهم وألمع المؤرخين وعلماء الآثار الاسرائيليين البرفسور ((زئيف هرتسوغ))؛ يُنظر المقال الذي نشرته جريدة الاتحاد الإماراتية بتاريخ ٢٠٠٠/٣/٨، بعنوان: ((المؤرخ الإسرائيلي هيرتسوغ يفضح الأكاذيب التوراتية))؛ هذا، وستأتي معنا الإشارة إلى بعض تحقيقات هؤلاء اليهود والأوروبيين والأمريكيين.

عمرانٍ ترجع إلى عهد داود وسليمان عليهما السلام بتفصيل خاص، لنكتشف من نتائج هذه الحفريات: شواهد مفصلة تدحض فكرتين معاً، الأُولى: فكرة الحق أو السبق التاريخي اليهودي، والفكرة الثانية هي: فكرة الهيكل نفسه.

وستُثبت هذه الحفريات والشواهد أن الهيكل لا يتجاوز كونه أسطورة إسرائيلية كُتِبت لها شُهرة سدَّت الآفاق، ولا عجب أن تسُدَّ أسطورةٌ الآفاقَ، بعد أن شهد العالم هذه الآفاق مملوءةً دما، ومتناثرةً أشلاء، ومكنوزةً تلوُّثا ملأ الأرض والهواء، وأكاذيبَ تُشعل حروبا، وزعماءَ كبارا تلوك هذه الأكاذيب؛ لكنَّ حجارة العصور القديمة أبت إلا النطق بعد طول سكوت..

ومن هنا فإننا نقول: إذا كان البحث عن المفقود صعباً، فإن البحث عن المعدوم سيكون مستحيلا!

وسيكون هذا الفصل إن شاء الله تعالى مقسّما إلى مباحث ثلاثة:

المبحث الأول: نتائج الحفريات الآثارية عموما.

المبحث الثاني: نتائج الحفريات الآثارية في المدينة المقدسة.

المبحث الثالث: شهادات ناطقة بعدم وجود الهيكل.

المبحث الأول: نتائج الحفريات الآثارية عموما

لم تُسعف الحفريات التي أُجريت في فلسطين[1] الآثاريين التوراتيين، بل جاءت ضربات المعاول بالمزيد من الكشوف التي تدحض آراءهم.

فإن المُدَّعى توراتيا أن جماعة من البشر هم بنو إسرائيل قد وردوا فلسطين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وهي تشكّل في الدعاوى التوراتية بداية الوجود الإسرائيلي في فلسطين.

وسيأتي معنا في الباب القادم، حين حديثنا عن تسمية فلسطين بهذا الاسم، سيأتي معنا بيان ذلك الأثر الذي تركته الأقوام التي قيل إنها شعوب البحر، والتي وردت فلسطين في فترة ورود الإسرائيليين نفسها تقريبا، وذكرنا أن هذه الشعوب قد تركت آثارا تتحدث عنها، فهل ترك الإسرائيليون آثارا تتحدث عنهم في الفترة ذاتها؟

الجواب ننقله عن اللاهوتي والعالم الآثاري هـ. جي. فرانكن، الذي أجرى حفريات في الأردن وسوريا، والذي كتب مجموعة من الكتب والمقالات في علم الآثار، وكان محاضرا في المرتبة العليا في علم الآثار الفلسطينية في لايدن[2]، يقول في مساهمة له ضمن مشروع كامبريدج للتاريخ القديم: "إذا وضعنا النص التوراتي جانبا، فإن علم الآثار لم يتوفر لديه سبب واحد يدفعه إلى القول بأن القرن الثالث عشر قد شهد تشكل شعب

---

(١) حتى عام ١٩٤٤، سُجل في فلسطين ٢٨٦٧ موقعا أثريا وتاريخيا، وذلك حسب جريدة الوقائع الفلسطينية الناطقة باسم الانتداب البريطاني، في أحد ملاحقها الذي أصدرته في تشرين ثاني ١٩٤٤م، يُنظر: آثار فلسطين، حسين عمر حمادة، (٨٥).

(٢) كما ذكر ذلك كله عنه الدكتور كامل جميل العسلي، وقال العسلي عنه أيضا: "درس اللاهوت واللغات السامية في أمستردام ولايدن، وحصل على دكتوراه في الفلسفة في دراسات العهد القديم من لايدن.."؛ يُنظر تقديم الدكتور العسلي لمجموعة الأبحاث التي نشرها، ومن ضمنها بحث فرانكن هذا: (القدس في العصر البرونزي).

جديد في فلسطين، اتخذ وضعه كأمة مكتملة مع نهاية القرن الحادي عشر، إن البينة الأركيولوجية على حلول جماعة إثنية جديدة في فلسطين مفقودة بالمعنى العلمي الدقيق لهذه الكلمة؛ إنه لمن المتعذر على تقنيات الأركيولوجية الحالية تلمس الآثار على وصول عناصر إثنية جديدة إلى موقع ما، إذ لم تترك لنا هذه العناصر مخلفات مادية عند وصولها، ذات طابع ثقافي متميز بشكل واضح عن طابع الجماعة السابقة، التي حلت بين ظهرانيها أو حلت محلها، وهذا ما لم نستطع التوصل إليه فيما يتعلق بالجماعات العبرية».

وفي كلام فرانكن نسف لفكرة انتقال الشعب الإسرائيلي في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وهي الفترة التي يُفترض توراتيا أنها الظرف الزماني الذي فيه وصل يوشع بن نون عليه السلام ببني إسرائيل إلى فلسطين(1)، إن علم الآثار لم يكتشف أي تغيّر في تلك الفترة يسمح بقبول فكرة دخول أقوام آخرين غير السكان الأصليين، وهم هنا الكنعانيون؛ إلى أرض فلسطين.

ويظهر أن من التوراتيين من حاول الإيهام بأن مثل هؤلاء الإسرائيليين قد لا يستطيعون ترك آثار تتحدث عنهم، فهم بدوٌ رُحَّل، والبدو لا ينحتون ولا يتركون لهم

---

(1) ولا بد أن نؤكّد أن نصوصنا الإسلامية تُثبت قدوم يوشع بن نون إلى بيت المقدس، غير أن هذه النصوص لا تحدد تاريخ الوصول هذا، ومع ذلك فهي آتية ضمن سياق فكري منتظم تتتابع فقراته على رفض الاغتصاب للأرض والقتل للسكان، وهي الصورة الشائهة التي رسمها سفر يوشع من أسفار العهد القديم.

وأمر آخر في سياقنا الفكري المنتظم وغير المتناقض: هو أن الوجود القديم إن ثبت فهو لا يبرر الاحتلال المعاصر، بل في تصوّرنا أن الوجود القديم لبني إسرائيل في فلسطين ضمن الكنعانيين، هو وجود ذو رسالة ربانية، ليس منها طرد الشعب ولا إحلال سكان آخرين مكانه، وفي السياق نفسه كشف واضح أن بني إسرائيل لم يحملوا الرسالة التي ألزمهم الله بها، فاستحقوا الطرد من الأرض، ذلك الذي لحق بهم في السبيَيْن الأشوري والبابلي.

وسنفصل القول في مسألة مدى ثبوت الحق بالأرض استنادا على وجود تاريخي قديم فيها، وذلك في بابين خاصَّين آتيين.

آثارا..

يقول فرانكن في ردِّه على مثل هذه الشبهة: ((وأما القول بأن الجماعات العبرية التي دخلت واستقرت في كنعان هي من أصل بدوي أو رعوي، وأن الجماعات البدوية لا تترك وراءها الكثير من المخلفات ذات الطابع الثقافي المتميز، فهو قول مردود؛ **لأن تقنيات التنقيب الجديد، صارت قادرة على تتبع تحركات الجماعات البدوية القديمة، ورصد علاقاتها وتفاعلاتها مع محيطها، ولا أدل على ذلك من النتائج القيمة التي توصلت إليها السيدة كاثلين كينيون عن جماعات الأموريين البُداة في فلسطين خلال الفترة الانتقالية من عصر البرونز المبكر إلى عصر البرونز الوسيط؛ إن العنصر الثقافي الوحيد الذي يمكن أن نعزوه للقبائل العبرية بأي درجة من الثقة هو ديانتها المتميزة، ولكن هذا العنصر قد بقي حتى الآن غير واضح من الناحية الأركيولوجية، ولا يوجد لدينا ما يدل عليه))**[1].

للأسف: لقد لوَّث الإسرائيليون توراتهم بما حال بينها وبين الانتساب إلى السماء، وبألوان من التناقض مع التاريخ والآثار، حتى لم تَعُدْ قادرةً على إثبات نفسها، وبالتالي عن إثبات وجود قديم لبني إسرائيل في فلسطين.

إنه لا يمكن أن يُثبت الإسرائيليون آثاريا أنهم دخلوا الأرض الفلسطينية، وليس لهم من دليل سوى التوراة، ومشكلة التوراة أنها خلطت ما بقي فيها من صحيح الوحي بكثير من الخرافات، وليست المشكلة أن الاثار لا تتحدث عن دخول أقوام إلى فلسطين في ذلك الزمان، بل سيأتي معنا أن المشكلة الكبرى تكمن فيما أثبته علم الآثار من تناقض بين مكتشفاته وبين المقررات التوراتية، كما سنقرأ ذلك في الفصل التالي حول سفر يوشع، وكما سنقرأ في الباب الأخير من هذا البحث، عند مكاشفة مقررات التوراة على ضوء

---

(١) نقلنا هذا النص للعالم الآثاري فرانكن عن كتاب: آرام دمشق وإسرائيل، للأستاذ فراس السواح، (١٠٠).

علم الآثار.

فأن لا تجد التورة لها دليلا لإثباتها شيءٌ، وأن تجد ما يناقض دعواها شيءٌ آخر، وهو بلا شك أخطر وأضخم.

هذا، ويُسمّي بعض الآثاريين والمؤرخين التوراتيين ما يقولون إنه دخول للإسرائيليين إلى فلسطين، يسمونه غزوا، به يفسرون بداية الوجود الإسرائيلي في فلسطين، ومن أولئك: الآثاري التوراتي أولبرايت، وفي مقام دحض بعض أقواله عن إسرائيل القديمة، يقول وايتلام: "..وكما في نظرية الغزو التي روّجها أولبرايت، **فإن كمية المعلومات الأثرية المتزايدة يوما بعد يوم، توضح أن تاريخ غوتفالد، وما يتضمنه من صياغات أخرى كثيرة ومختلفة، هو ماضٍ متخيَّل ومختلق**"(١).

وتاريخ غوتفالد هذا يذكر نظرياتٍ في تفسير كيفية وجود الشعب الإسرائيلي في فلسطين، ومنها التي تسمى نظرية الغزو، والتي ترى أن وجود الشعب اليهودي في فلسطين جاء عن طريق الغزو من الخارج، وهي بخلاف نظريات أخرى، يسميها وايتلام: النماذج؛ يقول وايتلام: و"لقد برهنت التغيُّرات في المنظورات التي تُقرأ بها التوراةُ العبرية،...، بالإضافة إلى المعلومات الأثرية المتراكمة، من حفريات في مواقع مختلفة، وكذلك أعمال المسح المحلية في فلسطين؛ **برهنت على أن تلك النماذج والنظريات المختلفة، ليست إلا اختلاقا لماضٍ متخَيَّل**"(٢).

ويقصد وايتلام بالنماذج، تلك الرؤى التي توزّعت إلى ثلاثة أصناف، كلٌ منها يفسِّر إقامة المملكة الإسرائيلية القديمة، على شكل من الأشكال، فمنها ما قرر أنها قامت عن طريق الغزو الخارجي (وهو رأي كل من أولبرايت ورايت) ومنها القول بأن مملكة إسرائيل القديمة قامت عبر الهجرة والتغلغل السلمي (آلت ونوث) وثالث هذه التفسيرات

---

(١) اختلاق إسرائيل القديمة، (١٩٣).

(٢) المرجع نفسه، (١٩٤).

انطلق من أن ثورة داخلية حدثت، جعلت مملكة إسرائيل تقوم (مندهول، وغوتفالد)[١]، ويؤكد وايتلام أن هذه النماذج اتفقت على إنكار الماضي الفلسطيني، وإن اختلفت في كيفية نشوء الماضي الإسرائيلي.

ويقول وايتلام معقبا على ادعاءات أولبرايت: ((وما يثير السخرية أن المكتشفات الأثرية الحديثة ذاتها، من الحفريات والدراسات الاستطلاعية في المنطقة، **هي نفسُها التي قوّضت بشكل كامل رواياته المختلفة عن الماضي**))[٢].

ومراحل تكوُّن شعب إسرائيل كما في التوراة، هي مراحل متعددة، ويهمنا الإشارة إلى ما له منها علاقة بفلسطين، ابتداءً من وجودهم، بغض النظر عن تفسير هذا الوجود وكيفيته، ومرورا بمرحلة القضاة ثم المملكة الموحدة ثم المملكة المنقسمة ثم النفي الآشوري فالبابلي، ولا نقصد إلى تفصيل شيء من ذلك، فمحلُّه غير بحثنا هذا، وإنما نقصد الإشارة السريعة إلى قول علم الآثار في هذه المراحل..

يقول عالم الآثار الإسرائيلي زئيف هيرتسوغ في مقال له[٣]: ((أغلبية المنشغلين في النقاشات العلمية في مجال توراة وآثار وتاريخ شعب إسرائيل، الذين كانوا حتى الآن يبحثون في الأرض عن البراهين، والدلائل للحكايات الواردة في العهد القديم، يتفقون الآن على أن مراحل تكوُّن شعب إسرائيل كانت مغايرة تماماً لِما يوصف في التوراة))، ويقول هيرتسوغ أيضا في المقال نفسه: ((المكتشف الأثري يُناقض بوضوح الصورة التوراتية)).

إن هذا الكلام من العالم الآثاري الإسرائيلي هيرتسوغ لينسف دعاوى تاريخ إسرائيل

---

(١) تُنظر مقدمة د. سحر الهنيدي، مترجمة كتاب (اختلاق إسرائيل القديمة)، وايتلام، ولمناقشة هذه النماذج يُنظر كتاب: (القدس: مدينة واحدة، ثلاث عقائد)، تأليف: كارين أرمستونج، (٥٤-٥٦).

(٢) وايتلام في كتابه (اختلاق إسرائيل القديمة ١٥٣).

(٣) نشرته الهآرتس يوم الجمعة (٢٩/١٠/١٩٩٩) ونشرت ترجمة المقال الحياة الجديدة (٣٠/١٠/١٩٩٩).

القديمة، فما من أثر أيَّد الدعاوى التوراتية أبدا، ولذا قالت السيدة فرانسواز سميث، عميدة كلية اللاهوت البروتسنانتي: ((**لقد خلصت البحوث التاريخية التي أجريت مؤخرا إلى أن الروايات التقليدية عن الخروج من مصر، وغزو كنعان، والوحدة القومية الإسرائيلية قبل النفي؛ لا تعدو أن تكون قصصا خيالية**))(١).

إن البحوث الأثرية والتاريخية قد ردَّت ردودا مفحمة على دعاوى التاريخ الإسرائيلي القديم في فلسطين، إنه لم يبق لهذه الدعاوى مما يؤيدها شيء من علم الآثار ولا من علم التاريخ، إلا إذا كان بعض الآثاريين والمؤرخين يصرّون على تجاوز الكشوف الأثرية واعتماد التوراة، وسيأتي مزيد من البحث عن التوراة نفسها في الباب الأخير من هذا البحث، وقد نضطر إلى شيء من التكرار لبعض كلام الآثاريين المذكور هنا.

هذا الذي نقلناه عن فرانكن ووايتلام وهيرتسوغ وغيرهم، يدور حول عدم وجود شيء من المكتشفات يدلّ على دخول بني إسرائيل الأرض المقدسة، وسننتقل إلى حديث علم الآثار نفسه عن فترة داود وسليمان عليهما السلام، لنرى كم ستحظى التوراة من تأييد آثاري لِكلامها عن تلك الفترة!

وسنبدأ بكلام وتحقيقات المُنقِّبة الآثارية والباحثة البريطانية كاثلين كينيون، التي جاء ذكرها في كلام فرانكن الذي نقلناه قبل قليل، ولا بأس أن نذكر بعض تحقيقاتها هنا..

إن للباحثة والمنقِّبة الآثارية كاثلين كينيون كتابا في الآثار الفلسطينية، أثبتت فيه نتائج تنقيباتها في فلسطين، واسم كتابها هذا هو: (القدس، حفريات ٣٠٠٠ سنة)، **وقد نقضت فيه عددا من الأفكار والمعتقدات التي نشرها آثاريون ينتمون إلى المدرسة التوراتية**(٢)؛ ومن الجدير ذكره أن تنقيباتها في فلسطين ابتدأت عام ١٩٦١م، وانتهت عام ١٩٦٧م،

---

(١) البروتستانت والتوراة وإسرائيل منذ عام ١٩٤٨م، مجلة لالتر، العدد (٣١٣) تشرين الثاني ١٩٨٤م، نقلا عن: الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، تأليف: روجيه جارودي، (٤٣-٤٤).

(٢) حماية الآثار والمقدسات العربية في فلسطين، للدكتور رائف نجم، نشرته مجلة صامد في عددها (٨٥) الصادر عام ١٩٩١م.

وكانت تُحَذّر باستمرار من ربط نتائج التنقيبات الأثرية بالحوادث التوراتية، ومن أسباب توقفها عن العمل الآثاري في فلسطين، احتجاجُها على إسرائيل نفسها[1]..

وينقل وايتلام عنها قولَها عن فترة حكم سليمان وداود عليهما السلام: ((إن المكتشفات الأثرية المتعلقة بهذه الفترة شحيحة جداً))[2]، وتقول كينيون أيضا: ((ولم يتم العثور على أية آثار في مواقع سليمان في فلسطين، التي تدل على فخامة الثراء الذي كان يتمتع به بلاطه، وعلى النقيض فإن تلك الآثار تشير إلى المستوى الهابط للحضارة المادية أيام سليمان، وكل شيء جرى تضخيمه في تلك الأيام))[3].

وينقل وايتلام عن مازار في دراسته التي وصفها وايتلام بأنها تتسم بالتحفظ، أنه على الرغم من أن التوراة تقول: إن داود حكم لمدة أربعين سنة، ((فإن مما يدعو إلى السخرية، **ألا نجد إلا آثارا ضئيلة من فترة داود، كما لا توجد أي مبانٍ أثرية ترجع إلى هذه الفترة**))[4]، وهو يعترف أنه بالمقارنة مع الحضارات المجاورة، **فإن الآثار الباقية** ((**في أرض إسرائيل فقيرة للغاية**))[5].

ويقول وايتلام: ((**وبالمثل، فإن إمبراطورية داود المزعومة، كما صوّرها نوث وغيره، لم تترك أي آثار مادية**))[6]، هذا رغم أن العهد القديم قد ملأ الدنيا عنها حديثا؛ فكيف

---

(١) تُنظر: الموسوعة الفلسطينية، القسم المعجمي، (٨/١)، ويُنظر: آثار فلسطين والأردن في العصور القديمة، تأليف محمود أبو طالب، نقلا عن كتاب آثار فلسطين، (١٢٥) للأستاذ حسين عمر حمادة.

(٢) اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (٢٥٧-٢٥٨).

(٣) كتاب كينيون عن آثار الأرض المقدسة، نقلا عن: أنفاق القدس، موقعها في التاريخ، والحفريات الصهيونية، لبيسان جهاد عدوان، نشرته مجلة صامد في عددها (١٠٩) الصادر عام ١٩٩٧م.

(٤) اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (٢٥٧).

(٥) المرجع نفسه، (٢٥٧).

(٦) المرجع نفسه، (٢٥٧).

أثبتوا إذن إسرائيل القديمة، والحال أن فترة داود عليه السلام لم تترك لعلم الآثار شيئا يراه؟

ويقول الباحث الإنجليزي فرانسيس نيوتن في كتابه (الانتداب على فلسطين): ((لم يوجد في فلسطين نقش واحد يمكن أن يُنسب إلى المملكة العبرية،...، **لقد فشلت اليهودية في أن تقدم أي أثر لداود أو سليمان، أو أي نقش أو حجر أو حتى أي نصب تذكاري، ولذا فإن قضيتهم تفتقر إلى دليل مادي مسجل** على غرار الأمثلة التي توجد لحياة شعوب غرب آسيا))(١).

فأين الآثار التي تركتها إسرائيل القديمة، وقد ترك غيرها ممن سبقها في الوجود آثاراً شاهدة!؟

ولا يمكن أن يقال: إن أعداء إسرائيل القديمة قد دمروها جميعها، لأننا نسأل: وهل دمّر أعداء إسرائيل كل مكان كان فيه يهود وإسرائيليون في فلسطين، وتركوا ما لم يكن فيه يهود؟ وإلا، مرة أخرى: فأين الآثار؟

وهنا نختم بكلامِ لوايتلام المتميّز بدقة البحث: ((**لا يعدو تصوّر تاريخ إسرائيل القديم كما ورد في القسم الأكبر من التوراة العبرية، أن يكون قصة خيالية، وهو بمترلة اختلاق للتاريخ**، شأنه شأن معظم رؤى الماضي التي كوّنتها المجتمعات القديمة، بل والحديثة أيضا))(٢).

أرجو أن ينتبه القارئ الكريم إلى أن نفي علم الآثار لشيء اسمه: إسرائيل القديمة، يعني: نفي تعلُّق هذه (الإسرائيل) بفلسطين!!

فهل لدى الآثاريين اليهود بعد كل تلك الاعترافات أو الشهادات من يهود وغربيين، هل لديهم بعد كل ذلك ما يُمكِّنهم من دعوى تاريخ إسرائيلي في فلسطين القديمة؟!

---

(١) الانتداب على فلسطين، تأليف: فرانسيس نيوتن، نقلا عن: تاريخ فلسطين القديم، تأليف: ظفر الإسلام خان، (١١٦).

(٢) اختلاق إسرائيل القديمة، (٥٩).

هذا، ويبدو أن القارئ الكريم ينتظر منا حديثا حول نتائج الحفريات الإسرائيلية وغير الإسرائيلية في منطقة القدس، وهذا ما سيتكفَّل به المبحث التالي، مع الإشارة إلى أن كثيرا من الذي ذكرناه في المبحث الذي نحن في خاتمته، يكفي للجواب عما يـــدور في نفـــس القارئ الكريم، ففيه نفي لآثار إسرائيلية في فلسطين عامة عن الفترة الإسرائيلية المُـــدَّعاة توراتيا، لكن تخصيص القدس بالبحث ذو أهمية خاصة، فإليه!

المبحث الثاني: نتائج الحفريات الآثارية في مدينة القدس

سيرى القارئ هنا قليلا من التكرار لبعض ما ذكرناه من تحقيقات قام بها آثاريون غربيون أو إسرائيليون حول الحفريات في فلسطين عموما، اضطررنا أن نذكرها مرة أخرى في هذا المبحث عن الحفريات في القدس، اقتضته طبيعة الموضوع..

إن الحفريات الإسرائيلية المعاصرة، وقبل الإسرائيلية المعاصرة، بذلت جهودا كبيرة، ذكرنا بعضها في فصول سابقة، لأجل أن تؤكد خبرا توراتيا عن القدس، لكنها فشلت، وإن كانت تدَّعي سابقا أنها نجحت، وإن كان نتنياهو يدَّعي نجاحها، وفصل ما بيننا وبين نتنياهو والذين يدَّعون نجاحَها، هو علم الآثار الإسرائيلي نفسه..

يقول البروفيسور زئيف هيرتسوغ، وهو عالم الآثار الإسرائيلي الشهير، يقول في مقال له[1]: ((أجزاء واسعة من المدينة حفرت خلال الـ ١٥٠ سنة الأخيرة، وخلال ذلك اكتشفت بقايا مثيرة من العهد البرونزي الأوسط، والعهد الحديدي ب (أيام مملكة يهودا) **ولم تُكْتَشفْ من عهد المملكة الموحدة –حتى حسب التوثيق الذي يحظى بالإجماع– آثارُ بناء، ولم تكتشف فقط إلا مجموعة من الأواني الفخارية**))، ونقول: فإذا لم تكتشف من عهد المملكة الموحدة، والتي تشمل فترتي حكم داود وسليمان عليهما السلام، إذا لم تكتشف آثار بناء كما قال هيرتسوغ، فأين الدعاوى الإسرائيلية بالسبق اليهودي في بيت المقدس إذن؟ إن معنى كلامه هذا أن لا الهيكل ولا سواه من الأبنية اكتُشف، فمن أين يثبت شيء إذن إذا لم يُرَ أثره؟

إن هيرتسوغ يعترف أن آثارا مثيرة قد اكتُشفت لفترات تعود إلى أزمان أبعد من الزمان المفترض لزمان بناء الهيكل بقرون طويلة، ولكن لم تترك المملكة الموحدة التي

---

(١) نشرته الهآرتس يوم الجمعة (١٩٩٩/١٠/٢٩) ونشرت ترجمة المقال الحياة الجديدة (١٩٩٩/١٠/٣٠).

جاءت فيما بعدُ أثرا؛ إن الأبعد منه زمانا ترك آثارا تتحدث عنه، وهو، رغم قرب زمانه المفترض، لم يترك له شاهدا، فماذا يعني هذا؟!

ويقول هيرتسوغ أيضا: ((على ضوء الآثار المحفوظة من العهود السابقة واللاحقة، أصبح واضحا أن القدس في عهد داود وسليمان كانت مدينة صغيرة، وربما كانت بها قلعة ملك صغيرة، **إلا أنها لم تكن بأي شكل عاصمة الإمبراطورية الموصوفة في كتب التوراة**))، وهذا الذي قاله يخالف تماما دعوى التوراة حول دولة عظمى بناها داود عليه السلام، وهو بهذا يشكك في المعلومات المنسوبة إلى التوراة، وهو يخالف أيضا المستندِينَ على التوراة بشأن هذه المملكة، من أمثال بطرس البستاني الذي ذكر في موسوعته: دائرة المعارف، أن مملكة داود عليه السلام ((امتدت شمالا شرقيا إلى الفرات، وجنوبا غربيا إلى البحر الأحمر، فدانت له كل هاتيك البلاد، إلا فينيقية، فإنه سلك معها سبيل الصلح، وبقيت على استقلالها))[(١)]، فأين الآثار الدالة على ما يقوله البستاني وغيره، إذا كان من سبق الوجود الإسرائيلي ترك أثرا، وهذا الوجود الإسرائيلي لم يترك شيئا يدل عليه؟

وقد نشرت مجلة المجتمع الكويتية أن عالِمَي الآثار الإسرائيليين إسرائيل فينكلشتاين ودافيد اوسيشكين، من جامعة تل أبيب، أكدا في دراستين منفصلتين لهما، أن مدينة القدس لم تكن في عهد نبي الله سليمان سوى قرية صغيرة، وبالتالي فإن القدس لم تكن قطعاً في فترة سليمان عليه السلام عاصمة لمملكة أو ((امبراطورية)) كما ورد في الرواية التي يسوقها كُتّاب التوراة عن تلك الحقبة الزمنية.

وتأسيساً على ذلك يطرح الباحثان اللذان يعدان من ذوي الصيت والشهرة في إسرائيل في مجال علم الآثار، يطرحان علامة استفهام كبرى حول ما كان يعتبر إلى الآن من المسلمات التي نصت عليها التوراة، من أن الملك سليمان هو الذي بنى المعبد ــ الهيكل ــ اليهودي المقدس الأول في القدس.

---

(١) بطرس البستاني، في موسوعته: دائرة المعارف، (١١/٦٦٤)، مادة: العبرانيون.

وبحسب الاستنتاجات المتطابقة التي توصل إليها عالما الآثار والتي بدأت تثير موجة جدل وانتقادات شديدة، لاسيما من قبل المتعصبين اليهود، فقد استبعد الباحثان كلياً إمكانية أن تكون المباني التي ينسب تشييدها إلى الملك سليمان، ومن بينها قصره والهيكل الأول في القدس؛ استبعد الباحثان أن تكون هذه المباني قد بنيت في عهده، ويقول الدارسان **إن بحوثهما تثبت أن تلك المباني والمعابد لم تشيد سوى في فترة متأخرة بمائة أو مائتي سنة**»[1].

ويرى توماس طومسون أن «الدلائل أو عدم وجود دلائل، توحي بأن القدس لم تُصبح عاصمة لدولة إقليمية قبل القرن السابع ق.م. ولم ترق إلى مستوى العاصمة إلا في الفترة الفارسية»[2].

إن من المعلوم أن مثل هذا التاريخ القديم لا يَثبت إلا بالآثار أو بالكتابة المتناقلة الصحيحة أو بالوحي الرباني، ولم يتحدث الوحي الرباني عن إمبراطورية حكمها داود عليه السلام، ولم يأت في الآثار شيء دالٌّ عليها، وليس ثمة مكتوبات غير توراتية، فمن أين لهم أن داود عليه السلام كان يحكم إمبراطورية إذن؟!

ثم إن الفترات التي ادَّعى روّاد المدرسة التوراتية الآثارية أنها إسرائيلية، إنها فترات شحيحة للغاية في الآثار التي تدل عليها، ومع ذلك، فهم يغضون الطرف غالبا عن هذه المشكلة، لأنهم فيما يبدو لا يملكون حلاً لها، ويصف وايتلام الدراسات التوراتية بأنها

---

(١) مجلة المجتمع الكويتية، العدد (١٣٠٤) ونشرت المجتمع ضمن المقال نفسه، موقف الحاخامات اليهود من هذا الكشف الآثاري، إذ علق حاخام إسرائيل الأكبر إلياهو بقشي دورون على المعطيات والاستنتاجات التي توصل لها عالما الآثار بقوله: «نحن أمناء على ما هو مكتوب في التوراة، ولسنا بحاجة لشهادة علماء الآثار»، فيما اعتبر عضو الكنيست المتشدد الحاخام إبرهام ربيتش من قائمة «التوراة اليهودية» المتزمتة أن عالمي الآثار ما هما إلا «زنديقين ملحدين»، وأن ما توصلا إليه يعد تطاولاً وتحقيراً مسيئاً لمسلمات دينية يهودية مقدسة.

(٢) نقلت كلام تومسون عن: اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (٢٥٩).

اختارت تجاهل مسألة عدم وجود دلائل آثارية لوجود مملكة إسرائيل[1] وقال أيضا: ((أما الدراسات التوراتية فقد تجاهلت صمت الوثائق الآثارية، واستمرت في تصور إمبراطورية إسرائيلية هيمنت على تاريخ المنطقة وحددت معالمه))[2].

وللمزيد..

يقول مئير بن دوف عن حفرياته في المدينة المقدسة: إنه اكتشف أساسات لثلاثة قصور أموية، ويشير بنيامين مازار في كتابه الذي نشره عام ١٩٧٥م، إلى أنه لا توجد أية بينات عن آثار المدينة المقدسة قبل هدم الهيكل الثاني إلا في كتب المؤرخ اليهودي يوسوفيوس والمشناة والتوراة والتلمود، ويعترف مازار أن مدينة القدس القديمة اختفت، لأن الأساس الصخري لتلك المدينة قد كُشف بالحفريات الإسرائيلية الجديدة[3].

لقد وصل الباحث الإسرائيلي إلى القاع الصخري لمدينة القدس، و لم يجد شيئا يدل على (إسرائيلِه) القديمة! مما ذكره مؤرخ اليهود يوسوفيوس، الذي لا يستطيع أحدٌ إثباتَ مصادره!

وعلى هذا فإن علم الآثار لا يستطيع إعطاء فكرة عن أبنية سليمان عليه السلام، فكوْنُه ((**لم يبق من هيكل سليمان عليه السلام ولا من أسواره شيء عقب التدمير البابلي للمدينة عام ٥٨٧ق. م.**))[4]، يجعل علم الآثار في منآة عن الاقتدار على مثل هذه المهمة؛ هذا إن سلَّمنا أن سليمان عليه السلام بنى هيكلا.

ولكن ماذا عما قيل إنهم عثروا على تحصينات داود في القدس، وعلى اسطبلات

---

(١) المرجع نفسه، (٢٥٨).

(٢) المرجع نفسه، (٢٥٩).

(٣) حماية الآثار والمقدسات العربية في فلسطين، للدكتور رائف نجم، نشرته مجلة صامد في عددها (٨٥) الصادر عام ١٩٩١م.

(٤) الحدث التوراتي والشرق الأدنى، تأليف: فراس السواح (١٤٨).

سليمان في تل المتسلم؟

يقول الأستاذ محمود أبو طالب: ((ولكن الحفريات الحديثة في القدس، وبخاصة حفريات الآنسة كينيون بين السنوات ١٩٦١-١٩٦٨م، لم تكشف عن آثار بنائية، يمكن نسبتها إلى داود أو سليمان))، فليست المسألة مسألة تحصينات داودية أو إسطبلات سليمانية فحسب، بل المسألة ألا أثر لبناءات خلّفتها المملكتان الداودية والسليمانية كليةً!

ويقول الأستاذ أبو طالب أيضا: ((أما البرج والجزء من السور، اللذان نسبهما مكالستر إلى داود في الثلاثينات، فقد وُجد أنهما يجب أن يؤرخا إلى الفترة الهيللينية، كما أثبتت الدراسات الحديثة أن ما سُمّيَ باسطبلات سليمان تل المتسلم، ليست اسطبلات، ولا تعود إلى زمن سليمان))(١).

وعليه، فالبرج المنسوب إلى عهد داود عليه السلام، ليس أكثر من بناء وُجد على الأرض بعد داود عليه السلام بحوالي سبعة قرون، ذلك أن زمان الفترة الهللينية بدأ في القرن الرابع قبل الميلاد.

ولقد أجرى مازار حفريات متعددة على طول امتداد الحائط الجنوبي، وقد تعامل مع الأنفاق العميقة، وعثر على شوارع مرصوفة، غير أن اللافت للنظر أنها تعود إلى العصر الروماني الذي كان بعد عصر سليمان بقريب من ألف عام، ((**وهذا ينفي وجود أي بقايا تعود لفترة سليمان أو داود، وهي تنفي وجود بقايا تعود للهيكل الأول والثاني**))(٢).

إن القدس ساحة مفتوحة بيد إسرائيل فحسب، فهل وجدت شيئا يدل على ادّعاءاتها؟!

---

(١) آثار فلسطين والأردن في العصور القديمة، تأليف محمود أبو طالب، نقلا عن كتاب آثار فلسطين، (١٢٥) للأستاذ حسين عمر حمادة.

(٢) الحلقة الثانية من: تفنيد مزاعم علماء الآثار الإسرائيليين للفني والنمري، جريدة القدس، ٢٠٠٢/٢/١٦.

إن حفريات أثرية ابتدأت من ستينيات القرن التاسع عشر إلى الآن، لم تكتشف شيئا مما يقوله الإسرائيليون، إلا أنها اكتشفت أشياء تناقض أقوالهم، فقذائف الأرض الأثرية تنبئ عن آثار يونانية وكنعانية ورومانية وإسلامية، لكنها لم تُنبئ أبدا عن آثار إسرائيلية، ويــا ضيعة الدعوى إن لم تجد لها دليلا أو شاهدا يشهد لها.

ولعل القارئ يطالبنا بحديث يخصّ دعوى الهيكل، فلْيقرأ إذن المبحث التالي..

المبحث الثالث: شهادات ناطقة بعدم وجود الهيكل

وأما مسألة الهيكل المُدَّعى، فهي لا تخرج قِيد أنملة عما قرَّرته الحفريات الآثارية في فلسطين عامة وفي القدس خاصة، من تأكيد على عدم العثور على أي أثرٍ يدل على وجودٍ إسرائيلي قديم، وهذا في فحواه ينفي وجود أي أثر للهيكل المزعوم أو المهدوم.

ولأجل انتقال الحديث هنا إلى تخصيص مسألة الهيكل المهدوم أو المزعوم، فلا بد من ذكر بعض ما هنالك مما يدلُّ على ما نحن فيه..

وعليه، فأودّ أن أذكر إذن بعض شهادات لآثاريين تزيد في الدلالة على عدم وجود أي أثر للهيكل المزعوم، وسيرى القارئ الكريم بعض التكرار في سياق بعض الشهادات، رأينا ضرورة ذكرها:

١- كما بدأنا أولَ المبحث السابق بكلام عالِم الآثار الإسرائيلي البروفيسور زئيف هيرتسوغ، فإننا نبدأ هنا بكلامه أيضا الوارد في سياق كلامه السابق وفي المقال نفسه..

يقول هيرتسوغ(١): "بناء على التسلسل التوراتي: أقام سليمان الهيكل المقدس بعد ٤٨٠سنة من الخروج من مصر "الملوك أ و١" ولكن يجب أن تضاف لذلك ٤٣٠ سنة أخرى من المكوث في مصر، وكذلك فترة التعمير العمرية الطويلة للأجداد لتصل إلى

---

(١) نشرته الهآرتس يوم الجمعة، (١٩٩٩/١٠/٢٩)، ونشرت ترجمة المقال الحياة الجديدة، (١٩٩٩/١٠/٣٠).

تاريخ القرن الحادي والعشرين، ق.م. الذي هو تاريخ هجرة إبراهيم إلى أرض كنعان))، ثم يعقب على هذا التسلسل كله، بما فيه: قضية بناء هيكل سليمان وتسلسل تاريخ إسرائيل القديم، يعلق قائلا: ((**في الحفريات الأثرية لم تظهر أية دلائل قادرة على تأكيد هذا التسلسل**))، ومعنى هذا، أن بناء الهيكل حسب هذا التسلسل التاريخي، وأن التسلسل التاريخي التوراتي نفسه، لم يجد له، في الفترة التي يفترض أن سليمان بنى فيها الهيكل، ما يدل من علم الآثار أنه قد حصل.

٢- شهادة عالم الآثار الإسرائيلي يسرائيل فنكلشتاين من جامعة تل أبيب: فقد قال: ((إن علماء الآثار اليهود لم يعثروا على أية شواهد تاريخية أو أثرية على أن هيكل سليمان كان موجودا بالفعل، وإن كتبة التوراة اليهود في القرن الثالث أضافوا قصصا لم تحدث أصلا))[١]، ويلاحظ القارئ الكريم أن فنكلشتاين نسب إلى علماء الآثار اليهود عدم العثور على أية شواهد تاريخية أو أثرية على وجود هيكل سليمان بالفعل، ونحن نقول مطمئنين: إن فلكنشتاين أعرف بقومه وقدُراتهم، وهو ينقل عن المتخصصين منهم عدم العثور على شيء اسمه هيكل سليمان، فماذا بقي إذاً لإثبات شيء اسمه: الهيكل، وماذا بقي من شيء اسمه: التوراة، إذا كان الكتبة حتى القرن الثالث الميلادي قد أضافوا إليها قصصا لم تحدث أصلا؛ ثم، ماذا بقي من إمكانية الثقة بالتوراة ككتاب ينطق بالحقيقة، إذا كان لدى الكتبة قدرة على إضافة أشياء لم تحدث أصلا؟!

إن كلام عالِمَي الآثار الإسرائيليَّيْن المتخصِّصَين كافيان فيما نصبو إلى إثباته، فمكانهما كبير في هذا التخصص في إسرائيل، ومع ذلك، فلا بد أن نواصل ذكر بعض الشهادات الأخرى في هذا السبيل.

٣- بنيامين مازار ومئير بن دوف: موّلت الجامعة العبرية إحدى جولات الحفريات، تلك التي بوشر بها جنوب المسجد الأقصى أواخر عام ١٩٦٧م وانتهت عام ١٩٦٨م،

---

(١) نشرت هذا التصريحَ جريدةُ الحياة الجديدة في عددها الصادر بتاريخ ١٤/١١/ ٢٠٠٠.

وقد امتدت سبعين مترا أسفل الحائط الجنوبي للحرم القدسي، ووصل عمقها إلى أربعة عشر مترا، وترأس هذه الجولة بنيامين مازار ومساعده مئير بن دوف، وقد نشرا تقريرهما عام ١٩٦٩، **ولكنهما لم يكتشفا شيئا يعود إلى الهيكل، بل لم يكتشفا إلا آثارا إسلامية أموية، وآثارا رومانية وبيزنطية**(١).

وفي عام ١٩٩٣م سُئل بنيامين مازار (أبو علم الآثار الإسرائيلي) وبن دوف (أحد كبار علماء الآثار اليهود)، سئلا(٢): هل وجدتم شيئا من خلال الحفريات يدل على حضارة يهودية في القدس، فأجابا: **لم نجد شيئا يدل على هذا الوجود اليهودي في المدينة.**

إن هيكل سليمان هو أهم معلم حضاري عند اليهود، وهما هنا يقولان: إنهما لم يجدا شيئا يدل على أي وجود حضاري، فأين الهيكل إذن؟، بل أين التاريخ اليهودي، ثم أين مصداقية التوراة تاريخيا؟!

ونقلنا قريبا قول مئير بن دوف: إنه اكتشف أساسات لثلاثة قصور أموية، وما أشار إليه بنيامين مازار في كتابه الذي نشره عام ١٩٧٥م، من أنه لا توجد أية بينات عن آثار المدينة المقدسة قبل هدم الهيكل الثاني، إلا في كتب المؤرخ اليهودي يوسوفيوس والمشناة والتوراة والتلمود، ونقلنا ما اعترف به مازار من أن مدينة القدس القديمة اختفت، لأن الأساس الصخري لتلك المدينة قد كُشف بالحفريات الإسرائيلية الجديدة(٣).

---

(١) حماية الآثار والمقدسات العربية في فلسطين، للدكتور رائف نجم، نشرته مجلة صامد في عددها (٨٥) الصادر عام ١٩٩١م، ويُنظر إلى مقال الدكتور نجم هذا للتعرف على الآثار التدميرية للحفريات الإسرائيلية في القدس، وتحديدا حول الحرم القدسي.

(٢) سألهما هذا السؤال العالِم الآثاري المقدسي الأستاذ ناجح بكيرات، ذكر الأستاذ ناجح ذلك يوم الجمعة ٧/٦/٢٠٠٢م، أثناء محاضرة مهمة له في مسجد الأنصار في مدينة الخليل.

(٣) حماية الآثار والمقدسات العربية في فلسطين، للدكتور رائف نجم، نشرته مجلة صامد في عددها (٨٥) الصادر عام ١٩٩١م.

٤- مازار مرة أخرى: واعتمدت الجامعة العبرية نفسها في الفترة ما بين ١٩٦٨-١٩٧٨م على البروفيسور بنيامين مازار[١] نفسه مرة أخرى، كرئيس لفريق حفريات آخَر في محيط المسجد الأقصى، وقد ركز هذا الفريق عمله على منطقة حي المغاربة، الذي دمّره الاحتلال فيما مضى، وقد بدأ الحفر في الجزء الشمالي الغربي لمنطقة باب السلسلة، لأن اليهود يعتقدون أن منطقة باب السلسلة جزء من جبل موريا، وهي المنطقة التي بُني فيها قصر هيرودس، الذي عينه القائد الروماني بومباي حاكما لفلسطين، وذلك بعد أن احتل الرومان فلسطين، عام ٦٣ق.م.،....، **ولم يستطع مازار أن يقدم دليلا واحدا حول وجود أبنية تخص الهيكل الأول؛ هذا، ولم تقدم الحفريات في منطقة الكتف الشرقي لوادي قدرون أي نمط يعود لفترة داود عليه السلام، أو لفترة القرن العاشر قبل الميلاد؛ ويتضح من تقرير مازار وآفي جايد وبن طوف أن نتائج الحفريات تنفي جميع ما قدمته المصادر اليهودية**، ولم يعثر الأثريون الإسرائيليون في تلك المنطقة على أي أثر أو دليل يعود لفترة القرن العاشر ق.م.، أو عصر داود عليه السلام، ولا إلى القرن التاسع ق.م.؛ إن ما تم اكتشافه هو السور العريض الذي وُجد في الجهة الغربية، ما بين القلعة وحارة الشرفا[٢].

٥- عالِم الآثار اليهودي تابلر: إن المواقع التي ذكرها علماء الآثار الأجانب، والتي نفت أي صلة لِما يسمى بالهيكل في منطقة المسجد الأقصى، قد ألجأت علماء التلمود إلى علماء الآثار اليهود، كي يقوموا بفحصها ثانية، لعلهم يجدون ما لم يجده غيرهم[٣]؛ وفيما يبدو أنه استجابة لأهواء هؤلاء الحاخامات قامت "عالمة الآثار الإسرائيلية روزين إليون،

---

(١) ورد في مقال إبراهيم الفني وطاهر النمري، اسم ألن مازار، وهو خطأ، إذ إن الذي أعلمه أن ألن مازار هي ابنة أو قريبة بنيامين مازار، وهي أيضا عالمة آثار، لكن المقصود في المقال هو بنيامين مازار لا ألن مازار.

(٢) الحلقة الأولى من: تفنيد مزاعم علماء الآثار الإسرائيليين للفني والنمري، جريدة القدس، ٢٠٠٢/٢/١٥.

(٣) المرجع نفسه، الحلقة الخامسة، ٢٠٠٢/٢/٢٠.

التي تدرِّس الآثار الإسلامية في الجامعة العبرية، ومعها عالم الآثار تابلر، قاما بأبحاث منفردة، هدفت إلى تحديد موقع الهيكل ضمن منطقة الأقصى عبر دراسة جديدة للقياسات التي ذكرها جوزفيوس، لكن تابلر توصل إلى نتيجة مفادُها: **أن لا وجود لِما يسمى بالهيكل أولا**.

٦- عالمة الآثار الإسرائيلية روزين إليون: ((فقد عملت لمدة ثماني سنوات في منطقة المسجد الأقصى، محاوِلةً إثباتَ واقع خط تتلاقى به زاوية الفصل الذهبي مع باب السلسلة، ضمن مقولتها: إن المنطقة التي أقيم بها الهيكل، كانت ضمن منطقة الصخرة، والمنطقة الغربية التي تلي موازين الصخرة من الجهة الغربية، **وبعد عمل مُضنٍ لم تستطع أن تقدم دليلا واحدا مبنيا على المنهج العلمي، بل المعلومة عندها اعتمدت على القصة التي وردت في التلمود**))[(١)].

وفي دراستها المستفيضة التي قدمتها إليون عن الفصل الذهبي، الذي اعتبرته المرتكز الشرقي الذي امتد إلى النقطة الوسطى، وهي الصخرة، ومن ثم النقطة الغربية، التي تكمن في موقع باب السلسلة، في هذه الدراسة قالت إليون: ((**إن كلا من المقطع الغربي والمقطع الجنوبي، حتى موقع المصلى المرواني، يخالف القاعدة التي تقول: إنه يوجد هيكل في تلك المنطقة، ولو فرضيا**))[(٢)].

٧- كاثلين كينيون: وهي عالمة آثار بريطانية، عملت في التنقيب عن الآثار القديمة في فلسطين في الفترة بين ١٩٦١-١٩٦٧م[(٣)].

وتقول كينيون: ((بالرغم من أن موقع الهيكل لا توجد فيه أية أدلة أو براهين، ولكن

---

(١) المرجع نفسه، والحلقة ذاتها.

(٢) المرجع نفسه، والحلقة ذاتها.

(٣) يُنظر: آثار فلسطين والأردن في العصور القديمة، تأليف محمود أبو طالب، نقلا عن كتاب آثار فلسطين، (١٢٥) للأستاذ حسين عمر حمادة.

أصبح من الواضح بأن هيكل سليمان كان متطابقا بشكل تام مع التصاميم الفينيقية الكنعانية))[١]، وتقصد هنا: الهيكل كما ورد وصفه في التوراة، فقد وُصف في التوراة وصفا مطابقا لِما عرفته الآثار من تصاميم فينيقية وكنعانية، وإلا فإن كينيون نفسها تؤكد أنه لم يُعثر على أي دليل أو برهان في الموقع المفترض للهيكل يدل على وجوده سابقا.

وعلى كل ما مضى، فإذا كان الهيكل لا يُعرف في أصل الحديث عنه إلا في التوراة، وإذا كان المتخصصون الآثاريون اليهود كشفوا تناقض التوراة مع علم الآثار، وتبين لهم ما أعلنوه جهارا نهارا في صحفهم هُم أن التوراة لا تصلح كمصدر تاريخي؛ وإذا كانوا قد أعلنوا أن لا أثر يشهد له علم الآثار يُمَكِّن من إثبات الهيكل؛ فكيف بعد كل ذلك يستطيعون إثبات قضية لا تعرف لها من دليل إلا هذه التوراة، التي لم يسندها شيء إلا العقل الخرافي اليهودي؟!

ونحن نرى أن هذه الشهادات من هؤلاء العلماء الآثاريين المتخصصين، لو لم تكن موجودة أصلا، فإن اليهود لا يستطيعون إثبات التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ولا إثبات الهيكل أصلا، ذلك أن مصدر الحديث فيهما هو التوراة، العاجزة في مجال البحث عن إثبات نفسها ودعاواها.

هذا ويقال: إن هيرودوس بنى هيكلا للعبادة اليهودية، فهل هذا صحيح؟

إن الحفريات الأثرية ((ومنها التي أجراها اليهود في تلك المنطقة، لم تقدم أي دليل على أن **هيرودوس الوثني**، **الذي هو آدومي**، بنى هيكلا لليهود، بل هيرودس بنى البزليكا في القدس، أي دار الحكومة، وكذلك فعل في سبسطية، وفي مواقع أخرى من فلسطين))[٢]،

---

(١) كتاب كينيون عن آثار الأرض المقدسة، نقلا عن: أنفاق القدس، موقعها في التاريخ، والحفريات الصهيونية، لبيسان جهاد عدوان، نشرته مجلة صامد في عددها (١٠٩) الصادر عام ١٩٩٧م.

(٢) د. الفني، والنمري في الحلقة الرابعة من دراستهما: تفنيد مزاعم علماء الآثار الإسرائيليين، جريدة القدس، ٢٠٠٢/٢/١٩.

ويرى البعض أن ما بناه هيرودوس هو معبد لقيصر روما الوثني، بدليل وجود صـــورة النسر على معبد هيرودوس، وهو ما يذكره الدكتور محمود صـــوالحة ناســـبا إيـــاه إلى المؤرخين، ولكن دون أن يُسند قوله هذا إلى أي مصدر[1].

وهذا يثير الشكوك حول ما يقال إن ما بناه هيرودوس هو هيكل للعبادة اليهوديـــة، **فهيرودوس هذا وثني، وأمه نبطية من البتراء**[2]، وزوجته حشمونية، **ولكنه رغم الادِّعاء بيهوديته، قتل زوجته الحشمونية اليهودية وولديها**[3]، وليس له بعبادات اليهـــود مـــن صلة، **والأهم أيضا أن هيرودوس نفسه كان معاديا لليهود**، رغـــم التقائـــه معهـــم في معاداتهم للسيد المسيح عليه الصلاة والسلام، **ومما يدل على عدائه لليهود أنه نفسه هـــو الذي أباد المكابيين**[4]، **وهو نفسه الذي قاد حربا ضد المكابي اليهودي متايوس، لأجل أن يسترد منه مدينة القدس، بعد أن احتلها المكابي متايوس لمدة ثلاثة أعوام، وليقـــوم هيرودوس بعد ذلك بإقامة المباني الرومانية على النمط الهليني، كل ذلك ذكره المؤرخ اليهودي يوسوفيوس**[5]، **ولقد كان قاسيا عليهم، متوحشا في تعامله معهـــم، وكـــان مندفعا لنشر الثقافتين: اليونانية والرومانية**[6]، **مجتهدا في إنشاء معابد للأصنام**..

فكيف يبني وثني وعدوٌّ لليهود هيكلا لعبادتهم؟ إن الأمر في غاية العجب!

وأما أول من اعتبر أن ما بناه هيرودوس هو هيكل للعبادة اليهوديـــة فهـــو المـــؤرخ اليهودي جوسوفيوس[7]، وهو المصدر الوحيد الذي اعتمده فيما بعد كلٌّ من يـــدَّعون أن

---

(١) يُنظر: المسجد الأقصى المبارك، وهيكل سليمان، لمحمود مصالحة، (١٠٠).

(٢) التسوية الشرقية للمسجد الأقصى، للدكتور إبراهيم الفني، (٨٥).

(٣) كتاب (اغتيال التاريخ، ٣٦) تأليف: حمدان حمدان.

(٤) التسوية الشرقية للمسجد الأقصى، للدكتور إبراهيم الفني، (٥٣٥).

(٥) المرجع نفسه، (٥٤٩).

(٦) العرب واليهود في التاريخ، أحمد سوسة، (٥٨٨).

(٧) التسوية الشرقية للمسجد الأقصى، للدكتور إبراهيم الفني، (٨٥).

ثمة هيكلا ثانيا بناه هيرودوس.

ومن هنا، فإننا لا نوافق الأستاذ فراس السواح في اعتباره أن ما بناه هيرودوس هو توسعة للهيكل الثاني، الذي يُفترض أن زربابل قد بناه بعد عودة من عاد من اليهود إلى أورشليم، وانتهى من بنائه عام ٥١٥ق.م.؛ ذلك أن هيرودوس إنما بنى دار الحكومة الرومانية، المعروفة حينها بالبزليكا[١]، ومع كل ما مضى، فإن ما يفترض الأستاذ السواح أنه المعبد الهيرودي قد تم تدميره على يد الرومان، خلال حملتهم على أورشليم عام ٧٠م[٢].

وعن هيكل هيرودوس هذا، يذكر شارلز وارن أحد الذين ابتعثهم صندوق استكشاف فلسطين البريطاني أنه: «قد حُسم من واقع البحث عنه عبر الحفريات التي جرت في منطقة المسجد الأقصى، حيث لم يتم الكشف حتى ولا عن حجر واحد يعود إلى تلك الفترة»[٣]، وإن شارلز وارن هذا أثبت أن ما وجده من آثار إنما يعود إلى القرن الثاني بعد الميلاد[٤]، أي أن بين هيرودوس وبين هذه الآثار قرناً كاملا على الأقل، وفي هذا ردّ على دعوى المؤرخ اليهودي جوزفيوس التي ذكرها في مجلده الثاني، الذي يحمل عنوان (آثار فلسطين) أن هيرودوس بنى الهيكل الثاني بعد عشر سنوات من توليه الحكم في فلسطين.

عزيزي القارئ، بعد أن قرأتَ هذه الشهادات، ماذا ترى أنه سيبقى من كلام بنيامين نتنياهو، الذي يقول فيه: «**هذه الأرض التي تُخرج مع كل ضربة فأس في أرضها بقايا**

(١) يُنظر قول الأستاذ فراس السواح في كتابه: الحدث التوراتي والشرق الأدنى، (١٤٨).

(٢) المرجع نفسه، (١٤٩).

(٣) د. الفني، والنمري في الحلقة الخامسة من دراستهما: تفنيد مزاعم علماء الآثار الإسرائيليين، جريدة القدس، ٢٠/٢/٢٠٠٢.

(٤) المرجع نفسه، والحلقة نفسها.

من الماضي اليهودي، والتي لا يزال الاسم العبري القديم يُلمس في أسماء قراها..»[1]، فهل فعلا تقذف هذه الأرض مع كل ضربة فأس بقايا من الماضي اليهودي، أم أن هذه المعاول دمّرت الزيف الذي رفع لواءه نتنياهو وأولياؤه، لقد بحثت هذه المعاول عن ذلك الماضي الذي يدّعيه نتنياهو، ودمّرت كثيرا من الآثار الإسلامية، ولكنها، والأسف يعتصر الفؤاد (فؤاد أدعياء الهيكل طبعا!): لم تجدْه؟!

هذا، وندعو علم الآثار إلى مواصلة رسالته المقدسة، التي تثبت من خلالها كثير من الحقائق، وتسقط كثير من الأوهام.

وبعد: فهل إسرائيل مستعدّة للإيمان بالبراهين والأدلة المحسوسة، أم لا تزال تصرّ على الخرافة؟!

الجواب هو ما يمكن أن نقرأه في كلام كتبه الشاعر الإسرائيلي نعومي شامير تعليقا منه على بعض تحقيقات عالم الآثار الإسرائيلي هيرتسوغ حول نتائج الحفريات في المدينة المقدسة، والتي نفت وجود هيكل أو مبانٍ تعود إلى عهد داود وسليمان عليهما السلام، ولقد ذكرنا كلام هيرتسوغ أول هذا المبحث، يقول نعومي شامير تعليقا: «لست خبيرا في الآثار، لكن لست أدري ماذا يهمني كإسرائيلي الآن، إذا كان هذا الحدث أو ذاك حصل أو لم يحصل منذ مئات أو آلاف السنين، **وحتى على افتراض أن الأحداث كانت مجرد أساطير، فإنني أعتبر أن هذه الأساطير أكثر مصداقية وأكثر حقيقية من جميع حقائق العالم**»[2]!

وما أتعس الحقيقة إذا تعرض لها الإسرائيليون، وما أسعد الأسطورة حينئذ!!

وأخيرا: نقول مع الأستاذ فراس السواح: «أما هيكل القرن العاشر الذي بناه سليمان وفقا للرواية التوراتية، فلم يتم العثور على حجر واحد من أساساته، أو أي أثر يدل على

---

(١) مكان تحت الشمس، تأليف: بنيامين نتنياهو، ترجمة: محمد عودة الدويري، (٢١٠).

(٢) صحيفة الاتحاد الإماراتية، ٢٠٠٠/٣/٨م.

أنه قد قام في يوم من الأيام»[1].

إنها الكارثة في نظر حاخامات وسياسيي إسرائيل، فهل هم على استعداد لتقبّلها؟! إن علماء الآثار اليهود ينفون كل أوهامهم.

---

(١) آرام دمشق وإسرائيل، للأستاذ فراس السواح، (١٥٣).

الفصل الخامس: سفر يوشع التوراتي وعلم الآثار(١)

ولسوف نركز في الحديث الآن على بعض ما تضمنه سفر يوشع بن نون عليه السلام، ذلك السِّفر الذي يعرض على نحو ما بداية التاريخ الإسرائيلي في هذه الديار المقدسة، وهو الذي ينسب إلى يوشع مذابح ومجازر عظمى، لا تقع من أشنع المجرمين السفاحين المتمرسين في تاريخ البشر، فمقصدنا هنا ذو شقين: أن ندافع عن هذا النبي يوشع بن نون عليه السلام، وهو فتى موسى المعروف، ثم أن نكشف عن خطيئة الكذب الإسرائيلية المتعلقة بالتاريخ الفلسطيني القديم.

وكان لا بد من جعل الفصل في مبحثين اثنين:

المبحث الأول: استعراض لبعض مضمون سفر يوشع بن نون عليه السلام.

المبحث الثاني: انهيار سفر يوشع أمام الحقائق الآثارية.

---

(١)كان من حق هذا الفصل أن يُقرأ ضمن فصول الباب السادس من هذا البحث، تلك الفصول التي سيتركَّز مضمونها حول إثبات أن التوراة غير قادرة أبدا أن تكون مصدرا للتاريخ؛ غير أنني رأيتُ أن أجعله ضمن هذا الباب، الذي تسلسل الحديث فيه في علم الآثار بدءاً من تجييره لصالح الأهداف التوراتية، وانتهاءً بتأكيد التحوُّل الكبير لدى علماء توراتيين غربيين وإسرائيليين، انكشفت بمقتضاه الحقيقة التي مؤَدّاها يلتقي تماما مع هدف الباب السادس المتخصص في إثبات عجز التوراة تاريخيا.

إنني بكل سرور أعتبر القارئ مُحقّاً تماما إذا شاء قراءة هذا الفصل ضمن فصول الباب السادس، بسبب ما فيه من التقاء تامٍّ بأهداف ذلك الباب، رغم إيثاري أن يكون هنا لا هناك.

المبحث الأول: استعراض لبعض مضمون سفر يوشع بن نون عليه السلام

وقبل البدء في الموضوع، لا بد أن أبين أن أحداث سفر يوشع، والتي تؤكد تدمير كثير من المدن الكنعانية، قد وُضِعت حسب قول معظم المؤرخين في فترة تاريخية لا تتجاوز العام ١٢٠٠ق.م.[١]، فلا بد إذن أن يتصور القارئ ذلك التأريخ لتلك الأحداث، فهي الأنسب لها في نظر معظم المؤرخين، وذلك حتى يتيسّر للقارئ الكريم معرفة كيفية مناقشة سفر يوشع تاريخيا وآثاريا..

ومن هنا ننطلق في التعرف على ما هنالك من توافق أو مفارقة فيما بين السفر وأحداث التاريخ، تلك التي لا نرى أفضل سند لها إلا ما أقرَّته الأرض نفسها التي كانت مسرحا لها، وذلك لنجيب على السؤال: هل فعلا كانت الأرض مسرحا لها؟!

والآن حين عرض ما يمكن عرضُه من مضمون سفر يوشع، مما سنضعه على مشرحة الأثر الذي أبقته السنون..

فحسبما جاء في أواخر الإصحاح الأول من سفر يوشع، يظهر أنه من ساعة أن وعد الله يوشع بتنفيذ وعده المُدَّعى لبني إسرائيل بأن تكون أرض كنعان لهم، وحسبما جاء في بداية الإصحاح الثاني من السفر نفسه، من بداية التنفيذ اليوشعي المُدَّعى توراتيا، إلى نهاية الإصحاح الثاني عشر من السفر نفسه، تبدو صفحات التوراة وهي تتلفَّع بدماء قصة لا

---

(١) يُنظر كتاب: آرام دمشق وإسرائيل، للأستاذ فراس السواح، (٩٣)؛ ولكن لا بد أن أشير إلى أن ثمة شكوكا واضحة للغاية حديثا حول صحة هذا التاريخ، رغم اشتهاره جدا بين المؤرخين والتوراتيين معا، فهذا تومبسون يقول في كتابه التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي (ص٢١٣): "وقد أصبح من المضلل أن نتحدث عن إسرائيل من منظور أركيولوجي [أي آثاري] في فلسطين في العصر الحديدي الأول"، بل في (ص٢١١) يقول: "وجود إسرائيل أو يهودا في مثل هذا التاريخ المبكر، لا تؤيده المعلومات المتوفرة عن فلسطين في تلك الفترة"، أي فترة حملة شيشنق أواخر القرن التاسع ق.م.

يرحم أبطالُها ضحاياها، وقودُها الناس والحجارة، والشجر والحيوان في أرض كنعان.

طيلة ذلك الوقت لم تهدأ الحروب بين بني إسرائيل وبين الشعوب الأخرى، القاطنة في أرض كنعان، وكان أن خاطب يوشع بني إسرائيل قائلا: ((بهذا تعلمون أن الله الحي في وسطكم، **وطرْدا يطرد من أمامكم الكنعانيين والحِثّيين والحِوّيّين والفِرزّيين والجِرجاشيّين والأموريّين واليبوسيّين**، هو ذا تابوت عهد سيد كل الأرض عابر أمامكم في الأردن))[1]، إنها بشرى بطرد شعوبٍ كثيرة من أمامهم، كانت تُعمر بها الأرض من قبل بني إسرائيل؛ غير أننا لن نناقش هذا الآن، إيثارا للترتيب المنطقي للموضوع، فنحن نذكر الحدث، أصغر كان أو أكبر! وبعد ذلك نناقشه.

يقول سفر يوشع: ((وكان في المرة السابعة، عندما ضَرب الكهنة بالأبواق، أن يشوع قال للشعب: اهتفوا لأن الرب قد أعطاكم المدينة[2]، فتكون المدينة وكل ما فيها محرّما[3] للرب؛ **راحاب**[4] **الزانية فقط تحيا هي وكل من معها في البيت، لأنها قد خبّأت المُرسلَيْن اللذَين أرسلناهما،...، فهتف الشعب وضربوا بالأبواق، وكان حين سمع الشعبُ صوتَ البوق أن الشعب هتف هتافا عظيما، فسقط السور في مكانه، وصعِد الشعب إلى المدينة، وحرّموا كل ما في المدينة، من رجل وامرأة، من طفل وشيخ**[5]،

---

(١) سفر يوشع، (٣/٩-١١).

(٢) أي مدينة أريحا.

(٣) تعبير: حرّم ويُحرّم، الوارد بكثرة في سفر يوشع يعني: القتل.

(٤) كانت راحاب هذه كما في سفر يوشع نفسه، امرأة زانية، وهي من غير الإسرائيليين، وكانت قد أعانت جاسوسين ناما عندها على قومها أهل أريحا، يُنظر سفر يشوع (الإصحاح الثاني)، فكشفت عورات قومها، مما ساعد يوشع بن نون على احتلال أرضهم، وهي وحدها مع أهلها كما ينصّ السفر هنا أبقاها يوشع دون أن يذبحها.

(٥) نقل اللواء أركان حرب محمد جمال الدين علي محفوظ في كتابه المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية (ص٨٠) عن هتلر قوله في الحرب العالمية الثانية وهو يُصدر أوامره: ((**يجب محو موسكو ولننجراد من على الأرض للتخلص تماما من سكان المدينتين، حتى لا نضطر**

حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف؛ وقال يشوع للرجلين اللـذّين تجسسـا الأرض: ادخُلا بيت المرأة الزانية وأخرجا من هناك المرأة وكل ما لها، كما حلفتما لهـا؛ فـدخل الغلامان الجاسوسان، وأخرجا راحاب وأباها وأمها وإخوتها، وكل ما لها، وأخرجا كـل عشائرها، وتركاهم خارج محلّة إسرائيل، **وأحرَقوا المدينة بالنار مع كل ما بها**، إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الرب»[(١)].

ومما أوقعه يوشع حسب الرسم التوراتي لصورته من الهزائم في شعوب أرض كنعان، تلك الهزيمة المنكرة التي ذاق بأسها أهل مدينة عاي، وهي تكرار لِما حصل في أريحا ممـا نقلناه عن سفر يوشع، ففي سفر يوشع من أمر الرب له: «**فتفعل بعاي وملكهـا كمـا فعلت بأريحا وملكها**»[(٢)]، وفيه أن يوشع نفَّذ هذا الأمر الرباني، فقام رجال الكمين الذي هيّأه يوشع، «ودخلوا المدينة وأخذوها وأسرعوا **وأحرقوا المدينة بالنار، فالتفت رجـال عاي إلى ورائهم، ونظروا وإذا دخان المدينة قد صعِد إلى السماء**»[(٣)]، ولما رأى يشوع وجميع إسرائيل أن دخان المدينة قد صعِد، «**انثنَوْا وضربوا رجال عاي**،...، وكـان لمـا انتهى إسرائيل من قتل جميع سكان عاي في الحقل في البرية، حيث لحقوهم وسقطوا جميعا بحد السيف حتى فنُوا ، أن جميع إسرائيل رجع إلى عاي وضـربوها بحـد السـيف،...،

لإطعامهم في فترة الشتاء، تقوم الطائرات بالإبادة، وليست هناك ضـرورة لاسـتخدام الـدبابات، وبالنسبة للمدن الأخرى، فينبغي أن تكون القاعدة: قبل غزوها ينبغي أن تتحوّل إلى أنقـاض بـنيران المدافع والغارات الجوية»، وسؤالنا بعد قول هتلر هذا: هل تعلّم هتلر مما نسبه اليهود زورا إلى يوشع بن نون، أم أن الأمر لا يعدو موافقة الطواغيت لألوان الطغيان، لمجرّد أنهـم طواغيـت يفعلـون هـذه الشناعات، والأمر قد يكون إذن من باب ما قاله تعالى واصفا الطغاة: (**أتواصوا به؟ بل هـم قـوم طاغون**).

(١) سفر يوشع، (٦/١٦-٢٥).

(٢) المرجع نفسه، (٨/١٩-٢٠).

(٣) المرجع نفسه، (٨/٢).

وأحرق يشوع عايَ وجعلها تلا أبديا خرابا إلى هذا اليوم))[1].

((وأخذ يشوع مقّيدةَ في ذلك اليوم وضربها بحد السيف، وحرَّم ملكها وكل نفس بها، لم يُبقِ شاردا))[2]، وفي سفر يوشع أن يوشع عليه السلام فعل مثل هذا في حق ملوك وشعوب مدنٍ عديدة، ليكون عدد جميع الممالك والمدن التي هزمها يوشع، وفعل بها هذه الأفاعيل: إحدى وثلاثين مدينة ومملكة، كل ذلك مفصَّل في سفر يوشع.

من هذه الممالك والمدن: لِبنة، ولخيش وحاصور وعجلون وحبرون، وقال عن حاصور: ((ثم رجع يشوع في ذلك الوقت، وأخذ حاصور وضرب ملكها بالسيف،...، **وضربوا كل نفس بها بحد السيف، حرَّموهم فلم تبق نسمة، وأحرق حاصور بالنار**))[3].

وفي نهاية الإصحاح الثاني عشر من سفر يوشع، **يذكر السفر أن عدد الملوك الذي قضى يوشع على ممالكهم وقتلهم في أرض كنعان هو واحد وثلاثون ملكا**، ذكر السفر ذلك في نهاية استعراضه لعمليات القتل ضد السكان والملوك.

ثم يأمر الربُّ في الإصحاح الثالث عشر يوشع عليه السلام بتقسيم جميع الأرض التي استولى عليها، قائلا له: ((إنما اقسِمها بالقرعة لإسرائيل مُلكا كما أمرتُك))[4]، ويستمر ذكر تقسيم الأرض حتى الإصحاح الثاني والعشرين، وكان في السفر الحادي والعشرين قد قال: ((فأعطى الربُّ إسرائيلَ جميعَ الأرض التي أقسم أن يعطيها لآبائهم، فامتلكوها وسكنوا بها))[5].

وهكذا تغيَّر الوضع الديمغرافي للأرض هذا التغيُّر الكبير، أرض قد حُرِقت، وسكان

---

(١) المرجع نفسه، (٨/٢٢-٢٨).

(٢) المرجع نفسه، (١٠/٢٨).

(٣) المرجع نفسه، (١١/١٠-١١).

(٤) المرجع نفسه، (١٣/٦).

(٥) المرجع نفسه، (٢١/٤٣).

قد زالوا موتا وقتلا، وسكانٌ جددٌ حلّوا مكانهم؛ أترى علم الآثار يشهد على هذا التغيُّر الديمغرافي؟ سنرى إن شاء الله تعالى.

نحن إذن أمام أحداث كبيرة شملت جماعة كثيرة من البشر، أُحرقت مدُنُها مدينة مدينة، حتى عادت أثرا بعد عين، لتُسكن مرة أخرى مباشرة من غير أهلها.

وإننا أمام شخصية صُوِّرت مثل هذا التصوير الشائه زورا وكذبا عليها، حتى عادت تلك الشخصية حسب ذلك التصوير قدوة القدوات في مجال الإعداد النفسي للجنود الإسرائيليين المعاصرين، مما دفع بن غوريون إلى القول: ((**إنّي أعتبر يشوع بطل التوراة**))[1].

ولا ننسى أن هذه الملحمة الطاغية الظالمة الوحشية لم تكن إلا لشي واحد: هو إنفاذ الوعد المُدَّعى أن الله قطعه لآباء إسرائيل، دونما بيان لسبب استحقاق هؤلاء الوعد إلا كونهم بني آبائهم الإسرائيليين الأوائل، ولم يكن من ذنب لسكان الأرض الأصليين إلا أنهم كانوا يسكنون أرض آبائهم وأجدادهم هم، لا أرض آباء وأجداد الإسرائيليين، تلك الأرض التي من سوء طالعهم، كانت هي ذاتها الأرض التي وعد الربُّ آباء إسرائيل أن تكون لهم ولأبنائهم، كذبوا!

وليس من شأن بحثنا هذا أن يناقش الأثر النفسي والتربوي لهذه الأحداث المُدَّعاة، فلذلك مقام آخر، لعل أهل البحث النفسي والتربوي والاجتماعي يقومون به؛ غير أنني سأركِّز هنا فقط في بحث مدى إمكانية ثبوت هذه الأحداث المهولة في التاريخ، وذلك من خلال علم الآثار، وهذا هو موضوع المبحث الثاني.

---

(١) اليهودية بين النظرية والتطبيق، الفصل الثالث: التعليم الصهيوني وأهدافه، تأليف الدكتور علي خليل، إصدار: اتحاد الكتاب العرب، دمشق، وقد أخرجته عن موقع الاتحاد في الإنترنت http://www.awu-dam.org/.

المبحث الثاني: انهيار سفر يوشع أمام الدقائق الآثارية

لقد قدّمتُ في بداية المبحث السابق، أن الظرف الزماني لهذه الأحداث المذكورة في سفر يوشع يجب أن يكون في حدود عام ١٢٠٠ق.م.، كما سبق أن نقلته عن أهل الاختصاص.

هذه الأحداث الكبرى التي يذكرها السفر، والتي نقلنا أهم حلقاتها في المبحث السابق، والمتعلقة بالمنطقة في الفترة التي حدّدها لها المؤرخون، إنها غير مذكورة أبدا، ولو عبورا أو بإشارة خفية، في التاريخ المستند على علم الآثار الذي سنستند عليه كثيرا هنا، مما يؤكّد أن هذه الأحداث لم تقع، أو أن زمانها إن وقعت هو غير الزمان المحدَّد لها[1].

---

(١) ونحن كمسلمين نملك يقينا دينيا أنها لم تقع، ذلك أن المنسوب إليه قيادتها في سفر يوشع هو النبي الصالح يوشع بن نون عليه السلام، ولا يمكن عندنا كمسلمين أن تقع الجرائم المذكورة في السفر من نبي، وهذا لا يعني عندنا أن يوشع لم يدخل بيت المقدس، فقد ورد فيما رواه الإمام أحمد : تعالى في مسنده، (٢٧٥/٨، ح: ٨٢٩٨)، عن أبي هريرة ط قال: قال رسول الله ﷺ: (**إن الشمس لم تُحبس على بشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس**)، وظاهر كلام الشيخ أحمد شاكر تحسين أو تصحيح إسناده، ونقل الأستاذ الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا : تعالى في شرحه على الفتح الرباني بترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، (١٠٥/٢٠)، نقل عن الحافظ ابن كثير قوله في هذا الحديث: وهو على شرط البخاري؛ وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٢٥٥/٦) عن رجال إسناده: محتجٌّ بهم في الصحيح؛ وقد صححه الأستاذ الألباني : تعالى في صحيح الجامع الصغير، (٩٨٢/٢، ح: ٥٦١٢)، وذكره في سلسلة الأحاديث الصحيحة، (٢٦٦/٥، ح: ح: ٢٢٢٦)، وحكم في الصحيحة، (٣٩٤/١، ح: ٢٠٢) على إسناد الإمام أحمد بأنه إسناد جيد.

غير أن الحديث لا يذكر هذه الفظائع الموجودة في السفر، ولا يذكر أسوارا قد هُدمت، ولا مدنا اشتعلت فيها النيران، كما قد نقلت عن السفر.

وأودّ أن أشير إلى أمر سأخوض في تفصيله في الباب السادس، وهو أن كون يوشع بن نون عليه السلام دخل بيت المقدس منتصرا، لا يعطي حقا لليهود في هذه البلاد، لِما سنبيِّنه من تحقيق للمسألة في

وحسب علمَي الآثار والتاريخ، فقد تقرر أن المنطقة تعرضت لإعدادات من شعوب البحر من أجل غزو مصر، ولقد هزم الفرعون مرنفتاح (١٢١٢-١٢٠٠ق.م.) تحالف الليبيين مع شعوب البحر وردّهم عن الحدود المصرية الغربية، ثم شنّ بعد ذلك حملة على فلسطين، حوالي عام ١٢٠٧ أو ١٢٠٨ق.م.، ولقد انطلقت حملةٌ قادها الفرعون رمسيس الثالث عام ١١٩١ق.م. قضى فيها على هجوم شعوب البحر الذين انطلقوا من فلسطين، ثم تعقبهم حتى بيت شان في الشمال، حيث نصب لنفسه تمثالا، عُثر عليه في أنقاض المدينة، إلى جانب نص مصري يصف الحملة[1].

إنه لم ترد ولو إشارة مجملة في ظرف هذه الأحداث يُفهم منها أن شعبا هو بنو إسرائيل قد جاء حديثا إلى هذه الأرض، رغم أن الزمان الذي وقعت فيه تلك الصراعات الفرعونية هو الزمان نفسه الذي يفترض أن أحداث سفر يوشع وقعت فيه؛ والحقيقة أن استنادي على هذا الذي أذكره من عدم وروود مجرد إشارة تشير إلى ورود بني إسرائيل إلى فلسطين في تلك الفترة هو من باب الاستئناس فحسب، وليس دليلا قطعيا.

أما الأدلة القطعية والتي تدعم في واقع الحال هذا الاستئناسَ، فهو ما سأذكره الآن من علم الآثار وتنقيبات وبحوث الآثاريين في تحقيق مضامين سفر يوشع..

كنت قد ذكرت نصا للعالِم واللاهوتي الآثاري هـ. فرانكن، **صاحب التنقيبات والمقالات الآثارية، والمحاضر في علم الآثار الفلسطينية في لايدن**، ذكر فيه أن الآثار لا تشهد إطلاقا بأن ثمة تغيُّرا حلّ في المنطقة في الفترة التي يُفترض أن بني إسرائيل قد أزالوا فيها شعوبا وسكنوا مكانهم، ولا بد أن القارئ الكريم يذكر ما نقلته عن السفر من تغيُّرٍ ديمغرافي سريع وهائل قد حلّ في هذه المنطقة.

مكانها، وسيأتي معنا في الباب الخامس أن **يهود اليوم لا ينتمون إلى يوشع بن نون نسبا ولا دينا، فليس هو يهوديا وليسوا هم بني إسرائيل**، وسيأتي في الباب السادس أن التوراة لا يمكن أن تصلح كمصدر تاريخي، وذلك وفق ما سأنقله هناك إن شاء الله تعالى من تفصيلات.

(١) يُنظر كتاب: آرام دمشق وإسرائيل، للأستاذ فراس السواح، (٩٣-٩٤).

يقول اللاهوتي والعالم الآثاري هـ. جي. فرانكن[1]: ((إذا وضعنا النص التوراتي جانبا، فإن علم الآثار لم يتوفر لديه سبب واحد يدفعه إلى القول بأن القرن الثالث عشر في فلسطين، قد شهد تشكل شعب جديد في فلسطين، اتخذ وضعه كأمة مكتملة مع نهاية القرن الحادي عشر، إن البينة الأركيولوجية على حلول جماعة إثنية جديدة في فلسطين مفقودة بالمعنى العلمي الدقيق لهذه الكلمة؛ إنه لمن المتعذر على تقنيات الأركيولوجية الحالية تلمس الآثار على وصول عناصر إثنية جديدة إلى موقع ما، إذ لم تترك لنا هذه العناصر مخلفات مادية عند وصولها، ذات طابع ثقافي متميز بشكل واضح عن طابع الجماعة السابقة، التي حلت بين ظهرانيها أو حلت محلها، وهذا ما لم نستطع التوصل إليه فيما يتعلق بالجماعات العبرية)).

والسؤال: إن الإسرائيليين المُدَّعى أنهم وصلوا تلك الفترة إلى فلسطين هم قوم ذوو ثقافة ووسائل جديدة في الحياة، تختلف والثقافةَ المنتشرةَ في الشعوب التي قال سفر يوشع إنهم دحروها، **لكن أثرا من آثار التغيُّر الثقافي لم يَعثر عليه علم الآثار، الذي استطاع أن يعثر على آثار ثقافية ومادية كبيرة عن تغيُّرات حصلت في المنطقة نفسها لأقوام سبقوا الإسرائيليين** في قدومهم المُدَّعى في ذلك الزمان الغابر.

فكيف يثبت إذن ورود هؤلاء القوم في ذلك الزمان، وهم لم يتركوا للتاريخ وللمستقبل شيئا يدل عليهم.

وذكرنا سابقا أن فرانكن رفض دعوى عدم قدرة علم الآثار على إثبات آثار لحركات البدو الذين ليس من شأنهم البناء والعمران، أو ترْك آثار مادية، مؤكدا أن المُنَقِّبة والباحثة الآثارية كاثلين كينيون استطاعت أن تُثبت آثارا لأقوام سابقين، لا يختلف وضعهم عن بني إسرائيل، إلا أنهم تركوا ما يدل عليهم.

يقول فرانكن: إن ((تقنيات التنقيب الجديد، صارت قادرة على تتبع تحركات

---

(١) نقلتُ كلام فرانكن عن: المرجع السابق، (١٠٠).

الجماعات البدوية القديمة، ورصد علاقاتها وتفاعلاتها مع محيطها)).

فمرةً أخرى إذن: أين التغير الديمغرافي وأين شهادة الآثار، وأين الأثر المادي والثقافي لدخول بني إسرائيل المُدَّعى حسب سفر يوشع؟!

وليس الأمر أن الآثار لم تكتشف ما يؤكد سفر يوشع ومضامينه، بل إن الآثار كشفت عن تناقض صريح بين ما يقوله السفر، وبين ما قد حصل فعلا..

يقول الأستاذ فراس السواح: ((..أما البينة الآثارية فتؤكد عدم صحة جزءٍ لا بأس به من الفتوحات المعزوّة إلى يشوع بن نون،....

ويقول: ((..فرغم أن الزلازل كانت شائعة في فلسطين، إلا أن آثار الدمار الزلزالية في أريحا تعود إلى أزمنة سابقة بكثير للتاريخ المفترض لدخول الإسرائيليين، خلال الربع الأخير من القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وقد ثبت أن آخر الزلازل المدمرة التي تصدّع بسببها سور أريحا قد وقع حوالي عام ٢٣٠٠ق.م.، وأن المدينة قد بُنِيت مجدداً حوالي عام ١٩٠٠ق.م.، حيث استمرت الحياة فيها إلى عام ١٥٦٠ق.م. ثم هُجرت تماماً، وعندما عادت الحياة إليها في العصر البرونزي الأخير[١]، انتعشت جزئيا لفترة قصيرة، دون أن تبني لنفسها سوراً جديداً، ثم هُجرت في مطلع القرن الثالث عشر، وغمرها النسيان إلى القرن العاشر قبل الميلاد، أي أن مدينة أريحا لم تكن قائمة عندما دخل الإسرائيليون إلى فلسطين))[٢].

ولأجل تأكيد معنى التناقض هذا ينقل اللواء الركن المتقاعد الدكتور ياسين سويد[٣] عن الباحث الإسرائيلي إيلي بارنافي قولَه: ((التحليل الحرفي للمصادر التوراتية يُظهر العديد من التناقضات))، ويقدّم إيلي بارنافي مثالا على ذلك قائلا: ((**في ضوء الحفريات التي**

(١) انتهى العصر البرونزي الأخير حول عام ١٢٠٠ ق.م.

(٢) الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، للأستاذ فراس السواح، (١٩٩).

(٣) في كتابه التاريخ العسكري لبني إسرائيل، من خلال كتابهم، (١/١٧٤).

أجريت في السنوات العشر الأخيرة فإن فرضية معركة وحيدة منتصرة لا تصمد أمــام الامتحان، فلا يوجد ما يؤكد حصول تدمير عنيف للمدن المهمة، بل بعكس ذلك، فإن الحفريات التي أجريت على مواقع المدن التي يُفترض أن يشوع قد دمرها، مثل أريحا، تؤكد أن لا شيء من ذلك قد تم".

إننا نود من أجل توضيح الأمر أكثر، أن نبين أن الأمر هنا يدور حول ما ذكره سفر يوشع من أن **أسوارا حول المدينة كان نصيبها الهدم على يد يوشع،** لكن المشكلة الــتي سيعاني منها الباحث التوراتي، أن الآثار تُثبت أن المدينة كانت في ذلك التاريخ بلا أسوار، لأنها هُدمت قبل عهد يوشع المفترض، ثم إنها لم تُبنَ فيما بعد، أي لم يكن للمدينة أسوار في الفترة المفترضة لدخول يوشع إليها، حتى يأتي يوشع لهدمها، كما زعم السفر المســمى باسمه[1]؛ وهذا ما يناقض سفر يوشع بشدَّة.

وفيما لو افترضنا ضرورة إجراء مقايسة تاريخية بين التدمير الذي وقع علــى مدينــة أريحا، وبين دخول الإسرائيليين إلى أريحا، المنسوب إلى يوشع قيادتُهم فيه، فلا بد أن ننقل ما يذكره روجيه جارودي عن كينيون أنها خلصت إلى نتيجة مؤدّاها أنه من المســتحيل الربط بين حادثة تدمير أريحا[2] وحادثة دخول الإسرائيليين إليها[3]، ومن حديث كينيون تعليقا على ما يرويه سفر يوشع قولُها: "**يستحيل على المرء أن يقرن تدمير أريحا، بتاريخ خروج الإسرائيليين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، فتدمير المدينة يمكن أن يكــون**

---

(١) يُنظر: آرام دمشق وإسرائيل، للأستاذ فراس السواح، (٩٤).

(٢) ذلك أن هذه الأسوار قد هدِّمت قبل دخول الإسرائيليين بألف سنة، كما أرخــت ذلــك الباحثة الآثارية كينيون، يُنظر: آثار فلسطين، حسين عمر حمــادة، (٨٦ و٨٩)، وكــذلك (١٠١-١١١)، وذلك للتعرف على أعمال حفريات متعددة في منطقة أريحا، وعلى بعض نتائج هذه الأعمال، والتي من أهمها: إغراق أريحا في القِدم، واكتشاف مخطوطات البحر الميت، وفساد التصورات التوراتيــة حول هذه المنطقة).

(٣) فلسطين أرض الرسالات الإلهية، لروجيه جارودي، (٦٩).

بنتيجة هجوم جماعة أخرى من العبريين الذين يتميز تاريخهم بالتعقيد، كما نعرف؛ وعليه، فالحكاية المثيرة التي ترويها التوراة عن حصار أريحا وسقوطها، ليست إلا تعليلا خياليا لمظاهر التخريب فيها))، وتقول أيضا: ((**إن الفصلين السابع والثامن من سفر يشوع، واللذّيْن يُعتبران تاريخَين، لا يخرجان عن كونهما أسطورة**))[1].

هذا، ويذكر روجيه جارودي[2] أن القس الألماني سِلِن[3] نشر عام ١٩١٣م تفاصيل حفرياته في أريحا، ذاكراً أنه عثر فعلا على الأسوار المهدّمة، وأنه رأى فيها على الفور تلك الأسوار التي هدّها صوت طبول يشوع، لكن جارودي ردّ عليه بأن البحوث التاريخية اللاحقة قد **أثبتت على ما ذكر الأب ديفو**[4] **أن الإسرائيليين الذين وصلوا في نهاية القرن الثالث عشر ق.م. لم يستطيعوا الاستيلاء على أريحا، لأنها كانت حينئذ قد هُجرت**، وفي مقام آخر، يحدد روجيه جارودي[5] نفسه عن علم الآثار **أن مدينة أريحا دُمرت حوالي عام ١٥٥٠ ق.م. ثم هجرها أهلها أعقاب ذلك**، مما يعني أن الإسرائيليين القادمين نهاية القرن الثالث عشر ق.م. لم يجدوا مدينة في أريحا ليدمِّروها.

كان الحديث الذي قرأه القارئ الكريم يدور حول التحقيق الآثاري لدعوى سفر يوشع أنه دمّر مدينة أريحا، وحطّم أسوارها، وسيرى القارئ الكريم فيما يأتي من السطور أحاديث أخرى في مدنٍ أخرى، ادَّعى سفر يوشع أنه عليه السلام قد دمَّرها، من هذه

---

(١) يُنظر كلام كينيون في: الموسوعة الفلسطينية، القسم المعجمي، (٨/١).

(٢) فلسطين أرض الرسالات الإلهية، لروجيه جارودي، (٦٨).

(٣) أرنست سلن هذا متخصص في دراسة التوراة، وكان مدرسا في مدينة فينا، وقد قام عام ١٩٠١م بتنظيم بعثة للحفر في تعنك، التي تبعد إلى الجنوب من مجدو ثماني كيلو مترات، كما ذكر أولبرايت في كتابه آثار فلسطين، يُنظر: آثار فلسطين لحسين عمر حمادة، ٦٨).

(٤) ويُذكر أن الأب ديفو هذا من رجال الدين المشتغلين بالآثار، وهو في طائفة من رجال الدين العاملين بالآثار، ((ينادون بالفصل الكامل بين الآثار الأردنية الفلسطينية والعهد القديم))؛ يُنظر: آثار فلسطين، حسين عمر حمادة، (١١١)..

(٥) الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، لروجيه جارودي، (٦٩).

فالبيِّنات الأثرية ((**تشير إلى أن المدينة قد انتهت**[١] **تماما قبل ألف عامٍ من وصول الإسرائيليين**))[٢]، أي أنه لم تكن ثمة مدينة تنتظر يوشع عليه السلام لتدميرها.

وقد نقل جارودي عن الأب ديفو أنه عندما وصل الإسرائيليون إلى عاي لم يكن هنالك مدينة في عاي، وإنما أنقاضٌ قديمةٌ منذ ألف ومائتي عام[٣].

ويخصّ عالم الآثار الإسرائيلي زئيف هيرتسوغ سفرَ يوشع وما فيه من ذكر لتدمير مدينتي أريحا وعاي بقوله[٤]: ((الحفريات المتكررة التي أجرتها البعثات المختلفة في أريحا وعاي، المدينتين اللتين وُصف احتلالهما بشكل مفصل جدا في كتاب يهوشع؛ خيبت الآمال بشكل شديد؛ رغم جهود التنقيب اتضح أنه في أواخر القرن الثالث عشر، وفي آخر العهد البرونزي، وفي فترة متفق عليها كفترة الاحتلال، لم تكن في هذين الموقعين أية مدن، ولم تكن بالطبع أسوار يمكن إسقاطها)).

وهي فقرة واضحة الدلالة أيضا، فلقد ألقت الأرض بعض أثقالها المختبئة، وكشفت من خلال التنقيب الآثاري أن سفر يشوع الذي يتحدث عن غزو قام به يشوع عليه السلام فاحتل أرض كنعان، ودمّر مدينتي أريحا وعاي؛ إن سفر يشوع يتحدث هنا عما أثبت علم الآثار بطلانه تماما.

ثم إن ثمة آثاريين كانوا يحلمون بتأييدات للتوراة تكشف عنها معاولهم، غير أنهم فوجئوا أن لا شيء يؤيد الروايات التوراتية المتعلقة بمنطقتنا، لكنهم، ولصعوبة المفاجأة، لم

---

(١) أي هُجرت المدينة قبل وصول يوشع المفترض، يُنظر: آرام دمشق وإسرائيل، للأستاذ فراس السواح، (٩٥).

(٢) الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، للأستاذ فراس السواح، (٢٠٠).

(٣) فلسطين أرض الرسالات الإلهية، لروجيه جارودي، (٦٩).

(٤) في مقال له نشرته الهآرتس يوم الجمعة (١٩٩٩/١٠/٢٩) ونشرت ترجمة المقال الحياة الجديدة (١٩٩٩/١٠/٣٠).

يعلنوا صراحة عما تبين لهم، ثم دفعتهم الجرأة فيما بعد إلى إعلانه!

فعندما نشر جيمس بريتشارد سنة ١٩٦٢م تقريره النهائي عن حفرياته التي أجراها في منطقة الجيب (وهي نفسها جبعون التوراتية) فيما بين ١٩٥٦-١٩٦٢م، أي بعد خمس سنوات من نشر نتائج حفريات كينيون في أريحا؛ حينذاك كتب بشيء من الحذر، أنه لم يعثر في الجيب ولا في التل بالقرب من دير دبوان (عاي التوراتية) على مدينة معاصرة ليشوع، غير أنه أرجع ذلك إلى ضآلة المساحة التي أجرى فيها حفرياته، ((وخمَّن أن تلك المدينة لا تزال مطمورة في مكان من التل، ولكنه في سنة ١٩٦٥م، ودون إجراء مزيد من الحفريات، كتب: **ليس هناك شك بناءً على أفضل ما يتوفر من شواهد، أنه لم يكن هناك مدينة معاصرة ليشوع**))(١).

وهذا مناقض تماما للسفر السادس من أسفار العهد القديم، أعني سفر يوشع، الذي يقرر أن مدينة عاي التي ادَّعى سفر يوشع أن يوشع دمرها، لم تكن موجودة أصلا في عصر يوشع بن نون عليه السلام.

وثمة مدينة أخرى غير مدينتي أريحا وعاي، اللتين تحدث سفر يوشع عن تدمير يوشع لهما، ألا وهي مدينة حاصور، الواقعة إلى الجنوب من بحيرة الحولة، التي دَمّرها يوشع عليه السلام، حسب السفر الذي يحمل اسمَه..

فقد كشف المنقبون الآثاريون آثار مدينة مدمرة بالكامل هناك، أي جنوب بحيرة

---

(١) كتاب: آثار فلسطين، (١١٠) للأستاذ حسين عمر حمادة، ويُنظر حول جيمس بريتشارد أيضا: وايتلام في كتابه (اختلاق إسرائيل القديمة ١٥٣) وحاشية المترجمة الدكتورة سحر الهنيدي في الصفحة ذاتها، ويُنظر: تومبسون في كتابه التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، (١٩ و٢٢-٢٣)، وتُنظر: الموسوعة الفلسطينية، القسم المعجمي، (٨/١)، حيث ذكرت قوله: ((إن التناقضات الواضحة، التي كشفت عنها نتائج التنقيب الأثري في أريحا وعاي والجيب، وهي المدن التي تحدث عنها سفر يشوع، تدل على أننا نسير في طريق مسدود في محاولة العثور على أدلة أثرية لإثبات الروايات التقليدية عن الفتوحات الإسرائيلية)).

الحولة، ويُرجع علم الآثار الإسرائيلي دمارها إلى عام ١٢٣٠ ق.م.، **لكن معظم علماء الآثار في فلسطين، ومنهم عالم الآثار الإسرائيلي موشيه كوشافي، أكدوا أن الدمار الذي لحق بمدينة حاصور، لا يمكن أن يكون قد وقع بعد عام ١٢٧٥ ق.م.، أي قبل الزمن المفترض لدخول يوشع بن نون إلى المدينة بما لا يقل عن خمسة وسبعين عاما**[1].

ولربما كانت بعض المدن قد وقعت تحت طائلة التدمير، في قريب من الفترة التي يُفترض أن يوشع دخل فيها أرض كنعان، لكن، ليس ثمة دليل يدل على أن هذه المدن دُمِّرت بفعل يوشع بن نون وغزوه هذه الأرض، إذ ثبت أن كنعان تعرضت في تلك الفترات إلى حملات عسكرية من الفرعون رمسيس الثاني، وكذلك خلفه الفرعون مرنفتاح[2]،فليس ثمة ما يدل حسب التنقيبات الأثرية الحالية، على هويّة حاملِ معولِ التدمير لهذه البلاد، التي دمِّرت أصلا قبل الفترة المفترضة لدخول يوشع بزمان قريب، ذلك أن ((الغزاة عادةً لا يتركون وراءهم بطاقة زيارة تُفصح عن هويتهم))[3].

وبالمجمل: فإن صياغة سفر يوشع تتضمن أن دخول بني إسرائيل أرضَ فلسطين كان دخولا عسكريا غازيا، ولم يكن دخولا سلميا، وهذا ما يؤكِّده أولبرايت فيما نقلناه عنه سابقا، ورددنا عليه حينها حسب ما اقتضاه المقام؛ وهذا الشكل العسكري الذي يتحدث

---

(١) يُنظر: آرام دمشق وإسرائيل، للأستاذ فراس السواح، (٩٥).

(٢) كما قد اتضح لنا قبل صفحات.

(٣) المرجع السابق، (٩٥)، هذا، ولا ينبغي التسرع إلى محاولة إيجاد نسب بين بعض المكتشفات الآثارية، وبين جماعات محددة بعينها، مذكورة هنا أو هناك، فإن مثل هذا التسرع لا يخدم الحقيقة، بل لا يخدم إلا أفكارا لاهوتية وسياسية مسبقة، ينبغي على المهتمين بالبحث العلمي ألا ينجروا وراءها، وينبغي أن: ((تُدرس أنماط الاستيطان وإيقاعاته، وأن تُعرف أوجه الشبه والاختلاف فيما بينها على المدى الطويل، ومن المهم جدا محاولة فهم كيف يمكن تحديد موقع أو فترة من الفترات في تاريخ الاستيطان، وذلك بمقارنتها مع الفترات السابقة واللاحقة من العصر الحجري حتى الوقت الحاضر، ولن تصبح هذه المهمة ممكنة قبل استطلاع ومسح كل المناطق بقدر واحد من الاهتمام والتركيز))، كما قال وايتلام في كتابه: (اختلاق إسرائيل القديمة ٢٨٥).

عنه سفر يوشع هو ما نفاه علم الآثار، بل شارك علماء آثار إسرائيليون في نفيه نفيا قطعيا..

يذكر توماس تومبسون أن المسح الأثري الذي قام به العالِم الآثاري الإسرائيلي فنكلشتاين، والذي ذكره في كتابه: أركيولوجيا الاستيطان الإسرائيلي الصادر عام ١٩٨٦م؛ يذكر تومبسون أن هذا المسح ((**يوضح بجلاء أن نظرية الغزو قد ماتت**))[١]، مع أن نظرية الغزو تنطلق من طرح سفر يوشع، الذي يصوّر الوجود الإسرائيلي القديم في فلسطين كما لو كان انبثاقا عن غزو قام به يوشع بن نون.

بل يقول عالِم الآثار الإسرائيلي زئيف هيرتسوغ[٢]: ((من الصعب قبول ذلك، ولكن من الواضح للعلماء والباحثين اليوم أن شعب إسرائيل لم يقم في مصر ولم يته في الصحراء، **ولم يحتل الأرض من خلال حملة عسكرية**، ولم يستوطنها من خلال أسباطه الاثني عشر)).

وبناءً على ما مضى يقول الأستاذ السواح: ((**ومن المرجّح أن الدخول قد تم بشكل بطيء وسلميٍّ في معظم الأحوال..**))[٣]، وهو ما قاله كيث وايتلام، فقد ذكر أن هجرة القبائل الإسرائيلية إلى فلسطين كانت بطيئة وسلمية في أغلب الأحيان[٤]، وفي هذا دلالة أن المجازر المُدعى أن يشوع ارتكبها، ليست إلا من أوهام التوراة والتوراتيين.

إن الراواية التوراتية، ومنها رواية سفر يوشع، قد أخذت شكلا أدبيا يعتمد الإثارة ولا يستند على مصادر صالحة للأخذ عنها، إضافة إلى أن هذه الرواية التوراتية قد

---

(١) التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، تومبسون، (١١٢)، ونظرية الغزو هي تلك التي يتجه إليها نظر بعض الباحثين الآثاريين التوراتيين حين محاولة تفسيرهم كيفية انتقال بني إسرائيل إلى فلسطين، وبعضهم رأى أن وصولهم إلى فلسطين جاء عبر الهجرة..إلخ.

(٢) في مقال له نشرته الهآرتس يوم الجمعة (١٩٩٩/١٠/٢٩) ونشرت ترجمة المقال الحياة الجديدة (١٩٩٩/١٠/٣٠).

(٣) الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، للأستاذ فراس السواح، (٢٠١).

(٤) اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (٢١٢).

استقرت بعد عهود من التاريخ المفترض للأحداث التي تنقلها، مما يعني إمكانية دخول قصص لا يمكن أن تثبت في التاريخ؛ يقول جوزيف كالووي صاحب الباع الطويل في العديد من العمليات التنقيبية الآثارية في فلسطين: ((إن النص التوراتي عن الفتح العسكري، قد أخذ شكله الذي وصل إليه بعد فترة طويلة من استقرار الإسرائيليين في الأرض، وهذا الشكل يمكن وصفه بالتاريخ الوعظي أو التبشيري، مما يلائم القائمين على الصياغة خلال عصر المملكة، **ولتحقيق هذه الغاية، فإن المحرِّرين قد اختاروا مقتطفات متفرقة من مصادر وصلت إليهم، وصاغوا منها قصة عن بدايات إسرائيل، وذلك من وجهة نظر لاهوتية**))[1]؛ فليس الأمر أمر تاريخ، بل هو لاهوت خلا عن دليل يمكّنه من الثبوت.

ويقول كالوي أيضا: ((إننا لا نستطيع بعد هذا أن نصدق أن تدمير بتيل وتل دوير وتل بيت مرسيم أو تل القاضي في العصر البرونزي المتأخر، نتيجة غزو الإسرائيليين لأرض كنعان))[2]، وهذا الرأي يخالف روايات التوراة.

إن التحقيقات والتنقيبات الآثارية قد نسفت آخر معاقل الحصون التوراتية، ذلك أن هذه المعاقل قد بناها من لا يعرف قدرة الزمان والتاريخ والعلم على الكشف عن الحقائق!

---

(١) نقلتُ كلام كالووي عن: آرام دمشق وإسرائيل، للأستاذ فراس السواح، (٩٦).

(٢) نقلتُ كلام كالووي هذا عن: الموسوعة الفلسطينية، القسم المعجمي، (٨/١).

الباب الرابع:

عروبة فلسطين في لغتها وأسمائها

سنرى في فصلي هذا الباب ما نكشف به عن جانب آخر من عروبة فلسطين القديمة، ذلك هو المتمثل في لغتها وتسمياتها، فلغة فلسطين الأولى التي لا يعرف التاريخ سابقا لهـا هي العربية، وفق لهجاتها القديمة، التي سيرى القارئ الكريم إن شاء الله تعالى أنها من أقدم المعروف في عالم اللغة مما له صلة وُثقى باللغة العربية الفصحى، وكأنه حلقة من حلقـات تطوُّرها.

وأما عالم الأسماء الفلسطينية القديمة، فهو ماثل إلى الآن، رغم ما يحاول ادِّعاءه بعض باحثي اليهود، الذين يلوون عنق الحقيقة، لتنطق بغير ما يكمن في داخلها، ولكن هيهات أن تسكت الحقيقة عما في مخزونها الهائل من الثوابت التي لا تتزحزح.

إن لغة وأسماء فلسطين القديمة، هما كاشف حقيقي عن انتماء الماضي الفلسطيني، ولقد ثبتا ثباتا مستمرا، تحدّى محاولات الاحتلالات التي كان بعضها يحمل مسـؤولية تغـيير الهوية، لكنها إن نجحت في فترة من فترات التاريخ القديم، فهي لم تسـتطع أن تسـتمر، وبقيت فلسطين عربية.

سيأتي هذا الباب في فصلين، أحدهما يدور حول اللغة الفلسطينية القديمـة، والآخـر يدور حول أسماء فلسطين القديمة، وأتبعنا كل ذلك بالحديث عن أسماء بيت المقدس.

ولن يرى القارئ سردا تاريخيا في الفصلين، بقدر ما سيرى من عرْض يتَّسم بما يكفي لكشف الانتماء الفلسطيني القديم.

الفصل الأول: عروبة فلسطين في لغتها

سيرى القارئ الكريم في مباحث هذا الفصل إن شاء الله تعالى ما يكشف عن جانب آخر من عروبة فلسطين القديمة، وهو المتمثِّل بعروبتها اللغوية.

إن اللغة العربية هي اللغة التي كان يعرفها أول الأقوام القاطنين في فلسطين منذ أول ما هو معروف في تاريخها، ولقد دلت على ذلك الكشوف وتطوُّرات اللغات ودراساتها الحديثة.

وكان من الحلقات المهمة في تاريخ فلسطين اللغوي، تلك الحلقة التي اشتهرت فيها اللغة الآرامية، وسيتبين لنا أنها لغة عربية أصيلة، تعبِّر عن حلقة من حلقات تطوُّر اللغة العربية ذاتها.

وسيجري البحث في اللغات السامية القديمة ومدى صلتها باللغة العربية، كل ذلك بناءً على دراسات المتخصصين.

وسيرى القارئ الكريم إن شاء الله تعالى أن اللغة العبرية ذاتها هي في أصلها لا تتجاوز كونها لهجة كنعانية قديمة، كما ذكرنا في فصل سابق، غير أنها لم تنعم بما نعمت به شقيقاتها من اللهجات الكنعانية الأخرى بالتطوُّر المعروف.

وسينقسم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: العربية أول المعروف في فلسطين القديمة.

المبحث الثاني: اللغة الآرامية عربية أصيلة.

المبحث الثالث: استمرار العربية تحت الاحتلالات.

المبحث الأول: العربية أول المعروف في فلسطين القديمة

إن اللغة التي تكلمها الساميون القدماء هي اللغة السامية الأم، التي انبثقت عنها اللغات السامية الأخرى، ومنها: العربية؛ والسامية على هذا هي اللغة التي تكلمها الكنعانيون القدماء، الذين هم أول من عُرف من أولئك الأقوام الذين قطنوا فلسطين، بل إن من العلماء من يرى أن تلك اللغة التي تكلمها الكنعانيون ليست منبثقة عن اللغة السامية فحسب، فكانت أقرب اللغات السامية إليها؛ بل هي عند هؤلاء العلماء لغة عربية فعلا، دون قيد هذا الانبثاق عن اللغات السامية، على اعتبار شدة قربها من العربية المعروفة، فاللغة السامية ذاتها، وهي التي تكلم بها الساميون القدماء، لا تعرف لغة أشبه بها غير العربية المعروفة لدى العرب، ابتداء من الجاهلية قبل الإسلام، وحتى يوم الناس هذا.

وفي بداية حديثنا هنا لا بد أن نذكر ما توصلت إليه أبحاث (العالم التوراتي مندهول) وذلك في إطار حلِّه لرموز النقوش المقطعية في بيبلوس (جبيل) بلبنان، فقد أثبت أن سكان مناطق شرقي البحر الأبيض المتوسط في فلسطين ولبنان، كانوا يتكلمون ويكتبون لغة هي جدَّة اللغة العربية[1].

وسنرى في مبحثنا هذا أن كلام العلماء المتخصصين يدور حول اعتبار لغة الكنعانيين هي العربية فعلا، أو أن لغتهم هي اللغة التي لا تعرف لغة أقرب إليها من العربية، فتكاد تكون هي العربية فعلا..

يقول الدكتور أحمد سوسة، وهو عراقي كان يهوديا فأسلم، وتصفه الدكتورة بيان نويهض الحوت بأنه من أبرز المؤرخين العرب المتضلعين من علم الآثار[2]، يقول: "ومن الثابت أن سكان فلسطين الأصليين القدماء، وقد كانوا كلهم عربا؛ هاجروا من جزيرة

---

(١) يُنظر: القدس في التاريخ، تحرير وترجمة: كامل جميل العسلي، (١١).

(٢) فلسطين القضية الشعب الحضارة، تأليف بيان نويهض الحوت، (١٧).

العرب إثر الجفاف الذي حل بها، ...، وقد أخذ الموسويون بعد ظهورهم في أرض كنعان بلغة الكنعانيين وثقافتهم وحضارتهم وتقاليدهم؛ هذه حقيقة تاريخية، أيدتها المكتشفات الآثارية الأخيرة، وأخذ بها العلماء بالإجماع تقريبا»[1]، وهؤلاء السكان الأصليون القدماء في فلسطين كانوا يتكلمون السامية، ذات القرابة الباهرة والأصول المتناقَلة عبر اللغة العربية، يقول الدكتور أحمد سوسة أيضا: «ومما لا شك فيه أن الكنعانيين هم أقدم الأقوام الذي استقروا في أرض فلسطين، وإليهم يعود تأسيس حضارة فلسطين القديمة، **والأرجح أن لغتهم كانت في الأصل اللغة التي اعتُبرت أقرب لغة إلى أم اللغات، اللغة العربية القديمة، التي كان يتكلم بها أهل الجزيرة قبل هجرتهم إلى الهلال الخصيب**»[2]، ويقول أيضا: «**ومن المسلم به بإجماع الباحثين، أن القبائل العربية التي نزحت من الجزيرة العربية كانت كلها تتكلم لغة واحدة، هي اللغة العربية الأصلية قبل أن تتفرق**»[3]، وينقل عن تاريخ العرب قبل الإسلام للمستشرق فيليپي قوله: «**إن اللغة العربية التي يعترف الخبراء في كونها أقرب من جميع اللغات السامية إلى اللغة الأم الأصلية، التي اشتقت منها جميع هذه اللغات؛ هي على أغلب الاحتمالات أقدم لغة في العالم ما زالت حية حتى يومنا هذا**»[4].

ويؤكد علماء النحو المقارَن للّغات السامية، ومنهم بروكلمان ووليم رايت وإدوار دوروم وغيرهم أن اللغة العربية الفصحى تمثّل أقرب ما يكون من اللغات إلى اللغة السامية الأم، تلك التي كان يتكلم بها الكنعانيون القدماء[5]؛ هذا ويذكر الدكتور حسن ظاظا في كتابه: الساميون ولغاتهم أسماءَ هؤلاء العلماء الذين يؤكدون القرابة الشديدة بين العربية

---

(١) العرب واليهود في التاريخ، الدكتور أحمد سوسة (٦٥).

(٢) المرجع نفسه، (١٠٣).

(٣) المرجع نفسه، (٢٨٠).

(٤) المرجع نفسه، (٢٨٣-٢٨٤).

(٥) فلسطين القضية الشعب الحضارة (١٩).

الفصحى وبين لغة الساميين الأوائل، ويضيف إليهم العالِم دافيد يلين، ويذكر الدكتور ظاظا أنهم أجمعوا على أن ((اللغة العربية الفصحى هي بلا منازع أقدم صورة حية من اللغة السامية الأم، وأقرب هذه الصور إلى تلك اللغة التي تفرعت منها بقية اللغات السامية))(١).

إننا إذن أمام تاريخ كبير من مسيرة فلسطين القديمة، التي كانت تسمى أرض كنعان، وكانت هذه المسيرة في جانبها اللغوي عربية، أو على الأقل: صاحبة الصلة الأكبر باللغة العربية، وإن كان البعض، كما نقلنا، يسميها عربية فعلا، أو العربية القديمة، دون ذلك القيد الذي يضعه البعض الآخر، ولهذا يقول الفيلسوف الكبير روجيه جارودي: ((..ذلك أن الكشوف التي تمت منذ قرن، ولا سيما الأخيرة منها، في رأس شمرا (أوغاريت) وفي منطقتي ماري وإبلة منذ عام ١٩٧٥م -فيما يسمى الآن بسورية- تدل على أهمية هذه المنطقة،...، وكانت أوغاريت معمورة منذ العصر الحجري، وبلغت في منتصف الألف الثاني أوجَها، عندما استقر فيها الكنعانيون **الذين كانوا يتكلمون اللغة العربية القديمة (المسماة: السامية) لغة أجدادهم في شبه الجزيرة**))(٢)، وهكذا يصف المفكر الكبير جارودي اللغةَ السامية بأنها اللغة العربية القديمة، وقال عن لغة مدينتي إبلة [عبلة]وأوغاريت: ((**وكلتاهما كانت تمتاح من نفس المعين اللغوي العربي المعروف بالسامي**))(١)، ويقول هـ. ي، فرانكن متحدثا عن لغة أهل القدس في العصر البرونزي:

---

(١) الساميون ولغاتهم، للدكتور حسن ظاظا، (١٦)، وبالمناسبة فإننا نرجِّح جدا أن أول البشر وجودا على سطح الأرض قد تكلموا لغة من اللغات، لم يكن لديهم غيرها، ثم تنقلت بهم الأزمان، وتجاوزوا الأصل اللغوي الذي كانوا عليه، والذي تفرعت منه سائر اللغات، وربما أضافوا لغات جديدة لا تمت بأصل إلى اللغة الأم، أما ما هي اللغة التي تكلم بها أول البشر، وكانت تشكل مع وحدتهم الدينية التوحيدية وَحدةً لغوية، فهذا ما لا سبيل إلى معرفته ولا إلى تصوره، فلا الوحي السماوي الصحيح بيّن الأمر، ولا المكتشفات تستطيع تبيينه؛ ويُنظر في وَحدة اللغة الأولى التي تكلمها البشر أول ما كانوا: دروس اللغة العبرية، الدكتور ربحي كمال، المقدمة.

(٢) فلسطين أرض الرسالات الإلهية (٣٩).

(١) المرجع نفسه، (٤٠).

"**أما اللغة، فكانت سامية عربية، وكثيرا ما كانت تدعى بالكنعانية**"[٢].

ويقول المؤرخ الفلسطيني الكبير الأستاذ الدكتور أحمد صدقي الدجاني: "عكف علماء اللغة العرب والغربيون على البحث في العلاقة بين مجموعة اللغات التي يسميها البعض: العربية، ويسميها البعض: السامية،...، فهم يقصدون اللغات الكنعانية والآرامية والسريانية والبابلية والحبشية والأمهرية، ولغة اليمن القديمة،...، وهم يتوافقون على رأي بروكلمان (أبي علماء اللغات الألمان) الذي يقول: "**وجميع هذه اللغات تنتمي إلى أرومة واحدة، جاءت عن لغة أم، هي أقرب ما تكون إلى الفصحى العربية**"[٣].

---

(٢) القدس في العصر البرونزي، هـ. ي. فرانكن، ضمن مجموعة الأبحاث التي نشرها الدكتور كامل جميل العسلي تحت عنوان: القدس في التاريخ، (٢٨)، وفرانكن هذا يقول عنه الدكتور كامل جميل العسلي: "درس اللاهوت واللغات السامية في أمستردام ولايدن، وحصل على دكتوراه في الفلسفة في دراسات العهد القديم من لايدن، حيث أصبح محاضرا من المرتبة العليا في علم آثار فلسطين، أجرى حفريات في تل دير علا في الأردن وفي سوريا، وكتب عدة كتب ومقالات في علم الآثار.." يُنظر تقديم الدكتور العسلي لمجموعة الأبحاث التي نشرها، ومن ضمنها بحث فرانكن هذا.

(٣) هذا نص كلام الأستاذ الدكتور أحمد صدقي الدجاني، أثناء محادثة هاتفية أجريتها معه مساء يوم الإثنين، ٣/٦/٢٠٠٢م.

المبحث الثاني: اللغة الآرامية عربية أصيلة

وفي الحقيقة فإن اللغة الآرامية الواردة في كلام الأستاذ الدكتور الدجاني، الذي نقلناه نهاية المبحث السابق، والتي انتشرت في فلسطين في عهود تاريخية ماضية، هي عربيةٌ عروبةً واضحة لدى الباحثين، وربما نستطيع أن نقول: إنها لهجة عربية كتلك اللهجات العربية المعروفة في الجزيرة العربية، من حيث كون مناطق العراق والشام والجزيرة العربية كانوا يعرفونها، ويحسنون التحدث والتفاهم من خلالها.

قال الأستاذ عباس محمود العقاد عن الآرامية هذه: ((..وغلبت على سائر هذه اللهجات، وتفرعت منها النبطية، التي اتفقت الروايات على أنها أم لهجات الحجاز، ولم تكن الآرامية بعد شيوعها غريبة عن المتكلمين بالكنعانية أو الحِمْيَرية، وعن الكاتبين بالحروف النبطية أو حروف المسند، فكان المقيمون أو الراحلون بين هذه الأرجاء، يتخاطبون بها كما يتخاطب أبناء الأقاليم في القطر الواحد، أو كما يتخاطب أبناء وادي النيل اليوم من الإسكندرية إلى الخرطوم...))(١)، ويقول العقاد أيضا: ((وجملة القول: **إن الثقافة الآرامية عربية في لغتها ونشأتها ونسبتها إلى عنصرها، ولا يمكن أن تُعرف لها نسبة إلى أمة غير الأمة العربية في عهودها الأولى**))(٢).

ولم يعتبر المؤرخ العربي الفلسطيني الأستاذ محمد عزة دروزة: تعالى في كتابه الكبير (تاريخ الجنس العربي) الآراميةَ مصدرَ إمداد للغة العربية فحسب، كما سننقله عن الدكتور حسن ظاظا، وإنما اعتبرها ذاتها عربية فعلا، كما ويعتبر الآراميين أنفسهم عربا، وهو يقول عن الآراميين إنه: ((**لا خلاف بين الباحثين على ساميّتهم، أي جنسيتهم العربية حسب اصطلاحنا، والذين يقرر جمهرة كبيرة منهم أنهم يمتّون في أصلهم إلى جزيرة العرب**))،

---

(١) الثقافة العربية، الأستاذ عباس محمود العقاد، (١١).

(٢) المرجع نفسه، (١٥).

وكان الأستاذ العلامة دروزة قد أثبت قائمة طويلة بمفردات لغوية، ثم تراه يقول بعد ذلك عن الآرامية: إنها ((**تبدو عربية الطابع كمثيلاتها البابلية والآشورية والعربية الجنوبية القديمة؛ وخاصة في العراق الجنوبي آرامية الطابع بنوع خاص مما فيه توكيد لذلك**))[1]، وهذا هو الرأي نفسه الذي يُفهم من كلام المؤرخ العربي الفلسطيني الكبير الدكتور أحمد صدقي الدجاني، الذي ذكرناه قريبا، فقد ذكر الآرامية فيما ذكر من اللغات التي سماها البعض سامية، وسماها الآخرون عربية.

ومن هنا فيما يبدو لي، يؤكد الأستاذان المتخصصان في البحوث الأثرية الفلسطينية: إبراهيم الفني وطاهر النمري، أن الآرامية مشتقة من الكنعانية[2]، ويرى البعض العكس، أي أن الكنعانية هي التي اشتُقَّت من الآرامية، وعلى كلٍّ فكلتاهما عربية، على الأقل حسب طور من أطوار العربية، ونحن قد قدمنا أن لغة الكنعانيين هي أقرب اللغات إلى اللغة العربية الفصيحة، أو هي عربية أصلا، كما قد نقلنا عن روجيه جارودي.

ويظهر أن لغتهم العربية عائدة إلى الموطن الأصلي الذي خرجوا منه، فهم قد خرجوا مهاجرين من الجزيرة العربية، على الأرجح من أقوال المؤرخين، يقول الأستاذ دروزة أيضا: ((والمظنون أن الآراميين قدموا إلى بلاد الشام من الجزيرة مباشرة حوالي القرن العشرين قبل الميلاد..))[3]، ويقول: ((وليس من خلاف بين الباحثين في كونهم من الأرومة السامية، أي العربية[4] حسب اصطلاحنا،...، **ولقد عُثِر على نقوش آرامية عديدة في أكثر من مكان في شمال سورية، تبدو عليها اللمحة العربية القديمة بارزة وتقوم شاهدا**

---

(١) تاريخ الجنس العربي، محمد عزت دروزة (٣/٨٢).

(٢) تُنظر الحلقة الثالثة من: تفنيد مزاعم علماء الآثار الإسرائيليين للفني والنمري، جريدة القدس، ٢٠٠٢/٢/١٧.

(٣) تاريخ الجنس العربي، محمد عزت دروزة (٤/٢٧٢).

(٤) وللتفصيل حول أصل الآراميين العربي يُنظر: العرب واليهود في التاريخ، تأليف الدكتور أحمد سوسة، (١٣٨-١٤١).

أو دليلا آخر))، وهكذا تبدو المكتشفات الأثرية داعمة للقول بعروبة اللسان الآرامي[1].

---

(١) ولعله من المناسب هنا أن نبين أن الخط العربي هو في أصله تطوّر نهائي للخط النبطي المأخوذ من الآرامي، ففي المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (١٧٤/٨) للدكتور جواد علي: ((وأما جمهرة المستشرقين المعاصرين الذين عُنوا بدراسة تطور الخطوط السامية ومنشأ الخطوط العربية، فقد رأوا أن الخط العربي الذي دُوِّن به القرآن أخذ من الخط النَّبَطي المتأخر الذي كان يستخدمه النَّبَط، وهو خط قد تولد من القلم الإرمي المتفرع من الفينيقية على رأي المستشرق هومل فقد استُعمل في تيماء وبين النَّبَط الذين كانوا يقيمون في أعالي الحجاز وفي سيناء، وقد عُثر على كتابات دُوِّنت به في مواضع مختلفة من الحجاز واليمن))؛ هذا، ويَعتبر كثير من المؤرخين والباحثين الأبجدية العربية من أهم الأعمال الإبداعية التي قدمها العرب للعالم، يقول المؤرخ الدكتور فيليب حتّي في كتابه تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين (١/٣-٤): ((والسوريون القدماء لم يُتحفوا العالم بأبدع الأفكار وأرفعها فحسب، وإنما أوجدوا وسيلة للتعبير عن هذه الأفكار بتلك العلامات البسيطة المظهر، ذات المفعول السحري، التي تسمى الأبجدية،...، **فاليونان في الغرب إنما نقلوا حروفهم عن الفينيقيين أو الكنعانيين، كما كانوا يسمون أنفسهم، ثم أعطوها إلى الرومان، وبالتالي إلى شعوب أوربا الحديثة، كما أن الآراميين في الشرق استعاروا حروفهم من المرجع نفسه، ونقلوها إلى العرب والفرس والهنود وسائر شعوب آسيا وأفريقيا، ولو أن هؤلاء السوريين لم يقدموا للعالم أية خدمة أخرى، لكان ذلك كافيا بأن يتميزوا كأعظم المحسنين للبشرية**))، ويُنظر المرجع نفسه، (١/١١٧-١١٨)، ويقول هنري س. عبود في (معجم الحضارات السامية، ٤٦٤) عن الكتابة السامية: ((**وقد عمت أوروبا وقسما من آسيا عن طريق مختلف المظاهر المتفرعة منها، وخاصة عن طريق الأبجدية**)).

ونحن إنما سمينا هذه الأبجدية التي نقلها العالم عن الفينيقيين عربية، لأن الفينيقيين والكنعانيين ساميون، والساميون عربٌ بفعل أصولهم الممتدة إلى الجزيرة العربية، التي هاجروا منها إلى الهلال الخصيب، على حسب أرجح الأقوال، وكون أصولهم عائدة إلى جزيرة العرب، هو ما جزم به الدكتور فيليب حتي نفسه، فقد قال (المرجع نفسه ٦٧/١): ((وإذا ما تساءلنا عن الموطن الأصلي لهذه الجماعة -أي السامية- فإن النظرية المحتملة أكثر من غيرها تجعل ذلك الموطن الجزيرة العربية))؛ وعن هذا العطاء الكبير العربي للعالم يقول الأستاذ جارودي في كتابه (فلسطين أرض الرسالات الإلهية ٥٧-٥٨): ((**وإن الإنسانية لتدين للهلال الخصيب بالكتابة الهجائية** التي أدت في القرن الخامس عشر ق.م. إلى خلق الحركة الهائلة في نشر الثقافة على نحو ديمقراطي، وذلك بالانتقال من الرموز والصور الهيرغليفية في

وأما رأي الدكتور حسن ظاظا، والذي أشرنا إليه قريبا، فقد ذكره في كتابه: الساميون ولغاتُهم، ويبدو من خلاله أن هذا المؤرخ اللغوي الكبير يميل إلى اعتبار العربية عائدة في عشرات الآلاف من ألفاظها إلى الآرامية نفسها، يقول الدكتور حسن ظاظا: ((واللغة العربية مدينة للغة الآرامية بعشرات الآلاف من الألفاظ التي دخلت في عصور مختلفة، ومن طرق متباينة))(١).

وهو الرأي الذي رأى خلافه غيرُه من الباحثين، كما قد نقلناه عن الأستاذيْن

مصر، والرموز المسمارية في العراق،...، لقد كان هذا ثورة من أعمق الثورات الثقافية في الملحمة الإنسانية)).

وهذا الذي نقلناه عن جارودي، هو نفسه تقريبا ما يقوله المؤرخ وعالم الآثار المتضلع، اليهودي العراقي سابقا، والمسلم العربي العراقي لاحقا، الدكتور أحمد سوسة ؒ تعالى؛ فبعد أن ينقل كلام المؤرخ دايرنجر، الذي يقول فيه: ((**إن مصدر اختراع الأبجدية يرجع إلى منطقة فلسطين وسورية، وهي تنفرد بين جميع مناطق الشرق الأدنى في هذا الاختراع..**))، وبعد أن أثبت تطوُّر الحروف اللاتينية واليونانية عن الكنعانية العربية، وبعد أن نقل عن الأستاذ العقاد ؒ تعالى كلاما في ذلك؛ بعد كل ذلك يقول الدكتور أحمد سوسة: ((**نستدل من كل ذلك أن الجزيرة العربية لعبت أكبر دور في تطوير الثقافة العالمية، فهي كما ثبت: مهد الكتابة الأبجدية التي أظهرها الكنعانيون لأول مرة في طور سيناء،...،** وبعد أن تنقلت في أرجاء الجزيرة وأطرافها، تطوّرت إلى عدة أبجديات، ثم عادت فاستقرت في قلب الجزيرة، في شكلها الأخير: (عربية القرآن الكريم) المأخوذة عن النبطية المتأخرة))، ثم ينقل عن المستشرق مرجليوت قوله: ((**يرد على الخاطر سوال عن أسماء المواقع التي تظهر على خريطة اليونان، ك(عسكرا)، أي المعسكر، وفندس، أي الجبل، من فند، وهو الجبل العظيم باللغة العربية، ولاريسا، أي العريش، أو الخيمة؛ إلى أمثال هذه الأسماء التي تشبه أسماء المواقع في الأندلس بعد الفتح الإسلامي، فيبادر إلينا السؤال: أفلا تشير هذه الأسماء إلى حضارة عربية عريقة، وصلت إلى اليونان، ومعها حروف الأبجدية، قبل أن يصل إليها الفينيقيون بحروف تخالفها؟**)).

يُنظر كتاب الدكتور أحمد سوسة، (العرب واليهود في التاريخ)، (٢٨٧-٢٩٦)، ففيه بيان واضح في قضية أسبقية الحرف الأبجدي العربي، واشتقاق الأبجديات الأخرى منه.

(١) الساميون ولغاتُهم، للدكتور حسن ظاظا (١٠٣).

العلامتيْن: العقاد ودروزة، وكذا عن المؤرخ العربي الفلسطيني الكبير أحمد صدقي الدجاني، وهو ما أكدته حقائق الآثار كما نقلنا ذلك عن الأستاذين الآثاريين الدكتور الفني والنمري.

ولكننا ها هنا لا بد أن نؤكد أن كلام الأستاذ العلامة حسن ظاظا لا يخالف في حقيقته كلام غيره من المحققين والمؤرخين، فإن قوله بأن العربية مدينة بعشرات الآلاف من الألفاظ للغة الآرامية، يشبه في حد ذاته أن يكون تأكيدا على أن اللغتين في حقيقتهما لغة واحدة، وإنما اختلفتا في كون إحداهما لهجة من لهجات اللغة الأم الأصلية، التي هي حسب التحقيق: العربية؛ ذلك أن وجود عشرات الآلاف من الألفاظ حسب الدكتور ظاظا في لغة من اللغات، ليس أكثر من تعبير آخر عن كونهما لغة واحدة، فعشرات الآلاف من الألفاظ تشكل في الحقيقة لغة متكاملة.

إننا نرى الاكتفاء بهذه النقول التي تتحدث عن لغة الأقوام القاطنين الأُوَل لفلسطين، وأنها هي العربية، ولم نشأ أن نُطيل في الحديث هنا، فهي تامة الوضوح في بيان المقصود.

ولكن، وفي نهاية هذا المبحث، لا بد من طرح السؤال التالي: إن فلسطين احتلت قديما احتلالات شتى، ولا شك أن كل أمة متغلبة تسعى إلى تقويض ثقافة ولغة الأمة المغلوبة، فما مصير اللغة العربية في فلسطين وفق هذه المعادلة؟

وهل أثّرت الاحتلالات المتعددة على وجه فلسطين اللغوي العربي؟ فهذا ما سنتطرق إليه في ثنايا المبحث التالي بإذن الله تعالى..

المبحث الثالث: استمرار اللغة العربية تحت الاحتلالات

أولا وقبل كل شيء، فإننا نودُّ أن نؤكد أن ما سننتهي إليه من أن العربية لم تنقطع عن الأرض المقدسة فلسطين، عائد في جانبه الأهم إلى عدم انقطاع العرب أنفسهم عن فلسطين، وهذا ما يؤكده الآثاري الأمريكي البروتستانتي الشهير أولبرايت، الذي كرَّمته إسرائيل لجهوده في خدمة الأهداف التوراتية، يقول أولبرايت هذا: ((**إن العنصر السامي قد بقي العنصر الأساسي في التركيب العرقي لفلسطين منذ ذلك الوقت إلى الآن**))(١)، أي منذ دخول الكنعانيين فلسطين إلى الآن؛ والمقصود بالعنصر السامي هنا: العنصر العربي سواء الكنعاني خاصة والعربي عامة، كما قد رأينا في التمهيد الذي جعلناه للباب الثاني، وكما قد رأينا في الفصل الثاني من ذلك الباب الثاني.

وثمة أمر آخر لا يقل عن هذا السبب أهمية، وهو يرجع إلى الفتح الإسلامي لفلسطين، فإن عربية فلسطين صادفت زخما دينيا وعربيا لا يقل أهمية عن الزخم العربي الأصلي فيها، أسهم كله في المحافظة على عروبة فلسطين لغة وشعبا، فحينما قدم المحرر والفاتح العربي المسلم الحجازي إلى فلسطين، لم تعد العربية لغة شعب وحضارة فحسب، بل صارت لغة دين وأمة ودولة لها هيمنة فيما بين المشرق والمغرب.

إن اللغة العربية لم تفارق فلسطين، رغم الاحتلالات المتعاقبة، حتى الاحتلال اليهودي لها الآن، وهذا بخلاف كثير من الأمم حينما تُحتل ديارُها.

ولقد اعتادت كثير من الدول حينما تحتل بلدا ما، فإنها تُحل ثقافتها ولغتها مكان اللغة والثقافة الوطنية الدارجة أصلا لدى أهل هذا البلد الذي احتُلَّ.

ومن المعروف أن فلسطين قد تعرضت في تاريخها الضارب في القِدم، إلى كثير من

---

(١) Albright, The arch, of Palestine, p 180، نقلا عن: القدس بين الاحتلال والتحرير، لعزمي عبد محمد أبي عليان، (٣٢).

الحملات الاستعمارية، القديمة والحديثة، وكان بعض أرباب هذه الحملات ذوي ثقافة ولغة مشهورة، كما هو الشأن بالنسبة للاحتلال اليوناني لفلسطين، إذ من المعروف أن اليونان ذوو لغة وثقافة، والمحتلُّ قويٌّ، وقد لا يقنع بالسيطرة العسكرية، وربما لا يرضى إلا بالهيمنة الثقافية مع السيطرة العسكرية، فما هو حال اللغة العربية أثر هذه الاحتلالات؟

إنه، وفيما يبدو، أن هذه الاحتلالات المتتابعة التي أوقعت أهل فلسطين في محن السيطرة القادمة من فارس والروم واليونان، لم تغيِّر طابع أهل فلسطين اللغوي، الذي كان يصرُّ على الوجود المستمر مع الشعب الموجود الذي لم ينقطع.

إن فلسطين جزء من الشام، وإن ما يقال عن الشام في هذه المسألة يقال عن فلسطين، وعليه، فإنه رغم ((تقلب الأوضاع السياسية والحضارية، ظل عرب الشام محتفظين بخصائصهم البشرية والحضارية، فلم تستطع الأنظمة الدخيلة أو الأقوام الأجنبية أن تغير منها أو تصبغها بصبغة مختلفة، بل على العكس، فقد غير العرب من المظاهر الحضارية التي اقتبسوها بما يلائم قيمهم وتقاليدهم، ولعل كل ذلك ينفي المقولة التي روج لها بعض المستشرقين والسياسيين، بأن بلاد الشام حديثة العهد بالعروبة، وأن صلتها بالعرب ترجع إلى ما بعد ظهور الإسلام وانتشاره))(١).

إنه لم يكن للاحتلالات المتتابعة من حظ في مجال اللغة المُتَحَدَّثِ بها شعبيا؛ سوى ما كان من تعامل حكومي رسمي، لم يقدر أن يغير من حقيقة عروبة أهل فلسطين شيئا.

قالت الباحثة الدكتورة بيان نويهض الحوت في كتابها القيم: فلسطين القضية، الشعب، الحضارة: ((كانت اللغة الآرامية في هذه المرحلة -أي مرحلة الاحتلال الفارسي-، لغة الكلام والتجارة، وحتى في الدواوين، أما الفارسية فلم يتجاوز نطاقها الرسائل

---

(١) الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط، للدكتور فاروق عمر فوزي، والدكتور محسن محمد حسين، ونقلنا هذا النص من الفصل الأول الذي كتبه الدكتور فاروق عمر فوزي (٢١).

والأوامر من الحكام الفرس إلى ولاة الألوية))[١]، وتقول عن مرحلة الاحتلال اليوناني: ((..على الرغم من أن اللغة اليونانية أصبحت اللغة الرسمية، فإن اللغة الآرامية بقيت اللغة المحكية والمتداولة، وهي اللغة التي تكلم بها السيد المسيح،....

((وفي العهد اليوناني كان سكان فلسطين -باستثناء اليونان الحكام- يتألفون من الكنعانيين، ومن العرب (القبائل العربية) ومن خليط من السامريين والآراميين واليهود والفلسطينيين..))[٢]، وعن فترة الحكم الروماني تقول: ((ولم يتكلم اللاتينية من السكان إلا السوريون الذين انضموا إلى الجيش وحاربوا في المقاطعات الغربية، وبقيت في عهدهم اللغة اليونانية لغة الأدب والتعليم، والآرامية اللغة المحلية الدارجة، هذا بالإضافة إلى اللغات الخاصة للشعوب المتعددة، فكانت العربية لغة الأنباط، والعبرية لغة اليهود))[٣].

ولا ينبغي أن يخطر بالبال ضرورة تأثر الوضع اللغوي العربي كنتيجة حتمية لزوال السيطرة الآرامية، فإن ذهاب دولة ما، لا يعني بالضرورة ذهاب لغتها وثقافتها.

يقول ديفيد ديرنجر: ((إن فقدان الحرية السياسية لم يكن معناه نهاية التاريخ الآرامي، بل كان هذا الضعف الذي أصاب الحكومة فاتحة التفوق في الثقافة الآرامية، فاصطبغت سورية كلها وجانب كبير من وادي النهرين بالصبغة الآرامية، وأصبحت اللغة الآرامية هي اللغة الدولية في ذلك العهد،...، وبلغ من قوة اللغة الحيوية أنها شاعت في الاستعمال بعد ألف سنة من ذهاب الدولة الآرامية))[٤]، وهذا يعني وبوضوح: أن زوال سيطرة أصحاب الأرض عنها، لم يصرف لغتهم من الهيمنة على أهلها.

---

(١) فلسطين القضية الشعب الحضارة (٥٨).

(٢) المرجع نفسه، (٦٠).

(٣) المرجع نفسه، (٦٣).

(٤) الأبجدية مفتاح تاريخ الإنسان، تأليف ديفيد ديرنجر، نقلا عن الثقافة العربية للأستاذ عباس محمود العقاد، (١٣)، ويُنظر: العرب واليهود في التارخ، تأليف: أحمد سوسة، (١٥٩) فقد نقل كلام دايرنجر هذا أيضا..

ولعله يحسن أن أذكر هنا كلام المؤرخ جيمس فريزر: ((إن الناطقين بالعربية من فلاحي فلسطين لا زالوا متصلين بالأرض، لم ينفكّوا عنها ولا اقتُلعوا منها، ولئن طغت عليهم موجات من الفتوح، فإنهم ثبتوا وأقاموا))(١).

إننا نخلص من كل ما تقدم، إلى أن اللغة العربية لم تغب عن الساحة الفلسطينية، رغم الاحتلالات المتعاقبة، وما أشبه اليوم بالبارحة، فإن احتلال إسرائيل المعاصرة لفلسطين لم يستطع أن يسرق العرب الفلسطينيين من لغتهم العربية، و لم تستطع العبرية أن تكون سوى لغة يعرف التحدث بها بعض العرب الفلسطينيين، كمعرفة الكثير منهم الحديث بالإنجليزية، حيث لم تشكِّل العبرية والإنجليزية لغتهم التي ينتمون إليها، وإنما شكلتا لغة يعرفونها مجرَّد معرفة، وشتان بين الأمرين.

وهكذا بقيت فلسطين عربية حضارة وسكانا ولغة، رغم ما ذكرناه من احتلالات فارسية ويونانية ورومية لها، وهي لم تنقطع عن عروبة اللسان، على وفق فرع من فروع العربيات القديمة(٢).

كل ذلك قد لابس الأرض المقدسة إلى أن جاءها الإسلام، فأنقذها من براثن

---

(١) نقلته عن كتاب القدس بين الاحتلال والتحرير، (٣٢) للأستاذ عزمي عبد محمد أبي عليان، وهو فد نقله عن بلادنا فلسطين للدباغ، (٥٠٢/١).

(٢) يظهر من كلام اللغويين أن العربية قد لاقت تطوّراتٍ شتى، إلى أن بلغت في تطوّرها المبلَغَ الذي وصلته قبل الإسلام، وقد ذكر الإمام الحافظ ابن جر العسقلاني في فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٤٦٤/٦) ما رواه الزبير بن بكار من حديث علي بإسناد حسن قال: ((**أول من فتق الله لسانه بالعربية إسماعيل**))؛ وقد جمع الحافظ بين هذا الخبر، وبين خبر ابن عباس في البخاري أن إسماعيل عليه السلام تعلم العربية من قبيلة جرهم قائلا: ((فتكون أوليّته في ذلك بحسب الزيادة في البيان، لا الأوّليّة المطلقة، فيكون بعد تعلمه أصل العربية من جرهم، ألهمه الله العربية الفصيحة المبينة فنطق بها))، قال: ((ويشهد لهذا ما حكاه ابن هشام عن الشرقي بن قطامي: ((أن عربية إسماعيل كانت أفصح من عربية يعرب بن قحطان وبقايا حِمْيَر وجرهم))؛ ويُنظر خبر ابن عباس الذي ذكرنا شيئا منه في البخاري ضمن (الفتح ٤٥٦/٦-٤٥٨، ح: ٣٣٦٤).

الاستعمار الروماني، وأخرجها من ظلام الشرك الذي ران عليها عهودا تطاول أمـــدها، وجمَّلها بالعربية على الشكل الذي عرفها العالم في العصر الذي سبق الإسلام بقرون قليلة، وسارت مع الإسلام حيث سار، ومن يومَ دخل الإسلام فلسطين، لم يعد فيهـــا متســـع لدعوى غير عروبتها وإسلاميتها، فالإسلام وحده هو الذي حمل لواء تحريرها من الرومان، وهو الذي رسّخ عربيَّتها، وهو الذي واصل الدفاع عن عروبتها ودينها وطرد منها وحدَه ألوانَ الاستعمار في العصور الماضية، وهو وحده المنتظر منه ذلك الدور الكبير في تطهيرها من اليهود في عصرنا الحالي.

ولا بد أن نؤكد أن الحروب الصليبية التي وقعت جرائم الغرب فيها ابتداءً من نهايـــة القرن الخامس الهجري، لا بد أن نؤكد أن هذه الحروب رغم ما قطَّعت من أشلاء العرب والمسلمين في فلسطين، إلا أنها لم تستطع الانتصار على عروبة هذا البلد، وقد شهد علـــى ذلك عدَّة من المؤرخين، عربا وغربيين؛ قال مؤرّخ القدس الأستاذ عـــارف العـــارف تعالى: "**ولم تؤثّر الحملات الصليبية على البلاد من حيث اللغة، إذ ظلّ العربُ عربـــا يتكلمون العربية، ويخاطبون الفرنجة عند الحاجة بواسطة التراجمة**"(١)؛ وفي كتابه: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، يقول المؤرخ الغربي كلود كاهن فيما يبدو أنه حديث عن سكان سوريا الشمالية: "ولا نرى للغة اللاتينية أو الفرنسية تأثيرا كبيرا علـــى الســـكان المحليّين"، وينتقل إلى الحديث عن بيت المقدس فيقول: "وربما احتلت اللاتينية مكانا أفضل في القدس ثم عكا، حيث تكدّس اللاتين بعد سقوط المدينة المقدسة، **دون أن تبطل قـــط الحاجة إلى ترجمان، وعندما كانت كلمة فرنجية تفرض نفسها علـــى اللســـان العـــربي للدلالة على شيء جديد ذي أصل فرنجي، كان يتم تعريبها**"، ويواصل كاهن حديثـــه، فيما يبدو أنه تحوَّل إلى سورية عموما: "وكان الموارنة، وهم أقرب إلى اللاتين وكنيســـة روما، يتحدثون ويكتبون، بما في ذلك كتبهم الدينية، باللغة العربية، وقد يجعل أحـــدُهم

---

(١) المفصّل في تاريخ القدس، لمؤرخ القدس الأستاذ عارف العارف، (١٦٤).

شاهدة قبره باللغة العربية بعد انتمائه للكنيسة اللاتينية))[1].

وهكذا، ففلسطين رغم كل محنها تتمتع بسكان جمعوا بين العروبة والإسلام[2]، من أول يوم دخلها الإسلام فاتحا ومحررا، وما الوجود اليهودي فيها سوى لحظة زمنية عابرة في غمرة العروبة والإسلام..

---

(١) الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، تأليف: كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشيخ، (٢١٨).

(٢) لا يتضمن قولُنا بإسلاميّتها نفي حق النصارى من أهلها في سكناها، ذلك أنهم ينتمون إلى الحضارة الإسلامية؛ بل نحن نرى والتاريخ شاهد: أن الإسلام أقدر وأكثر مؤهلاتٍ في منع العدوان الذي قد يقع على أصحاب الثقافات الأخرى من سواه، إذا كانوا يشكّلون جزءاً من دولة الإسلام ذاتِها، وذلك تحت عناوين إسلامية، أهمها: لا إكراه في الدين، وحقوق أهل الذمة.

بل الإسلام على استعداد لدفع الظلم عن البشر حتى لو لم يكونوا جزءا من دولته.

الفصل الثاني: عروبة فلسطين في أسمائها

إن من أهم ما يكشف عن هوية الإنسان أو المكان، هو تسميات هذا الإنسان أو المكان، ذلك أن التسمية كما هو متعارف عليه بين الأمم والشعوب، تنبثق عما هو مختزن في ثقافة أو لغة هذه الأمم والشعوب، ولا تأتي التسميات عبثا مقطوعة الصلة بثقافة صاحبها، إلا إذا كان صاحبها هذا خاضعا لعالَمٍ من العبث والتناقض في حياته الفكرية.

من هنا جاء هذا الفصل ليؤكد أن عروبة فلسطين قديمة، وأن من أدلة أو مظاهر هذه العروبة هو ما تمتعت به فلسطين عبر التاريخ من تسميات انبثقت من المخزون الفكري أو اللغوي للأقوام العرب الذين سكنوها من قديم الزمان.

ولقد توزَّعت مواضيع هذا الفصل في مباحث خمسة، رأيتُ أنها كافية في تجلية المقصود.

المبحث الأول: التسميات القديمة لفلسطين.

المبحث الثاني: التسمية بالاسم فلسطين

المبحث الثالث: مصدر الاسم فلسطين لدى علماء الدراسات التوراتية

المبحث الرابع: عروبة أسماء القدس منذ القدم

المبحث الخامس: اسم القدس القديم وإيحاءاته الوثنية

المبحث الأول: التسميات القديمة لفلسطين

إن فلسطين من القديم هي أرض المستقر لطائفة من الهجرات العربية المنطلقة من جزيرة العرب، على حسب غالب أبحاث المؤرخين والآثاريين؛ وإن شخصية فلسطين العربية الإسلامية أملت نفسها على التسميات التي صارت فيما بعدُ تسميات (وطنية) لهذا البلد العريق، حتى جاءت هذه التسميات منسجمة مع أصالة فلسطين العربية، وهذا لا ينفي أن فلسطين مرت في تاريخها بأسماء متعددة، كان بعضها منسجما مع موقعها الجغرافي(١).

فأقدم ما يمكن أن يُعرف من أسماء فلسطين ابتداء من التاريخ القديم حتى الآن، هي تلك التسمية التي جمعتها وبلادَ الشام معاً في نطاقٍ واحدٍ، إذ عُرفت بلاد الشام بأكملِها، بما فيها فلسطين في الألف الثالث وفي مستهل الألف الثاني قبل الميلاد، على أنها أمورو(٢) أو الأرض الغربية، وسُمي شرق البحر المتوسط باسم بحر أمورو؛ كل ذلك عُرف في النصوص الأكادية(٣).

وعُرفت فلسطين منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد بأرض كنعان، وهي بمعنى الأرض

---

(١) ويُنظر للتعرف على بعض ما أُطلِق على فلسطين من أسماء: معجم البلدان، لياقوت الحموي، (٣١١-٣١٢)، فهو يذكر أن من أصول التسمية بفلسطين، بعض أسماء بني نوح عليه السلام، كفلسطين بن سام بن إرم بن سام بن نوح، وفليشين بن كسلوخيم من بني ياقث، أو فليشين بن صدقيّا من بني حام بن نوح، ونرى أن هذه التسميات عائدة إلى أصول توراتية لا تُلزم البحث العلمي بها، هذا وسيأتي باب خاص حول مدى قدرة التوراة وفق ميزان البحث العلمي.

(٢) كلمة أمورو تعني: الغرب، وذلك أن الأموريين كانوا يسكنون إلى جهة الغرب بالنسبة للعراقيين، يُنظر: فلسطين أرض الرسالات الإلهية، (هامش ص ٧٦) للأستاذ جارودي.

(٣) يُنظر: فلسطين من أقدم العصور للدكتور معاوية إبراهيم، (٤/٢).

المنخفضة، ذلك أن كلمة كنع في اللغة الكنعانية تعني: المنخفض[1]، وهو الاسم الأول الذي سُميت به فلسطين، كمنطقة خاصة من بلاد الشام، لكن الدكتورة بيان نويهض ترفض أن تكون التسمية جاءت بهذا المعنى المُشار إليه، إذ إن الكنعانيين سكنوا الجبال أيضا، ولذا، فهي ترى أن الأرجح أن التسمية بأرض كنعان ترجع إلى الجد الأول كنعان.

هذا، ولا أرى احتجاج الدكتورة نويهض لازماً ..

نعم، إن الكنعانيين سكنوا الجبال أيضاً، لكن لعلهم رأوا تسمية أرض كنعان بهذا الاسم لما في هذه الأرض من مزية الانخفاض، إذ ليس من شرط التسمية للشيء باسم ما، أن تكون جامعة لجميع أوصافه، بل قد يؤخذ من أوصافه وصف واحد، سيسمى به، كما نسمي السماء سماءاً لوصف العلو فيها، رغم أنها تتصف بوصف آخر وهو أنها بعيدة، بل في غاية البعد، ومع ذلك فلا أحد يسميها بُعداً!

وسبب ملاحظتنا على ما رأتنا الدكتورة نويهض، من إرجاعها التسمية بأرض كنعان إلى الجد كنعان، هو أن مرجع التعرف على الجد كنعان هو التوراة، ولقد قادنا البحث العلمي إلى أن التوراة لا تصلح مرجعاً للتاريخ.

ورغم أن التسمية بأرض كنعان وردت في التوراة بشكل ملحوظ، بل فرضت نفسها على التوراة، غير أن التوراة ليست هي مرجعيتنا لإثبات هذه التسمية، بل ما جاء في علم الآثار هو ما نرجع إليه في هذا الشأن.

فلقد وردت التسمية بكنعان في نصوص تقارير قائد عسكري عند ملك ماري، ووردت بوضوح في مسلة أدريمي ملك ألالاخ، (تل عطشانة) من منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

ولقد ورد هذا النص في تمثال ملك مملكة ألالاخ، التي ازدهرت حسب ما يذكر أستاذ

---

(١) فلسطين، القضية الشعب الحضارة، تأليف: بيان نويهض الحوت، (٢٢).

فراس السواح في النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد قرب أنطاكيـــة[١]، ويقـــول النص: "..وفي اليوم التالي اتخذت الطريق إلى بلاد كنعان"[٢]؛ وأقدم ذكر لهذه التسمية في المصادر المسمارية من نوزي، يعود إلى الفترة نفسها تقريبا، وهذه التسمية (Kinahna) أو (Kinahhi) تقارب الصيغة التي وردت كثيرا في رسائل تل العمارنة[٣]، كما قد بينا ذلك من قبلُ.

بل إنه يُفهم من عالِمَي الآثار الإسرائيلِيَّيْن جدعون أفني (مسؤول دائرة الآثـــار عـــن مدينة القدس) وروني رايْش، والتي أشرنا إليها فيما مضى، وستأتي في موطنها من البحث إن شاء الله تعالى؛ يُفهم من هذين العالِمين أن التسمية بكنعان تسمية موجودة مع المدينة المقدسة من أكثر من عام ٢٢٠٠ق.م.، **فقد ذكرا أن القدس كانت مدينـــة كنعانيـــة متطورة قبل دخول الإسرائيليين إليها بأكثر من ألف عام، يعني أن التســـمية بكنعـــان كانت معروفة بشهادة هذين العالِمَين.**

---

(١) آرام دمشق وإسرائيل، تأليف فراس السواح، (١٩).

(٢) تاريخ الشرق القديم، أحمد ارحيم هبو، (١٧٦).

(٣) يُنظر: فلسطين من أقدم العصور للدكتور معاوية إبراهيم، (٤/٢)، ويُنظر: تاريخ فلســـطين القديم، تأليف: ظفر الإسلام خان، (١٨).

المبحث الثاني: التسمية بالاسم فلسطين

لا يزال الاسم فلسطين تتجاذبه النقاشات، وتتخاطفه الآراء، كلٌّ منها يتّجه وجهة تخالف وجهة الآخر.

وحسب التوراتيين أو المتأثرين بالدراسات التوراتية، تبدو هذه التسمية جزءا مما تركه أولئك الأقوام الذين غزَوْا فلسطين ممن عُرفوا بشعوب البحر، الذين انطلقوا من البحر المتوسط، ومن بحر إيجة فيه على وجه التحديد(١).

ويعرض هؤلاء رؤيتهم ضمن تسلسل من الأحداث التاريخية، فيقولون: إن شعوب البحر هؤلاء قد دمروا في طريقهم إلى الشمال الأفريقي والساحل السوري كثيرا من المدن، وكانوا هم ذاتهم يبحثون لهم عن مستقر، فوجدوا هذا المستقر في النهاية في فلسطين، كان ذلك في القرن الثالث عشر ق.م.، وكان قد واجههم الفراعنة في ذلك العصر، ومن هؤلاء الفراعنة: مرنفتاح، الذي استطاع ردَّ هجماتهم على البر والبحر المصري عام ١٢٢٠ق.م.، وفي الوقت نفسه، توجهت طائفة أخرى منهم نحو شواطئ آسيا الصغرى، ثم توجهت نحو بلاد الشام، ثم توجهت إلى مصر، وردّهم الفرعون رمسيس الثالث حوالي عام ١١٩١ق.م.، ولقد عُرف من سجل حملة الفرعون رمسيس الثالث أسماء خمسة شعوب انطلقت من الجزر الشمالية لبحر إيجة، منهم البيلست، وقد قام هؤلاء البيلست مع فئات أخرى من هذه الشعوب الواردة، قاموا بالتوطن في مناطق الساحل السوري، في ذلك الوقت الذي لم تكن مصر مهتمة بمناطق نفوذها السابقة في هذا الساحل السوري، وقد أسسوا خمس مدن على الساحل الفلسطيني، وهم أنفسهم المعروفون في التوراة باسم الفيلست أو الفلستيين(٢).

---

(١) يُنظر: فلسطين من أقدم العصور للدكتور معاوية إبراهيم، (١١٢/٢).

(٢) يُنظر في هذا الموضوع: كتاب الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، (١٨٥-١٨٧) للأستاذ

وأرجو أن ينتبه القارئ الكريم إلى أن نقاشي الذي سيقرؤه لصلة هذه التسمية بشعوب البحر لا يعني أنني أُنكر هذه الشعوب وغزوها لفلسطين.

إنه رغم أن الآثار تؤيد قدوم شعوب من بحر إيجة، ومنهم من سمَّتهم بعض السجلات الآثارية: البليست؛ رغم هذا التأييد الآثاري، فإن إثبات أن التسمية بالاسم فلسطين جاءت من اسم هؤلاء تحديدا، لا يبدو أمرا قطعيا، وهو لا يتجاوز كونه تفسيرا محتملا للاسم فلسطين، لا يحمل قدرة على نفي التفسيرات الأخرى.

ثم رغم أن هذا التفسير هو الرأي الشائع في تفسير التسمية بالاسم فلسطين، فإن لنا عليه تساؤلات، ترتفع إلى مستوى التشكيك بهذا التفسير للاسم فلسطين..

لا يمكن أن يكون شعوب البحر هم من أطلق الاسم فلسطين على هذه الأرض، ذلك أن هذه الشعوب لم تستطع أن تغير أسماء المدن الخمسة التي احتلوها، فكيف تستطيع تغيير اسم أرض كنعان جملة؟ وشعوب البحر كانوا في معارك متواصلة مع المصريين ثم مع الإسرائيليين، ثم ذابوا كما سيأتي فيما بعد في أهل البلاد الأصليين، فكيف يستطيعون وهذه حالهم أن يغيروا اسم أرض كنعان إلى اسمهم؟

ثم إن حضارة العصر البرونزي المتأخر بقيت موجودة، ما عدا تغييرات محدودة في بعض الأدوات خاصة القتالية، أدخلتها شعوب البحر..

فمن الممكن إذن مناقشة انبثاق اسم فلسطين من أولئك الغزاة الذين سُمّوا: شعوبَ البحر، من الممكن مناقشة الأمر بناءً على المعطيات الآثارية التي آثر الدهر أن يتركها شواهد ناطقة بما كان في القرون الخالية..

فالمكتشف آثاريا يؤكِّد «أن المخلّفات الحضارية لفلسطين في نهاية الألف الثاني عشر قبل الميلاد، بما في ذلك الساحل الفلسطيني، تعتبر استمرارا لحضارة العصر البرونزي الأخير، رغم العناصر الجديدة البشرية والاجتماعية والاقتصادية، صناعية واقتصادية، التي

فراس السواح..

دخلت على العصر الحديدي الأول في فلسطين))[1].

وحول تأثير الإيجيين الضئيل يقول توماس تومبسون: ((ورغم ذلك، **فإن القول بأن الفلسطينيين يمثلون شعبا غريبا متطفلا على فلسطين يجب إنكاره؛ التأثير الوارد من بحر إيجه جزئي، وعلى أساس البينات المعروفة، كان هامشيا وسطحيا**))[2].

إنه إذا كان العصر البرونزي الأخير، الذي تعتبر المخلفات الحضارية في فلسطين امتدادا له، وهو العصر الذي ابتدأ في منتصف القرن السادس عشر قبل الميلاد، وانتهى قبل العام ١٢٠٠ق.م. وإذا كانت فترة نهايته هي الفترة نفسها التي شهدت قدوم شعوب البحر، الذي قيل إن فلسطين أخذت اسمها منهم، وإذا كانت فلسطين في فترة ما بعد العصر البرونزي الأخير تعتبر امتدادا للعصر نفسه، رغم ظهور بعض الآثار التي تدل على عناصر جديدة دخلت حياة السكان في ذلك الحين؛ إذا كان ذلك كذلك، فإن السؤال المنطقي الذي يطرح نفسه يقول: هل من الممكن أن يستطيع أقوام قادمون من بلاد بعيدة، كان كل ما استطاعوا تغييره بعض الأدوات القتالية، هل من الممكن أن يغيِّروا اسم فلسطين القديم، (كنعان)، وهم أقلية غُزاة مُواجَهون من قِبل الفراعنة، هل يستطيع من حالهم هذه الحال أن يغيروا اسم فلسطين، والحال أن شعبا كان في فلسطين التي سميت باسمه، شعب كنعان، لا زالوا موجودين؟!

إنه مما يُشكِّك في مصداقية هذا التفسير لتسمية فلسطين باسم قومٍ غزوها، أنهم لم يملكوا الاستقرار، بل لم يملكوا من فلسطين إلا ساحلها، ولربما يَصدق أنهم استطاعوا أن يغيروا اسم الساحل وحده، ذلك الذي وقع تحت سيطرتهم، رغم أنهم لم يفعلوا ذلك أو لم يستطيعوا، فكيف تغير اسم كل أرض كنعان إذن؟!

ولربما يقول البعض: إن الذي أطلق التسمية بالاسم فلسطين على هذه الأرض هم

---

(١) يُنظر: فلسطين من أقدم العصور للدكتور معاوية إبراهيم، (١١٢/٢).

(٢) التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، توماس تومبسون، ترجمة: صالح علي سوداح، (١٠٠).

الرومان بعد قرون من وقوع غزوات شعوب البحر، ولكننا نقول: هذا شيء، والربط بين التسمية وبين الاسم الذي أطلق على بعض شعوب البحر الغزاة (بليست) شيء آخر، وسيأتي معنا أن الملك أدد نيراري الثالث أطلق حوالي العام ٨٠٠ق.م. اسم الفلستو على سكان فلسطين، أي قبل الإطلاق الرسمي من قبل الرومان للاسم فلسطين على الأرض المعروفة بهذا الاسم فيما بعد بأكثر من ثمانية قرون.

والسؤال: هل من الممكن أن يكون انبثاق التسمية بالاسم فلسطين من التسمية المعروفة لبعض شعوب البحر الذين غزوا أرض كنعان، وحالُهم ما ذكرنا، أم أن من الممكن أن تعود هذه التسمية إلى مرجعية أخرى غير شعوب البحر؟

الجواب: إن ثمة تفسيرات أخرى، تجعل إمكانية إطلاق الاسم فلسطين على هذه الأرض عائدا إلى أصول أخرى، غير شعوب البحر.

فمن المؤرخين من يذهب إلى أن فلسطين سميت باسم قبيلة يمنية خرجت مهاجرة في قديم الزمان إلى فلسطين، فسُمِّيت فلسطين باسمهم فيما بعد، وينقل الدكتور أحمد صدقي الدجاني عن الأستاذ علي نصوح الطاهر أن هناك ((**فلسطينيين موجودون في فلسطين قبل أولئك الذين جاؤوا من كريت، وهم يُنسبون إلى الفلاسة من اليمن، فالفلاسة هم أجداد الفلسطينيين، وهم من عرب اليمن، وقد استقروا مع الكنعانيين والعموريين والجرجانيين والفرزيين والحوريين واليبوسيين، ولا تزال القبيلة الأم تحتفظ باسمها**))[١].

وللدكتور معروف الدواليبي ما يقرب من هذا الذي ذكرناه، فهو يرى، ومن خلال

---

(١) يُنظر: القبائل العربية في فلسطين والأردن، علي نصوح الطاهر :، نقلا عن: ملاحظات على تطور حياة اليهود في فلسطين، للدكتور أحمد صدقي الدجاني، (١٠٢/٣)؛ هذا وقد وصف المؤرخ العربي الفلسطيني الدكتور أحمد صدقي الدجاني، وصف المؤرخ الشيخ على نصوح الطاهر بأنه من شيوخ العلم، ولما سألتُه عن رأيه في رؤية الشيخ الطاهر هذه قال: إنها تحتاج إلى مزيد من البحث؛ ورد ذلك أثناء ردِّه على بعض الأسئلة التي طرحتها على سيادته، وذلك في المحادثة الهاتفية التي أجريتُها معه مساء الإثنين ٢٠٠٢/٦/٣م.

دراساته عن بعض فروع الفينيقيين، **أن الفلستيين هم فرع فينيقي سوري، ويرى أن إحدى مدن هؤلاء الفلستيين (الفينيقيين) تسمى فلسطين**[1].

وقد ناقش الأستاذ محمد ذياب أبو صالح في كتابه: الخليل عربية إسلامية، ناقش جذور التسمية بفلسطين، وأرجعها إلى الفلسطينيين الذين اعتبرهم امتدادا للهجرات السامية الواردة من جزيرة العرب، واستند الأستاذ أبو صالح إلى تحليلات الدكتور يونس عمرو اللغوية، والتي أرجع فيها التسمية بفلسطين أصلا إلى اللغات السامية، معتبرا من خلال تحليله اللغوي أن الفلسطينيين لا يمكن إلا أن يكونوا جزءا من تلك الموجات السامية المذكورة، وإلا، حسب قوله، فكيف يمكن أن نستثني الفلسطينيين من انتسابهم إلى هذه الموجات، مع اعتراف الجميع بأن جميع سكان فلسطين القدماء هم منها، **وهو في تحليله للاسم (فلسطين) يرفض عودة هذا الاسم إلى شعوب البحر، بسبب كون شعوب البحر هؤلاء يونانيين، ولذا فلا بد أن تكون الكلمة الأصل التي اشتُقَّ عنها الاسم فلسطين مسايرا لأصول اللغة اليونانية**، وحسب تحليل الدكتور يونس عمرو، لا يمكن أن تكون الكلمة يونانية، لأن أصلها: فلشتيم، **وهي بهذا الأصل كنعانية سامية، مما يؤكد أن التسمية بفلسطين ترجع إلى أصول كنعانية لا يونانية**، أي مما يؤكد أنها لا يمكن أن ترجع إلى شعوب البحر[2].

فإن صح هذا، فإن التسمية ترجع إلى أصول عربية أيضا، والأمر في تقديري يستحق البحث من الباحثين خاصة أهل التاريخ والآثار واللغات.

يبقى السؤال مطروحا، ولكن وجود تفسيراتٍ أخرى للاسم فلسطين، وهي تفسيرات

---

(١) ذكر رؤية الدكتور الدواليبي هذه الدكتور أحمد سوسة في كتابه: العرب واليهود في التاريخ، (٢٠٢-٢٠٣)، وحول الفلسطينيين وموطنهم الأصلي، يُنظر: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، للدكتور: فيليب حتي، (١/١٩٦-٢٠١).

(٢) الخليل عربية إسلامية، للأستاذ محمد ذياب أبي صالح، (٢٢-٢٨)، ويُنظر فيه رأي وتحليل الدكتور يونس عمرو، وأنا لا أملك التخصص العلمي الذي يؤهّلني للمساهمة في تحقيق الأمر.

عربية لباحثين متخصصين، يجعل الأمر على غير ما يحاول التوراتيون والمتأثرون بهم ترسيخه في عقول الأجيال.

ولا بد أن نؤكد أن اعتماد روَّاد الدراسات التوراتية لهذه المرجعية للاسم فلسطين، وهم المعروفون غالبا بانهيار الأمانة العلمية في نفوسهم، خاصة ما يتعلق بفلسطين وماضيها؛ لا بد أن نؤكد أن ذلك يسهم في التشكيك بصلة هذه التسمية بشعوب البحر القادمين من أوروبا، هاربين من صراعات كادت تحرقهم!!

إن كل ذلك يجعلنا نميل إلى تفسيرات كتلك التي ذكرها الدكتور الدواليبي أو الأستاذ نصوح الطاهر أو نقلها الأستاذ أبو صالح عن الدكتور يونس عمرو.

ومع ذلك، ورغم تأكيد تشكُّكِنا بمرجعية شعوب البحر لهذه التسمية، ورغم رؤيتنا لعدم قدرتهم على تغيير الهوية، ورغم رؤيتنا لإمكانية مرجعية أخرى لهذه التسمية غيرهم؛ فلا بد أن نؤكد أيضا أن هؤلاء الذين بدا أن اسم فلسطين أُخذ من اسمهم، عاشوا أيامهم في فلسطين، وانغمسوا بشخصيتها، وصاروا جزءا منها، أي أن مرجعيتهم للتسمية بالاسم فلسطين لا يضر بمحافظة فلسطين على هويتها العربية، فهؤلاء أنفسهم صاروا جزءا من الحضارة العربية، وذابوا فيها..

يقول المؤرخ العربي اللبناني الدكتور فيليب حتي عن هؤلاء الفلسطينيين: ((**ومع الزمن، تأثروا بالساميين، واندمجوا بهم**، ولم يتركوا إلا اليسير جدا لمعرفة لغتهم وديانتهم وعمارتهم وسائر مظاهر حضارتهم))(١)، ((وما أسرع ما اندمجوا في سكان أرض كنعان، وتكلموا اللغة الكنعانية))(٢)، وعلى تعبير لودز عنهم: ((**إن الفلستيين قد تكنعنوا بسرعة**

---

(١) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، تأليف المؤرخ اللبناني الدكتور فيليب حتي، ترجمة جورج حداد، وعبد الكريم رافق، (١/٢٠٠).

(٢) ملاحظات على تطور حياة اليهود في فلسطين للدكتور الدجاني، (٣/١٠٣).

في حوالي القرن الحادي عشر قبل الميلاد»[1].

إن هذا يدل على أنهم هم أنفسهم صاروا كنعانيين، وصارت التسمية لفلسطين باسمهم، لو صحَّ ذلك تسميةً كنعانية ولو بوجه من الوجوه!

ويظهر لي أن سبب انصهارهم هذا في الشخصية الكنعانية أنهم لم يكونوا ذوي ثقافة محددة، وفلسفةٍ في الحياة يتبنَّوْنها ويدافعون عنها ويدعون إليها؛ مما يمكن أن نشبههم بالتتر الذين غزوا شرق البلاد الإسلامية في العهد العباسي، فرغم انتصاراتهم التي حققوها في البداية، إلا أنهم انصهروا في بوتقة المجتمعات العربية الإسلامية، وتبنَّوْا عقائدها، فصارت عقائد لهم، رغم أنهم منتصرون، إذ يروي التاريخ أن فريقا كبيرا منهم أسلم أثناء تحقيق هولاكو انتصاراته، وهم المسمَّوْن بالقبيلة الذهبية.

وإن صح أن شعوب البحر هم مصدر الاسم فلسطين، ولا أراه يصحّ، فلقد كان أثرهم إذن محصورا في تغيير الاسم المتعارف عليه لأرض كنعان، بعد أن ذابوا فيها؛ حتى إذا مضى من التاريخ زمان طويل، لم يَعُد يُعرف لها فيما بعدُ اسم غير هذا الاسم (فلسطين).

وإن صح أن الأمر كذلك، فإنه يبدو من الواضح أن هذه التسمية (فلسطين) لا يمكن أن تكون أطلقت على الجزء الغربي من الهلال الخصيب إلا بعد وُرودِ هؤلاء القادمين من الجزر الشمالية لبحر إيجة، أي بعد القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

نقول هذا الكلام لنلفت النظر إلى نصوص توراتية ذكرت هذه التسمية (فلسطين) في سياق قد يدل على انتمائها إلى عهد إبراهيم عليه السلام، والذي يجعله التاريخ في الفترة بين القرنين الثامن عشر والعشرين قبل الميلاد، فمن هذه النصوص، هذا النص من سفر التكوين[2]:

---

(١) نقلتُ كلام لودز عن: العرب واليهود في التاريخ، تأليف: أحمد سوسة، (١٩٨).

(٢) الإصحاح (٢١/٣٢-٣٤).

"فقطعا إبراهيم وإبيمالك، ملك جرار **الفلسطيني**، ميثاقا في بئـــر الســـبع، ثم قـــام أبيمالك وفيكول رئيس جيشه ورجعا إلى أرض **الفلسطينيين**، وغرس إبراهيم أثلا في بئر السبع، ودعا هنالك باسم الرب الإله السرمدي، وتغرب إبراهيم في أرض **الفلســطينيين** أياما كثيرة".

وثمة نصان آخران في سفر التكوين، يذكران اسم فلسطين كما لو كان معروفـــا في تلك الفترة القديمة جدا، وهذا ما دعا الدكتور محمد جلاء إدريس إلى ما يُفهم منـــه أنـــه رفْضٌ لفكرةِ اشتقاق هذه التسمية من اسم هؤلاء الواردين إلى فلسطين في القرن الثالـــث عشر قبل الميلاد من جزر بحر إيجة؛ ورغم ارتياحي لرفضه هذا، إلا أنه استند في رفضه إلى التوراة، وهي لا تصلح مستندا..

يقول الدكتور إدريس بعد أن ذكر أصل التسمية باسم فلسطين، وقبل أن يذكر هذه النصوص الثلاثة من سفر التكوين كما ذكرناها: "لكننا نقف علـــى بعـــض النصـــوص التوراتية التي تشير إلى وجود شعب فلسطيني وملك فلسطيني وأرض فلسطينية في عصـــر إبراهيم عليه السلام.."، وقال بعد أن ذكرها: "وليس لـــدينا دليـــل تـــوراتي علـــى أن الفلسطينيين الذين عاصروا داود وآوَوه وعزَّروه، ثم قاتلهم بعد ذلك[1]، هم فلســـطينيون آخرون غير هؤلاء الذين كانوا في زمن إبراهيم السابق لداود بثمانية قرون تقريبا.."[2].

وهذا في تقديري غير صحيح، ذلك أنه، وكما تبين لي من البابين الخاصَّـــين اللـــذَين

---

(١) أستغرب تعبير الأستاذ محمد جلاء إدريس هنا حول داود عليه السلام، فعبارته تلوِّح بالملامة عليه، رغم ما ذكر في مقدمة كتابه (أورشليم القدس في الفكر الديني الإسرائيلي، ٣)، من أنه كان ينبه (**دائما عند الحديث عن أنبياء بني إسرائيل إلى التفرقة الحاسمة بين موقف الإسلام من هؤلاء الأنبياء، ذلك الموقف المكرم لهم، المعترف بنبوهم وفضلهم، المتره لهم عن كل النقـــائص والمثالـــب؛ وبـــين موقف العهد القديم..**) .

(٢) يُنظر كتاب الدكتور محمد جلاء إدريس (أورشليم القدس في الفكر الديني الإسرائيلي، ٤٢-٤٣).

جعلتهما خصيصا لمسألة الوعد الرباني المُدَّعى لليهود بفلسطين، وأكذوبة الحق التاريخي اليهودي فيها؛ وكذلك من الباب الخاص بمسألة التوراة وتاريخ كتابتها؛ فإن سفر التكوين قد كُتب في فترة السبي البابلي، وعلى الغالب أنه كُتب في بابل نفسها، وشرحت رؤيتي وتحليلي للسبب الذي دفع الأحبار إلى إدخاله في التوراة في ذلك الزمان وفي ذلك الحال..

إن الأحبار كتبوا ونسبوا إلى إبراهيم وإلى الرب سبحانه هذه النصوص، مُلقين على أرض كنعان التسمية الدارجة أيام كتابتها، وهي فلسطين، تلك التسمية غير المعروفة، بل غير الناشئة إلا بعد إبراهيم عليه السلام بقرون، وذلك في حال صحة تفسير مرجعية التسمية بفلسطين إلى شعوب البحر؛ فلا يعني على هذا وُرود تسمية فلسطين بهذه التسمية في حديث منسوب إلى إبراهيم أو إلى عهده، لا يعني ذلك قِدَم هذه التسمية إلى عهد إبراهيم عليه السلام.

وعوداً إلى موضوعنا..

إننا لم نجد ما يؤكد لنا إلى الآن، المرجعية الحقيقية للاسم فلسطين، وكل ما مضى في تقديري محاولات للتفسير ليس أكثر، وليس القول بمرجعية شعوب البحر لهذا الاسم بأولى من الآراء التي تجعلها تسمية عربية فينيقية أو يمنية، على ما مضى ذِكره.

ثم إن الاسم (فلسطين) لم يكن بهذه الصيغة التي نعرفها الآن، بل لقد مرت به بعض تحويرات، اقتضاها جريان القرون واختلاط الأقوام، فقد سُميت لدى الأشوريين باسم: فلستيا، أو فلستو، وهما التسميتان اللتان وردتا ((في السجلات الآشورية من أيام الملك الآشوري أدد نيراري الثالث (حوالي ٨٠٠ق.م.) إذ يذكر هذا الملك على مسلّته أنه في السنة الخامسة من حكمه، أخضعت قواتُه فلستو، وأجبرت أهلها على دفع الضريبة، وفي سنة ٧٣٤ق.م. جعل تغلات بلاسر الثالث أرض فلستا هدفا له، وترِد تسمية مشابهة، أرض الفلسطينيين، في العهد القديم))(١).

---

(١) يُنظر: فلسطين من أقدم العصور للدكتور معاوية إبراهيم، (٤/٢)، وحول أصول الفلسطينيين

وعليه، فلا يصح في تقديري ما ذهب إليه الأستاذ محمد محمد حسن شُرّاب أن الإغريق هم أول من أطلق الاسم فلسطين على الداخل الفلسطيني، وذلك في قوله: ((كان الإغريق هم الذين بدأوا في إطلاق هذا الاسم[1] على الجزء الداخلي من البلاد، فشمل بلاد فلسطين كلها، فورد ذلك في كتابات هيرودوتس أبي التاريخ (٤٨٤-٤٢٥ق.م.) فاليونانيون هم الذين اختاروا هذا الاسم، وطفقوا يطلقونه على كل أجزاء فلسطين، وانتقل منهم إلى الرومان والبيزنطيين))[2].

وكون ورود هذه التسمية في كتابات هيرودوتس، أبي التاريخ، لا يعني أنه هو أو قومه أول من أطلق هذه التسمية، ولا يعني ذلك أكثر من أن هذا الاسم كان متداولا في عهد هيرودوتس، فتعامل معه هيرودوتس كتعامله مع أي شيء متداوَلٍ في عصره.

ذلك أن ورود هذه التسمية عند الأشوريين في حدود عام ٨٠٠ق.م. كما بيَّنتُ، يُثبت أنها قد تُدووِلت قبل هيرودوتس.

وأطلق اسم بالستين رسميا من قبل الإمبراطورية الرومانية لأول مرة، حين صكَّ الإمبراطور فسباسيان هذا الاسم على نقوده، التي أصدرها عقب الثورة اليهودية سنة ٧٠م، ((وبذلك أعطاها الصفة الرسمية لأول مرة))[3]، أي في إمبراطوريته، فلقد تبين كما مضى أن الأشوريين استخدموا هذه التسمية قبل الاعتماد الروماني لها بأكثر من ثمانية قرون.

الذين سُميت فلسطين باسمهم، وملابسات غزوهم لفلسطين يُنظر: العرب واليهود في التاريخ، تأليف: أحمد سوسة، (٢٠٠)، وتاريخ سوريا ولبنان وفلسطين للدكتور المؤرخ فيليب حِتّي (١/٦٢ و ١٩٦-١٩٨).

(١) أي بالستين.

(٢) معجم بلدان فلسطين، لمحمد محمد شرّاب، (٢٦).

(٣) تاريخ فلسطين القديم، تأليف: ظفر الإسلام خان، (١٨)، ويُنظر أيضا: معجم بلدان فلسطين، لمحمد محمد شرّاب، (٢٦).

وقُسِّمت فلسطين في عهد الإدارة الرومانية البيزنطية منذ أواسط القرن الرابع للميلاد إلى أقسام إدارية ثلاثة، جميعها سُمِّيت فلسطين Palaestina، بتمييز الواحدة عن الأخرى برقم يضاف إليها، وهكذا صارت فلسطين إداريا لدى الرومان في ذلك الحين: فلسطين الأولى، وفلسطين الثانية، وفلسطين الثالثة(١).

وهو الاسم الذي استقر إسلاميا من أول أيام الفتوحات الإسلامية للشام وفلسطين، فلقد سُمِّيت فلسطين أيامها حسب التقسيم الإداري الذي عُمل به: جند فلسطين(٢).

و لم يترك الشعر العربي الجاهلي القديم فلسطين من حديثه عنها، وكانت تُذكر عند بعض الشعراء في الجاهلية بدون النون، إذ كان البعض يذكرها هكذا: فلسطي، دون نون..

يقول الشاعر العربي الجاهلي الأعشى يصف صاحبته(٣):

متى تُسْقَ من أنيابها بعد هجعةٍ   من الليل شِربا حين مالت طُلاتُها
تَخَلْهُ فلَسْطِيّاً إذا ذُقتَ طعمه   على ربذات النِّيِّ حُمْشٌ لِثاتُها

وقال الشاعر عدي بن الرقاع يذكر فلسطين، وكان يسكن الشام، وتوفي سنة ٩٥هـ:

---

(١) الموسوعة الفلسطينية، القسم المعجمي، (٣/٤٧٥) ومعجم بلدان فلسطين، لمحمد محمد شرّاب، (٢٦)، هذا، ولا بد من الإشارة إلى أن (فلسطينات) العهد الروماني كانت تشمل أراضٍ ليست الآن أراضٍ فلسطينية.

(٢) الموسوعة الفلسطينية، القسم المعجمي، (٣/٤٧٥)، ويُنظر: معجم بلدان فلسطين، لمحمد محمد شرّاب، (٣٠).

(٣) يُنظر في هذين البيتين واللذَين يليانهما: معجم بلدان فلسطين، لمحمد محمد شرّاب، (٢٩).

فكأني من ذِكــركم خــالطتْني ... في فلسطين جَلْس خمــر عقــار
عُتِقت في الدنان مــن بيــت رأسٍ ... ســنواتٍ ومــا ســبَتْها التِّجــارُ
فهي صهباء تتــرك الليــل أعشــى ... في بيــاض العيــنين عنــها احمــرارُ

إن هذه التسمية: بالستين وفلستو وفلستيا، ثم فلسطين في العهد الرومــاني، هــي في الحقيقة اسم فلسطين من قبل تطوُّره وتحوُّره إلى أن تطوَّر أخيرا، ليُنطَق بالاسم الذي صار معبراً عن هويَّتها، بما حمل من معالم شخصيتها، وهو: فلسطين.

ولا بد هنا أن نشير إلى أن مِنَ المؤرخين التوراتيين مَنْ يحاول أن يجعــل الشخصــية العربية منهارة تماما أمام هؤلاء القادمين من البحر، والذين سُميت فلسطين باسمهم، حــتى عدَّ بعضهم الفلسطينيين أنفسهم يمثلون شعبا غريبا عن هذه الأرض، ربما علــى اعتبــار توهَّموه، وهو أن الفلسطينيين، الكنعانيين سابقا، قد تأوربوا؛ وكنا قد نقلنا قول المــؤرخ لودز قريبا بأن شعوب البحر الوافدين من البحر هم الذين تكنعنوا، هذا فيما لو صحّ أنهم مصدر التسمية، ولقد ناقشنا ذلك؛ وفي هذا الإطار، وفي رفض دعوى انهيار الفلسطينيين أمام أهل أوروبا الإيجيين، يؤكد الدكتور عبد الوهاب المسيري أن فلســطينيي اليــوم لا علاقة لهم بشعوب البحر اليونانية، فهم ينتمون إلى الأمة العربية[١].

هذا، وغالبا كانت هذه التسمية (فلسطين) يُقصد بها كامل الأرض الفلسطينية الممتدة بين سيناء جنوبا، وغور الأردن شرقا[٢].

ونلحظ هنا أن التسمية بالاسم فلسطين أصبحت تسمية عربية معروفة لدى العــرب والمسلمين، بل إنهم لا يعرفون في غالب الأحيان سواها في تعاملهم معها، وبالتالي فلنا أن نقول: إن هذه التسمية الآن، وخاصة في عالم الصراع العربي الإسلامي – الصهيوني، إنها

---

(١) تُنظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، للدكتور المسيري، (١١١/٤).

(٢) يُنظر: فلسطين من أقدم العصور للدكتور معاوية إبراهيم، (٤/٢).

تعكس جانبا من الهوية العربية الإسلامية لهذه الأرض المقدسة، فلقد تعربت التسمية، وصارت ضمن السياق الفكري والتاريخي للعرب والمسلمين.

المبحث الثالث: مصدر الاسم فلسطين لدى التوراتيين

ولكن علماء الدراسات التوراتية يحاولون -كما هي عادتهم- أن يسلبوا الحقيقة عن كل شيء، وهم إذ لم ينجحوا في حذف أي وجود سابق على الوجود الإسرائيلي في فلسطين القديمة، فقد حاولوا أن يجعلوا هذا الوجود دون شخصية ودون حضارة؛ ثم لما لم يستطيعوا طمس الاسم (فلسطين) فقد حاولوا أن يجعلوه اسما عبريا، بمعنى أنه إبداع إسرائيلي؛ ليجعلوه جزءا من الشخصية اليهودية.

إن علماء الدراسات التوراتية لم يَنْبَروا ، كما عبّر كيث وايتلام، **إلى (اختلاق إسرائيل القديمة، وإسكات التاريخ الفلسطيني)**[1] فحسب، بل توجهوا إلى إسكات اسم فلسطين أيضا، أو جعله اسما عبريا إليهم يعود، وهي محاولة يهودية ماكرة ترمي إلى تحويل اسم فلسطين إلى مرجعية توراتية..

إن اليهود حاولوا أن ينسبوا اسم فلسطين إلى لغتهم؛ فلقد ادَّعت الأنسيكلوبيديا اليهودية أن "كلمة فلسطين كانت أساسا: فعلا مشتقا من العبرية (بيليشت)"، وكان أن سايرت الأنسيكلوبيديا البريطانية دعوى اليهود هذه التي لا تخرج عن كونها طمسا للحقيقة.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد حاول بنيامين نتنياهو في كتابه (مكان تحت الشمس) أن يجعل من الأسماء الكنعانية لمدن وقرى فلسطين القديمة أسماء عبرية يهودية،

---

(١) اختلاق إسرائيل القديمة، إسكاتُ التاريخ الفلسطيني، هو عنوان كتابٍ ذي أهمية خاصة في قضيتنا المطروحة، ألفه كيث وايتلام، وعندما سُئل إدوارد سعيد عن أفضل كتابٍ قرأه عام ١٩٩٦م، كتب يقول: إنه كتاب اختلاق إسرائيل القديمة وإسكات التاريخ الفلسطيني، ووصف الكتاب بأنه "عملٌ أكاديمي من الطراز الأول، أسلوبُه بالغ الدقة، وكاتبُه يتمتع بجرأة كبيرة في نقده للعديد من الفرضيات حول تاريخ إسرائيل التوراتي"؛ وتُنظر مقدمة مترجمة الكتاب، الدكتورة سحر الهنيدي (١٠).

وكما لو كانت إبداعا إسرائيليا، كان ينتظر الإسرائيليين أن يهاجروا حتى يُنعموا عليها بهذا النعيم؛ إن نتنياهو ما درى أن الأمر على العكس من ذلك تماما، فاليهود أدخلوا في التوراة التي ألفها الأحبار كل الأسماء الكنعانية، مما مهَّد في عقل نتنياهو دعواه، وكل ذلك عائد إلى أن التوراة منفتحةٌ انفتاحاً دون ضوابط، وإلى كونها جامعةً لخلطات ثقافية غير متجانسة.

إن بقاء الأسماء العربية الكنعانية القديمة لمدن وقرى فلسطين، لا يمكن أن يكون دليلا على أن الأرض في تاريخها القديم يهودية، بل هو دليل على بقاء شخصيتها العربية الكنعانية رغم مرور القرون وتوالي الأحداث، وعلى اقتحام هذه الأسماء العربية الكنعانية للنص التوراتي؛ **ألا يمكن أن تُعتبر محافظة التوراة على هذه الأسماء الكنعانية دليلا توراتيا على عروبة أسماء المدن الفلسطينية؟!.**

لكن نتنياهو يفهم الأمور على العكس من ذلك تماما، فتراه يقول: "وعندما تجوَّل إدوارد روبنسون، كلود كوندر، وعلماء آثار آخرون في البلاد لأول مرة، استطاعوا التعرف بسهولة نسبية على المواقع الأثرية اليهودية، لأن العرب لم يهتموا حتى ولو بتغيير أسمائها، **وتركوا الأسماء العبرية القديمة**، مع بعض التحريف في العربية"، ولكننا نقول تعقيباً: ولِمَ يُغيِّر العرب أسماءها وهي عربية؟

ويتابع نتنياهو: "ومن بين المواقع التي لم تتغير أسماؤها تقريبا، وجد الباحثون مدينة يرمياهو، عناتوت (عناتا)، وميادين المعارك التي خاضها المكابيون في لبونه (لوبان) وفي بيت حورون (بيت عور) والحصن الأخير لباركوخفا، بيتار (بتير)، وشيلا (سلوان)، وعراد (تل عراد)، وأشكلون (عسقلان)، وبئر شيفع (بئر السبع)، وبني براك (ابن إبريق)، وبيت شآن (بيسان)، وبيت شيمش (عين شمس)، وأدورايم (دورا)، وأشتموع (السموع)، ومئات المواقع الأخرى"[1].

---

(١) يُنظر كتاب (مكان تحت الشمس)، تأليف: بنيامين نتنياهو، ترجمة: محمد عودة الدويري،

لكنه، وليبدو منصفا، ذكر أن العرب بنوا خلال ١٢٠٠ عام (؟!) من تـــاريخهم في فلسطين مدينة واحدة، هي: الرملة.

ويظهر أن نتنياهو يريد أن يوهم القارئ لكتابه أن هذه المدن من بناء اليهود، غير أنه سيواجَه بحقيقة دامغة لباطله، ومزهقة لأوهامه..

إن الكنعانيين واليبوسيين هم الذين بنَوا في فلسطين ١٣٥ مدينة، و١٢٠٠ قريـــة[١]، أفَتَراهم بنَوها وتركوا لليهود أن يكرموها بأسماء من عندهم، أم بنوها، وأطلقـــوا عليهـــا التسميات العائدة إلى لغاتهم ولهجاتهم العربية، كنعانية أو يبوسية.

وليس الأمر أن هذه الأسماء عربية كنعانية فحسب، بل الأمر أكبر من ذلك بكـــثير، فاللغة العبرية هي بذاتها لهجة كنعانية عربية، لم تُصادف من اليهود أي تطوير لها يكشف عن عبقرية خاصة.

فهل يستطيع نتنياهو أن يدَّعي غير هذا، أي أن يدَّعي أن اللغة العبرية إبداع يهـــودي أو إسرائيلي، حتى يكتمل نصاب المسألة والدَّعوى التي يرفع لواءها؟!

الجواب: لن يستطيع، فلو طرح هذه المسألة في كتابه، لكان مضطرا أن يتراجـــع، أو أن يعترف أن بني إسرائيل قدِموا من مصر مع يوشع بن نون عليه السلام، وهم يتكلمون المصرية، ثم عايشوا الكنعانيين الذين كانت لهم لغة وحضارة، وكانوا عربا من العـــرب، وكانت لهم لهجات متعددة، فصادف أن عاش الإسرائيليون في المنطقة التي تتكلم اللهجة التي سُمِّيت فيما بعد: اللغة العبرية، فصارت لغتهم، التي ماتت حينما اتخذوها لغة لهـــم، وحتى هيرتزل نفسه لم يكن يعرفها[٢]، وكان الكنعانيون قد سمَّوا البلاد والمدن والقـــرى

(٧٧-٧٨).

(١) المسجد الأقصى المبارك، وهيكل بني إسرائيل، تأليف محمود صـــوالحة، (٥٣)، ويُنظـــر في (٥٣-٥٨) الأصول العربية، آرامية أو يبوسية أو كنعانية، لأسماء مجموعة من المدن الكنعانية واليبوسية.

(٢) حول عدم معرفة تيودور هيرتزل الزعيم الصهيوني المعروف للعبرية، يُذكر أنه حاول في المؤتمر

الكنعانية بأسماء من لغتهم العريقة، وبقيت هذه الأسماء كما هي، **وأدخلها الإسـرائيليون الذين لم يُضيفوا شيئا، إذ لم يكن لديهم شيء يضيفونه، أدخلوها في التوراة وفي أسفار العهد القديم**، حتى جاء نتنياهو وجماعات التزوير، لتدَّعي أن هذه الأسماء عبرية، لمجرد وجودها في التوراة، كأنهم يريدون إيهام الناس أنهم هم الذين أطلقوها على هذه المواقع، متسترين على أصلها الكنعاني، إذ هي ليست عبرية، بل كنعانية، و لم يطلق الإسـرائيليون تلك الأسماء على تلك المواقع، بل أطلقها الكنعانيون، وإن كان لليهود من فضل هنا، فهو أنهم سجلوها في توراتهم.

إن اليهود لم يَسْطُوا على لغات الأمم فحسب، بل سطَوْا أيضا على عقائدها، فأساطير التوراة ذاتها ذات أصول كنعانية وسومرية وبابلية...إلخ.

والأمر أكبر من ذلك أيضا..

يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري عن اللغة العبرية: إنها ما هي إلا ((إحدى اللغات السامية من المجموعة الكنعانية،...، كان يتحدث بها الكنعانيون، ثم اتخذها العبرانيون،...، لغةً لهم بعد تسللهم إلى أرض كنعان، وسُميت هذه اللغة عبرية في وقت متأخر من العصور الوسطى))[1]، وفي معجم الحضارات السامية: ((**أطلِق عليها اسم اللغة العبرية في القرن الثاني الميلادي**))[2]، ((**فهي مجرد لهجة من لغة أكبر (اللغة الكنعانية)؛ لهجة لم تكن قد نضجت أو تبلورت بعد**))[3]، وإنما تكلم الإسرائيليون القادمون من

الصهيوني الأول عام ١٨٩٨م أن يُدخل البهجة على قلوب الحاخامات الأرثوذوكس، فنطق ببعض كلمات عبرية كُتبت له بالأبجدية اللاتينية، وكتب فيما بعد في مذكراته ملاحظة يقول فيها: ((**إن محاولتي هذه قد سببت لي مشقة كبيرة تفوق كل متاعبي في الإعداد للمؤتمر**))؛ يُنظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، للدكتور عبد الوهاب المسيري، (٣/٣٢٨).

(١) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، للدكتور عبد الوهاب المسيري، (٣/٣٣٠).

(٢) معجم الحضارات السامية، هنري س. عبودي، (٥٨٩).

(٣) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، للدكتور عبد الوهاب المسيري، (٣/٣٣٠)، ويُنظر:

مصر بهذه اللغة الكنعانية، التي سمَّوْها فيما بعدُ: العبرية، على قاعدة الصراع اللغوي، والتي تعني: سيطرة العدد الكبير من الناس بلغتهم على العدد القليل(1)، خاصة أن بني إسـرائيل هم في الحقيقة واردون على أرض لها شعب ولغة وحضارة، بل إن الأمة التي تعمر هـذه الأرض هي منشئة الكتابة الأبجدية، وناقلتها إلى الأمم، كما مضى قريبا.

فالتسمية باسم (بيليشت) العبرية، إن صح جدلا أنها أصل التسمية بالاسم (فلسطين)، وكذلك إن صح جدلا أن أسماء المدن والقرى حسب ورودها في التوراة، هي أسماء عبرية، بمعنى صارت هي المعروفة الملفوظة في العبرية؛ إن صح ذلك، **فهذا لا يعني أنها لغات صنعها وأبدعها اليهود أو بنو إسرائيل، بل هي التسميات الكنعانية التي ما عرف العبريون غيرها، والتي تلقَّوْها من الكنعانيين، بل لقد سبقت الوجود الإسرائيلي نفسه، وليست اللغة العبرية سوى ما انغمس به اليهود من لغة القوم أصحاب الأرض الأصليين، وهم كما بيّنّا: الكنعانيون، أما قبل مجيء بني إسرائيل إلى فلسطين من مصر، وأيام مجيئهم الأول إلى فلسطين، فكانوا يعرفون اللغة المصرية فحسب**(2)**، ذلك أنها كانت لغتهم الأصلية، بحكم حياتهم القديمة في مصر.**

فإن صح أن الاسم (بيليشت) العبري هو أصل التسمية بالاسم فلسطين، فهذا لن يفيد اليهود شيئا، وليس لليهود من فضل في إيجادها، بل إن ما نالته من تطور قاصرٍ عن إدراك

(معجم الحضارت السامية)، هنري س. عبودي، (589-590)، وتُنظر: دائرة معارف بطرس البستاني، (11/676)

(1) حول قاعدة الصراع اللغوي هذه، كما يطلق عليه الباحثون اللغويون، يُنظر: فقه اللغة، للدكتور علي عبد الواحد وافي، (46).

(2) يُنظر كتاب: فلسطين، القضية الشعب الحضارة، تأليف بيان نويهض الحوت، (42)، هذا، ولم نَمِل إلى اعتبار أن العبرية نشأت في السبي البابلي، كما مالت إليه الدكتورة بيان نويهض الحوت، ذلك أن فترة السبي البابلي ما هي إلا فترة تطوّر للغة العبرية، إذ إنها، وكبقية اللغات، تمرّ بأطوار، قد تنتهي إلى ضعف أو قوة أو سيطرة أو تلاشي.

غيرها، ليس راجعا إلى ممارستها من قِبلهم على مستوى الثقافة والتأريخ والأدب والعلم، وإنما هو راجع إلى اختلاطها بغيرها من اللغات، حيث لم تستطع الصمود أمام تحديات الأمم اللغوية والثقافية.

فاللغة العبرية إذن ليست انبثاقا عن حضارة اليهود وتفوُّقهم وإبداعهم كما قد يزعمون.

ونحب هنا أن نترك الحديث للدكتور المؤرخ العربي، اليهودي بداية، والمسلم خاتمة، وهو صاحب جهد من أكبر الجهود في الكشف عن حقيقة الدور العربي والنشأة العربية لفلسطين ومدنها..

يقول العالم الآثاري المؤرخ الدكتور أحمد سوسة: ((ويحاول الصهيونيون اليوم إحياء الأسماء القديمة في فلسطين المحتلة، باعتبارها أسماء عبرية (يهودية) **والحقيقة هي أن هذه الأسماء كلها، ومن ضمنها أوشليم والقدس، أسماء كنعانية، عربية الأصل، حتى كلمة صهيون وإسرائيل اللتين اتخذوهما شعارا لتصميمهم العدائي ضد أهل فلسطين العربية، هما كلمتان كنعانيتان عربيتا الأصل كما تقدم، ولم يستطع اليهود تغيير الأسماء، لأنه لم تكن لديهم لغة خاصة بهم في تلك العصور لتحويلها إليها، فاللغة التي اقتبسوها في فلسطين هي الكنعانية، لغة سكان البلاد الأصليين، ولم تكن اللهجة العبرية (بمعنى اليهودية) المأخوذة من الآرامية قد تكونت بعد.**

وعن الكتابة العبرية يقول الدكتور أحمد سوسة: ((وإلى جانب ذلك اتخذ اليهود الحرف المسمى بالحرف الأشوري المربّع، الذي دُوِّنت به التوراة، وهو مقتبس من الأبجدية الآرامية، ولا يزال يستعمل في الكتابة العبرية (اليهودية الحديثة)))[1]، ويقول: ((وقد تكونت -أي العبرية- بعد مرور أكثر من ستمائة عام على دخولهم أرض فلسطين، وبها

---

(١) العرب واليهود في التاريخ، تأليف الدكتور أحمد سوسة، (٣٠١-٣٠٢).

كُتبت التوراة في بابل بعد عهد موسى بثمانمائة عام))[1]، وينقل الدكتور سوسة عن العالِم الآثاري التوراتي مندهول، في مراسلة جرت بينهما، فكان مما أكده مندهول في ردِّه: ((**أن اللغة في عهد سليمان وداود وفيما بعدهما هي اللهجة الكنعانية، وذلك لأن النبي أشعيا سمى لغة ذلك العصر من تاريخ اليهود في القرن الثامن قبل الميلاد ب (شفة كنعان) أي لسان كنعان**))[2].

وثمة انعطافة أخرى يحاول كثير من اليهود أن يحرفوا فيها أنظار البشر عن الحقيقة، تدور هذه المرة حول حق التسمية بالاسم فلسطين..

فلقد ألقى حملة لواء البحث التوراتي التاريخي بظلال هذا البحث التوراتي الكثيفة الغليظة على كل شيء فلسطيني، حتى على حق التسمية المعاصرة لفلسطين، فهم لم يكتفوا بمحاولة تجيير التسمية بالاسم فلسطين لصالح العبرية القديمة، بل حاول بعضهم أن يُلغي حق فلسطين المعاصر باسمها الشهير..

فقد ((رفض دوثان[3] استعمال اسم فلسطين **على اعتبار أنه كان الاسم الرسمي للبلد لمدة لم تتجاوز الثلاثين عاما أثناء الانتداب البريطاني في فلسطين**،...، وبعد القرن الحادي عشر الميلادي، فإن اسم فلسطين بالنسبة لدوثان قد نُسي تماما، مما دعاه إلى القول: ((**وهكذا، لمدة سبعمائة عام، لم يكن اسم فلسطين يستعمل إلا بالكاد، وفي القرن التاسع عشر فقط، بعد يقظة المصالح الأوروبية الدينية والتاريخية والسياسية في المنطقة، ظهر اسم فلسطين من جديد**؛ بإمكاننا استنتاج أن هذا الاستعمال الزمني المتأخر والمتناقض لِلَفْظ فلسطين، يبدو أنه لم يتم قبوله من أي فئة محلية، ولذلك فإن اللفظ لا

---

(١) المرجع نفسه، (٣١٧).

(٢) المرجع نفسه، (٤٤٦).

(٣) يصف وايتلام في كتابه (اختلاق إسرائيل القديمة ١٠٤) دوثان هذا بأنه هو وزوجُه ترود دوثان مسؤولان بشكل كبير عن العديد من الاكتشافات الأثرية حول تاريخ فلسطين القديم وثقافته.

يكاد يكون له معنى بالنسبة للتاريخ الأثري لهذا البلد))[1].

وقريب من قول دوثان هذا، جاء قول بنيامين نتنياهو: ((حتى إن اسم فلسطين نفسه لم يعد مستعملا بين العرب، البريطانيون هم الذين أحيَوْه، ومنهم صادره العرب لأنفسهم في القرن الحالي))[2].

وكلام دوثان ونتنياهو هذا مناقض تماما لما ثبت في التاريخ، وهو مناقض أيضا للدعوى التي رددناها، والتي تقول: إن العبرية هي مصدر هذه التسمية، فلو كانت العبرية هي مصدر التسمية، فلِمَ يرفضها نتنياهو ودوثان، والحال أنهما من أشد المتعصبين لشيء اسمه عبرية؟!..

وفي كلامنا الذي قدمناه قريبا حول الأسماء التي أُطلقت على فلسطين رد كافٍ على محاولتهما، فلقد بينا بما لا يدع مجالا للشك أن اسم (فلسطين) غائر في القِدم، ولا نرى ضرورة إعادته، بل فليرجع إليه القارئ إن شاء.

لكن دوثان يبقى يزعم ويزعم، فكما ذكر وايتلام إنه يزعم أن: ((التعبيرات الوحيدة التي تنطبق بشكل صحيح على هذه الأرض، هي آثار إسرائيل أو آثار أرض إسرائيل، ويرفض التعبير الأول على أساس أنه يستثني مناطق خارج حدود دولة إسرائيل الحديثة، وهكذا يتوصل إلى أن تعبير آثار أرض إسرائيل هو التعبير الأكثر ملاءمة؛ إن وجود الدولة الحديثة وادّعاءاتها التي تزعم بوجود صلة مع تاريخ طويل استمر بشكل متواصل منذ العصر الحديدي، هو العامل الأساسي في اختيار المصطلحات، والادّعاء بالاستمرارية يعني بالضرورة أن أي مطالبة أخرى بمجرد الوجود، أو أي تفسير مغاير للماضي، يتم إسكاتُه بالقوة، **وهكذا نجد أنفسنا في مواجهة تاريخ إسرائيلي فقط، في الماضي وفي الحاضر، أما**

(١) يُنظر: وايتلام في كتابه (اختلاق إسرائيل القديمة ١٠٥).

(٢) مكان تحت الشمس، لبنيامين نتنياهو، ترجمة محمد عودة الدويري، (٧٦).

فلسطين فغير موجودة، ولذلك لا يُمكن أن يكون هناك تـــاريخ فلســـطيني))[1]، أي حسب الدعاوى اليهودية!

وليس من مانع أن يحلم الإنسان بما يحلم، إن كان من أولئك الذين يختارون أحلامهم بأنفسهم؛ ولكن ثمة ألف مانع من أن يُلبس أحلامه لباس الحقائق، فلْيحلم بما يشاء، ولكن عليه أن يعرف مقام أحلامه، فهي ليست حقائق بل أحلام ومنامات!.

إننا تحدثنا بما فيه الكفاية لقمع الأساطير التوراتية حول اسم فلسطين، ولـــذا، فإننـــا مطمئنون أن صاحب هذه الأحلام مُواجهٌ بالحقيقة التي لا تلتفت إلى الخيالات، إن دوثان ونتنياهو وغيرهما، وهم كُثر من أبناء المنهج التوراتي المهيمن على الغرب؛ لا يســـتطيعون أبدا أن يُثبتوا التوراة التي هي مرجعهم الوحيد في حديثهم عن التاريخ القديم لفلســـطين، والتي أنكروا عليها حق التسمية، وإن علم الآثار تولى مواجهتهم بما تقذفـــه الأرض مـــن حقائق الوجود القديم لفلسطين، وإنهم إن تخلوا عن منهج الدراسات التوراتية، سيُصبحون خلوَ الأيدي من كل شيء له صلة بفلسطين، إذ إن علم الآثار، كما سيأتي، لم يخدمهم أية خدمة، وذلك بعد انكشاف الزيف الذي حاول بعض الأيديولوجيين البروتستانت واليهود أن يبقى مغطّى.

ومرة أخرى: لسنا مضطرين إلى ذكر شواهدنا هنا، إذ جعلنا لها فصولا خاصة بهـــا، فلينتظر القارئ الكريم.

وبنفس المعنى الذي ألحَّ عليه دوثان تقريبا جاء قول بالي: ((ســـوف نســـتعمل لفـــظ فلسطين للدلالة على أرض التوراة على ضـــفتي الأردن، بـــالمعنى نفســـه المســـتخدم في التفسيرات التوراتية))[2].

ويظهر لي أن محاولة طمس اسم فلسطين، هو جزء من عمل غير أمين، يقصد فاعلـــه

---

(١) وايتلام في كتابه (اختلاق إسرائيل القديمة ١٠٦).

(٢) يُنظر كلام بالي في: اختلاق إسرائيل القديمة، لوايتلام، (٩٩).

سلخ فلسطين عن جانب من جوانب شخصيتها، لتنتمي إلى غير من تنتمي إليهم، فإنكار التسمية هو جزء من إنكار الانتماء والشخصية والهوية، ليجد منكر التسمية في النهاية لها اسما يُلحقها بانتماء آخر.

ولذا، ومن أجل محوريّة مُدّعاة للوجود اليهودي في فلسطين، فإن الاصطلاحات التاريخية قد انغمست في النهاية بالأسطورة القائلة: إن التاريخ هنا هو تاريخ إسرائيل، ولا يملك التاريخ السابق لإسرائيل في المنطقة الفلسطينية تسمية تُعبِّر عنه أو عن هويته، إنما هو ما قبل التاريخ الإسرائيلي، أي أنه منسوب في النهاية إلى التاريخ الإسرائيلي، **وهذا يعني في تقديرنا أن ما قبل الوجود الإسرائيلي في هذه الأرض المقدسة، لا يمتلك بزعم أرباب الخطاب التوراتي حتى حق التسمية، في القديم والحديث، ولا يُعترف له بهوية، بل هو مضطر للانتساب إلى إسرائيل، فهو ما قبل تاريخها، وهذا حال من لا يملك تسمية أو هوية أن يقال في التعريف به: مِن قَبْلِ فلان، أو مِن بعد فلان، لتبقى الهوية والتسمية لفلان فحسب.**

وستأتي ردود وأحاديث تفصيلية في هذه المسائل في فصول قادمة إن شاء الله تعالى..

المبحث الرابع: عروبة أسماء القدس منذ القِدَم[1]

هذا، ولأسماء مدينة القدس القديمة دلالة على هويَّتها، فإن الأمم والحضارات إنما تطلق أسماءً على مواقعِها وحصونها ومدنها تنبثق من هويّاتِها وانتماءاتها ولغاتها، فليس من أمة من الأمم إلا وتتوجّه فطرياً إلى الاعتزاز بثقافتها، والانتماء إلى منظومتها الفكرية واللغوية، وعلى هذا، فإن تبيّن لنا أن أول تسميات مدينة القدس كانت عربية، فإن هذا ولا شك سيُدلي بدلوه في إثبات أن القدس عربية المنشأ.

ولننظر الآن إلى ما يقوله التاريخ والآثار، حول أسماء مدينة القدس..

فأقدم اسم عُرف للمدينة هو ما ورد في نصوص الطهارة المصرية من تسميتها (يوروشاليم) وذلك في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وكانت المدينة حينها مركزا لعبادة الكنعانيين على ما رجَّح فريق من المؤرخين، مما سأتحدّث في تحقيقه في المبحث التالي إن شاء الله تعالى، وفق رؤية سأطرحها أردّ فيها قول من يقول إن الشرك سبق التوحيد في حياة الكنعانيين.

والراجح لدى كثير من المؤرخين أن الاسم مركب من كلمتين هما: يورو بمعنى مدينة،

---

(١) ذكر الحافظ ابن حجر أن لمدينة القدس أسماء تقرب من عشرين اسما. يُنظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر، (٧٨/٣)، ولا بد أن ننوه أولا أن هذا الفصل لا يقصد الإحاطة بكل ما أُطلق على مدينة القدس من أسماء، إذ سيخرج البحث حينها عن موضوعه الرئيسي، ولذا، فإن الإحاطة بأسماء المدينة قديما سيكون ميسرا جدا على أي قارئ لمعظم الكتب التي تناولت التاريخ القديم للقدس، ككتاب: مدينة القدس، عروبتها وإسلاميتها، للدكتور إسحاق موسى الحسيني، وكتاب: المفصل في تاريخ القدس، للأستاذ عارف العارف، مؤرخ القدس، وكتاب القدس عربية إسلامية، للأستاذ سيد فرج راشد، وكذا فتح الباري، للحافظ ابن حجر، في الموضع المشار إليه؛ وغيرها...

وشاليم اسم إله كان الكنعانيون يعبدونه[١]، وهذا اسم عربي أصيل وليس عبرياً[٢].

سيتضح للقارئ الكريم أن اسم أورشليم الذي أطلق على القدس ليس اسما يهوديا أو إسرائيليا[٣]، وإن كان اليهود الحاليون لا يستعملون سواه، ذلك أن هذه التسمية ظهرت لمدينة القدس قبل وجود اليهود أصلا.

ويستخدم الدكتور العالم الآثاري أحمد سوسة اسم أورشليم داعيا إلى الاعتزاز به مثلما نعتز بتسمية القدس، وذلك من المنطلق نفسه، فالتسمية عُرفت قبل أن تكون ثمة لغة عبرية، بل لقد عرفها العرب واستعملوها في أشعارهم[٤]، ويقول الدكتور سوسة عن كلمة أورشليم: ((هي في الحقيقة كلمة كنعانية عربية أصيلة، وردت بهذا الاسم في النصوص الكنعانية التي وُجدت في مصر قبل ظهور اليهود بعدة قرون))[٥]، فهي تسمية

---

(١) يُنظر: مدينة القدس، عروبتها، ومكانتها في الإسلام، للدكتور إسحاق موسى الحسيني، (٤٢) وتُنظر أيضا: مجلة المجتمع في عددها ١٣٠٠ من مقال للأستاذ مجاهد الصوابي، عنوانه: في المؤتمر الدولي حول مصادر تاريخ القدس بجامعة القاهرة: التوراة المحرفة أقرت بعروبة القدس، وتكذب ادعاءات الصهاينة؛ فقد ذكر قول الدكتورة فايزة صقر ــ أستاذة التاريخ بجامعة القاهرة ــ أن مدينة القدس ورد ذكرها في أقدم النقوش المصرية في عهد ((سنوسرت الثالث في القرن التاسع عشر ق.م (١٨١٨ــ ١٨٤٣ق.م)، من الأسرة الثانية عشرة، حيث ذكرت المدينة المقدسة تحت اسم ((أورساليموم)).

(٢) يُنظر كتاب الدكتور أحمد سوسة: (العرب واليهود في التاريخ، ٦٨٤)، وكتاب الدكتور محمد جلاء إدريس: (أورشليم القدس في الفكر الديني الإسرائيلي، (١٩).

(٣) وذلك مثل اسم جبل صهيون، ولقد شاع بين الناس عقب الغزوة الصهيونية، أنه عائد إلى جذور يهودية في القدس، ولكن هذا غير صحيح، فالاسم برُمَّته إنما أطلقه اليبوسيون على القلعة المسماة بهذا الاسم، وكلمة صهيون كلمة كنعانية تعني: مرتفعا، ولذلك نجد الاسم مطلقا على أكثر من مرتفع في سورية القديمة، يُنظر: بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، صراع الهوية والأرض، للدكتورة خيرية قاسمية، (٣٩).

(٤) يُنظر كتاب الدكتور أحمد سوسة: (العرب واليهود في التاريخ، هامش ٦٨١).

(٥) المرجع نفسه، (٦٨٦)، وهو أيضا قول الدكتور حسن ظاظا، الذي يذكر في كتابه:

كنعانية ((عُرفت بها المدينة قبل أن يدخلها الإسرائيليون))(١).

فلقد ورد اسم أورشليم للمدينة المقدسة في نصوص اللعنات الفرعونية، وهي نصوص تتضمن لعنات فرعونية على حكامٍ وشعوبٍ مُعادين للفراعنة، ويرجع تاريخ هذه اللعنات إلى القرن التاسع عشر ق.م.، وورد اسم أورشليم فيها كما يلي: (يقرب- آمو، حاكم أورشليم وجميع بطانته) يقول الأستاذ فراس السواح: ((وهذا النص القديم وأمثاله، يُثبت أن اسم مدينة أورشليم قديم قدم وجودها، ولا علاقة للإسرائيليين النازحين بتسميتها وتسمية غيرها من مدن كنعان..))(٢).

ولا بد أن نذكر هنا رسالة الملك اليبوسي عبد خيبا إلى فرعون مصر أخناتون، وهي من المراسلات التي اكتشفت في تل العمارنة، والتي يقع زمانها بين القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، أي قبل قدوم الإسرائيليين إلى فلسطين.

يقول عبد خيبا ملك أورشليم أيامها: ((إن هذه الأرض أرض أورشالم، لم يُعطني إياها أبي ولا أمي، لكن أيدي الملك القوية هي التي دعمتني في أرض آبائي وأجدادي، وقد منحت ملكية أرضي في أورشالم إلى الملك للأبد، فهو لا يمكن أن يتركها نهبا للأعداء))(٣).

(القدس، مدينة الله أم مدينة داود، ص٤٥) أن اسم (أورشليم) ليس عبريا، ذلك أنها كانت تحمل هذا الاسم قبل دخول بني إسرائيل إليها، حسب لوحات تل العمارنة.

(١) محمد جلاء إدريس في كتابه: أورشليم القدس في الفكر الديني الإسرائيلي (١٩)، ويُنظر: قراءة سياسية للتوراة، (٣٠٩)، للأستاذ شفيق مقار، فقد ذكر أن اللفظة (أورشليم) هي لفظة آرامية.

(٢) الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، (١٤١-١٤٢) للأستاذ فراس السواح.

(٣) نقلا عن كتاب اغتيال التاريخ، (٥٦) تأليف حمدان حمدان، وتُنظر: الموسوعة الفلسطينية، القسم المعجمي، (٣/٥١٠)، هذا ويُنظر: القدس مدينة واحدة، ثلاث عقائد، تأليف كارين أرمسترونج، (٣٧-٤٠،٣٩) فقد ذكرت المؤلفة تفاصيل تتعلق بالرسائل التي أرسلها عبدو خيبا إلى الفرعون.

فبالتأكيد إذن: إن هذه التسمية ليست تسمية يهودية أو إسرائيلية، بل هي تسمية عربية كنعانية يبوسية، لأنها أصلا معروفة لليبوسيين العرب قبل قدوم الإسرائيليين إليها.

واسم المدينة شالم أو شليم أو سالم عائد إلى اسم بانيها، حسب ترجيحات بعض العلماء، وهو: ملكي صادق[1]، فهو ملك السلام، وهي مدينة السلام.

غير أننا لسنا ملزمين بأن ملكي صادق هو أول بانٍ للقدس، بل كل ما هنالك أنه أول من عُرف عنه بناء القدس في عهد من عهودِها، وإلا، فقد يُكشف سابق له في بناء القدس.

هذا، وقد وصف المطران يوسف الدبس في كتابه (تاريخ سورية) ملكي صادق هذا بأنه وعشيرته من العشائر القليلة التي حافظت على عقيدة التوحيد[2].

هذا كله إن ثبت أن ثمة شخصية اسمها ملكي صادق، وإلا فقد ذكرنا فيما مضى أنها شخصية توراتية لا تجد لها خارج التوراة دليلا على وجودها، ونقلنا عن اللاهوتي الهولندي فرانكن[3] قوله: ((وليس لاسم ملكي صادق وجود في أي سجل أثري)).

أما اسم يبوس، الذي أطلق على مدينة القدس، فهو إنما أُطلق عليها في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ثم في القرن الحادي عشر قبل الميلاد أطلق عليها اسم أريانة، إلى أن صارت عاصمة الملك الصالح، والنبي الكريم سيدنا داود عليه السلام في القرن العاشر قبل الميلاد[4].

---

(١) يُنظر كتاب الدكتور أحمد سوسة: (العرب واليهود في التاريخ، ٦٨٢).

(٢) يُنظر المرجع نفسه، (٦٨٢).

(٣) في بحثه (القدس في العصر البرونزي ٣٠٠٠-١٠٠٠ق.م.) الذي طبعه الدكتور كامل جميل العسلي ضمن مجموع بعنوان: القدس في التاريخ، (صفحة ٢٢).

(٤) القدس مدينة الستة آلاف عام، (٣٠) للدكتور إبراهيم الفني، من مركز القدس للأبحاث، والحلقة الثالثة من: تفنيد مزاعم علماء الآثار الإسرائيليين للفني والنمري، جريدة القدس، ٢٠٠٢/٢/١٧.

أما تسميتُها بالاسم الدارج حديثا، عربيا وإسلاميا، فيقول عنه الدكتور حسن ظاظا: ((أما اسم القدس فلا بد أنه رافق المدينة منذ بداية تاريخها، أي منذ ما قبل بني إسرائيل، عندما أقيمت فيها لأول مرة أماكن مقدسة خاصة ببعض العبادات القديمة، وعلى أية حال فإن المؤرخ اليوناني هيرودوت (٤٨٤-٤٢٥ق.م.) لم يذكر في تاريخه المشهور اسم أورشليم، ولكنه ذكر مدينة كبيرة في الجزء (الفلسطيني) من الشام، وسماها (قديتس)،...، ويقول المستشرق اليهودي الفرنسي سالومون مونك في كتابه فلسطين: إن هذا الاسم على الأرجح هو القدس محرفا في اليونانية عن النطق الآرامي (قديتشا)))[١].

ولا بد أن نشير أيضا إلى أن اسم (القدس) للمدينة المقدسة، ورد أيضا في التوراة[٢]، وذلك في سفر نحميا[٣]، وفي سفر المزامير[٤]، وفي سفر أشعياء[٥].

والاسم: القدس، أو: بيت المقدس، هو الذي رسخ في العقل العربي المسلم لهذه المدينة العزيزة، ولا يحتاج الأمر منا إلى تفصيل فيه، إذ إن الناس لا يعرفون الآن سوى القدس أو بيت المقدس، وغلب عند العوام، وعند عامة المثقفين في العصر الحديث استخدام اسم القدس بدل بيت المقدس، ولعل ذلك جاء تخفيفا، وعند القدماء غلب اسم بيت المقدس، وكذا عند كثير من المثقفين في الأعمال العلمية والتاريخية المتعلقة بها.

ويحلو لي هنا أن أشير إلى أن هذه التسمية العزيزة، ربما استقرت في التراث العربي الإسلامي، لتُرجع القدس إلى أصالتها الإسلامية المقدسة، ولتزيل عنها ما قد لحق بها من تسميات يحمل بعضها في أثنائه ظلامات الشرك، ولعل ثبات ورسوخ هذه التسمية يُكوِّن في النفس العربية المسلمة حاجزا قويا يحول دون التنازل عنها، **ولا يبعد في نظري أن الله**

---

(١) القدس مدينة الله أم مدينة داود، تأليف الدكتور حسن ظاظا، (٤٤-٤٥).

(٢) أورشليم القدس في الفكر الديني الإسرائيلي، (١٧-١٨).

(٣) الإصحاح (١١).

(٤) الإصحاح (١٣٤/٢-٣).

(٥) الإصحاح (٤٨/١-٢).

تعالى قدّر تثبيت هذه التسمية، بسبب ما علمه سبحانه في الأزل من تعرضها في مستقبل أيامها إلى حروب تهدف إلى سلخها عن انتمائها، فكانت التسمية القدسية أحد الحوائل المهمة التي حالت دون ذلك عند ذوي الانتماء، فقدسيتها جعلت لها هيبة حالت دون التنازل الفكري والنفسي –على الأقل– عنها، وقُدسيَّتُها رسَّخت هويَّتها الإسلامية.

المبحث الخامس: اسم القدس القديم وإيحاءاته الوثنية

ولنا هنا وقفة؛ إن الاسم القديم لمدينة القدس حسب المنقول عن المؤرخين هو: (ساليموم) الذي تحدثنا عنه قريبا، وهو تعبير عن وثنية مرفوضة في دين الله سبحانه وتعالى، ف (ساليموم) هو اسم الإله الذي كان يعبده الكنعانيون واليبوسيون، وذلك حسب المنقول عن المؤرخين، فإن كان في الاسم دلالة على عروبة القدس قديما، فليس فيه دلالة على إسلاميتها، أو بالأحرى إن فيه دليلا على وثنيتها في ذلك الزمن القديم، أو على الأقل في حلقة من حلقات الزمن القديم..

وأود أن أؤكد هنا أن إسلامية نشأة القدس عندنا نابعة من سبق الجذور الأولى، على ما رجحنا من أسبقية بناء المسجد الأقصى فيها، في الفصل الأول من الباب الثاني من بحثنا هذا؛ وعلى هذا، واستنادا على أن بناء الأقصى جاء تاليا مباشرة لبناء الكعبة المشرفة، فإسلامية الجذور هذه سابقة أصلا من الناحية الزمانية على هذه التسمية للمدينة المقدسة، بل هي في تقديري سابقة على تأسيسها كمدينة، كما قد أسلفنا من بيان إغراق الأقصى وجودا في أعماق الوجود الأول للإنسان على وجه الأرض، وعلى هذا، **فالقدس إسلامية الجذور، وهي ما نشأت أول ما نشأت إلا في مظلة التوحيد، وعليه أيضا، فالذي يظهر لي أن الوثنية والشرك قد اقتحمتا على الناس دينهم وتوحيدهم في الأرض المقدسة فيما بعد تأسيسها بأزمان وأزمان، وذلك بعد أن لم يكونوا يعرفون شيئا من الشرك، فأصل الخلق عندنا مؤمنون موحِّدون، ثم طرأ الشرك عليهم طروءاً متأخرا، والقدس موجودة في أصل الوجود الإنساني زمانا، أي زمان التوحيد الخالص في التاريخ البشري، وما دام أصل البشر موحِّدين، وما دامت القدس موجودة من أصل الوجود الأول للبشر، فوجودُها الأول، ونشأتها القديمة، نشأة توحيدية**[1].

---

(١) نعود بالقارئ إلى ما نقلناه عن ابن كثير إذ ذكر في تفسيره (١/٢٥٠) ما رواه ابن جرير

وهذا الذي نقرره من أولية التوحيد في التاريخ البشري استنادا على أصولنا الإسلامية، هو ما يلجأ إليه جمهور من علماء الأجناس البشرية، ومن علماء الإنسان وعلماء النفس، والذين من أشهرهم العلامة شريدر، الذي أثبت فطرية التوحيد وأصالته عند الأجناس الآرية القديمة، والعلامة المؤرخ الألماني بروكلمان، **الذي أثبت فطرية التوحيد وأصالته عند الساميين قبل الإسلام**، ومنهم العلامة لانج، الذي أثبت وجود عقيدة الإله الأعلى عند القبائل الهمجية في أستراليا وأفريقيا وأمريكا[1]، وكان العلامة لانج قد انتهى على هدى أبحاثه أن أول ديانة إنسانية ظهرت في الوجود هي ديانة التوحيد[2]، ولقد انتهى بحث ويلهلم شميدت إلى أن فكرة الإله الأعظم موجودة عند جميع الشعوب التي تعتبر من أقدم الأجناس البشرية[3]، بل إن ويلهلم شميد هذا قد أكد أن العرب جميعهم كانوا موحِّدين ثم حادوا عن التوحيد[4].

الطبري عن ابن عباس ب أنه قال: ((كان بين نوحٍ وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين)).

(١) يُنظر: الدين، للدكتور العلامة محمد عبد الله دراز، (١٠٧).

(٢) بحوث في مقارنة الأديان، للدكتور أحمد عبد الرحيم السائح، (٦٨).

(٣) الدين، للدكتور محمد عبد الله دراز، (١٠٨).

(٤) يُنظر: التاريخ العربي وبدايته، تأليف أمين المدني، (٩٢)، هذا، ولا بد هنا من الإشارة إلى مسألة هي غاية في الأهمية، فلقد درجت كتب التفسير والتاريخ والأدب على اعتبار أو على إيهام أن الشرك والوثنية كانا شاملين لجميع التاريخ العربي قبل الإسلام، خلا أفراد متناثرين، فلا تكاد تقرأ في كتاب عن تاريخ العرب قبل الإسلام، إلا رأيته في حديثه عن أديان العرب القديمة يتحدث عن الشرك والوثنية دونما إشارة إلى أن هذا الشرك وتلك الوثنية ليستا إلا محطة معوجَّة سبقها التوحيد لله سبحانه وتعالى، وهذا في تقديري شكل من أشكال مصادمة الحقيقة، وإسدال ستار كثيف عليها، بلا قصد طبعا..

وأود هنا أن أؤكد أن التاريخ العربي القديم هو تاريخ توحيد في معظمه وليس تاريخ شرك ووثنية، وإنما طرأ الشرك عليه طروءا بعد أن لم يكن، وذلك بدليل ما تنقله كتب الحديث والسيرة وكذلك كتب التاريخ والأدب نفسها أن عمرو بن لحي الخزاعي هو أول من أدخل الشرك في دين العرب قبل

الإسلام.

فلقد روى البخاري في صحيحه (ح٣٥٢١) تعليقا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ج: (**رأيت عمرو بنَ عامرِ بنِ لُحَيٍّ يجر قصْبَه في النار، وكان أول من سيَّب السوائب**) ورواه البخاري في صحيحه أيضا (ح٤٦٢٤) موصولا عن أبي هريرة، ورواه مسلم في صحيحه (ح٧١٢١) موصولا، و (ح٧١٢٢) تعليقا، بألفاظ مقاربة لألفاظ البخاري، مع زيادة عند مسلم فيها ذكر نسب عمرو بن لحي، وفي روايات البخاري ومسلم هذه أن عمرو بن لحي هو أول من سلك هذا المسلم الشركي: تسييب السوائب، وهي من الأنعام التي كانوا يجعلونها نذرا للأصنام، بحيث تسيَّب، فلا تُمنع عن مرعى ولا ماء، وفي هذا الحديث أن أول من سن هذه السنة السيئة هو عمرو بن لحي هذا، وإلى الآن لم ندخل في المقصود، إذ إن مقصودنا كامن في رواية الحاكم النيسابوري وابن إسحاق للحديث نفسه، رغم ما في رواية البخاري من فائدة تلفت النظر إلى أولية مسلكية من مسلكيات الإشراك بالله، ارتبطت بعمرو بن لحي.

أما المسلكية التي ابتدأت بحرف مجمل دين العرب، أعني عرب الجزيرة، عن التوحيد، فهي واضحة في الرواية التي أشرنا إليها عند الحاكم وابن إسحاق.

فلقد روى الحاكم النيسابوري في مستدركه (٦٠٥/٤) وصحح إسناده، وأقره الذهبي على هذا التصحيح، أن الرسول ج قال: (..**ورأيتُ فيها، أي في النار، عمرو بن لُحيٍّ يجر قصبه في النار**..) وقال ج في وصفه في الحديث ذاته: (..**وهو أول من حمل العرب على عبادة الأصنام**)، ورواه ابن إسحاق (سيرة ابن هشام (٨١/١) إلا أنه قال: (**وهو أول من غير دين إسماعيل**).

إننا هنا أمام نصوص صحيحة أن عمرو بن لُحي هذا هو أول من غير دين إسماعيل التوحيدي، مما يعني أن ما سبق ابنَ لحي هذا من تاريخ العرب كان على دين إسماعيل، أي على التوحيد، وفي (نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب) لابن سعيد الأندلسي (٢١٢/١) أن أمر البيت دام لعمرو بن لُحي هذا ولبنيه من بعده ثلاثمائة سنة، وقد نسب ابن سعيد هذا إلى السهيلي في كتابه الروض الأنف، وذكر ابن سعيد أن قصي بن كلاب، الجد الخامس لسيدنا رسول الله ج هو من أخذ سدانة الكعبة من ابن غُبشان، أحد ذرية عمرو بن لحي بعد ثلاثمائة سنة من تولي ابن لحي لهذه المنقبة، أعني سدانة الكعبة ومفاتيحها، بحيلة من قصي احتال بها على ابن غُبشان هذا، وعليه، فإن ابن لحي يكون قد سبق الإسلام بنحو خمسمائة عام، وذلك إذا جمعنا الفترة التي تولى فيها عمرو بن لحي وذريته أمر الكعبة، وهو ثلاثمائة عام، إلى الفترة التي نجتهد في قياسها، وهي التي تمثل المسافة الزمنية بين الرسول ج وبين جده

وهذا الذي نعتمده هو ما مال إليه أيضا جماعة من المؤرخين، منهم ديتلف نلسن الذي قال في كتابه عن تاريخ العرب القديم: ((**أما تعدد الآلهة الذي طرأ، فهو خروج على الدين الأصلي التوحيدي القديم**))(١) أي عند العرب، وهو كذلك رأي آرنست رينان، فقد نقل عنه الدكتور جواد علي رأيه أن ((**العرب هم مثل سائر الساميين الآخرين موحِّدون بطبعهم، وأن ديانتهم هي ديانات التوحيد**)) قال الدكتور جواد علي: ((**وهو رأي يخالفه فيه نفر من المستشرقين**))(٢).

إن مشكلة علماء تاريخ الأديان، وهم في جلهم غربيون لا يستندون على وحي من السماء في هذه القضية المغرقة في القِدم، بل هم منصرفون عن الوحي الرباني أساسا، إن مشكلة هؤلاء العلماء هي أنهم ينظرون إلى نشأة الأديان من خلال ما وصلهم عن بعض المجتمعات البدائية، والتي وجدوها وثنية، أو من خلال ما رأوا من سلوكيات التدين عند

الخامس قصي بن كلاب، الذي أخذ مفاتيح الكعبة من ابن غُبشان، وهي مدة مائتي عام، فتكون المسافة بين عمرو بن لحي وبين الرسول ج خمسمائة عام، أي أنه قبل هذه الخمسمائة عام كان العرب في الجزيرة العربية على التوحيد، على دين إسماعيل ج.

فكيف إذن تنطلق أقلام العرب، فتنسى شرف العرب القديم القائم على التوحيد؟

فإذا كان ما قبل هذه الفترة التي تبعد (٥٠٠) عام عن محمد ج قد نسيها كثير من المؤرخين، ونسبوها إلى الشرك، فما بالنا بتاريخ الكنعانيين القديم، والذي يعود إلى ما قبل الميلاد بحوالي ثلاثة آلاف عام؟

إن الذين نسبوا الشرك مؤكدين أنه هو دين الكنعانيين القدماء، قد تجاوزوا الأمر كثيرا، رغم أننا لا ننكر أن يكون قد وقع الشرك من بعض الكنعانيين، لكن لا على التعميم.

هذا، وقد أوضحنا أعلاه من خلال مجموعة من دراسات وأبحاث المؤرخين الغربيين أن التوحيد سابق على الشرك عند البشر عموما، وعند الساميين، أعني العرب القدماء خصوصا.

(١) ديتلف نلسن في كتابه التاريخ العربي القديم، (١٧٦) نقلا عن: التاريخ العربي وبدايته، تأليف أمين المدني، (١٠٠).

(٢) يُنظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، للدكتور جواد علي، (٦/٣٥).

تلك المجتمعات البدائية، فلما رأوا الوثنية مهيمنة عليها، اعتبروا أن نشأة التدين عند الإنسان نشأة وثنية، واعتبروا الوثنية سابقة على التوحيد، ولو أنصف هؤلاء، لاعتبروا أن ما رأوه أو وصلت إليه أبحاثهم، لا يمثل أكثر من حلقة من حلقات تواريخ تلك المجتمعات البدائية، ذلك أن اكتشافاتهم لم تستطع أن توصلهم إلى أن ما رأوه أو وصلت إليه أبحاثهم، هو الأول وجودا، بل لا يملك هذا الذي رأوه أكثر من دليل على إثبات نفسه كموجود، دون أن يملك دليلا على أنه الأول وجودا..

يقول العلامة هارالد هوفدنج: «إنه يبعد كل البعد أن ينجح تاريخ الأديان في حل مشكلة بزوغ الدين في النوع الإنساني، فإن التاريخ لا يصور لنا هذه البداية الأولى في موضع ما، وكل ما نجده إنما هو سلسلة من صور مختلف الديانات متقدمة قليلا أو كثيرا،...، حتى إن أحط القبائل الهمجية التي نعرفها قد مرت بأدوار شتى، وتطورت تطورا بعيدا»[1].

وكنا حين أشرنا إلى بعض أبحاث علماء الأديان ذكرنا أن بروكلمان وصل إلى أن التوحيد هو الدين الأصيل عند الساميين، وكذلك ذكرنا كلاما لرينان وشميد ونيلسن عن أولية التوحيد عند العرب تحديدا، فإذا اجتمع هذا الذي أشرنا إليه من بحوث بروكلمان ورينان وشميد ونيلسن، مع تلك البحوث التي حملت نفس الفكرة عن الشعوب البدائية، فإن ذلك يسهم إسهاماً مهماً في إثبات أن التوحيد هو الأصل، ليس فقط لدى الشعوب السامية، ومنها الكنعانيون، بل عند الشعوب البدائية أيضا، بل أكثر من ذلك، عند الإنسانية جمعاء في أول وجودها على الأرض، وهو ما قررناه مستندين على أصولنا الإسلامية، التي لا يضل من اهتدى بها.

ثم إنه حصل بعد تلك البدايات التوحيدية القديمة ما قد حصل من انحراف عن التوحيد الرباني..

---

(١) يُنظر كلام هوفدنج في: الدين للدكتور محمد عبد الله دراز، (١٠٩).

فالعرب الكنعانيون كغيرهم من البشر طال عليهم الأمد، فنسوا أصول التوحيد، وهم في هذا الذي نقرره عنهم يشبهون ما قد حصل في زمن نوح عليه السلام أو قبل عهده بقليل؛ فثمة أسماء هي أسماء رجال صالحين، جعلوها أسماء آلهة يعبدونها، وهي الواردة في قوله تعالى حاكيا كلام قوم نوح دفاعا منهم عن عبادتها: (**وقالوا لا تذرُن وَدّاً ولا سُواعاً ولا يغوثَ ويعوقَ ونَسراً**) والأصل، كما في كتب التفسير أن هذه الأسماء هي أسماء قوم صالحين، مضت على موتهم عهود تطاولت، وأزمان تلاحقت، حتى نسي قوم نوح الحال البَشَريَّ لهؤلاء الصالحين، فاتخذوهم آلهة يعبدونها من دون الله تعالى، وأرى أن هذا الشكل من التحوُّل هنا عن التوحيد إلى الشرك، هو جزء من تفسير كيفية دخول الشرك على البشر بعد التوحيد الخالص لرب العالمين سبحانه وتعالى، فإن التوحيد سابق على الشرك، لأن أول الموحدين هو أول البشر، وهو آدم عليه السلام ثم بنوه الأوائل من بعده، فالشرك طارئ دخيل، والتوحيد بادئ أصيل، وعليه، وكما قلنا، فإن لدخول الشرك وطروئه أشكالا وأسبابا، منها ما ذكرناه عن قوم نوح عليه الصلاة والسلام.

وعليه، فإننا لا نستطيع أن نثق بمقررات تاريخ الأديان التي ترى أن الكنعانيين كانوا مشركين ثم طرأ عليهم التوحيد، بل هم كسائر العرب: موحِّدون طرأ الشرك عليهم بعد أصالة التوحيد فيهم، وهذا ما يمكن أن نفهمه من تقريرات وأبحاث العلماء والمؤرخين الذين نقلنا عنهم قريبا.

وفي الحقيقة لا نستطيع أن نوافق على رؤية كثير من الغربيين أن التوحيد عند البشر هو تطوُّر مسبوق تاريخيا بالشرك، فمصادرنا الدينية الإسلامية تخالف هذا مخالفة قطعية، إذ إن جزءاً مهِمّاً من الأسبقية البشرية حسب ديننا هي أسبقية آدم عليه السلام، النبي الموحِّد لله سبحانه، كما هو واضح من نصوص القرآن الكريم، ولكن الغرب حينما يبحث في مثل هذه القضايا الخطيرة، فإنه يبحث فيها دون أن يهتدي بهدى الوحي، لتجربة خاصة سببُها ما نُسب إلى الوحي في دينه النصراني الغربي الكنسي، من خرافات أدت بالسلوك الديني عنده إلى أشكال من الجهل والعنف الفظيعَين، مع مزيج من الأسباب التاريخية التي

أسهمت في بناء العقل الغربي ذي الجذور اليونانية والرومانية الوثنية، ألقت به في قاع المادية، فلم يستطع أن يرفع رأسه من هذا الدرك الغائر في وادي المادية السحيق؛ فأدى به كل ذلك إلى أن يعتمد على دراسات لقبائل بدائية تدين بالشرك، فحسِب أن بداية الإنسان مشركة.

وتطبيقا على ما نحن فيه، فإن أمر التسمية بأورساليموم، بمعنى مدينة الآلهة المقدسة فيما يلوح لنا، جاء من هذا الاعتبار في الابتعاد من قِبل الناس عن نهج التوحيد، فالمدينة مقدسة أصلا لوجود الأقصى فيها من غابر الزمان القديم، وهي جزء من الأرض المقدسة بنص القرآن الكريم بفعل تراث النبوة فيها، وهو تراث توحيدي لا شركي، **فيظهر لي أن طروء ودخول تقديس الآلهة فيها جاء متأخرا بعد رسوخ معنى التقديس التوحيدي فيها، فلما ابتعد الناس عن التوحيد، حافظ ساكنوها على معنى القدسية فيها، ونسوا سبب هذا المعنى، مما جاء شرع الله تعالى بيانه فيما بعد؛ إن أهل الأرض المقدسة فلسطين، نسوا التوحيد، كما نسي السابقون التوحيد، وأوجدوا فيها معاني الشرك، ولم يستطع التاريخ ولا علم الآثار أن يعرف زمن التحول من التوحيد إلى الشرك، وليس ذلك ضروريا، وإن نصوص الشرع حينما تثبت أسبقية بناء الأقصى رمز التوحيد، فإنها بذلك تكون قد بيَّنت السابق على الشرك من الناحية الزمانية، ألا وهو التوحيد، للزوم معاني التوحيد لمعاني المسجدية.**

ثم، لا يستطيع علم الآثار حاليا أن يُثبت أصلا أن تسمية المدينة باسم أورساليموم، هو أول أسمائها فعلا، وإنما قُصارى ما لدى علم الآثار أن يقول: إن هذا الاسم هو أول اسم مكتشف لها، فلربما لو ملك علم الآثار وسائل أخرى فوق وسائله، لربما اكتشف للقدس اسما أقدم من هذا الاسم الذي نحن بصدده، ولربما أيضا يستطيع علم الآثار نفسه أن يكتشف وفق قدراته الحالية أسماء أقدم من هذه الأسماء.

فمن هنا إذن يأتي استنادنا إلى هذه التسمية، أوروساليموم، لاعتبار أن القدس عربية، ومن خلال هذا التفسير الذي قدمناه، تأتي رؤيتنا الرافضة لاعتبار أن القدس كانت في

بدايتها وثنية، ولربما سُميت بلدة اسما ما بعد سكنى أهلها فيها بأزمان وأزمان، وهذا كله يلتقي مع ما انطلقنا منه أصلا من سبق بناء الأقصى فيها، مما رسخ فينا معاني إســـلاميتها من جذور النشأة.

لكننا يجب أن نقول كلاما آخر..

فهذا التحليل الذي ذكرناه، إنما يُحتاج إليه في حال ثبوت أن أورشليم تعني مدينة إله السلام، وإلا، فإن في الأمر كلاما لدى بعض الباحثين، ربما يصل إلى أن هذا الربط بالوثنية لم يثبت أصلا..

قال الدكتور محمد جلاء إدريس: ((إن محاولة الربط بين شاليم وإله وثني كنعاني مسألة فيها نظر، فالمكتشفات التي أمدتنا بأسماء آلهة الكنعانيين العديدة، لم تُشر على الإطلاق إلى وجود إله كنعاني بهذا الاسم.

ويقول: ((لم يُكتشف حتى الآن أي معبد في أورشليم يرجع إلى تلك الفترة التي ظهر فيها هذا الاسم))(١)؛ فإن صح هذا الذي نقلناه عن الدكتور محمد جلاء إدريس هنا، فإن دعوى أن التسمية الأولى للقدس تتضمن معانٍ وثنية، ستكون دعوى ساقطة، والأمـــر في تقديري يستحق البحث.

وربما يتأيد كلام الدكتور محمد جلاء إدريس بقول كارين أرمسترونج: ((ولا تتوفر لدينا أدلة مباشرة على الحياة الدينية في أورشليم إبان العصر البرونزي، فلم يكتشف علماء الآثار أي أثر لمعبد يبوسي، ولم يكتشفوا أي نصوص مماثلة لنصوص أوغاريت حتى تمدنا بالمعلومات التفصيلية عن العبادة الخاصة بجبل صهيون))(٢)، وعلى هذا، فإن الصحيح عندنا أن الشرك طارئ على القدس، وليس أصيلا، إذ كيف يُثبت المتحدثون عن آلهة في ذلك العصر القديم رؤيتهم، والحال أن الآثار لم تتحدث؟

---

(١) محمد جلاء إدريس في كتابه: أورشليم القدس في الفكر الديني الإسرائيلي (٢٢).

(٢) يُنظر: القدس مدينة واحد، عقائد ثلاث، كارين أرمسترونج، (٤٩).

ولكننا بالمجمل أوضحنا أن التاريخ القديم للعرب الكنعانيين في فلسطين كان تاريخا توحيديا، بغض النظر عن المعنى الدقيق لأول اسم أطلق على مدينة القدس، وهذا يكفي عندنا في سياق بحثنا الذي نحن بصدده.

الباب الخامس:

دعاوى الوعد الديني والحق التاريخي اليهوديَّة في الميزان

هل للأسطورة من قدرة على مواجهة الحقيقة؟

قد تملك الأسطورة قدرة على مواجهة أسطورة أخرى مثلها في ميدان تصطرع فيه الأساطير وتتنافس فيما بينها، لتحاول كل أسطورة أن تكسب مؤيدا جديدا؛ لكنها تبقى حربا بين الأساطير، أو في ميدانٍ لا يملك روّادُه غير الأساطير، بعيدا عن عالَم الحقائق، فإذا غلبت أسطورةٌ ما أسطورةً أخرى أخذها الغرور، وكساها بريق السراب، وحسبت نفسها شيئا وما هي بشيء، ولكنها حين تحسب نفسها شيئا فإنها تُقبل بغرورها الصلف، تحسب أنها بانتصارها في مواجهة أساطير أخرى، تحسب أنها قادرة على مواجهة الحقائق، فتنزل الأسطورة مغرورة بذاتها لتواجه الحقيقة؛ وهنا تكمن الكارثة التي تنزلق إلى حِمامها الأسطورة في غفلة من حملتها، لأن الحقيقة ستأخذها بغير رحمة، وستضربها في مقتل.

إنَّ تنازُلَ الحقيقة إلى مستوى مواجهة الأسطورة ضروري للغاية؛ وذلك من أجل الحقيقة ذاتها، وعليه، فسنتناول هنا أسطورتين من الأساطير اليهودية الصهيونية، ثم سنراهما في الميدان كيف تكونان!

والأسطورتان هما: الوعد الديني بالأرض المقدسة فلسطين، والحق التاريخي فيها.

وأساس الوعد الإلهي المُدَّعى، هو نصوص واردة في سفر التكوين، مفادُها أن الله تعالى وعد إبراهيم ومن بعده إسحاق ويعقوب عليهم السلام بأن تكون هذه الأرض، أرضُ كنعان: لنسل كل منهم؛ فقد ورد في سفر التكوين من خطاب الرب لإبراهيم عليه السلام: ((..إني أجعلُك أباً لجمهور من الأمم، وأُثْمِّرُك كثيرا جدا وأجعلُك أمما، وملوكٌ منك يخرجون، وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلِك من بعدِك في أجيالِهم عهدا أبديا، لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدِك، **وأعطي لك ولنسلِك من بعدِك أرض غربتك، كلَّ أرضِ كنعانَ مُلكا أبديا، وأكون إلهَهُم**))[1].

(١) الكتاب المقدس، سفر التكوين، (الإصحاح ١٧/٥-٨).

وأما فكرة الحق التاريخي، فهي تستند إلى أن الوجود اليهودي القديم في فلسطين، يُعطي حقا لليهود المعاصرين بالسيطرة على هذه الأرض وطرد أهلها منها.

وسنناقش الفكرتين: فكرة الوعد الديني وفكرة الحق التاريخي مناقشات متتالية لكل منهما، إن شاء الله تعالى..

وهاتان الدعويان تشكلان معا أهم خادم ديني للنهج الاستعماري الغربي، المؤسِّس لفكرة وضرورة احتلال فلسطين، والقاضي بأن يقف مساندا لاحتلالها، تمهيدا للوجود اليهودي الاستيطاني فيها، ومن ثم، إسلام فلسطين لُقْمة سهلة لليهود.

وسأطرح سؤالا لن أجيب عليه، بل سأتركه في ذهن القارئ، حتى لو لم يكن القارئ مسلما: هل هذا الذي يقولون إن الله وعدهم به، هل هو وَعْدٌ أم وعيد؟ أي هل هم أتوا إلى هذه الديار لتحقيق نبوءة تَعِدُهم بخير كثير، أو بعقاب مرير؟!

وهل النبوءة كاملة أم أنقصها المُحَرِّفون، فحذفوا منها ما يشير إلى كون تجميعهم في أرض الإسلام هو لاختبارهم، ولمعاقبة الغافلين بهم، ثم من بعد ذلك: لمعاقبتهم هم أنفسهم على فشلهم في الاختبار عقوبة كبرى، ذلك أنهم لَمّا ملكوا ظلموا.

إنني أرى الوعد قد يكون حاصلا لكنه منقوص، فالوعد إن كان ثمة وعدٌ، فهو: قدومهم إلى فلسطين لاختبارهم ومن ثم معاقبتهم، كما هو وارد في أوائل سورة الإسراء، ولدينا بحث مطوَّل في الموضوع.

هذا، وسأستعرض هاتين الفكرتين ثم سأناقشهما في فصول أربعة متتالية:

الفصل الأول: أسطورتا الوعد الديني والحق التاريخي.

الفصل الثاني: قراءة في نصوص التوراة التي تحمل فكرة الوعد.

الفصل الثالث: تأسيس الكُتّاب اليهود لفكرة الحق التاريخي، (نتنياهو نموذجا).

الفصل الرابع: اليهود الحاليون ليسوا بني إسرائيل.

الفصل الأول: أسطورتا الوعد الديني والحق التاريخي

ولما كان اليهود يحاولون صرف أوصاف الاغتصاب والاحتلال عما فعلوه في فلسطين؛ من استيلائهم عليها، وطردِهم لأهلها؛ فإنهم حاولوا في سبيل ذلك التنظيرَ لدعوى حق تاريخي قديم؛ فادّعَوْا أن وجودهم القديم في عهد داود وسليمان عليهما السلام، يجعل لهم في فلسطين حقا حاضرا، يبرّر لهم بناءً عليه احتلالها، ولذا فهم لا يسمونه احتلالا، وإنما استعادة واسترجاعا.

وقد مزجوا بهذه الدعوى أختاً لها، لا تخرج أبدا عما عوّدوا البشر عليه من ألوان التزوير، فقالوا: إن ثمة وعداً إلهياً صدر من الرب سبحانه، يتضمن تسجيل هذه الأرض لهم دون أهلها، ودون الحضارات التي أسهمت في تشكيل شخصيتها، ودون الناس أجمعين، ولذا، فإنهم يسعون إلى إبراز هذا الوعد الديني المُدَّعى، وذلك الحق التاريخي المُفترى، لتبرير استيلائهم عليها، وطردهم لأهلِها، وهذا مزيج من التزوير المبرمج في طرحه، وفي محاولته استقطابَ علماءَ ومؤرخين وآثاريين.

إن الأمر وصل عندهم إلى اعتبار أن أسس الصهيونية ستنهار إذا ما أُلغيت فكرة الوعد الديني، يقول ناثان فاينشتوك: ((فلو استبعدنا مفاهيم الشعب المختار والأرض الموعودة، لانهارت أسس الصهيونية))[(١)].

وعليه، فقد جاءت تعبيرات كثير من الزعماء السياسيين اليهود، تتناغم وهذه الأكذوبة، إذ حملت في ثناياها أن فلسطين هي أرضُهم، بناءً على السابقة التاريخية، أو بناءً على الوعد الديني، أو بناءً عليهما معا، فتراهم يقولون: إننا رجعنا إلى فلسطين، لا إننا اغتصبنا فلسطين، ثم هم في الوقت ذاته يصفونها بالأرض الموعودة، أو أرض الميعاد!.

---

(١) الصهيونية ضد إسرائيل، تأليف ناثان فاينشتوك، نقلا عن: روجيه جارودي في (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ٢٢٤).

وهكذا، تراوحت تصريحات زعمائهم ما بين الحديث عن فلسطين بوصفها أرضَ الميعاد، وبين الحديث عنها بوصفها أرضَ الأجداد، وبين جمع الوصفين في الآن ذاته..

فهذا الزعيم الصهيوني حاييم وايزمان يردد: ((**نحن لسنا بقادمين، ولكننا عائدون**))(١)، وهو تعبير يحمل ما يحمل في نبضاته من معاني الادِّعاء بوجود سابق، فهو عائد، والعائد هو ذلك الذي كان في مكان ما، ثم خرج منه، ثم هو يعود إليه؛ هذا هو ظلٌّ هذا التعبير القاتم.

وهذا ((إعلان الاستقلال لدولة إسرائيل الحديثة، الذي أصدره مجلس الأمة المؤقت في تل أبيب في ١٤ أيار ١٩٤٨م، أشار إلى **إعادة بناء الدولة اليهودية**))(٢)، وقد ورد في نصِّه: ((..ظَلَّ الشعب اليهودي وفِيّاً لهذه الأرض في جميع البلدان التي تشتت فيها، و لم ينقطع قط عن الصلاة والأمل **بالعودة إليها لاستعادة استقلاله القومي بدافع هذا الرابط التاريخي، جاهد اليهود طيلة القرون الماضية للعودة إلى أرض آبائهم، ولاستعادة دولتهم**..))(٣)، إذن فالرؤية رسمية، تمثل دولة ونظاما، وليست من فلتات ألسن الزعماء والسياسيين، وليست من الأماني ولا من الطموحات؛ إنها الصورة الرسمية التي تربط ما بين الماضي والحاضر في زعمهم.

ثم إن التعبير بالاستقلال القومي يحمل مفهوما نضاليا آخر؛ إن هؤلاء يرون أن فلسطين هي أرضُهم، وأنها كانت مغتصبة، وأنهم جاؤوها فحرروها، فأدى ذلك سياسيا إلى استقلالها من أيدي الغاصبين، أي من أيدي العرب.

إن هذه التعبيرات تحمل فلسفة ورؤية للعلاقة ما بين اليهود وبين الأرض العربية الفلسطينية، قائمة على الدعاوى التي لم تجد لها سندا، وهي ليست تعابير خطابية أو ذات

---

(١) نقلته الدكتورة سحر الهنيدي في مقدمة ترجمتها لكتاب اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (١٤).

(٢) اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (٢٠١).

(٣) المرجع نفسه، (٢٠٢).

هدف بإثارة الحماسة.

وجاء في سياق بيان أعدّته الوكالة اليهودية لفلسطين ردا على الكتاب الأبيض عام ١٩٣٩م وصف فلسطين بأنها ((**وطن طبيعي في أرض الأسلاف**))(١)، وهذا شكل آخر من الرسمية، فالوكالة اليهودية تمثل الرؤى الصهيونية الرسمية قبل إقامة الدولة.

وبعد حرب ١٩٥٦م والاستيلاء على سيناء، أشار بن غوريون إلى إنشاء مملكة إسرائيل الثالثة(٢).

بل، لقد أخذ الموضوع بُعدا أكبر من هذا، فلقد أشرف ديفيد بن غوريون بنفسه على تحرير كتاب سماه: (اليهود في وطنهم) ((والذي حاول كُتّابه فيه إثبات فكرة تعاقب إسرائيل منذ العصور القديمة، فعمدوا إلى صياغة تاريخ متصل لها، لم يخرج في نهاية الأمر عن كونه تاريخَ شعب فلسطين، وقد كان هم بن غوريون، وهو المستعمر الذي تؤرقه حقيقته، أن يضع تاريخا إسرائيليا لفلسطين، ليبعد صفة الاستعمار الاستيطاني عن حركته الصهيونية))(٣)، فالأمر على هذا لم يعُد سرقة لتاريخ محدود بفترة محدودة، بل هو سرقة لكل التاريخ.

ولم تعُد هذه الرؤية قاصرة على اليهود، بل شملت دولا وسياسات، عبرت عنها تصريحات لزعماء سياسيين وعسكريين؛ فهذا تشرشل البريطاني كان ينطق بهذه الرؤية اليهودية الصهيونية، وذلك حينما قال: ((**اليهود يقيمون في فلسطين بمقتضى حقهم، وليس صدقة**))(٤).

---

(١) المرجع نفسه، هامش الفصل الثاني، الموجود في نهاية الكتاب (٣٧١).

(٢) المرجع نفسه، (٢٠٧)، وفي الحقيقة لا أعرف بالضبط قصده في وصف الدولة الحالية بالثالثة، إذ يقصد بالأولى بلا شك دولة داود وسليمان عليهما السلام، وربما كانت الثانية دولة المكابيين.

(٣) ملاحظات على تطور حياة اليهود في فلسطين للدكتور الدجاني (٣/٩٣).

(٤) يُنظر: مكان تحت الشمس، لبنيامين نتنياهو، ترجمة محمد عودة الدويري، (٥٩).

إن أصحاب الباطل يقَوْن يبحثون عن قشة تحملهم في خضَمّ الصراع، تقوم على التزوير والكذب، ولذا، فقد أدخلوا ضمن دعوى السابقة التاريخية، دعوى أخرى تنبثق عنها وتدور في فلكِها؛ تتلخص في أن الوجود الإسرائيلي زمن داود وسليمان عليهما السلام في فلسطين ليس وجودا مجردا، وإنما هو الوجود الموحِّد الأول لفلسطين، فلقد استعرض كيث وايتلام جوانب من دراسة عالم الآثار التوراتي نوت، والتي صدرت عام ١٩٦٠م، والتي يرى فيها نُوث أن ((نظام داود عليه السلام السياسي كان أول قوة عظمى مستقلة في الأرض الفلسطينية السورية كما نعرفها، وقد ضمّت بشكل مباشر أو غير مباشر معظم فلسطين وسوريا، وكانت ظاهرة هائلة من وجهة نظر التاريخ العالمي..))[(١)]، ويعلق وايتلام على رؤية نوت هذه بقوله إنها: ((..تؤكد مطالبة إسرائيل التاريخية، بالماضي والحاضر، التي روّجت لها من خلال فكرة الأسبقية))، وأما فينكلشتاين، أحد علماء الآثار الإسرائيليين، فقد قال في مقاله المنشور عام ١٩٨٩م حول انبثاق الملكية الإسرائيلية[(٢)] عن الملكية التي أنشأها شاؤول في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وما تبعها من غزوات سيدنا داود عليه الصلاة والسلام: ((..**فقد نشأ للمرة الأولى كيانٌ سياسي محلي مستقل في فلسطين**..))[(٣)]، وقد اعتبر وايتلام هذه الدعوى تدعيما لدعوى الحق الإسرائيلي المعاصر

---

(١) عالم الآثار التوراتي نوت، كما نقله عنه وايتلام في (اختلاق إسرائيل القديمة)، (٢٢٢) ويُنظر ذِكر نوت هذا في التعليق التالي.

(٢) كما نقله عنه وايتلام في (اختلاق إسرائيل القديمة)، (٢٤٧)، ويُنظر الكتاب نفسه (٢٥٠) حيث يربط وايتلام بين دعاوى فنكلشتاين عن استيطان قديم إسرائيلي، ودعاوى الحق التاريخي المعاصرة عند اليهود، ثم يردّ (صفحة ٢٥١) على فنكلشتاين زعمه قائلا: ((..عن طريقة تقديمه للمعلومات الأثرية المتعلقة بتطور التغيير في الاستيطان في منطقة تلال فلسطين والأطراف الصحراوية، لا تتضمن أي شيء يسمح بالربط بينها وبين شاؤول أو صموئيل، وبذلك يظل هذا الرأي مجرد افتراض لا يدعمه فينكلشتاين بأي دلائل تربط التراث التوراتي بالمعلومات الأثرية)).

(٣) وفي الإطار نفسه يأتي قول فنكلشتاين، كما ذكره وايتلام في: اختلاق إسرائيل القديمة (٢٥١) عن دعوى توسع منطقة نفوذ المملكة إلى الساحل والسهول الخصبة في الشمال وفي الجليل أن

في الأرض على أساس الحق التاريخي.

وفي الإطار نفسه يقول دوثان: ((**لقد كان الإسرائيليون كقومٍ هم الفئة الإثنية الوحيدة التي تمكنت من إنشاء دولة في هذه الأرض**، دولة مستقلة لم تتبع أيا من الإمبراطوريات الكبيرة، والتي لم تنضمّ إلى أي كتلة فضفاضة من دولة المدينة، كتلك التي كانت منتشرة أثناء الفترة الكنعانية))(١).

ونحن نقول: وهل وجود دولة ما في مكانٍ ما يُلغي حق أهل هذا المكان به، بسبب أنهم لم يُنشئوا فيه دولة؟ إن داود نفسه لم يطرد اليبوسيين من فلسطين، بعد أن صار ملِكا.

وأما الشطر الآخر من الأكذوبة، وهو الادعاء بوعد رباني، فهذا ما يُرى في تصريحاتهم وتعبيرات زعمائهم.

فقد بلغ الأمر بغولدا مئير أن تقول، وبكل ثقة: ((**لقد وُجد هذا البلد تحقيقا لوعد أعطاه الرب ذاته، فمن المضحك أن نسأله أن يقدم لنا مبررا لمشروعيته**))(٢)، فالقضية عندها محسومة دينيا وفلسفيا، إذ ليس من حق أحدٍ أن يبحث عن المبرر، ما دام الله قد وعد.

وهذا موشي ديان، رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي أيام حرب ١٩٦٧م، والذي رأس فيما بعد وزارة الدفاع اليهودية، قال معبِّراً عن هذا الشطر الآخر من الدعوى: ((إذا كنا نملك التوراة ونعتبر أنفسنا شعب التوراة، **فمن الواجب علينا أن نمتلك جميع الأراضي المنصوص عليها في التوراة**))(٣)، وقال أيضا، فيما يمكن أن يكون تعبيرا عن

ذلك يمثل توحيداً لمعظم البلاد: ((تحت حكم محلي واحد **للمرة الأولى في التاريخ**)).

(١) نقلت كلام دوثان عن: وايتلام في كتابه (اختلاق إسرائيل القديمة ١٠٦).

(٢) صحيفة لوموند الفرنسية، عدد (١٥) تشرين أول ١٩٧١م، نقلا عن فلسطين أرض الرسالات الإلهية، روجيه جارودي، (٢٤٢).

(٣) صحيفة الجيروسالم بوست، ١٠/٨/١٩٦٧م، نقلا عن الأساطير المؤسسة للسياسة الصهيونية

مزيج من الدعويين، دعوى الحق التاريخي، ودعوى الوعد الرباني: ((إذا كان لنا الكتاب المقدس، ونحن نعتبر أنفسنا شعب الكتاب المقدس، **فيجب أن تكون لنا أيضا الأرض الكتابية، أرض القضاة، والكهنة، أرض أورشليم، وحبرون، وأريحا، وأراضٍ أخرى أيضا**))[(١)].

إن هذه الافتراءات المستندة على التوراة، جعلت رايت يفلسف قصة الوعد بجعله هدية ربانية، وفي هذا المعنى يقول: ((إن احتلال أرض كنعان الذي بواسطته تمكنت إسرائيل من تأمين أرض لها، قد فُسر على أنه هدية إلهية لميراث هذه الأرض،...، وأما الأرض التي كانت هدية من الإله، فيُمكن أن تؤخذ منهم في أي وقت في المستقبل))[(٢)]، ويعلق وايتلام: ((فهنا لا يتعلق الحديث بغزو بل بهدية، ولا بتجريد السكان من أرضهم بل بتملك أرض أعطاها لهم الإله)).

واللافت للنظر أن اليهود من أصحاب المشروع الصهيوني الغربي جميعا يتفقون دونما خلاف على فكرتي أو أسطورتي الوعد الديني والحق التاريخي، سواء كانوا متدينين، أو لم يكونوا متديّنين، أما المتدينون فهم يؤمنون به تديّنا واتباعا للتوراة كدين يؤمنون به، وأما الزعماء العلمانيون والملاحدة الذين لا يؤمنون بالدين، فهم ((يؤمنون بضرورته في قضيتهم، ليقينهم أن مفاهيم الشعب المختار والأرض الموعودة لو أُلغِيت لانهار أساس الصهيونية))[(٣)] برُمَّته.

للبروفيسور روجيه جارودي، (٤١).

(١) صحيفة الجيروسالم بوست، ١٩٦٧/٨/١٠م، نقلا عن فلسطين أرض الرسالات الإلهية، روجيه جارودي، (٢٤٢).

(٢) يُنظر كلام رايت في: اختلاق إسرائيل القديمة، لوايتلام، (١٥٩)، ورايت هذا هو الذي يقول عنه وايتلام: ((شخصية كبيرة في الندوة التوراتية)).

(٣) حقيقة الصراع بين المسلمين واليهود على أرض فلسطين للأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي، المطبوع ضمن الكتاب الذي أصدرته الندوة العالمية للشباب الإسلامي، بعنوان: فلسطين

إن هذا الفكر الذي آمن به المتدينون والملحدون من أصحاب المشروع الصهيوني، هو ما دعا المنظمات الصهيونية إلى تهجير يهود العالم إلى فلسطين، وطرد شعبها منها.

ومن هنا، وفي هذا الإطار الفكري الاستعماري القائم على الخرافة والأسطورة؛ صدر في إسرائيل قانون يسمى قانون العودة عام ١٩٥٠م، والذي قوامه: أن لكل يهودي الحق بالهجرة إلى فلسطين على اعتبارها وطنَه، ومن ثم سينال وفق هذا القانون الجنسية الإسرائيلية لمجرد وصوله إلى إسرائيل.

وهذا الفكر الخرافي هو الذي أدى برئيس الحكومة الإسرائيلية الأولى، ديفيد بن غوريون، إلى إصدار (**فتواه!!**) القاضية بوجوب هجرة اليهود إلى فلسطين، أو إسرائيل حسب قولِه، ففي المؤتمر الخامس والعشرين للصهيونية العالمية الذي عُقد في القدس المحتلة في ٢٥/١٢/١٩٦٠م، تحدث بن غوريون في ختامه، وهو لا يزال رئيس الحكومة الإسرائيلية فقال: ((**إن كل يهودي يجب أن يهاجر إلى إسرائيل، وإن كل يهودي أقام خارج إسرائيل منذ إنشائها، يُعتبر مخالفا لتعاليم التوراة، وإن هذا اليهودي يكفر يوميا باليهودية**))[1].

وفي حال قراءة القارئ لكثير من الأدبيات الإسرائيلية التي تتحدث عمّا يزعمون أنه سلب الأرض الإسرائيلية (فلسطين) من اليهود، لا بد أنك ترى تعبيرات من شأنها أن تستدرَّ العطف الإنساني على هؤلاء اليهود الذين طُرِدوا من أرضهم، هذا لو كانت هذه الفكرة معبرة عن الحقيقة؛ فعلى سبيل المثال، يكثر في كتاب بنيامين نتنياهو (مكان تحت الشمس) الحديث عن أن هذه الأرض، أرض إسرائيل) سُلبت من اليهود وطردوا منها بغير حق.

والوعد الحق، (١٣).

(١) حقيقة الصراع بين المسلمين واليهود على أرض فلسطين للأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي، المطبوع ضمن الكتاب الذي أصدرته الندوة العالمية للشباب الإسلامي، بعنوان: فلسطين والوعد الحق، (١٣).

فهو يتحدث عن ((العودة إلى الأرض التي أُخرجوا منها رغم إرادتهم، معزز بتعاطف العالم مع المعاناة الفظيعة التي لحقت بالشعب اليهودي أثناء فترة تشرده الطويلة))[١]، ويتحدث عن كثير من أقطاب الحركة الثقافية العالمية أنهم أكدوا ((أن اليهود عوقِبوا على ذنب لم يقترفوه، وسُلبت حقوقهم بدون مبرر..))[٢]، ((وكان الحنين إلى الوطن، يمثل بالنسبة للشعب اليهودي سبب بقائه وصراعه الفريد من نوعه، كان تعبيرا لرغبته في العودة، **وإقامة وطنه القومي على أرضه القديمة، التي يحتلها الغرباء**))[٣]..

ولقد كانت التوراة أهم خادم ديني لفكرتي الوعد الديني والحق التاريخي، أو إن شئت فقل: أهم خادم للنهج الاستعماري الغربي الذي انطلق من منطلقات كان التوراة من أهمها.

فلقد جرى الادِّعاء أن احتلال فلسطين، ((والتوسع فيها عن طريق المستوطنات، هو مجرد وفاءٍ وتحقُّقٍ للنبوءات التوراتية))، وهذا أدى بالتوراة إلى أن تُقرأ ((**لتسوِّغ احتلال فلسطين**))[٤].

ومن أجل وضع هاتين الأسطورتين تحت منظار النقد، فلقد كان لا بد من قراءة سريعة ناقدة، لبعض النصوص التوراتية المتضمنة فكرة الوعد؛ ثم كان لا بد من استعراض فكرة الحق التاريخي، كما يؤصل لها أصحابها، وذلك لتقع في التصور موقعا صحيحا، كما أراد لها أصحابها.

كل ذلك لنمضي قُدُما في نقد هاتين الأسطورتين.

---

(١) بنيامين نتنياهو في كتابه: (مكان تحت الشمس)، (٤٤).

(٢) المرجع نفسه، (٤٩).

(٣) المرجع نفسه، (٦٥).

(٤) سرقة أمة، تأليف: وليم و. بيكر، ترجمة: سهيل زكّار، وعدنان برنيّة (٨١).

الفصل الثاني: قراءة في نصوص التوراة التي تحمل فكرة الوعد

نود قبل كل شيء أن نبين أن اليهود ((يرون أن العهد المقدس الذي منحه الرب للنبي إبراهيم،...، أساس الشرعية التاريخية لوجودهم، ولا يمكن إلغاؤه من قِبل أية قوة أخرى في أي زمان ومكان))(١).

وعليه، فلا بد من القيام بقراءة لهذا الوعد المزعوم والمُدَّعى، لنعرف من سطوره مدى قدرته على الانتساب إلى السماء..

وسنرى أن نصوص التوراة حاملة أسطورة الوعد بالأرض، تتضمن كثيرا من التناقضات في داخلها، ومع ما هو معروف لدى المؤمنين بالله سبحانه من صفاته، كالصدق والرحمة والعدل؛ وسنذكر هنا القليل من هذه التناقضات، ولا داعي لذكر للكثير منها.

وسنرى هنا أن هذا الوعد إفراز لمرحلة السبي البابلي، يتبع في تكوينه ظروفا دفعت إلى زجّ فكرة الوعد في التوراة التي لم تَزَلْ إلى ذلك الحين في طور التكوين.

سنقسم هذا الفصل إلى مبحثين اثنين:

المبحث الأول: قراءة نصيّة للوعد المُدّعى في التوراة.

المبحث الثاني: المنشأ اليهودي البابلي لفكرة الوعد.

وقراءتنا لها هنا تتبع ترتيب وضعها في التوراة، أي حسب ترتيب الإصحاحات في سفر التكوين تحديدا، هذا بالمجمل كما سيرى القارئ، وفائدة اتباع هذا الترتيب هي الوقوف نوعا ما على تطوُّر فكرة الوعد الديني.

---

(١) يُنظر: الجسر، الأحزاب الدينية الإسرائيلية، تأليف: حمال البدري، (٢٦).

المبحث الأول: قراءة نصّيّة للوعد المُدَّعى في التوراة

أول ما يمكن أن يلتفت إليه القارئ لهذه الوعود المنسوبة إلى الرب سبحانه وتعالى، هو كاشف الزَّيف الذي تتضمنه هذه الوعود، إذ هي حين توضع في سياق واحد، فلا بد أن يتبين عُوارُها وتُكتشف مواطن الخلل فيها.

أولا: هل يمكن أن يكون الله تبارك وتعالى متناقضا، يُلغي في كل جيل ما قد قرَّره في الجيل الذي سبقه؟

لو سألنا يهوديا هذا السؤال، لَما كان بعيدا أن يجيب بالإيجاب، فمكانة الله تعالى في نفسه مكانة من قد ينسى ويُصرَع ويُغلب، وبالتالي، فلا بأس في عقل اليهودي أن يضاف إلى الله تعالى وصف التناقض ونسيان الوعود.

إن الله تعالى، أو الرب، بتعبير التوراة، كان قد وعد إبراهيم عليه السلام أولا بأن تكون أرض شكيم أو بقعة منها، له ولنسله من بعده، ففي سفر التكوين: ((**واجتاز أبرام في الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة مورة، وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض، وظهر الرب لأبرام، وقال: لنسلك أُعطي هذه الأرض**))(١)، ومن المنطقي جدا أن يقول: لنسلك أعطي هذه الأرض، ولا يقول: لك ولنسلك، ذلك أن إبراهيم، كما في سفر التكوين نفسه، كان قد اشترى بقعة لقبره، فلا يمكن أن يكون إبراهيم إذن داخلا في الوعد، إذ لو دخل فيه لَما صحَّ أن يشتري بقعة، أفيشتريها من مُلكه؟!

ثم كان الوعد لإبراهيم عليه السلام ولذريته من بعده، وكان الموعود به أرض كنعان أو بقعة منها فحسب، إذ لم يُحدِّد السفر الأرض المقصودة بالوعد، فقد ورد في سفر التكوين: ((وقال الرب لأبرام بعد اعتزال لوطٍ عنه: ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه، شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، **لأن جميع الأرض التي أنت ترى، لك أعطيها**

---

(١) سفر التكوين، (الإصحاح ١٢/٦-٧).

ولنسلك إلى الأبد، وأجعل نسلك كتراب الأرض، حتى إذا استطاع أحد أن يعُدَّ تراب الأرض، فنسلك أيضا يُعدُّ، قم امشِ في الأرض طولها وعرضها، لأني لك أعطيها، فنقل أبرام خيامه وأتى وأقام عند بلوطات ممرا التي في حبرون»[1]، وأرجو أن يلحظ القارئ هنا أن الوعد المُدَّعى أعطى الأرض لإبراهيم ونسله إلى الأبد، والسؤال: هل فعلا صدق هذا الوعد؟ إن كان قد أُعطِيَها إلى الأبد، فهل أخذها هو ونسله إلى الأبد؟

إن قلنا إن المقصودين بهذا الوعد هم بنو إبراهيم عليه السلام، وقلنا إن العرب الحاليين، وهم سكان الأرض الأصليون هم بنو إبراهيم، فلربما كان هنالك مخرج لإثبات صحة هذا النص، إذ لا يمكن أن يكون صحيحا من الناحية التاريخية إلا في حال كون العرب هم المقصودين به، وفي حال اعتبارنا أن العرب بقوا مالكين لهذه الأرض، وفي حال اعتبارنا أن العرب الحاليين، سكانها الأصليين هم من العرب.

لكن اليهود يفسرون الأمر على غير هذا، إنهم يقصدون من وراء هذا الوعد أنه خاص ببني إسرائيل فحسب..

وعليه، فنسأل: هل نال بنو إسرائيل الأرض إلى الأبد، حتى يصح الوعد تطبيقيا من الناحية التاريخية؟ الجواب: لا، لأن بني إسرائيل لم يملكوها إلا في فترة وجيزة من تاريخها، فأين الوعد الأبدي إذن؟

والسؤال نفسه نسأله عن مصداقية الوعد تاريخيا، حينما يكون النبي المخاطب به داخلا فيه، أي حينما يكون إسحاق ويعقوب عليهما السلام داخلَين فيه، فهل ملكاها تاريخيا؟

والجواب أيضا: لا، إذ إن إسحاقَ كان من سكانها ولم يكن من مُلاكها، وكذا يعقوب عليه السلام، وما قلناه في مناقشة هذه المسألة بالذات أثناء مناقشة الوعد مع إبراهيم نقوله هنا..

---

(١) المرجع نفسه، (الإصحاح١٣/١٤-١٨).

إن صيغة الوعد التأبيدية دليل من داخل النص، مع مقارنته بالتاريخ أنه لم يصدر من رب العزة سبحانه، ولو صدر لصدّقه التاريخ!!

ثم، عودة إلى سفر التكوين..

ففيه أيضا في رؤيا إبراهيم عليه السلام: ((وقال له أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض، لترثها))[1]، وربما يكون المشار إليه هنا: كل أرض كنعان، ولِمُفسري التوراة أن يتزيَّدوا كما يشاؤون، إذ هي وظيفتهم التي ورثوها عن الكهنة والأحبار، مؤلفي التوراة.

ثم كان الوعد، وبصراحة، لذرية إبراهيم عليه السلام، وكان الموعود به: الأرض الكبيرة الواقعة فيما بين الفرات إلى النيل، ففي التكوين أيضا: ((ولما صارت الشمس إلى المغيب، وقع على أبرام سبات، وإذا رَعبة مظلمة عظيمة واقعة عليه، فقال لأبرام: أعلمُ يقينا أن نسلك سيكون غريبا في أرض ليست لهم، ويُستعبدون لهم فيُذلونهم أربع مائة سنة، ثم الأمةُ التي يُستَعبدون لها أنا أُدينُها، وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيلة، وأما أنت فتمضي على آبائك بسلام وتُدفن بشَيبة صالحة، وفي الجيل الرابع يرجعون إلى ههنا، لأن ذنب الأموريين ليس إلى الآن كاملا، ثم غابت الشمس فصارت العتَمة، وإذا تنّور دخانٍ ومصباحُ نارٍ يجوز بين تلك القطع.

((وفي ذلك اليوم، قطع الرب مع أبرام ميثاقا قائلا: **لنسلك أُعطي هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات**..))[2]، وواضح من هذا النص أنه يجعل الوعد شاملا لكل أبناء إبراهيم، وأن الأرض الموعودة هي كل الأرض الواقعة فيما بين الفرات والنيل.

وأَلَمَحُ هنا ما يمكن أن نعُدَّه جهلا من الكاتب بالجغرافيا القريبة منه، فهو قال، ناسبا

---

(١) المرجع نفسه، (الإصحاح ١٥/٧).

(٢) المرجع نفسه، (الإصحاح ١٥/١٢-١٨).

كلامه إلى الرب سبحانه وتعالى: ..من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات..، أفلا يعني هذا أن الكاتب لم يكن يعلم أن نهر النيل أكبر من نهر الفرات، وإلا، فلِمَ وصف نهر الفرات بالكِبَر، ونزع هذا الوصف عن نهر النيل؟

وبعد أن ذكر سفر التكوين في الإصحاح السادس عشر مولد إسماعيل من هاجر جارية ساراي زوج إبراهيم عليه وعلى أهل بيته سلام الله؛ وذكر السفر أن عمر إبراهيم كان عند مولد إسماعيل له ستا وثمانين سنة، فإذا بالسفر يذكر في الإصحاح السابع عشر ما يفيد تقليصا للأرض الموعودة، ففي الإصحاح (١٥) كانت الأرض الموعود بها كل الأرض مما بين النيل والفرات، وهنا تقلصت الأرض فصارت أرض كنعان فحسب..

ذلك أنه عندما كان عمر إبراهيم عليه السلام تسعا وتسعين سنة قال الله له : "أما أنا فهو ذا عهدي معك، وتكون أبا لجمهور من الأمم، فلا يدعى اسمك بعدُ أبرام، بل يكون اسمك إبراهيم، لإني أجعلُك أباً لجمهور من الأمم، وأُثمِّرُك كثيرا جدا وأجعلُك أمما، وملوكٌ منك يخرجون، وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلِك من بعدِك في أجيالِهم عهدا أبديا، لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدِك، **وأعطي لك ولنسلِك من بعدِك أرض غربتك، كلَّ أرضِ كنعانَ مُلكا أبديا، وأكون إلهَهُم**"(١).

ونحن الآن لا زلنا بعدُ في شمول الوعد لبني إبراهيم أجمعين، ولمسنا هنا تغييرا في اسم إبراهيم، فقد تحول الاسم من أبرام إلى إبراهيم، بأمر الله سبحانه.

وفي الإصحاح نفسه يذكر أنه حين بشره الله تعالى بأن ساراي زوجه ستلد له ولدا، سقط إبراهيم على وجهه وضحك وقال في قلبه: "هل يولد لابن مائة سنة؟"(٢).

وها نحن نصادف مشكلة في العدالة والنسيان والرحمة والحكمة..إلخ.

---

(١) المرجع نفسه، (الإصحاح ١٧/٤-٨).

(٢) المرجع نفسه، (الإصحاح ١٧/١٧)، وفي الإصحاح الحادي والعشرين، آية ٥: "وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحاق ابنه".

فإن الله، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا، إما أن يكون قد نسي أن الوعد يشمل كل بني إبراهيم حين صدر منه هذا الوعد مرات عديدة، وإما أن له نزوة، والله هنا بشر وليس ربا حقيقيا، فدعته نزوته إلى دحْر أقوام كُثُر عن استحقاق هذا الوعد الذي صدر منه بدعوى التوراة، فجاء هنا ليختصره في نسل إسحاق عليه السلام.

ففي التكوين هذا المشهد فيما بين إسحاق والرب: "وظهر له الرب وقال: لا تنزل إلى مصر، اسكن في الأرض التي أقول لك، تغرَّب في هذه الأرض، فأكونَ معك وأباركَك، **لأني لك ولنسلك أُعطي جميعَ هذه البلاد، وأَفي بالقسم الذي أقسمتُ لأبيك إبراهيم**، وأُكثِّرُ نسلَك كنجوم السماء، وأعطي نسلك جميع هذه البلاد، وتتباركُ في نسلِك جميعُ أمم الأرض"[1]، ويلمح القارئ أن الرب المزعوم يذكر الوفاء، فهو يفي بالوعد الذي قطعه لإبراهيم، **أين الوفاء وقد أخرج كل أبناء إبراهيم من استحقاق هذا الوعد، وجعله خاصا بإسحاق وذريته؟!**

وفيه عن إسحاق عليه السلام: "وأقيم عهدي معه عهدا أبديا لنسله من بعده،...، **ولكن عهدي أقيمه مع إسحاق الذي تلده لك سارة** في هذا الوقت في السنة الآتية"[2].

وسلسلة التناقض والوهم والظلم والتراجع مستمرة...

ويتقلص الموعود له مرة أخرى، فهو الآن شامل لذرية يعقوب عليه السلام فحسب، **ولكن الموعود به أيضا تقلص للغاية، إنه بيت إيل**، لكن ما يدعو إلى اعتبار الموعود به أكبر من بيت إيل أن الوعد يقول: "..وتمتدُّ شرقا وغربا وشمالا وجنوبا.."، ولكن: هل المقصود في: "وتمتدُّ" أن نسله يمتد، أو أن الأرض هي التي تمتدُّ؟

وفي ذكر رؤيا مزعومة ليعقوب عليه السلام يرى فيها الرب، وإذا بالرب يقول ليعقوب: "فقال: أنا الرب إله إبراهيم أبيك، وإله إسحاق، **الأرض التي أنت مضطجع**

---

(١) المرجع نفسه، (الإصحاح ١٧/١٩-٢١).

(٢) المرجع نفسه، (الإصحاح ٢٦/٢-٤).

عليها أُعطيكها لك ولنسلك، ويكون نسلُك كتراب الأرض[1]، وتمتد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا..))[2]، ثم يذكر السفر نفسه بعد ذلك أن يعقوب سمى هذه الأرض: بيت إيل.

ثم إننا نقرأ في سفر التكوين ذاته: ((وظهر الله ليعقوب أيضا حين جاء من فدّان آرام وباركه، وقال له الله: اسمُك يعقوب، لا يُدعى اسمُك فيما بعدُ يعقوبَ، بل يكون اسمُك إسرائيلَ، فدعا اسمَه إسرائيل، وقال له الله: أنا الله القدير، أَثْمِرْ واكْثُرْ، أمةٌ وجماعةُ أممٍ تكون منك، وملوك سيخرجون من صلبك، **والأرضُ التي أعطيتُ إبراهيمَ وإسحاقَ، لك أعطيها، ولنسلك من بعدك أعطي الأرض**))[3].

إن هذا الوضع المتناقض الذي نحن بصدد بيانه، قد أفاد السياسة الإسرائيلية، وكان منبعا للتنظير الفكري والسياسي والأيديولوجي عند اليهود في العصر الحديث..

يقول إسرائيل شاحاك: ((ويجري التداول اليوم بعدد من الصيغ المتباينة لحدود أرض إسرائيل التوراتية التي تفسرها مراجع حاخامية كحدود تعود في الوضع المثالي للدولة اليهودية، والصيغة الأبعد أثرا تشمل ضمن هذه الحدود: **كامل سيناء، وجزءا من شمالي مصر وحتى ضواحي القاهرة في الجنوب؛ كامل الأردن، وجزءا كبيرا من العربية السعودية؛ كامل الكويت، وجزءا من العراق جنوبي الفرات في الشرق؛ كامل لبنان وسوريا مع جزء كبير جدا من تركيا، حتى بحيرة فان في الشمال؛ وقبرص في الغرب.**

---

(١) هل هذا صحيح؟ وإلا، فما معنى أن اليهود هم أقل أصحاب الديانات عددا، إن عددهم لم يتجاوز طيلة القرن العشرين ستة عشر مليونا، فأين هم الذين تساوي كثرتهم كثرة تراب الأرض؟ أوليس هذا دليلا آخر على أن هذا الكلام لا يمكن أن يكون كلام الله؟

بالتأكيد نحن لا نقصد أن اليهود الحاليين هم من بني يعقوب عليه السلام، ولكننا جاريناهم بدعواهم أنهم بنو يعقوب، وسيأتي تفصيل الحديث في هذه المسألة قريبا جدا إن شاء الله تعالى.

(٢) المرجع نفسه، (الإصحاح ٢٨/١٣-١٥).

(٣) المرجع نفسه، (الإصحاح ٣٥/٩-١٢).

((وتنشر في إسرائيل، وغالبا بمعونات مالية من الدولة أو بأشكال أخرى من الـدعم؛ كمية كبيرة من الأبحاث والمناقشات الثقافية القائمة على أساس هذه الحدود، والمشمولة في الأطالس والكتب والمقالات، وفي أشكال شعبية أكثر من أشكال الدعاية))(١).

وهم كلما رأوا ما يسمح لهم بشكل من أشكال الوعد دعَوْا إليه أو وجدوا من يدعو إليه، فكل ما يريدون موجود في التوراة، ما دام التناقض التوراتي يسمح به.

وثمة مؤامرات مذكورة في السفر، منسوبة إلى أولياء الله الصالحين، فهي تنسـب إلى بعضهم غفلة وإلى آخرين كيدا وتزويرا، ومجمل الأمر أن يعقوب عليه السـلام، عـدا، حاشاه من ذلك، على حق أخيه عيسو في بركة والدِهما إسحاق، وتم الأمر تمامـا(٢)، أو على تعبير الموسوعة الفلسطينية: نال بركات والده بمساعي والدته(٣)؛ ولكن السؤال: فأين الله من هذا الانتزاع للبركة، وهل تتم البركة دون إرادته سبحانه، وكيف تستمر البركة في يعقوب وذريته وهي مأخوذة بغير رضى الله سبحانه، وكيف تصير محور الحقوق فيما بعد تشريعا وتأريخا وتربية والله غير راضٍ عنها، إلا إذا كان يهوه هو الراضي، لكن يهوه ليس

---

(١) تاريخ اليهود، الديانة اليهودية، وطأة ٣٠٠٠ عام، تأليف: إسرائيل شاحاك، (٢٩).

(٢) ملخص القصة كما في الإصحاح السابع والعشرين من سفر التكوين: أن إسـحاق عليـه السلام أراد أن يبارك ولده عيسو، وطلب منه لأجل نيل البركة أن يخرج ويصطاد ويأتي بطعام لأبيـه، لأجل أن تباركه نفسه، فسمعت أم يعقوب كلام إسحاق مع عيسو، فذهبت من فورها إلى يعقـوب، وطلبت منه تنفيذ أمر أبيه وإحضار الطعام له وإدخاله عليه، ليتظاهر أمام أبيه بأنه عيسو، فينال البركة بدل عيسو، واحتج يعقوب أن عيسو ذو شعر كثيف، وأن إسحاق سوف يعرف أنه ليس عيسو مـن ملمس الجلد الذي ليس عليه شعر، فتحايلت وألبست يديه وعنقه جاعد شاة وأدخلته عليه، فـدخل وقدم الطعام مدَّعيا أنه عيسو فنال البركة، ولما جاء عيسو ودخل علي أبيه إسحاق وقدم الطعام، قـال له: من أنت؟ قال: أنا عيسو، وكان مما قاله إسحاق لعيسو: قد جاء أخوك، أي يعقوب، بمكر وأخـذ بركتك.

يُنظر: سفر التكوين، (الإصحاح ٢٧/١-٤٠).

(٣) الموسوعة الفلسطينية، القسم المعجمي، (١٨٤/٣).

الله؟

ثانيا: إن العدالة ها هنا منتفية تماما، ذلك أنها إن كانت موجودة في عهد الله لإبراهيم عليه السلام، فهي غير موجودة فيما بعد، إذ إن أصحاب الاستحقاق، حسب الوعد المُدَّعى، قد صُرِفوا عن حقهم، من أول يوم جُدِّدَ فيه الوعد بعد إبراهيم عليه السلام.

إن أصحاب الاستحقاق حسب الوعود الأولى، كانوا كل أبناء إبراهيم عليه السلام[1]، وهم ثمانية حسب الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين نفسه، وهم سيدنا إسماعيل وسيدنا إسحق وأبناء قطورة الستة؛ أما سيدنا إسحاق، فهو الابن الوحيد الذي يدّعي اليهود أنه يهودي، فعلى هذا، فإن نصيب اليهود حسب هذه الدعوى هو فقط ثُمن التركة، لأن لإبراهيم ثمانية أولاد، ولد يهودي حسب دعوى اليهود، وسبعة عرب[2]، فإن كانت الأرض لنسل إبراهيم فعلا، فإن سبعة أثمانِها للعرب، والثمن الثامن سيكون من نصيب بني إسحاق، بشرط أن يكونوا فعلا من بني إسحاق عليه السلام، وإلا، كما سيأتي، فاليهود المعاصرون ليسوا من بني إسحاق بالمجمل.

إن سفر التكوين يقرر فيما لا يقل عن اثني عشر موضعا أن إسماعيل هو ابن إبراهيم[3] عليهما السلام، إذن لا بد أن يشمله الوعد إن كان ثمة وعدٌ، ويجب ألا يُصرف عن استحقاقه لصالح أبناء إسحاق أو بني يعقوب عليهما السلام.

وما دام اليهود قد عدَوْا على حق أبناء إسماعيل، ونسبوا هذا العدوان إلى كتابهم المقدس، فهذا دليل أن هذا الكتاب يرسخ أسباب الظلم بين بني البشر، فكيف يكون من عند الله؟!

---

(١) يُنظر: وعد التوراة، من أبرام إلى هرتزل، تأليف: موسى مطلق إبراهيم، (٣٣).

(٢) يُنظر: المسجد الأقصى المبارك وهيكل بني إسرائيل، تأليف محمود مصالحة، (١).

(٣) تفنيد ادِّعاءات اليهود التوراتية في فلسطين للأستاذ الشيخ أحمد ديدات، المطبوع ضمن الكتاب الذي أصدرته الندوة العالمية للشباب الإسلامي، بعنوان: فلسطين والوعد الحق، (١٩).

إن النصّ التوراتي يحاول أن يُحرِّف حتى هذا المكذوب في أصله على الله سبحانه، لينتهي بذلك إلى إقرار سرقة الأرض من أهلها، لا لصالح بني إبراهيم جميعا، ولا لصالح بني إسحاق أجمعين، وإنما فقط لصالح بني يعقوب عليهم السلام؛ وإن جئنا إلى الحقيقة قلنا: **إن الفكر التوراتي المنبثق عن هذه النصوص التوراتية، لم تؤسس لسرقة الأرض لصالح بني يعقوب عليه السلام، وإنما لصالح اليهود الذين يدَّعون وَصلا بيعقوب، ويعقوب لا يقر لهم بذاك.**

ثالثا: ثم إن الأصح أن هذا الشكل المتناقض في الوعد وسعته وضيقه، وشموله موعودين في كل جيل يختلفون عن الأجيال سواه؛ الأصح أن هذا دليل على تعدد مؤلفي التوراة، بل على عدم قراءتهم ما كان موجودا في الجيل الذي سبقهم(١)، بل على تعدد عصور تأليف التوراة؛ **فكل كاتب يأتي ويكتب ما يراه ضروريا لفكرة يريد أن يبثها ويجعلها دينا، ففي مرة رأى أن يجعل الكاتب الأول الوعدَ مقلَّصا في الأرض، وشاملا للذرية، ثم بعد ذلك يتوسع في الأرض ويتقلص في الذرية.**

وهكذا، فلا بد أنك ترى في كل صفحة تتحدث في الوعد، شيئا متناقضا في الوعد نفسه، ومنافيا لبعض الموجود في صفحة أخرى.

لأنه ليس كلام الله، فقد وجدنا فيه اختلافا كثيرا.

رابعا: ثم، كيف يعِدُ الله إبراهيم عليه السلام بأن لذريته ما بين النيل والفرات، ثم تكون ذريته مستعبدة في مصر، أرض النيل؟

ففي التكوين أن الله قال لأبرام: «أعلمُ يقينا أن نسلك سيكون غريبا في أرض ليست لهم، ويُستعبدون لهم، فيُذلونهم أربع مائة سنة»، ثم بعد ذلك يقول السِّفر نفسه: «وفي ذلك اليوم، قطع الرب مع أبرام ميثاقا قائلا: <u>لنسلك أُعطي هذه الأرض، من نهر مصر إلى</u>

---

(١) يُنظر: وعد التوراة، من أبرام إلى هرتزل، تأليف: موسى مطلق إبراهيم، (٤٠).

النهر الكبير نهر الفرات..»[1]، كيف يكونون مستعبدين في أرض هي لهم، ألم يكن الله القادر على إنفاذ الوعد ألا يستعبدهم فيها؟!

ثم هم خرجوا من مصر، ارض الميعاد حسب هذا النص الذي بين أيدينا، ليذهبوا إلى الأرض التي وعدهم الله إياها، أوليسوا في مصر في أرض الميعاد، أم: هل خرجوا من أرض الميعاد إلى أرض الميعاد، ولِماذا تركوا أرض الميعاد المصرية؟!

خامسا: هذا، ويلاحِظ روجيه جارودي أن بعض نصوص الوعد المُدَّعى الوارد في سفر التكوين، إنما هو وعْدٌ وعَدَ الله به إبراهيم قبل أن يولد إسحاق، بل إن الذي كان موجودا حينها هو إسماعيل عليهم جميعا الصلاة والسلام، أي أن بني إسرائيل، أي بني يعقوب، لا ينالون حظا من هذا الوعد[2]، فإن نالوا حظا من هذا الوعد فهم ينالونه بالتبعية لا بالأصالة، لأن الذي يناله بالأصالة هو من كان موجوداً حين صدور الوعد، وهو إسماعيل عليه السلام.

إن أوائل المرات التي تلقى فيها إبراهيم عليه السلام الوعد من الله تعالى، لم يكن له من ولد إلا إسماعيل عليه السلام، وفيما بعدُ وُلِد إسحاق عليه السلام، فإن كان الوعد شاملا لأحد بداهة، فهو شامل لإسماعيل وأبنائه، الذين هم أول الناس تعدو عليهم نصوص التوراة، فتلغي حقهم في الوعد المُدّعى.

ففي الإصحاح (١٧) من سفر التكوين أن أبرام سيتغير اسمه إلى إبراهيم، وفي نفس السفر جاءت البشرى لإبراهيم بإسحاق عليهما السلام، أي أن إسماعيل كان موجودا أيام كان إبراهيم يُدعى: أبرام، ولقد كانت أوائل العهد لإبراهيم قد جاءته من الرب واسمه: أبرام، والولد الوحيد الذي كان لإبراهيم في تلك الأوقات هو إسماعيل عليه السلام فحسب، وأرجو من القارئ العودة إلى نصوص العهد والوعد المذكورة قريبا، ليرى الأمر

---

(١) سفر التكوين، (الإصحاح ١٥/١٢-١٨).

(٢) فلسطين أرض الرسالات الإلهية، روجيه جارودي، (١٤٩).

كيف كان.

إن إسحاق هو واحد فقط من أبناء إبراهيم عليه السلام، ولإبراهيم أولاد سواه ممن ولدوا قبله، فكيف يمكن أن تظهر العدالة، والحال أن نصوص سفر التكوين تعطي إسحاق عليه السلام حق غيره، بدعوى حكم الله سبحانه، ثم لا يأخذ غيره شيئا؟

وفي الحقيقة، فليس إسحاق هو الذي أخذ حق غيره، بل التوراة المحرفة، وبعد قرون، ادَّعت هذه الدعوى.

سادسا: وأيضا يلاحظ الأستاذ الشيخ أحمد ديدات شكلا من أشكال التناقض بين عقيدة الوعد الديني، وبين تصرف أبناء إبراهيم ج حين وفاته، فقد جاء في سفر التكوين[١] ما يلي: "ودفنه (أي إبراهيم) إسحاقُ وإسماعيلُ، ابناه، في مغارة المكفيلة، في حقل عفرون بن صوحر الحثي، **الذي أمام ممر الحقل الذي اشتراه إبراهيم من بني حث، هناك دُفن إبراهيم وسارة امرأته**"، وهنا ملاحظة التناقض، كيف اشترى إبراهيم هذه القطعة من بني حِثّ، وهو مالك هذه الأرض، حسب الحقيقة الدينية التوراتية المتمثلة في الوعد الديني الوارد في التوراة، أليست هي حسب نص سفر التكوين ملكا له ولذريته؟ والحديث هنا عن زعيم أمة وليس عن فرد عادي[٢].

إننا ندعو قُراء نصوص الوعد الديني التوراتية، أن يجعلوها في صعيد واحد، تتتالى سطورها سطرا بعد سطر، ثم تُقرأ قراءة واحدة، ليتعرف: هل يمكن أن يُنسب هذا التناقض والظلم إلى رب العزة سبحانه؟

---

(١) الإصحاح (٢٥/٩-١٠).

(٢) تفنيد ادِّعاءات اليهود التوراتية في فلسطين للأستاذ الشيخ أحمد ديدات، المطبوع ضمن الكتاب الذي أصدرته الندوة العالمية للشباب الإسلامي، بعنوان: فلسطين والوعد الحق، (١٩).

المبحث الثاني: المنشأ اليهودي البابلي لفكرة الوعد

ولنا أن نقول في سياق نقدنا لفكرة الوعد الديني المُدعى: إن هذا العهد الذي ساقه اليهود في توراتهم لم يكن من عند الله تعالى، بدليل أنه يرجع إلى المصدر الكهنوتي المكتوب أثناء فترة السبي البابلي في العراق، مما يبعث في النفوس احتمالاً غاية في القوة، يقوم على أساس أن رؤية الأحبار لعزوف الإسرائيليين عن العودة إلى أورشليم دفعتهم إلى ابتداع أسطورة الوعد الديني، ليسوقوا بني إسرائيل بسوط النص المقحم في التوراة إلى أورشليم.

والمصدر الكهنوتي هو أحد تلك المصادر الأربعة التي ترجع إليها الأسفار الخمسة، وعليه، فليست له مشروعية في إثبات حق أو نفيه، بسبب انتسابه إلى فترة تأخرت عن موسى بضعة قرون.

يقول روجيه جارودي عن تاريخ كتابة هذا المصدر: ((إن قرب هذا المصدر من حزقيال يسمح بوضعه في زمن السبي البابلي، القرن السادس ق.م.))[1]، وهو نفسه قول موريس بوكاي: ((وأما النص الكهنوتي فينتمي إلى عصر النفي، أو ما بعد النفي، أي القرن السادس قبل الميلاد..))[2].

وقد ذكر الباحث فان سيتير أن قصص الآباء التوراتيين مكتوبة وموضوعة لأول مرة خلال فترة السبي البابلي وما بعده، وهي في خطوطها العامة وما تتضمنه من تفاصيل وعادات وأسماء أعلام وعلاقات اجتماعية، إنما تعكس الأوضاع العامة السائدة في فترة التدوين، أي منتصف الألف الأول قبل الميلاد[3] وهي تعكس عند غربيين فهم يهوذا

---

(١) فلسطين أرض الرسالات الإلهية، روجيه جارودي، (١٣٣).

(٢) دراسة في الكتب المقدسة، موريس بوكاي (٢٨).

(٣) آرام دمشق وإسرائيل، تأليف: فراس السواح (٥١).

المسبية لنفسها، وطريقة رسمِها لأصولِها[1]، وهي قد صيغت من أجل التأسيس اللاهوتي والسياسي للشعب الإسرائيلي[2].

بل أكثر من ذلك، فقد قال الدكتور صبري جريس: ((والرأي يتجه الآن إلى أن الأسفار الخمسة هي مجموع أربع وثائق، أُدمِجت بعضها في بعض بواسطة الأحبار، وصيغت في صورتها الحالية في القرن الرابع ق.م. وإن كانت كتابتُها قد بدأت فيما يعتقد الكثيرون من الثقاة أثناء السبي البابلي، في القرن السادس ق.م.))[3]، وهذا يعني أن الأسفار بمجملها كُتبت أثناء السبي البابلي، وليس فقط المصدر الكهنوتي.

ونود أن نجيب عن سؤال طرحه توماس تومبسون، وهو فيما يبدو لنا سؤال إقراري، إذ تساءل: ((هل كان لفترة السبي دور مؤثر على تشكيل ما يُدعى بفترة ما بعد السبي في أي وقت سابق للدمج الشامل للمرويات في أواخر الحقبة الفارسية؟))[4]، ونقول: نعم، ولعل قصة الوعد هي جزء من هذا التأثير، ولذلك، **فإن تومبسون يتحدث عن أن الرواية التي وصلتنا عبر التوراة عن قصص إبراهيم تعكس السبي البابلي في القرن السادس**[5]، وهنا، وبهذه المناسبة، نذكر ما نقله توماس تومبسون عن (إسرائيل القديمة ل: ن. بي. ليمخي قوله: ((**لا يمكن أبدا أن يكون مفهوم إسرائيل الموحدة قد وُجد في أي كتابة تاريخية عن إسرائيل قبل السبي**))[6]، ويذكر تومبسون دراسة قدمتها هـ. فريس في منافسة أكاديمية في كوبنهاجن، عام ١٩٦٨م، وقال: ((وفي هذا العمل بينت

(١) المرجع نفسه، (٥١).

(٢) وهو تحقيق ك. ماك كارتر، كما ذكره الأستاذ فراس السواح في كتابه آرام دمشق وإسرائيل، (٥١).

(٣) التراث اليهودي الصهيوني للدكتور صبري جريس، (٥٨) نقلا عن تأثر اليهودية بالأديان الوثنية، للدكتور فتحي محمد الزعبي، (٣٣٩).

(٤) التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، تومبسون، (٨٧).

(٥) المرجع نفسه، (٨٤).

(٦) نقلا عن: المرجع نفسه، (٩٣).

فريس بوضوح وجدية أن **المرويات التوراتية التي حددت تشكيل الدولة أو الملكية الموحدة تحت حكم داود، كانت من إنتاج فترة السبي**،...، وأخيرا قالت بأن قصص سفر الملوك ٢ بكاملها قد كُيِّفت لتشرح أسباب السبي إلى بابل، ويجب أن تكون قد كُتبت بعد السبي بفترة من الوقت))[١]، ويقول زئيف هيرتسوغ: ((مدرسة الانتقاد لتاريخ التوراة التي ازدهرت في ألمانيا من النصف الثاني للقرن التاسع عشر، زعزعت تاريخ حكايات التوراة، **وادّعت أن التاريخ الجغرافي التوراتي صِيغَ، وبدرجة كبيرة "اختُلق" في عهد شتات بابل**))[٢].

إن البحث في تأثير السبي البابلي على العقل التوراتي لا زال لم ينل حقه، وهو بحث ثري غزير في مادته، وهو أيضا كاشف مهم لبعض الأسباب التاريخية والدينية لاحتلال فلسطين.

إن كون الأسفار كُتبت بالمجمل في فترة السبي البابلي، وفيما بعده أيضا، يسمح لنا بتأكيد معانٍ ذاتِ أهمية خاصة تتعلق بها وبمضمونها..

إن هذا يعني لنا أولا: أنه بعيد جدا عن أن يكون موسى عليه الصلاة والسلام قد تلقّى هذا الوعد المزعوم لإبراهيم عليه السلام وحْياً من عند الله تعالى، فبين عهد موسى وعصر النفي مالا يقل عن سبعة قرون.

وإنه يعني لنا ثانيا ما هو في غاية الأهمية: إن كون هذا الوعد المزعوم كُتِب في عصر النفي، يسمح لنا بطرح فكرة تفسيرية لصُدورِه في ذلك العصر، وهي: إن أحبار بني إسرائيل الذين صاغوا هذا الوعد ودسّوه في التوراة، كانوا يحرصون على إبقاء فلسطين في ذاكرتهم وجزءاً من اعتقادهم، حتى لا تأخذها منهم أوضاع الرفاه والحرية التي نعموا بها

---

(١) نقلا عن: المرجع نفسه، (٦٤).

(٢) نشرته الهآرتس يوم الجمعة (٢٩/١٠/١٩٩٩)، ونشرت ترجمة المقال الحياة الجديدة (٣٠/١٠/١٩٩٩).

في وطنهم الجديد بابل؛ ولما لم يجدوا في التوراة ما يسمح لهم بدَسّ الفكــرة في عقــول اليهود؛ بل لما لم تكن التوراة الحقيقية موجودة، فقد كان لا بد في رأيهم من دس نصوص نسبوها إلى السماء، فكان هذا الوعد المكذوب، ولقد كان كثير من شعب السبي معجبين بالبلاد الجديدة، ولكن قلة متشددة منهم هي التي عارضت الاندماج، وبــذلك أنجــت إسرائيل من الاندثار، كما يقول المفكر اليهودي بنتويتش[1]، وكان المسبيون يقيمــون في عدد من أجمل وأهم أحياء بابل[2]، و لم يعد إلا قلة من أولئك المسبيين، وكما يقــول في وصفهم المؤرخ الإنجليزي جون مارلو: ((هم الذين فشلوا في الحصول على موطئ قدم في البلاد الجديدة))[3].

ثم لا يبعد في تقديري، أن يكون الأحبار مؤلفو التوراة، قد رأوا ما حصــل لمنفيــي مملكة إسرائيل، مملكة الشمال؛ التي سباها سرجون الثاني الأشوري، حيث لم يعــودوا إلى الأرض التي أُخرِجوا منها أبدا، بل قيل: إنهم فُقِدوا، ولكن يرى الدكتور فيليب حتي أنهم لم يُفقدوا، بل هم في رأيه اندمجوا بغيرهم، وقد ذكر الدكتور حِتّي عن الرحالة بنيامين أن

---

(١) تاريخ فلسطين القديم، تأليف: ظفر الإسلام خان، (٦٤).

(٢) القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، كارين أرمسترونج، (١٤٧).

(٣) نقلت كلام مارلو عن: تاريخ فلسطين القديم، تأليف: ظفر الإسلام خان، (٦٤)، ويُنظــر: اليهود تاريخا وعقيدة، للدكتور كامل سعفان، (٢٢)، ويُنظر كذلك كتاب: (نزهة المشتاق في تــاريخ يهود العراق) للمؤرخ اليهودي يوسف رزق الله غنيمة، (٦٨-٧٠)، حيث قال غنيمة: ((إن اليهــود الذين اختاروا السكنى في بابل وبلاد ماذي -جنوب بحر قزوين- أصبحوا في رخاء من العيش في عهد خلفاء كورش..))، ويقول عن المسافرين العائدين إلى أورشليم بعد سماح كورش لهم بذلك: إنهم ((**من رجال الكهنوت واللاويين وخدمة الهيكل، ومن الذين لم يكن لهم زرع ولا ضرع ولا ملــك ولا تجارة في بابل، ومن الذي أُغلقت في وجوههم سبل العيش، وسُدَّت أبواب الرزق؛ وأمــا رجــال التجارة والأعمال والزراعة، فإنهم اختاروا البقاء في بابل، يرتعون في بحبوحة الهنــاء، ويــدأبون في زيادة ثروتهم وإنماء غناهم**، تشهد بذلك أسماء الموقعين عقود البيع والشــراء في عهــد دارا (٥٢١-٤٨٦ق.م.) وأرتحشستا الأول (٤٦٥-٤٢٤ق.م.) إذ فيها عدد وافر من الأسماء اليهودية)).

الطائفة اليهودية في جبال نيسابور في شرقي إيران ينحدر أفرادُها من المسبيين الأصليين[1]..

.. لا يبعد في تقديري أن يكون ثِقَلُ ذوبان المسبيين من المملكة الشمالية، أدى بالأحبار إلى أن يحاولوا تلاشي تكرر الذوبان مرة أخرى بحق المسبيين الجدد، فصاغوا ما يدعو إلى تثبيت فلسطين في نفوس الإسرائيليين، وسَمَّوْها أرض الميعاد.

وفق هذه الظروف كلها، فقد رأى الأحبار أنهم لن يستطيعوا بثَّ أفكار العودة من النفي، خاصة بعد إذ سمح لهم كورش الفارسي بها، ورأوا أن السبيل الوحيد لإرجاعِهم إلى فلسطين، يكمن في إلباس قضية العودة ثوباً دينيا، ليكون ذلك دافعا لرافضي العودة حتى يعودوا، فنسبوا إلى الله وإلى إبراهيم وموسى، أن هذه الأرض هي لنسل إبراهيم عليه السلام، وإن إلباس قضية، أي قضية، معنى دينيا يدخل أصلا في إطار مفهوم راسخ أصلا في نفس الإنسان، وهو: قدرة الدين، أي دين على تحريك كثير من الجوامد.

وينبغي أن نشير إلى شك بعض الباحثين في حصول العودة ذاتها[2]؛ وإن الأمر في تقديري يستحق البحث والتنقيب بدقة تعتمد على مصادر صحيحة.

ولْيدعْني القارئ لأقول: إن الضرورة الوطنية المفترضة سوّلت لأهواء النفس اليهودية آنذاك، وهي المتمثّلة في الأحبار والقادة الدينيين؛ سوّلت وسهّلت هذه الضرورة لهذه النفس بثَّ أكاذيب تنسبها إلى السماء بأن هذا الوطن، فلسطين، (أرضَ كنعان) هو لنسل إبراهيم، مع ترجمتهم الأسطورية الأخرى، والتي اضطُرُّوا لها أيضا، وهي القاضية بأن بني إبراهيم المقصودين بهذا الوعد، هم فقط بنو إسرائيل؛ ثم استمروا في الأسطورة نفسها

---

(١) يُنظر: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، تأليف المؤرخ اللبناني الدكتور فيليب حتي، ترجمة جورج حداد، وعبد الكريم رافق، (١/٢١٣-٢١٤).

(٢) القدس مدينة الستة آلاف عام، (٣٣) للدكتور إبراهيم الفني، من مركز القدس للأبحاث، نشرته جامعة النجاح الوطنية، كلية الآداب، ضمن ما نشرته في ندوات يوم القدس، التي عُقدت ما بين ٢٧-٢٨ أيار عام ١٩٩٨م.

فجعلوها قاصرة على اليهود، بغض النظر عن كونِهم من بني إسرائيل أو من غيرهم.. كما سيأتي قريبا إن شاء الله.

نقول هذا الكلام، منطلقين من أن النص التوراتي في حد ذاته تضاءل عن إمكانية نسبة نفسه إلى السماء، كما سيتضح في الباب الخاص بموضوع التوراة، والذي جعلناه ضمن أبواب بحثنا هذا؛ ومنطلِقين كذلك من أن الله تعالى ليس متحيِّزا لنسل فلان من البشر أبدا أو لنسل علاّن؛ وإنما تأتي وُعودُ الله تعالى لأصحاب مواصفات يرضاها، ليس منها بالتأكيد: العنصرية المقيتة التي تتضمنها فكرة الوعد المدَّعى، أعني أن الله تعالى يُعطي الأرض لأهل الإيمان به وبأنبيائه سبحانه، ولمن يصلحون لإقامة العدل بين الناس، لا لأبناء فلان، أيا كان هذا الفلان، الذين سيكون فيهم حتما الصالح والطالح، بل قد يغلب عليهم الطالح..، هذا، وسنُناقش هذه القضية وفق الرؤية الإسلامية قريبا، إن شاء الله تعالى.

وكذا انطلقنا في كلامنا هذا من أنه ((لا يمكن فهم أي نص بعيدا عن الظروف التاريخية المرتبطة بصياغته))(١)، فما دام هذا النص المتضمّن وعدا لبني إسرائيل، حسب تفسير اليهود له، ما دام قد كُتِب أيام السبي البابلي، فمن المعقول أن نطرح رؤيتنا التفسيرية هذه، المتضمنة إشارة إلى تلك الضرورة الوطنية لديهم، التي دفعتهم إلى نسبة أقوال إلى الله تعالى، لا يمكن أن تصدر منه سبحانه.

وأرجو أن يسمح لي عزيزي القارئ بنقل هذه السطور، من كلام العلامة اليهودي سابقا، المسلم لاحقا، وهو الأستاذ المؤرخ الآثاري الدكتور أحمد سوسة، فلقد رأيتُ – مجتهدا– هذه الرؤية التي قدمتها حول دور السبي البابلي في أسطورة الوعد الديني، بل في كتابة التوراة وعقائد اليهود، ثم رأيت ما يمكن أن يكون الرأي ذاته للدكتور سوسة، الأعرف باليهود، إذ كان منهم، فهو يقول عن الدور الذي يبدأ بالسبي البابلي من أدوار كتابة التوراة: ((ففي بابل مارس اليهود شعائرهم الدينية، وواصل كهنتهم أعمالهم الدينية بتحرير أهم فصول التوراة، والتمهيد لتدوين التعاليم اليهودية باسم التلمود البابلي، **حتى**

---

(١) سرقة أمة، تأليف: وليم و. بيكر، ترجمة: سهيل زكّار، وعدنان برنيّة (٨٦).

إن السبي البابلي كان عاملا قويا في تطوير الديانة اليهودية في القرون التي تلت،...، وفي هذا الدور بالذات، دُوِّنت أهم فصول التوراة، دونها الكهنة اليهود باللغة الآرامية المعروفة بآرامية التوراة، وهي لهجة مقتبسة من الآرامية،...، ويبدو لأول وهلة عندما نستعرض مدونات التوراة، أن الهدف الأول الذي كان يهدف إليه هؤلاء الحاخامون: هو تمجيد تاريخ الزمرة اليهودية التي كانوا يعيشون وسطها، وهم منها، وجعلها صفوة الأقوام البشرية، والجماعة المختارة التي اصطفاها الرب من دون بقية الشعوب، ولتحقيق هذا الهدف، كان لا بد لهم من إرجاع أصل هذه الجماعة اليهودية (لا الإسرائيلية) إلى أقدس شخصية في التاريخ القديم، أي إبراهيم الخليل، الذي كان صيته قد عم جميع أرجاء عالم تلك الأزمان، أما الهدف الثاني فهو: تثبيت عقيدة الأرض الموعودة، على لسان إبراهيم ويعقوب وموسى، وهم بريئون منها»(١).

ثم بعد أن سعِدتُ بهذا التوافق بين ما ذكرتُه وبين ما ذكره الدكتور أحمد سوسة : تعالى، حول أثر السبي البابلي في إنشاء هذا الوعد؛ بعد ذلك، فأراني مسوقا أيضا لإبداء سعادتي بما وجدته من توافق في رؤية هذه القضية بيني وبين الباحث موسى إبراهيم مطلق، وذلك في كتابه: (وعد التوراة، من أبرام إلى هرتزل)..

لكن الأستاذ موسى مطلق، جعل القضية في إطار أكبر من الإطار الذي جعلتها فيه، فقد اعتبر أن الوعد في تفصيلاته جاء على أرضية محاولة الملك الفارسي أرتحشتا لسندٍ يكون موجودا في منطقة أورشليم والسامرة، يقول الأستاذ مطلق: «لقد أراد الملك من أورشليم وشعبها قوة سياسية- عسكرية موالية له، بعد أن اطلع على مشروع الكاهن الكاتب عزرا الديني العنصري، فهذا المشروع في حال نجاحه، سيؤمن له قلعة عسكرية، ثابتة الولاء له ولدولته..»(٢)، مما جعله يدفع عزرا هذا، أحد كُتّاب التوراة، إلى أن يكتب نصوصا دينية ينسبها إلى الرب، ليلزم بني إسرائيل بالعودة إلى أورشليم، باعتبارها في

---

(١) العرب واليهود في التاريخ، تأليف: أحمد سوسة، (٣١٧-٣١٨).

(٢) وعد التوراة، من أبرام إلى هرتزل، تأليف: موسى مطلق إبراهيم، (١١٢).

زعمهم الأرضَ التي وعد الله بها إبراهيم عليه السلام، بل أكثر من ذلك، فهو يعتبر أن كتابة التوراة الحالية المعروفة بمجملها، صادرة عن هذه الخلفية[1].

وعن الأجواء التي وُلد فيها عزرا، المتهم حسب الأستاذ موسى مطلق بكتابة التوراة، يقول: ((في هذه الأجواء النفسية الضاغطة، المحتقنة بكل أشكال الحقد والكراهية، وُلد عزرا في بابل كواحد من أحفاد المسبيين الذين يحملون في نفوسهم أحقاد هذا الواقع الموروث منه والمُعاش، بكل إفرازاته وبكل عقده النفسية...))[2].

إذن، فعلى هذين الأساسين، أساس السابقة التاريخية التي جعلت من دولة إسرائيل المعاصرة ((إعادة بناء لِما كان موجوداً في الماضي))[3]؛ وأساس الوعد الإلهي لبني إسرائيل؛ على هذين الأساسين الفكريين، بنت إسرائيل فكرتها عن حقها في الوجود كدولة تطرد شعبا من أرضه؛ وعليه، فعودة بني إسرائيل إلى هذه الديار ذات أصول دينية، رغم امتزاجها أيَّ امتزاج بدواعٍ استعمارية غربية.

وفي نهاية هذا المبحث، لا بد من توضيح قضية غاية في الأهمية، تتعلق بهذا الوعد المفترى.

إنه بعد المناقشة النصية التي أجريناها على نصوص التوراة المتضمنة فكرة الوعد، وبعد إثبات كونها من إفرازات مرحلة السبي البابلي؛ فلا بد من أن أوضِّح أن أصولا شتى لأممٍ عديدة كانت قد سبقت سفر التكوين بفكرة شبيهة بفكرة الوعد الديني، مما يمكن أن يوحي بأن هذه الفكرة التوراتية ذات أصول تعود إلى أمم أخرى، تلقّفها كُتّاب التوراة فزجّوها في أسفارهم.

---

(١) تُنظر تفاصيل هذه الخلفية حسب رأي الأستاذ موسى مطلق إبراهيم، في كتابه: وعد التوراة، من أبرام إلى هرتزل، (٩٥-١١٨).

(٢) المرجع نفسه، (٩٥-١١٨).

(٣) اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (٢٠٣).

وهذا يؤكد ما سيقرؤه القارئ الكريم في الباب الخاص بالتوراة، أن مصادر هذه التوراة عائدة إلى أمم سبقت بني إسرائيل في الوجود، فانتقى الأحبار من أساطير هذه الأمم ما جعل من التوراة (كشكولا تجتمع فيه خلطات ثقافية) ليس فيها من تجانس إلا ما يجمعها جميعها تحت هذا الوصف..

إن وجود الوعد المفترى في التوراة، هو شكل من أشكال سرقات أساطير الأمم وخرافاتها وخيالاتها، يقول الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي: ((**تُبين لنا قراءة النصوص المقدسة في منطقة الشرق الأوسط، أن جميع شعوب المنطقة،...، قد تلقَّوا وعودا مماثلة، حيث كان الإله يَعِدُ كل شعب بالأرض، ففي مصر نجد المسلَّة الضخمة في الكرنك، والتي شُيِّدت في عصر تحوتمس الثالث بين عامي ١٤٨٠ و١٤٧٥ق.م. تمجيدا لانتصاراته في غزة ومجدو وقادش وقردميش (الواقعة على نهر الفرات)، وقد دُوِّنت عليها عبارة الإله: (أمنحك هذه الأرض بامتدادها في جميع الجهات لتكون لك شرعا، لقد جئت لأزودك بكل السبل لكي تجتاح الأراضي الغربية..**

ويتابع جارودي قوله: ((وعلى الجانب الآخر في منطقة الهلال الخصيب في بلاد ما بين النهرين، نجد أنشودة الخلق البابلية أن الإله مردوخ (يحدد لكلٍ نصيبه)،...، ومن مصر إلى بلاد ما بين النهرين، كان الحيثيون يُنشِدون لربة الشمس (أرينا) قائلين: (أنتِ تحرسين أمن السماوات والأرض، وتُعينين حدود الأرض)))[١].

ويحلل مالينوفسكي، المتخصص بدراسة الأساطير، يحلل النفسية اليهودية التي تجعل مثل هذه الأساطير التي تبيح سرقة أراضي قوم من الأقوام دينا، بقوله: ((والنتيجة أن ضربا بعينه من الحكايات الأسطورية يظهر إلى الوجود تبريرا لذلك الوضع الشاذ، وعملا على إسباغ صبغة طبيعية عليه))، ويدعو مالينوفسكي ذلك النوع من الأساطير بأساطير

---

(١) الأساطير المؤسِّسة للسياسة الإسرائيلية، تأليف: روجيه جارودي، (هامش٤٥)، ويُنظر أيضا: قراءة سياسية للتوراة، تأليف: شفيق مقار، (٩٧-٢٠٢) حيث قد توسع في شرح ما قام به مؤلفو التوراة من سرقة أساطير الأمم السابقة.

التبرير[1].

وعودة إلى الوعد ذاته: إن اليهود قوم مقلِّدون وليسوا مبدعين في أصل فلسفتهم في الحياة، وهم لا يعرفون الإبداع إلا في مجالات القتل وفنونه والسبل المؤدية إليه وفي تغطية الحقيقة حتى يظهروا بثوب الدفاع عن النفس؛ وهم فيما سوى ذلك مقلِّدون، وغير معطائين!

(١) يُنظر: قراءة سياسية للتوراة، تأليف: شفيق مقار، (١٠٠) فقد نقلنا عنه نص كلام مالينوفسكي، ويتابع مالينوفسكي: "إن دراسة مثل هذه الحكايات جديرة بكل اهتمام، لأنها تمكننا من النفاذ إلى سيكولوجية التراث، من جانب، وتغرينا من جانب آخر بمحاولة إعادة بناء تاريخ القبيلة أو العشيرة التي يتعلق بها الأمر مع التزام غاية الحذر والتشكك".

الفصل الثالث: تأسيس الكُتّاب اليهود للحق التاريخي، (نتنياهو نموذجا)

إننا سنطرح هنا صيغة من صيغ التأسيس لدعوى الحق التاريخي حسب النظرة اليهودية، وبكلام أحد اليهود المعاصرين، ممن تبوءوا أعلى المناصب في دولة إسرائيل، وذلك ليرى القارئ الكريم **كيفية التأسيس اليهودي لفكرة الحق، استنادا إلى وجود تاريخي قديم**..

إن بنيامين نتنياهو، الزعيم السابق لليكود الإسرائيلي، والذي اعتلى بعد كتابه الذي سجل فيه هذا الكلام ذروة المناصب الإسرائيلية، إن نتنياهو هذا يقول: "فإن السؤال الرئيسي هو: **هل يحق للشعب الذي فقد أرضه المطالبةُ بها من جديد بعد مرور أجيال عديدة؟ وبشكل خاصٍّ: هل يحق له ذلك، حتى لو استوطن هذه الأرضَ شعب آخر؟**".

أنا مع نتنياهو في أن هذا السؤال بالغ الأهمية، أو كما قال هو في وصفه: سؤال رئيسي..

وبعد أن يذكر رأي العرب الرافض تلقائيا لدعوى الحق بناءً على مثل هذا الواقع المشروح في السؤال، يدخل نتنياهو في معمعان الإجابة عنه، فيقول:

"معظم الأشخاص يعرفون، وبدرجات متفاوتة، تاريخ اليهود خلال السنوات الألف الأولى من هذا التاريخ، وهي ما يُعرف بعهد التناخ: إنهم يعرفون أن اليهود أبناءَ إسرائيل كانوا عبيدا في مصر، وأصبحوا شعبا بعدما تحرروا من العبودية، ونالوا حريتهم، وتلقوا توراة موسى؛ كما يعرفون بأنهم استوطنوا أرض آبائهم، وبعد أن احتلوها، وبقيادة يهوشع بن نون.

"في سنة ١٠٠٠ قبل التاريخ تقريبا، نشأت في أرض إسرائيل مملكة موحدة برئاسة الملك داود، ومنذ ذلك الحين، ظلت تلك المملكة تصارع دولة أثر دولة، من أجل الحفاظ

على استقلالها السياسي.

"ينتهي تاريخ شعب إسرائيل الوارد في التناخ[1]، بعودة صهيون وتجديد الاستقلال اليهودي في عهد كورش ملك الفرس عام ٥٣٨ق.م."[2].

ثم أخذ نتنياهو يسرد، وبما يزيد قليلا عن صفحة واحدة، أحداث الصراع بين اليهود وبين اليونانيين والرومانيين، مضمنا إجابة عن سؤال نصُّه: كيف اقتُلع اليهود أخيرا من أرض إسرائيل؟ ثم أخيرا، يرفض الفكرة الدارجة أن الرومان هم الذين أنهوا الوجود اليهودي في فلسطين، ويقول: "ولكن في عام ٦٢٦م، بعد بضع سنوات من عودة البيزنطيين برئاسة القيصر هيركوليوس، **دخل العرب إلى أرض إسرائيل، بعدما دمروا نهائيا الاستيطان اليهودي الكبير والمزدهر في شبه الجزيرة العربية.**

"كان الحكم البيزنطي قاسيا بالنسبة لليهود، ولكن في عهد الحكم العربي فقط أصبح اليهود أقلية قليلة في أرض إسرائيل، ولم تعد لهم قوة قومية حقيقية"[3].

إن نتنياهو الذي يتباكى على ماضٍ يصوره كما يشاء، يصور هنا الوجود اليهودي في فلسطين بأنه وجود أقلية قليلة، بعد أن طرد العربُ اليهودَ منها، كأنه يؤسس لطرد العرب من فلسطين، لينالوا عقابهم من جنس عملهم، فكما جعلوا اليهود أقلية في الزمن الماضي، فليكونوا هم أقلية في الزمن الحاضر، وكما تدين تُدان، والبادئ أظلم!!

وبعد قليل، وبعد أن يصرح بدعواه أن العرب طردوا الفلاح اليهودي وصادروا أرضه، بعد ذلك يقول نتنياهو: "**ومن هنا نجد أن اليهود لم يسلبوا العرب أرضهم، إنما**

---

(١) التناخ هو مجموعة أسفار العهد القديم، ويختلف في تعدادها البروتستانت والكاثوليك والأرثوذكس واليهود ويهود السامرة، يُنظر في أصل كلمة التناخ كتاب: اليهودية، عرض تاريخي، تأليف: عرفان عبد الحميد فتاح، (٧٢).

(٢) مكان تحت الشمس، لبنيامين نتنياهو، ترجمة محمد عودة الدويري، (٥٩-٦٠).

(٣) المرجع نفسه، (٦١)، وقد فصّلنا الرد على دعوى نتنياهو أن الحكم العربي كان قاسيا على اليهود، فلينظره القارئ الكريم إن شاء في الفصل الخامس من الباب الثاني من هذا البحث.

العرب هم الذين سلبوا أرض اليهود))[1].

إنه التأسيس الواضح لقضية الحق التاريخي القديم، ولطرد العرب من فلسطين؛ فما دام العرب هم المعتدين، والطاردين لليهود أصحاب الأرض، فلِمَ يعتب الناس على اليهود أنهم عادُوا إلى أرضهم التاريخية، وطردوا العرب منها؟

ولِمَ يملأ العربُ العالَمَ صراخا وبكاءً وعويلا على ضياع أرضهم التي هي في الحقيقة لليهود لا لهم -حسب الزعم اليهودي بصيغته التي شرحها نتنياهو- ثم يتهمون اليهود بإخراجهم منها، أوليسوا هم الذين أخرجوا اليهود أولا؟!

لكن، ثمة مشكلة: إن نتنياهو هنا، وفيما يبدو، يحسب أن معرفة التاريخ ملكُه وحدَه، وأن الحقائق تتدفق من فمه، كما يتدفّق سيل العَرِم، لا يملك أحد توقيف تدَفُّقه، وأنه ينطق بما لا جدال فيه، فلذا، هو يصوغ ما يشاء كما يشاء،!.

ولأنه قد حسب هذا الحسبان، تراه يجري مسرعا، حتى لا يفوته أحد، ليتكئ تماما على ما أصَّل من أصول في تاريخ الأرض الفلسطينية العربية المسلمة، ثم ليقول: ((..**وإن صاحب البيت الأصلي له الحق في العودة إليه، واستعادة كل ممتلكاته**))، ونحن موافقون تماما على هذا الطرح، ولكن: من هو صاحب البيت الأصلي؟!

ثم يطرح نتنياهو سؤالين: ((أولا: هل ظل اليهود متمسكين بادِّعائهم أن الأرض تعود لهم إبان سنوات شتاتهم؟

((ثانيا: هل نال العرب ملكية قومية وحيدة على هذه الأرض، بعد أن طردوا اليهود منها؟

((**واضح أن الاحتلال في حدِّ ذاته لا يمنح المحتل حقوقا قومية في الأراضي التي احتلها**، فوراء كل ادِّعاءٍ إقليميٍّ قوميٍّ يقف شعب منفرد يختلف عن غيره، له ارتباط

---

(١) المرجع نفسه، (٦٢).

مستمر بقطعة أرض واحدة))[1].

نحن موافقون على أن الاحتلال لا يمنح المحتلَّ حقوقا في الأراضي التي احتلها، فهل نتنياهو على استعداد لأن يلتزم بقاعدته هذه التي لا يخالفه عليها أحد؟

عزيزي القارئ: إن المخالف الوحيد لهذه القاعدة هو نتنياهو ومن يحمل رؤاه، فهو طارح الفكرة والقاعدة، وهو مخالفُها الأول وسيرى القارئ مصداق ما نقول.

وهو، أي نتنياهو، يجعل أساس الحق في الأرض عائدا إلى أنها كانت لليهود في أصلها، وإلى أن العرب طردوهم منها، ويرفض أن تناقش القضية كما تناقش قضايا حقوق الأفراد التي ينطبق عليها قانون التقادم، فيزول الحق بالمطالبة في حال تقادم العهد دون مطالبة، وهو في تصوّره هذا يردّ على أرنولد توينبي رؤيته، ذلك المؤرخ والفيلسوف البريطاني المشهور، الذي رأى حسبما نقل عنه نتنياهو، أن بُعد فترة الوجود الإسرائيلي القديم ينفي حق اليهود في العودة إلى فلسطين، ويقول، أي نتنياهو: ((**وإن أية فترة زمنية، طالت أم قصرت، يجب ألا تُلغي حق شعب في أرضه، إن الحق ساري المفعول من الناحية التاريخية، ولا يُلغى إلا إذا اختفى المطالِبون به**))[2].

ونحن هنا بدورنا نشكر نتنياهو على هذا التأصيل لحق الشعب الفلسطيني، رغم أنه لم يقصدْه، ورغم عدم حاجة الشعب الفلسطيني إليه منه، فلن يضيع الحق طال الزمن أم قصُر، أقرَّ نتنياهو به أم لم يُقرَّ؛ ما دام للحق مطالب، وما دام الشعب الفلسطيني، والأمة العربية والإسلامية موجودين، فلن يضيع حقُّهم في فلسطين.

ونريد أن نُذكِّر القارئ الكريم بالباب الثاني من بحثنا هذا، والذي يخوض غمار الجواب عن سؤال هام للغاية: إلى أية وُجهة تنتمي فلسطين القديمة؟ وكنا قد أثبتنا بمزيج من نصوص الوحي وكلام المؤرخين عربا وأجانب وكشوفات علم الآثار التي قام بها

---

(١) المرجع نفسه، (٦٢).

(٢) يُنظر: المرجع نفسه، (٦٣-٦٤).

الأجانب فحسب؛ أن فلسطين عربية المنشأ إسلامية الجذور، فرجاؤنا من القارئ الكريم أن يرجع إليه.

ونعود إلى نتنياهو وحَمَلة أفكاره..

هل يذكر نتنياهو وحَمَلة أفكاره، أن العرب سابقون على هذه الأرض، وأن بني إسرائيل قدِموا إليها من مصر؟

إن نتنياهو يعترف، كما نقلنا عنه قريبا، أن بني إسرائيل وردوا من مصر التي كانوا فيها عبيدا، ثم احتلوا هذه الأرض.

وسؤالُنا: هل يعطيهم هذا الاحتلال القديم أيام يوشع بن نون عليه السلام حقا فيها، وهو على قول نتنياهو: احتلال، إذ هو يصف الإسرائيليين السابقين **بأنهم استوطنوا أرض آبائهم، وبعد أن احتلوها، وبقيادة يهوشع بن نون**، على حد قوله هو..

فكيف برر هذا الاحتلال الذي يعترف به هو نفسه؟

وما دام ذلك كذلك، فأين حق الشعب الكنعاني العربي الفلسطيني في ذلك الحين، هل من حق الإسرائيليين أن يحتلوا أرضه؟

كيف يؤسس هنالك لذلك الاحتلال الإسرائيلي للأرض المقدسة؟!

فإن حاول أن يدَّعي أن أصل الإسرائيليين هو يعقوب عليه السلام، وأنه من هذه الأرض المقدسة، فهل بإمكانه أن يدَّعي أن يعقوب عليه السلام خرج منها مطرودا، أو أن العرب طردوه منها هو وأبناءه؟ أو أن يعقوب عليه السلام وبنيه كانوا من أهلها أصلاً و لم يأتوا إليها من غيرها؟

إننا نرى ضرورة أن يتعرف القارئ على رؤية التوراة نفسها، تلك التي تتحدث عن الموطن الأصلي ليعقوب عليه الصلاة والسلام.

ففي سفر التكوين: ((**تغرَّب إبراهيم في أرض الفلسطينيين**))[1]، وفيه: ((**وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه في أرض كنعان**))[2]، وفيه أيضا: ((وكان بني يعقوب اثني عشر: بنو لَيئَة: رؤوبين بِكر يعقوب، وشمعون ولاوي ويهوذا ويَسّاكَر وزَبولون؛ وابنا راحيل: يوسف وبَنيامين؛ وابنا بِلهة جارية راحيل: دان ونَفتالي؛ وابنا زِلفة جارية لَيئة: جادُ وأَشير؛ **هؤلاء بنو يعقوب الذين وُلِدوا له في فَدّانِ أرام**))[3]؛ فهل بقي شيء بعد؟

نعم، ونرجو القارئ الكريم أن يتوقف معنا لنتعرف على فدان أرام المذكورة هنا..

إن فدان أرام هذه مملكة أسسها الآراميون في بداية الألف الأول قبل الميلاد، واسم عاصمتها حران[4]، وهي الواقعة أقصى الجنوب التركي، قريبا من الحدود السورية الحالية؛ فإذا كانت فلسطين أرض غربة إبراهيم بنص التوراة التي لا نؤمن بنصها الحالي، رغم إلزامنا المؤمنين بها بما فيها من أفكار؛ وإذا كان أبناء يعقوب عليه السلام كلهم قد وُلدوا في فدان أرام، أقصى الجنوب التركي بنص التوراة أيضا؛ فإن ذلك يعني بنص التوراة، أن فلسطين ليست هي أرض الإسرائيلين.

ثم لا يصح أن يدّعوا أن فدّان آرام لهم، فمجرّد ولادتهم في بلد لا يعطيهم الحق في ملكها.

بل إن إبراهيم عليه السلام، وهو جد يعقوب عليه السلام، قد جاء أصلا إلى هذه الديار من العراق، ففي سفر التكوين في ذكر رؤيا إبراهيم عليه السلام: ((**وقال له أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض، لترثها**))[5]، وهو ما يؤكده أحد مؤرخي فلسطين، وهو عمانويل أنتي، فقد نقل عنه الأب ديفو في كتابه

---

(١) سفر التكوين، (٢١/٣٤).

(٢) المرجع نفسه، (٣٧/١).

(٣) المرجع نفسه، (٣٥/٢٢-٢٦).

(٤) تُنظر: الموسوعة الفلسطينية، القسم المعجمي، (٢٢/١).

(٥) سفر التكوين، (الإصحاح ١٥/٧).

تاريخ إسرائيل القديم[1] قوله تعليقا على قصة هجرة إبراهيم عليه السلام من أور الكلدانيين إلى حران ومن ثم إلى أرض كنعان: "ومن هذه القصة نعلم أن أصل الإسرائيليين كان كلدية".

فكيف ينشأ الحق لإبراهيم، أو لذريته في هذه الأرض، وهو، أي إبراهيم جاء أصلا مهاجرا إليها و لم يكن من أهلها[2]، بنصوص التوراة.

فكيف أنشأ نتنياهو وحَمَلةُ فكرته الحقَّ إذن؟

ثم إن بني يعقوب عليه السلام خرجوا من فلسطين إلى مصر بمحض إرادتهم، والقصة معروفة إجمالا، ولا نريد أن ندخل في التفاصيل، بل نقول مختصِرين:

إن بني يعقوب عليه السلام قد خرجوا من فلسطين بسبب فعلة شنعاء فعلتها أيديهم، إذ ألقَوا أخاهم يوسف عليه السلام في البئر تخلُّصا منه، وحسدا من عند أنفسهم، وانقضت السنون بهذا الفتى الذي كبر وصار رجلا وصار وزيرا، ثم استدعى أبويه وإخوته إلى مصر، فخرجوا بمحض إرادتهم، و لم يطردهم العرب، وبقوا هناك إلى أن تكاثروا مع مضِيّ القرون، ثم عادوا إلى فلسطين بقيادة النبي الصالح المفترى عليه يوشع بن نون عليه السلام.

فهل طرَدَ العربُ يعقوبَ عليه السلام، أم ترك يعقوبُ وبنوه الأرضَ المقدسة بمحض

(١) تاريخ إسرائيل القديم للأب ديفو، نقلا عن: فلسطين أرض الرسالات الإلهية لجارودي، (٧٠)، وبالمناسبة فقد ذكر جارودي اعتراضا على ذكر اسم كلدية الوارد في التوراة، إذ إن الاسم لم يظهر للمرة الأولى إلا في القرن التاسع قبل الميلاد، وأما المسرح الزمني لقصة إبراهيم الذي يُذكر الاسم كلدية في سياقها فهو قبل ذلك بحوالي عشرة قرون، مما يدل على أن هذا النص من سفر التكوين ما كُتب إلا في العهود التي كان اسم الكلدانيين فيها شائعا، ينظر المرجع نفسه، (٧٠).

(٢) أرجو أن ينتبه القارئ على أننا نناقش هنا رؤية التوراة، ولا نقصد هنا أن نرفض الوجود التاريخي لإبراهيم في هذه الديار المقدسة، فإبراهيم ذاته عربي مسلم، ونحن ننتمي إليه، ونحن وإياه ننتمي إلى دين واحد، ولا انتماء بينه وبين اليهود.

إرادهم، ثم بقُوا بعيدين عنها بمحض إرادهم.

لقد نسي بنيامين نتنياهو هذه المسألة، ثم نسي مسألة أخرى:

إن يعقوب عليه السلام وأبناءه، خرجوا من فلسطين كأُسْرة[1]**، ولم يكونوا حينها شعبا يملك حقوقا قومية، كما يدَّعي نتنياهو**؛ وخرجوا من فلسطين التي لم تكن في يوم من الأيام أرضَهم بنص التوراة، خرجوا منها وهي ملأى بشعب يسكنها، فهل من حق بني إسرائيل على هذا أن يطردوا هذا الشعب ليسكنوا مكانه، والحال أنهم لم يُطردوا بل خرجوا بإرادهم، والحال أيضا أنهم خرجوا كأسرة ولم يخرجوا كشعب يملك حقوقا قومية؟ إن الإسرائيليين القدماء يستحقون على الأكثر، إن استحقوا، أن يسكنوا الأرض مع من فيها من أهلها، وأن يكونوا مجرّد سكان، لا أن يطردوا منها سكانها، ولا أن يكونوا حكاما مسيطرين، ففي مفهومنا الإسلامي الذي سنتحدث عنه تفصيلا: إن الذي يستحق الحكم والسيطرة هو فقط من يملك صيغة الحق والعدل والخير، لا الذي ينتمي إلى نسب ما.

ثم، ولنطرح الفرضية التالية جدلا: إننا نوافق أنهم تركوا أرضهم مطرودين منها، ولهم الحق في العودة إليها كشعب له حقوقه القومية، لكن: أوليس الذين فيها، والذين لم يُطرَدوا ولم يَطرُدوا، أوليسوا هم أيضا أصحاب حق فيها كشعب له حقوقه القومية والوطنية؟

إن الذين بقُوا فيها هم أكثر عددا بما لا يقاس من الأسرة التي خرجت منها، فإن كان للإسرائيليين حق، فليكن حقا نسبيا، حسب عددهم آنذاك، إذا ما قورِنوا كأسرة خرجت بأي شكل من أشكال الخروج، بشعب بقي ولم يخرج!

فلماذا إذن طردوا الشعب الفلسطيني من أرضه، وهو لم يطردهم؟

كيف استطاع نتنياهو أن يسلب حق الذين بقوا في أرضهم، ولم يطردوا اليهود منها،

---

(١) يُنظر: العرب واليهود في التاريخ، للدكتور أحمد سوسة، (٤٥٢، الهامش).

كيف استطاع نتنياهو أن يسلبهم حقهم الطبيعي ليعطيه لليهود، والحال أنهم لم يَخرُجوا منها و لم يُخرِجوا أحدا منها.

الجواب: إنها القدرة الهائلة التي يملكها اليهود في تلوين الأمور كما يشاؤون، انطلاقا من الخرافة أولا، ثم الكذب والتزوير ثانيا، ثم إسباغ ألوان التباكي على الآلام التي تعرضوا لها ثالثا..إلخ.

ثم، كيف تأسس حق بني إسرائيل في الأرض أول سكناهم فيها؟

إننا نريد أن نتباحث هنا حول تأسيس الحق من البداية، وحول مصدر الحق الإسرائيلي في هذه الديار قبل أن يكونوا سكانها، يوم كانوا من سكان مصر.

إذا كان الحق تاريخيا، فأين حقهم التاريخي الذي برر لهم دخولها أيام يوشع بن نون عليه السلام؟

ونتنياهو يحاول أيضا أن يلزم العرب بأن التأسيس الحقيقي للحق هو للأمة التي تنشئ لنفسها بُعدا قوميا، فلأنه لم يكن للعرب من أهل فلسطين هوية قومية فلسطينية مرتبطة بالأرض على شكل القوميات الغربية الحديثة، فلا حق لهم برأي نتنياهو في فلسطين، يقول نتنياهو عن العرب: ((إنما حاولوا إقناع العالم بأن عرب أرض إسرائيل، بَلْوَروا خلال مئات السنين الأخيرة هوية قومية خاصة بهم، منفردة ومختلفة.

((وقد قاموا بهذه المحاولة، من خلال المعرفة أنه بدون هوية كهذه، لن يستحقوا تقرير المصير،...، لم تكن دولة فلسطين العربية قائمة أبدا))(١).

إن الهوية القومية بالشكل المتعارف عليه في عصرنا، لم تكن معروفة في التاريخ إلا في العصور الأوروبية المتأخرة، فهي أصلا لم تكن تخطر ببال الإسرائيليين القدماء، ولا يستطيع نتنياهو أن يُلزم ناساً مهما كانوا بترع حقهم من أرضهم التي هم فيها والتي هي لهم، بدعوى أنهم لم يملكوا هوية قومية على النمط الأوروبي في زمان ما، فعدم ملك قوم

---

(١) يُنظر: مكان تحت الشمس، لبنيامين نتنياهو، ترجمة محمد عودة الدويري، (٧٥-٧٦).

ما لهوية قومية على النمط الأوروبي لا يبرر سلب أرضهم منهم.

إنه يحاكم العرب والمسلمين بالمنطق الأوروبي، والذي ما تبناه إلا وهو يحسب أنه يفيده في هذه القضية.

إن كان في فقهاء القانون الدولي من يؤمن بهذا التأسيس للحق على طريقة نتنياهو، وذلك بطرد البشر من أرضهم لأنهم لم يشكلوا هوية قومية على النمط الأوروبي الحديث؛ فمن حق العدالة والأخلاق أن تدعو القانون الدولي إلى مراجعة نفسه على ضوء العدل والحق والخير، وإلى أن يتنحى أيضا عن الحكم على البشر!

ثم إن مسألة الحق التاريخي تأخذ في إسرائيل اليوم أشكالا من التنظير لحدود هذا الحق، أعني: لحدود المنطقة الخاضعة له..

"فالأيديولوجية اليهودية توصي بأن الأرض التي كانت في قديم الزمان، إما محكومة من حاكم يهودي كائنا من كان، أو موعودة لليهود من الله، إما في التوراة، أو بحسب تفسيرٍ حاخاميٍّ للتوراة والتلمود[1]، وهو الأهم سياسيا في الواقع؛ فإن هذه الأرض يجب أن تعود لإسرائيل، بما أنها دولة يهودية"[2]...

وهكذا يمضي الحاخامات وتلامذتهم من أمثال نتنياهو إلى توسيع رقعة الحق المُدَّعى، ليشمل رقعة أوسع بكثير من فلسطين، خاصة مع دعاوى اليهود أن داود عليه السلام لم يكن ملكا على فلسطين وحدها، وإنما كان إمبراطورا يحكم مساحات شاسعة، لا بد أن تصل إلى العراق والشام وسواهما؛ **إنه مع كل توجّه سياسي احتلالي، فلا بد أن ينطلق التنظير الديني والتاريخي ليؤسس لاحتلال جديد!**

---

(١) لا أعرف إن كان شاحاك يقصد بقوله: "وهو الأهم سياسيا"، التلمود ذاته، أو التفسير الحاخامي للتوراة والتلمود معا، والتفسيران ليسا بعيدين عن بعضهما، فالتلمود ذاته من صناعة الحاخامات وتفسيراتهم، وعليه، فالأمر لن يخرج عن التفسيرات الحاخامية في نهاية المطاف.

(٢) تاريخ اليهود، الديانة اليهودية، وطأة ٣٠٠٠ عام، تأليف: إسرائيل شاحاك، (٢٨).

ولكن، ثمة مشكلة أخرى، هي أشد وأعوص من المشاكل التي أشرنا إليها قبل قليـــل؛ إنها مشكلة هؤلاء اليهود المعاصرين الذين لم يكونوا في يوم من الأيام من أبناء يعقـــوب، فهل يتأسس لهم الحق في فلسطين وهم ليسوا من أبناء يعقوب عليه السلام، و لم ينتمـــوا يوما ما إلى دينه؟

سيرى القارئ الكريم في المبحث التالي تحقيقا حول حقيقة انتساب اليهود المعاصـــرين إلى يعقوب أو إبراهيم عليهما السلام..

الفصل الرابع: اليهود المعاصرون ليسوا بني إسرائيل

ونود أن نبين للقارئ الكريم حقيقة نسب اليهود الموجودين حاليا، للإجابة عن سؤال: هل هم أبناء يعقوب حتى يستحقوا العودة إلى فلسطين، أرض يعقوب عليه السلام.

إن كان ثمة حق لبني يعقوب عليه السلام في سكنى فلسطين، بعد أن غابوا عنها عدة قرون باختيارهم ومن غير أن يُطردوا منها، فكيف انتقل الحق إلى اليهود؟ إن الذين خرجوا من فلسطين أيام يعقوب هم بنوه لا اليهود، لأن اليهودية لم تكن قد نشأت بعد، بل إن الزمان ما عرفها إلا بعده ببضعة قرون..

أقول: إن كان ثمة حقٌ فهو لبني يعقوبَ، ويهودُ اليوم ليسوا من بني يعقوب كما سيأتي تحقيقه، وهم ليسوا على دينه أو دين أبنائه، فكيف يمكن أن ينشأ الحق لهم إذن؟!

إن الحقيقة التي سيأسف لصدقها نتنياهو وحاملو فكرته هي ما نطق به العلم، فلقد أثبت العلم أن اليهود المعاصرين لا تربطهم بيعقوب عليه الصلاة والسلام من صلة نسبية أبدا.

وبما أن بحثنا هذا لا يتخصص لهذه المسألة، وبما أن بيانها بالغ الضرورة، فلقد اكتفينا هنا فحسب بذكر شهادات من العلماء اليهود المتخصصين في مجالات شتى، ليلغوا فكرة اتحاد الجنس اليهودي عرقيا.

يقول الحاخام اليهودي بنيامين فريدمان: "**والحقيقة أن من يزعمون أنفسهم يهودا، المنحدرين تاريخيا من سلالة الخزر يشكلون أكثر من ٩٢% من جميع من يسمون أنفسهم يهودا في كل مكان من العالم اليوم، والخزر الآسيويون الذين أنشأوا مملكة الخزر في أوروبا الشرقية، أصبحوا يسمون أنفسهم يهودا بالتحول والاعتناق سنة ٧٢٠م وهؤلاء لم تطأ أقدام أجدادهم قط الأرض المقدسة في تاريخ العهد القديم**، هذه

حقيقة تاريخية لا تقبل جدلا))[1].

وقد أجرى **العالم اليهودي جوزفيتش أستاذ علم الأجناس في الجامعة العبرية** وعميد كلية الطب فيها، أجرى عدة تجارب بيولوجية على المهاجرين اليهود في فلسطين توصل إلى ما يلي: ((إن اليهود ليسوا بالشعب الواحد، بل هم طائفة دينية تضم جماعات مختلفة من الناس، اعتنقوا دينا واحدا، **فنسبة ضئيلة من يهود الأقطار العربية هم من نسل يعقوب وإسحاق، أما يهود أوروبا الشرقية فينتسبون إلى قبائل الخزر، وأما يهود أوروبا فمن أصل أوربي صميم** وقد اعتنقوا الدين اليهودي بعد القرن الثالث الميلادي على أيدي مبشرين من اليهود))[2].

وقد رفض فكرة النقاء العنصري أيضا **العالم المتخصص في الأجناس البشرية، اليهودي الأمريكي هاري شابيرو**[3]، **وهو يهودي أمريكي كان يشغل رئيس دائرة علم الأجناس البشرية في المتحف الأمريكي**[4]، وله دراسة بيولوجية عن الشعب اليهودي، نشرتها منظمة اليونسكو عام ١٩٦٠م[5]، **أثبت من خلالها رفض فكرة النقاء العرقي، وكذلك رفضها العالم الجنسي اليهودي فريدريك هيرتز**[6]، **والعالم اليهودي رافائيل**

---

(١) بنيامين فريدمان، يهود اليوم ليسوا يهودا (٤٤-٤٥)، نقلا عن: العنصرية اليهودية، (٤/٢٤٥).

(٢) خيري حماد (الصهيونية ١٠٦-١٠٧) نقلا عن العنصرية اليهودية، (٤/٢٤٨)، ويُنظر أيضا: العرب واليهود في التاريخ، للمؤرخ والآثاري العربي أحمد سوسة، (٧٠٣)، إذ أشار إلى تجارب جوزفيتش، ويُنظر أيضا: فلسطين والمزاعم اليهودية، تأليف أسماء عبد الهادي فاعور، (٢٤٣).

(٣) وقد قال ذلك في كتابه: اليهود تاريخ بيولوجي، (٧٤-٧٥)، نقله عنه آرثر كوستلر اليهودي في كتابه: إمبراطورية الخزر، (٢٣٤)، نقلا عن العنصرية الصهيونية، (٤/٢٤٢).

(٤)فلسطين والمزاعم اليهودية تأليف أسماء عبد الهادي فاعور، (٢٤٢)، وهامشها.

(٥) أبعاد المعركة مع إسرائيل والاستعمار، تأليف خيري حماد (١٣٦) نقلا كتاب فلسطين والمزاعم اليهودية تأليف أسماء عبد الهادي فاعور (٢٤٢).

(٦) في كتابه (race and civilization 3/3) نقلا عن الاستعمار والمذاهب الاستعمارية،

باتاي[1]، **والمؤرخ اليهودي سالوبارون**[2]، **وليفي رئيس جمعية بناي بيرث**[3].

وكتب المفكر اليهودي آرثر كوستلر وهو مجري مهاجر إلى بريطانيا، كتب كتابا قيِّما فنَّد فيه أكذوبة العلاقة بين الخزر نسل يافث وهو منهم، وبين الإسرائيليين نسل سام، سماه (**إمبراطورية الخزر وميراثها، القبيلة الثالثة عشرة**)، قاصدا من هذا العنوان أن يشير إلى أن الخزر يقعون خارج أسباط بني إسرائيل الاثني عشر، يقول في كتابه[4]: ((**إن الغالبية العظمى من اليهود الباقين في العالم هم من أصل أوروربي شرقي ومن ثم من أصل خزري، وإذا كان الأمر كذلك فإن هذا قد يعني أن أسلافهم لم يأتوا من وادي الأردن وإنما من الفولغا**، ولم ينحدروا من كنعان وإنما من القوقاز، ويصير من المعقد فجأة أنهم يمثلون بدايات الجنس الآري، وأنهم أوثق انتماء وراثيا إلى قبائل الهون والبوجر والمجر منهم إلى ذرية إبراهيم وإسحاق ويعقوب))، ويقول: ((قد يكون لدينا هنا في شرق أوروبا تيار ضعيف من اليهود ذوي الأصل السامي، ولكنه لا يمكن إلا أن يكون تيارا ضعيفا))[5]،

محمد عوض محمد، (١٨٣).

(١) إمبراطورية الخزر، تأليف آرثر كوستلر، (٢٢٨-٢٢٩)، نقلا عن العنصرية اليهودية، (٤/٢٤٦)، وروفائيل باتاي هذا مجري هاجر إلى فلسطين عام ١٩٣٧، حصل من الجامعة العبرية على أول شهادة دكتوراة، كما في دائرة المعارف البريطانية لعام ١٩٧٣ مجلد ١٢ (١٠٥٤).

(٢) الصهيونية بين الدين والسياسة، عبد السميع الهراوي، (٣٢٨)، نقلا عن العنصرية اليهودية، (٤/٢٥١).

(٣) القوى الخفية لليهودية العالمية الماسونية، (١٥٨-١٥٩)، لداود سنقرط، نقلا عن العنصرية اليهودية، (٤/٢٥٢).

(٤) إمبراطورية الخزر وميراثُها، القبيلة الثالثة عشرة، تأليف آرثر كوستلر (٢٢)، نقلا عن العنصرية الصهيونية، (٤/٢٤٤)،.

(٥) إمبراطورية الخزر وميراثُها، القبيلة الثالثة عشرة، تأليف آرثر كوستلر (٢١٣)، نقلا عن: العنصرية الصهيونية، (٤/٢٤٤).

ويقول أيضا: ((**إن اليهود ليسوا متجانسين من الناحية السلالية**))[1].

ولربما نقول جدلا: قد يكون لنتنياهو حق في أن يأتي أبناء يعقوب عليه السلام إلى هذه الديار، لكنه ومعظمَ اليهود المعاصرين، لن يستفيدوا من هذا الحقّ المُدَّعى، فهم ليسوا من بني يعقوب عليه السلام، ولو حقَّقنا في الأمر لوجدنا أبناء يعقوب قد تحوَّلوا إلى ديانات شتى، ابتداءً بالنصرانية بمجيء المسيح؛ التي هي أول ما صادفهم من الأديان؛ وانتهاءً بالإسلام، الذي تحوَّل إليه نصارى فلسطين والشام، الذين كان كثيرٌ منهم يهوديا إسرائيليا؛ وذلك بمجيء محمد **ج**؛ فلو وافقْنا نتنياهو وأصحاب فكرة الوعد الديني والحق التاريخي، لقلنا: إنهم فعلا قد أخذوا حقهم في هذا الوعد وذاك الحق، لكن باعتبارهم مسلمين أو نصارى فلسطينيين، رغم كونهم ذوي أصول إسرائيلية يعقوبية، وإلا فلْيُبرز لنا هؤلاء الدعاة ما يُثبت عكس ما نقول!

يا بؤس المُخادِعين إذا انكشف خداعُهم!

---

(١) المرجع نفسه، (٢٣٠)، نقلا عن: فلسطين والمزاعم اليهودية تأليف أسماء عبد الهادي فاعور (٢٤٢).

الباب السادس:

أسطورتا الوعد بالأرض والحق فيها تحت المجهر الإسلامي

م تغب الأساطير عن المساهمة في تشكيل العقل اليهودي، بل هي من أكبر المُشكِّلات لهذا العقل، الذي قبل فيما مضى من الزمان صورة للرب الخالق سبحانه وتعالى، لا يرضى بها آحاد البشر، وهي صورة مستلة من أساطير الأمم، وخرافات الماضين؛ وما دامت صورة الله تعالى قد أصابها هذا الخلل الفكري في العقل اليهودي، فمن الأحرى أن يصيب الخللُ نفسه صور قضايا أخرى، هي بالتأكيد أقل شأنا بكثير من قضية الألوهية؛ لتنصبغ هذه القضايا في التفكير اليهودي فيما بعد بالصبغة الخرافية اللاعقلانية، التي تريد أن تحكم المنطقة العربية حكما يعتمد في نهاية المطاف على الأسطورة.

إن الأسطورة هنا تعتمد في شِقٍّ منها على زعم أن الله تعالى أعطى اليهود وعدا منه سبحانه بأن تكون أرض كنعان أرضا خاصة باليهود، وفي شقها الآخر تعتمد على زعم أن فلسطين تاريخيا هي من شأن اليهود وحدهم، لتكون في حاضرها أيضا من شأنهم وحدهم.

ولقد سبق أن قرأ القارئ الكريم مناقشاتٍ واجهتُ بها الأسطورتين من جوانب شتى، غير أنني رأيتُ هنا أن أناقش الأسطورتين من منطلق آخر، تتأسس به في نظري كيفية جديدة تقوم على التنظير الفكري المستند على أصولنا في مناقشة هاتين الدعويين.

وعليه، فسأناقش الأسطورتين هنا انطلاقا مما أراه الفهم الصحيح لشرع الله تعالى، وسأعتمد على ما أفهم من ثوابت التفكير الإسلامي؛ وذلك لأجيب على سؤالين: أحدهما: هل يعطي الله وعدا بالأرض لقوم من الأقوام، وعلى أية مواصفات يمكن أن يعطي الله هذا الوعد، إن كان هذا الوعد ممكنا؟ والسؤال الثاني: هل يمكن أن يكون الوجود التاريخي القديم، لو ثبت، مستندا لحق حاضر؟

إنني هنا أحاول التأصيل لمناقشة الموضوع وفق الرؤية الإسلامية المنطلقة من مفاهيم الشرع الشريف، وأنا على جميع الأحوال أُدلي بدلوي في هذا الميدان اجتهادا مني، وأرجو أن يكون اجتهادا صائبا، وعذري في نهاية المطاف إن كنتُ أخطأتُ أن محاولتي ناشئة، لم

أطلع فيما قرأت على محاولة تأصيلية أخرى سبقتها، وفي مثل هذا الحال، يمكن أن يقـــع الخطأ في الفهم، لكنه خطأ غير لازم، فقد لا يقع..

وسينقسم هذا الباب إلى فصلين:

الفصل الأول: فكرة الوعد بالأرض، رؤية إسلامية.

الفصل الثاني: فكرة الحق التاريخي، رؤية إسلامية.

وعلى الله الاتكال.

الفصل الأول: فكرة الوعد بالأرض، رؤية إسلامية[1]

سوف أطرح ههنا نظرية حول مسألة الوعد الإلهي بالأرض، لأضع الأمر في إطـــاره الذي أرى الشرع الحنيف يسوقنا إليه، والله الهادي إلى الصواب.

الأرض أرض الله تعالى، وهو صاحب الحق في أن يعطي منها وأن يمنع من يشاء، فهو وحده الخالق المالك سبحانه، قال الله تعالى: (**قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير**).

وما دامت الأرض أرضَ الله تعالى، فإننا سنحاول أن نستلهم نصـــوص الشـــرع في التعرف على الأسس الكامنة فيها، المتعلقة بالأرض ولمن تكون، ثم بناءً عليهـــا ســـنناقش الموضوع إن شاء الله تعالى.

قال سبحانه وتعالى حاكيا قول سيدنا موسى ج: (قال موسى لقومه استعينوا بـــالله واصبروا، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عبادِهِ والعاقبة للمتقين)[2]، وقال ســـبحانه: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عباديَ الصالحون)[3]، وقال سبحانه أيضا: (وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيهـــا، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه

---

(١) تطارحْتُ وأخٌ لي من أهل البحث فكرة الوعد في سجن مجدو في حـــدود عـــام ١٩٩٦م، ورأيتُني أتفق وإياه تماما على مجمل الفكرة التي يراها القارئ أمامه، دون أن يكون بيننا مسبقا شيء من النقاش فيها، وأرى أن ذلك يدل على أن الحق ينتهي بأصحابه إلى رؤية واحـــدة، إذا كـــان المنطلـــق واحدا.

(٢) سورة الأعراف، الآية (١٢٨).

(٣) سورة الأنبياء، الآية (١٠٥).

وما كانوا يعرشون)[1]، وقال سبحانه مخاطبا إبراهيم عليه السلام: (قال إني جاعلُك للناس إماما، قال: ومن ذريتي، قال: لا ينال عهدي الظالمين)[2].

هل من الممكن أن نشكل رؤية للموضوع، تنطلق من هذه الآيات، وربما من شبيهات لها أيضا، تلك التي تتضمن موضوع الأرض ولمن تكون؟ هذا ما سوف نراه إن شـــاء الله تعالى.

يختلف الأمر في فهم الإنسان المسلم، بين أن تكون الأرض لمـــن يأخـــذ بالأســـباب المشروعة في تملُّكِها؛ فيزرعها ويعمرها ويستغل ما فيها من طاقات كامنة، ويستخرج منها دُرَرَها وخيراتها، ويتعرف على سننها، ثم يوجهها لخدمته[3]؛ وبين أن يَعِـــدَه الله تعـــالى

---

(١) سورة الأعراف، الآية (١٣٧).

(٢) سورة البقرة، الآية (١٢٤).

(٣) لن ندخل في تفصيل هذا الجانب، لأنه ليس جزءا من موضوعنا، لكـــن، لـــن نتركـــه دون إشارات قصيرة إليه..

إن الأخذ بأسباب الحياة والعمران لا يختلف فيه المسلم عن الكافر، كما لا يختلف المســـلم عـــن الكافر إن شرب كلاهما الماء، فإن ظمأهما يذهب، وإن شرب الكافر الماء، و لم يشربه المسلم، فإن ظمأ الكافر يزول، ويبقى ظمأ المؤمن يعكّر عليه صفو حياته، وإن شرب المؤمن و لم يشرب الكافر، ذهـــب ظمأ المؤمن وبقي ظمأ الكافر، لا يقال: إن ظمأ المؤمن هنا ذهب لإيمانه، كما لا يقال: إن ظمأ الكافر لم يزُل لكفره، كما لا يقال: إن المؤمن بقي ظمآنا في الحالة التي لم يشرب فيها ماءً لأن إيمانـــه حـــال دون ذلك، ولا إن الكافر في هذه الحال صار ريانا لأنه كافر؛ لا يقال شيء من كل هذا، لأن ما يمكن أن يقال هو شيء واحد: إن الأخذ بأسباب الري أو عدم الأخذ بها هو كل ما هنالك، فمن شرب زال ظمؤه، مسلما كان أو كافرا، ومن لم يشرب، ثقل عليه ظمؤه حتى يودي بحياتـــه، مؤمنـــا كـــان أو كافرا..

وكذلك يقال في شؤون الحياة كلها: من أخذ بأسبابها، بذلت له خيراتها، لأنها هكذا جعلـــها الله تعالى: لا تُعطى إلا لمن مدّ يده، مستنجدا أسبابها، مستلهما ما قدّر الله فيها من أسباب الحياة..

ولا تُملك الأرض إلا بالعمل، أو بسبب يستند أساسا على العمل، كإهداء أو وصية أو توريث أو صدقة، حتى تملّك اللقطة، فإن الالتقاط نوع عمل يعمله الملتقط، ينال به حق التملـــك علـــى بعـــض

بشيء منها، لمجرد نسب عِرقي، أو انتماءٍ لشعبٍ ما، أو لمواصفات التزم بها..

لن ندخل في تفصيل الجانب الأول من القضية، فمكانُه كتب فقه المعاملات في الأبواب ذات العلاقة بالملكية الفردية، أو بملكية العقارات خاصة، غير أننا سنطرق أبواب الجانب الثاني من الموضوع، فهو ذو العلاقة بموضوعِنا.

الجانب الآخَر في تقديري هو ما يمكن إدخاله في إطار تَملُّكِ أمة من الأمم باعتبارها الجماعي لأرض من الأراضي، على سبيل حُكمِها والسيطرة على أهلِها، دون غيرِها من الأمم؛ أو تملُّك شعبٍ من الشعوب أو عِرق من الأعراق، دون غيرهما من الشعوب أو الأعراق، لأرض من الأراضي، وذلك بغض النظر عن تملُّك أفراد هذه الأمة أو هذا الشعب، لجميع رقبة هذه الأرض ملكية فردية[1].

وهو المقام الذي يخوِّل لصاحبه، وهو هنا: الأمة أو الشعب أو العرق؛ منزلة الإمامة بين الأمم، أو الإمامة للأمم في بقعة ما من البقاع، وهو ذلك المقام الذي ورد في قوله تعالى عن بني إسرائيل يوم أن كانوا يستحقون هذا المقام: (**ونريد أن نمنَّ على الذين**

المذاهب في حال عدم عثوره على صاحب المال..

وكل من ملك بهذه الطرق كان مالكا شرعا للمال، ما لم يكن طريق التملك عملا مرفوضا شرعا، كربا أو سرقة أو أن يكون المال مما حظر الشرع تملّكه..

وهذا الذي قرَّرْناه هو ما يدخل في إطار المِلكية، تلك التي تتبع في الحصول عليها أنواع التملُّك التي أباحها شرع الله سبحانه وتعالى، مما لا يختلف فيه المسلم عن الكافر إلا في أضيق حدود، كالسماح للنصراني دون المسلم بتملك الخنزير مثلا.

(١) ومن أجل تحديدٍ أوضح للموضوع، فليس من موضوعِنا حقُّ شعبٍ من الشعوب في أرض من الأراضي، إذا كان هذا الشعب قد وُجِدَ فيها، بأن وُلِدَ أبناؤه فيها، أو هاجروا إليها، وشاركوا أهلها الأصليين بعمرانِها، واشتروا منها في إطارٍ خارج عن الاغتصاب أو التزوير، وما شابه ذلك، فمثل هذا ليس من شأن موضوعنا، ولن نتحدث فيه، إذ الأصل أن مثل هذا النوع من تملك الأرض عائد إلى اتفاقٍ بين الناس، وهو مُقَرٌّ شرعا، ما لم يدخل فيه غش أو تزوير أو إكراه، أو أي شكل من أشكال المعاملات المحرمة.

استُضعفوا في الأرض، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين، ونمكِّن لهم في الأرض..)[١]، وهي أن يُخرج اللهُ قوما ما من الأقوام من ذل العبودية، وأن يجعلهم ((أمة حرة مالكة أمرَ نفسها، لها شريعة عادلة وقانون معاملاتها، وقوة تدفع بها أعداءها، ومملكة خالصة لها، وحضارة كاملة تفوق حضارة جيرانها، **بحيث تصير قدوة للأمم في شؤون الكمال وطلب الهناء، فهذا معنى جعلِهم أئمة**))[٢].

إنه يلزم من الوعد بالأرض على هذا الذي نشرحه، وعدٌ بالإمامة على من فيها من الناس، إذ لا معنى للوعد بالأرض خارج إطار الإمامة والرياسة، **لأن المقصود ليس وعدا بملكية فردية يستفيد منها فرد من الأفراد أو مجموعة أفراد أو شعب من الشعوب، وإنما، وكما هو المطروح إسرائيليا، على الأقل حسب الشكل التطبيقي القائم حاليا في فلسطين تحت سيطرة اليهود، المطروح إسرائيليا حسب كل ذلك هو: وعد بأرض تحت رياسة قوم من الأقوام، على من فيها من الناس، وإن كان يلزم من هذا الوعد حسب حاله التطبيقي الآن: تخويل من ادَّعى بأن الأرض له أن ينزع رقبتها ممن كانوا فيها، وهم أهلها الفلسطينيون، وأن يطردهم خارجها.**

وهذا المعنى هو الذي يؤكده ابن عاشور عند تفسيره لقوله تعالى: (**وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها**)[٣]، وذلك في قوله، أي ابن عاشور: ((**أي أن الله ملّكهم الأرض وجعلهم أمة حاكمة**))[٤]، فالحكم والرياسة هما المضمون الحقيقي لوعد الله تعالى لأمة من الأمم بالأرض.

فهل يَعِدُ الله تعالى قوما من الأقوام بمثل هذا المقام؟ وإن كان سبحانه وتعالى يعِدُ بمثله، فلِمَن يُعطي مثل هذا الوعد؟

---

(١) سورة القصص، الآية (٥-٦).

(٢) تفسير التحرير والتنوير، للإمام محمد الطاهر بن عاشور، (٧١/٢٠).

(٣) سورة الأعراف، الآية (١٣٧).

(٤) تفسير التحرير والتنوير، للإمام محمد الطاهر بن عاشور، (٧٦/٩).

وابتداءً، فإننا نُسرع إلى تقرير أن مثل هذا الوعد لا يُمكن في نظر الإسلام أن يُعطى لنسلٍ من الأنسال أو لعرقٍ من الأعراق أو لشعبٍ من الشعوب؛ **وذلك يرجع ببساطة إلى أن مجرّد الانتساب إلى أصلٍ من الأصول، لا يتضمن بالضرورة فلسفة تحدد رؤية للحياة وتنظيما لها، وتحديدا لجوانب الحق فيها، وتعيينا لأبواب الخير والعدل في نواحيها**، فالأعراق لا تملك أكثر من النسب، والنسب لا يملك أكثر من تراثٍ مُتَناقَل بين أبنائه في أكثر الأحيان، وقد يكون حقا وقد يكون باطلا، وقد يكون مزيجا منهما، **والنسب لا يملك في مضمونه عقيدة أو تشريعا، وإنما هو في حاجة إلى البحث عن تشريع واعتقاد، وقد يضلُّ في بحثه وقد يهتدي، لكنه بمجرده لا يعني فيما يعني بالضرورة رؤية للحياة وللعلاقات بين الأمم، وإن ملَك هذه الرؤية، فليس بالضرورة أن تكون هذه الرؤية منبثقة عن الحق..**

ذلك أن صيغة العدل والخير والحق هي الصيغة التي لا بد أن يسير وفقها من يُهَيْمِنُ على الأرض حسب نصوص الشرع؛ لِيُقيم العدل بين الناس، وذلك غير مرتبط بعرقٍ من الأعراق أو نسبٍ من الأنساب أو شعبٍ من الشعوب، والله تعالى يُحب العدل ويكره الظلم من أي عِرق كان العادل أو الظالم، **فمن ملك صيغة الحق والعدل والخير تلك، فهو أحرى أن ينال الوعد باستحقاق الهيمنة على الأرض، ومن لم يملكها، فهو أجدر أن يكون محكوما فيها بالعدل، مُهَيْمَناً عليه فيها، لا مهيمِنا على من سواه، لينال عدلَها وخيرها وحقها من خلال سيطرة غيره عليها، محكوما لا حاكما**، ذلك أنه لا يملك صيغة الحق والعدل والخير، فإن حَكَم لمجرد عِرقِه أو أصلِه فهو أحرى أن يَظلم، وأن يحيدَ ويبغيَ ويتبعَ سبلَ الشر.

غير أننا ندخل الموضوع من خلال بابِه الأولي، وهو باب العهد بالإمامة، فهي في تقديرنا تتضمن المعنى الذي نحن فيه، ثم بعد ذلك سوف نَلِجُ موضوع الوعد بالأرض بالذات..

إنه في إطار هذا الوعد بالإمامة جاء قوله سبحانه ذاكراً حواراً دار بينه وبين إبراهيم

عليه السلام: (**قال إني جاعلُك للناس إماما، قال: ومن ذريتي، قال: لا ينال عهدي الظالمين**)[١]، والآية نصٌّ في أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام نال مرتبة الإمامة، وهي هنا: الرسالة، قال الأستاذ الإمام ابن عاشور: ((والمراد بالإمام هنا الرسول، فإن الرسالة أكمل أنواع الإمامة..))[٢]، أي أن الله تعالى أعطى إبراهيم ج أعلى مراتب الإمامة، ولكن إبراهيم عليه السلام سأل الله تعالى أن تكون الإمامة في مستقبل الأيام في بنيه، من باب ذلك الحب الفطري الذي يُكِنُّه الإنسان، نبيا أو غير نبيٍّ لأبنائه؛ لكن، لا على معنى النبوة بالضرورة، بل على معنى أشكال أخرى من الإمامة أيضا، وهكذا، فحينما قال إبراهيم ج: (**ومن ذريتي**) فإنه يكون ((قد سأل أن يكون في ذريته الإمامة بأنواعها، **من رسالة ومُلكٍ وقدوة**، على حسب التهيؤ فيهم))[٣]، ولذا حسم الله تعالى الأمر مؤكِّدا ألا وعد للظالمين بالإمامة على هذا المعنى الذي بيناه، والذي نقلناه أيضا عن ابن عاشور، وإذن، وكما يقول الأستاذ الشهيد سيد قطب، فالإمامة الممنوعة على الظالمين ((تشمل كل معاني الإمامة: إمامة الرسالة، وإمامة الخلافة، وإمامة الصلاة، وكل معنى من معاني الإمامة والقيادة، **فالعدل بكل معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة في أي صورة من صورها، ومن ظَلم -أي لون من ألوان الظلم- فقد جرّد نفسه من حق الإمامة، وأسقط حقه فيها بكل معنى من معانيها**))[٤]، وهذا الذي جرّد نفسه من حق الإمامة وأسقط حقه فيها، إن تمكّن من نيلها على معنى من معانيها الدنيوية فإن نيله إياها يكون اغتصابا لا استحقاقا، أي أن الدين لا يقرُّه على نيله إياها.

وإنني أؤكّد ضرورة الاستدلال برفض الله تعالى الاستجابةَ لسؤال إبراهيم ج الإمامةَ لبنيه، لفلسفة عدم الارتباط الضروري بين النسل والعدل؛ أوقل: إنني أؤكد ضرورة هذا

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٢٤).

(٢) تفسير التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، (٧٠٣/١).

(٣) المرجع نفسه، (٧٠٤/١).

(٤) في ظلال القرآن، للأستاذ الشهيد سيد قطب، ؒ تعالى، (١١٢/١).

الاستدلال لنواجه به دعوى التوراة والتوراتيين أن الله أعطى إبراهيم وعدا بأن تكون أرض كنعان له ولذريته من بعده، ولنواجه الدعوى التوراتية نفسها بأن الله أعطى هذا الوعد لإسحاق ويعقوب وموسى عليهم السلام؛ فما دام الله تعالى أبى أن يَعِد إبراهيم أن تكون الإمامة في ذريته، فإن دعوى التوراة مرفوضة إذن!

وهكذا يتَّضح أن الوعد غير مرتبط بنسل، إنما بمواصفات يرضاها ربُّ العزة سبحانه، وهي في مجملِها: مواصفات العدل، ولذا، فقد نفى من لم يكن من أهل العدل عن استحقاق هذا العهد والوعد، قال تعالى: **(لا ينال عهدي الظالمين)**، وفي هذا بيانٌ ((بالفريق الذي تتحقق فيه دعوة إبراهيم))[1]، أي أن نفي استحقاق الظالمين العهدَ بالإمامة، بأي شكل من أشكالها، نبوَّةً أو مُلكاً أو مكانَ قدوة بين الأمم؛ **يتضمن استحقاق نقيض الظالمين لهذا العهد، وهذا النقيض هو من كان من أهل الطاعة والعدل**، فالظالم على هذا ليس ذا عهد عند الله تعالى بالإمامة، وبالتالي، وكما سيأتي، ليس ذا حق بوعد بالأرض، بما يلزم هذا الوعد من الإمامة بين الناس والحكم فيهم، فلا يُعطيه الله تعالى الحق بالحكم ولا بالملك في الأرض، على المعنى الذي شرحناه، ولو كان من أبناء إبراهيم عليه السلام نفسِه، وهو إن أخذها فليس بوعد الله، وإنما بظلمٍ من البشر، وغفلة من أهل العدل والخير والبر والرشد، ((إن الإمامة -يقول الشهيد سيد قطب- لمن يستحقونها بالعمل والشعور، وبالصلاح والإيمان، **وليست وراثة أصلاب وأنساب**))[2].

أما الوعد بالأرض على الوجه الذي قصدناه من كونه متضمِّنا معنى الرياسة فيها، فإنه نفسه يتضمن أيضا معنى الإمامة، تلك التي ألقينا عليها أضواءً عبر السطور الماضية، إذ هو قائم أساساً على أن الأرض لله، كذا قال تعالى، وما دامت الأرضُ أرضَ الله تعالى، فالله يعطي الوعد بها لِمن يشاء هو لا لمن يشاء سواه، ولقد اقتضت حكمتُه سبحانه واقتضى

---

(١) تُنظر هذه النُتفُ في تفسير الآية في: التحرير والتنوير، للإمام محمد الطاهر بن عاشور، (٧٠٣/١-٧٠٦).

(٢) في ظلال القرآن، للأستاذ الشهيد سيد قطب، : تعالى، (١١٢/١).

عدلُه ألا يُعطَى بها وعدٌ إلا وفق ما يُرضيه سبحانه، فهي لا تُوعَدُ على سبيل الهيمنة على العباد المقيمين فيها، وعلى سبيل الحكم والسيطرة، إلا للصالحين؛ يدلنا على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عباديَ الصالحون، إنّ في هذا لبلاغا لقوم عابدين**﴾[1].

هذا ورغم أن من العلماء من يرى تفسير الأرض في هذه الآية بأنها الجنة، وهو قول الإمام القرطبي الذي قال[2]: ((أحسن ما قيل فيه أنه يراد بها أرض الجنة، كما قال سعيد بن جبير، **لأن الأرض في الدنيا ورثها الصالحون وغيرُهم**))، غير أن هذا التعليل الذي ساقه غير صحيح في تقديري، **فليس موضوعُ الآية التعهُّدَ بانفراد المؤمنين وحدهم بقيادة الأرض**، حتى يفسِّر الإمام القرطبي الأرض بالجنة، استنادا منه على أن المقصود أنه لو كانت الأرض أرضَ الدنيا لَما ملك الكافر منها شيئا، والواقع أن الكافر ملك منها كثيرا وزمانا طويلا؛ ليس هذا موضوعَ الآية، وإنما موضوعها هو تعهُّد الله تعالى لأقوام بقيادتها، إذا التزموا شروط القيادة؛ وعلى هذا، فثمة فرقٌ بين أن يتملّك الأرضَ والحكمَ فيها مؤمنون أو سواهم، وبين أن يعِدَ الله فريقاً بها، يعطيهم إياها كرامة لهم منه سبحانه، **فقد يملكُها غير المؤمنين، وهو حاصل كثيرا في التاريخ القديم، وهو الحاصل حاليا، لكن ذلك ليس عن موعِدةٍ وَعد الله بها هؤلاء، إنما الأمر في مجمله يدور حول تقصيرٍ من أصحاب الاستحقاق، سواء كان تقصيرا في الطاعة، أو في الأخذ بالأسباب؛ أدى بهم إلى أن يَكِلَهم الله تعالى إلى أنفسهم، فإن كان تقصيرا في الطاعة وَوُلوغاً في المعصية، فحينها يستوون مع الكافر في المعصية كما ورد عن عمر بن الخطاب ط؛ ولا عهد من الله لفريق بالنصر والتمكين؛ وإن كان تقصيرا في الأخذ بالأسباب التي توجبها أصلا معاني الإيمان، وسيرا في مفاهيم خاطئة لمعاني التوكل على الله تعالى؛ فإن الحسم في كلا**

(١) سورة الأنبياء، الآية (١٠٥-١٠٦).

(٢) تفسير القرطبي، (٣٤٩/١١)، ثم نسب بعد ذلك إلى ابن عباس ب أنها الأرض المقدسة، ونسب إليه أيضا أنها أرض الأمم الكافرة ترثها أمة محمد ج.

الحالين للقوة ومن يملكها؛ فإن لم يكن لأهل الإيمان ما يُسعفهم من القوة، غُلبوا من قِبل غيرهم دون تدخل من الله، ويترك الله سننه في الكون تسير، ويترك نواميس الحركة الاجتماعية تعمل وفق قوانينها التي يكون مالكُها في هذا الحال الكافر لا المسلم؛ وها هنا تُسلَب الأرض من المؤمنين بسبب انصياع حركة الحياة لمن أخذ بالأسباب، وحينها يكون الكافر هو من يملك الأمر والسيادة، لكن، لا على وعدٍ من الله تعالى، ذلك الوعد الذي يتضمن معنى العطاء والإكرام والهدية، بل على قاعدة سير الأسباب مع نتائجها، بغض النظر عمن ملك هذه الأسباب واستفاد من سنن الله في كونه(1).

وهذا الأمر شبيه في تقديري لوعد الله تعالى بالنصر لأهل الإيمان، رغم أنهم قد لا ينالونه، وذلك في حال عدم التزامهم بشرائط هذا النصر، فينال النصرَ أولئك الذين أخذوا بعالم الأسباب وإن كانوا كافرين، ولكن لا على سبيل أن الله وعدهم به، وإنما على سبيل انفساح الأسباب أمامهم، وسلوكهم فيها، فنجحت الأسباب في حال غياب سبب الأسباب عند أهله، وهو مجمل شرائط الإيمان.

فالذين لا يلتزمون لا تتدخل عناية الله لصالحهم؛ فإن نالوا الأرض، **فبسبب تراجع أصحاب الحق عن الالتزام بالشروط التي منها: الأخذ بالأسباب، وهنالك تكون الأرض للأقوى، ولمن أخذ بأسباب القوة،** فإن بغى وظلم أتاه أمر الله بأن يهيء في الناس من يستحقون الخلافة بإيمانهم وبأخذهم بعالم الأسباب، فإن لم يوجد مثل هؤلاء، **فالأمر يدور في عوالم من الصراع بين الظالمين والظالمين، وفقاً لموازين القُوى فحسب، دونما تدخُّلٍ من الله تعالى أو تعهُّدٍ منه لفريق من الفرقاء.**

---

(1) لكن، بإمكاننا أن نقول: إن في تحوُّل ملك الأرض على سبيل القيادة لأهلها من المؤمنين إلى الكافرين؛ إن فيه توعُّدا من الله تعالى لمن ترك الالتزام بدينه، أن يصيبه بداء التبعية للأمم حتى ينهض بلوازم دينه، التي منها ضرورةً: الأخذ بعالم الأسباب، وذلك استنادا منا إلى الآيات التي تتضمن الوعد بالنصر وفق شروط الإيمان، تلك الشروط التي من لم يأخذ بها، فلا وعد له من الله بالنصر.

يقول الشيخ الأستاذ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور ط: ((وقد عُلم من قوله تعالى: (**والعاقبة للمتقين**) أن من يشاء الله أن يورِّثهم الأرض هم المتقون، **إذا كان في الناس متقون وغيرُهم، وأن تمليك الأرض لغيرهم إما عارِضٌ، وإما لاستواء أهل الأرض في عدم التقوى**))[1]، ويقول الأستاذ الشهيد سيد قطب : تعالى: ((وقد يغلب على الأرض جبارون وظلمة وطغاة، وقد يغلب عليها همجٌ ومتبربرون وغزاة، وقد **يغلب عليها كفار فجار، يحسنون استغلال قوى الأرض وطاقاتها استغلالا ماديا، ولكن هذه ليست سوى تجارب الطريق، والوراثةُ الأخيرة هي لعباد الله الصالحين**..))[2]، وكلام الأستاذَيْن الإمام والشهيد ب غاية في بيان المقصود.

ويقول الأستاذ الشهيد أيضا: ((وحيثما اجتمع إيمان القلب ونشاط العمل، فهي الوراثة للأرض في أي فترة من فترات التاريخ، ولكن حينما يفترق هذان العنصران، فالميزان يتأرجح، وقد تقع الغلبة للآخرين بالوسائل المادية، حين يهمل الأخذ بها من يتظاهرون بالإيمان، وحين تفرغ قلوب المؤمنين من الإيمان الصحيح، الدافع إلى العمل الصالح، وإلى عمارة الأرض..))[3]، وحيثما اجتمع العمل الصالح والأخذ بالأسباب، فالذي يرث الأرض هو مَن كان مِن عباد الله الصالحين، ومن هنا يكون الأمر قد اتضح.

ونعود إلى ما كنا فيه من قولِه تعالى: (**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عباديَ الصالحون، إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين**)[4]، ونقول: إن احتمال معنىكلمة الأرض الواردة في أثنائها بالأرض في الدنيا وارد أيضا، بل ربما يكون هو الأوْلى، وهو الظاهر من تفسير الأستاذ الشهيد سيد قطب للآية، فلم يتطرق في حديثه حولها إلى تفسيرِها بأرض الجنة في الآخرة، وإنما كان كلٌّ حديثه دائرا حول قيام الإنسان

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، للإمام محمد الطاهر بن عاشور، (٩/٦٠-٦١).

(٢) في ظلال القرآن، للأستاذ الشهيد سيد قطب، : تعالى، (٤/٢٤٠٠).

(٣) المرجع نفسه، (٤/٢٤٠٠).

(٤) سورة الأنبياء، الآية (١٠٥-١٠٦).

على الأرض، باستحقاقه الوراثة عليها حين التزامه بشروط هذه الوراثة[(١)].

وهو ما يظهر بوضوح في تفسير الإمام ابن عاشور، ولْينظر معي القارئ إلى نص كلامه، فلقد قال في سياق حديثه عن الإيمان كأهم سبب من أسباب التمكين في الأرض: ((فبه يتيسر للأمة تناول أسباب النجاح، وبه يَحُفُّ اللطف الإلهي بالأمة في أطوار مزاولتها واستجلابها، بحيث يدفع عنهم العراقيل والموانع، وربما حف بهم اللطف والعناية عند تقصيرهم في القيام بها، وعند تخليطهم الصلاحَ بالفساد، فرفق بهم ولم يُعجِّل لهم الشرَّ، وتلوّم لهم في إنزال العقوبة، وقد أشار إلى هذا قوله تعالى: **(ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عباديَ الصالحون، إن في هذا لبلاغا لقومٍ عابدين، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)**، يريد بذلك كلِّه المسلمين))[(٢)].

ولقد توسَّع الأستاذ الإمام ابن عاشور في تفصيل المعنى، فقال بعد أن ساق احتمال كونِها أرضَ الجنة: ((وإن كان المرادُ أرضاً من الدنيا، أي مصيرها بيد عباد الله الصالحين، كانت هذه الآية مسوقةً لوعد المؤمنين بميراث الأرض التي لقوا فيها الأذى، وهي أرض مكة وما حولها..))، لكن لفظ الأرض في الآية جاء مطلقا، دون تقييد بأرض ما من أرض الدنيا، فلذا يقول الشيخ: ((**على أن في إطلاق اسم الأرض ما يصلح لإرادة أن سلطان العالم سيكون بيد المسلمين ما استقاموا على الإيمان والصلاح**))، وأما مناسبة ذكر هذا الوعد في الزبور، (**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر..**)، فهو ((الإيماء إلى أن الوعد المُتَحَدَّثَ عنه هنا هو غير ما وعد الله بني إسرائيل على لسان موسى،...، وأنه غير الإرث الذي أورثه الله بني إسرائيل من المُلك والسلطان، لأن ذلك وعْدٌ كان قبل داود، فإن مُلكَ داودَ أحد مظاهره؛ **بل المرادُ الإيماءُ إلى أنه وعْدٌ وعَدَه الله قوما صالحين بعد بني إسرائيل، وليسوا إلا المسلمين، الذين صدقهم الله وعْده، فملكوا الأرض ببركة رسولهم ﷺ وأصحابِه، واتسع مُلكُهم، وعظم سلطانُهم**))، ويظهر أن كلامه هذا جاء

(١) يُنظر: في ظلال القرآن، للأستاذ الشهيد سيد قطب، : تعالى، (١٣٦٠/٣).

(٢) تفسير التحرير والتنوير، للإمام محمد الطاهر بن عاشور، (٢٨٤/١٨).

ليدفع الوهم القاضي بأن المراد بهذا الوعد هم بنو إسرائيل، إذ إن ورود الوعد في الزبــور المنزَّل على داود الذي جاء بعد موسى بقرون، يفيد أن الوعد هو لقومٍ يأتون بعــد داود عليه السلام، ولن يكونوا بني إسرائيل، لسبب بسيط هو أن بني إسرائيل كانوا بعد عهدَي داود وسليمان بين فاسق وكافر، وقليل منهم من كان صحيح الإيمان، فلا بد أن يكــون المقصود غيرهم، وهم بلا شك أمة محمد ج.

وحول قولِه تعالى في الآية المتقدمة: (**إن في ذلك لبلاغا لقومٍ عابدين**)، يقول الأستاذ ابن عاشور: "والقومُ العابدون هم أصحاب رسول الله ج ون، الموجــودون يومئــذٍ، والذين جاؤوا من بعدِهم"، "وقد ورثوا هذا الميراث العظيم وتركوه للأمة بعدهم، فهــم فيه أطوارٌ، كشأن مختلِف أحوال الرشد والسفه في التصرف في مواريث الأسلاف"(١).

وأما العباد الصالحون الموعودون بالوراثة في الأرض، فيقول عنهم القرطبي: "وأكثــر المفسرين على أن المراد بالعباد الصالحين أمة محمد ج "(٢)، **ذلك أن الوعد بالوراثــة لا يمكن أن يرتبط بنسل من الأنسال، كبني إسرائيل أو بني يعربٍ مثلا**، بل بوصف يرضاه الله وهو وصف الصلاح، وهذا الوصف لا يتحقق إلا بأمة محمد ج، فهي الــتي تمتلــك القدرة على الاتصاف بالصلاح، لمُلكها منهجية الصلاح ممثلة بالقرآن والسنة، وذلك غير مرتبط بعِرقٍ من الأعراق.

إذن، فالوعد بالهيمنة على العباد والبلاد، ليس مجرد وعدٍ بتملك قطعــة أرض، بــل يتضمَّن هذا الوعدُ إسلام أموال الناس وأعراضِهم ورقابِهم وشــؤونهم كلِّهــا إلى ذلــك الإنسان الذي وعده الله تعالى بها، وعلى هذا، فإن الموضوع يرجع برُمَّتِه إلى نوع الصيغة التي سيَحكمُ بها هذا الموعودُ له، ولن يكون راجعا إلى أصلِه العرقي، فإن كان قد ملــك صيغة الحق والخير والعدل، فإنه سيكون متأهلا لوعد الله تعالى ولو بعد حين، وإن لم يملك هذه الصيغة فليس ثمة وعد من الله، وإن كان ثمة وعدٌ فهو من الشــيطان! والشــيطان لا

---

(١) المرجع نفسه، (١٧/١٠١-١٠٤).

(٢) القرطبي في تفسيره (١١/٣٤٩).

وفاء له.

ومن هنا، فالذي يتضح هو أن الله تعالى إنما يُعطى الوعد بالأرض على سبيل الهيمنة عليها وعلى أهلِها، لأولئك الذين يملكون إن حكموا أن يعدلوا، وإن كانوا أقوياء أن يكونوا رحماء، وهذا ما نستطيع أن نفهمه من قوله تعالى: (**قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عبادِه والعاقبة للمتقين**)(١)، والآية كما نرى تنطق بالمسألة التي نحن فيها مباشرة، فالأرض لله، وهو يورثُها من يشاء من عباده، والعاقبة هي لأهل التقوى، فلهم إذن تُعطى الأرض على السبيل الذي نحن بصدده، وعلى هذا، فإن تملك ظالم الحكم على رقاب الناس، وملك من أسباب القوة ما قد ملك، وحجب من أسباب القوة ما قد حجب عمن سواه من الناس، **فإنَّ مُلك مثل مَن هذا حالُه قد يوقع في نفوس أصحاب صيغة الحق والعدل ألا إمكان لزوال أهل الباطل، ونلمح في الآية التي ذكرناها قبل سطور تطمينا لأصحاب الحق أن الله هو الذي يُعطي، لأنه هو الذي يملك، فإن غلب غالبٌ، فليس إلى الأبد.**

ففي قوله تعالى: (**إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده**)، كما يقول الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: ((كناية عن ترقب زوال استعباد فرعون إياهم، **قصد منها صرف اليأس عن أنفسهم، الناشئ عن مشاهدة قوة فرعون وسلطانه**، بأن الله الذي خوله ذلك السلطان قادر على نزعه منه، لأن ملك الأرض كلها لله، فهو الذي يقدِّر لمن يشاء ملك شيء منها، وهو الذي يقدِّر نزعَه)).

ويقول الأستاذ الإمام ابن عاشور: ((فالمراد من الأرض هنا: الدنيا، لأنه ألْيَقُ بالتذييل، وأقوى في التعليل، فهذا إيماءٌ بأنهم خارجون من مصر وسيملكون أرضاً أخرى))(٢)، ويقول الشيخ حول قوله تعالى : (**والعاقبة للمتقين**): ((فإذا عُرِّفت العاقبة باللام، كان

---

(١) سورة الأعراف، الآية (١٢٨).

(٢) وهذا في حال استمرارهم ملتزمين بشروط الإيمان، فإن تخلفت الشروط أثناء الطريق، فلا وعد، كما قد بينا.

المراد منها: **انتهاءَ أمرِ الشيء بأحسنَ من أولِه**،...، فالمراد بالعاقبة هنا: عاقبة أمورِهم في الحياة الدنيا، ليناسب قوله: (**إن الأرض لله يورِثُها من يشاءُ من عبادِه**)، وتشمل عاقبة الخير في الآخرة، لأنها أهم ما يلاحظه المؤمنون))، ويقول أيضا: ((وقد عُلم من قوله تعالى: (**والعاقبة للمتقين**) أن من يشاء الله أن يورِّثهم الأرض هم المتقون، **إذا كان في الناس متقون وغيرُهم، وأن تمليك الأرض لغيرهم إما عارِضٌ، وإما لاستواء أهل الأرض في عدم التقوى**))[1]، وهكذا، فلا يجوز أن يَنْدَبَّ اليأس في نفوس الناس، إن رأوا فرعوناً من الفراعنة قد ملكَ وأهلكَ، فما الفراعنة إلا قومٌ فاشلون في الاختبار والابتلاء بالحكم في الأرض ((وما فرعون وقومه إلا نزلاء فيها،...، فصاحب الأرض ومالكُها هو الذي يقرر متى يطردُهم منها))[2]، **ولا بد للمسلم أن يلتفت إلى أبعدَ مما ترى عيناه، فإن أثقل كاهل نفسه بما تراه عيناه** من مظاهر سيطرة الظالمين، ونسي يد الله الرحيمة وتدبيره الحكيم سبحانه، أوشك أن يدخل في عالم اليائسين البائسين.

ويزداد الأمر وضوحا حينما نقرأ قوله تعالى: (وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون)[3]، فلقد دُمِّرت سيطرة فرعون لبغيه المعروف، ونال بنو إسرائيل يومها الحق في الأرض والهيمنة عليها، بصبرهم على الحق الذي جاءهم به موسى عليه الصلاة والسلام، واندفع الظلم الذي تمرَّس فيه فرعون وقومه، مما أدى إلى رسوخ فكرة أنه لا بد من نزع الأرض من الظالم، ليتمكن العدل أن ينتشر، فالقضية قضية عدلٍ يدفع ظلما، لا قضية نسل يغلب نسلا.

ولما نسي بنو إسرائيل عهد الله سبحانه، أضلّهم في التيه، فلما انقضى جيل الناسين أخرجهم منه إلى الأرض المقدسة، فلما ظلموا وبغَوْا، واستلهموا صفات الفرعون الذي

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، للإمام محمد الطاهر بن عاشور، (٩/٦٠-٦١).

(٢) في ظلال القرآن، للأستاذ الشهيد سيد قطب، : تعالى، (٣/١٣٥٥).

(٣) سورة الأعراف، الآية (١٣٧).

كان يوما ما عدوَّهم، سلَّط الله عليهم الأشوريين والبابليين، ومن بعد ذلك، أخـــرجهم محمد ج من المدينة.

ثم إن في الآية التي ذكرناها هنا وهي قوله تعالى: (**وأورثنا القـــوم الـــذين كـــانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها**)[1]، في هذه الآية يقول الأســـتاذ الإمام ابن عاشور : تعالى: ((والمراد هنا تمليك بني إسرائيل جميع الأرض المقدسة بعد أهلها من الأمم،...، **أي أن الله ملَّكهم الأرض وجعلهم أمة حاكمة**))[2]، وواضح من كـــلام الأستاذ الشيخ ابن عاشور أن القضية ليست مجرد ملك رقبة، بل هي أبعد من ذلك، إنـــه الحكم على الناس، وإنما استحق بنو إسرائيل ذلك الاستخلاف ((في الفترة التي كانوا أقرب ما يكونون فيها إلى الصلاح، وقبل أن يزيغوا..))[3]، وفي هذه الآية ((رؤيا في الأفق، لكل عصبة مسلمة، تلقى من مثل فرعون وطاغوته ما لقيه الذين كانوا يُستضعفون في الأرض، فأورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها المباركة بما صبروا، لينظر كيف يعملون))[4].

فإن مَلَكَ الظالم، فهو مترو ع الملك ولو بعد حين، وهو في حالة استدراج، ذلـــك أن من طبائع النفوس: عدم الصبر على ظلم الظالم، وإن الاجتماع البشري الذي هو ناموس إلهي يَسير البشر وفقه، ليأبى ترك الأمر يستقر للظالم إلى الأبد، فلا بد أن يكون في الناس من يقوم عليه فيترع الملك منه، ليخوض هذا النازعُ نفسُه الامتحان الذي خاضه الظـــالم الذي سبقه، فإن بغى أُلقيَ عليه مصيرُ من سبقه، حتى يأتي من يملك فعلا صيغة الحق الذي لا باطل يخالطه، والعدل الذي لا ظلم يشوبه، والخير الذي لا شر يمازجه.

ولنا أن ندلل على حديثنا في هذا المضمار، بما هو جِماع ذلك كله، وهو قوله تعالى: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات، ليستخلفنّهم في الأرض كما اســـتخلف

---

(١) سورة الأعراف، الآية (١٣٧).

(٢) تفسير التحرير والتنوير، للإمام محمد الطاهر بن عاشور، (٧٦/٩).

(٣) في ظلال القرآن، للأستاذ الشهيد سيد قطب، : تعالى، (١٣٦٠/٣).

(٤) يُنظر: المرجع نفسه، (٢٤٠٠/٤).

الذين من قبلهم، وليمكننّ لهم دينهم[1] الذي ارتضى لهم، وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)[2]، وهذه الآية تتضمن معنى الأمن والوعد بالتمكين في الأرض معاً، فلقد ورد في مناسبتها أن رسول الله ج مكث بمكة عشر سنين خائفا هو وأصحابه، ثم أُمر بالهجرة إلى المدينة، وكانوا فيها خائفين يُصبحون ويُمسون بالسلاح، فقال رجل: يا رسول الله، أما يأتي علينا يومٌ نأمن فيه ونضع السلاح؟ فقال رسول الله ج: (لا تَغبُرون -أي لا تمكثون- إلا قليلا، حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبيا، ليس عليه حديدة)[3]، ونزلت الآية.

قال الشيخ ابن عاشور : تعالى: ((ففي الوعد بالاستخلاف والتمكين وتبديل الخوف أمنا، إيماء إلى التهيؤ لتحصيل أسبابه، مع ضمان التوفيق لهم والنجاح إن أخذوا في ذلك، وأن ملاك ذلك كله هو طاعة الله والرسول ج (فإن تُطيعوه تهتدوا)، وإذا حلَّ الاهتداء في النفوس نشأت الصالحات، فأقبلت مسبباتُها تنهال على الأمة، فالأسباب هي الإيمان وعمل الصالحات))[4].

والخطاب عند الشيخ ابن عاشور في قوله تعالى: (**منكم**) هو ((لأمة الدعوة بمشركيها ومنافقيها، بأن الفريق الذي يتحقق فيه الإيمان وعمل الصالحات، هو الموعود بهذا الوعد))[5]، وليس في الأمر مشكلة، ففي النهاية لا ينال هذا الوعدَ إلا الصالحون، سواء

---

(١) قال الإمام محمد الطاهر بن عاشور، في تفسيره (١٨/٢٨٦): ((وتمكين الدين: انتشارُه في القبائل والأمم، وكثرة متبعيه، استُعير التمكين، الذي حقيقتُه التثبيت والترسيخ لمعنى الشيوع والانتشار، لأنه إذا انتشر، لم يُخشَ عليه الانعدام، فكان كالشيء المثبت المرسخ، وإذا كان متبعوه قلةً، كان كالشيء المضطرب المتزلزل)).

(٢) سورة النور، الآية (٥٥).

(٣) تفسير التحرير والتنوير، للإمام محمد الطاهر بن عاشور، (١٨/٢٨٢)، ويُنظر: في ظلال القرآن، للأستاذ الشهيد سيد قطب : تعالى، (٤/٢٥٢٩).

(٤) المرجع نفسه، (١٨/٢٨٢-٢٨٣).

(٥) تفسير التحرير والتنوير، للإمام محمد الطاهر بن عاشور، (١٨/٢٨٣).

كانوا هم وحدَهم المخاطَبين بقوله **(منكم)** أو كانوا هم مخاطبين به ضمن غيرهم من الناس، إذ في النهاية يأتي الوعد للصالحين فحسب من ضمن مجمل المخاطَبين، يقول الأستاذ سيد قطب : تعالى: ((ذلك وعْد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من أمة محمد ج أن يستخلفهم في الأرض))(١).

ولا بد من التذكير أن المؤمنين يستحقون هذا الوعد حين إيمانِهم، وحين أخذِهم بما يستطيعون من عوالم الأسباب، أي حين لا يقصِّرون في الأخذ بالأسباب، يقول الأستاذ سيد قطب : تعالى: ((ذلك الإيمان منهج حياة كامل، يتضمن كل ما أمر الله به، **ويدخل فيما أمر الله به توفير الأسباب وإعداد العُدّة والأخذ بالوسائل والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى في الأرض، أمانة الاستخلاف**))(٢).

ويضيف الأستاذ سيد على ما أكدنا عليه من أن الوعد ليس مجرَّدَ وعد بمُلْكِ رقبة الأرض، بل بالحكم والسيطرة والهيمنة على البلاد والعباد، يضيف أمرا ذا أهمية بالغة في هذا السبيل، فيقول مبيناً حقيقة الاستخلاف الوارد في الآية: ((إنها ليست مجرد المُلك والقهر والغلبة، إنما هي هذا كلُّه على **شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء،** وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه))(٣)، ويقول أيضا: ((إن الاستخلاف في الأرض **قدرة على العمارة والإصلاح لا على الهدم والإفساد؛ وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة، لا على الظلم والقهر؛ وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان**))(٤)، ومفهوم الاستخلاف هذا، هو الذي عجزت عن دَرْك عُلاه الحضارة المادية الحديثة بمجمل مذاهبها وتشقُّقاتِها، فهي التي قتلت في الإنسان إنسانَه، وخدمت حِسَّه الجسدي و لم تخدم كيانه، وشَدَّتْه

---

(١) في ظلال القرآن، للأستاذ الشهيد سيد قطب، (٤/٢٥٢٨).

(٢) المرجع نفسه، (٤/٢٥٢٩).

(٣) المرجع نفسه، (٤/٢٥٢٩).

(٤) المرجع نفسه، (٤/٢٥٢٩).

بأثقالها الأرضية إلى لَوَثٍ غيّرت فيه عنوانَه، وأراحت أجساد أقوام على حساب أرواحِ آخرين، وسلَّطت نيرانها اللاهبة على الإنسان، لمجرَّد سؤاله شيئا من حقِّه؛ إنها لا تصلح للقيادة والسعادة، بل ما صلحت إلا للهبوط بالإنسان وللإبادة..

وحول قوله تعالى: **(يعبدونني)** قال الشيخ ابن عاشور: ((أي وعدتُهم هذا الوعد الشامل لهم والباقي في خلفهم، لأنهم يعبدونني عبادة خالصة عن الإشراك))(١)، وهكذا وكما يقول ابن عاشور أيضا: ((فمتى اهتم ولاة الأمور وعموم الأمة باتباع ما وضّح لهم الشرع، تحقق وعد الله إياهم بهذا الوعد الجليل))(٢).

والنهاية التي تنتهي إليها هذه الآيات الكريمة، هو أن الذي يستحق الاستخلاف هو **الإيمان متمثلا بالإنسان، أو الإنسان مشبَّعاً بالإيمان**، يقول الأستاذ سيد : تعالى: ((..فقد وعدهم الله إذن أن يستخلفهم في الأرض، وأن يجعل دينهم الذي ارتضى لهم هو الذي يهيمن على الأرض..))(٣)، وهو إيمان نشيط فعّال يُحسن استجلاب خير الدنيا، مع توجيه هذا الخير إلى الله ليتضمن سعادة البشر؛ يصف الأستاذ سيدٌ : الدينَ الذي ارتضاه الله بأنه يأمر بعمارة الأرض: ((والانتفاع بكل ما أودعها الله من ثروة ومن رصيد ومن طاقة، مع التوجه بكل نشاط فيها إلى الله))(٤).

ويلفت الأستاذ ابن عاشور النظر إلى أن الالتزام بالصالحات السلوكية، هو في حد ذات سببٌ من الأسباب التي تمكّن الإنسان من تملُّك القوى العمرانية في الأرض، لكنَّ هذه الصالحات إذا خلت من الإيمان، فإن صاحبها لا ينال معيَّة الله تعالى، يقول ابن عاشور: ((فلو أن قوما غير مسلمين، عملوا في سيرتهم وشؤون رعيتهم بمثل ما أمر الله به المسلمين من الصالحات، بحيث لم يعوزهم إلا الإيمان بالله ورسوله، لاجتنَوا من سيرتهم

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، للإمام محمد الطاهر بن عاشور، (٢٨٨/١٨).

(٢) المرجع نفسه، (٢٨٤/١٨).

(٣) في ظلال القرآن، للأستاذ الشهيد سيد قطب، (٢٥٢٩/٤).

(٤) المرجع نفسه، (٢٥٢٩/٤).

صورا تشبه الحقائق التي يجتنيها المسلمون، **لأن تلك الأعمال صارت أسبابا وسننا تترتب عليها آثارُها التي جعلها الله سننا وقوانين عمرانية؛** سوى أنهم لسوء معاملتِهم ربَّهم، بجحوده أو بالإشراك به، يكونون **بمنأى عن كفالته وتأييده إياهم ودفع العوادي عنهم، بل يكلُهم إلى أعمالهم وجهودِهم على حسب المعتاد**»[١].

ولكن شأن الأمة المسلمة غير شأن أمثال هؤلاء، يقول الشيخ ابن عاشور: «ولكن حرمة الأمة واتقاء بأسها ينتشر في المعمورة كلها بحيث يخافهم من عداهم من الأمم في الأرض التي لم تدخل تحت حكمهم، ويسعون الجهد في مرضاتهم ومسالمتهم، وهذا استخلاف كامل»[٢].

ومع ذلك فقد يتدخّل الله تعالى لحسم الأمر بقدرته، رغم قصور قدرة أهل الحق.

والله تعالى لا يتدخل لإعطاء أحدٍ من البشر حق الحكمِ في أرض من أرضِه الواسعة، ولكن حينما يصبح الناس فريقين، فريقاً ظالماً وفريقاً مظلوماً، واستطاع الظالم بما قد ملك ظلما وعدوانا، أو بما قد أوتي من أسباب القوة؛ استطاع أن يتجاوز كل الحقوق، وبغى وظلم، وتكبّر وفجر، وضعُف صاحب الحق عن حقه، مع قيامه بأمر ربه، وأزهَقَت حقوقَه قدراتُ الظالم؛ **فإن الله تعالى لا يترك البشر دونما تدخّل، ولو بعد حين.**

أرجعِ إلى القضية من جديد: **إنه طالما بقيت الأمور في إطار نشاط الإنسان، ودون ظلم من الإنسان لأخيه الإنسان، فإن عالم الأسباب هو الذي به تتحدد الحقوق،** فمن عمل نال أجر عمله، ومن كسل رجع بعاقبة كسله، لكن حينما تُمنع الحقوق، وتُزهق النفوس ظلما وعُدوانا، ويَصغر صاحب الحق عن إدراك حقه، بعد أن يبذل كل ما يستطيع، مما قد يكون قاصرا عن القدرة على إرجاع الحق، وحينما يستجمع شروط تدخّل الله تعالى، فإن الله تعالى يتدخّل لصالحه دونما تحديد ذلك بزمان، ويجعله إماما

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، للإمام محمد الطاهر بن عاشور، (١٨/٢٨٤-٢٨٥).

(٢) المرجع نفسه، (١٨/٢٨٦).

للناس، ويعطيه الأرض ليكون حاكما عليها رئيسا على من فيها من البشر، يقوم فيهم وفق صيغة الحق الربانية، لا يفرق بين كافرهم ومسلمهم في الحق، ولا بين أبيضهم وأسودهم في العدل والخير.

وإذن، فلا بد من بيان وتأكيد هذه القاعدة، ليتم بيان القضية بمجملها: إن الهيمنة على البلاد والعباد أمانة تستأهل ممن قد نالها القيام بحقوق أصحاب الحقوق، فإن نكل، فإنه لا يستحق في شرع الله تعالى هذه الهيمنة.

بالتالي، فالذي نخلص إليه هنا أن الأرض تُعطى في فهم المسلم لأحد اثنين: آخذٍ بالأسباب، أو مالكٍ لصيغة الحق التي أوصلته إلى منحة الله تعالى بالتدخل، ولا تُعطى في جميع الأحوال لمن ليس يملك إلا الانتساب إلى نسب من الأنساب، إلا ما جاء على شكل الميراث المتعارف عليه، وهو خاص بالملكية الفردية، لا فيما نحن بصدده.

فالأرض تُعطى إذن وابتداءً لمن أخذ بالأسباب على ما بيّنّا، فإن طغى وبغى، ومنع عن أصحاب الحقوق حقوقَهم، فإنها تؤخذ منه، وإن الوعد بالأرض، بمعنى حكمها، يقتضي الهيمنة عليها وعلى من هم على ظهرِها، فليس هو مجرد تملك لرقبتها أو بيعِها وشرائها، وإنما هو فوق ذلك بكثير، فهو حكمٌ على العباد والبلاد معاً، ولا بد لمثل من استحق وعدا بهذا، أن يكون مالكا لصيغة الحق والعدل والخير.

نخلص من كل ما مضى، إلى أن الله تعالى لا يُعطي وعدا لقوم بأرض من الأرض على المعنى الذي بيّنّا، إلا وفق مواصفات العدل والحق والخير، ولا يمكن أن يُعطى الوعد من الله تعالى بالأرض لنسل من الأنسال أو لعرق من الأعراق، ذلك أن الأنسال والأعراق، وكما بيّنّا، لا تتضمن فلسفة تلتزم بالخير والعدل والحق، وإنما كل ما يتضمنه هذا النوع من الوعد، إن كان، وهو لا يكون وفق ما نفهمه من عدل الله تعالى: أن تكون الأرض بحكمها والهيمنة على أهلها من نصيب أقوام ليسوا بالضرورة معبرين عن صيغة الحق والخير والعدل.

فليس بنو إسرائيل ولا بنو إبراهيم ولا بنو محمد، ولا بنو علي أو عمر أو عثمان أو

أبي بكر؛ ليس واحدٌ من ذرية هؤلاء مستحقا الوعد بمجرد نسبه، فإن استحقه، فبمواصفات أخرى ليس النسب من بينها.

ولا بد أن القارئ الكريم يتذكر ما كتبناه حول صلة يهود اليوم ببني إسرائيل، والذي أثبتنا فيه أن لا صلة عرقية ولا نسبية تربط بين بني إسرائيل وبين اليهود المعاصرين، ومن هذا الذي أثبتناه قبلا، يتبين لنا أن الرد على اليهود في دعوى أن الله تعالى وعد بني إبراهيم أو بني يعقوب بهذه الأرض، لا يفيد اليهود المعاصرين، ذلك أنه لا صلة لهم بهذا النسب، وأثبتنا أن أكثر ذرية بني إبراهيم عليه السلام هي العرب، فإن كان ثمة وعد لنسل نفترضه جدلا، فالمستفيد منه هم العرب فحسب، **غير أن الرؤية التي طرحناها في الصفحات الماضية، تصرفنا تماما عن فكرة الوعد لنسل من الأنسال أو ذرّية من الذراري.**

عزيزي القارئ الكريم: أرجو أن أكون قد وُفِّقت في التأسيس لكيفية تناول فكرة الوعد بالأرض، انطلاقاً من النصوص والمفاهيم القرآنية.

إن الوعد بالأرض يتضمن ضرورةً: التحكم في الأعراض والأعناق والأرزاق، والهيمنة على البشر؛ ولذا، اقتضت عدالة الله تعالى ألا يعطي مثل هذا الوعد، إلا لمن ملك مواصفات كافية، لضمان العدالة والحق والخير، حين التحكم بالبشر، وإن مفاهيم العدل والخير والحق، ليست بالضرورة ذات صلة بنسب من الأنساب، وإنما لها صلة ضرورية بالمنهاج الرباني، المنبثق عن كتاب الله، فالوعد إنما يكون ضرورةً لمن التزم بهذا المنهاج، ضرورة تحقق العدل على الأرض.

الفصل الثاني: فكرة الحق التاريخي، رؤية إسلامية

وما دمنا قد تحدثنا عن فكرة الوعد بالأرض، طارحين ما نحسبه يمثِّل الرؤيةَ الشرعية، فإننا نرى أن طروحات العقل اليهودي تُلزمنا بالخوض في فكرة تدور في المدار نفسه تقريبا، وهي على هذا تستحق منا البحث والتمحيص، ألا وهي: فكرة الحق التاريخي، أي الحق الحاضر المستند على وجود تاريخي ماضٍ(١).

إن هذا الحق التاريخي المُدَّعى يهوديا اقتضى أن يشعل اليهود حربا ظالمة لاغتصاب الأرض المقدسة فلسطين، وسفك دم أهلها وطردهم منها، وتسليط ألوان الظلم والإرهاب والعنصرية على الباقين فيها الذين لم يهاجروا منها؛ كل ذلك تحت دعاوى وتزويرات وأساطير منها: أسطورة الحق التاريخي.

ولقد جرت عادة الكُتّاب والمؤلفين أن يردوا على ما يطرحه اليهود من دعوى الحق التاريخي بإثبات أن السابقين في فلسطين تاريخيا هم العرب والمسلمون لا اليهود؛ **حتى إن القارئ لَيَهِمُ أن مرجع الأمر في إثبات الحق الحاضر أو نفيه، يدور في تحديد مَن هو السابق تاريخيا في فلسطين،** وفي ذهن الكاتب أنه سلك المسلك الصحيح حين يتناول القضية بهذا الشكل، وهو حين يسلك هذا المسلك تراه مطمئنا إلى النتيجة المختمرة في ذهنه، وهي الحق الذي لا حق سواه؛ إن الكاتب حينها يكون مطمئنا إلى حكم التاريخ في

---

(١) لم أطَّلع على تعريف لفكرة الحق التاريخي فيما تيسر لي من المراجع، وكنت قد بحثت في موسوعة السياسة التي نشرتها المؤسسة العربية للدراسات والنشر، وفي القاموس السياسي لأحمد عطية الله، وفي الموسوعة الفلسطينية، القسم المعجمي، وكذلك اطلعت على بعض كتب التاريخ الفلسطيني، فلم أجد شيئا يصح أن يسمى تعريفا للحق التاريخي، غير أن سياق الطرح الإسرائيلي لفكرة الحق التاريخي، تعني الاستناد على تاريخ قديم سابق في إثبات حق شعب من الشعوب في الوجود والسيطرة الحاضرة على أرض ما من الدنيا، وحسب الواقع المقصود يهوديا، فإن هذا الحق يعود إلى ثلاثة آلاف عام، من أيام مملكة داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام.

القضية، فما دام قد ثبت سبقُ العرب في فلسطين تاريخيا، فلا معنى لحقٍّ تاريخي يهـــودي مُدَّعى.

إن سلوك هذا السبيل، وقد سلكته أنا أيضا في بحثي هذا، لكــنْ ســلوكاً جــدلياً لإسكات دعاوى السبق اليهودية فحسب، وليس باعتباره مستنَدا لإثبات حق من الحقوق بناء على وجود تاريخي سابق؛ إن سلوك هذا السبيل يقوم على أساس إعطاء الحق للسابق وجودا في فلسطين، فإن تبين لنا أننا نحن السابقون، والحال أننا مطمئنــون إلى موقــف التاريخ؛ ففلسطين ستكون لنا، لأن التاريخ قال ذلك.

وهذا المسلك يُلزمنا فكريا أن نطرح الرؤية المقابلة ولو جدلا، وذلك فيما إذا افترضنا أن اليهود هم السابقون، فهل نحن مستعدون ولو جدلا أن نقرَّ بأن فلسطين ستكون لهـــم في حال ثبوت أنهم السابقون فيها؟ وأرى أن من يسلك هذا المسلك ملــزم أن يقــرَّ أن فلسطين يجب أن تكون لليهود في حال ثبوت سبقهم فيها، إن ثبت هذا السبق(١)، ذلــك أن المستند في إثبات الحق حسب هذا المسلك، هو السبق التاريخي؛ وإن لم أرَ من تحــدث بهذا المنطق الجدلي الإلزامي فيما اطّلعتُ عليه.

و لم أتنحَّ عن الاستناد على هذا المسلك في إثبات الحق هنا خشية الإلــزام الفكــري المطروح، وإنما عودةً بقضايا الحق دائما إلى مستند قائم على العدالة المنبثقة عن فلســفة في الحياة، تتضمن صيغة العدل والحق والخير.

وأنا إنما سلكتُ هذا المسلك وفق هذه الرؤية، التي تقوم على الرد على اليهود الــذين يدَّعون أن لهم حقا في فلسطين استنادا على سبقهم فيها؛ سلكته للرد على دعاوى اليهود، رغم قناعتي أن مستند الحق في القضية شيء آخر تماما غير قضية السبق التاريخي هذه.

---

(١) وبالمناسبة فإنني أرجو القارئ الكريم ألا يحسب أنني أقرُّ لليهود حقا في فلسطين، فوالله لــيس لهم فيها حق، وإنما أردتُ هنا سلوك مسلك آخر في هذا الموضوع، وخاصة أنني أثبتُّ مــن خــلال التاريخ والآثار أن السابق هم العرب والمسلمون، غير أنني أفضل مسلكا آخر، يقوم علــى التأصــيل والتقعيد الفكريين.

إنني لا أعلم كاتبا واحدا من السادة الكُتّاب والمؤلفين المُنافحين والمُناضلين عن الحق العربي في كامل فلسطين، لا أعلم مُنافحا واحدا منهم طرح الرؤية المعاكسة التي تناقش مدى إمكانية إعطاء اليهود حقا في فلسطين، في حال ما إذا كانوا هم السابقين، مما يُثبت أن هؤلاء الأساتذة الأفاضل لا يقصدون الاستناد على السابق تاريخيا لإعطائه الحق لمجرد فلسفة تقوم على استحقاق السابق في مثل هذا الباب، وإنما كل ما هنالك أنهم يرون اليهود يطرحون دليل استحقاقهم لفلسطين استنادا على دعوى سبقهم فيها تاريخيا، فأرادوا أن يظهروا عوار دعوى اليهود هذه بإثبات أن العرب هم السابقون.

إنني أطرح هنا رؤيتي التي لا تفضّل الاستناد على التاريخ لإثبات الحق الحاضر، رغم يقيني أن التاريخ معنا فيها، لأنني أريد أن أعامل القضية وفق ما أراه يشكِّل الفلسفة والرؤية الإسلامية لها.

إننا نَضْمَن الناحية التاريخية هنا تماما، فما قدمناه في أول بحثنا هذا حول انتماء التاريخ الفلسطيني القديم، وأنه انتماء صريح إلى الإسلام والعروبة؛ يجعلنا واثقين أن الناحية التاريخية تؤيد الانفراد العربي الإسلامي في الحق بفلسطين.

أقصد أن أقول: إن محاولتي الرامية هنا إلى تأصيل فكريٍّ للقضية بعيدا عن الاستناد التاريخي، لا يعني الهروب من البحث التاريخي، ولا يعني أنني أخشى أن البحث التاريخي ربما لا يُسعف القضية، أو أنه لا يقدر على دحر ادِّعاء اليهود بحق تاريخي لهم في فلسطين، بل إنني أضمن ضمانة تامة كما قلت، أن البحث التاريخي حتى لو كان وحده، فهو قادر على دحر الفكرة اليهودية؛ ولكنني فوق ما أراه من ضمان الناحية التاريخية رأيتُ أن أضيف أصلا هو أهم عندي منها، وهو ما أفعله هنا.

إني، وكما حاولت أن أؤصل لكيفية مناقشة الوعد الديني حسب فقهنا وفكرنا الإسلامي، فإنني هنا كذلك أحاول التأصيل لكيفية مناقشة وتناول موضوع الحق التاريخي، أيضا حسب فكرنا وتراثنا الحضاري الإسلامي.

إنني أريد هنا أن أؤصِّل لمناقشة الموضوع في إطار الإجابة عن سؤال أطرحه، وهو:

هل يُعتبر السبق التاريخي المجرّد في أرض من الدنيا، هل يُعتبر هذا مستندا في الإسلام لإثبات حق لاحِقٍ؟

وهل يسمح الإسلام لأمته أن تجعل مستند حقٍ من حقوقها مجرّدَ وجود الأمة أو بعضٍ منها في زمانٍ قد مضى، في مكان محدد من الأرض؟

وهل يسمح الإسلام لأمته أن تقيم حربا على أمة من الأمم لأخذ أرضهم وطردهم منها، لا لحجة إلا لمجرد شيء قد يسميه البعض حقاً تاريخياً لها في أرض من الأراضي، كإسبانيا والبرتغال مثلا، المسمّاتين تاريخيا، عربيا وإسلاميا: الأندلس؟

فعلى سبيل المثال: إن ما يملكه العرب والمسلمون من حق في إسبانيا أعظم وأقوى بكثير مما يدّعيه اليهود في فلسطين، فهم بُناة حضارتها التاريخية؛ بل إن الأندلس الإسلامية أحد أهم النوافذ التي أشرقت منها أنوار الحضارة، فأسهمت في بناء الحضارة الغربية ذاتها، وقبلها لم تكن الأندلس إلا أوروبا القرون الوسطى المظلمة، والعمرانُ العربي الإسلامي الماثل حتى يومنا هذا شاهد على ما نقول، والإنتاج العلمي والأدبي والحضاري الأندلسي الذي لا تزال دُور النشر تبُثّه وتُنتجه وتتحدث عنه، هو من أهم الشواهد على ما ندَّعي؛ ثم إن الزمان العربي الإسلامي في الأندلس ليس قديما قِدَم الزمان الإسرائيلي في فلسطين، إذ لا شك أن بضعة قرون تفصل بين زماننا الحاضر وبين الوجود الإسلامي في الأندلس، هي أقل بكثير من ثلاثين قرنا تفصل ما بين الزمان الحاضر وبين مملكتي سليمان وداود عليهما السلام، ثم إن الزمان العربي الإسلامي في الأندلس أطول عمرا بكثير من الزمان الإسرائيلي في فلسطين..

كل هذا الذي يملكه العرب والمسلمون في الأندلس، يَفْقِدُه اليهود في فلسطين، فلا حضارة إسرائيلية ولا عمران ولا زمان قريب؛ بل كل شيء تغير فيما بين ملك سليمان وداود عليهما السلام، وبين عصرنا.

وبالمناسبة، فإننا نلاحظ وبحق أن الفتوح الإسلامية لم تكن قائمة على أساس طرد الشعوب من أراضيها، وإنما هي نشر فكر واعتقاد وعدل وبِرٍّ وخير ورحمة، ولا ينطبق

عليها أبدا وصف الاغتصاب، **فالفاتحون المسلمون لم يطردوا شعبا من الشعوب التي فتحت عليهم بلادهم من أرضهم، وهم لم يستعبدوا السكان الأصليين ولم يتخذوهم سخرة لمصالحهم الخاصة**؛ والفتح الإسلامي للأندلس نموذج مشرق لهذا الطرح الذي نطرحه، بل إن التاريخ ليشهد أن كثيرا من أهل البلاد الأصليين أسلموا وملكوا هم الحكم فيها تحت مظلة الوحدة الإسلامية الكبرى، فنالوا منها أكثر مما أعطوا، أما إن لم تسلم بعض هذه الشعوب، فحقوقها محفوظة، لسرٍّ هامٍّ للغاية: **هو أنه ليس من شرط نَيْل الحقوق في الإسلام أن يكون مُستَحِقُّها مسلما!**

فهل يشعل الإسلام حربا على أهل إسبانيا اليوم، الأندلس العربية الإسلامية بالأمس، لأجل حق تاريخي يملك من المبررات أكثر مما يملك اليهود في فلسطين بألفِ ألفِ مرة.

ونطرح السؤال بشكل عامٍّ: هل من الممكن أن يكون الوجود التاريخي القديم مستنَدا لِحَقٍّ حاضرٍ وفق الرؤية الإسلامية؟

ثم، ما هو الشيء الموجِد والمنشئ للحق التاريخي، إن كنا أقررنا به ولو جدلا؟ هل هو مجرد الوجودِ أيِّ وجودٍ في بقعة من بقاع الأرض، أو هو الوجود الأصيل الذي يعني نشوء شعب أصلا في هذه الأرض أو تلك، لا طروءَه عليها بعد أن لم يكن من أهلها؟

وبناءً عليه، فنودُّ أن نفرق هنا بين نوعين من الأراضي والشعوب:

١- النوع الأول: أرضٌ يملكها قوم من البشر أيا كانوا، بسبب نشوئهم فيها، ودون أن يبدأ نشوؤهم فيها بطرد قومٍ سبقوهم فيها، وعاشوا فيها دهورا وأزمانا حتى عُرفت بهم وعُرفوا بها..

إنه لا أحد يملك إخراج أصحاب الأرض الأصليين هؤلاء منها أبدا بأي دعوى من الدعاوى، ما دام هؤلاء لم يتقدموا بين أيديهم بعدوان على أحد، **أما إن حصل العدوان، فلا يرى الإسلام طردهم منها، إنما يرى ترتيب العلاقة معهم بطريقة تمنع عدوانهم، أو يرى مواجهة نظام الحكم الظالم الذي يوجه أهل تلك الأرض إلى الاعتداء على**

المسلمين.

وليس في إخراج الرسول ج لليهود من المدينة المنوّرة تناقضٌ مع ما نقول، فاليهود من أهل يثرب ليسوا من أهلها أصلا[1]، بل هم ممن جاءها واستولى على كثير من مقـــدَّراتها، ومع ذلك، فلم يحترموا أهل الأرض الأصليين، بل بثّوا الفتن وأشعلوا الحروب، وعقـــدوا تحالفاتٍ عديدةً للقضاء على الوَحدة العربية الإسلامية ممثّلة بدولة الرسول ج؛ مما قضـــى بضرورة إخراجهم من أرض ليست لهم، و لم يحترموا أصحابها.

إن حال هؤلاء اليهود داخلٌ في المسألة التالية:

---

(١) لا بد من التأكيد على هذا الذي نقوله، فثمة ما يشبه الإجماع من الباحثين في التاريخين العربي واليهودي على أن اليهود من أهل المدينة المنورة ليسوا من أهلها الأصليين، وإنما قـــدموا إليهـــا مـــن خارجها، وأنهم يرجعون بأنسابهم إلى يعقوب عليه السلام؛ لكن اختلف المؤرخون كثيرا في تاريخ هذا القدوم اليهودي إلى المدينة المنورة، فبينما تؤكّد بعض الأخبار غير الوثَّقة أنهم قدموا منذ أيام موسى ج، ترى أخرى غير موثّقة أيضا أنهم قدموا أيام داود عليه السلام، والاحتمالات تقترب مـــن الإمكانيـــة التاريخية في الرأي الذي يقول إنهم قدموا أيام السبي الأشوري عام ٧٢٢ق.م.، والرأي الذي يقول إنهم قدموا بعد سنة ٥٨٦ق.م. على أثر السبي البابلي؛ كل هذه الآراء ضعيفة، رغم أنه لا يمكن نفي قدوم أفراد في تلك الأزمان إلى يثرب، لظروف تتعلق بهم خاصة.

ويظهر أن الرأي الذي استقطب جماعة كثيرة من المؤرخين والباحثين، هو ذاك الذي يؤكّد استنادا على أسباب تاريخية معقولة أن هذه الهجرة اليهودية إلى بلاد العرب الحجازية كانت في القـــرنين الأول والثاني الميلاديّين، على أثر تلك الحرب الكبرى التي تعرّض لها اليهود في فلسطين عـــامَي ٧٠ و ١٣٥م من قِبل الرومان، ويصف المؤرخ العربي الكبير الدكتور محمد بيومي مهران، وهو أحـــد المتخصصـــين بدراسة التاريخين العربي والإسرائيلي؛ يصف هذا الرأي بأنه يكاد يجتمع المؤرخون عليـــه؛ ويُنظـــر في تفصيل هذا الموضوع كتاب الدكتور مهران: تاريخ العرب القديم، (٤٣٧-٤٥٤)، ومع ذلك، فثمـــة من تهوّد من العرب، وهم قليل جدا كما بين ذلك الدكتور بيومي مهران، ويقول الدكتور مهـــران في كتابه المذكور، (٤٥٤): «وإن كان هناك عرب تهوَّدوا، فإنهم لم يكونوا جماعة محسوسة، وليســـوا إلا أفرادا»، ويُنظر في تفصيل هذا الموضوع: العلاقات العربية اليهودية للدكتور صالح موســـى درادكـــه، (٩٠-١٠٧)، (١١٢-١٢٠)

٢- النوع الثاني: أرضٌ يعيش فيها قوم من البشر ممن ليسوا من أهلها أصلا، بل طرؤوا عليها نتيجة وضع من الأوضاع السياسية أو العسكرية، أو نتيجة اتفاقٍ ما بينهم وبين أهلها، أو دخلوها إنفاذا لرسالة إلهية..

فأي الحالين هو المؤسِّسُ للحق الذي ربما نسمح لأنفسنا بتسميته حقا تاريخيا؟

إن الحال الأول هو المؤسِّس للحق، ولا مشكلة لدينا في تسميته حقا تاريخيا، رغم أننا لا نرى لزوم هذه التسمية.

ونرى أن نفرق هنا بين الشعوب المستحقة أصلا للحياة في أراضيها وبلادها وللتنعم بنعيم هذه البلاد، فهي التي تملك المبررات كافة للدفاع عن أرضها، ولا يطرح الإسلام أبدا إخراجها منها؛ نرى أن نفرق بين هذه الشعوب وبين الأنظمة التي قد تكون وبالا على أهل البلاد الأصليين، حتى ولو كانوا من أهلها، **ذلك أن نظام الإسلام فيما نطرح، يأبى أن يقف مكتوف الأيدي وهو يرى أنظمة قاهرة لشعوبها أو لشعوب أخرى ثم هو لا يتحرك لنصرة المظلوم.**

ونقول هنا: نصرة المظلوم، ولا نقول: اغتصاب الأرض وقَتل أهلها وطردهم منها، فبين الأمرين فرق كما بين المعروف والجريمة.

إن نشوء قوم من الأقوام في بقعة من الأرض، دون أن يكونوا هم أو جيلُهم الأول طاردين لأهلها، أي أن يكون هؤلاء الناس هم المعروفين منذ العهود القديمة بأنهم أصحاب هذه الأرض؛ إن هذا الحال يُنشئ حقا لهم في هذا البلد، لا نرى أنفسنا ملزمين بتسميته حقا تاريخيا، بل هو الحق الأصيل الذي ملَّكهم الله تعالى إياه، وذلك بمجرد أنهم هم أهل هذه الأرض دون مَن سواهم، سواءٌ استطاعوا بناء حضارة عظمى أو صغرى أو لم يستطيعوا شيئا من هذا ولا ذاك؛ **إذ لم يتأسس في منطق العدل أن من لم يستطع بناء حضارة في أرضه، فإنه يجب أن تُسلب أرضه منه.**

نستلهم هذا المعنى من الفتوحات الإسلامية نفسها، التي لم تطرد شعبا من الشعوب

من أرضهم، بل أمَّنتهم على بلادهم وبيوتهم وأراضيهم، ولم تكن الفتوح الإسلامية مبرِّرة يوما ما لطرد السكان الأصليين، ولعل هذا مما ساهم في رؤية الشعوب الأصلية للرحمة والعدل الإسلاميَّيْن، مما حدا بهم إلى الدخول في دين الفاتحين، **وصار الإسلام مالِكا لهذه الديار بفعل إسلام أهلها، لا بفعل طردِهم منها**.

فإن نزا نازٍ على أرض ما، لا يريد إلا سلب خيراتها وطرد أهلها، فإن أهلها هم الذين يملكون تحريرها من المغتصِب الطارئ وأنساله، الذين يعيشون على حساب صاحب الأرض الشرعي، ولا يملك هذا النازي المغتصب حقا في الأرض التي اغتصبها من أهلها أبدا، مهما طال مقامُه فيها وسرقته لها.

ولا بد أن نفصّل في بيان الأرض التي دخلها قومٌ باتفاق مع أهلها، أو برسالة أكرمهم الله بها، ليقوموا بأدائها..

إن حق هذا بالمقام في هذه الأرض مرهون بمدى التزامه ببنود اتفاقه مع أهلها، أو ببنود الرسالة التي أكرمه الله تعالى بها.

وعليه، فالذي عاش في بلد من البلاد وفق صيغة اتفاقية ثم نقض اتفاقه؛ أو عاش فيها ضمن رسالة كلّفه الله تعالى بها، ثم لم يلتزم بهذه الرسالة؛ فإنه لا يمكن أن يكوّن لنفسه حقا فيها، لأنه نقض الاتفاق مع أهلها، أو أدار ظهره للرسالة التي أكرمه الله تعالى بها.

إننا أمام صورتين جديدتين إذن:

إحداهما: صاحب أرضٍ أصيلٌ نشأ فيها تبعا لأجداده الذين عُرفت بهم أول ما عُرفت.

والثانية: صاحب حق بالمقام في فترة التزام بعهد مع الله أو مع الناس، دون أن يتضمن هذا الحقُّ بالمقام طردَ أهل البلاد وذبحهم وسرقة خيراتهم، ثم قام فنقضَ العهد فأُخرج، فهل الحالان، أو الصورتان متشابهتان؟

الجواب: الذي أراه من خلال مفاهيم الحق والعدل أن الصورتين مختلفتان تماما، فأولاهما صورة صاحب الأرض الأصيل، ولا صيغة أبدا تصلح لإخراجه منها لصالح شعب أو أمة أخرى، مهما بنَتْ هذه الأمة الأخرى أو عمّرت أو قدمت للحضارة، ومهما رأت أن الله تعالى جعل لها الحق بالمقام فيها، ذلك أن حق المقام إذا كان من الله تعالى، فإنه لا يعطي للمقيم وفق هذا الحق مبررا لطرد السكان وقتلهم.

والأخرى صورة صاحب عهد مع أهل الأرض أنفسهم، أو مع مالك الأرض كلها وهو الله تعالى، وإنما بقاؤه في هذه الأرض مرتبط بمحافظته على عهده، فإن خالف صاحب العهد عهده، فإن وجوده يوم أن كان محافظاً على العهد، لا يبرر له دعوى الحق في تملكها حين نقض العهد، بأي عنوان، سواء كان هذا العنوان: الحقّ التاريخيّ أو سواه مما قد يبدعه عقل البشر.

ولا بد أن نضيف إلى هاتين الصورتين أو الحالتين، صورة أخرى تتمثل في مغتصب لأرض من الأرضِين، فالاغتصاب لا يمكن أن يُنشئ حقا في الأرض المغتصبة، وإنما بقاؤه فيها مرهون باستمرار قدرته على الاغتصاب، وباستمرار ضعف صاحب الأرض الأصلي عن إخراجه منها.

إن المُغتَصِب لا يملك حقا أصلا، وإنما يملك قوة مكنته من الاغتصاب.

ونطرح الآن حالة الأندلس..

إننا نقول: لو قام المسلمون أيام الخروج الإسلامي من الأندلس بمواجهة وحرب من طردهم وفتنهم عن دينهم، فإن هذا في الإسلام معقول ومقبول، بل هو مفروض؛ بحجة دفع الفتن والظلم الواقع على المسلمين، وبحجة الحق الذي يملكه كثير منهم، وبعضُهم من أهل البلاد الأصليين بعد إذ أسلموا فيها وبنَوْا وعمّروا و لم يُخرِجوا منها أحدا، وأخرجهم منها بعض أهل البلاد الأصليين، ليس لشيء إلا أن يقولوا ربُّنا الله.

ولكن من لنا بإثبات مشروعية حرب يقودها المسلم اليوم ضد أهل إسبانيا بسبب

عدوان قام به أجدادُ أجدادِهم من عدة قرون، للانتقام منهم بسبب ذلك العدوان؟ **إن أهل إسبانيا اليوم، وهم في الحقيقة أهلُها الأصليون الموجودون قبل قدوم المسلمين فاتحين، لم يُباشروا إخراج مسلمي الأمس أو فتنتهم عن دينهم، والشرع لا يعاقب سوى المذنب، بل إننا نرى إسبانيا اليوم كأية دولة أوروبية، لا نملك فيها حقا تاريخيا، وإنما نملك حقَّ ألا يعادونا في ديننا وديارنا وفي أمننا مهما كان نوع هذا الأمن.**

وعلى كل هذا الذي تقدم، نرى أنه لم يتأسس في فقهنا الإسلامي أن الوجود التاريخي القديم في بلد من البلاد، يبرر إشعال حرب على أهل هذا البلد الذين لم يسهموا من قريب ولا من بعيد في إخراج من خرجوا منه، وإنما الذي تأسس في فقهنا الإسلامي هو أن اغتصاب أرض الإسلام، وقدوم شعب أو أمة لاحتلال أو اغتصاب جزء منها، مع ما يمكن أن يلابس هذا الاحتلال من طرد لأهلها أو بعضهم، **إن كل هذا يفرض على المسلمين، إن اقتضى الأمر، إشعالَ أعظم الحروب المنضبطة بضوابط العدل والخير والقوة والرحمة لإعادتها وتطهيرها، وطرد الدخيل الغاصب منها، وإنه لا حَقَّ لمغتصب طاردٍ لأهل الأرض ولو طال زمانه.**

إن الإسلام في فهمنا لا يقيم حربا لأجل حق تاريخي، وإنما يقيمها حسبما نرجح من أقوال الأئمة ن ردّاً على الظلم والحِرابة والعدوان واغتصاب الحقوق، فإذا تحقق هذا واقعا أو توقُّعا، فإن الإسلام يعلن حربا تردُّ إلى السفهاء أحلامهم، بعد أن أفقدتهم إياها شهوات الظلم والهيمنة والسيطرة على مقدرات البشر.

ذلك أن الوجود التاريخي في مكان ما لا يقرر في نظر الإسلام حقا، وليست الحرب الواردة في شرع الله تعالى والتي تهدف في لون من ألوانها إلى تحرير المغتَصَب من أرض الإسلام؛ ليست هذه الحرب شكلا من أشكال الانطلاق من منطلق دعوى الحق التاريخي، ذلك أن الحق التاريخي في حقيقته وحسب تسميته، يعود بمدَّعيه إلى أزمان تاريخية قديمة، تشكلت فيها المجتمعات فيما بعد تشكُّلاتٍ كثيرة، وتحوّل أهلُها مع الزمان إلى أديان شتى، نقضت من بنيان الأرض المقصودة كلَّ ما يمتُّ بصلة إلى ذلك التاريخ المقصود بعودة الحق

إليه.

أما اغتصاب الأرض من قِبل ناس آخرين، فإنه لا ينفي عن الأجيال القادمة من أحفاد المُغتصِبين وصفَ الاغتصاب، لأنهم في أصل وجودهم موجودون في أرض ليست لهم، وليس مرور العقود والسنين، بل القرون، ليس شيء من ذلك مُنْسيا أصلَ وصفِهم ذاتهم أنهم يعيشون في أرض ليست لهم، وعليهم أن يخرجوا منها حتى لو وُلدوا بأشخاصهم فيها بعد اغتصاب آبائهم لها، فإن ولادة ابن المغتصب في الأرض التي اغتصبها أبوه لا تؤسس له حقا، فهو لا يعدو كونه مستمرا في الاستيلاء على الأرض التي استولى عليها أبوه بلا حَقٍّ.

والإسلام لا يقيم الحرب لمجرد أن الطرف الآخر كافر، فالكفر ليس في فهمنا لشرع الله تعالى، وحسب ما نميل إليه من أقوال الأئمة، **ليس هو علة القتل والقتال، وإنما العلة كامنة في نوع الممارسة التي يمارسها الكافر، بل المسلم أيضا، من عدوان ونحوه**(١)..

---

(١) للأئمة في الباعث على الحرب كلام طويل، وخلاف معروف، وإنما ننقل قول من مِلْنا إلى قولهم في هذه المسألة، دون قول غيرهم، توخيا للاختصار، ولنا بحث مفصل في هذا الموضوع..

فبعد أن قال المرغيناني الحنفي صاحب البداية: "ولا يقتلوا امرأة ولا صبيا، ولا شيخا فانيا ولا مقعَدا، ولا أعمى"، فإذا به يقول في شرحه الذي سماه الهداية: "**لأن المُبيح للقتل عندنا هو الحراب ولا يتحقق منهم**، ... والشافعي يخالفنا في الشيخ الفاني والمُقعد والأعمى، لأن المُبيح عنده الكفر، والحجة عليه ما بيّنّا"، (يُنظر: الهداية شرح بداية المبتدي، تأليف برهان الدين علي بن أبي بكر المرغيناني، طبعة دار السلام المحققة، (٨١٥/٢)، ويقول ابن الهُمام في شرح كلام الهداية: "وإذا ثبت فقد علّل القتل بالمقاتَلة في قوله: (**ما كانت هذه تقاتل**) (وهذا جزء من حديث صحيح، هو ما رواه الإمام أحمد عن حنظلة الكاتب الأسيدي التميمي قال: "غزونا مع رسول الله **ج** فمررنا على امرأة مقتولة وقد اجتمع عليها الناس، قال: فأفرجوا له، فقال: (**ما كانت هذه لتقاتل**) ثم قال لرجل: (**انطلق إلى خالد بن الوليد فقل له: إن رسول الله ج يأمرك ألا تقتل ذُرّيّة ولا عسيفا**")، والحديث رواه كما قلنا: الإمام أحمد في مسنده، طبعة دار الحديث بالقاهرة، تحقيق وتخريج: حمزة أحمد الزين، (٤٣٥/١٣، ح:١٧٥٤٢) وقال محقق المسند: إسناده صحيح، وقال أيضا: والحديث رواه أبو داود

وعوْداً إلى فكرة الحق التاريخي..

إن فكرة الحق التاريخي لم تُطرح في فكرنا الإسلامي، ولا يعرفها الفقه الإسلامي، وليست جزءاً من أسباب إثبات الحقوق، خاصة أن المطروح في معنى الحق التاريخي هو حق مُدَّعى، يستند على زمان قديم مضت عليه عشرات القرون، وإن حالا كهذا لا يعرف إليه الإسلام سبيلا.

إن الإسلام ينطلق في حربه إن أشعل حربا، ينطلق من منطلق رد العدوان، فإن تمثل العدوان في اغتصاب قوم من الأقوام أرضا من أرضه، فإنه يذهب إلى الحرب غير هياب المخاطر، ولو مضى على اغتصابها قرون توالت.

لكنَّ للحق التاريخي المُدَّعى جانبا آخر، **فهو حسب المطروح يتضمن معنى السيطرة على الأرض والحكم فيها وفق صيغة من الصِّيغ**، ونود هنا أن نذكِّر القارئ الكريم بما قرأه في الفصل السابق الذي خصصناه لموضوع الوعد بالأرض ضمن الرؤية الإسلامية التي

وابن ماجه والطبراني في الكبير وابن حبان، وصححه الحاكم وأقره الذهبي.

وفي المستدرك للحاكم: والحديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (المستدرك للحاكم مع ملخصه للذهبي ٢/١٢٢).

والعسيف هو الأجير، **ولقد نص العلماء أن سبب النهي عن قتل الأجير عائد إلى أنه مستضعف، غير مريد للقتال، ولا شك أنه إن باشر القتال، فإنه يُقتل لدفع أذاه**).

فثبت ما قلنا من أنه معلول بالحِرابة، فلزم قتل ما كان مظنّة له، بخلاف ما ليس إياه، وبِمنع قتل النساء والصبيان ونحوه **يَبطل كون الكفر من حيث هو كفر علةً أخرى،** وهو المراد بقول المصنف (أي المرغيناني في الهداية): (والحجة عليه) أي على الشافعي (ما بيّناه) يعني من عدم قتل يابس الشِّق)).

وذكر ابن الهُمام أيضا أن النصوص القاضية بقتل المشركين ((**مقيّدة ابتداء بالمحاربين على ما ترجع إليه**))، أي ما ترجع إليه هذه النصوص، (يُنظر: فتح القدير، ابن الهُمام، (٤٣٨/٥).

ويقول البابرتي صاحب العناية بشرح الهداية في شرحه المطبوع بهامش متن الهداية وشرح فتح القدير، (٤٣٧/٥) في الفقه الحنفي: ((قوله (أي قول صاحب الهداية): (لأن المبيح عنده) (أي الشافعي) أي للقتال (هو الكفر) **وعندنا هو الحِراب**)).

نفهمها، وعليه **فأصل الأمر إسلامياً يعود في تقديري إلى ما أكَّدْتُه حين المناقشة التي أجريتها لقضية الوعد بالأرض، وهو أن الوعد أو الحق أو عدمهما، إن كل ذلك عائد إلى تَمَلُّك أو عدم تَمَلُّك صيغة الحق والعدل في أي مكان من الأمكنة، لأي قوم من الأقوام؛ والإسلام، وهو يرى نفسه مالكا لصيغة الحق والخير والعدل، وهو لا يبرر لنفسه إشعال حرب بسبب هذه الميزة التي يملكها دون غيره من المذاهب؛ هذا الإسلام لا يملك حق إخراج الناس من أرضهم، وإنما محور مقاصد الإسلام دائر حول صيغة الحكم القائمة على العدل والحق والخير، والتي لا يفرق الإسلام بشأنها من أي جنس يكون الحاكم إذا كان سيقيم صيغة الحق والعدل والخير، وإذا ما كانت الرحمة متمثّلة بسلوكه على الأرض.**

وصيغة الحق هذه رغم كونها صيغة شرعية، إلا أنها لا تُملِّك المسلم الحق في إخراج الناس من أرضهم، فأن يملك المسلم صيغة الحق والعدل والخير شيء، وأن يبرر لنفسه طرد الناس بسبب ما يملك من هذه الصيغة شيء آخر، بل إن جزءا من صيغة الحق التي يملكها المسلم: إقرار الشعوب في أراضيها، والمحافظة على أمنها واستقرارها، فهو في النهاية داعية يهمه أن يرى الناسُ النموذجَ العظيم للإسلام، فلعلهم أن يهتدوا.

ورغم كل هذا، فالمسلم لا يرى بأسا أن يتعامل مع من لا يملكون صيغة العدل في أرضهم التي لا يقيم هو عليها، أو ليست تحت سيادته، إذ من طبيعة الإسلام الذي يدين به المسلم أنه دين انفتاح على الأمم، لإبلاغ الرسالة ونشر العدل بين الناس وتبادل المنافع والعلوم والخبرات؛ ابتداءً بالقدوة الحسنة، التي لا يمكن أن يُرى عطاء صاحبها إلا في حالات الاستقرار، وانتهاءً بالقوة الرحيمة للمحافظة على هيبة الحق والخير والعدل؛ وإن الإسلام كَسِبَ من الشعوب في حالة السلم والاستقرار أكثر مما كسب في حالات الحرب، **فالحرب في الإسلام طارئ مبرَّر في حالات تَعَذُّر الوسائل الأخرى، وليست حالة الحرب هي الابتداء في أمر الإسلام.**

فالأصل أنه لا شيء يمكن أن يُسمى حقا تاريخيا يستند إلى وجود زمني سابق في عقل

المسلم، يقوم شعب بمقتضاه بطرد شعب آخر، ما لم يكن هذا الشعب الذي نُفِّذ فيه الطرد هو نفسه مارس الطرد لذلك الشعب الذي جاء أخيرا فطرده..

أقول: إنه لا شيء يسمى حقا تاريخيا يستند إلى وجود قديم، لِما يتضمّنه هذا الحق المُدَّعى من طرد شعب من أرضه وإحلال شعب آخر مكانه، بحيث يتملك هذا الشعب الحالُّ الحقَّ في الحكم والسيطرة؛ بل الحق في الإسلام هو الحق بالحكم فحسبُ دون إخراج الناس من ديارهم، والحكم في الإسلام هو لمالك صيغة العدل والحق، سواءٌ سبق أن كان موجودا في هذه الأرض تاريخيا أم لم يكن موجودا فيها، **ومع ذلك، فلا يطرح الإسلام إجبار الناس على حكمهم إن أبَوْا حكمه، إلا في حال صدور الاعتداء منهم، وفق صيغة تبدأ بالدعوة إلى الدين لإنهاء الحرب التي سبَّبَها اعتداء المعتدين، وتمرّ بالجزية إن وافق المعتدون، أو تنتهي إلى صلحٍ تُحقن فيه الدماء.**

ولقد كنا أوضحنا أدلتنا على اعتماد الإسلام لصيغة الحق والعدل، حين حديثنا السابق قريبا في موضوع الوعد بالأرض ضمن الرؤية الإسلامية، فلا نعيدها هنا.

نقول: إنه لا شيء يمكن أن يسمى حقا تاريخيا يستند إلى مجرد الوجود التاريخي القديم، ذلك أن دعوى الحق التاريخي من أيٍّ صدرت، لا تتضمَّن حق هذا الشعب الذي يدَّعي وجودا قديما بالمقام في هذه الأرض فحسب، بل يتضمن معنى الحكم في تلك البقعة؛ فالمسألة ليست إذن مجرد حق بالإقامة، بل تزيد أمورا من أهمها: الحق بالحكم والسيادة على هذه الأرض، أيِّ أرض، مع الهيمنة على أهلها؛ والإسلام لا يعطي الحق بالحكم إلا لمن ملك القدرة النفسية والتشريعية على إحقاق الحق وترسيخ مبادئ العدل ونشر الخير بين البشر، مهما كان جنس هؤلاء البشر.

أما الحق بالإقامة فهو مكفول في الإسلام لمن يريد أن يعيش مع الأمة دون أن يتكشف منه غش أو خبث أو جاسوسية أو نحوها من مخططات، تقصد إلى سحب الأرض من الناس في نهاية المطاف، أو إلى شكل من أشكال الفساد التي يحاربها الإسلام؛ ومن كان هذا وصفُه، فإنه يجعل للإسلام الحق في أن يقف في وجهه وقوفا صلبا، بل إن

الإسلام يفرض محاربته لتجنيب البشر فسادَه؛ فالحق بالإقامة مع الأمة مكفول بهذه الشروط المذكورة، وذلك إذا خَبِرَت الأمة ممثلة بولي أمرها أو بأجهزتها الرسمية؛ ثقة في من يريد أن يقيم معها في أرضها، وفق صيغة يُتفق عليها، ليست الجزية صورتها الوحيدة.

من هنا، فإننا، وبعد شرحِنا لما نراه موقفَ الشرع الحنيف من قضية الوعد بالأرض، وبعد أن قررنا أن دعوى الحق التاريخي تتضمن الحق في الحكم والسيادة والهيمنة، لا مجرد السكنى والإقامة البريئة؛ **فإننا نقرر أن لا حق لأحد بالسيادة على أرض ما، لمجرَّد أنه كان موجودا فيها في دهور مضت، بأي شكل من أشكال الوجود.**

إن القول بحق قوم في أرض من الأراضي لمجرد أنهم كانوا فيها منذ قرون أو عشرات القرون، يبعث في أرجاء الدنيا كوارث شتى، ويُشعل معارك وحروبا تحرق الأخضر واليابس؛ فما من بلد من بلاد الدنيا إلا سيقف فيها من يقول: إنا كنا فيها قبل هذا الشعب المقيم فيها أو الأمة الساكنة فيها الآن؛ وإنّ طرح مثل هذا الموضوع يحمل في طياته حروبا ويُشعل فتنا ويُثير براكين، ويدمر حضارات ويُزهق نفوسا، ويُخرج أقواما من الأرض لم يرتكبوا جرما؛ وهو يقتل أجيالا من البُرآء، ويَقضي على إنجازاتٍ كان من الأجدى بالبشر أن يحافظوا عليها.

ولذا، فإننا نرى أن الفكرة المطروحة تحت هذا العنوان، هي فكرة شيطانية، تدفع كلَّ من في نفسه لون من ألوان الشر إلى بثه في نفوس البشر، ليترع ما يسعى إليه المصلحون من استقرار وأمن وطمأنينة.

ولربما أسهمت هذه الرؤية التي نطرحها في بيان خطورة فكرة الحق التاريخي في بلورة موقف القانون الدولي من هذه الفكرة؛ إن القانون الدولي لا يعترف من قريب ولا من بعيد، بحق قوم من الأقوام في أرض ما، استنادا على وجود قديم لهم، **رغم اعتراف هذا القانون بحق من أخرجوا من أرضهم بغير حق أن يجاهدوا ويناضلوا من أجل استعادتها، أو عودتهم إليها.**

لهذا، فإننا نرى القانون الدولي، يطرح فكرة الحق بالعودة للشعب الفلسطيني إلى

أرضه مُقِرّا لهذه الفكرة، ولا يطرح من قريب أو بعيد فكرة الحق التاريخي القائم على وجود تاريخي سابق في هذه الأرض لليهود، رغم هيمنة أولياء اليهود على كثير من صُنّاع القانون الدولي.

إن على اليهود طارحي فكرة الحق التاريخي أن يطرحوا فكرة هذا الحق لصالح كل من سكن هذه الديار، من السابقين وجودا فيها كالعرب مثلا، وإنهم لم يفعلوا ولن يفعلوا؛ **وإن داعمي اليهود في فكرة الحق التاريخي الشيطانية هذه، مُلزَمون بطرح حق من أُطلِق عليهم الهنود الحمر في طرد الشعب الأمريكي الأوروبي الأصل من أمريكا، أو المسمّاة الآن أمريكا، غير أنهم لا يطرحونها، مع رؤيتنا الواضحة للحق الواضح الذي يملكه الهنود الحمر في حكم أراضيهم الأمريكية، فهم أصحاب الأرض الأصليون، والأمريكي الأبيض الأوروبي الأصل هو مغتصب طارئ دخيل وليس أصيلا، مهما بنى وعمَّر زمانا، أو أقام عمرانا.**

ذلك أن هذه الأرض المسماة أمريكا اغتُصبت من أصحابها الذين انتُزعت منهم هويتهم، وسُمّوا تسمية رضيها المُغتصب؛ اغتصبت منهم قهرا وقتلا وتحريقا للقرى[1] من عهود ليست بعيدة بُعد الوجود اليهودي القديم في فلسطين، وهم أنفسهم موجودون وجودا حقيقيا يتمثّل في الأجيال الحاضرة منهم، وطاردُهم وقاتلُهم موجودٌ فعلا ممثَّلا بأجياله الحاضرة أيضا، وهو لا يزال يمارس ضدّهم ألوان الاستبعاد والاستعباد، بل يمارس من أرضهم قتل البشر خارج هذه الأرض؛ بخلاف أهل فلسطين، الذين لم يغتصبوا فلسطين من اليهود، بل لعل كثيرا من أهل فلسطين هم اليوم من أنسال اليهود السابقين، ممن أسلم، أو صار مسيحيا بعد أن رأى سلوك الأحبار وكذب الأشرار.

أما ونحن نناقش قضية يطرحها اليهود، وهي قضية الحق التاريخي المزعوم المُدَّعى في

---

(١) قرأتُ في أحد المقالات التي فاتني الآن عنوانها واسم كاتبها، أن عدد الذين شاء الأوروبيون تسميتهم بالهنود الحمر كان أول اكتشاف أمريكا في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي حوالي عشرة ملايين، وأما الآن فهم مائتا ألفٍ فحسب!.

فلسطين، فإننا نؤكد أنهم كما هو سياق التوراة والتاريخ، ليسوا من أهل فلسطين أصلا، بل جاءوها من مصر؛ وإننا نسأل هؤلاء اليهود السؤال التالي: لماذا دخلوا الأرض المقدسة قادمين من مصر حين دخولهم إليها، ولماذا خرجوا منها حين خروجهم منها؟

لقد قال تعالى ناقلاً كلام موسى عليه الصلاة والسلام وهو يخاطب قومه: (**يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم..**)(١)، ولا بد أن يستحضر القارئ ما ذكرناه في الفصل السابق من رفض الله تعالى إعطاء عهد لبني إبراهيم عليه السلام، مما يسهم في تفسير هذه الآية تفسيرا يُرجعها إلى أصالة الاهتمام القرآني بصيغة الحق والعدل، بغض النظر عن نسل أو عرق أو سبق المخالف لها..

و لم توضِّح الآية التي تذكر أمر موسى لقومه أن يدخلوا الأرض المقدسة، لم توضِّح الرسالة التي حملها بنو إسرائيل حين دخولهم الأرض المقدسة، ولكننا نعلم أن قصة بني إسرائيل هي قصة قومٍ ظُلِموا في مصر من قِبل فرعون، وأن الله نجاهم من فرعون بإخراجهم من مصر إلى الأرض المقدسة، وبإهلاك فرعون، وحمّلهم رسالة الخير لنشرها..

نقول هذا الكلام لأن القرآن يفسر بعضه بعضا، فما دام الله تعالى رافضا إعطاء الحق لذرية إبراهيم عليه السلام بالإمامة على البشر لِما سيكون من بعضهم من ظلم، فإننا نعلم يقينا أن الله تعالى لم يكن ليرفض هذه الإمامة لبني إبراهيم ثم هو نفسه يُعطيها لبني إسرائيل، الذين هم من بني إبراهيم، دون أن يكون بنو إسرائيل حينها حاملين لصيغة العدل؛ وعليه، فإن الأمر بدخول الأرض المقدسة وارد في هذا الإطار الذي يعني نشر العدل، في حال كونهم حاملين لصيغته، فإن تخلَّوا عنها، فقدوا الحق بما أوكل إليهم..

ويبدو أن أرض كنعان كانت أيامها أرض شرك، وكان الطغيان يحكمها، فكان دخولهم الأرض المقدسة للسكنى ولنشر دعوة الخير معاً، يوم كانوا مالكين لصيغتها، رغم ما فيهم من خلل تحدّث القرآن عنه.

---

(١) سورة المائدة، الآية (٢٢).

ونقول: **يستحيل أن يأمرهم الله بالخروج من مصر لإنجائهم على حساب قوم آخرين، لأن الله لا يفعل مثل ذلك مع أوليائه الخُلَّص، فكيف يفعله مع بني إسرائيل، الذين عُرفوا بانحراف فكرهم، وشذوذ مواقفهم، حتى في حضور أنبيائهم عليهم السلام**.

ووفقا لِما نفهمه من رسالة الأرض المقدسة، وقد تحدّثنا عنها تفصيلا في كتابٍ لنا عنوانه: مكانة بيت المقدس بين نصوص الوحي وحركة الإنسان؛ فإن اختيارها تحديدا لم يكن عبثا، وإنما كان لأجل أن يتناغم وجودهم فيها مع رسالتِها المقدسة.

فلهم إذن رسالة، ولن تكون رسالتهم طردَ أهلها، ولكنهم نقضوا العهد وخانوا الرسالة، كما سيتبين لنا.

ويجب أن نتذكر أن الله تعالى قال لهم: ادخلوا الأرض المقدسة، **ولم تتعرض الآية لإخراج أهلها منها، إذ ليس من شأن الأنبياء إخراج الناس من أرضهم**، بل قال الطبري: ((إنها كُتبت لهم دارا ومساكن))[1]، وقال القرطبي: ((أي فرض الله دخولها عليكم، ووعدكم دخولها وسكناها لكم))[2]، **وفي الحقيقة لا أرى القرآن الكريم يأمر قوما ما بدخول أرض بعينها على سبيل الفرضية لمجرد أن يسكنوها، فإن أرض الله واسعة، وبإمكانهم أن يسكنوا أية أرض، ولكن الله تعالى هنا لا يريد سكنى أية أرض فحسب، وإنما سكنى الأرض المقدسة بعينها، ثم هو لا يريد مجرد سكناها، بل يريد منهم التلاقي مع رسالتها، وهي رسالة الحق والصدق التي تهزم أعداء البشر**؛ خاصة أننا نعلم أن فلسطين هي الأرض التي يلقى فيها الأعور الدجال حتفه، ويأجوج ومأجوج نهايتهم، وفيها المصير الرهيب الذي ينتظر خونة العهود، أعني اليهود، حين يأذن الله تعالى بنهايتهم فيها؛ **فللأرض المقدسة ودخولها وسكناها مقاصد ربانية فحواها: إحقاق الحق**

---

(١) تفسير الطبري، (٦/١٧٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، (٦/١٢٥).

وإبطال الباطل، واليهود تخلفوا وخانوا ونقضوا كل ما كان من مواثيق بحق هذه الأرض، فلا حق لهم بالاستناد على هذه الآية!

إن بني إسرائيل حين دخلوا الأرض المقدسة، **لم يدخلوها ليملكوا فيها حقا بإخراج أهلها منها، ولم يدخلوها ليملكوا فيها حقا يسمونه حقا تاريخيا**، يتعاونون في طرحه مع مزوِّري التاريخ والآثار بعد بضعة وعشرين قرنا من سُكناهم في فلسطين؛ **وإنما دخلوا الأرض المقدسة لرسالة لم يُبلِّغوها، وأمانة لم يؤدّوها، وعهودٍ لم يحفظوها؛ فإن كان لهم في سكناها حقٌّ يوم دخلوها، فلقد فقدوا هذا الحق بسوء مسلكهم وبنقضهم العهود وخيانتهم الأمانة، وقتلهم الأنبياء بغيرحقٍ، وكذلك فقدوها حينما أعطى الله تعالى راية الحق والعدل والخير والرحمة لغيرهم، أعني المسلمين**، وذلك وفق سنة الله تعالى القائل: (**وإن تتولَّوْا يستبدل قوما غيركم، ثم لا يكونوا أمثالكم**)، وهم قد تولَّوْا، فاستبدل الله تعالى بهم المسلمين، ليطهِّروا الأرض ويعيدوا إليها وجهها البهيج ونضارها الباهر؛ لتعود إليها قدسيَّتُها المسلوبة.

إننا أجبنا في السطور الماضية عن الشق الأول من السؤال، وهو: لماذا دخل بنو إسرائيل الأرضَ المقدسة؟ أما الجواب عن الشق الثاني منه، وهو: لماذا أُخرِجَ اليهود منها؟، فهو آتٍ فيما يلي..

إنه وفق سنن الله في خلقه، القاضية بأن الظالم سينال عقابا على ظلمه طال الزمن أو قصر، لا بد أن يخرج اليهود يوم خرجوا من فلسطين، لِما يأتي..

إنه وفقا لِما قررناه من أن الحق، والذي ذكرنا أنه يتضمن الحكم والسيادة والرياسة، **ليس لمن ملك وجودا تاريخيا سابقا، وإنما لمن ملك صيغة الحق والعدل والخير**؛ إنه وفقا لِما قرّرناه من هذا الشأن، ووفقا لتطبيقه على تاريخ بني إسرائيل في فلسطين، إنه وفقا لكل ذلك تخرج الإجابة تنبثق انبثاقا طبيعيا غير متكلَّف، وهي تكمن في أن **اليهود يوم أضاعوا صيغة الحق، لم يعودوا يملكونها، إذ لم يمارسوها يوم أن أتاح لهم التاريخُ قرونا من الإقامة في فلسطين، وبالتالي فهم لا يملكون حق العودة إليها، بعد أن كان**

خروجهم منها بسبب فقدانهم لهذه الصيغة، بتضييعهم إياها. قال تعالى: (مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها..) فهم الذين تخلّوا عن رسالتهم، وعن صيغة العدل التي تتضمنها.

ولو جئنا نطبق هذا على تاريخ اليهود في الأرض المقدسة المباركة، فإننا نقول: إن اليهود خرجوا منها ظالمين لأنفسهم، بعد أن بثوا ألوان الشرك فيها، بشهادة كتابهم التوراة، وهم لم يكتفوا ببث ألوان الشرك فيها، بل زادوا عنه بأنهم شوَّهوا سيرة الملوك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، الذين يُفترض أنهم ينتمون إليهم نسبا، فلم تسلم سيرة نبيَّي الله سليمان وداود من التشويه والاتهام بالزور والباطل أخلاقيا ودينيا.

وهم قد شوَّهوا صيغة الحق التي أنزلها الله على نبيه موسى ج، وهي التوراة، شوّهوها بأساطير الأمم وألوان الثقافات المتناقضة، وباقتراف الأخلاقيات الجنسية الشائهة، وبإنزال مكانة الله تعالى وهيبته من النفوس، بعد أن جعلوا بشرا[1] هو أعظم بني إسرائيل عبودية لله تعالى من أول يوم كانوا، جعلوه يصارع ربه فيصرعه!

إن من لا يملك إعظاما لله، ولا توقيرا للأنبياء، ولا يملك رحمة بالبشر؛ وإن من يفقد معاني الحشمة بين المحرمات بإباحته قصصا ما أنزل الله بها من سلطان، تحكي مغامرات جنسية كاذبة لخدمة بني إسرائيل بدعواهم، ثم يجعله دينا تتلوه أجياله الآتية؛ إن من هذا حاله يكون قد فقد الحق بالسيادة على هذه الأرض، سواء كان قد ملك هذا الحق مرة أو لم يكن قد ملكه بالمرَّة.

وليقرأ من شاء دليلا على هذا الذي نقول سفرَ نشيد الإنشاد وسفر أستير وقصة شمشون، وأكذوبة زنا داود عليه السلام، وقصص سليمان المكذوبة مع نسائه، وقصة راحاب الزانية في سفر يشوع عليه السلام؛ ليرى بعد ذلك كله كيف انحطت أخلاق بني

---

(١) هو سيدنا يعقوب عليه السلام، الذي زعموا كذبا أنه صارع الله تعالى، فابتزَّ منه مباركة الشعب اليهودي.

إسرائيل انحطاطا بلغت بهم إلى أن جعلته دينا يُتلى، وأودت بالرسالة التي حُمِّلوها ثم لم يحملوها؟

وليس من شأني هنا أن أنقل نصوصا تفصيلية من كتابهم التوراة، الذي أفقدوه الصلة بالسماء يوم أن دسوا فيه خرافات الماضين وأكاذيب الضالين؛ ليس من شأني هنا أن أنقل تفصيلات منها، غير أنني أُحيل القارئ الكريم إلى ما ذكرته عن سفر يوشع تحديدا في الفصل الخامس من الباب الثالث من هذا البحث، وإلى البحث الذي كتبته تحت عنوان: مكانة بيت المقدس بين نصوص الوحي وحركة الإنسان؛ لأكتفي هنا بنقل القليل.

إن شُهرة ما فعلوه من كذب على أنبياء الله يعقوب ولوط ونوح عليهم السلام، كافٍ في إثبات أنهم فقدوا القدرة على توقير أصحاب الحق، أنبياء كانوا أم بشرا، فضلا عن موقفهم من رب البشر سبحانه، كما قد أشرت.

ففي سفر الملوك الأول(١) أن سليمان عليه السلام باني هيكل الرب في أورشليم اتخذ آلهة من دون الله، ومال قلبه عن إله إسرائيل، وفي سفر الملوك الثاني(٢) أنه عليه السلام وضع هذه الآلهة قبالة أورشليم، وفي سفر حزقيال: ((**وأنت يا ابن آدمَ هل تَدينُ مدينة الدماء، فعرِّفها كل رجاساتها، وقل: هكذا قال السيد الرب، أيتها المدينة السافكة الدم في وسطها، ليأتي وقتها، الصانعة أصناما لنفسها لتتنجس بها..**))(٣).

إنه حينما انقسمت مملكة سليمان بعد وفاته، واستقر الأمر في شكيم/نابلس في يد يربعام خَصْم سليمان عليه السلام، وخاف يربعام من تقرّب الشعب بذبائحه إلى بيت الرب في أورشليم، وخاف أن يرجع الناس بذلك إلى رحبعام ملك يهوذا حينها ((..**استشار الملكُ وعمل عجلَي ذهب، وقال لهم: كثير عليكم أن تصعدوا إلى**

---

(١) سفر الملوك الأول، (١١/١-٣).

(٢) سفر الملوك الثاني، (٢٣/١٣).

(٣) سفر حزقيال، (٢٢/١-٣).

أورشليم، هو ذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوكِ من أرض مصر، ووضع واحـــدا في بيت إيل وجعل الآخر في دان))[1]، ويقول سفر الأخبار الثاني: ((**حتى إن جميع رؤســاء الكهنة والشعب أكثروا الخيانة حسب كل رجاسات الأمم، ونجَّسوا بيت الرب الذي قدَّسه في أورشليم**))[2]، ويذكر سفر الملوك الثاني الانحرافات التي وقع فيها الملك مَنَسَّـى، (٦٩٨-٦٤٣)[3] الذي ملك خمسا وخمسين سنة حسب السفر نفسه، هذا الملك وقع في أخطر المحظورات على ذمة سفر الملوك الثاني، يقول السفر: ((**وعاد فبنى المرتفعات الـتي أبادها حزَقِيّا أبوه، وأقام مذابح للبعل، وعمل سارية كما عمل أخآب ملك إسرائيل، وسجد لكل جند السماء وعبدها، وبنى مذابح في بيت الرب، الذي قال الرب عنه في أورشليم: أضع اسمي، وبنى مذابح لكل جند السماء في دارَي بيت الرب**))[4]، وفي سفر الملوك الثاني أيضا أن الملك يوشِيّا، الذي نُصِّب ملكا حوالي عام ٦٣٨ق.م.، قد اختــار بعد دعوى اكتشاف سفر الشريعة في الهيكل، بعد اختفائه لمدة طويلة، اختــار أن يطيــع الربَّ، إن الملك يوشِيّا هذا قد أمر بإخراج ما في الهيكل من أدوات الشرك، ولنا أن ننظر إلى شيء من نصوص سفر الملوك الثاني في هذه المسألة..

يقول السفر: ((وأمر الملكُ حِلقِيّا الكاهنَ العظيمَ، وكهنةَ الفرقة الثانية وحراس الباب، أن يُخرجوا من هيكل الرب جميع الآنية المصنوعة للبعل وللسارية ولكل أجناد الســماء، وأحرَقَها خارج أورشليم في حقول قدرون، وحمل رمادها إلى بيت إيــل،...، وأخــرج السارية من بيت الرب خارج أورشليم إلى وادي قدرون..))[5]، وفي الترجمة التي نشــرتها

---

(١) سفر الملوك الأول، (إصحاح ١٢) نقلناه عن: أورشليم القدس في الفكر الديني الإســرائيلي، للدكتور محمد جلاء إدريس (١٤٣).

(٢) سفر أخبار الأيام الثاني، (١٤/٣٦).

(٣) تأثر اليهودية بالأديان الوثنية، فتحي محمد الزغبي، (٤٠٢).

(٤) سفر الملوك الثاني، (٣٣/٢١).

(٥) سفر الملوك الثاني، (٤/٢٣-٦).

جمعية الكتاب المقدس في لبنان، بدل قوله: وأخرج السارية، ورد قوله فيه: ((وأخرَج صنمَ أشيرةَ مِنَ الهَيكلِ خارج أورشليم، إلى وادي قَدرونَ))(١)، وفي ترجمة جمعية الكتاب المقدس عن إصلاحات يوشيّا أيضا: ((وهدَمَ بُيوتَ البَغاءِ المُكَرَّسِ التي في دارِ الهَيكلِ، حَيثُ كانَتِ النِّساءُ يَنسُجنَ ثيابًا لأشيرةَ))(٢)، إنهم لم يقصروا في تلويث البيت المقدَّس بكافة الملوِّثات، حتى جعلوه دارا للبِغاء!

إن من هذا حالُهم حريٌّ بهم أن يكونوا محكومين لا أن يكونوا حاكمين، ولقد جربتهم الأمم فتبين لها أنهم أهل الربا والإباحية والإرهاب، بل تعليم الإرهاب في المدارس لترسيخه في نفوس الناشئة، ممثَّلا بقصص القتل المزوَّر للأطفال والنساء، منسوبا زورا إلى يوشع عليه السلام، **وحريٌّ بمن إذا ملك لم يرحم، حريٌّ به ألا يملك، رحمة بالناس وبه!**

وتجربتهم الحالية في فلسطين دليل صدق على ما نقول من أنهم لا يملكون صيغة الحق والعدل والخير، فكيف يبرر لهم وجودهم التاريخي القديم حقا فيها، وهم لم يُحسنوا قديما، ولا أحسنوا حديثا؟!

ونعود إذن لنؤكد أن دعوى الحق التاريخي ليست دعوى مجردة، بل هي تتضمن الحق في الحكم في هذه الأرض، ومن جرب نفسه وجربته الأمم قديما وحديثا، فَرَأَتْهُ منتهِكا للحرمات، فإنه يفقد هذا الحق، إن كان قد ناله في يوم من الأيام.

وأرجو أخيراً أن أكون قد طرحت القضية بشكل منسجم مع ما أراه يمثل الرؤية الإسلامية، والله تعالى الموفق للصواب.

---

(١) سفر الملوك الثاني، (٢٣/٦)، من الترجمة التي نشرتها جمعية الكتاب المقدس اللبنانية عبر موقعها على الإنترنت www.elkalima.com.

(٢) سفر الملوك الثاني، (٢٣/٧)، من الموقع نفسه www.elkalima.com.

الباب السابع:

التوراة كمصدر للتاريخ[1]

(١) أرى أنه لا بأس بالإطالة في هذا الباب حول التوراة، فالدعاوى اليهودية التي أفرزت افتراءً على فلسطين وتاريخها القديم، وألصقت اليهود بهذا التاريخ؛ كل ذلك ذو صلة وُثقى بالتوراة، وهي منها تنطلق، ولذا، فلا يعتبْ علينا القارئ الكريم إذا أحس أننا أطلنا فيه.

إن الغرب النصراني يؤمن بالتوراة إيمانا غير حرفي، أي إيمانا خاضعا لتفسيرات البابوات والقديسين، ولو خالفت النص صراحة، وذلك هو حال الكاثوليك منه، أو يؤمن بها إيمانا حرفيا، وهو حال اليهود والبروتستانت، ومن هنا فلنا أن نقول: إن البروتستانت يهودٌ اعتقاداً، ولا يخالفون اليهود إلا بما زادوا عنهم من إيمان بعيسى عليه الصلاة والسلام..

وفي (فلسطين أرض الرسالات الإلهية ٢٢٤) لروجيه جارودي، أن ((القراءة الرمزية للعهد القديم لم تُستبدل بها قراءة حرفية إلا ابتداءً من العصر الذي ترجم فيه لوثر الكتاب المقدس إلى اللغة الألمانية، وحيث صار في البلاد البروتستانتية مكتوبا باللغة العامية، لغة كل شعب، يصل إلى الآخرين كما يصل إلى الرهبان والكهنة الذين كانوا يحتكرون حتى ذلك الحين مهمة التفسير)).

أرجو أن يكون القارئ على ذكر بأنا لا ننكر أصل التوراة، ذلك الكتـــاب الكـــريم الذي أنزله الله تعالى على سيدنا موسى ج، فالله تعالى أنزل التوراة فيها هدى ونور، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا، كما نص على ذلك القرآن الكريم، وهـــذه هـــي عقيدتنا حول التوراة التي أنزلها الله تعالى، نؤمن بها وبالنبي الذي أنزلت إليه، ولا نفرق بينه وبين أي نبي من الأنبياء..

لكن المشكلة التي نبحث فيها في هذا الباب، هي مشكلة أخرى تماما، فنحن هنـــا لا نتحدث عن التوراة التي أنزلت على موسى ج، وإنما نتحدث عن كتاب آخر، اســـتبقى لنفسه اسم الكتاب المترل من عند الله تعالى، إذ سَمّاه مؤلفوه توراةً، وما هو بالتوراة التي أنزلها الله تعالى!.

نحن نعتقد ألا وجود لتوراة موسى عليه السلام، وإن كان العهد القديم يستبقي بعض ما نزل على موسى عليه السلام، فهذا المُستبقى غير معروف للباحثين، بل هو ضـــائع في ركام الخلطة الثقافية الأسطورية غير المتجانسة، والتي أُخذت سَطْواً من الأمم.

نحن ندعو الباحثين إن لم يَسْلم كلامنا هذا في نفوسهم، إلى إخراج تلك الشـــذرات الضائعة التي يرون أنها مما أبقته يد التحريف، فلم تُلْغِه أو تغيّرْه من ذلك الكتـــاب الـــذي سَمَّوْه توراةً، ولكننا نعلن أننا لا نقبل نصا يُدَّعى أنه مما أبقته يد الدهر إلا بدليل يثبـــت صلته بموسى ج، وحينها نقول: آمنا به كلٌّ من عند ربنا.

وفي الحقيقة، نحن نستبعد جدا أن تكون ثمة نسخة مخبَّأة من توراة الرب الصـــحيحة، فلو كانت موجودة فعلا لكشفتها القرون، ولتحدث عنها اليهود ولو ســـرا، ولســـوف يشاع السرُّ إن كان قد أسر به أحد لأحد، ولن يبقى أكثر من ألفي عامٍ طيَّ الكتمان، بل فلربما أسلم أو تنصَّر أو تغير يهودي، فإن كان ثمة سر فلا بد أن يذيعه.

أقول هذا الكلام متيقنا، رغم أنني قرأتُ في كتاب لأحد السادة الباحثين العـــراقيين

الكرام هذه القصة؛ يروي الأستاذ جمال البدري عن والده : تعالى:

((في عام ١٩٣٨م جاءت بعثة تنقيب ألمانية إلى مدينة سامراء، وتمكنت بواسطة خريطة آثارية من تحديد بقعة تمَّ حفرها واستخراج كيس من الجلد من باطنها، وضم هذا الكيس أختاما أسطوانية طينية، ثم شُحنت الأختام عبر تركيا إلى برلين، وقد أخبر أحد المراقبين والدي :، أن ما تم العثور عليه هو نسخة أصلية من التوراة، تعود لأكثر من ألفي سنة مضت، وقد علم الدكتور المرحوم أحمد سوسة، صديق والدي بهذا الخبر، وبذل جهودا لمعرفة التفاصيل))(١)، هذا ولم يذكر الأستاذ البدري شيئا عن هذه الجهود أو عن نتائجها؛ ولذا فلا نستطيع أن نخرج عما قررناه من تأكيد عدم وجود نسخة صحيحة للتوراة.

ولن أتحدث كثيرا هنا عن التوراة ونقدها، فلقد تقدم من الباحثين والعلماء الكثير من البحث في هذا المضمار..

ولأن بحثي هذا في جانب مهم من جوانبه ذو سمة تاريخية متعلقة بفلسطين، ولأن مساهمة التوراة في تشويه صورة فلسطين من الناحية التاريخية، جَعَلَت من شَعبٍ لا يمت إلى فلسطين بصلة، جعلته يدعي ملك فلسطين؛ فلقد رأيت أن أُفرد هذا الباب بحث التوراة مركّزاً فيه على ما يفيد في الجواب عن موقعها في المصادر التاريخية فحسب.

وأنا أرى كما يرى غيري ممن سأذكر بعضهم، أن التوراة لا تصلح أن تكون مرجعا للتاريخ، بعد أن أظهرت دراسات القرنين الأخيرين ما يمنع من الاستناد عليها في إثبات أو نفي حدث تاريخي، فكتابٌ امتلأ بالأساطير والخرافات، وكوَّنت مضامينَه ثقافاتُ الأمم، ورحل رحلة طويلة بين ضياع نصّه وعرقلات تدوينه؛ حري به ألا يُدخل نفسه في التاريخ، وكتابٌ لا تُعرف له صلة بنبي أو وحي أو سماء، جدير به ألا يُقحِم سُطوره في أخبار الأمم..

---

(١) الجسر، الأحزاب الدينية الإسرائيلية، تأليف: جمال البدري، (٧٢).

وعليه فسنتحدّث في هذا الباب باختصار في قضية واحدة، هي: مدى إمكانية التوراة أن تعطي الباحث تاريخا حقيقيا؟

وأخيرا، فلربما رأى البعض أن من حق هذا الباب أن يكون في بداية الكتاب، إذ بناءً على ما يتقرر فيه سيتحدّد ابتداء موقع التوراة في المصادر التاريخية، وسيكون القارئ مالكا للردّ تلقائيا على ما يثيره التوراتيون من قضايا تتعلق بتاريخ فلسطين القديم استنادا منهم على التوراة، لمجرّد أنه تمهّد لديه أن التوراة لا يمكن أن تكون مصدرا للتاريخ؛ ومع ذلك جعلتُ هذا الباب في موقعه هنا من هذا الكتاب، وأسَّستُ في نفس القارئ الكريم أن ثمة موقعا للتوراة لا بد من استعراضه، حتى يكون متحفّزا منتظرا لهذا الباب، فإذا وصله قام بقراءته بعد أن تمهّد في عقله ضرورة قراءته..

هذا حسب تقديري.

وجعلتُ هذا الباب من ثلاثة فصول:

الفصل الأول: التوراة الحالية مجمع خرافات وثقافات الماضين.

الفصل الثاني: طول الأمد بين نزول التوراة وتدوينها.

الفصل الثالث: عدم صلاحية التوراة كمصدر تاريخي.

الفصل الأول: التوراة الحالية مجمع خرافات وثقافات الماضين

إنه سيتضح لنا من خلال هذا العرض الموجز أن التوراة ليست تزيد عـــن أن تكـــون خلطة ثقافية غير متناغمة، ومزيجا خرافيا لَمْلَمَ بقايا خرافات متلاطمة(١)، وهذه الخلطـــة الثقافية منعت التوراة من القدرة على المحافظة على نسبٍ صـــحيحٍ إلى الســـماء، أو إلى الأنبياء..

فلقد مرت اليهودية -يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري- ((كنسق ديني، بمراحـــل تطوّرٍ تاريخيةٍ طويلةمتعددة ومتناقضة، ولـــذا، **فهي تأخذ شـــكل تركيـــب جيولـــوجي تراكمت داخله عدة طبقات، تتعايش جنبا إلى جنبٍ، أو الواحدة فوق الأخرى**..))(٢)، وليس غريبا أن يُعَبِّر كلٌّ من هذه الطبقات عن ثقافة أمة أو جيل، تتناقض تماما مع ما تعبر عنه الطبقة المجاورة لها.

ولقد اشتهرت أصول عدّة كمرجعية للمضمون التوراتي، والبحث في هذا يطول، غير أننا نأوي إلى الاختصار قدر الإمكان؛ فمن هذه الأصول المرجعية لمضمون التوراة الحالية، أصول ترجع إلى الحضارة والثقافة الأوغاريتية الكنعانية القديمة..

وكمثال، فقد نشر هـــ. ي. ديل ميديكو ترجمة للوحات الفخارية التي عثرت عليها بعثة شيفر في أوغاريت بين ١٩٢٩-١٩٣٣م، نشرها بعنوان (التوراة الكنعانية)(٣) تتضمن

---

(١) أودّ أن أُرجع القارئ الكريم إلى كتاب (تأثر اليهودية بالأديان الوثنية)، للدكتور فتحي محمد الزغبي، وهو في أصله رسالة دكتوراة، وقد أجاد في عرض التكوينة التوراتية العائدة إلى الأديان الوثنية الأخرى.

(٢) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، للدكتور عبد الوهاب المسيري، (٥/٨٤)

(٣) بتصرف من (آثار فلسطين، ١٢٦) للأستاذ حسين عمر حمادة، ويُنظر مقال: القـــدس بـــين حقائق التاريخ وادِّعاءات الميثولوجيا، للأستاذ فيصل الخيري، نشرته مجلة صامد في عددها (١١٠) عام ١٩٩٧م.

التراث الكنعاني الفلسفي والديني والاجتماعي، **ويتضح من مقارنة توراة يهود والتـوراة الكنعانية المشار إليها، أن كثيرا مما تضمنه كتاب التوراة اليهودي، ليس أكثر من تراث كنعاني زجَّه أحبار اليهود في التوراة**، ونسبوه زورا إلى السماء، وما هو إلا من أسـاطير الماضين.

ومن الجدير ذكره أن أوغاريت هذه كانت ذات حضارة كنعانية عامرة متطـوِّرة في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، أي قبل ظهور سيدنا موسى عليه السلام بأكثر من مائتي سنة؛ أقصد بهذا التحديد لتاريخها أن أبين أنها سابقة في وجودها علـى وجـود التـوراة المنسوبة إلى موسى عليه السلام الذي لم يظهر إلا بعدها، رغم مـا سـنتعرف عليـه في المبحث التالي من أن التوراة نفسها كُتبت بعد موسى عليه الصلاة والسلام ببضع مئـات من السنين؛ مما يؤكد تماما سبق وجود هذه الوثائق على كتابة التوراة، ربما بأكثر من ألف عام.

يقول العالِم ج. جراي، أستاذ اللغة العبرية والنقد التوراتي عـن وثـائق أوغاريـت الأثرية[١]: ((إن الدراسة التفصيلية لهذه الوثائق، تكشف عن نقاط اتصال غزير بينها وبين التوراة، وفوائدها في دراسة التوراة جَمّة، فهي تسجل بصورة وثائقية عبادة الخصب عند الكنعانيين التي تأثر بها العبرانيون؛ كما تسجل العادات الاجتماعية والعلاقات العائليـة، والفضائل المتبعة عند الإسرائيليين، المقتبسة من الكنعانيين)).

وكان للألواح السومرية نصيب في تكوين المضمون التوراتي الحالي..

فقد قال صاموئيل نوح كريمر، وهو باحث متخصص في قسم الألـواح السـومرية البابلية، قال في كتابه (من ألواح سومر)[٢]: ((لقد ترك الأدب الذي أوجده السـومريون

---

(١) نقلت كلام جراي عن مقال: القدس بين حقائق التاريخ وادِّعاءات الميثولوجيـا، للأسـتاذ فيصل الخيري، نشرته مجلة صامد في عددها (١١٠) عام ١٩٩٧م.

(٢) من ألواح سومر لِكريمر، نقلا عن آثار فلسطين، (١٢٨) لحسين عمر حمادة.

أثره العميق في العبرانيين، ومن أكثر الأمور المثيرة في استعادة الآداب السومرية وترجمتها، إنما هي في تقصي أوجه الشبه والمطابقة بين الأفكار والبواعث السومرية والتوراتية))، وأوجه الشبه تلك تملأ صفحات التوراة.

ومن الباحثين المشاهير الذين نصوا على هذه الرؤية القاضية بأن التوراة ليست أكثر من ممرٍّ تجري عَبْرَهُ ثقافات الماضين، بما فيها من ظلام وخرافات؛ من الباحثين الذين نصوا على هذا: إي. ماير، وهـ. جنكل، فلقد ذكرا أن المصدر الأساسي للتقاليد التوراتية هو الحكايا الشعبية والملاحم وقصص البطولة التي كانت متداولة شفاهة عند تحرير أسفار التوراة، إبان وبعد السبي البابلي، **ويري ماير تحديدا أن سفر التكوين بكامله لا علاقة له بالتاريخ، وإنما هو من باب الأخيلة الأدبية**[1].

وقد وصف توماس تومبسون أعمال كل من جنكل وماير، وما بيناه من عودة مصادر القصص التوراتية إلى الأدب الشعبي المتناقل منذ أزمان بعيدة؛ وصف بيانهما بأنه مقنع، وقال عن دراستهما ومن تبعهما عليها: ((ولم يعتبروا مؤلفي المصادر اليهوهية والإيلوهية[2] كُتّابا أو مؤرخين لماضي إسرائيل، **بل جامعين ومحررين لأساطير وحكايات شعبية مختلفة، متعددة الأصول والتواريخ**))[3].

ولهذا، فإن أولبرايت، وهو أحد علماء الآثار الأمريكيين المشاهير، الذين كرسوا جهدهم في حياتهم لأجل إثبات مصداقية التوراة؛ أولبرايت هذا يعترف، كما يذكر

---

(١) يُنظر كتاب آرام دمشق وإسرائيل، لفراس السواح، (١٠).

(٢) جريت في ذكر هذين المصدرين التوراتيين هنا تحديدا على الصياغة التي صاغها مترجم كتاب تومبسون، وإن كان الشائع ذكر هذين المصدرين هكذا: (اليهوية، والإيلوهيمية) بدل اليهوهية والإيلوهية، تلك التي اعتمدها مترجم تومبسون.

(٣) التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، تومبسون، (١٣)، ولا بد من الإشارة إلى أن تومبسون وصف جنكل بأنه كان أشهر الدارسين في عصره، يُنظر كتابه ص (١٢).

وايتلام ((**بإسهامات الثقافات المحيطة في هذين الكتابين المقدَّسين**))[1]، أي العهدين القديم والجديد.

ولقد ارتقى الحديث عن هذا التجمع الثقافي غير المتجانس، والذي تميزت به التوراة، ارتقى إلى دوائر المعارف الرسمية، كدائرة المعارف البريطانية التي تقول[2]: ((**إن العهد القديم كتاب يُمَثّل تراث الشعب الإسرائيلي وتراث شعوب أخرى كثيرة**))، وتذكر دائرة المعارف هذه كما ينقل عنها الدكتور البارّ أن أول ما كُتِب من التوراة هو عند تكوّن مملكة داود، وتُضيف الدائرة قولها:[3] ((إن أسفار العهد القديم كُتِبت في عصور مختلفة، **وبأيدي كُتّابٍ مختلفين ذوي ثقافات متباينة**، ثم إن النص اليوناني المعتمد يختلف عن النص العبري اختلافا بيِّناً، وفيه زياداتٌ كثيرة في مختلِف الأسفار، ويرجع النص اليوناني إلى القرن الرابع بعد الميلاد)).

وأفرزت هذه الاستقطابات لثقافات الأمم، وهذا السطو على تقاليد السابقين، أفرز كل هذا مما أفرز: سلوكيات الأعياد المقدسة لدى اليهود، يقول البروفيسور ووترمان: ((**لقد أصبح من المُسَلَّمِ به الآن أن جميع الأعياد اليهودية ما عدا عيد الفصح، كانت**

---

(١) اختلاق إسرائيل القديمة، وايتلام، (٩٦)، هذا وتنبغي الإشارة إلى أن أولبرايت وسواه من العلماء التوراتيين، الذين يستندون إلى التوراة كمصدر تاريخي، يرون أو يرى بعضهم على الأقل، أن التوراة رغم أنها تحمل قصصا من الأمم السالفة، فهي ليست ذات وصف تاريخي، بل هي من باب الخيال، إلا أنها حسب رأي أولبرايت وغيره منهم، تتضمن أحداثا تاريخية حقيقية؛ يُنظر كتاب آرام دمشق وإسرائيل، لفراس السواح، (١٠)، ولذا فيما أرى، حملوا معاولهم وجاءوا إلى فلسطين ليؤكدوا صدق التوراة في أخبارها التاريخية، وهو ما نفاه علم الآثار نفسه أخيرا، مما تحدثنا عنه في أوائل بحثنا هذا.

(٢) دائرة المعارف البريطانية، (الطبعة: ١٥، ٢/٨٧٩، لعام ١٩٨٢)، نقلا عن: تحريف التوراة وسياسة إسرائيل التوسعية، للدكتور محمد علي البارّ، (٢٩-٣٠).

(٣) دائرة المعارف البريطانية، (الطبعة: ١٥، ٢/٨٧٩، لعام ١٩٨٢)، نقلا عن: تحريف التوراة وسياسة إسرائيل التوسعية، للدكتور محمد علي البارّ، (٢٩-٣٠).

بالأصل من الطقوس الدينية في كنعان، وأن شرح طريقة تطبيقها ومراعاتها يكوِّن مجموعة من الشرائع، لنا كل الحق أن نعتبرها أساسا من عهود ما قبل إسرائيل))(1).

وهكذا استطاعت هذه المخلّفات الفكرية والأسطورية التي أنتجتها أمم شتى أن تحول بين التوراة وبين أن تقدر على طرح نفسها ككتابٍ متجانسٍ يُصدِّق بعضُه بعضاً؛ ذلك أنها تُلصق بالسماء ما قد نقله أحبار اليهود من تناقضات تناثرت عند الأمم، وتنسب إلى الوحي المقدس **مجموعات من التناقضات مع التاريخ ومع العلم والآثار، ومن التناقضات الداخلية؛ جعلت من العرض التوراتي لكثير مما أصله حقٌّ، مزيجا من التضارب في المضمون ومن الأسطورة والحقيقة معاً، وأدت إلى اختفاء الحقيقة في بطن الأسطورة، وتلاشي بقايا النور في لجةٍ غائرة في عمقٍ سحيق من ظلام الأمم، وإلى ضياع التناغم في خِضَمِّ التناقضات؛ حتى لم يَعُد لدى الباحث التوراتي إن كان يجري وراء الحقيقة والانسجام الداخلي والخارجي، إلا تجاوز الرواية التوراتية، حتى فيما له أصلٌ من الحقيقة؛ هذا إن كان يريد احترام العقل والعلم والكشوفات!**

إن مثل هذه البحوث أدّت إلى تحوّل جماعات من المفكّرين عن اليهودية أو النصرانية إلى الإسلام، كالدكتور موريس بوكاي الذي درس التوراة والإنجيل والقرآن، فأدّته دراسته إلى إعلان إسلامه بعد أن كان نصرانيا، والدكتور أحمد نسيم سوسة، الذي درس علم الآثار والتوراة فخرج بكشوف كبيرة تناقضت فيها التوراة مع المكتشاف، ودرس القرآن، فأعلن إسلامه؛ ولقد ذكر الدكتور سوسة : تعالى قصة إسلام الأستاذ فارس الشدياق، ولهذه القصة معنى خاصٌّ فيما نحن فيه..

إن الأستاذ فارس الشدياق، اللبناني والنصراني الأصل، قام بما عهدت إليه إحدى اللجان الإنجليزية، فترجم التوراة إلى اللغة العربية عام ١٨٥١م، ولكن هذه الترجمة مُنِعت من التداول لسبب بسيط، **وهو أن الأستاذ الشدياق الذي قام بترجمتها كان قد أعلن**

---

(١) نقلت كلام ووترمان عن العرب واليهود في التاريخ، تأليف الدكتور أحمد سوسة، (٤٣٦).

إسلامه فور انتهائه من الترجمة، وسمى نفسه: أحمد، فاشتهر فيما بعد باسمه الجديد: أحمد فارس الشدياق، وذلك ردا منه على ما وجد في التوراة من مغالطات وتناقضات[1].

إن العقل الواعي ليرفض نسبة التناقضات إلى السماء أو إلى الأنبياء، وما صدّق اليهود بصحة نسبة التوراة إلى السماء والأنبياء، إلا لأن عقليّتهم قد صُمِّمَت تصميما خاصا يقوم على إفساح المجال للخرافة حتى تستقرَّ فيها، وتزرع وتسقي وتُنبت!

كيف بعد كل هذا يمكن أن يُستند على التوراة الحالية كمصدر للتاريخ؟!

(١) يُنظر كتاب: العرب واليهود في التاريخ، للدكتور أحمد نسيم سوسة، (٣٢٧).

الفصل الثاني: طول الأمد بين نزول التوراة وتدوينها

لا قدرة للبشر على حفظ القليل من النصوص في الصدور دون أن يشفع هذا المحفوظ كتابة له، ودون أن تكون رواية هذا المحفوظ في الصدور متواترة، وإلا سقطت قدرة مثل هذه النصوص على الثبات والثبوت.

إن مشكلة التوراة والعهد القديم متعددة الجوانب، فهي لم تُحفظ في الصدور؛ وإن توراة موسى عليه السلام نفسها لم يكن منها إلا نسخة واحدة حُفِظت في التابوت، ثم سيرى القارئ الكريم ما تعرضت له حتى اختفت تماما، وإن توثيق العهد القديم كله يدور في عالم كثيف من الظنون والأوهام، وإنه لا أحد في عصرنا يستطيع أن يجزم بآية منه فينسبها إلى موسى عليه السلام.

هذا فوق ما تعرضت له النصوص التوراتية من نقد داخلي وخارجي، ومن حرج شديد أوقعها فيه علماء الآثار، الذين قرأ لهم القارئ في مواطن من كتابنا هذا تحقيقات محرجة جدا للتوراتيين.

ونحن هنا سنخصص هذا الفصل في بحث طُول المسافة بين عهد موسى وزمنه، وبين كتابة التوراة، وسنتعرض لبعض ما مرت به التوراة من اختفاء ثم ظهور مُدّعى.

كل ذلك لأجل أن نُثبت للقارئ الكريم أنه لا يمكن اعتماد التوراة مصدرا للتاريخ.

وسيكون فصلنا هذا في مبحثين اثنين:

المبحث الأول: تدوين التوراة.

المبحث الثاني: ضياع التوراة.

المبحث الأول: تدوين التوراة

إن للتوراة مسيرة تعرّضت فيها لتعرُّجات كبيرة، حتى أمست بعد تشرُّفها بالانتساب إلى السماء فاقدةً لهذا الشرف الرفيع.

ولعل المشكلة بدأت حينما اعتُمِدَ في نقل التوراة طريق المشافهة لا الكتابة، فـَ ((**نصوص العهد القديم تم تناقلها شفاهة، ولذا، فإن معظم المؤرخين يرجحون تعرضها إلى ما تتعرض له عادة كل الأقوال المنقولة مشافهة**، وبالتالي دخلتها التناقضات وتداخلت النصوص والمصادر، ومن هنا، فقد قام علم نقد العهد القديم بتطوير نظرية المصادر وتفسير التناقضات وعدمِ التجانس الأسلوبي))(١).

ويقول الدكتور المسيري في تعريفه (علم نقد العهد القديم) في موسوعته: ((وهو العلم الذي يهدف إلى دراسة نصوص العهد القديم، باعتبارها نصوصا تاريخية، على الدارس أن يُطبق عليها كل المعايير التي يُطبقها على أية نصوص تاريخية أخرى، كما يهدف إلى اكتشاف أسباب التناقضات التي قد توجد بين نص وآخر، وعدم الاتساق فيما بينها، ثم محاولة تفسيرها في ضوء المعطيات التاريخية))(٢).

إنه لم يُدوَّن من التوراة في عهد موسى إلا نسخة واحدة، وأرجو أن يتأمل القارئ هذه النصوص والسياقات ..

ذكر سفر الخروج: ((فجاء موسى وحدّث الشعبَ بجميع أقوال الرب وجميع الأحكام،...، فكتب موسى جميع أقوال الرب))(٣)، وفي السفر نفسه يأمر الله تعالى موسى

---

(١) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، للدكتور عبد الوهاب المسيري، (٥/٨٥)

(٢) المرجع نفسه، (٥/١٠١-١٠٢).

(٣) سفر الخروج، (٢٤/٣، ٤).

أن يصعد جبل سيناء، ويقول له: ((فأُعطيَك لوحَي الحجارةِ والشريعةِ والوصيةِ))[1]، وهي فيما يبدو تلك التي جعلها سيدنا موسى ج في التابوت، كما يشهد على ذلك سفر الخروج: ((وتضع في التابوت الشهادةَ التي أُعطيكَ))[2]، وفي الخروج أيضا: ((وأخذ الشهادةَ وجعلها في التابوت))[3]، وفي التثنية: ((وكتب موسى هذه التوراةَ وسلّمها للكهنة بني لاوي حاملي تابوت عهد الرب، ولجميع شيوخ إسرائيل))[4]، وفيه أيضا أن موسى أمرهم بإخراجها كل سبع سنين في عيد المظالّ[5]؛ إن ما نقلنا أخيراً عن سفر التسمية يسمح لنا بتأكيد أنه كتب من التوراة نسخة واحدة فحسب، ولما مات موسى تولّى يوشع أمر بني إسرائيل، فقام بأمر التوراة ولم يتغير شيء منها في عهده، غير أن سفر يوشع ينسب إلى يوشع كتابة نسخة من التوراة، فهو يقول: ((..وكتب هناك على الحجارة نسخة توراة موسى التي كتبها أمام بني إسرائيل..))[6]، ولم يُشر سفر يوشع إلى النسخة التي كتبها موسى، أهي موجودة أم غير موجودة، وإن كانت غير موجودة، فأين ذهبت؛ وإن كانت موجودة فما الحكمة في كتابة النسخة الثانية[7]؟

وعلى جميع الأحوال، فلم يرد أن تحريفات دخلت نسخة التوراة في عهد يوشع، رغم أن إمكانية حصول ذلك واردة، فكونه لم يرد وقوع تحريفات، لا يعني أنها لم تقع، فبنو إسرائيل الذين طلبوا من هارون في حياة موسى أثناء غيابه لتلقي التوراة أن يصنع لهم آلهة يعبدونها من دون الله، وأن هارون أمرهم بجمع الذهب وصَنَع لهم عجلا اتخذوه ربا

---

(١) سفر الخروج، (١٢/٢٤).

(٢) سفر الخروج، (١٦/٢٥).

(٣) سفر الخروج، (٢٠/٤٠).

(٤) سفر التثنية، (٩/٣١).

(٥) سفر التثنية، (١٠/٣١).

(٦) سفر يوشع، (٣٢/٨).

(٧) التراث الإسرائيلي، صابر طعيمة، (٢٩٧/١).

يعبدونه، كما نص على ذلك سفر الخروج[٨]؛ إن من يفعل ذلك في عهد موسى نفسه، ويتهم هارون بصناعته، غير مستبعد عليه أن يحرِّف الكتاب الذي أُنزل على موسى في حياة يوشع!

وعلى كل حال، لم يرد ذكرٌ لتحريف التوراة في عهد يوشع، ولا في أول عهد القُضاة، غير أن التغير بدأ بعد مضي العهد الأول منهم؛ ففي إحدى المعارك بين بني إسرائيل وبين الفلسطينيين، أخذ الفلسطينيون التابوت وفيه عهد الرب، ومن هنا ابتدأت قصة ضياع التوراة، التي سنفصّلها في المبحث التالي؛ غير أننا سنتحدّث هنا عن تدوين ما سُمّي فيما بعد توراةً.

يقول بوكاي عن مجموعة أسفار العهد القديم: ((كُتِبت هذه الأسفار على مدىً يربو على تسعة قرون، وبلغات مختلفة، **واعتمادا على التراث المنقول شفويا**، وقد صُحِّحت وأُكمِلت أكثر هذه الأسفار بسبب أحداث حدثت أو بسبب ضرورات خاصة، وفي عصور متباعدة أحياناً))[١]، ثم أخذ بوكاي يشرح تاريخ العهد القديم كله[٢]، ابتداءً من أول عهود كتابتها نحو القرن الحادي عشر قبل الميلاد، حتى نهاية ما كُتِب منها قبل المسيح عليه السلام بقرنٍ واحد، ثم قال بعد ذلك: ((**وكل هذه المعلومات معطاةٌ تحت تحفظات التعديلات اللاحقة، لأن كتب العهد القديم لم تتخذْ هيئتها الأولى إلا قبل قرونٍ[٣] من ميلاد المسيح، ولم تكتسب شكلها النهائي إلا في القرن الأول بعد المسيح كما يرى**

---

(٨) سفر الخروج، (٣٢/١-٦). ونحن ننزّه هارون عليه السلام من هذا الذي نسبه إليه سفر الخروج.

(١) دراسة الكتب المقدسة لموريس بوكاي، (٢٣).

(٢) انظر دراسته، (٢٣-٢٥).

(٣) هكذا: قبل قرون من ميلاد المسيح، ويظهر لي أن ثمة خطأً مطبعيا، وأن الصحيح: قبل قرن من ميلاد المسيح لا قبل قرون؛ ففيما سيأتي من كلام المحقق اليهودي في التوراة أدموند جاكوب أنه في القرن الأول قبل الميلاد حدث اتجاه إلى كتابة نص موحّد للتوراة.

الكثيرون.

وعلى ذلك يبدو العهد القديم صرحا أدبيا للشعب اليهودي منذ أصوله وحتى العصر المسيحي، ولقد دُوِّنت وأُكمِلت وروجعت الأسفار التي يتكون منها فيما بين القرن العاشر والقرن الأول قبل الميلاد»[1].

إن هذه العهود الطويلة تُلقي على العقل البشري أثقالا كبيرة، يعجز معها عن نقل نصٍ من صفحات قليلة نقلا حرفيا إن لم يدوِّنْه من البداية، وكونُ النص التوراتي لم يُدوّن من هذه البداية المرتبطة بحضور موسى عليه الصلاة والسلام، سوى نسخة موسى ونسخة يوشع اللتين أشرنا إليهما فيما مضى، مع عدم قدرتنا على التحقيق فيما إذا كانت الثانية موجودة مع وجود الأولى، أم كانت موجودة على أثر ضياع الأولى؛ ومع ذلك فثمة نسخة واحدة وُضعت في التابوت..

أقول: وكونه لم يُعرف فيما بعد إلا هذه النسخة التي وُضعت في التابوت، والتي

(١) المرجع نفسه، (٢٥)، ومن أجل ألا يَظُن القارئ أن هذا الكلام من موريس بوكاي جاء اجتهادا منه، أو على سبيل التحامل على العهد القديم، فإنه يقول بعد ما نقلناه أعلاه: «وليس هذا مطلقا وجهة نظر شخصية نعطيها عن تاريخ تحرير هذه الأسفار، فالمُعطيات الجوهرية لهذه اللمحة التاريخية مستقاة من مقال (التوراة) بدائرة معارف أونيفرساليس للكاتب ج.ب. ساندروز، الأستاذ بكليات الدومنيكان بسولشوار، ولكي نفهم ما العهد القديم يجب أن تكون هذه المعلومات حاضرة في أذهاننا، وهي معلومات أثبتها متخصصون على درجة عالية من الكفاءة.

إن الوحي يختلط بكل هذه الكتابات، ولكننا لا نملك اليوم إلا النصوص التي خلّفها لنا الكُتّاب الذي عالجوا النصوص على سجيتهم، وحسب الظروف التي عاشوها، والضرورات التي كان عليهم مواجهتها.

وعندما نقارن هذه المعطيات الموضوعية بتلك التي تكشف عنها مقدمات الكتب المقدسة المخصصة للعامة، ندرك أن هذه المقدمات تسوق الأمور بشكل مختلف، فهي تسكت عن الأمور الأساسية الخاصة بتدوين الكتب، كما أنها تحتفظ بغموضٍ يُضل القارئ، وتُقلل من شأن أمور أخرى، إلى درجة أنها تعطي فكرة خاطئة عن الواقع الذي حدث فعلاً.. ».

تعرّضت للضياع على أثر الصراع بين الإسرائيليين والفلسطينيين القدماء، ثم لا تتحدث التوراة عن رجوع هذه النسخة فيما بعد، بل تتحدث الأسفار أن سليمان لم يجد في التابوت إلا لوحي الحجارة، كما سيأتي تفصيله في المبحث التالي؛ كون ذلك قد حصل، **فإن عجز القدرة الحافظة، ووساوس الشيطان وأهواء النفس وتقلبات التاريخ ومِحن المسير**؛ كل ذلك يمنع من نقل التوراة نقلا صحيحا، دون إقحام ما ليس منها فيها، وصرف ما هو منها عنها.

ويظهر أن التوجه لكتابة نص موحَّد للتوراة ابتدأ متأخراً للغاية، فلم يحصل هذا التوجه في عهد موسى، ولا في عهود تلامذته أو تلامذتهم، وإنما بعد ما يزيد عن اثني عشر قرنا، يقول المُحقِّق اليهودي إدموند جاكوب في كتابه (العهد القديم): ((**وفي القرن الأول قبل الميلاد حدث اتجاهٌ إلى كتابة نصٍ موحد للتوراة، ولكن ذلك لم يتمَّ إلا في القرن الأول بعد الميلاد، أي بعد ألف وخمسمائة عام منذ عهد موسى عليه السلام، ولم يتم الاعتراف بهذا النص العبري إلا في القرن العاشر بعد الميلاد، على يد عائلة بن أشير في طبريا، أي بعد مرور ٢٤٠٠ عام منذ عهد موسى عليه السلام**))[١]، وإلى وقت كتابة نصوص التوراة الموحدة، تكون التوراة قد صادفت في حياتِها العاثرة تحدِّيات أضخم من قُدرة أو إرادة أحبار بني إسرائيل على المحافظة على النص سليما، هذا إن افترضنا فيهم سلامة النية.

ولقد كُتبت التوراة أول ما كُتبت باللغة العبرية، وسُمّيت الكتابة العبرية لها: النسخةَ العبرية، وعنها تُرجمت إلى اليونانية، فيما سُمي بالترجمة السبعينية، لكن الأصل العبري ضاع، وعن الفرع اليوناني تمت الترجمة إلى العبرية مرة أخرى؛ قال المحقق اليهودي في

---

(١) نقلا عن: تحريف التوراة، للدكتور محمد علي البارّ، (٣٣)، ويُنظر: دراسة في الكتب المقدسة، موريس بوكاي (١٨)، وحول التفصيل التاريخي لأزمان كتابة العهد القديم، والأسفار الخمسة خاصة، تُنظر موسوعة الدكتور عبد الوهاب المسيري (اليهود واليهودية والصهيونية ٥/٨٣-٩٦).

العهد القديم أدموند جاكوب(٢): ((**وضاعت النصوص العبرية أثناء غزوات نبوخذ نصّر والهجرة إلى بابل وما بعدها من نكبات، ولم يبق سوى النص اليوناني، ثم تُرجم ذلك النص إلى العبرية، وقد كُتب أقدم نص عبري موجود للتوراة في القرن التاسع بعد الميلاد..**))(١)، وكما هو واضح من كلام المحقق جاكوب، فإن هذا النص مترجم عن اليونانية، لا عن العبرية، فمن المترجم عن العبرية أولا، ثم عن اليونانية ثانيا؟

في الحقيقة لا يملك اليهود والنصارى ما يملكه المسلمون من تخصّص بعلم اسمُه علم الجرح والتعديل، إذ لو افترضنا أن المترجمين معروفون بأشخاصهم، فلا أحد يملك من اليهود والنصارى القدرة على وصفهم بالعدالة والأمانة والدقة في النقل، إذ كل ذلك يحتاج إلى علومٍ وأسانيد وتحقيقات وتمحيصات تخلو منها معارف أهل الكتاب عموما..

ومع ذلك، فلا بد من أن أبين أن الترجمة السبعينية التي هي أول ترجمة للتوراة إلى لغة غير عبرية، واللغة المترجَمُ إليها هنا هي اللغة اليونانية؛ هذه الترجمة بفحواها ترجمة أسطورية، فالقصة أن يهود مصر في زمن البطالمة استجابوا لطلب بطليموس فلادلفيوس ملك البطالمة، (٢٤٧-٢٢٨ق.م.) إلى ترجمة النص العبري إلى اليونانية، فقام اثنان وسبعون عالما يهوديا بترجمتها، غير أن الأسطورة تقول: **إن كلا منهم ترجمها وحده في حجرة منفردة، دون أن يلتقي بسائرهم، فلما انتهت الترجمة وجدوا ترجماهم جميعها متفقة اتفاقا تاما!!**

إن هذه الترجمة تختلف عن النصوص الأصلية اختلافات كثيرة، ومع ذلك جاءت متلاقية من هؤلاء الذين لم يلتقوا أثناء الترجمة، مع احتواء ترجماهم على نفس التحريفات

---

(٢) وقد وصفه الدكتور محمد علي البارّ بأنه: ((العالِم اليهودي المحقق في العهد القديم))، وذلك في كتابه -أي كتاب البارّ- المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، (١٣٥).

(١) نقلا عن: تحريف التوراة، للدكتور محمد علي البارّ، (٣٣).

والتغييرات التي ابتعدوا بها عن النص العبري(٢).

إن مثل هذا العمل الأسطوري، يُفقد الثقة بالترجمة والمترجم.

ولا بد أن يتذكر القارئ الكريم ما قرأه قبل صفحات من كلام موريس فودن حول جهالة كاتبي كتب التوراة، فلربما ساهم كلامه في إلقاء الضوء على عجز أهل التوراة عن سبل التوثيق!

وتقول دائرة المعارف الأمريكية: "**لم تصلنا أي نسخة بخط المؤلف الأصلي لكتب العهد القديم**، أما النصوص التي بين أيدينا، فقد نقلتها إلينا أجيال عديدة من الكتبة والنُساخ، ولدينا شواهد وفيرة تبين أن الكتبة قد غيروا بقصد أو بدون قصد في الوثائق والأسفار، التي كان عملهم الرئيسي هو كتابتها أو نقلها..

وقد حدث التغيير بغير قصد حين أخطأوا في قراءة أو سمع بعض الكلمات أو في هجائها، أو أخطأوا في التفريق بين ما يجب فصله من الكلمات وما يجب أن يكون تركيبا واحدا.

كذلك فإنهم كانوا ينسخون الكلمة أو السطر مرتين، وأحيانا ينسَوْن كتابة كلمات، بل فِقْرات بأكملها.

وأما تغييرهم في النص الأصلي عن قصد، فقد مارسوه مع فقرات بأكملها حين كانوا يتصورون أنها مكتوبة خطأ في صورتها التي بين أيديهم، كما كانوا يحذفون بعض الكلمات أو الفِقْرات، أو يزيدون على النص الأصلي، فيضيفون فِقْرات توضيحية.

وهكذا لا يوجد سبب يدعو للافتراض بأن وثائق العهد القديم لم تتعرض للأنواع العادية من الفساد النسخي، على الأقل في الفترة التي سبقت اعتبارها أسفارا مقدسة،...،

---

(٢) يُنظر في تفصيل هذه الترجمة، والاختلافات بينها وبين النص العبري، وسبب هذه الاختلافات: موسوعة اليهود واليهودية، للدكتور المسيري، (٥/٩٠).

وقد كان يحدث أحيانا أن بعض المواد التي كتبت على هامش النص تضاف إليه»(١)..

إن كل هذا الذي مضى يدخل في باب: وشهد شاهد من أهلها، فالعمدة فيه أقوال محققي التوراة من المؤمنين بها!

إن التوراة كُتبت أول ما كُتبت باللغة العبرية، عدا بعض الفِقْرات والكلمات في بعض الأسفار، ثم تُرجمت إلى اليونانية، ومن اليونانية إلى اللاتينية، وأيضا إلى العبرية؛ والنص الأول المكتوب بالعبرية غير موجود إطلاقا، بل كما نقلنا عن بوكاي: إن أقدم نص عبري موجود يعود إلى القرن التاسع الميلادي.

يقول بوكاي بعد سرده بعضَ الترجمات للعهد القديم: «وبهذا تتضح ضخامة ما أضافه الإنسان إلى العهد القديم، وبهذا أيضا يتبين القارئ التحولات التي أصابت نصَّ العهد القديم الأول من نقل إلى آخر، ومن ترجمة إلى أخرى، بكل ما ينجم حتما عن ذلك من تصحيحات، جاءت على أكثر من ألفي عام»(١).

وينقل بوكاي(٢) عن أدموند جاكوب أيضا قوله: «يحتمل أن ما يرويه العهد القديم عن موسى والآباء الأولين لا يتفق إلا بشكل تقريبي مع المجرى التاريخي للأحداث، **ولكن الرواة كانوا يعرفون حتى في هذه المرحلة من النقل الشفهي، كيف يُضفون الأناقة والخيال حتى يربطوا بين أحداث شديدة التنوع**، وقد نجحوا في تقديم هذه الأحداث المختلفة في شكل حكاية لِما حدث في أصل العالم والإنسان، ويستطيع العقل النقدي أن يراها في نهاية الأمر معقولة بشكل كافٍ»؛ وواضح من كلام المحقق اليهودي التوراتي، أدموند جاكوب، أن الرواة كانوا يتصرفون ويُضيفون إلى كتابِهم التوراة ما يُمكّنُهم من تقديمه إلى الناس بشكل مقبول.

---

(١) هذه مقتطفات من: دائرة المعارف الأمريكية، المنشورة عام ١٩٥٩، (٣/٦١٥-٦٢٢)، نقلا عن: اختلافات في تراجم الكتاب المقدس، لواء أحمد عبد الوهاب، (١٩-٢٠).

(١) دراسة الكتب المقدسة لبوكاي، (١٩).

(٢) المرجع نفسه، (٢١).

إن هذا الخلط العجيب بين ثقافاتٍ متعددةٍ لأمم شتى، وقد تحدثنا عنه في الفصل السابق؛ وإن هذا المزيج العجيب من التناقض والحقيقة والخرافة، والذي أُقْحِمَ كلُّه في التوراة؛ وكذلك هذا التاريخ المضطرب في كتابة النص التوراتي، الذي ابتعد قرونا كثيرة عن فترة نزوله، والذي صادف في طريق كتابته وتدوينه البعيد العهد عن أيام نزوله، ألوانا ثقافية ذات طابع أسطوري، فنسبها زورا إلى السماء؛ إن هذا كله أدى إلى تحفيز الناقدين للبحث في الأصول التي ترجع إليها نصوص التوراة، مما ذكرناه أثناء هذا المبحث باختصار..

وكان أن أسهمت أجيال عدة في تأليف النص التوراتي، أدت إلى أن تنطبع على هذا النص كثير من عادات وأفكار وتقاليد الزمان والمكان والأهواء، وكأن كَتَبَةَ التوراة كانوا غائبين عن أن البشر سيكونون قادرين على ملاحقة أصول وأزمان هذه النصوص المقحمة، فلعل المَلَكَة البشرية الناقدة في تلك الأزمان كانت أقل قدرة على تصور مثل هذه النقود لتلك النصوص!

ولكن العصور المتأخرة أفرزت قدراتٍ ناقدة متفوِّقة، وهي لا تزال تخطّ طريقها الناقد للنص التوراتي، مستفيدة من علوم عديدة أفرزها الجهد والعقل البشريّان.

لقد أفرزت هذه الأعمال النقدية للنص التوراتي كشفا عن أصولٍ يرجع إليها هذا النص؛ فلقد أثبت العلماء والباحثون أن الأسفار الخمسة من التوراة ترجع في تكوينها إلى مصادر أربعة، هي عبارة عن صياغات غير متجانسة أُعِدَّت في عصور متباعدة، وقد ألقى عليها كلٌّ عصر بطابعه.

وقد اكتشف هذه المصادرَ الأربعةَ العالمُ الألماني يوليوس فلهاوزن في القرن التاسع عشر الميلادي، وهذه المصادر هي: المصدر اليهوي، والمصدر الإلوهيمي وسفر التثنية والمصدر الكهنوتي[1]، وكلٌّ منها كتب في عهد يختلف عن العهد الذي كُتبت فيه المصادر

(١) ويُنظر في تفصيل هذه المصادر الأربعة وتاريخ كتابتها: تأثر اليهودية بالأديان الوثنية، تأليف:

الأخرى، مما جعلها مسرحا لاختلافاتٍ مصدرُها انطباعُ كلٍ منها بعصره الذي انبثق عنه، وكذلك بكاتبه الذي كتبه؛ ثم مُزِجت هذه النصوص العائدة إلى هذه المصادر الأربعة معاً في بابل أثناء السبي البابلي، لتكوِّن معاً شيئا سمَّوه ((التوراة)).

لقد أدى اكتشاف هذه المصادر المتباينة زمانا وظروفا اجتماعية وسياسية، إلى عدم القدرة على الثقة بما في التوراة مما يدخل في باب التاريخ؛ يقول توماس تومسون في كتابه (التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي): ((هذا الافتراض أدى إلى نتيجة مزعجة مفادُها: **أنه لا يمكن أن تحصل منها على أي شيء تاريخي يُعتمد عليه عن المراحل السابقة لتاريخ إسرائيل**، وبناءً عليه، فإن إمكانية الاستفادة من الأسفار الخمسة الأولى لإعادة تشكيل تاريخ إسرائيل القديم السابق على وقت تأليفها، قد انتفت تماماً))(١).

إن الوثيقة اليهوية، أو المصدر اليهوي، كُتب في القرن التاسع قبل الميلاد في مملكة الجنوب (يهودا)، وقريب من تاريخ كتابتها كُتبت الوثيقة الألوهيمية، وفي القرن الثامن قبل الميلاد كُتب سفر التثنية في رأي أدموند جاكوب، وفي رأي الأب ديفو كُتب في القرن السابع قبل الميلاد، وأما النص الكهنوتي فقد كُتب بعد الأسر البابلي، أي في القرن السادس قبل الميلاد، أو بعده.

وثمة بحوث تُرجع كل مصدر من المصادر الأربعة التي تشكلت منها التوراة إلى مصادر أخرى مختلفة.

وأكثر من هذا أنه في عام ١٩٤١م، استطاع أ. لودز أن يميز بين ثلاثة مصادر ساهمت في تشكيل الوثيقة اليهوية نفسها، وأربعة مصادر شكلت الوثيقة الألوهيمية، وستة مصادر يرجع إليها سفر التثنية، وتسعة مصادر يرجع إليها المصدر الكهنوتي(٢).

فتحي محمد الزعبي، (٣٣٨-٣٤١)، ودراسة في الكتب المقدسة، تأليف: موريس بوكاي، (٢٨-٣٣).

(١) التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، تومسون (١٠).

(٢) تأثر اليهودية بالأديان الوثنية، فتحي محمد الزعبي، (٣٤١)، والتوراة والأناجيل بين التناقض

ولنا أن ننقد التوراة استنادا على اكتشاف هذه الأصول نقدا آخر، له صلة بالمسألة التي نحن بصدد بحثها، وهي مسألةُ مدى إمكانيةِ الاستناد على التوراة كمصدر تاريخي..

إن معنى عودة التوراة إلى أصولٍ متباعدة زمانا ومكانا، يعني تعدُّدَ مؤلفي التوراة، فليسوا واحدا، وليسوا معبِّرين عن جيل واحد، مما يعني ضرورة طرح السؤال الهام: **مَن هم المسهمون في كتابة هذه النصوص والأصول التي جُمع بينها فيما بعد، فنال هذا التجميع اسم التوراة؟!**

إنه لا أحد من اليهود والنصارى يملك الإجابة عن هذا السؤال الخطير؛ فإذا كان ذلك كذلك، فكيف لنا أن نثق بما تنقله هذه النصوص من التاريخ والعقائد ونحن لا نعرف مؤلفيها؟ إن أول خطوة في التوثيق تَلْزَمنا هي معرفة المؤلف، فإذا لم نعرفه، فلا قيمة لِما يُكتب إطلاقا! يقول الأستاذ موريس فودن ناظر المدرسة العليا في باريس، والمدرّس في قسمها الديني، يقول عن التوراة عموما: ((لو سألنا في أي وقت جُمع كل كتاب من كتب التوراة، وفي أي حال وظروف، وبأقلام من كُتب؛ لا نجد أحدا يجيبنا عن تلك الأسئلة وما شابهها إلا بأجوبة متخالفة جدا، وإن كافة ما كُتب مشكوك في كاتبه، وإن كل ما في التوراة عبارة عن خليط من كتابات عدة جُمعت في أجيال متباينة))؛ ويقول عن المذاهب العلمية إنها: ((تقوِّض بنيان ادِّعاء السابقين، وتُبرئ الأنبياء من تلك الكتابات))، ثم يقول عن تصحيح هذه الكتب: ((وإن تصحيح هذه الكتب كالنقش على الماء أو كالبناء على الهواء))، ويقول أخيرا: ((ولكن ما الحيلة ونحن من مائة سنة حيارى بين أسانيد يمحو بعضُها بعضا، فالجديد يناقض سابقه، والسابق يناقض الأسبق، وقد تناقض أجزاء الدليل الواحد، وأيِسْنا من الوصول إلى معرفة صاحب الكتاب الحقيقي))(١)..

والممارسة، تأليف السيد سلامة غنمي، (٣١)، وكلاهما رجع إلى موريس بوكاي في كتابه: دراسة في الكتب المقدسة.

(١) تنظر هذه المقتطفات في كتاب: الإسلام والأديان، للدكتور مصطفى حلمي، (هامش ١٤١)، وقد نقله عن كتاب محمد ج نبي الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن، للمستشار محمد عزت

هذا، وليس المهم وحده أن موريس فودن قال هذا الكلام اليائس، بـــل الأهـــم أن خمسمائة عالم في جمعية دار المعارف الكبرى بباريس صدَّقت على شهادته تلك!

إنه لا سبيل إلى استخراج الحقيقة والتاريخ من كتاب تـــدور حولـــه كـــل هـــذه التشككات!

هذا، ولا يعني ما قدّمناه أن التوراة قد انتهت كصياغة نهائية عند كتابة آخر وثيقة من هذه الوثائق الأربعة، وهي الكهنوتية التي كُتبت فيما بعـــد الســـبي، بـــل إن تحريـــرات وتحويرات وزيادات وإضافات قد حدثت في قرون متتالية..

إن كل هذا الذي فصَّلنا القول فيه بالقدر الذي يسمح به المقام، أفقدَ التوراةَ القـــدرةَ على حمل الحقائق، تاريخيةً وغيرَ تاريخية، وأفقدها القدرة على تبليغهـــا للأمـــم، وأوقـــع الباحثين في تشككات عجيبة، منعتهم من إمكانية النظر في التوراة كمصدر من مصـــادر التاريخ!

وسيأتي في الفصل الثالث من هذا الباب إن شاء الله تعالى، ما ننتهي إليه من نتـــائج حول مدى الاعتماد على التوراة كمصدر تاريخي.

الطهطاوي، دون أن يذكر مصدر الطهطاوي.

المبحث الثاني: ضياع التوراة

ومع ذلك، فثمة مشكلة أكبر من كل ما مضى ذكره، وكنا قد ذكرناها ذكرا سريعا، وأوكلنا إلى هذا المبحث تفصيلها، ألا وهي مشكلة ضياع التوراة ذاتها.

فالتوراة نفسها فُقِدت منذ عهودٍ سحيقة قد ترجع إلى ما قبل عهد داود عليه السلام، وفي قصة الملك طالوت التي تحدّث عنها القرآن الكريم ما قد يشير إلى هذا الزمن السحيق لضياع التوراة، فقد ذكر القرآن آية مُلك طالوت بقوله تعالى: (**وقال لهم نبيُّهم إن آيــة مُلكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هــارون تحمله الملائكة**)[1]، ألا يلمح القارئ الكريم أن ما في التابوت: **بقية مما ترك آل موســى وآل هارون، وليس كل ما تركه آلُهُما عليهما السلام**[2]..

يقول العلامة رحمة الله الهندي في كتابه إظهار الحق: "كان موسى عليه السلام كتب نسخة التوراة وسلّمها إلى الأحبار وسائر كبراء بني إســرائيل، ووصّــاهم بمحافظتــها، ووضعها في صندوق الشهادة، وإخراجها بعد كل سبعةٍ سبعةٍ من السنين في يوم العيــد لأجل إسماع بني إسرائيل، فكانت هذه النسخة موضوعة في الصندوق، وكانت الطبقــة الأولى على وصية موسى عليه السلام، فلما انقرضت هذه الطبقة تغيّر حال بني إسرائيل، فكانوا يرتدّون تارة ويُسلمون أخرى، وهكذا كان حالهم إلى أول ســلطنة داود عليــه السلام،...، لكن لأجل الانقلابات المذكورة ضــاعت تلــك النســخة الموضــوعة في الصندوق، ولا يُعلَم جزما متى ضاعت سوى هذا القدر: **أنها ضاعت قبل عهد ســليمان عليه السلام؛ لأنه لمّا فتح الصندوق في عهده، ما وَجَد فيه غير اللوحين اللذَين كانت**

---

(١) سورة البقرة، (٢٨٤).

(٢) لفت النظر إلى هذا المعنى الدكتور فتحي محمد الزغبي في كتابه: تأثر اليهودية بالأديان الوثنية، (٣١٧-٣١٨).

الأحكام العشرة فقط مكتوبة فيهما، كما هو مصرّح في الآية التاسعة من الباب الثـامن من سفر الملوك الأول، وهي هكذا: ((لم يكن في التابوت إلا لوحا الحجر اللذان وضعهما موسى هناك في حوريب، حين عاهد الربُّ بني إسـرائيل عنـد خـروجهم مـن أرض مصر))(١).

ولم تردْ إشارة إلى التوراة في الأسفار بعد سليمان عليه السلام، واختفت إلى أن جاء دور الكاهن حلقيا، فادَّعى أنه عثر عليها مصادفة، وذلك في عهد الملك يوشيا، في السنة السابعة عشرة من حكمه، أي عام ٦٢٣ق.م.، وذلك يعني أنها وُجدت بعد عهد موسى بأكثر من سبعة قرون، وبعد عهد سليمان بأكثر من ثلاثة قرون.

وقصّة العثور على ما قيل إنه التوراة نلخّصها بإيجاز..

فلقد غابت التوراة عن الحضور في المسرح الإسرائيلي، خاصة بعد سـليمان عليـه السلام، وفُقِدت وضاعت، وكان الأحبار يدخلون الهيكل كل يوم، وبحثوا عنها كـثيرا عدة قرون، ثم جاء الحبر حلقيا وقال إنه وجدها في الهيكل، وصدّقه الناس على دعواه!

السؤال: كيف يمكن التصديق أنها غابت عدة قرون، وأنهم كانوا يبحثون عنها طيلـة هذه المدة في الهيكل وغيره، ثم لم يجدوها، ثم بعد عدة قرون يأتي الحاخام حلقيا ليقول إنه وجدها في الهيكل؟!

كيف رآها هو ولم يرها الباحثون قبله فيه عدة قرون؟!

هل أخضعوا ما وجده الكاهن حلقيا للبحث العلمي للتثبّت من دعواه؟!

الجواب: لا، بل أخذوا دعواه بمحمل التصديق.

ولا يعرف النصارى واليهود اليوم مدى الثقة بحلقيا هذا، فكيف يثقون بأن ما وجده هو التوراة نفسها؟!

---

(١) إظهار الحق، لرحمة الله الهندي، (٢/٥٩٩-٦٠٠).

يقول رحمة الله الهندي: ((لكن لا يُعتمد على هذه النسخة، ولا على قول حلقيا؛ لأن البيت نُهب مرتين قبل عهد أخزيا، ثم جُعل بيت الأصنام، وسدنة الأصنام كانوا يدخلون البيت كل يوم، **وما سمع أحد إلى سبعة عشر عاما من سلطنة يوشيا أيضا اسم التوراة ولا رآها، مع أن السلطان والأمراء والرعايا كانوا في غاية الاجتهاد لاتباع الملة الموسوية، وكان الكهنة يدخلون البيت كل يوم إلى هذه المدة، فالعجب كل العجب أن تكون النسخة في البيت ولا يراها أحد**..))[1].

ويطرح الدكتور صابر طعيمة سؤالا مفاده أن ما بين عهد سليمان وعهد يوشيا أكثر من ثلاثمائة عام، ومع ذلك ((فلا توجد أدنى معلومات عن التوراة، ولم يَسأل واحد من الشعب أو قادته عن سفر الشريعة، ثم فجأة وبعد عمليات عديدة من الهدم والبناء، يكتشف الكاهن حلقيا، وبطريق الصدفة المجردة سفر الشريعة..))[2]، ويطرح الدكتور طعيمة سؤالا آخر في غاية الأهمية: ((ما الذي جعله يوقن أن ما وجده كان هو سفرَ شريعة الرب الذي كان بيد موسى كما يقول أخبار الأيام الثاني (٨-٢٢)، محددا على غير ما فعل الملوك الثاني))[3]، إننا نفترض أنه ربما يكون وجد فعلا كتابا من الكتب في البيت المقدس، ولكن: من أين له أنه سفر الشريعة؟

وفي قاموس الكتاب المقدّس الذي ألفه نخبة من الأساتذة واللاهوتيين، وطبعته مطبعة مجمع الكنائس في الشرق الأدنى في بيروت عام ١٩٧١م، في هذا القاموس نقرأ ما يلي: ((**ومما لا شك فيه أن معظم الأسفار المقدسة أُتلِف أو فُقد في عصر الارتداد عن الله والاضطهاد في مدة حكم منسى الطويل**[4]، (٢ مل٢١/١٦ و٢ أخبار ٣٣/٩)، ويُرجَّح

---

(١) المرجع نفسه، (٢/٦٠٤).

(٢) التراث الإسرائيلي، صابر طعيمة، (١/٣٠١).

(٣) المرجع نفسه، (١/٣٠٤).

(٤) استمر حكم منسى أكثر من خمسين عاما، ابتداء من ٦٩٣ق.م. إلى سنة ٦٣٩ق.م.، وجاء بعده ابنه آمون، ثم يوشيا بن آمون، الذي حكم بين عامي ٦٣٨-٦٠٨ق.م.، وفي عهده ادَّعى حلقيا

أن المخطوطة التي عُثر عليها وسُلّمت إلى حلقيا كانت نسخة الشريعة المحفوظة في الهيكل، وقد أُخفيت أو عُبث بها عند تدنيس الهيكل (تث ٩/٣١ و٢٦) أو أنها وُضعت في السور وفقا للعادة التي كانت متبعة قديما عندما بُني الهيكل للمرة الأولى»[1].

إن هؤلاء الكتاب الكبار المتخصصين لم يستطيعوا أن يقطعوا أن ما وجده حلقيا هو نفسه نسخة الشريعة المحفوظة في الهيكل، ولذا قال هؤلاء الكبار: **ويُرجّح أن المخطوطة التي عُثر عليها وسُلِّمت إلى حلقيا كانت نسخة الشريعة المحفوظة في الهيكل، ولم يقولوا: هي نفسُها قطعا، إذ لا سبيل إلى القطع!**

ثم إنه لا أحد يدري ماهية هذا السفر الذي قال حلقيا إنه وجده، فلا يستطيع أحد التكهُّن بموضوعاته التي يركّز عليها، والسبب في هذا معقول جدا، **فهذا السفرُ المُدَّعى هو نفسُه قد ذهب وضاع، ولا أحد يعرف أماكن وجوده في عصرنا**، غير ما يمكن أن يكون بعضه منثورا في بعضٍ من سفر الخروج وسفر التثنية، أما السفر نفسه فقد تعرّض للضياع.

وبعد السفر الذي ادَّعاه حلقيا، وصدَّقه على دعواه الملك يوشيا، جاء دور عزرا ليقرأ سفراً سماه سفر الشريعة، وذلك بعد عودته من السبي البابلي، وليس هذا السفر نفسه الذي ادَّعاه حلقيا في عهد يوشيا، لسبب بسيط هو أن سفر حلقيا قُرئ مرتين كاملتين في يوم واحد، أما سفر عزرا فقد قُرئ مرة واحدة احتاجت أسبوعا كاملا، وعليه فهما متغايران قطعا[2]!

ما ادّعى.

(١) قاموس الكتاب المقدس، (ص١١٢٠) نقلا عن: تعليقات الدكتور محمد أحمد ملكاوي، محقق إظهار الحق لرحمة الله الهندي، بهامش إظهار الحق، (٦٠٤/٢).

(٢) يُنظر تفصيل القول في فقد التوراة: إظهار الحق، لرحمة الله الهندي، (٥٩٨/٢-٦٠٧)، وتأثر اليهودية بالأديان الوثنية، للدكتور فتحي محمد الزعبي، (٣١٦-٣٢٧)، والكتب المقدسة في ميزان التوثيق، للأستاذ عبد الوهاب عبد السلام طويلة، (٧٠-٧٤).

وللنص التوراتي المُدَّعى ثلاث نسخ، إحداها العبرية، وهي ما يعتمده اليهود وجمهور علماء البروتستانت، والثانية اليونانية، وهي التي يعتمدها سائر النصارى، والثالثة هي السامرية، والتي يعتمد عليها اليهود السامريون[1].

ومع ذلك فالنَّصُّ التوراتي العبري الأصلي نفسه، الذي يعتمده اليهود، قد ضاع أيام السبي البابلي، على ما يقول المحقق اليهودي التوراتي أدموند جاكوب: ((**وضاعت النصوص العبرية أثناء غزوات نبوخذ نصَّر والهجرة إلى بابل وما بعدها من نكبات، ولم يبقَ سوى النص اليوناني، ثم تُرجِم ذلك النص إلى العبرية..**))[2].

وكنا ذكرنا في المبحث السابق أنه تمت ترجمة النص العبري القديم إلى اليونانية، فيما عُرِف بالترجمة السبعينية، لكن النص العبري المُترجم عنه فُقِد، وصار النص اليوناني هو المعتمد في إعادة ترجمته إلى العبرية، في نصٍّ بقي في وهدة التشكك فيه من قبل اليهود إلى القرن العاشر الميلادي، حيث اعتمده آل أشير في طبريا، على ما نقلنا في المبحث السابق..

ولقد ووجِهت هذه الترجمة العبرية عن اليونانية بالحقائق التي أفرزتها مخطوطات البحر الميت، التي اكتشفها راعٍ عام ١٩٤٧م، وقد كشفت هذه المخطوطات عن تحريفات كثيرة وكبيرة في النص المترجم عن اليونانية إلى العبرية، مما يُفقد الثقة إما بقدرة المترجمين، وإما بأمانتهم، وإما بالأمرين معاً.

وأنا لا أملك الآن تفصيلات عن هذه المخطوطات، مما يدفعني إلى تأجيل بحثها إلى دراسات أخرى.

وأخيرا، فأرجو أن يحتفظ القارئ بكل هذا الذي قرأه في هذا المبحث والذي سبقه، لنعتمد عليه وعلى الفصل السابق في التعرف على موقع التوراة في مجال النقل التاريخي،

---

(١) الكتب المقدسة في ميزان التوثيق، للأستاذ عبد الوهاب عبد السلام طويلة، (٩٤-٩٦).

(٢) أدموند جاكوب في كتابه: العهد القديم، نقلا عن تحريف التوراة وسياسة إسرائيل التوسعية للدكتور محمد علي البار، (٣٣).

وإلى الفصل التالي للتفصيل..

الفصل الثالث: عدم صلاحية التوراة كمصدر تاريخي

إن القرار الذي سيظهر بارزاً في هذا الفصل، يأتي كنتيجة طبيعية لمقارنات ومناقشات عديدة أجريناها في فصول ومباحث شتى من هذا الكتاب بين الكتاب المقدس وعلم الآثار؛ وإن رجاءنا أن يستحضر القارئ الكريم كل تلك المناقشات والمقارنات، ليقرأ هذا الفصل الأخير من الكتاب وهي حاضرة في ذهنه.

إنه سينتهي بحثنا إلى أن التوراة لم تستطع أن تُثبت نفسها إلى السماء أو إلى الأنبياء، والذي لم يستطعْ إثبات نفسه فلن يستطيع إثبات غيره، وإن اللوثات التي أصابتها عبر التاريخ، أقعدتها عن القدرة على مواجهة القضايا التاريخية الكبرى؛ إنها مسائل كُبرى وقضايا عملاقة تتضاءل أمامها قُدُراتُ التوراة، ذلك الكتاب الذي انتسب يوما إلى السماء بصدق، ثم تسربت إليه عبر الأجيال خرافات شتى، حتى عاد ما بقى فيه مما له صلة بالسماء غريبا لا يقوى أن يطل برأسه وسط كومة الخرافات، بل غُيِّبَ هذا الذي تبقّى تغييبا تاما، ليقوم مقامه ما لا ينتسب إلا إلى عبث البشر!.

إن التاريخ هو أعراض الأمم وأسرار الشعوب، وهو خزان الذاكرة، وهو نافذة الحاضر المُطلّة على الماضي، أو نافذة الماضي المطلة على الحاضر؛ وفي بطنه تكمن جذور المستقبل، وكم من بذرة غرسها باذِرُها في أعماق الزمن القديم، ما نَمَت ولا نبتت غصونُها إلا بعد أجيال وأجيال، إن شرا فشرٌّ، وإن خيرا فخيرٌ.

إن فنا هكذا شأنه، حقيقٌ ألا يُلقى به إلا إلى قدرات خبيرة وعقول بصيرة ونفوس أمينة.

لأجل ذلك نرفض كلام أي مُدَّعٍ في التاريخ، إلا إن كان هذا المُدَّعي خبيرا بصيرا حافظا أمينا، كتابا كان هذا المُدَّعي أو بشراً!

ومن هنا يأتي كلامنا في التوراة بخصوص عدم صلاحيتها كمصدر تاريخي؛ فليس بيننا

وبين التوراة موقف مسبَّق يمنعُنا من الأخذ بمضمونها التاريخي، وإنما بيننا وبينها أن تُثبت نفسها إلى السماء أو إلى الأنبياء، أو تُثبت لنفسها شواهد التاريخ والآثار، أو تَستنطق الأدلة التي تشهد لها، علما وتاريخا وتناغما وتناسقا وتجانسا، فإن فقدت ذلك كلَّه اعتذرنا منها، ثم لم نبالِ بدعواها أبدا..

وكنا قد تحدثنا قريبا بإيجاز عن فكرة المصادر الأربعة التي ترجع إليها نصوص الأسفار الخمسة، تلك الفكرة التي أنتج أصولَها الأولى فلهاوزن، إن هذه الفكرة أفقدت التوراة القدرة على أن تكون مصدراً يرجع إليه الباحثون في الدراسات التاريخية المتعلقة ببني إسرائيل؛ وتحدّثنا عن الأمد الطويل الذي استمر ما يزيد عن ألف وأربعمائة عام حتى أخذت التوراة صيغتها النهائية، رغم خضوعها بعد هذا الأمد لتصحيحات وتهذيبات وإضافات استمرّت قرونا أخرى؛ كلٌّ ذلك دونما سند تستند إليه التوراة؛ وتحدّثنا عن ضياع التوراة بعد عهد سليمان عليه السلام، ثم خضوعها للنقل الشفوي المستند على الذاكرة؛ وتحدّثنا عن ترجمات التوراة ومشاكلها؛ إن كلّ هذا الذي مضى وأثبتناه يحول بين التوراة وبين أن تقدر على حمل الحقائق على صفحاتها، تاريخية كانت هذه الحقائق أو غير تاريخية؛ وها هنا في هذا الفصل، سنقتحم موضوع عدم صلاحية التوراة كمصدر تاريخي مباشرة، رغم أن نتائجه تأتي طبيعية بعد ما قرأه القارئ في الفصلين السابقين..

إنه يبدو أن التوراة تتراجع منذ أكثر من قرنين عن أن تُعتمد تاريخيا، فإذا كانت قد اعتُبرت إلى عهودٍ قريبة مصدرا تاريخيا معتمَدا يُلقي على الماضي أضواءه، ليلوِّنه باللون الذي يريد، فقد «**صارت الآن بحاجة إلى إلقاء الضوء عليها من قِبل ذلك الماضي، الذي بدأ يتضح بشكل مستقل عن المواقف المسبقة والمسلَّمات المفروضة**»(١)، ولقد تدخَّل هذا الماضي من بعيد عبر ما أبقاه من آثار فصيحة اكتشفها المنقِّبون، ليقول كلمته في مدى قدرة التوراة أو مصداقيتها ككتابٍ يصلح للاعتماد عليه في صياغة التاريخ.

---

(١) آرام دمشق وإسرائيل، تأليف: فراس السواح (٨).

ولقد أودت الدراسات العلمية المعاصرة بالتوراة، وصرفتها بعيدا عن أبواب التاريخ، وبنى توماس تومبسون في كتابه (التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي) على هذه الدراسات أنه لا يمكن أن تحصل من التوراة على أي شيء تاريخي يُعتمد عليه عن المراحل السابقة لتاريخ إسرائيل، ثم قال: ((**وبناءً عليه، فإن إمكانية الاستفادة من الأسفار الخمسة الأولى لإعادة تشكيل تاريخ إسرائيل القديم، السابق على وقت تأليفها، قد انتفت تماماً**))(١)، وهذا الذي قاله هذا المؤرخ الذي اختص بالتاريخ الإسرائيلي القديم، ينسجم تماما مع ما قاله فيلسوف كبير من فلاسفة الغرب، ألا وهو برتراند رسل، فقد قال في كتابه (تاريخ الفلسفة الغربية): ((**إن تاريخ الإسرائيليين القديم يستحيل إثباته من أي مصدر غير العهد القديم**))(٢)، والعهد القديم تحت مجهر البحث العلمي مليء بالجراثيم القاتلة، التي أوهت ساعدَه، وكسرت ظهرَه، فلم يعد قادرا، وهذا ما يعني أن العهد القديم لم يَسعد بأي دليل يُثبت ما يدَّعيه من أحداث من خارجه، أي من الآثار، أو التاريخ الثابت بوسائل التأريخ الأخرى.

إن كلام المؤرخ تومبسون مع كلام الفيلسوف رسل، يمثل لقاءً كبيرا فيما بين التاريخ الباحث عن دليل إثبات ما يدّعي، وبين الفلسفة حينما لا تكون منساقة وراء خرافات الأمم، أو منظِّرة لهذه الخرافات.

وإنه لعالَم من البحوث قد أثقلت كاهل التوراة، فأعجزها عن الحركة في أعماق التاريخ، ثم إنها في النهاية أوْدت برجال لاهوتها، فلم يعد لديهم أمكنة لثقة الناس بهم تاريخيا، حتى قام في الغرب البروتستانتي أمريكيون بروتستانت يصرفون عالِم اللاهوت التوراتي عن اقتحام التاريخ، فهو مما ليس من شأنه، يقول وايتلام: ((**ينبغي على المؤرخ،**

---

(١) التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، تومبسون (١٠)، ويُنظر: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، تأليف: فيليب حتي، (١٩٢/١).

(٢) تاريخ الفلسفة الغربية، برتراند رسل، الكتاب الثاني، (١٥) نقلا عن: اليهود تاريخا وعقيدة، تأليف: كامل سعفان، (٥).

وليس عالم اللاهوت أن يحدد برنامج البحث؛ في الماضي كان علماء اللاهوت هم الذين يُملون الطرق التي ينبغي استعمالها في دراسة إسرائيل، على أساس أن التوراة العبرية –التي هي ميدانُها الخاص– هي المصدر الوحيد، أما اليوم، فيجب على المؤرخ أن يطالب بحقه في وضع برنامج البحث، وكذلك في رسم استراتيجيات هذا البحث..))[1].

إن التوراة تفقد كل يومٍ أنصارا، وإن الدراسات التاريخية التي تعتمد التوراة تتراجع الآن، ويُعلن تراجعَها من كان يُظن أنهم من أنصارها.

وهذا الذي اتّجه إليه وايتلام، هو ما يسنده علماء الآثار التوراتيون، يهودا وبروتستانت.

فلقد انبرت جماعات من هؤلاء لكشف العجز التوراتي عن إمكانية الحديث في تاريخ فلسطين القديم خاصة، وتاريخ المنطقة بأسرها عامة، كالعالِم الآثاري التوراتي واللاهوتي الهولندي هـ. جي. فرانكن[2] الذي يقول في مساهمة له ضمن مشروع كامبريج للتاريخ القديم: ((**إذا وضعنا النص التوراتي جانبا، فإن علم الآثار لم يتوفر لديه سبب واحد يدفعه إلى القول بأن القرن الثالث عشر قد شهد تشكل شعب جديد في فلسطين، اتخذ وضعه كأمة مكتملة مع نهاية القرن الحادي عشر، إن البينة الأركيولوجية على حلول جماعة إثنية جديدة في فلسطين مفقودة بالمعنى العلمي الدقيق لهذه الكلمة**))[3]، وهذا يعني في إطار ما نحن فيه من البحث، أن التوراة لم تجد سندا من خارجِها يدعمها في دعاواها، فأحاديث التوراة تذكر أن شعبا دخل فلسطين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ولكن علم الآثار أثبت أنه لم تحصل في فلسطين في الفترة تلك أية تغيرات إثنية معبرة عن

---

(١) اختلاق إسرائيل القديمة (١٢٣)، تأليف كيت وايتلام.

(٢) الذي كان محاضرا من المرتبة العليا في علم آثار فلسطين في لايدن، يُنظر: القدس في التاريخ، تحرير وترجمة: كامل جميل العسلي، (١١).

(٣) نقلت هذا النص للعالم الآثاري فرانكن عن كتاب: آرام دمشق وإسرائيل، للأستاذ فراس السواح، (١٠٠)، ويُنظر: فلسطين من أقدم العصور للدكتور معاوية إبراهيم، (٤/٢).

وجود شعب جديد في فلسطين جاءها من خارجِها.

وأخيرا أقبل علم الآثار الإسرائيلي ليقول كلامه القاسي في كتابه الديني: التوراة، مؤكِّدا في نهاية المطاف صدق ما قاله وايتلام وفرانكن..

إن ما قاله وايتلام وفرانكن هو ما انتهى إليه باحثون آثاريون يهود، ولكن بعد أن اكتشفوا بأنفسهم خلل التفكير التاريخي المعتمد على التوراة، وهؤلاء الذين نتحدث عنهم باحثون إسرائيليون، ومتخصصون بالدراسات التوراتية، وقد أصدروا أحكاما قاسية على قدرة التوراة تاريخيا، لكن القسوة كانت هي الحق الذي لا ينبغي أن يحيدوا عنه، فلقد حكموا على مجمل الأحداث التي تدّعيها التوراة بالتناقض مع التاريخ الحقيقي، أو بالخيال؛ يقول عالم الآثار الإسرائيلي زئيف هيرتسوغ في مقال له(١): ((**في العشرين سنة الأخيرة يحدث انقلاب حقيقي في نظر علماء الآثار الإسرائيليين إلى التوراة باعتبارها مصدرا تاريخيا، أغلبية المنشغلين في النقاشات العلمية في مجال توراة وآثار وتاريخ شعب إسرائيل، الذين كانوا حتى الآن يبحثون في الأرض عن البراهين والدلائل للحكايات الواردة في العهد القديم، يتفقون الآن على أن مراحل تكوُّن شعب إسرائيل كانت مغايرة تماماً لِما يوصف في التوراة**))، إن هيرتسوغ لا يعبر ها هنا عن توجهه فحسب، بل هو يصرّح أن هذا هو توجه علماء الآثار الإسرائيليين إجمالا في العشرين سنة الأخيرة.

وبعد أن يذكر عدة قضايا مما قد يُسمى: إنجازات علم الآثار التي جاءت لصالح التوراة، بعد ذلك يقول هيرتسوغ: ((رويدا رويدا، بدأت تتبلور الثقوب في الصورة، **وبشكل متناقض نشأ وضع بدأت فيه المكتشفات الكثيرة تزعزع المصداقية التاريخية للوصف التوراتي، بدلا من تعزيزها**)) وقال: ((**سأورد لاحقا عدة أمثلة عن انهيار اللوحة المنسجمة التي بُنيت سابقا**)).

---

(١) نشرته الهآرتس يوم الجمعة (١٩٩٩/١٠/٢٩) ونشرت ترجمة المقال الحياة الجديدة (١٩٩٩/١٠/٣٠).

ويقول هيرتسوغ أيضا في المقال نفسه: ((**المكتشف الأثري يُناقض بوضوح الصورة التوراتية**))، وهي عبارة كافية الدلالة على ما نحن فيه.

وكمثال آخر من علماء الآثار اليهود توجَّه هذا التوجّه، نذكر ما كنا ذكرناه في فصول سابقة مما نشرته جريدة الحياة الجديدة[1] عن عالم الآثار الإسرائيلي يسرائيل فنكلشتاين الذي شغل منصب مدير معهد الآثار التابع لجامعة تل أبيب، مما يفيد أنه يشكك بوجود أية صلة لليهود بمدينة القدس القديمة، مشيرا إلى أن هيكل سليمان مجرد خرافة ولا وجود له، وقال فنكلشتاين: ((**إن علماء الآثار اليهود لم يعثروا على أية شواهد تاريخية أو أثرية على أن هيكل سليمان كان موجودا بالفعل، وإن كتبة التوراة اليهود في القرن الثالث أضافوا قصصا لم تحدث أصلا**))، فلما كانت الوثيقة الوحيدة التي تحدثت عن الهيكل هي التوراة، وما دامت التوراة قد فقدت مكانها في إثبات الحقائق التاريخية، وعليه، فلقد فقد الهيكل المقدّس دليل ثبوته.

إن هذا يعني أن التوراة لم تعد تصلح مصدرا للحقائق التاريخية، خاصة أن علماء اليهود، على ما قال فنكلشتاين، **قد أضافوا في القرن الثالث إلى التوراة قصصا لم تحدث أصلا**.

ولكن طبائع الأمور تقتضي أن يُنافح بعض التوراتيين عن توراتهم، ويحاولوا محاولات مستميتة لإثبات صلاحيتها كمستند للتاريخ، مع محاولة منهم للاستناد على علم الآثار، غير أن الأمر لم يسلم لهم، فقد علق توماس تومبسون على إحدى هذه المحاولات اليائسة قائلا: ((**هذه المحاولة للتوفيق بين البينات التوراتية وغير التوراتية، كإثبات لتاريخانية إسرائيل القديمة، سرعان ما دخلت مرحلة الانهيار التي ما زالت متواصلة إلى اليوم**))[2].

هذا، ويضرب تومبسون الدراسات التوراتية ضربة في القلب، حينما يتحدث عن

---

(١) في عددها الصادر بتاريخ ١٤/١١/ ٢٠٠٠م.

(٢) التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، تومبسون، (٢٥).

دراسة قدمتها هـ. فريس في منافسة أكاديمية في كوبنهاجن، ويصف تومبسون هذه الدراسة بأنها "متقدمة كثيرا على زمانها"، وقال: "وقد توصلت الكاتبة إلى استنتاج أن **معظم دراسات العهد القديم، لم تكن قادرة على الاستمرار لمدة جيل آخر**"[1]، هذا وقد نُشرت هذه الدراسة سنة ١٩٦٨م؛ ويعني استنتاج هـ. فريس هذا أن كل دراسة توراتية كانت تجد نفسها مع كل جيل في حرج شديد يمنعها من الاستمرار لمدة جيل آخر، مما يعني عدم قدرتها على مواجهة التحديات.

وكلام هذه الباحثة يحمل في طياته خطورة كبرى على مصداقية الدراسات التوراتية ذاتها، إن الدراسة التوراتية تبدأ ببريق أيديولوجي يدفعها في نفوس التوراتيين دفعا إلى الأمام، ولكن ما تلبث أن تواجَه بضربات في الصميم، تجعل منها أثرا من الآثار القديمة، مع عجز عن التقبُّل لدى جيل قادم، **لأن الجيل القادم منشغل بدراسة أخرى قادمة، سيأتي دورها لتفقد بريقها.**

إن الإشكالية التي وقع فيها الباحثون التوراتيون، هي انطلاقهم من نظرية دينية مسبقة، تقوم على أساس الاعتقاد بالتوراة أصلا، مع عدم الاستعداد للتخلص منها، في حالة مصادفتها تناقضات فاحشة مع التاريخ والآثار، ذلك أن الاعتقاد وحده، ودون دليل قطعي يقوّيه، لا يصلح مستندا لشيء..

يقول توماس تومبسون: "وليس الانحياز الأيديولوجي وحده ما يميز القصص الخيالية والخرافات عن التاريخ"، ويقول: "قدرتنا المتنامية على إعادة بناء تاريخ مفصل للأصول الإسرائيلية، تجعل التخلي عن استخدام التأريخ التوراتي كمصدر صالح لكتابة التاريخ، أكثر ضرورة،...، **ويجب أن نكون مستعدين لأن نغيّر جذريا، وأن ننأى بأنفسنا وعن وعي، عن الافتراضات المسبقة التي فرضها علينا التفسير التوراتي**"[2]، وكلامه هنا في الحقيقة يواجه أولئك الذين جعلوا عقائدهم ووجهات نظرهم تنمو على تراث التوراة.

---

(١) المرجع نفسه، (٦٤).

(٢) المرجع نفسه، (١١٩).

فماذا يكون المضمون التوراتي فيما يذكره من أحداث حسب البحوث العلمية المعاصرة، وبعد أن قرأنا لعلماء الآثار ما قرأنا؟

إن أحاديث الباحثين التوراتيين أنفسهم، لم تعُد تحمل في نفوس أصحابها الحرج القديم من وصف مضمون التوراة بالخيالات والأساطير، ذلك أن العالَم المعاصر لم يعُد يتّسع لإخفاء الحقيقة، وإن الشجاعة الأدبية لدى هؤلاء صارت مثالا يُحتذى، وصاروا يعلنون وبصراحة أن مضمون التوراة لا يخرج عن كونه خيالا أو أسطورة!

إن من هؤلاء الباحثين لاهوتيين وآثاريين ومؤرخين..

يقول كيث وايتلام: ((**لا يعدو تصوّر تاريخ إسرائيل القديم كما ورد في القسم الأكبر من التوراة العبرية، أن يكون قصة خيالية، وهو بمنزلة اختلاق للتاريخ**، شأنه شأن معظم رؤى الماضي التي كوّنتها المجتمعات القديمة، بل والحديثة أيضا))[١]؛ وتقول السيدة فرانسواز سميث، عميدة كلية اللاهوت البروتستانتي: ((**لقد خلصت البحوث التاريخية التي أجريت مؤخرا إلى أن الروايات التقليدية عن الخروج من مصر، وغزو كنعان، والوحدة القومية الإسرائيلية قبل النفي؛ لا تعدو أن تكون قصصا خيالية**))[٢].

ويري ماير أن سفر التكوين بكامله لا علاقة له بالتاريخ، **وإنما هو من باب الأخيلة الأدبية**[٣].

ولقد ذكر تومبسون فيما ذكر، سلسلة من المقالات عن التاريخ الإسرائيلي، نُشرت عام ١٩٧٧م في كتابٍ واحد يحمل عنوان (التاريخ الإسرائيلي واليهودي) ومؤلفو هذه المقالات سبعة من الباحثين، وهم: ميلر ومايز وم. كلارك، وجي. ديفر، ود. إرفن وأ.

---

(١) كيث وايتلام في كتابه اختلاق إسرائيل القديمة، (٥٩).

(٢) البروتستانت والتوراة وإسرائيل منذ عام ١٩٤٨م، مجلة لالتر، العدد (٣١٣) تشرين الثاني ١٩٨٤م، نقلا عن: الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، تأليف: روجيه جارودي، (٤٣-٤٤).

(٣) يُنظر كتاب آرام دمشق وإسرائيل، لفراس السواح، (١٠).

سوغين وتومبسون نفسه، وقال عن الثلاثة الأخيرين [وهو واحد منهم] خاصة إنهم: «نأوا بأنفسهم بشكل حاد عن تاريخ المرويات، **وتساءلوا عن مدى ملاءمة اعتبار القصص التوراتية مرويات تاريخية، وفضّلوا عليها كثيرا قصص التقاليد وأنماط الأدب الخيالي الأخرى**»[١]، ويقول تومبسون عن فيض ضخم من الدراسات عن أصول إسرائيل ظهرت في السنوات الخمس السابقة لتأليف كتابه: «تاريخية الغزو القبلي المذكور في سفر يشوع لم تعد معتبرة في أي دراسة من هذه الدراسات، ومعظمها يتجاهله من دون نقاش»[٢].

وينقل توماس تومبسون عن كتاب (إسرائيل القديمة) لِ: ن. بي. ليمخي قوله، وهو يقرُّه إقرارا واضحا: «أنا أقترح أن نرفض أن تقودنا القصص التوراتية، وأن نعتبرها مثل الأساطير الأخرى غير تاريخية، ومجرد مصدر يمكن على سبيل الاستثناء، أن نتحقق منه في ضوء معلومات أخرى»[٣]، وكان تومبسون قد وصف كتاب ليمخي هذا بأنه أول محاولة جدية بعد آلْت تدعو إلى وضع تاريخ لأصول إسرائيل يستقل عن النظرة التوراتية[٤].

ومن هنا قال العالِم الألماني الدكتور مورتكات: «لا يمكن الاعتماد من الناحية العلمية على أساطير التوراة، إذ برهنت الأبحاث الأثرية على عدم صحة أكثر تلك الأساطير التي وردت فيها، كما وتوجد أبحاث تبرهن عكس هذه الأساطير»[٥].

وبعد أن ذكر زئيف هيرتسوغ تقديرات أولبرايت لزمان عهد الأجداد بأنه واقع في القرن الحادي والعشرين، وبعد أن بيّن اقتراح أبي الفرع الإسرائيلي لعلم الآثار التوراتية بنيامين مازار بأنها ستكون في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، بعد ذلك يقول زئيف هيرتسوغ أحد كبار علماء الآثار الإسرائيليين: «**الآخرون نفوا تاريخ الحكايات**

---

(١) التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، تومبسون، (٧٣).

(٢) المرجع نفسه، (٧٦).

(٣) المرجع نفسه، (٩٤).

(٤) المرجع نفسه، (٩٢).

(٥) نقلتُ كلام مورتكات عن العرب واليهود في التاريخ، للدكتور أحمد سوسة، (٣١٩).

واعتبروها أسطورة حول الأجداد، نسجت في عهد مملكة يهودا، المهم من كل هذا أن الإجماع السابق بدأ يتزعزع»[1]، لقد تزعزع الإجماع الذي كان يثق بالتوراة مصدرا يُركَنُ إليه، وأدخلت البحوث التوراة في زاوية الأساطير.

إن أبحاث هؤلاء الباحثين الذين نقلنا بعض رؤاهم حول مدىقدرة التوراة ككتاب تاريخي، إن أبحاثهم تزداد يوما بعد يوم، وغالبها للأسف أو ربما نقول لحسن الحظ، أبحاث قام بها متخصصون من اليهود والنصارى، ومع ذلك فلهذا فائدة، إنهم لو كانوا مسلمين لقال قائل: إن تديُّنهم الإسلامي وتعصبهم الديني دفعهم ليقولوا في التوراة ما قد قالوا، ولكن، لا أحد يستطيع أن يصف الباحثين اليهود والنصارى، المؤمنين بالتوراة أصلا، بما يصف المسلمَ به من التعصب ضد التوراة.

بعد كل ما مضى مما أثبتناه، فإنه بإمكاننا أن نردّد في نهاية مطافنا في هذه الفقرة قول الأب الفرنسي المتخصص باللاهوت رونالد ديفو: «لا يمكن فهم الآثار للبرهنة على صحة التوراة»[2]، ومع أن هانك فرانكن الهولندي جاء من خلفية دينية توراتية، إلا أنه فيما بعد صار من كبار النُّقاد الآثاريين التوراتيين، **فلقد صرح بأنه لا يجوز المزج بين الآثار وأعمال التنقيب من جهة، وبين التفسير التوراتي من جهة أخرى**[3]، وكذلك يقول جوزيف كالووي صاحب الباع الطويل في العديد من العمليات التنقيبية الآثارية في فلسطين، يقول عن سفر يشوع: «**إن البينات الأركيولوجية**[1] **غير مقنعة، وتتعارض في معظمها مع الرواية التوراتية**»[2].

---

(١) نشرته الهآرتس يوم الجمعة (٢٩/١٠/١٩٩٩) ونشرت ترجمة المقال الحياة الجديدة (٣٠/١٠/١٩٩٩).

(٢) نقلت كلام ديفو عن: فلسطين من أقدم العصور للدكتور معاوية إبراهيم، (١٣/٢).

(٣) المرجع نفسه، (١٣/٢).

(١) الأركيولوجية: نسبة إلى الأركيولوجيا، وهو علم الآثار.

(٢) نقلت كلام الآثاري كالووي عن: آرام دمشق وإسرائيل، للأستاذ فراس السواح، (٩٦).

ولعله لأجل كل هذا الذي مضى جاء العنوان الذي اختاره المؤرخ اليهودي ناداف نيعيمان، لمقاله الذي نشره في زاوية الأدب من صحيفة الهآرتس الإسرائيلية: ((**لِتُزال التوراة من رفوف المكاتب اليهودية**))(٣)، ولعله لأجل ذلك أيضا قال الدكتور نورمان كانتور، أكبر كُتّاب التاريخ اليهودي: ((**إن التوراة شيء ينتمي إلى عالم الأدب أكثر مما ينتمي إلى عالم التاريخ أو الدين**))(٤).

إن الاستناد على التوراة في علم التاريخ سيؤدي حتما إلى شناعة فكرية كبرى، وبشاعة سلوكية عظمى، ينبثقان عن تصوِّر مخلول للتاريخ الماضي، يجثم على العقل الإنساني وعلى السلوك البشري، حينما يقومان على التوراة المحرفة المتناقضة مع التاريخ نفسه، والجامعة للثقافات غير المتجانسة.

إننا ننتهي من هذا الفصل الوجيز إلى أن التوراة لا يمكن أن تكون مصدرا للتاريخ الفلسطيني والإسرائيلي فضلا عن التاريخ البشري عامة، وإلى أنها أعجز من أن تثبت بها حقوق لناس أو لشعوب أو لأمم، أو أن تُنفى بها حقوق لآخرين، وذلك بعد أن أثبتت البحوث عجزها التاريخي.

ونخلص أن تاريخ إسرائيل القديم بشكله التوراتي، يحتاج إلى مستند من خارج التوراة، بعد أن ثبت أن التوراة عاجزة عن طرح الحقائق، وهذا المستند المقيم خارج التوراة غير موجود في الحقيقة، وهذه حقيقة مُرَّةٌ إسرائيليا، إذ لا مجال لإثبات تاريخ قديم للشعب الإسرائيلي بشكله التوراتي من خارج التوراة.

وهكذا كشفت الآثار عن فقر التوراة المدقع حينما يراد أخذ الحقائق منها، وستترل التوراة من مقام الحديث في الحقائق والتاريخ، وستعود إلى مكانها اللائق بها، وهو: حديث

---

(٣) ذكره زئيف هيرتسوغ، في مقاله الذي نشرته الهآرتس ١٩٩٩/١٠/٢٩م، ونشرت ترجمته الحياة الجديدة ١٩٩٩/١٠/٣٠م، غير أن هذا النص لم تذكره الحياة الجديدة، وإنما نقلناه عن ترجمة مركز التراث الفلسطيني- بيت لحم، للمقال نفسه.

(٤) نقلت كلام كانتور عن كتاب (اغتيال التاريخ، ١٠) تأليف: حمدان حمدان.

الخرافات.

وإذا رجع القارئ الكريم إلى الفصل الأول الذي أثبتنا فيه نقلا عن المصادر المتخصصة أن التوراة مستقاة من مصادر بشرية لا صلة لها برب العالمين، وإلى بعض الأمثلة التي أثرناها في هذه المسألة؛ وإذا أضاف القارئ إلى ذلك ما ذكرناه في الفصل الثاني السابق لفصلنا هذا، من تأكيد على اضطراب كبير وزمان طويل للغاية في كتابة وتدوين التوراة، أفقدت الثقة بها ككتاب تاريخي؛ وكذا ما كشفناه من حقيقة ضياع توراة موسى عليه السلام؛ ثم إذا أضاف القارئ الكريم إلى كل ذلك ما ذكرناه في فصلنا هذا من كلام الآثاريين والمؤرخين والفلاسفة المتخصصين، وبعضهم يهود، الذين أكدوا جميعا عجز التوراة تاريخيا؛ وإذا مزج بكل ذلك ما ذكرناه في الباب الثالث تحت عنوان: علم الآثار بين الانحياز والموضوعية، تحديداً الفصلين الرابع والخامس منه؛ إذا رجع القارئ الكريم إلى كل ما ذكرناه من هذا وذاك، ومزج فيما بينه، فسيخرج بنتيجة قطعية قوامها: **لا يمكن أن تكون التوراة مصدرا تاريخيا!**

وهكذا تلتقي جهود الباحثين اليهود بجهود المتخصصين بالدراسات الآثارية والتوراتية.

الخاتمة

ها قد انتهينا من أبواب وفصول هذا البحث..

وجُلْنا في بحوثه جولاتٍ وجولاتٍ، واستنطقنا الأرض، وسألناها سؤال الواله بالحقيقة، فما كان من الأرض إلا أن أعلنت عبر تاريخها الحقيقي اللاتوراتي، وعبر ما ألقت به آثارها مما أبقته يد الزمان، أعلنت انتماءً واحدا لها، ألا وهو: الانتماء للعرب والمسلمين.

أما انتماؤها إلى العرب، فهو بحكم ما تحدث عنه التاريخ غير المقيد بالأساطير التوراتية، وبحكم ما نطقت به الآثار.

وأما انتماؤها إلى المسلمين، فهو بحكم أسبقية التوحيد التي تحدثنا عنها في بعض فصول هذا الكتاب، وبحكم أن أهلها العربَ ألقَوْا بأنفسهم في حمى الإسلام، يوم قدم الفاتح والمحرر العربي المسلم من الحجاز، فحرر الأرض من الرومان، فحينها، بل قبل ذلك الحين بزمان قريب، ألقى العربي الفلسطيني الذي ابتعد أجيال من أجداده عن جادة التوحيد، ألقى بنفسه في ظلال التوحيد، ورجع إلى أصله.

ومن ذلك الحين، والأرض لا تعرف إلا الإسلام دينا، والعربية لغة؛ ورغم ما صادفها في طريقها الشائك الطويل من محاولات لسرقتها من هويتها، إلا أنها كانت في كل مرة تعود أقوى انتماء إلى العروبة والإسلام.

وبعد كل هذا الماضي الفلسطيني، جاء دور الحاضر الفلسطيني، فكشف عن غنى ديمغرافي لصالح العرب والمسلمين في فلسطين الحاضر والمستقبل.

ثم إن للقارئ أن يسأل عن مكانة هذه الأرض لدى العرب والمسلمين، ونقول له: إن بحثا قد أعان الله عليه، وهو بحمده سبحانه سيخرج قريبا إن شاء الله تعالى، وربما مع هذا

البحث، يتضمن التفصيل في هذه المكانة.

هذا، ورجائي من كل قارئ أن يكرمني بدعوة في ظهر الغيب، وأن يُرشدني إلى مـــا يراه من أخطاء في هذا البحث، لأُتابع تصحيحها في طبعات مقبلة إن شاء الله تعالى، وله مني الشكر، ومن الله تعالى الأجر والثواب.

أسأل الله تعالى أن يكون بحثي هذا في ميزان حسناتي، وأن يجعله علما يُنتفع به، ليأتيني ثوابه في قبري، وأسأله سبحانه أن يصرف عني خبث الرياء، وأن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مراجع البحث

القرآن الكريم

إبراهيم الفني

التسوية الشرقية للمسجد الأقصى، مركز القدس للأبحاث، القدس، ١٩٩٧م.

إحسان عباس

تاريخ دولة الأنباط، دار الشروق، عمان، ١٩٨٧م.

أحمد ارحيِّم هبّو

تاريخ الشرق القديم، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، اليمن، ١٩٩٩م.

أحمد بن عبد الله بن إبراهيم الزغيبي

العنصرية اليهودية، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٩٩٨م.

أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني

المسند، تحقيق: أحمد محمد شاكر، أكمل تحقيقه: حمزة أحمد الزين، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٥م.

أحمد سوسة

العرب واليهود في التاريخ، العربي للطباعة والنشر، دمشق، بلا تاريخ.

أحمد صدقي الدجاني

ملاحظات على تطور حياة اليهود في فلسطين حتى الفتح الإسلامي، وقد نُشر ضمن أبحاث المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، الجامعتان الأردنية واليرموك، ١٩٨٣م.

أحمد عادل كمال

الطريق إلى دمشق، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٥م.

أحمد عبد الرحيم السائح

بحوث في مقارنة الأديان، دار الثقافة، قطر، ١٩٩١م.

أحمد عبد الوهاب

اختلافات في تراجم الكتاب المقدس، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، ١٩٨٧م.

أرمسترونج، كارين

القدس مدينة واحدة، عقائد ثلاث، ترجمة: فاطمة نصر، ومحمد عناني، منشورات: سطور، القاهرة، ١٩٩٨م.

إسحاق موسى الحسيني

مدينة القدس، عروبتها، ومكانتها في الإسلام، دار القلم، بيروت، ٢٠٠٠م.

أسماء عبد الهادي فاعور

فلسطين والمزاعم اليهودية، دار الأمة، بيروت، ١٩٩٥م.

الآلوسي، محمود الآلوسي البغدادي.

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الفكر، بيروت، بلا تاريخ.

أمين المدني

التاريخ العربي وبدايته، تهامة للنشر، السعودية، ١٩٨١م.

البخاري، محمد بن إسماعيل

صحيح البخاري، مطبوع مع فتح الباري، للحافظ ابن حجر، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٩٨٧م.

بريستيد، جيمس هنري

العصور القديمة، ترجمة: داود قربان، المطبعة الأمريكانية، ١٩٣٠م.

بطرس البستاني

دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت، بلا تاريخ.

بوكاي، موريس

دراسة في الكتب المقدسة، دار المعارف، لبنان، ١٩٧٧م.

بيان نويهض الحوت

فلسطين القضية الشعب الحضارة، دار الاستقلال، بيروت، ١٩٩١م.

بيكر، وليم و.

سرقة أمة، ترجمة سهيد زكّار وعدنان برنية، دار حسان، دمشق، ١٩٨٥م.

الترمذي، محمد بن عيسى

سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وأتم تحقيقه: إبراهيم عطوة عوض، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٥م.

تومبسون، توماس

التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ترجمة صالح علي سوداح، بيسان، بيروت، ١٩٩٥م.

جارودي، روجيه

فلسطين أرض الرسالات الإلهية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار التراث، القاهرة، بلا تاريخ.

الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ترجمة: محمد هشام، دار الشروق، القاهرة،

١٩٩٩م.

جمال البدوي

الجسر، الأحزاب الدينية الإسرائيلية، منشورات مدبولي الصغير، القاهرة، ٢٠٠١م.

جواد حمد

نجاح إسرائيلي واضح نحو التهويد جغرافيا وسكانيا، نشره موقع قناة الجزيرة، بتاريخ ٢٠٠١/١٠/١م.

جواد علي

تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد، ١٩٩٣م.

الحاكم النيسابوري

المستدرك مع ملخصه للذهبي، دار المعرفة، بيروت، بلا تاريخ.

حتي، فيليب

تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة: جورج حداد، وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، بلا تاريخ.

حسن ظاظا

الساميون ولغاتهم، دار القلم، دمشق، ١٩٩٠م.

القدس مدينة الله أم مدينة داود، دار القلم، دمشق، ١٩٩٨م.

حسين عمر حمادة

آثار فلسطين بين حرب الهياكل العظمية التوراتية اليهودية، ووثائق الاستكشافات الأثرية العلمية، والإدانة الدولية، دار قتيبة، دمشق، ١٩٩٣م.

حمدان حمدان

اغتيال التاريخ،

أبو حيان الأندلسي

البحر المحيط، تحقيق: عادل عبد المجود، وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م.

خيرية قاسمية

بيت المقدس، وأكناف بيت المقدس، صراع الهوية والأرض، ولقد نشرته لجنة يوم القدس، وذلك ضمن ما نشرته من وقائع ندوتها العاشرة، والمنعقدة في عمّان، من ٢-٤/١٠/١٩٩٩م.

صندوق استكشاف فلسطين، نُشر ضمن أبحاث المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، نشرته الجامعة الأردنية،

الرازي، فخر الدين محمد بن عمر بن حسين.

مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، ١٩٨١م.

رفيق البستاني وفيليب فارج

العالم العربي، أطلس معلومات، ترجمة: مصطفى فودة، وريشار جاكمون، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٩٤م.

رفيق شاكر النتشة

الاستعمار وفلسطين، نشر دار الجليل، عمان، ١٩٨٤م.

الزمخشري، محمود بن عمر المعتزلي.

تفسير الكشاف، (الكشاف عن حقائق التتريل وعيون التأويل) مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٢م.

أبو السعود، محمد بن محمد العَمادي

تفسير إبي السعود المسمى: (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) دار إحيـــاء التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ.

ابن سعيد الأندلسي، علي بن موسى بن محمد.

نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق: نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عما، ١٩٨٢م.

السمين الحلبي، أحمد بن يوسف

الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: محمد أحمد الخراط، دار القلم، دمشق، ١٩٨٦م.

سيد حسين العفاني

واقدساه، مكتبة معاذ بن جبل، بني سويف، ٢٠٠١م.

سيد فرج راشد

القدس عربية إسلامية، دار المريخ، الرياض، ١٩٨٦م.

شاحاك، إسرائيل

تاريخ اليهود، الديانة اليهودية، وطأة ٣٠٠٠ عام.

شفيق مقار

قراءة سياسية للتوراة، رياض الريس، لندن، ١٩٩١م.

شوقي أبو خليل

الحضارة العربية الإسلامية، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٤م.

صابر طعيمة

التراث الإسرائيلي، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٩م.

الصالحي الشامي، محمد بن يوسف

سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.

الطبري، محمد بن جرير

جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م.

ظفر الإسلام خان

تاريخ فلسطين القديم، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٢م.

عادل سيد مصطفى

اليبوسيون في القدس القديمة، المطبوع ضمن أبحاث الندوة الدولية (القدس التاريخ والمستقبل) المنعقدة في مركز دراسات المستقبل، جامعة أسيوط، ٢٩/١٠/١٩٩٦م.

عارف العارف

تاريخ القدس

المفصّل في تاريخ القدس، مطبعة المعارف، القدس، ١٩٩٦م.

ابن عاشور، محمد الطاهر بن عاشور

التحرير والتنوير، بلا ذكر للناشر والتاريخ ومكان النشر.

عباس محمود العقاد

الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٦م.

عبد الحميد الصيد الزنتاني

فلسطين عربية بقدسها ومدنها وقراها، الندورة التي عقدتها الأكاديمية المغربية بعنوان: (القدس، أنقطة قطيعة، أم مكان التقاء؟) وذلك في الفترة من ٦-٨ شعبان ١٤١٩هـ.

عبد الوهاب عبد السلام طويلة

الكتب المقدسة في ميزان التوثيق، دار السلام، القاهرة،

عبد الوهاب المسيري

موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٩م.

هجرة اليهود السوفييت، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٠م.

عبودي، هنري س.

معجم الحضارات السامية، جروس برس، طرابلس، لبنان، ١٩٨٨م.

عزمي عبد محمد أبو عليان

القدس بين الاحتلال والتحرير، مؤسسة باكير، الزرقاء، ١٩٩٣م.

علي عبد الواحد وافي

فقه اللغة، دار نهضة مصر، القاهرة، بلا تاريخ.

فارج، فيليب فارج، ويوسف كرباج

المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي، ترجمة بشير السباعي، سينا للشر، القاهرة، ١٩٩٤م.

فاروق عمر فوزي، ومحسن محمد حسين

الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط، دار الشروق، عمان، ١٩٩٩م.

الفاسي، محمد بن أحمد بن علي

شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥م.

فتحي محمد الزغبي

تأثر اليهودية بالأديان الوثنية، دار البشير، طنطا، ١٩٩٤م.

فراس السواح

آرام دمشق وإسرائيل، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٥م.

الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٧م.

فرانكن، هنكريوس

القدس في العصر البرونزي، ضمن الأبحاث التي نشرها الدكتور كامل جميل العسلي بعنوان: القدس في التاريخ، عمان، ١٩٩٢م.

القرطبي، محمد بن أحمد ابن فرْح الأنصاري الأندلسي.

الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ.

كاهن، كلود

الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة: أحمد الشيخ، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٥م.

كتن، هنري

القدس الشريف ترجمة: نور الدين كتانة، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٩م.

ابن كثير، إسماعيل بن كثير

البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٧م.

تفسير القرآن العظيم

قصص الأنبياء

لطفي عبد الوهاب يحيى

العرب في العصور القديمة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨م.

ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني

سنن ابن ماجه، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٦م.

محمد بيومي مهران

تاريخ العرب القديم، مكتبةالمعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨م.

محمد جلاء إدريس

أورشليم القدس في الفكر الديني الإسرائيلي، مركز الإعلام العربي، الجيزة، ٢٠٠١م.

محمد ذياب أبو صالح

الخليل عربية إسلامية، دار اللأيتا الإسلامية، القدس، ٢٠٠٠م.

محمد ضيف الله بطاينة

دراسات وبحوث في جوانب من التاريخ الإسلامي، مكتبة المنار، الزرقاء، ١٩٨٦م.

محمد عبد القادر خريسات

دور العرب المتنصِّرة في الفتوحات، ضمن أعمال المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، الجامعتان الأردنية واليرموك، عمان، ١٩٨٧م.

محمد عبد الله دراز

الدين، دار القلم، الكويت، ١٩٧٠م.

محمد عزب دسوقي

القبائل العربية في بلاد الشام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م.

محمد عزت دروزة

تاريخ الجنس العربي، المكتبة العصرية، صيدا، ١٩٦٢م.

محمد علي البار

تحريف التوراة وسياسة إسرائيل التوسعية، دار القلم، دمشق، ١٩٩٨م.

محمد محمد شراب

بيت المقدس والمسجد الأقصى، دار القلم، دمشق، ١٩٩٤م.

معجم بلدان فلسطين، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٨٧م.

محمود مصالحة

المسجد الأقصى المبارك وهيكل سليمان، القدس الشريف، ١٩٩٧م، بدون دار نشر.

مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري

صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، رقّمه وخرّج أحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، حققه: عرفان حسونة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م.

مصطفى حلمي

الإسلام والأديان، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٩٩٠م.

مصطفى مراد الدباغ

بلادنا فلسطين، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٨م.

معاوية إبراهيم

فلسطين من أقدم العصور إلى القرن الرابع قبل الميلاد، ضمن بحوث الموسوعة الفلسطينية- قسم الدراسات الخاصة، بيروت، ١٩٩٠م.

ناصر الدين الأسد

القدس ٥٠٠٠، الأكاديمية المغربية في الفترة من ٦-٨ شعبان ١٤١٩هـ

نتنياهو، بنيامين

مكان تحت الشمس، ترجمة: محمد عودة الدويري، دار الجليل، عمان، ١٩٩٥م.

الندوة العالمية للشباب المسلم

فلسطين الوعد الحق،

النسائي، محمد بن شعيب

سنن النسائي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٧م.

هاني أبو الرُّب

تاريخ فلسطين في صدر الإسلام، منشورات بيت المقدس، القدس، ٢٠٠٢م.

ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري.

السيرة النبوية، المعروفة بسيرة ابن هشام، تحقيق وتخريج: جمال ثابت ومحمد محمود وسيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٨م.

هيئة الموسوعة الفلسطينية

الموسوعة الفلسطينية، القسم المعجمي، دمشق، ١٩٨٤م.

وايتلام، كيث

اختلاق إسرائيل القديمة، ترجمة: سحر الهنيدي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٩م.

وليد العمري وتيسير البلاسي

خلفيات وآثار هجرة اليهود السوفيات، دار العودة، القدس، ١٩٩٠م.

ياسين سويد

التاريخ العسكري لبني إسرائيل من خلال كتابهم، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر،

بيروت، ١٩٩٨م.

ياقوت الحموي

معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.

يوسف الحسن

البعد الديني في السياسة الأمريكية، مركز دراسات الوحدة، بيروت، ١٩٩٠م.

ثانيا: الدوريات:

جريدة القدس المقدسية، الأعداد الصادرة فيما بين ١٥/٢/٢٠٠٢-٢٠/٢/٢٠٠٢م، والعدد الصادر بتاريخ ١٥/٦/٢٠٠٢م.

مجلة صامد، الأعداد (٨٥)، (١١٠) الصادرة على الترتيب في الأعوام ١٩٩١، ١٩٩٧م.

مجلة المجتمع، العددان (١٣٠٠)، (١٣٠٤).

مجلة كلية دار العلوم، العدد (٢٠) الصادر عام ١٩٩٦.

جريدة الحياة الجديدة، ٣٠/١٠/١٩٩٩م.

مجلة قضايا إسرائيلية، العدد (٢) الصادر عام ٢٠٠٢م.

مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد (٣٨)، الصادر عام ١٩٩٩م.

ثالثا: مواقع الإنترنت:

مجلة آفاق في موقعها على الإنترنت، http//www.aafaq.org/fact/ .

موقـــــــع اتحـــــاد الكتـــــاب العـــــــرب، http://www.awu-dam.org/book/indx-study.htm .

الإسلام على الإنترنت، http://www.islam-online.net

قناة الجزيرة، http://www.aljazeera.net/

المشهد الإسرائيلي، http://www.almash-had.org/

رابعا: مكالمات هاتفية ومحاضرات:

مكالمة هاتفية أجريتها فيما بيني وبين الدكتور أحمد صدقي الدجاني : تعـالى يـوم الجمعة ١٤/٦/٢٠٠٢م

مكالمة أجريتها مع المتخصص في علم الآثار الفلسطينية الدكتور مروان أبـو خلـف بتاريخ ٢٢/٦/٢٠٠٣م.

محاضرة للأستاذ ناجح بكيرات المنقِّب الآثاري المقدسي عن الحفريات حول المسجد الأقصى، ألقاها في مسجد الأنصار بالخليل، بتاريخ ٧/٦/٢٠٠٢م.

فهرس المباحث

الباب الأول:الصراع حول الماضي الفلسطيني........................... ١٦

الفصل الأول: مؤامرة تجريد فلسطين من ماضيها العربي() ٢٠

المبحث الأول: تجريد فلسطين من ماضيها العربي ٢٢

المبحث الثاني:التقسيم التوراتي لتاريخ فلسطين القديم.....................٣٦

الفصل الثاني: ادعاء السبق الحضاري اليهودي في فلسطين ٤٠

المبحث الأول: دعوى السبق الحضاري اليهودي في فلسطين القديمة ٤٢

المبحث الثاني: منشأ الكتابة كنعاني وليس يهوديا ٤٨

المبحث الثالث: الآثاريون والمؤرخون ينفون دعوى السبق الحضاري اليهودي ٥٢

الفصل الثالث: لِمَ كل هذا الصراع على فلسطين القديمة؟ ٦٢

الباب الثاني:انتماء فلسطين إلى العرب والمسلمين........................ ٦٨

التمهيد لهذا الباب: ساميون أم عرب؟ ٧٢

الفصل الأول: مدينة القدس إسلامية الجذور............................ ٧٨

الفصل الثاني: عروبة النشوء الفلسطيني.................................. ٩٨

المبحث الأول: فلسطين عربية المنشأ.................................. ١٠٠

المبحث الثاني: الجزيرة العربية هي منشأ الشعوب العربية ١٠٨
المبحث الثالث: إيغال مدينة القدس في القِدَم......................... ١١٤
الفصل الثالث: أسبقية الوجود العربي على الوجود اليهودي ١٢٤
المبحث الأول: الوجود العربي في فلسطين مقارنة بالوجود الإسرائيلي . ١٢٦
المبحث الثاني: أقدمية نشوء القدس على الوجود اليهودي نفسه ١٣٠
الفصل الرابع: عروبة سكان فلسطين قبل تحرير الإسلام لها ١٣٦
المبحث الأول: العرب هم سكان فلسطين قبل التحرير والفتح الإسلامي١٣٨
المبحث الثاني: استقبال عرب فلسطين للمحرر العربي المسلم ١٤٤
الفصل الخامس: سكان فلسطين المعاصرون ١٥٦
المبحث الأول: تصوُّر نتنياهو للمسألة................................ ١٥٨
المبحث الثاني: عجز الهجرة اليهودية عن تغيير ديمغرافي طويل الأمد ... ١٦٤
المبحث الثالث: عجز القدرة الإنجابية اليهودية عن هذا التغيير ١٧٦
المبحث الرابع: عروبة سكان فلسطين المعاصرين ١٨٤
المبحث الخامس: معظم العرب الفلسطينيين مسلمون ١٩٠

الباب الثالث:علم الآثار وفلسطين القديمة، بين الانحياز والموضوعية ١٩٦

الفصل الأول: تحيُّزُ جماعة علماء الآثار() ٢٠٠
المبحث الأول: الاعتراف بالتحيّز.................................. ٢٠٢
المبحث الثاني: أمثلة من الآثاريين المتحيِّزين وتأثيراتهم ٢٠٦

المبحث الثالث: جهة التحيُّز عند هؤلاء الآثاريين ٢١٦

الفصل الثاني: صندوق استكشاف فلسطين، مثال التحيُّز ٢٢٢

الفصل الثالث: يتخذون السراب حجة وبرهانا ٢٣٢

الفصل الرابع: آثاريون يهود وغربيون ينفون الدعاوى اليهودية.......... ٢٤٠

المبحث الأول: نتائج الحفريات الآثارية عموما ٢٤٤

المبحث الثاني: نتائج الحفريات الآثارية في مدينة القدس ٢٥٤

المبحث الثالث: شهادات ناطقة بعدم وجود الهيكل.................... ٢٦٠

الفصل الخامس: سفر يوشع التوراتي وعلم الآثار() ٢٧٠

المبحث الأول: استعراض لبعض مضمون سفر يوشع بن نون عليه السلام٢٧٢

المبحث الثاني: انهيار سفر يوشع أمام الحقائق الآثارية.................. ٢٧٨

الباب الرابع:عروبة فلسطين في لغتها وأسمائها ٢٩٠

الفصل الأول: عروبة فلسطين في لغتها..................................... ٢٩٤

المبحث الأول: العربية أول المعروف في فلسطين القديمة ٢٩٦

المبحث الثاني: اللغة الآرامية عربية أصيلة................................. ٣٠٠

المبحث الثالث: استمرار اللغة العربية تحت الاحتلالات ٣٠٦

الفصل الثاني: عروبة فلسطين في أسمائها................................... ٣١٢

المبحث الأول: التسميات القديمة لفلسطين................................. ٣١٤

المبحث الثاني: التسمية بالاسم فلسطين ٣١٨

المبحث الثالث: مصدر الاسم فلسطين لدى التوراتيين ٣٣٢
المبحث الرابع: عروبة أسماء القدس منذ القِدَم() ٣٤٢
المبحث الخامس: اسم القدس القديم وإيحاءاته الوثنية ٣٤٨

الباب الخامس: دعاوى الوعد الديني والحق التاريخي اليهوديَّة في الميزان. ٣٥٨

الفصل الأول: أسطورتا الوعد الديني والحق التاريخي ٣٦٤
الفصل الثاني: قراءة في نصوص التوراة التي تحمل فكرة الوعد ٣٧٢
المبحث الأول: قراءة نصّيّة للوعد المُدَّعى في التوراة.................. ٣٧٤
المبحث الثاني: المنشأ اليهودي البابلي لفكرة الوعد ٣٨٦
الفصل الثالث: تأسيس الكُتّاب اليهود للحق التاريخي، (نتنياهو نموذجا) . ٣٩٦
الفصل الرابع: اليهود المعاصرون ليسوا بني إسرائيل ٤٠٨

الباب السادس:أسطورتا الوعد بالأرض والحق فيها تحت المجهر الإسلامي٤١٢

الفصل الأول: فكرة الوعد بالأرض، رؤية إسلامية() ٤١٦
الفصل الثاني: فكرة الحق التاريخي، رؤية إسلامية ٤٣٧

الباب السابع:التوراة كمصدر للتاريخ() ٤٦١

الفصل الأول: التوراة الحالية مجمع خرافات وثقافات الماضين ٤٦٧
الفصل الثاني: طول الأمد بين نزول التوراة وتدوينها ٤٧٣

المبحث الأول: تدوين التوراة.. ٤٧٥

المبحث الثاني: ضياع التوراة.. ٤٨٧

الفصل الثالث: عدم صلاحية التوراة كمصدر تاريخي ٤٩٣

الخاتمة.. ٥٠٥

مراجع البحث ٥٠٧

فهرس المباحث ٥٢١